مكتبة

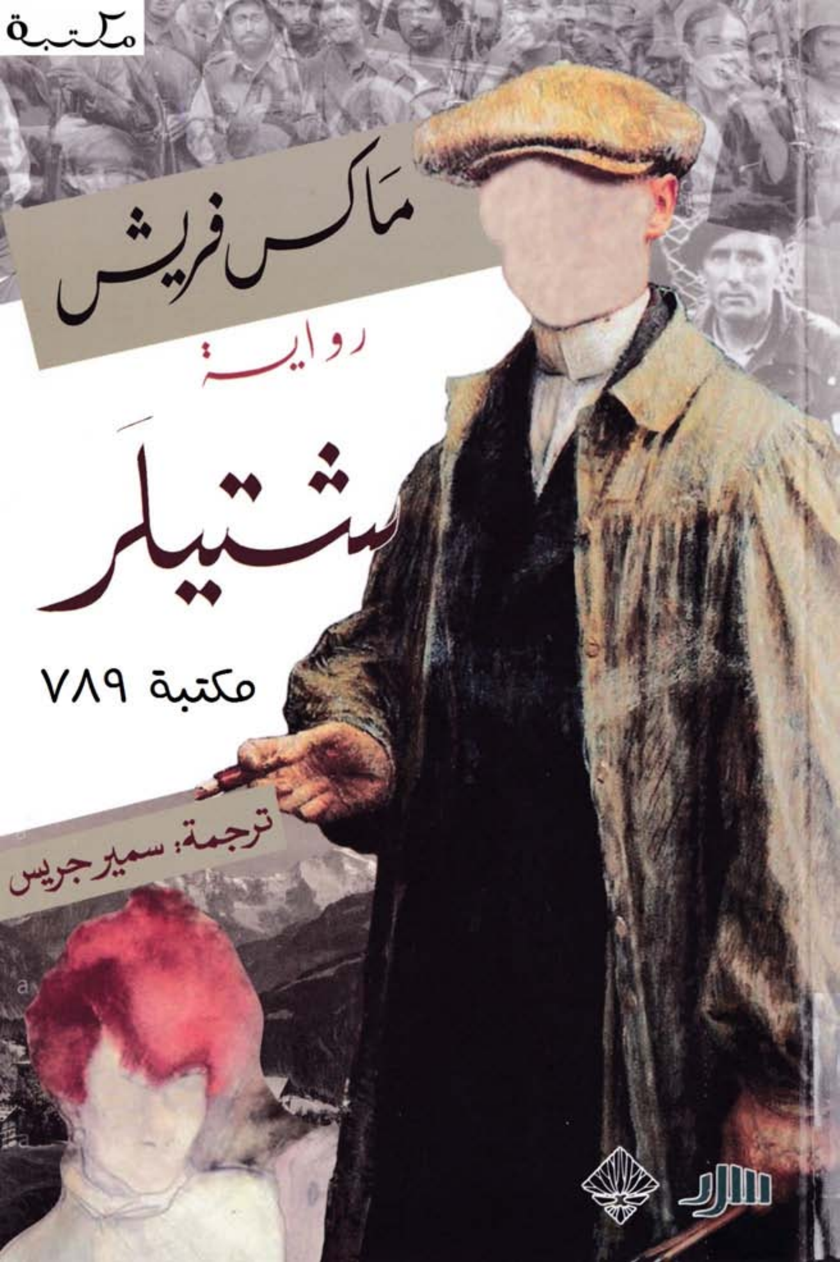

ماكس فريش

رواية

شتيلر

مكتبة ٧٨٩

ترجمة: سمير جريس

مكتبة | 789
سُر مَن قرأ

شتيلر

شتيلر - رواية
تأليف: ماكس فريش
ترجمها عن الألمانية: سمير جريس

Stiller
Max Frisch

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢٢١٨

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
978 - 9933 - 641 - 27 - 6 :ISBN
الطبعة الأولى: 2021

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1954
All rights reserved by and controlled through Suhrkamp Verlag Berlin.

ماكس فريش

مكتبة | 789
سُر مَن قرأ

شتيلر

رواية

ترجمها عن الألمانية:
سمير جريس

prohelvetia

The translation of this work was supported by Pro Helvetia, Swiss Arts Council.

يتوجّه المترجم بالشكر إلى «الصندوق الألماني للمترجمين» لدعمه خلال العمل على هذا النص، وذلك في إطار برنامج «بداية جديدة للثقافة» الذي أطلقته مفوّضة الدولة لشؤون الثقافة والإعلام.

Deutscher Übersetzerfonds

NEU START KULTUR

تستند هذه الترجمة على الطبعة التالية من الرواية:

Max Frisch: Stiller, Suhrkamp Verlag, Frankfurt/M. 2008

وقد صدرت الطبعة الأولى عن دار زوركامب، في فرانكفورت، عام 1954.

الجزء الأول

مذكّرات شتيلر في السجن

«أُنظر، ولذا فمن الصعب جدّاً أن تختار نفسك، ففي هذا الاختيار تقترن العزلة المطلقة بالديمومة في أعمق صورها، وعبر هذا الاختيار تُستبعَد تماماً إمكانية أن تصبح شيئاً آخر، أو بالأحرى أن تتغيّر عبر الحكي إلى شيء آخر.

وباستفاقة شغف الحرية في أعماق المرء (والشغف يستفيق في الاختيار، كما أن الاختيار يفترض وجود الشغف)، فإن المرء يختار ذاته، ويكافح من أجل هذه الملكية، وكأنه يكافح من أجل خلاصه، وهي خلاصه».

كير كيغارد Kierkegaard، «**إما... أو**»

الكرّاسة الأولى

مكتبة
t.me/t_pdf

لستُ شتيلر!

يوماً بعد يوم، ومنذ إيداعي هذا السجن الذي سأصفه لاحقاً، أردّد ذلك، وأقسم على ذلك، وأطلب الويسكي وإلا رفضت الإدلاء بأيّ أقوالٍ أخرى. فمن دون ويسكي -هذه هي خبرتي- لا أكون أنا ذاتي، بل أميل إلى الوقوع صريع كلّ التأثيرات الجيدة الممكنة، أميل إلى تأدية دورٍ مناسب لكم تماماً، لكن هذا الدور ليس له أدنى علاقة بي؛ ولأن كلّ ما يهمّني في وضعي العبثي الآن (إنهم يعتبرونني مواطناً مفقوداً من مواطني مدينتهم الصغيرة!) هو ألّا أسمح لهم بإقناعي بثرثرتهم، وأن أقابل باحتراسٍ كلّ محاولاتهم اللطيفة الرامية إلى إدخالي في جلد إنسان غريب، وأن أظلّ ثابتاً على موقفي إلى درجة الفظاظة؛ أقول: لأن كلّ ما يهمّني هو ألّا أكون أحداً آخر غير الإنسان الذي هو في الحقيقة، وللأسف الشديد: أنا، فلن أتوقف عن الصراخ طالباً الويسكي كلّما اقترب أحدٌ من زنزانتي. بالمناسبة، لقد كان عليّ قبل أيام أن أبلغهم بأنه ليس من اللازم أن يكون الويسكي من أجود الأنواع، يكفي أن يكون نوعاً معقولاً، وإلا ظللت واعياً منتبهاً، وليحقّقوا معي عندئذٍ كما يريدون، ولن يخرجوا مني بشيء، على الأقلّ لن يخرجوا بشيء حقيقي.

لكن من دون جدوى! يحضرون لي اليوم هذه الكرّاسة المكدّسة بالأوراق البيضاء: عليّ أن أدوّن حياتي! بالتأكيد للبرهنة على أن لي حياةً، حياة أخرى غير حياة السيد المفقود شتيلر الذي يدّعونه.

قال لي المحامي الذي كلّفه القضاء بالدفاع عني: «اكتب الحقيقة، لا شيء إلا الحقيقة الخالصة والبسيطة! يمكنك في كلّ وقت الحصول على الحبر لإعادة ملء قلمك!».

مرَّ اليوم أسبوعٌ على الصفعة التي أدّت إلى اعتقالي. كنتُ (حسب المحضر) ثملاً إلى حدّ كبير، ولذلك أجد صعوبة في وصف السير الظاهري للأحداث.

قال شرطيّ الحدود: «تعال معي!».

- «من فضلك، لا تعقّد الأمور، قطاري سيواصل السير في أيّ لحظة!».

ردّ شرطي الحدود: «ولكن، مِن دونك».

الطريقة التي انتزعني بها من فوق درجة سلّم القطار، قضت على أيّ رغبة داخلي في الإجابة عن أسئلته. كان يمسك بجواز السفر في يده، وكان الموظّف الآخر الذي يختم جوازات سفر الركّاب لا يزال في القطار. سألتُ: «ما المشكلة في جواز السفر؟!».

لا ردّ. ثم كرّر عدّة مرّات: «لا أقوم إلا بواجبي، أنت تعلم ذلك تماماً».

من دون أن يعير بالاً إلى سؤالي عن سبب المشكلة في جواز سفري -مع أنه جواز سفر أميركي سافرت به حول نصف الكرة الأرضية!- كرّر أمره بلكنته السويسرية: «تعال معي!».

- «من فضلك، إذا لم تُرِد أن تنال صفعةً، يا سيدي، فلا تمسك بكُمّي؛ أنا لا أطيق هذا!».

- «إلى الأمام!».

رغم تحذيري المهذّب والواضح قال شرطي الحدود الشاب، بسحنة شخص متعجرف عجرفةً يحميها القانون، إنهم سوف يخبرونني مَن أنا في الحقيقة، فصفعته. في حركة لولبية تدحرج على رصيف المحطة «الكاب» الأزرق الغامق الذي يضعه فوق رأسه، وابتعد أكثر من المتوقع. لوهلةٍ استولى الاندهاش التامّ على شرطي الحدود الذي بدا الآن، من دون «كاب»، أكثر إنسانيةً عمّا قبل. تملّكه الذهول. لم يكن غاضباً، حتى إنّه كان بإمكاني أن أصعد إلى القطار بسهولة. في تلك اللحظة دارت عجلات القطار، ومن النوافذ تدلّى الملوّحون. باب إحدى العربات ما زال مفتوحاً. لا أعلم لماذا لم أقفز لأركب. كان بإمكاني، حسب ما أظن، نزع جواز السفر من يده، إذ إن الذهول كان قد استولى على الشاب تماماً كما قلت، وكأن روحه تسكن وتستقرّ في ذلك «الكاب» المتدحرج، ولهذا لم يتملّكه الغضب المفهوم إلا عندما توقّف -ذلك «الكاب» المقوّى- عن الدحرجة. انحنيت وسط الناس، وبكلّ جهدي رحت أنفض الغبار، بعض الشيء على الأقلّ، عن «الكاب» الأزرق الداكن ذي الصليب السويسري المثبت عليه كشعار قبل أن أسلّمه إليه. احمرّت أذناه بشدّة. كان الأمر غريباً، لقد سرت خلفه وكأنني مجبر على ذلك بدافع من استقامتي. من دون أن ينطق بكلمة، ومن دون أن يلمسني، وهو ما لم يكن ضرورياً، قادني إلى قسم الشرطة حيث تركوني خمسين دقيقة كاملة أنتظر. قال المفتش: «تفضّل بالجلوس!».

كان جواز السفر على المكتب. تعجّبت على الفور من اللهجة المختلفة التي تكلّم بها، كان يجتهد في أن يكون مهذّباً، لكنّه لم يكن مقنعاً جداً، وهو ما حملني على الاستنتاج بأن جنسيتي الأميركية -بعد نحو ساعة من

فحص جواز سفري- كانت فوق كلّ الشبهات. ليس هذا فحسب، لقد سعى المفتش -وكأنه يريد تعويضي عن فظاظة الشرطي الشاب- إلى إيجاد «فوتيه» من أجلي. قال: «كما أسمع فإنك تتحدّث الألمانية».

- «ولم لا؟».

ابتسم وقال لي: «تفضّل بالجلوس!».

ظللت واقفاً، ثم قلت مفسّراً: «أنا من أصلٍ ألماني، أميركي من أصل ألماني».

أشار إلى «الفوتيه» الشاغر: «تفضّل!».

تردّد لوهلة قبل أن يجلس هو... لو لم أكن لطيفاً وتحدّثت بالألمانية في القطار، لربما كنتُ وفّرتُ على نفسي كلّ هذا! كان راكبٌ آخر، سويسري، قد بادرني بالحديث. لقد كان حاضراً أيضاً كشاهد على صفعتي، هذا المسافر الذي أثار أعصابي منذ باريس. لا أعرف من هو هذا السيد الذي لم أره من قبل قطّ. في باريس دخل إلى المقصورة، وأيقظني بتعثّره في قدمي، ثم وضع حقائبه، واندفع معتذراً بالفرنسية ناحية النافذة المفتوحة لكي يودّع، بلهجته السويسرية، سيدة ما؛ وما كاد القطار ينطلق حتى استولى عليّ شعور مزعج بأنه يتفحّصني. تحصّنت خلف مجلّتي، «النيويوركر»، التي كان واضحاً عليها أنها قُرئت من قبل، والتي كنت أعرف كلّ رسومها الكاريكاتورية، وذلك على أمل أن يفقد جاري في السفر فضوله. كان هو أيضاً يقرأ جريدة، جريدة سويسرية. بعد أن اتفقنا بالفرنسية على إغلاق النافذة، كنت أتجنّب إرسال نظرة كسولة عبر النافذة إلى الطبيعة بالخارج؛ فقد كان من الواضح أن هذا السيد -الذي قد يكون، بالمناسبة، إنساناً جذّاباً- يتحيّن الفرصة لتبادل الحديث، حديث مرتبك من ناحيته إلى درجة أنه لم يكن أمامي في النهاية سوى الذهاب إلى عربة

البوفيه في القطار، حيث جلست خمس ساعات كاملة، احتسيت فيها عدداً من الكؤوس. غير أن اقتراب المعبر الحدودي أجبرني بين ميلوز وبازل على العودة إلى المقصورة. تطلّع السويسري إليّ مرّة أخرى، وكأنه يعرفني. لا أدري ما شجّعه فجأة على بدء الحديث معي؛ ربما لأننا الآن في بلاده. سألني مرتبكاً بعض الارتباك: «معذرة! ألستَ السيد شتيلر؟».

كما قلت، كنت قد احتسيت بعض الويسكي، ولم أفهم سؤاله، فأمسكت بجواز سفري الأميركي في يدي، بينما راح السويسري، بعد أن رجع إلى الحديث بلهجته، يقلّب أوراق مجلّة. وقف خلفنا موظّفان، أحدهما من شرطة الحدود، والآخر يمسك بختم في يده. سلّمت جواز السفر. شعرت الآن بأنني شربتُ كثيراً. نظرا إليّ نظرات ريبة. لم يكن في متاعي القليل أيّ مشكلة. سألني الآخر: «هل هذا هو جواز سفرك؟».

ضحكت في البداية بالطبع. سألته: «ولِمَ لا؟!».

ثم أضفت بنبرة كادت تكون ساخطة: «ما المشكلة في هذا الجواز؟!».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يشكّ فيها أحدٌ في جواز سفري، لا لشيء إلا لأن هذا السيد قد خلط بيني وبين صورة في مجلّته.

قال المفتش مخاطباً هذا السيد: «السيد الدكتور، لا أريد أن أؤخّرك أكثر من هذا، إنني أشكرك على كلّ حال على المعلومات التي قدّمتها».

واقفاً في إطار الباب، بينما كان المفتش المُمتنّ يمسك بالمقبض، أومأ إليّ هذا السيد، وكأن كلّاً منا يعرف الآخر. السيد الدكتور، هناك الآلاف مثله. لم تكن لديّ أدنى رغبة في أن أومئ إليه. عندئذٍ عاد المفتش، وأشار مرّة أخرى إلى الفوتيه، ثم قال: «تفضّل! كما أرى، يا سيد شتيلر، فإنك في حالة سُكر بيِّن!».

– «شتيلر؟ اسمي ليس شتيلر!».

واصل حديثه من دون أن يلتفت إليّ: «آمل أن تفهم، رغم ذلك، ما أريد أن أقوله لك، يا سيد شتيلر!».

هززت رأسي نافياً، وخلال ذلك قدّم لي تبغاً، ما يطلقون عليه سيجاريلو. بالطبع رفضت، لأنه كان من الواضح أنه لا يعرضه عليّ أنا، بل على السيد المدعو شتيلر. كما أنني ظللت واقفاً، في حين أن المفتش كان قد جلس وكأنه سيبدأ حديثاً مسهباً. سألني: «لماذا انفعلت عندما سُئلت عما إذا كان هذا هو جواز سفرك؟».

وراح يقلّب في جوازي الأميركي. قلتُ له: «السيد المفتش، أنا لا أطيق أن يمسك أحدٌ بكُمّي. لقد حذّرت مرؤوسك، شرطيَّ الحدود الشابّ، عدّة مرّات. أشعر بالأسف، سيادة المفتش، لأني اندفعت وصفعته، وبالطبع أنا مستعدّ لأن أدفع الغرامة المألوفة هنا. هذا أمر بديهي. كم تبلغ قيمتها؟».

ابتسم ابتسامة لا تخلو من لطف. «الأمر ليس بهذه البساطة»، هكذا قال مشعلاً لنفسه بعناية «سيجاريلو»، وذلك بأن دحرج السيجاريلو البُنّي بين شفتيه قليلاً، بكلّ استرخاءٍ ودقّة، وكأن الوقت لا يلعب أيّ دور.

- «يبدو أنك رجل معروف جدّاً...».

- «أنا؟ لماذا؟».

- «أنا لا أفهم شيئاً في مثل هذه الأشياء، لكن يبدو أن السيد الدكتور، الذي تعرّف عليك، يحمل لك تقديراً كبيراً جدّاً».

لا جدوى: الخلط قد حدث، وكلّ ما سأقوله الآن، لن يبدو إلا نوعاً من التدلّل، أو التواضع الحقيقي. سألني: «لماذا تسمّي نفسك وايت؟».

تحدّثتُ، وتحدّثتُ. فسألني: «من أين حصلت على جواز السفر هذا؟».

راح يتصرّف كأنه في بيته، فأخذ يدخّن «السيجاريلو» ذا الرائحة البغيضة بعض الشيء، شابكاً إبهاميه في حمالتَيْ سرواله، فالعصر كان

حارّاً رطباً، ثم فتح المفتش -لا سيما أنه لم يعد يعتبرني أجنبياً- بعض أزرار سترته التي لم تكن مناسبة للطقس، في حين راح يتفحّصني من دون أن يسمع كلمة واحدة مما أقول.

قلتُ له: «سيادة المفتش، أنت محقّ، محقّ تماماً، أنا سكران، ولكني أعترض على أن يقوم سيد ما، دكتور ما، لا أعلم من أين أتى...».

- «يقول إنه يعرفك».

- «من أين؟».

ردّ قائلاً: «من المجلّات».

ثم استغلّ فترة صمتي الطافح بالاحتقار لكي يضيف: «الديك زوجة تعيش في باريس. هل هذا صحيح؟».

- «أنا؟ زوجة؟!».

- «اسمها يوليكا».

قلت له موضحاً: «لم آتِ من باريس، سيادة المفتش، بل من المكسيك».

أعطيه البيانات التالية: اسم الباخرة، مدة الرحلة البحرية، ساعة وصولي إلى «لو هافر»، ساعة سفري من «فيرا كروز».

- «هذا ممكن، لكن زوجتك تعيش في باريس. وهي راقصة، إذا كنت فهمت الأمر على نحو صحيح. ويُقال إنها امرأة رائعة الجمال».

التزمت الصمت. أضاف المفتش شارحاً: «يوليكا هو اسمها الفني. يقولون إنها كانت مصابة بداءٍ في الرئة، وكانت تعيش في دافوس. ولكنّها الآن تدير مدرسة باليه، أو شيئاً كهذا، في باريس. هل هذا صحيح؟ منذ ستّ سنوات».

تطلّعتُ إليه من دون تعليق.

- «منذ أن أصبحت مفقوداً».

كنت قد جلست لا إرادياً، حتى أسمع كلّ ما يعرفه قرّاء إحدى المجلّات المصوّرة عن إنسان يبدو -على الأقلّ في عيني دكتور ما- أنه يشبهني، ثم سحبت سيجارة، فأشعلها لي المفتش بعد أن انتقلت إليه عدوى الاحترام والتبجيل اللذين نشرهما ذلك الدكتور في الأجواء.

- «أنت إذاً نحّات!».

ضحكت.

سألني من دون أن ينتظر إجابة: «صحيح؟».

ثم واصل أسئلته على الفور: «لماذا تسافر باسم مستعار؟».

لم يصدّقني حتى عندما أقسمت.

قال لي وهو يُخرج استمارة زرقاء من أحد الأدراج: «أنا آسف يا سيد شتيلر، ولكن إذا ظللت تمانع في إظهار جواز سفرك الحقيقي، فأنا مضطرّ إلى تسليمك إلى الشرطة الجنائية. يجب أن يكون هذا واضحاً لك».

قال ذلك وهو ينفض رماد «السيجاريلو».

- «لستُ شتيلر!».

كرّرت هذه الجملة عندما بدأ يملأ الاستمارة الطويلة بكلّ دقة، لكنّه على ما يبدو لم يكن يسمعني مطلقاً؛ حاولت أن أقول الجملة بكلّ طبقات الصوت؛ قلتها على نحو احتفالي، وعلى نحو موضوعي. أقول: «سيادة المفتش، ليس لديّ جواز سفر آخر!»، أو أضيفُ ضاحكاً: «هذا هراء!».

رغم سُكري كنت أشعر بدقّة تامّة أن تجاهله لي يزداد، كلّما كرّرت الجملة؛ وفي النهاية صرخت: «اسمي ليس شتيلر، اللعنة!».

صرخت وخبطتُ بقبضتي على المكتب.

- «ولماذا تنفعل هكذا؟».

نهضتُ، وقلت له: «سيادة المفتش، أعطني جواز سفري حالاً!».

لم يتطلّع حتى إليّ.

- «أنت مقبوضٌ عليك».

وراح يقلّب بيسراه في جواز سفري حتى ينقل رقم الجواز، وتاريخ الإصدار، واسم القنصل الأميركي في المكسيك، أي كلّ ما تريد الاستمارة الزرقاء معرفته في حالة كهذه، ثم قال بنبرة لا تخلو من الودّ: «تفضّل بالجلوس!».

زنزانتي -لقد قستُها بحذائي الذي يبلغ تقريباً ثلاثين سنتيمتراً- صغيرة مثل كلّ شيء في هذا البلد، نظيفة حتى إن المرء لا يستطيع أن يتنفّس من النظافة، وتثير شعوراً بالضيق، تحديداً لأن كل شيء مضبوط، ومُلائم، وكافٍ. لا أكثر ولا أقل! كل شيء في هذا البلد متوفّر على نحو يثير الضيق. لقد قستها: الطول 3.10 م، العرض 2.40 م، الارتفاع 2.50 م. سجن إنساني، لا يستطيع أحد انتقاد شيء فيه، وهنا تحديداً تكمن الدناءة. لا خيوط عنكبوت، لا آثار للمياه على الجدران، لا شيء يبرّر سخط المرء! هناك زنازين يقتحمها الشعب عندما يسمع عن وجودها، أما هنا فلا يوجد ما يُقتَحم. ملايين من البشر، أعرف ذلك، يسكنون في ظروف أسوأ مني. السرير مزوّد بالنوابض، شمس الصباح تدخل من الشبّاك ذي القضبان، وتظلّ في هذا الوقت من العام حتى الحادية عشرة. للمائدة دُرجان؛ وهناك أيضاً كتاب مقدّس، وأباجورة كبيرة. وإذا أردت قضاء حاجة، فليس عليّ إلا أن أضغط على زرّ أبيض، فيأخذونني إلى المكان المقصود، وهناك لا يستخدم المرء صحفاً قديمة، يمكنه قراءتها قبل ذلك، بل يجد ورقاً طرياً ناعماً. ورغم ذلك فهي زنزانة، وهناك لحظات يشعر فيها المرء برغبته في الصراخ. لكنّه لا يفعل، مثلما لا يفعل ذلك في متجر من المتاجر، بل يجفّف

يديه في منشفة، ويسير على الأرضية المغطّاة بالمشمّع، ويقول شكراً عندما يغلقون الباب خلفه بعد أن يدخل زنزانته. لا أرى شيئاً غير الأوراق الخريفية على شجرة كستناء، ولا أرى شيئاً حتى عندما أصعد السرير ذا النوابض، وهو بالمناسبة (أعني الصعود بالحذاء) من الممنوعات. أكثر ما يعذّبني هو بالطبع الأصوات مجهولة المصدر؛ منذ أن عرفت أن هذه المدينة الصغيرة يسير فيها ترام، استطعت أن أتجاهل ضوضاءه تقريباً. أما الأمر السيّئ فهو كلام المذيع غير المفهوم من راديو الجار، والضجيج الصادر عن عربات جمع القمامة، والدقّ الجنوني على الأبسطة المتصاعد من الأفنية. يبدو أن لدى الناس في هذه البلاد خوفاً مَرَضيّاً تقريباً من القذارة. بالأمس بدؤوا يتحدّثون معي عبر التهتهة الصادرة عن المطرقة الثاقبة، فهم يشقّون بطن أحد الشوارع في مكان ما لكي يعيدوا تبليطه بالأحجار الصغيرة في ما بعد. أشعرُ في كثير من الأحيان بأنني الإنسان الوحيد المعتدل في هذه المدينة الصغيرة. حسب الأصوات القادمة من الشارع، عندما تتوقف المطرقة عن الحفر، فإنهم هنا كثيراً ما يسبّون، ونادراً ما يضحكون. وفي منتصف الليل تقريباً يعلو زعيق السكارى غير المفهوم، فعندئذٍ تُغلق كلّ الحانات. ذات مرّة راح طلبة يغنّون، وكأننا في أعماق الريف الألماني. نحو الواحدة صباحاً يسود السكون. إطفاء الضوء لا يفيد كثيراً؛ فضوء المصباح البعيد في الشارع يدخل زنزانتي، فتتمدّد ظلال القضبان على طول الحائط، ثم تنكسر في السقف، وعندما تهبّ رياح شديدة في الخارج وتؤرجح مصباح الشارع، يكاد المرء يُجنّ من ظلال القضبان المتأرجحة. على الأقلّ ترقد تلك الظلال على الأرضية في الصباح، عندما تشرق الشمس.

من دون حارسي الذي يأتي بالطعام، لن أعرف ما يحدث هنا على الإطلاق. يبدو أن كل قارئ من قرّاء الصحف هنا يعلم مَن هو شتيلر.

وهذا ما يجعل معرفة التفاصيل الدقيقة مستحيلة تقريباً؛ فكلّ شخص يتصرّف وكأن الجميع يعرفون كلّ شيء، في حين أنه هو نفسه لا يعرف إلا معلومات تقريبية.

قال لي الحارس وهو يملأ المغرفة بالحساء: «لفترةٍ ما، على ما أعتقد، بحثوا عنه في البحيرة، ولكن من دون جدوى، وفجأةً قالوا إنه في الفيلق الأجنبي».

ثم شرح لي: «هذا ما يفعله سويسريون كثيرون، عندما يشعرون بالضيق من كلّ شيء هنا».

- «فيتقدّمون إلى الفيلق الأجنبي؟».
- «ثلاثمئة في العام الواحد!».
- «ولماذا الفيلق الأجنبي؟».
- «لأنهم يضيقون بكلّ شيء هنا».
- «واضح، ولكن لماذا الفيلق الأجنبي؟ إنه أسوأ بكثير».
- «الأمر بالنسبة لي سيّان».
- «وزوجته تركها ببساطة، وهي المريضة، راقدةً في دافوس؟».
- «ربما كان الأمر نعمة بالنسبة إليها!».
- «أهذا رأيك؟».
- «الأمر بالنسبة لي سيّان، منذ ذلك الوقت وهي تعيش في باريس».
- «أعرف!».
- «راقصة».
- «أعرف!».
- «امرأة رائعة الجمال».

مكتبة
t.me/t_pdf

سألته وكلّي مشاركة وجدانية: «وماذا عن مرض رئتها؟».

- «شُفيت».

- «من يقول ذلك؟».

- «هي نفسها».

- «ومن أين تعرف كلّ هذه المعلومات؟».

- «مِن أين!».

كرّرها حارسي، ثم أضاف: «من المجلّات المصوّرة».

لم يكن يعرف المزيد.

قال لي الحارس: «تناول طعامك! اشرب الشوربة وهي ساخنة، ولا تفقد أعصابك يا مستر وايت! لا ينتظرون إلا ذلك، هؤلاء السادة الدكاترة، إنني أعرفهم!».

كانت الشوربة -شوربة خضار- جيدة، وعموماً لم يكن الطعام يثير شكواي. أعتقد أن حارسي كان طيّباً معي، على كلّ حال لم يخاطبني قطّ (وهو ما يفعله الآخرون كلّهم!) بـ«هِر شتيلر»، بل بـ«مستر وايت».

يجب عليّ أن أحكي! أحكي حقيقة حياتي، الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة العارية، الخالصة! رزمة من الورق الأبيض، قلم ممتلئ بالحبر أستطيع في كلّ وقت إعادة ملئه على حساب الدولة، إضافة إلى قليلٍ من النيّة الطيّبة: ماذا يبقى أمام الحقيقة غير الرضوخ لي عندما آتي إليها بقلمي؟! إذا التزمت بالوقائع على طول الخط -هكذا يقول محاميّ- فستكون الحقيقة مبذولة أمامنا، وتقريباً دانية القطاف. وإلى أين ينبغي أن تذهب الحقيقة إذاً، عندما أدوّنها؟ أما ما يقصده محاميّ بكلمة وقائع فهو

بالأخص، وعلى ما أعتقد، أسماء الأماكن والتواريخ التي يمكن التأكّد من صحتها، بيانات عن المهنة مثلاً، أو دخلي من أشياء أخرى، ومدة الإقامة، وعدد الأطفال، ومرات الطلاق، والمذهب الديني...إلخ.

ملحوظة:

أين كنتُ في الثامن عشر من يناير 1946؟

المشي في ساحة السجن:

منذ فترة طويلة لم يعد الأمر سيّئاً، ولا مهيناً، مثلما كان المرء يتوقّع، وأنا سعيد حقّاً بأنني أستطيع أن أتمشّى مرّة أخرى، حتى وإن كان ذلك يقتصر على المشي في دوائر فحسب. الساحة واسعة إلى حدّ كبير؛ مبلّطة، وبين البلاطات نمت طحالب، وفي المنتصف شجرة قيقب جميلة، وعلى أحد الجدران نما لبلاب؛ وبالطبع كان من الأشياء الفارقة أننا لم نكن نرتدي ملابس المعتقلين بعد، بل كنّا بثيابنا المدنية التي ألقوا القبض علينا بها. إذا وسّع المرء قليلاً الدائرة التي نتمشّى فيها، فإنه يرى شرفة على سقف أحد المنازل وبها غسيل يرفرف؛ عدا ذلك لا يرى المرء فوق الأسقف المحيطة بنا إلا السماء التي تزدحم بالحمام الهادل. علينا للأسف أن نبقى في طابور واحد، ولهذا يستحيل إجراء حديث حقيقي. يسير أمامي شخص بدين بصلعة لامعة (مثلي) وبثنياتٍ من الشحم على قفاه، وهو يجذّف بذراعيه كلّما كان عليه السير، على الأرجح سجين جديد؛ شبه متخشّب، وشبه شارد الذهن، إذا طالبه حارسٌ لطيف بمواصلة المشي، فإنه يستدير، وهو ما يسبّب له مجهوداً بدنياً، باحثاً بنظراته الصامتة عن أحد يسانده. يسانده على أيّ شيء؟ يسير خلفي رجل إيطالي يحب الغناء

تحت الدشّ، فلا يتمالك الحرّاس أنفسهم من الضحك؛ ثم يلفت الانتباه عندما يأخذ في تقليدي. ذات مرّة ألقيت نظرة إلى الوراء حتى أتعرّف على صورتي؛ الأمر مثير للضحك فعلاً: اليدان خلف الظهر، وضع المفكّر، وكنتيجة لشرود الذهن أخرج دائماً من الطابور، ملامح الحنين إلى الوطن على وجه يرسل نظرات تفيض وحدة تتجاوز السور التالي المبني بالطوب الأحمر، شخص يتخيّل بخجل أنه لا ينتمي إلى هذا المكان، إضافةً إلى ذلك ثمّة لطفٌ مرتبك يميّز المثقّفين. لا بدّ أنها صحيحة، هذه الصورة، على كل حال فحتى اليهودي وجد نفسه يضحك، وهو المثقّف الوحيد بين المساجين الذي يسير للأسف في النصف الآخر من الدائرة، ولهذا لا نستطيع أن نتبادل شيئاً من الحديث إلا عبر الإيماءات والإشارات. يبدو عليه اليأس في ما يتعلّق بالعدالة السويسرية.

وفجأةً، بدأ أحدهم في لعب كرة القدم بحبة بطاطس نيئة. يتبادلون الكرة بمهارة عدّة مرّات إلى أن استطاع رئيس الحرس -وهو رجل منضبط بشدّة ويشعر بالإهانة الشخصية إذا حدث شيء يخالف السلوك المنضبط- الإمساك بحبة البطاطس أخيراً. انتباه! سؤال جادّ: من أين أتت حبة البطاطس؟ نصمت في الدائرة، ونضحك بشماتة. يمرّ بنا رئيس الحرس، وفي يده حبة البطاطس التي أصيبت بعاهات مستديمة، يمرّ بكلّ رجل، وينظر في عينيه، فيهزّ كلٌّ منّا كتفيه. فلتت من رئيس الحرس اللحظة المناسبة لإلقاء حبة البطاطس بعيداً؛ رغماً عنه اكتسب الموضوع أهمّيّة، أهمّيّة مبدئيّة. أشعر أن الأمر كلّه ساخر، وأن رئيس الحرس يحاول جاهداً ألّا يضحك، وأنه سيُخلي سراحنا؛ وفي الوقت نفسه ينتابني شعور: ربما يكونون قد جهّزوا لنا وسيلة تعذيب، وتكفي حبة البطاطس المسروقة لكي يدخلوا علينا بالحديد المتوهّج. وفجأة يطلب اليهودي الكلام. تعلو الضحكات من كل جانب! حتى رئيس الحرس لاحظ أن هذا الاعتراف

(إنه لم يرَ في حياته قطّ يهودياً يلعب كرة قدم) ليس سوى تهكّم منه، وهو أمر أسوأ من سرقة حبة بطاطس غير مطبوخة. على اليهودي أن يخرج من الطابور. كان شاحباً من الانفعال. تحتّم على الآخرين الركض خمس دقائق. راح البدين المسكين أمامي يهتزّ مثل قربة من المطّاط ، فتخلّف عنا بالطبع منذ الدورة الأولى. سار في خطّ لولبي حتى يختصر الطريق، إلى أن قال له أحد الحرّاس إن عليه أن يتوقف. لم تُنتزع الرحمة بعد من قلوب الناس. لكن، بالطبع، لا بدّ من النظام، وبعض الجدّيّة أيضاً. فنحن في خاتمة المطاف سجناء على ذمة التحقيق. أحياناً، وأنا وحدي في زنزانتي، يتولّد لديّ شعور بأنني أحلم بكلّ هذا فحسب؛ شعور بأنني قد أنهض في أيّ وقت، وأُبعد يدي عن وجهي، ثم أتلفّت حولي في حرية، فالسجن ليس إلا داخلي فحسب.

قال لي محاميّ الذي كلّفه القضاء بالدفاع عني: «لقد بذلت جهدي، حتى تكون إقامتك في الحبس الاحتياطي -القصيرة على ما نأمل- مريحة بقدر الإمكان. الويسكي ممنوع! لديك أفضل زنزانة في السجن كلّه، صدِّقني، ليست الأكبر، لكنّها الوحيدة التي تدخلها شمس الصباح؛ أمامك منظر شجر الكستناء العتيق. أما في ما يخصّ قرع أجراس الكاتدرائية، وهو عالٍ جداً، أعترف بذلك؛ ولكن ماذا تنتظر مني! لا أستطيع أن أنقل الكاتدرائية إلى مكان آخر!».

هذا صحيح، تماماً مثل أن كلّ شيء يقوله محاميّ يكون صحيحاً على نحو لا يقنعني قطّ، بل يجعلني دائماً مخطئاً. إن قرع أجراس الكاتدرائية، هذا الدويّ المعدني الذي ينطلق مرّتين في اليوم، على الأقلّ مرّتين، إذا لم يكن ثمّة عقد قران أو جنازات، إنه ضجيج يحول دون أن يسمع المرء

صوت أفكاره، الهواء يرتعش عندئذٍ، زلزال لا يصدر صوتاً، صوت يشبه قفزة الإنسان في الماء من منصّة وثبٍ عالية، صوت يجعلني أصمّ، دائخاً، معتوهاً؛ لكن محاميّ محقّ: لا يستطيع نقل الكاتدرائية إلى مكان آخر! ولأنني أصمت عندئذٍ، أصمت يأساً، فإنه يمسك بملفّه ويقول: «طيّب... فلندخل في الموضوع!».

محاميّ إنسان طيّب القلب، على الأقلّ سليم النيّة، من عائلة محترمة، مستقيم حتى في ملابسه، ليس على سجيّته تماماً، ولكن حتى ذلك يتحوّل إلى أسلوب مميّز؛ وهو في المقام الأول عادل، لا شكّ في ذلك، عادل حتى في الأمور التافهة، عادل إلى حدّ يدفع إلى اليأس، عدله يكاد يكون نابعاً من اقتناعٍ وُلد به بأن العدالة لا بدّ أن تسود، على الأقلّ في دولة القانون، وعلى الأقلّ في سويسرا. كما أنه ليس غبيّاً. إنه غزير المعلومات، وموثوق به كدائرة معارف، لا سيما في ما يتعلّق بسويسرا، ولهذا لا جدوى من الحديث مع محاميّ عن سويسرا؛ كل فكرة تضع سويسرا موضع مساءلة، سيخنقها تحت ركام من الحقائق التاريخية التي لا يمكن إنكارها، وفي النهاية، إذا لم يمتدح المرء سويسرا كما يراها، فإنه يصبح دائماً مخطئاً، فعلاً وحقّاً، مثلما يتضح من قرع أجراس الكاتدرائية. ربما برودة مشاعره هي التي تثير أعصابي إلى أبعد الحدود، سلوكه الصائب، اعتداله. يفوقني ذكاء، لكنّه لا يستخدم ذكاءه كلّه إلا لكي يتجنّب الوقوع في أخطاء. إنني أشعر بالتقزّز تجاه أولئك الناس! لا أستطيع أن أجد فيه عيباً واحداً، وهو يعتبرني إنساناً طيّب القلب، أو على الأقلّ سليم النيّة، إنساناً في جوهره عاقلاً تماماً، ذا نيّة طيبة، إنساناً سويسرياً. من هذا المنطلق يدافع عني، ويجعلني في كلّ مرّة أنفجر غيظاً. عندئذٍ أستدير على كعبي، وأسمح له بالجلوس على سريري، معطياً له ظهري، وصامتاً إلى حدّ الفظاظة، مطلقاً بصري إلى شجر الكستناء

العتيق، وواضعاً يديّ في جيبي سروالي - لا لشيء سوى لأنني لا أستطيع أن أتحمّل أشخاصاً مثله فترة طويلة، أشخاصاً لا يرون في أنفسهم القدرة على ارتكاب جريمة قتل، ولذلك يستبعدون أيضاً قدرتي على ارتكابها.

قال لي: «إنني أفهمك تماماً، أفهمك تماماً! أنت ساخط على سويسرا التي استقبلتك بالحبس الاحتياطي، مفهوم، أعني: سخطك مفهوم، فمن المرارة أن ينظر المرء إلى وطنه من وراء القضبان!».

- «ماذا يعني "الوطن"؟».

قفز على سؤالي الذي لم يكن ثانوياً على الإطلاق، وواصل كلامه: «ولكن، لا تصعّب عليّ دفاعي! بعض الأقوال التي نطقت بها عقب اعتقالك، وصلت للأسف إلى الصحافة. لماذا التحريض؟ لمصلحتك، أرجوك الامتناع من الآن عن إبداء أي نقد تجاه بلدنا، الذي هو في نهاية الأمر وطنك».

- «ماذا قلتُ إذاً؟».

- «الناس هنا حسّاسون للغاية».

هكذا ردّ عليّ بصراحة جميلة، ممتنعاً في الوقت نفسه امتناعاً واضحاً عن أن ينطق بلسانه بأي ملاحظات تنتقد سويسرا، ثم تابع قائلاً: «حتى نظلّ في موضوعنا: لقد قرأت في الفترة الماضية كلّ الملفات، والآن، من لطفك، أخبِرني بخطوط عريضة أين وكيف قضيت هذه السنوات الستّ الأخيرة؟!».

هذا ما يسألني عنه في كلّ مرّة. مع أنني أقسمت إنني لن أدلي بأيّ أقوال من دون ويسكي. سحبَ من حقيبته الجلدية ملفّاً ضخماً، لا يستطيع المرء أن يقلّب في أوراقه مجرّد تقليب قبل أن يزيل المشابك التي تمسكه. ضحكت في وجهه. إنه متأكّد من أن هذا هو ملفّي، ولا أحد يستطيع منعه

من قراءته طوال ساعات. وكأن الملل الذي يصيبني به يوماً بعد يوم ليس نوعاً من التعذيب!

قاطعته اليوم قائلاً: «السيد الدكتور، لقد أتيت لتوّي من المكسيك...».

هذا ما تدّعيه، أعرف.

قلتُ مكرّراً: «... لقد أتيت لتوّي من المكسيك، وصدِّقني: إن الأضحية البشرية الشهيرة لدى "الأزتيك" -الذين ينتزعون القلوب البشرية من الأجساد الحيّة حتى يقدّموها قرابين للآلهة- هذه الأضحية لا شيء، مقارنةً بالمعاملة التي يلقاها الإنسان عند الحدود السويسرية، إذا جاء من غير أوراق -أو بأوراق مزوّرة- لا شيء!».

لم تصدر عنه سوى ابتسامة.

- «أنت تعترف إذاً، يا سيد شتيلر، أن جواز سفرك الأميركي ليس سليماً؟».

- «اسمي ليس شتيلر!».

بهدوء تام وكأنني لم أصرخ في وجهه قال لي: «أخبروني أنك من المحتمل -من المحتمل!- ألّا تكون سوى أناتول لودفيغ شتيلر، المولود في زيورخ، نحّات، ومتزوّج بالسيدة يوليكا شتيلر تشودي، مفقود منذ ستّ سنوات، وآخر محل إقامة في 11 "شتاينغارتن-غاسه"، وقد كُلِّفتُ...».

- «بالدفاع عن السيد أناتول شتيلر».

- «نعم».

- «اسمي وايت».

لكني لا أستطيع توضيح ذلك له، حتى لو كرّرته مئات المرات. يسير حديثنا مثل أسطوانة غرامافون عندما تنزلق إبرة الجهاز في موضع معيّن دائماً إلى المكان نفسه. يسألني: «لماذا، لماذا أنت لست شتيلر؟».

- «لأنني لست هو».

- «ولمَ لا؟! لقد أعطوني معلومات».

وفي النهاية ألتزمُ الصمت. وقته المحدود هو خلاصي الوحيد من هذا الإنسان طيّب القلب الذي يعتبر نفسه محامياً لي، ولهذا يشعر بالإهانة لأنني -وبعد أن قرأ الملف كاملاً- لم أتعاون معه. وفي النهاية يحشر الملف في حقيبته الجلدية حشراً، وبلا كلام يحاول جاهداً إغلاق الحقيبة إلى أن ينجح، ثم ينهض، ويفحص ببصره ما إذا كان قد أخذ كل شيء، القلم الحبر والنظّارة، ثم يمدّ يده ليصافحني، كلاعب تنس خسر المباراة، ويخبرني متى سيعود إليّ في اليوم التالي...

ملحوظة:

مقتنع هو ببراءتي. ما معنى ذلك؟ فجأة يخطر على بالي أن هناك شكوكاً ما تحوم حول شتيلر، المفقود؛ ولهذا فإن لدى السلطات المحلية احتياجاً ملحّاً للعثور على مواطنهم المفقود للكشف عن شيء ما.

كْنوبِل (هكذا يُسمّى حارسي) إنسان طيّب، إنه الوحيد الذي يصدّقني عندما أحكي شيئاً. خلال تنظيفه الزنزانة، أرقد على السرير، إلى أن يعصر الخرقة، ويصفو الماء وكأنه ماء شرب. يبدو أنهم يهتمّون جدّاً بكلّ ما هو ظاهريّ. إنهم هنا ينفضون الغبار حتى عن قضبان الشباك.

يقول حارسي: «إذا كنت أنت نفسك تدّعي أنك قتلت زوجتك...».

في الماضي، قبل 14 عاماً، كان يعمل تاجراً للخضار، كانت لديه عربة يجرّها حصان يتحدّث عنه بكلّ حنان، اسمه روزلي. اعتقدت في البداية أنه يتحدّث عن زوجته. منذ أن ترمّل، يعمل حارساً، ويعتبرني أول شخص

في حياته المهنية كلّها لا يقسم ببراءته في كلّ مرّة، عندما ينظّف له أحدٌ الزنزانة. لم يعد يستطيع سماع ذلك، يقول لي، هذه الثرثرة من رجال كلّهم شرفاء. لا بدّ أن الأمر فظيع. في الزنزانة التالية، كما سمعت، يسكن موظّف في بنك يبكي طوال ساعات، وفي الزنزانة التي تليها قوّاد لا يستخدم هو أيضاً في حديثه إلا عبارات الشرف. أعتقد أن حارسي سعيد بي.

كتاجر خضار -آنذاك كان يئنّ تحت سلطة زوجته- كان على ما يبدو يتخيّل الحبس الاحتياطي تخيّلاً مختلفاً تماماً عن الواقع. كان يعتقد أن المرء يسمع هناك حكايات وحكايات! لكن ولا شيء! إذا أراد الاستماع إلى المجرمين، فعليه الذهاب إلى السينما مثل الآخرين (هذا ما قاله)... وهو يتفهّم أنني لا أحب أن أحكي عن جريمة القتل الأولى التي ارتكبتها، لأن الأمر يدور حول زوجتي. ثم سألني: «لكن جريمة القتل الثانية؟».

أقول له وأنا أنزع قشرة السجق: «جريمتي الثانية كانت أمراً تافهاً، كنت أعلم أنني قاتل، ولهذا لم أكن في حاجة إلى حالة نفسية خاصة لكي أرتكبها. حدث ذلك في الأدغال».

- «هل كنت في الأدغال، مستر وايت؟».

- «نعم، هذا صحيح».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «يا خبر! يا خبر!».

- «أتعرف ما الأدغال؟».

- «فقط من الأفلام الوثائقية، مستر وايت».

- «بالضبط».

ثم أتوقف عن الكلام لفترة طويلة نسبيّاً قبل أن أدخل في الموضوع: «كنت أعرف أن المدعو شميتس يتسكّع في جامايكا، طوال أشهر وأنا أحمل معي الخنجر في رقبة حذائي الأيسر».

- «من هو شميتس؟».

- «المدير شميتس!».

- «لا أعرفه».

- «عضو عصابة زيت الشعر! أتعرف، واحد من ذوي الملايين الذين لا يمكنك الانتصار عليهم في دولة تلتزم بالقانون والنظام».

- «وأنت أدخلت الخنجر في هذا...».

- «طبعاً».

- «يا خبر!».

- «خنجراً هندياً».

وقته يكون في كلّ مرّة محدوداً للأسف، لأنه يهتمّ بأمر ثماني زنازين. يقضي عندي، على كل حال، وقتاً أطول مما يقضيه لدى الآخرين، أولئك الرجال الشرفاء. إنه حقّاً رجل طيب، ففي كلّ مرّة يطعمون فيها المعتقلين الجبن السويسري الذي تجاوز زمن صلاحيته، يحضر لي، من ماله الخاص، سجق البيرة. صحيح أن سجق البيرة ليس طعامي المفضّل، خصوصاً من دون بيرة، فطعم الثوم يلازم المرء حتى بعد مرور ساعات، إذا لم يستطع تحويل فكره إلى أشياء أخرى تماماً؛ لكن لفتته، في حدّ ذاتها، مسّت قلبي.

طلبت السيدة يوليكا شتيلر تشودي، قرينة المفقود، صوراً أفضل حتى توفّر على نفسها عناء رحلة لا فائدة منها من باريس حتى هنا. طوال ثلاثة أرباع ساعة وهم يحاصرونني بمصابيحهم، فيتصبّب المرء عرقاً بالطبع. ثم أسمع بشكل دائم الأمر: «كن على راحتك تماماً!».

أجلس في زنزانتي مسدّداً النظر إلى السور، فأرى الصحراء؛ مثلاً الصحراء الشيواوية على الحدود الأميركية المكسيكية. أرى ذلك القفر العظيم يتفجّر ألواناً مزهرة، حيث لم يعد شيء يزهر، ألوان قيظ الظهيرة، ألوان الفجر، ألوان الليل الدامس. أعشق الصحراء. لا طائر في الجو، لا ماء ينساب، لا حشرة، لا شيء حولك إلا السكون، لا شيء حولك إلا الرمال والرمال ثم الرمال، ليست رمالاً ملساء بل رمالاً مشّطتها الريح وموّجتها، تبدو في الشمس كذهب مُطفأ أو كطحين عظام، وبين مكان وآخر أخاديد تخيّم عليها الظلال، ظلال زرقاء كهذا الحبر، نعم، وكأنها مليئة بالحبر، ولا غيمة واحدة، أبداً، ولا بخار ماء، أبداً، ولا صوت صادراً عن حيوان هارب، أبداً، لا شيء سوى نباتات صبّار متفرّقة يراها المرء هنا وهناك، عمودية، تشبه إلى حدّ ما أنابيب الأرغن، أو حامل شموع بسبع أذرع، لكنّها عالية جداً، نباتات جامدة وساكنة كأنها عمارة، ليست خضراء حقّاً، هي تميل -ما دامت تسطع الشمس- إلى اللون البنّي، مثل الكهرمان، وسوداء مثل فراغ في ورقة تواجه ليلاً أزرق - أرى كلّ ذلك بعينين مفتوحتين، مع أنني لن أستطيع وصفها أبداً، مستيقظاً بلا أحلام، ومثل كلّ مرّة أُصاب بالذهول من هشاشة وجودنا.

كم عدد صحاري هذا الكوكب الذي ننزل عليه ضيوفاً؟ لم أعرف ذلك من قبل قطّ، قرأت عن ذلك فحسب؛ لم أعلم قطّ أن كل شيء نعتاش منه ليس إلا منحة من واحة ضيقة، بعيدة كالرحمة. ذات مرّة، في ظهيرة يوم خلا تماماً من الريح، توقفنا في مكان ما في القيظ القاتل. كانت تلك هي البئر الأولى التي تقابلنا منذ أيام، والواحة الأولى في تلك الرحلة. اقترب منا عددٌ من الهنود الحمر حتى يشاهدوا سيارتنا، يغطّيهم الصمت والخجل. ومرة أخرى صبّار، وبعض نباتات الأغاف اليابسة، وعدّة نخلات تحتضر؛ كانت هذه هي الواحة. يتساءل المرء عما يفعله الناس

هنا. يتساءل المرء عموماً عما يفعله الناس على هذه الأرض، ويكون سعيداً عندما يكون مضطرّاً للاهتمام بأمر محرّك ساخن مثلاً. وقف حمار في الظلّ تحت سقف من الصفيح المتموّج الصدئ، نفايات حضارة بعيدة تكاد لا يمكن تَخيُّلها، وحول الأكواخ الخمسة المبنية من الطين المحروق، بلا نوافذ مثلما كان الحال قبل ألف أو ألفي عام، كان المكان يكتظّ بالطبع بالأطفال. بين الحين والآخر كنّا نواصل السفر. من بعيد رأينا الجبال الحمراء، لكنّها لم تقترب منا، ورغم أننا كنّا نسمع صوت المحرّك الساخن، فلم أستطع في كثير من الأحيان أن أعرف ما إذا كانت السيارة تسير أم لا. وكأن المكان لم يعد له وجود، ولم يعد يظهر لنا أننا ما زلنا نحيا إلا مع تبدّل الوقت. عند المساء استطالت ظلال الصبّار العالي جداً، وكذلك ظلالنا؛ إنها تمرق بطول مئة متر بجانبنا على الرمل الذي اكتسب الآن لون الشهد، ضوء النهار يشحب شيئاً فشيئاً، ليُمسي وشاحاً شفّافاً أمام الكون الخاوي. لكن الشمس ما زالت ساطعة. وباللون نفسه مثل الكثبان الرملية التي تعبرها أشعّة الشمس الأخيرة، بزغ القمر بحجمٍ ضخم من غسقٍ صافٍ بنفسجي اللون. واصلنا السفر بقدر ما استطاعت سيارتنا الجيب، شاعرين بنوعٍ من الوعي الاحتفالي، الوعي بأن عيوننا هي العيون الوحيدة التي ترى كلّ هذا؛ فمن دونها، من دون عيوننا البشرية الفانية التي تَعْبر هذه الصحراء، لا توجد شمس، لا يوجد سوى قدرٍ ضخم من الطاقة العمياء. من دون العيون لا قمر، ولا أرض، ولا عالم أصلاً، ولا وعي لدى الخليقة. امتلأت جوانحنا، أتذكّر، بغرور احتفالي؛ بعد ذلك بقليل انفجر إطار السيارة الخلفي.

لن أنسى الصحراء أبداً!

أجلس في زنزانتي، مسدّداً النظر إلى السور، فأرى المكسيك، حدائق المكسيك العائمة. قوارب «الجندول» تطفو على مياه تميل إلى اللون البني

وعليها انعكاسات الأزرق البرّاق، جناديل تنساب بلا صوت تقريباً، كلّها مزدانة بزهور يانعة، موكب في القنوات، وحولها الحدائق تفيض بالربيع الأبدي، تشبه الطبيعة «أركاديا» اليونانية، لكنّها هنا وسط أرض الهنود الحمر. عجوز من الهنود الحمر تجذّف زورق «الكانو» الضيّق، الذي لا تعلو حافته كثيراً عن المياه التي يميل لونها إلى البنّي، والتي تنتشر فيها الفقاقيع إثر صفعات المجاذيف، تقترب منا العجوز رابطةً رضيعاً على ظهرها؛ بصوت ليّن خافت تعرض علينا باقة زهور، زهور أوركيد لم أرَ مثلها من قبلُ قطّ، مربوطةً بذوقٍ رفيع متوارث. لا عيد لدى الآزتيك من دون زهور. شخصٌ آخر، هجين، يريد بيع «بولكي»، الشراب المكسيكي الكحولي الشعبي المصنوع من عصير الصبّار؛ يهزّ القدح فوق المياه العكرة مقدّماً لي المشروب. له طعم التخمّر ولزوجة المناطق الاستوائية ورطوبتها وحلاوتها. حولي في الجناديل تجلس عائلات بأكملها، كنّا في يوم أحد (مثل اليوم)، الناس كلّهم يأكلون ويشربون ويفعلون ما يحلو لهم. ثنائي من العشّاق في بدايات العلاقة، يجلس كلٌّ منهما مستقيم الظهر بجانب الآخر، ويمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، استأجرا جندولاً مزدحماً بعازفي الموسيقا، مزدحماً بالقيثارات والقبّعات المكسيكية الضخمة، والأصوات العسلية المتصاعدة من وجوه قطّاع الطرق السمراء. إنه موكب الشعب، نصف حقيقي، ونصف زائف، وأنا أعود بتفكيري إلى الصحراء: هذا هو ما يفعله الناس على الأرض! في مقدمة جندول ترقد فتاة على بطنها، تاركة كلتا ذراعيها تتدلّيان في الماء المنساب ببطء، في سكينة، في حين تنفجر في مكانٍ آخر قهقهاتٌ عالية. لكن معظم الناس صامتون، كما قلت، وتقريباً متبلّدو الحواس، على الأقلّ ناعسون؛ أرى وجوهاً جميلة، غريبة، كأنها من الفردوس المفقود، وأرى آخر بقايا مدينة الآزتيك العظمى المُحاطة ببحيرة، لا يمكن الوصول إليها إلا عبر سدّين، ڤينيسيا الهنود

الحمر، كما أطلق عليها المؤرّخون الإسبان. كان الهنود الحمر، الذين لم يعرفوا العجلة، يعتبرون الماء أفضل طريق، ولا بدّ أن البحيرة كانت فردوسية؛ يقولون إن أجزاء من الشاطئ انفصلت عن الأرض، وتعوم، بزهورها، كجُزر. الهنود الحمر، شعب الزهور، يصنعون الأطواف من المواسير، ثم يضعون عليها الطين والطحالب، بل ويزرعون فيها أشجاراً صغيرة، ثم يجذّفون، فتتحرّك هذه الجزر المزهرة؛ ومن هنا جاء الاسم: الحدائق العائمة. تتحوّل البحيرة لاحقاً إلى مستنقع يجفّ كلّه باستثناء هذه البركة المتواضعة حيث الجناديل الاحتفالية، نصف حقيقية ونصف زائفة، تُذكّر تقريباً بسقوط شعبٍ رائع؛ تنهض مدينة مكسيكو الحديثة حرفياً فوق الأوحال، تلك المدينة ذات الأبراج السكنية الرديئة والجيدة، المرء يلاحظ ذلك، ويلاحظ أن مبانيها تهبط في الأرض، باستمرار، بضعة سنتيمترات في كلّ عام.

أرى الأرض المائلة إلى الحُمرة حولي، الأهرام، الحمم البركانية، الثعبان الميت في الشارع، دهسه إطار سيارة، والجوارح المتربّصة، أرى زهور الأوركيد المتنامية بكثرة على أسلاك التليفون، القبعات الكبيرة التي تبدو كالفطر فوق رؤوس الرجال المكسيكيين، قمصانهم القطنية البيضاء، وبشراتهم المائلة إلى الحمرة. السوق في المكسيك! يتذكّر الإنسان أفلاماً بالألوان، وهكذا بالضبط هي: خلّابة، خلّابة جداً، ومع ذلك، في الحقيقة، ثمّة لحظات يشعر فيها الإنسان فجأةً بالخوف. تفوح رائحة كلب ميّت. أطفال يجلسون بمؤخرات عارية على النفايات، على ثمر فاكهة قديمة عطنة. على الأرض تتناثر البضاعة، ما زلت أراها حتى اليوم: فاصولياء وبازلاء، مكسّرات، فاكهة أراها لأول مرة، وبينها حلويات يتحلّق حولها الذباب، وأسماك تعفّنت في الشمس الحارقة. في الجوار نجّار يصنع توابيت للأطفال، أكواماً أكواماً، توابيت خام رخيصة. وفلّاحات يجلسن

فوق أحجار الرصيف، يبعن فخاراً يحيي ذكرى النماذج الهندية الحمراء، لكنّها خام ورخيصة. رائعة هي الزهور الكثيرة، لكن شذاها لا يفوح؛ وحيث لا تتصاعد نتانة اللحم البشع الذي فسدَ في الشمس، يتصاعد عفن مجاري الصرف الصحي، وعلى المرء أن يتماسك، وأن يتغلب على شعوره بالقرف حتى لا ينقله إلى غيره. ليس ما أراه حيّاً عشوائياً، بل سوقاً في الهواء الطلق. المكان يدعى، كما أعتقد، أميكاميا، سوق جميلة، ليست حزينة، لكنّها موحشة. وكأن التحلّل يحدث بفعل شيطان، أو بفعل لعنة تحوّل كل ما هو مزهر وفوّاح إلى شيء نتن، وفاسد، ومتعفّن. لم يعد أحدٌ يقاوم؛ لا أحد يسحب الكلب الميت جانباً، في بعض الأحيان فحسب يهشّ المرء بحركةٍ متعَبةٍ الذباب، على الأقلّ، لكي يحشر قطعة من «التورتيا» في فمه. ثمّة أقدام معوجة وتشوّهات أخرى أيضاً. تبدو الشمس والزرقة مثل استهزاء صريح. يرافقني شعور غريب: ما الموضوع؟ لكن، لا شيء مطلقاً! كل شيء خلّاب، الضوء الكهرماني الخافت تحت الأغطية الكبيرة، وتحتها وجوه النساء الغريبات؛ وفوقها كنيسة إسبانية، باروكية الطراز، بدأت أحجارها في التفتّت، صليب من الزنجار، وفي كلّ مكان زهور الأوركيد. من بين أوراق شجر الموز الخضراء التي تدلّت كأنها رايات كبيرة مهلهلة الحواف، ألمح الجليد الأبدي فوق بركان بوبوكاتيبتل، «الجبل المدخّن» الذي لم يعد يدخّن، خيمة بيضاء، رائعة. ما مصدر الرهبة؟ وكلما توقفت سيارتنا حتى نتزوّد بالبنزين، أرى أعمى يمدّ يده. في مزارع البُنّ تعيش ذبابةٌ تتسبّب قرصتها بدايةً في حدوث دمامل يمكن التخلّص منها؛ لكن ليس هناك طبيب، ولا نقود من أجل طبيب. عندئذٍ تتغلغل اليرقات وتصل إلى الدم، وفي النهاية إلى العينين اللتين يسيل منهما سائلٌ لزج أبيض يميل إلى الصفرة. تشبه العينان عندئذٍ بيضتين مقليّتين. وهكذا يقفون هناك، عجزةٌ وصبيان، عُميٌ وصفر الأيدي. يغنّي أحدهم على نغمات أرغن يدويّ.

وعلى الأسطح تقبع نسور سوداء، طيور كبيرة عفنة الرائحة ترفرف طائرةً، يراها المرء عندما تسير السيارة في طرق مهجورة، في الغالب في أسراب، حول جيفة ما، أفعى مدهوسة، حمار نتن، أو قتيل لا يفتقده أيّ إنسان؛ هذه الطيور يراها المرء في كلّ مكان، سوداء وقبيحة وغليظة تقبع على الأسطح مطلّةً على السوق الخلّابة: الجوارح، طيور المكسيك.

ومع ذلك كانت أياماً جميلة!

لماذا لم أواصل العيش هناك؟!

لحسن الحظ فإن وكيل النيابة (أو قاضي التحقيق، فأنا لا أعرف الفروق في هذه المسائل) شخصية لطيفة، رجل شكّاك لا يصدّق كلّ شيء، ولا حتى كلّ شيء عن نفسه. وبالمناسبة فهو أول شخص يتسم بالتهذيب ويطرق الباب قبل أن يدخل الزنزانة.

ابتسم قائلاً: «أظنّ أنك تعرف مَن أنا».

- «السيد وكيل النيابة؟».

تظلّ ابتسامته غامضة بالنسبة إليّ. يداه في جيبَي الجاكت، مرتبكاً على نحو ما. انطباعي الأول: بأيّ شيء يريد هذا الرجل أن يعترف لي؟ عندما تفحّصني طويلاً، نسي نفسه وكأنه يتابع أفكاراً سرّية تخصّه، وبدا لوهلة أطرش، راح يتفحّصني بنظرة مباشرة، وكما لا يفعل البالغون إلا نادراً، نظرة أطول من اللائق، حتى إن وجهه -لأنه يعي ذلك- احمرّ قليلاً.

سألني: «هل تدخّن؟».

ولأنني نفيت، أضاف بعد أن أخذ سيجارة وبحث عن ولّاعته: «... على فكرة، جئت إليك بصورة شخصية جدّاً. لا تعتبر ذلك تحقيقاً أبداً. أريد بشدّة التعرّف إليك...».

فترة صمت.

- «أنت فعلاً لا تدخّن؟».

- «السيجار فقط».

قال وهو يجلس على فراشي الخشبي القاسي وكأنه صديق قديم: «زوجتي ترسل إليك تحياتها».

ثم راح يبحث عن منفضة حتى يتحاشى النظر إليّ فحسب، أعتقد هذا، وواصل قائلاً: «هذا مع افتراض أنك فعلاً السيد شتيلر!».

- «اسمي وايت!».

قال بنبرة مبطّنة بالاعتذار أو الارتياح: «لا أريد بأيّ حال من الأحوال استباق نتائج التحقيق».

ثم واصل تدخينه من دون أن يعلم فوراً، على ما يبدو، ماذا يستطيع أن يقول في مثل هذه الظروف. وبعد عدّة دقائق، وبعد ثرثرة نشأت فجأة، وخفّف من وطأتها شرود ذهنه، ثرثرة ابتعدت تماماً عن الموضوعات الشخصية، ودارت حول ضجيج الطرقات اليوم، لا سيما الفيسبا، وأن الويسكي، والكحول عموماً، ممنوع منعاً باتّاً، «للأسف»، في السجن الاحتياطي، عندئذٍ قال لي من دون تمهيد: «عن نفسي، لم أرَ شتيلر قطّ. على الأقلّ ليس على نحو واعٍ. ذات مرّة تكلّمنا في التليفون، كما تعرف ربما، كانت مكالمة من باريس، لكنني لا أستطيع الجزم ما إذا كنت أنت هو المتحدّث».

ثم غيّر نبرة حديثه، فأضحى لطيفاً: «أنت قتلت زوجتك، مستر وايت؟».

حتى هو، هكذا أشعر، لا يصدّقني. يبتسم، ثم تتلاشى ابتسامته عندما يحدّق كلٌّ منّا صامتاً في الآخر، ثم يستعلم مني عن سبب قتل زوجتي.

- «لأنني أحببتها».

- «هل هذا سبب؟».

- «أترى؟! الحياة معي كانت تضحية بالنسبة إليها. هذا ما كان يشعر به أيضاً معارفي كافةً، فضلاً عن معارفها. أما هي نفسها فلم تكد تنطق بكلمة عن معاناتها معي. أتعرف؟ كانت إنساناً نبيلاً جداً، وهنا يمكنك أن تسأل مَن تريد، يا حضرة وكيل النيابة، هذا ما كان الجميع يراه. كلّهم كانوا يقولون: إنهم لم يرَوا قطّ إنساناً نبيلاً مثلها، إنساناً راقياً مثل زوجتي. وقد كنّا تقريباً لا نتحرّك إلا في الدوائر المثقّفة. بالمناسبة، كان ذلك رأيي أيضاً، أتعرف: كنت أبجّلها. النُّبل كان يجذبني. وهذا مكمن تعاستها. لا أستطيع أن أقول لك كم من مرّة غفرتْ لي هذه المرأة، كم من مرّة!».

- «ماذا؟».

- «أنني هكذا، كما أنا».

كان يلقي بين الحين والآخر أسئلة، مثلاً: «هل كنتما تتشاجران كثيراً؟».

- «ولا مرّة».

- «ولا قبل جريمة القتل؟».

- «تحديداً قبلها لا، وإلا ما كان ذلك قد حدث. يبدو أن حضرة وكيل النيابة لا يستطيع أن يتخيّل المرأة التي قتلتها. أيّ كلمة مرتفعة الصوت هي غريبة تماماً عن عالمها، ولهذا لم أكن أنا أيضاً أجرؤ على الشجار. لقد قلت لك إنها كانت إنساناً نبيلاً إلى درجة أن كلّ أقاربنا لم يقابلوا في حياتهم يوماً إنساناً بهذا النُّبل. هل بإمكانك، يا حضرة وكيل النيابة، أن تتخيّل الزواج بإنسان على هذه الدرجة من النبل؟ طوال تسع سنوات كنت أتصبّب عرقاً، أتعرف؟! وذلك من تأنيب الضمير. وإذا لم أتحمّل ذلك مرّة في الأسبوع، أعني تأنيب ضميري، فأقذف مثلاً بصحنٍ يتهشّم عندما

يصطدم بالحائط، عندئذٍ كنت أشعر تجاه زوجتي وكأنني قاتل؛ قاتلها، نعم، إلى هذا الحدّ كانت هذه المرأة الرقيقة تعاني معي!».

- «هممم».

- «الأمر لا يبعث على الابتسام. لقد فقدت سنواتٍ من حياتي حتى أدركت أنني قاتلها، وفي النهاية فعلت ما يجب عليّ فعله».

- «هممم».

- «لا أنكر شيئاً، ولكن لا تنتظر من ضميري أن يؤنّبني يا حضرة وكيل النيابة، فلم يعد لديّ ضمير. لقد استُهلك. طوال حياتها كنت أشعر بالكثير من تأنيب الضمير. حياتها معي كانت فظيعة بالنسبة لها، ببساطة: فظيعة».

- «ولهذا.. قتلتها؟».

أومأت برأسي.

- «مفهوم».

- «لا أحد يتحمّل ذلك، يا حضرة وكيل النيابة، لا أحد يستطيع تحمُّل تأنيب ضميره لسنوات، من دون أن يفهم لماذا يؤنّبه ضميره!».

إلخ.

لا أعرف ما إذا كان يفهمني.

مرّة في الأسبوع، كلّ يوم جمعة، يمكننا أن نأخذ دشّاً، لمدة عشر دقائق، لعشرة مساجين معاً. غير ذلك لا أرى جيراني أبداً، وعندما أراهم هناك يكونون كما ولدتهم أمهاتهم، وسط خرير الماء ذي البخار، لذلك فإن تبادل الحديث يكاد يكون مستحيلاً. أحد المساجين، وهو يعتبر نفسه بريئاً، لا يستخدم الصابون احتجاجاً وعناداً. إيطالي قصير القامة يغنّي في

كلّ مرّة. لا يمكن إلا بصعوبة التفرّس في الوجوه تحت الدشّ، الوجوه التي شوّهتها خصلات الشعر المبلول ورغاوي الصابون؛ ثم عُري الجسد كلّه، وتعوّد المرء على رؤية الوجه وحده عارياً، لهذا يكون المرء مجبراً على تفحّص الجسد كاملاً، ما لا يبعث إلا قليلاً من السرور. أقصى ما يمكن فِعله هو التخمين: عامل، مثقّف، رياضي، موظّف. وعموماً فإن أجسادنا العارية تثير شعورنا بالخجل، لأنها لا تحمل أيّ تعبير، إنها في أفضل أحوالها طبيعية، لكنّها في الغالب تثير بعض الضحك. تحالفتُ مع اليهودي الألماني، كلٌّ منّا يدعك بالصابون ظهر الآخر، لأنه هو أيضاً لا يصل إلى كلّ مكان. اتفقنا على ضرورة أن يستحمّ المرء يومياً. بعد مناوشات تكاد تكون صبيانية بسبب برودة المياه الفجائية التي يدفعنا بها رئيس الحرس إلى غرفة التجفيف، يسود الصمت بين الجميع، يجفّفون أبدانهم فتتورّد وجوههم وكأنهم أطفال رضّع، أما الشعر فيبدو أنه شعر صبيان. أعتقد أنه لا يوجد مجرم خطير سواي. ولأنهم يضعونني (باعتباري «شتيلر») في مؤخّرة القائمة المرتبة أبجدياً، أستطيع في كلّ مرّة التحدّث لبرهة مع اليهودي الألماني. نتفق في الرأي على أن العناية بالجسد في سويسرا تتناقض تناقضاً بيّناً مع الهوس بالنظافة المنتشر هنا. يحكي لي عن شقّته الحالية حيث لا يجوز له أيضاً، وفق العقد المبرم، أن يأخذ دشّاً ساخناً إلا في نهاية الأسبوع. بعد ذلك يسير كلٌّ منّا بمفرده إلى الزنزانة، وحول عنقه المنشفة.

تلقّيت اليوم الرسالة التالية:

«أخي العزيز! بإمكانك أن تتصوّر أنني أكاد لا أغلق عيناً منذ سماعي هذا الخبر من شرطة الكانتون، «آني» أيضاً مضطربة للغاية. «آني» هي زوجتي العزيزة. بالتأكيد سوف تكون علاقتكما جيدة! لا تغضب مني

لأني لن أستطيع السفر فوراً إلى زيورخ، فهذا مستحيل في الوقت الحالي. آمل، على الأقلّ، ألّا تكون مريضاً! أخي العزيز، لقد أفزعتني الصورة بسبب نحافتك الحالية حتى إنني لم أتعرّف عليك إلا بصعوبة. هل زرت الوالد في بيت المسنّين؟ لا تجعله يشوّش ذهنك، لقد طعن في العمر، وأنت تعرفه جيداً. وأنت تعلم أيضاً أن الوالدة توفيت. لم تعانِ كما كنّا نتخوّف. سنذهب معاً لاحقاً لزيارة قبرها. عندما سمعتُ الخبر الذي أرسلته شرطة الكانتون بوصولك، وجدت نفسي أفكّر في الوالدة كثيراً، لأنها كانت تنتظر وصولك كلّ ساعة، دون أن تبوح لنا بذلك، لقد لاحظنا أنها كانت تظلّ يقظة أطول من المعتاد لأنها كانت مقتنعة في أعماقها بأنك ستأتي مساء هذا اليوم. كانت الوالدة تدافع عنك دائماً، أقول ذلك لتعرف فحسب، وكانت تقول في كلّ مرّة إنها تأمل أن تكون على الأقلّ سعيداً بحياتك.

إننا نشعر بالطبع بالفضول الشديد لمعرفة أخبارك، أخي العزيز. لم يتغيّر الكثير هنا، أعمل في مجال الإدارة، وهكذا ترى أن مزرعتي في الأرجنتين لم تنجح، آنذاك كان من المستحيل أن نترك الوالدة بمفردها، لكن حالنا جيد جدّاً.

هل عرفت أن صديقكما ألكس قد انتحر؟ على الأقلّ هذا ما يتردّد، أعتقد أنه رقد تحت الموقد الذي يعمل بالغاز. أم أن ألكس لم يكن صديقاً لكما؟ لا أريد أن أملأ الرسالة بأخبار الوفيات، بل أردت أن أقول لك ثانية كم نحن مسرورون. لستُ في حاجة إلى الكتابة إليك عن يوليكا، حسب ما ورد في الصحيفة فإن حالتها اليوم أفضل كثيراً. لقد جاءت آنذاك إلى جنازة الأم. إنني أتفهّم أنها لم تعد تريد رؤيتنا باعتبارنا عائلتك. بالتأكيد ما زالت تحيا في باريس. ربما تكون قد تحدّثت معها.

آمل ألّا تنزعج مني، عليّ أن أتوقف هنا عن الكتابة للأسف، إذ إننا

ننتظر الآن معاينة بستان الفواكه وزيارة من أحد أعضاء المجلس الاتحادي، وحتى الآن لم أوجّه إليك سؤالاً واحداً صحيحاً حول حياتك ومستقبلك. أتمنّى، أخي العزيز، أن يُطلق سراحك قريباً جداً! حتى نلتقي، لك مني تحيّات قلبيّة!

أخوك فيلفريد.

سآتي بكلّ تأكيد إلى زيارتك، بمجرد أن أستطيع أخذ إجازة من عملي لمدة يومين. اليوم أردت أن أكتب لك فحسب أن باستطاعتك، بالطبع، ومن دون أيّ مشاكل، أن تسكن لدينا هنا خارج المدينة في أي وقت تريد».

لا أحد يصدّق حرفاً مما أقوله، وفي النهاية سيجب عليّ أن أقسم إن الأصابع التي أُقسم بها هي أصابعي. الأمر فعلاً يثير الضحك. اليوم قلتُ لمحاميّ: «بالطبع أنا شتيلر».

حدّق فيّ متسائلاً: «ما معنى كلامك؟».

انظر، لأول مرّة تستيقظ في رأسه الصالح فكرة أنني قد أكون حقّاً شخصاً آخر غير السيد المفقود شتيلر. لكن من؟ أقترح عليه: ربما عميل سوڤييتي بأوراق أميركية. قال إنه لا يقبل المزاح، كما أن كل ما هو سوڤييتي لا يصلح، حسب رأيه، أن يكون مادة للمزاح؛ لأن السوڤييتي شرّير. من ناحية أخرى فكلّ ما هو سويسري جيّد، ولا يصلح أن يكون مادّة للمزاح. أقترحُ: ربما أكون من رجال فرقة «الإس إس» النازية، رجل يتحيّن فرصة العودة إلى العمل بعد فترة قضاها مختفياً، مجرم الحرب المجهول بخبرته في الشرق، وهي خبرة مطلوبة للغاية. ولكن كيف أبرهن على أنني مجرم حرب؟ يمكنني أن أدّعي مخلصاً ما شئت، ولكن من دون دليل لن يطلقوا

سراحي. إن محاميّ لا يصدّقني حتى عندما أقول إن المكسيك أجمل من سويسرا. بمجرد أن أبدأ في الكلام، يتوتّر فحسب: «وما علاقة ذلك بموضوعنا؟».

كيف ينتزعون ناب السم من الكوبرا لكي يستخدمه الهنود الحمر في رقصتهم الشهيرة، «رقصة الأفعى» - هذا أمرٌ لا يبالي به محاميّ. وهو أقلّ مبالاةً بوقوف الهنود الحمر استعداداً لملاقاة الموت. ولا يهمّه أيضاً مَن أمر باغتيال الثوار المكسيكيين. وهو يشكّ في أن سماء المكسيك ملكُ الطيور الجارحة، في حين أن الثروة المعدنية ملك الأميركان. حقّاً، إن الحديث مع هذا الرجل لمدة ساعة يومياً ليس بالأمر الهيّن.

يقاطعني وسط السرد الذي يحمّسني أنا على الأقلّ، ويسألني: «أوريزابا؟ أين يقع هذا المكان؟».

وخلال ذلك يسحب بسرعة قلمه من ماركة «إيفرشارب»، ولا يهدأ إلا عندما يدوّن إجابتي المختصرة والمهذّبة. عندئذٍ يواصل على الفور طرح الأسئلة: «وهناك كنتَ تعمل؟».

- «لم أدّعِ ذلك قطّ! لقد كسبت مالاً وعشت».
- «وكيف؟».
- «شكراً، كنت أعيش عيشة ممتازة».
- «أقصد: كيف كنت تكسب المال؟».
- «مثلما يكسب المرء مالاً... على كلّ حال ليس لقاء عملي أنا».
- «وإنما؟».
- «بـ... بالأفكار».
- «اشرح شرحاً دقيقاً!».
- «كنت، تستطيع القول، مستشاراً إدارياً...».

قلت له ذلك وأتيت إشارة تعني كسب المال، ثم أضفت: «في هازيندا».

تظاهر بأنه لم يرَ الإيماءة، وسألني: «وما هي الهازيندا؟».

قلت له: «إقطاعية»، ثم أسهبت في تصوير وضعي الوظيفي، وهو وضع لم يكن مرئيّاً، لكنّه كان ملتقى الرُشَا اللازمة التي كانت تُسدَّد من كلا الجانبين، وعرضت أفكاري الخاصة بذلك، ثم الوضع الطوبوغرافي لـ«أوريزابا» الفردوسية، القريبة من المنطقة الاستوائية، ولكنّها تكاد لا تعلو المنطقة التي لا أطيقها، بنباتاتها المتشعبة التي تنمو في مناخ خانق الحرارة، وبفراشاتها الضخمة البدينة، وبهوائها الدبق، وشمسها الرطبة، بسكونها اللزج المفعم بالخصوبة القاتلة، تقريباً فوق تلك المنطقة تقع أوريزابا على سفحٍ يتمتّع بنسيم الجبال، وخلفه يرى المرء الجليد الأبيض على قمة بركان بوبوكاتيبتل، وأمامه خليج المكسيك المائل إلى الزرقة، زرقة محارة ضخمة، وحوله حديقة مزدهرة في مساحة كانتون سويسري، تزدهر بزهور الأوركيد اليانعة التي تتكاثر هنا وكأنها أعشاب شيطانية، كما تزدهر فيها أيضاً نباتاتٌ نافعة مثل النخيل، والتين، وجوز الهند، والبرتقال، والليمون، والتبغ، والزيتون، والبُنّ، والأناناس، والكاكاو، والموز... إلخ. اليوم يأتي محاميّ ويقول: «لا يبدو أنك تعرف المكسيك جيداً».

لقد قام محاميّ بأداء عمله. قال لي وهو يعرض عليّ كتاباً استعاره من مكتبة المدينة: «ما حكيته لي بالأمس، غير صحيح إطلاقاً ومطلقاً؛ تفضّل: كان بينيتو خواريز من أوائل من حاولوا القضاء على نظام الإقطاع. لكنّه فشل. تمّ إسقاط بورفيريو دياث لأنه كان يحكم بمعاونة الإقطاعيين، أعقب ذلك، كما تعرف ربما، سلسلة كاملة من الثورات الدموية التي استهدفت القضاء على الإقطاع. أُحرقت الأديرة، وقُتل إقطاعيون بالرصاص، وانتهى الأمر بديكتاتورية الثوار. يمكنك قراءة كلّ ذلك هنا. تفضّل. ثم تحكي لي عن الهازيندا المزدهرة الكبيرة مثل كانتون سويسري!».

قلت له: «نعم، إنْ لم تكن أكبر».

هزّ محاميّ رأسه، ثم قال: «لماذا تحكي لي تخاريف كهذه؟ لا بدّ أن تدرك أننا بهذه الطريقة لن نتقدّم أبداً. ما تقوله، ببساطة، غير صحيح! من المحتمل أنك لم تكن يوماً في المكسيك».

- «كما تريد».

- «من يستطيع أن يمتلك مثل تلك "الهازيندا" في المكسيك اليوم - في ظلّ حكومة ألغت الإقطاع إلغاء نهائياً؟!».

- «رجل من الحكومة نفسها!».

لم يكن محاميّ يريد الخوض في هذا الموضوع. إنه يشعر بالتوتر عندما لا تسير الأمور مسارها الصحيح، وهو كسويسري صالح لا يستطيع أن يقبل أن يضحك المرء على أوضاع سيئة بدلاً من أن يدينها، ويُقصيها بكلّ حسم خلف الستار الحديدي. على الفور أشار إلى أن المكسيك دولة شيوعية، وهو تلميح لا أستطيع، انطلاقاً من معرفتي الموضوعية البحتة، أن أوافق عليه؛ بغضّ النظر تماماً عن أن الثروة المعدنية في المكسيك هي في يد الأميركان بصورة خاصة، إذاً فهي محمية بصورة خاصة، ولذلك فإن الميل إلى الإقطاع لا أعتبره شيوعياً، بل إنسانياً، ولماذا ينبغي علينا، نحن الأحرار، ألّا نتحدّث عن كل ما هو إنساني؟ يقول محاميّ: «فلندخل في الموضوع!».

والآن، إنني أجد حكاية وزير «الهازيندا» مسلّية إلى حدّ أنني لا أستطيع إغفال ذكرها: كان صاحب مصنع، على ما أعتقد، لتصنيع كراسي المكاتب التي تحتاج إليها كلّ دولة بأعداد كبيرة. لم يكن هو المُصنِّع الوحيد لكراسي المكاتب. وعندما اختير وزيراً للتجارة، وكان هو نفسه يجلس على كرسي مكتب حكومي، ولكي يفعل شيئاً، فقد أصدر قراراً

يقضي بحظر الاستيراد، وهكذا كانت الشكاوى كثيرة مِن كلّ مَن يُصنّع كراسي المكاتب. بدأ المُصنّعون في كلّ مكان يعانون من النقص في المواد. لم يكن كرسي وزير التجارة مريحاً، وكما يمكن أن نتخيّل، وعندما آن الأوان، أي عندما قام بشراء المواد الشحيحة في السوق من الولايات المتحدة، ثم خزّنها أكواماً أكواماً على الحدود، لم يستطع سوى الرضوخ لشكاوى المنافسين، فرفع حظر الاستيراد لمدة أسبوعين. تأخر الجميع بالطبع في مشترياتهم، وأفلسوا، وكانوا سعداء بعرض شركة قابضة تشتري مصانعهم. أما وزير التجارة، ورغم أن أحداً لم يستطع أن يلومه على شيء، فلم يعد يشعر بالحاجة إلى التضحية بنفسه في خدمة الوطن؛ لقد انسحب ليعيش في «الهازيندا» المهملة التي كافأته بها الدولة، وراح يعتني بها بكلّ جهده، وبمساعدة عدّة آلاف من الفلاحين يضعون فوق رؤوسهم قبّعات خلّابة من القش لا أنساها. عندما كنّا نجلس في الڤيراندا الظليلة، كنّا نراها دائماً في الخارج مثل الفطر الأبيض وسط الحقول اليانعة والمتوهّجة، وبعد فترة قليلة، أصبَحتْ، حقّاً، هازيندا مثاليّةً، جنّة على الأرض.

علمت من وكيل النيابة:

ثمة اشتباهٌ ما يحوم حول أناتول لودفيغ شتيلر، النحّات، وآخر محلّ إقامة له في الأتيليه الخاص به في «شتاين-غارتن-غاسه» في زيورخ، والمفقود منذ يناير 1946، وهذا الاشتباه لا يستطيع أحد أن يذكر تفاصيله ما دامت هويّتي غير مثبتة. ويبدو أن الموضوع لا يدور حول شيء تافه. تجسّس؟ لا أعرف ما حدا بفكري إلى الاندفاع في هذا الاتجاه، وعموماً، من الممكن ألا يثير الأمر اهتمامي؛ فلست شتيلر. كم يتحرّقون شوقاً إلى إثبات ذلك! الظاهر أن ما ينقصهم هو جندي يضحّون به، كما في

الشطرنج، سواء كان مذنباً أو بريئاً، حتى يغلقوا ملفّ فضيحة بأكملها. التجارة بالمخدرات؟ الأمر يفوح منه بالأحرى -هذا هو إحساسي- رائحة سياسية، لكن الشكوك التي تنتاب الشرطة الاتحادية (أعتقد أنني أستشفّ ذلك من ملامح وكيل النيابة) تستند على أسباب واهية؛ وبالطبع، أن يُفقَد رجل فجأة، فهذا أمر يثير التكهّنات.

ملحوظة:

خطر على بالي في ما بعد (في تلك الأثناء كنت قد قرأت مجدّداً في الإنجيل) أن كلّاً من محاميّ ووكيل النيابة سألني بين حين وآخر ما إذا كنت أفهم الروسية، وكنت أردّ بالنفي آسفاً. فاللغة الروسية لغة عظيمة، هكذا أرى، وعموماً اللغات السلافية... أليس من المسموح به أن أقول ذلك هنا؟

لا يبخلون عليّ بشيء! قريباً يريدون أن يواجهوني بالسيدة القادمة من باريس؛ حسب الصور امرأة شقراء، أو يميل شعرها إلى الحمرة، ذات مظهر جذّاب وفتّان، نحيلة بعض الشيء، لكن في خفّة ولطف. لقد أرسلوا إليها، مثلما فعلوا مع شقيق المفقود، صورةً لي. وهي تدّعي أنها زوجتي، وستأتي بالطائرة.

التمشية في ساحة السجن: - بمفردي! الأمر لطيف جداً، لكنّه يثير الشكوك في نفسي. هذا الامتياز يبيّن أن السادة المعنيين بالأمر ما زالوا يعتبرونني شتيلر المفقود الذي يبحثون عنه (أو أن اعتقادهم يترسّخ يوماً بعد يوم). إنهم يتركونني حتى من دون حارس، أي إنني لست في حاجة

إلى التمشية في دائرة. أجلس على مقعد في الشمس، وأرسم بغصن صغير في الرمال. ولكن عليّ ألّا أنسى أبداً أن أمحو خطوطي بالحذاء، وإلا اعتبروها فنّاً، ورأوا فيها قرينة على أنني الشخص المفقود. اقترب الخريف. هنا وهناك تسقط على الرمال ورقة صفراء من شجرة قيقب. السماء أيضاً تنبئ بذلك؛ زرقتها تصبح أكثر شحوباً وشفافية. الهواء منعش، لا سيما في الضحى. رحابة خيالية. الحمام يهدل، وعندما تدوّي ضربات أجراس الكاتدرائية، فإن الحمام يطير عالياً كأنه سحابة فضية رمادية، يعقب طيرانها ظلالٌ ترفرف بلا صوت فوق الأسوار، ثم ترفرف على قمة الأسقف الهرمية وعلى حوافها، بعد ذلك تهبط ثانية في باحتي الصامتة، وتهتزّ على مقعدي، وتواصل هديلها.

سأحكي لها حكاية إيزيدور القصيرة. حكاية حقيقية! كان إيزيدور صيدلياً، أي إنّه إنسان ذو ضمير حي، دخله ليس سيّئاً. كان أباً لأطفال عديدين، ورجلاً في زهرة العمر، ولسنا في حاجة إلى التأكيد أن إيزيدور زوجٌ وفيّ. رغم ذلك لم يتحمّل أن يُسأل دائماً أين كان. السؤال كان يثير جنونه، جنونه الباطني، أما ظاهرياً فلم يدعْ أحداً يلاحظ شيئاً. الأمر لا يستحقّ الشجار، لأن الزيجة، كما قلنا، كانت سعيدة. وذات صيف جميل قاما برحلة إلى مايوركا، تماشياً مع الموضة آنذاك، وبغضّ النظر عن أسئلتها الدائمة التي كانت تغضبه في صمت، فقد سار كل شيء على أفضل وجه. كان باستطاعة إيزيدور أن يكون غاية في الرقّة بمجرد أن تبدأ العطلة. فُتنا معاً بمدينة أفنيون الجميلة؛ وكانا يتمشّيان وقد تأبّط كلٌّ منهما ذراع الآخر. عندما وصلا إلى مارسيليا كان إيزيدور وزوجته -التي يتخيّلها المرء زوجة لطيفة المعشر- قد أتمّا لتوهما تسع سنوات من الزواج. كان البحر المتوسط يتألق وكأنه صورة في ملصق. في اللحظة الأخيرة اشترى

إيزيدور صحيفة ما، مما أثار غضب قرينته الصامتة التي كانت تقف على ظهر باخرة مايوركا. وربما يكون فعل ذلك بدافع من العناد الخالص تجاه أسئلتها عن المكان الذي يقصده. الربُّ وحده يعلم، فهو لم يكن يعرف؛ ولأن باخرتهما لم تكن قد انطلقت بعد، فقد راح يتمشّى قليلاً مثلما يفعل الرجال. بدافع من العناد الخالص، كما قلنا، استغرق في قراءة صحيفة فرنسية. انطلقت الباخرة حقّاً إلى مايوركا الخلّابة وعلى ظهرها زوجته، أما إيزيدور فقد فزع من نفير السفينة المدوّي، ثم رفع بصره عن صحيفته، ولم يجد نفسه إلى جانب زوجته، بل على متن سفينة بضائع قذرة إلى حدّ ما. كانت السفينة -حيث تزاحم في كلّ مكان فيها رجال يرتدون زيّاً أصفر- تهمّ هي أيضاً بالانطلاق. وللتو حلّوا الحبال الكبيرة. لم يرَ إيزيدور سوى الساحل وهو يتناءى. لا أستطيع أن أحسم الأمر: هل كان السبب في فقدان وعيه يعود إلى الحرارة اللئيمة، أم إلى قبضة السيرجنت الفرنسي في فكّه؟ على العكس من ذلك أستطيع أن أدّعي جازماً أن إيزيدور، الصيدليّ، قد عاش في الفيلق الأجنبي حياة أكثر قسوة من أي فترة مضت. الهروب مستحيل. الحصن الأصفر، حيث تربّى إيزيدور لكي يصبح رجلاً، كان ينتصب وحده في الصحراء حيث تعلّم أن يقدّر غروب الشمس. بالتأكيد كان يفكّر أحياناً في زوجته، وذلك عندما لا يكون متعباً جداً، كما أنه كان يودّ أن يكتب إليها، لكن الكتابة كانت ممنوعة. لا تزال فرنسا تناضل كي لا تخسر مستعمراتها، ولهذا سافر إيزيدور كثيراً حول العالم، وكما لم يحلم يوماً. من البديهي أنه نسي صيدليته، كما نسي آخرون ماضيهم الإجرامي.

مع الوقت فقدَ إيزيدور حنينه إلى البلد الذي يمثّل وطنه حسب الوثائق. وكان الأمر، بعد مرور سنوات كثيرة، ينمّ عن سلوكٍ صائب تماماً من إيزيدور، عندما وطئ بقدميه بوابة الحديقة ذات صباح جميل، ملتحياً، نحيفاً، واضعاً القبّعة الاستوائية تحت إبطه حتى لا يثير بثيابه غير المألوفة

الاضطراب في نفوس جيران بيته الذين اعتبروه في عداد الأموات منذ أمدٍ بعيد؛ وبطبيعة الحال كان يرتدي أيضاً حزاماً به مسدّس. كنّا في صبيحة يوم أحد، عيد ميلاد زوجته التي كان، كما ذكرنا، يحبّها، حتى وإن كان لم يكتب لها طوال تلك السنوات بطاقة واحدة. تردّد لبرهة واحدة، بيته الذي يملكه أمام عينيه، لم يتغيّر، كانت يداه ما زالتا على باب الحديقة الذي لم يكن مشحّماً، فصدر عنه الصرير المعهود. من بعيد صرخ خمسة أطفال، كلٌّ منهم لا يخلو من شبهٍ به، كلٌّ منهم شبّ سبع سنوات، لذلك استغرب منظرهم: بابا! لا عودة إلى الوراء. وواصل إيزيدور سيره كرجل خاض نضالاً قاسياً، أملاً ألّا تُمطِره زوجته الحبيبة، إذا كانت موجودة بالمنزل، بالأسئلة. راح يمشي الهوينى على الحشائش، وكأنه عائد كالمعتاد من صيدليته، وليس من إفريقيا أو الهند الصينية. جلست الزوجة معقودة اللسان تحت شمسية جديدة، كما أن التنّورة الجذابة التي كانت ترتديها لم يكن إيزيدور قد رآها من قبل قطّ. أحضرت خادمة، هي أيضاً جديدة، فنجاناً آخر للرجل الملتحي الذي اعتبرته -من دون أن تشكّ لحظة، ومن دون استياء من جانبها- صديق المرأة الجديد. قال إيزيدور، وهو يُنزل كمَّي القميص المشمّرين، إن الطقس هنا بارد. شعر الأولاد بالسعادة عندما سمح لهم باللعب بقبعته الاستوائية، ولم يخلُ الأمر طبعاً من شجار بينهم، وعندما جاءت القهوة الطازجة، كانت السعادة كاملة: صباح يوم أحد مع أجراس الكنائس وتورتة عيد الميلاد. ماذا يريد إيزيدور أكثر من ذلك؟! دون أي مراعاة للخادمة الجديدة التي كانت تضع في تلك اللحظة أدوات المائدة، مدّ إيزيدور يده إلى زوجته، فصاحت: «إيزيدور!»، ولم تستطع أن تصبّ القهوة، ففعل الضيف الملتحي ذلك بدلاً منها. سألها برقّة: «ماذا؟»، وملأ فنجانها. «إيزيدور!»، وكادت الدموع تطفر من عينيها. احتضنها. سألته: «إيزيدور! أين كنت طوال هذه المدة؟!». وضع الرجل،

الذي كان للحظة كالمخدَّر، الفنجان على المائدة؛ فهو، ببساطة، لم يعد معتاداً على أن يكون متزوّجاً، ثم وقف أمام شجيرة ورد، واضعاً يديه في جيبي سرواله. سألته: «لماذا لم تكتب لي ولا حتى بطاقة واحدة؟!». عقب ذلك انتزع من الأطفال المندهشين القبعة الاستوائية دون أن ينطق بكلمة، ثم وضعها على رأسه بسرعة وروتينية وهو ما ترك لدى الأطفال انطباعاً لن يُمحى طوال حياتهم، بابا بالقبعة الاستوائية وجراب المسدّس، كلّ هذا ليس حقيقياً فحسب، بل من الواضح أنه اعتاد أن يفعل ذلك بعينين مغمضتين، وعندما قالت له الزوجة: «أتعرف يا إيزيدور، لم يكن يجوز لك أن تفعل ذلك، فعلاً!»، شعر إيزيدور بأنه اكتفى من العودة الميمونة، فسحب المسدّس من جرابه (أعتقد أنه فعل ذلك أيضاً بسرعة وروتينية)، ثم أطلق ثلاث رصاصات في وسط التورتة الرخوة التي لم يمسّها أحد حتى الآن، والمزيّنة بالكريما الحلوة. أحدثت الرصاصات، وكما يمكننا أن نتخيّل، قدراً هائلاً من الفوضى والقذارة. صرخت الزوجة: «إيزيدور!»، إذ تناثرت الكريما على كلّ جزء من تنّورتها الصباحية، نعم، ولو لم يكن الأطفال الأبرياء حاضرين كشهود عيان، لاعتبرت الزيارة بأكملها، التي لم تستغرق بالمناسبة سوى عشر دقائق، مجرّد تهيّؤات. أحاط بها الأطفال الخمسة، مثل نيوبي الإغريقية. كلّ ما رأته كان إيزيدور -هذا الرجل غير المسؤول- وهو يغادر الحديقة عبر البوابة بخطوات هادئة، واضعاً القبعة الاستوائية الشاذّة على رأسه. بعد تلك الصدمة لم تستطع المسكينة رؤية تورتة من دون أن تفكّر في إيزيدور، مما جعلها مثار الشفقة. وعندما كان أحدهم يجلس معها بمفرده، أو عندما جلست مع ثمانية عشر شخصاً، سمعت نصيحة بأن تطلب الطلاق. لكن المرأة الشجاعة كانت لا تزال تأمل. كان واضحاً بالطبع مَن مِنهما المذنب، لكنّها كانت تأمل أن يشعر بالندم، فعاشت فحسب للأطفال المتحدّرين من صلب إيزيدور، وظلّت، مثل

بينولوبي زوجة أوديسيوس المخلصة، طوال عامٍ كامل ترفض المحامي الشاب الذي كان يزورها شاعراً بالمشاركة الوجدانية معها، ومُلحّاً عليها بأن تطلب الطلاق.

وبالفعل، حدث ذلك في عيد ميلادها أيضاً، عاد إيزيدور بعد عام، وجلس بعد التحية المألوفة، وفَرَدَ كمَّيْ قميصه، وسمح للأطفال عدّة مرّات بأن يلعبوا بقبّعته الاستوائية، لكن السرور بحضور الأب لم يدُم هذه المرة سوى ثلاث دقائق. صاحت الزوجة: «إيزيدور! أين كنت هذه المرة؟!». نهض من دون أن يطلق الرصاص، والحمد لله، وكذلك من دون أن ينتزع من الأطفال الأبرياء القبعة الاستوائية، كلا، نهض إيزيدور فحسب، وشمّر كمّي القميص ثانية، وسار عبر بوابة الحديقة ولم يعد ثانية. لم توقّع الزوجة المسكينة على عريضة الطلاق قبل أن تذرف بعض الدموع، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، لا سيما أن إيزيدور لم يتصل بها خلال المهلة القانونية. بيعت صيدليته، وتمّ الزواج الثاني في تحفّظ وبساطة، وبعد انتهاء المهلة القانونية جرى التصديق عليه أيضاً من مكتب السجل المدني، باختصار سار كلّ شيء مساره المنظّم، وهو أمر كان بالغ الأهمّيّة بالنسبة إلى الأولاد الذين اقتربوا من سن البلوغ. لم يحصلوا قطّ على إجابة عن السؤال: أين يقضي بابا بقية حياته على الأرض؟ لم يحصلوا حتى على بطاقة سياحية. لم تُرِدْ الأم أيضاً أن يسأل الأولاد عنه؛ فهي نفسها لم يُسمَح لها بسؤال الأب عن ذلك.

لا نقود معهم من أجل الويسكي، ولكن معهم نقود من أجل إرسال برقيات إلى المكسيك لكي تؤكّد البعثة الدبلوماسية السويسرية وجودَ بلدة مكسيكية مملّة تُدعى أوريزابا، ليس هذا فحسب، بل أيضاً من وجود عدد كبير من الإقطاعيات المزدهرة التي يعيش في بعضها، بالفعل، عدد

من الوزراء السابقين، وبعضها يفوق في مساحته كانتون زيورخ، والبعض الآخر أصغر من ذلك. وبالمناسبة (هكذا أبلغني محاميّ المجتهد) فإن البعثة الدبلوماسية لا تستطيع أن تؤكّد أن مواطناً سويسري الجنسية قد عمل في هازيندا مكسيكية في يوم من الأيام.

قلتُ له: «انظر، لقد وجدتَها!».

- «وجدتُ ماذا؟».

- «أنني لست مواطناً سويسرياً، سيدي الدكتور، وبالتالي فلا يمكن أن أكون السيد شتيلر المفقود الذي تبحثون عنه».

وكما يحدث في كلّ مرّة، عندما يتّقد ذهن أحدنا بالتفكير، فإن ذلك لا يقنع الآخر أبداً. مدّ محاميّ يده إلى حقيبته الجلدية وأعطاني سيجاراً، سيجاراً حقيقياً، اشتراه خصّيصاً لي، للأسف ليس الماركة المبتغاة، لكنّي أُظهرُ تأثّري رغم ذلك.

سألني: «أعطِني كلمة شرف: هل كنت فعلاً في المكسيك؟ لنُنَحِّ المزاح جانباً!».

غريبة: كيف أن شيئاً صغيراً مثل السيجار، ثمنه ربما فرنك واحد، يُشعِر المرء على الفور بالالتزام، بل يجعل من المستحيل أن أعطي المانح ظهري صامتاً، وذلك ردّاً على سؤاله... هل كنت فعلاً في المكسيك! بإمكان أيّ شخص أن يجيب بنعم، ولكن ليس بإمكان أي شخص -حسبما أعتقد- أن يخبر محاميّ كيف كانت آلام الظهر التي عانى منها المسكين الذي قطف في المزرعة ما يسمى «الورقة الرملية» التي تغلّف هذا السيجار؛ والمقصود هي الأوراق السفلية في نبتة التبغ، وهي أكثر صلابة من الأوراق العلوية، لونها رمادي من التراب، وتعلوها الرمال، جافة، ولذا تنكسر بسهولة. لكن الفلّاح لا يحصل على ثمن البضاعة إلا إذا كانت خالية من كل عيب. بهذه

الأوراق، «الرملية»، يغلّفون السيجار الفاخر. البضاعة الممتازة فحسب هي التي تُستخدم.

يقول محاميّ: «نعم، نعم، بالتأكيد، ولكن ما علاقة ذلك بسؤالي؟».

أدخّن. أصوّر له عملي في مزارع التبغ في أوروابان. فترة عصيبة. من الصباح حتى المساء راكعاً على ركبتي. لا يمكن قطف الورقة الرملية إلا هكذا؛ وحتى في هذا الوضع: راكعاً على الركبتين - لا بدّ من الانحناء للعثور على أفضل الأوراق الرملية. ذات مرّة، لن أنسى ذلك قطّ، كنت أقعي مرّة أخرى متنقّلاً من نبتة إلى أخرى، واضعاً على رأسي قبعة مكسيكية من القش، ومن دون أن أرى العاملين الآخرين الذين يقطفون الأوراق. بلا جدوى ظللت أنتظر صفّارة المشرف على العمال. رغم وضعي الاقتصادي لم أعد ببساطة أتحمّل الحرارة، وليذهب الأجر إلى الجحيم. كانت رائحة الكبريت العفنة تتزايد بوضوح. صرخت بعد أن تمكّن مني الخوف فجأة. من التربة الرمادية خلفي مباشرة تصاعدت سحابة صغيرة من الدخان المصفرّ. بلا جدوى ناديت على العمّال الآخرين، ومعظمهم من الهنود الحمر، لكنّهم كانوا قد ولّوا فارّين. حتى قدميّ لم تعودا تتحمّلان الحرارة، فعدوتُ، ولكن: إلى أين؟ من كلّ مكانٍ تصاعد الدخان، وكأنّ رجالاً يجلسون في مكان ما ويدخّنون السيجار. رأيتُ كيف تشقّقت الأرض من حولي، شقوقاً صامتة تماماً، ومن تلك الشقوق فاحت عفونة الكبريت. ركضت من دون هدف، وكنت ألهث إلى أن شعرت بأنني لم أعد أستطيع الركض، فألقيت نظرةً خلفي على المزرعة، ورأيتها تبزغ من الأرض، وتتكوّر، وتتحوّل إلى تلٍّ صغير. منظر مثير، لكن الحرارة والدخان جعلاني أواصل السير. أبلغتهم بالخبر في القرية. اجتمعت النساء حول أطفالهنّ ورُحن ينتحبن؛ قرّر الرجال إرسال برقية إلى صاحب المزرعة التي تحوّلت إلى بركان. بعد أيام ولياليٍ معدودة عاشت فيها القرية تحت إنذارٍ دائم،

تحوّلت المزرعة إلى جبل لا يستهان به تحيط به سحبٌ يميل لونها إلى الأصفر والأخضر. لم تستطع القرية أن تعمل ولا أن تنام؛ سطعت الشمس كما تسطع منذ الأزل، لكن الهواء ظلَّ محمّلاً برائحة الكبريت، هواء سام وساخن حتى إن المرء يودّ أن يتخلّى عن التنفّس. بزغ القمر من سماء تخلو من الغيوم، ثم سُمع الرعد. اكتظّت الكنيسة الصغيرة بالمصلّين، ودقّت الأجراس بلا توقف، وغطّى على دويّها في بعض الأحيان الصوتُ الصادر عن الجبل المتصدّع الموشك على الانهيار. بقيت البرقية بلا ردّ، وكان على الناس أنفسهم أن يفكّروا في وسيلة للخلاص. لهيب النيران كان واضحاً في الدخان الذي أحاط بالقمر كغمامة. عندئذٍ تفجّرت الحمم البركانية، ببطء، لكن من دون توقّف، ثم بردت في الهواء وتجمّدت، عصيدة سوداء بها زوابع يثيرها البخار الأبيض؛ في الليل فحسب كان المرء يرى الجذوة الداخلية في هذه العصيدة الحجرية التي راحت تقترب وتقترب، سامقة، وتقترب وتقترب: عشرة أمتار في اليوم. رفرفت الطيور كالمجنونة لأنها لم تعد تستطيع أن تجد أعشاشها، واختفت غاباتٌ تحت الأحجار المتوهّجة، كيلومتراً بعد كيلومتر. أُخليت القرية. ولا إنسان، على ما أعتقد، فقدَ حياته. حملوا أطفالهم الباكين على الذراع أو على الظهر، وكذلك بُقجات تضمّ أشياء ليست ذات قيمة كبيرة، وراحوا يسوقون الغنم أمامهم. نهقت الحمير وتشبّثت بعنادها أكثر كلّما زاد الضرب اليائس. انسابت الحمم البركانية بهدوء ودعة بين المنازل، ملأتها، وابتلعتها. كإنسان لم يكن عليه أن ينقذ غنماً، وقفتُ على إحدى الهضاب مشاهداً اقتراب الحمم البركانية التي أصدرت فحيحاً كالأفاعي، محوّلةً أيّ مياه في طريقها إلى بخار، كان سطحها يشبه بعض الأفاعي، جلداً من اللون الرمادي المعدنيّ، قشرةً نمت فوق باطن ساخن ومتحرّك. وأخيراً وصلتْ إلى الكنيسة؛ انهار البرج الأول وابتُلِعَ مع كلّ الأطلال المنهارة؛ البرج الآخر ظلَّ منتصباً، ومازال

حتى اليوم، برج بقبب صغيرة إسبانية، هو الشيء الوحيد في القرية الذي ما زال بالإمكان رؤيته.

«القرية كان اسمها باريكوتين. اليوم هو اسم البركان الجديد». بهذه الكلمات اختتمت حكايتي... «وإذا سافرت في يوم من الأيام إلى المكسيك، عزيزي الدكتور، اخرج من المدينة، واذهب إلى هذا الباريكوتين، الشوارع بائسة هناك، لكن الأمر يستحقّ، خصوصاً في الليل؛ الأحجار المتوهّجة تطير حتى ارتفاع خمسمئة متر، يصاحب ذلك جعجعة، وكأنها من حُمم البركان، وبعدها بقليل يخرج في كلّ مرّة من فوهة البركان دخان، يشبه رأس قرنبيطٍ عملاق، لكنّه أسود وأحمر، فالجمر يضيئه من أسفل. منذ فترة قريبة ثار البركان بسرعة كبيرة؛ ستّ دقائق، عشر دقائق، ثلاث دقائق، وفي كلّ مرّة كان لون الأحجار المتوهّجة يتغيّر، ومعظم تلك الأحجار كان ينطفئ قبل أن يصطدم بالأرض. ألعاب نارية من الطراز الأول، صدِّقني! وخصوصاً الحمم البركانية! وسط ظلمة الخَبَث الميت التي يسلّط القمر عليها ضوءه دون أن يستطيع محو سوادها، تبزغ الحمم بلون أرجواني مضيء، دفقةً واحدة كالدم الذي ينفجر من الثور الأسود. لا بدّ أن هذه الحمم خفيفة جدّاً وسائلة، تتدفق بسرعة البرق على الجبل في طريقها إلى أسفل، وتفقد ببطء سطوعها، إلى أن تجيء الدفقة التالية، جمرات كأنها تنبثق من أحد أفران صهر الحديد، مضيئة كالشمس، تنير الليل بحرارتها القاتلة التي ندين لها بكلّ شيء حي، والمنبثقة من أعمق أعماق كوكبنا. لا بدّ أن ترى ذلك! في أرواحنا، أتذكّر ذلك بكلّ دقّة، تستقيظ بهجة منبسطة لا نعرفها إلا في الرقص، في أكثر الرقصات وحشية، فيض من الذعر والافتتان، مثل ذلك الفيض الذي يصيب أولئك الأشخاص الذين يستعصون على الفهم، الذين ينتزعون القلب الدافئ من الجسد».

راح محاميّ يدوّن، ثم سألني: «باريكوتين؟ كيف تُكتب؟».

- «كما تُنطق».

رحنا نتحدّث عن هذا وذاك. لم أكن أعرف نوع هذا السيجار، لكنّه جيد جدّاً. لم نعد إلى الموضوع (مثلما اعتاد أن يطلق على ملفّ الأوراق الذي يحمله) مرّة أخرى.

«السيد الدكتور!»، هكذا أصيح في الممرّ خلفه، «لستَ في حاجة إلى أن تبحث وتتقصّى عن فترة عملي في تلك المزرعة، يمكنك أن تدّخر جهدك سيدي الدكتور، ولا حتى البعثة الدبلوماسية السويسرية ستجد شيئاً».

- «ولمَ لا؟».

- «بسبب الحمم البركانية».

رغم ذلك يرسل برقية.

لستُ شتيلركم. ماذا تريدون مني؟! أنا إنسان تعيس، تافه، هامشيّ، لا حياة من خلفه، لا حياة على الإطلاق. لماذا أكذب عليهم؟ هل أفعل ذلك فقط لكي يتركوا لي خوائي، تفاهتي، حقيقتي؟ لا مهرب، وهم يعرضون عليّ الهروب، لا الحرية؛ الهروب إلى دورٍ ما. لماذا لا يكفّون عن ذلك؟

السيد الدكتور بونينبلوست (هكذا يُدعى محاميّ) ذهب إلى المطار لمرافقة السيدة القادمة من باريس والتي تدّعي أنها زوجتي، وعلى ما يبدو، فإنه مفتون بهذه المرأة.

- «أردت أن أقول لك، فحسب، إن السيدة هبطت في سلام وسعادة. وهي ترسل إليك بالطبع تحياتها».

- «شكراً».

- «هي في الفندق الآن».

لا يستطيع محاميّ الجلوس. لا يستطيع غير أن يفرك يديه من فرط شعوره بالانتصار، وكأن هذه السيدة من باريس هي المدفعية الثقيلة التي ستجبرني على الاستسلام.

- «سيّدي الدكتور، ليس لديّ أيّ تحفّظات حول زيارة السيدة، إنني أكرر فحسب تحذيري الذي قلته مؤخراً: أنا إنسان حسّي، جموح، كما قلت سابقاً، لا سيما في هذا الفصل من العام».

- «سأخبرها».

- «ثم؟».

- «السيدة تصرّ على أن تتحدّث معك على انفراد. ستكون هنا يوم الاثنين في تمام العاشرة. هي مقتنعة بأنها تعرف زوجها أفضل مما يعرف نفسه، كما أنه لا يمكن الحديث عن الجموح، إن ذلك مجرّد حلم وأمنية لزوجها منذ وقت طويل. هذا ما تقوله السيدة، وهي متأكّدة من أنها تستطيع أن تواجهك بمفردها».

قال المحامي ذلك وقدّم لي سيجاراً جديداً. قلتُ له: «يوم الاثنين في تمام العاشرة؟ جيّد!».

يكاد كنوبل، حارسي، أن يكون غاضباً من أسئلتي في ما يتعلّق بالسيدة القادمة من باريس التي تدّعي أنها تزوّجتني.

يقول متبرّماً: «نعم، أنا أقول إنها تبدو أنيقة. كما أن العطر يفوح منها في الممرّ كلّه».

- «وشعرها؟».

- «أحمر، مثل مربّى ورد المسك».

ليس قادراً على تقديم وصفٍ حقيقيّ لها، حتى وإن أجاب عن أسئلتي سؤالاً بعد سؤال؛ وكلّما سمعت المزيد، نقصت قدرتي على تخيّلها. قال لي: «كُل الآن! ستراها بنفسك. قد تكون السيدة ليست من النوع الذي يعجبك، رغم أنها ما زالت تدّعي أنها زوجتك».

ضحكت قائلاً: «النوع الذي يعجبني! هل حكيت لك مرّة حكاية الخلاسيّة الصغيرة؟».

- «لا».

- «هذه كانت النوع الذي يعجبني».

- «خلاسيّة؟».

«كان ذلك في ريو غراند»، هكذا بدأت الحديث بنبرة جعلت كنوبل يجلس، «وفجأة... ليس لديك خبز؟»، قاطعت سردي، فنهض كنوبل على الفور ووضع نصف قالب من الخبز على المائدة؛ أقطعُ لنفسي شريحة سميكة، ثم أقضمها، في حين جلس كنوبل ثانية، أنتظرُ حتى يخلو فمي قليلاً، ثم أواصل: «وفجأة... كنّا نجلس حول النار التي أوقدناها، فالأمسيات في الصحراء تكون قارسة البرودة، وبالطبع لم يكن هناك في كلّ المنطقة أي حطب، فحرقنا خرقاً للتنظيف، الأمر الذي لم ينتج دفئاً، بل بالأحرى رائحة كريهة، وتناقشنا مع المهرّبين عن كيفية تهريبنا خلال الليل عبر الحدود، إذ كانت الشرطة قد علّقت منشوراً للبحث عني - وفجأة دارت حول الصخور الحمراء!».

- «مَن؟».

بفم ممتلئ بالخبز لا يستطيع المرء أن يحكي بالطبع، ثم حساء المينستروني الذي أنهل منه بالملعقة قبل أن يبرد. سألني كنوبل: «مَن؟ مَن دار حول الصخور؟».

قلتُ أخيراً: «سيارة سيدان»، ولم أدع الفرصة تفلت مني دون أن أقضم قضمة أخرى من الخبز الرائع.

- «سيارة مسروقة بالطبع. كان المنظر عظيماً بالمناسبة، مثل راية من غبار ذهبي. لم تكن تلك على الإطلاق آخر أشعّة شمس المساء. سيارة كانت تمرق عبر الصحراء، ومن البديهي أنها تتأرجح كالقارب إلى أعلى وإلى أسفل فوق أمواج الرمال».

- «من البديهي».

- «بالطبع رأت السيارة النيران التي أوقدناها».

- «ثم؟».

- «رصاصة! لكن الرجل يواصل القيادة، ونحن نظن بالطبع أنها الشرطة الأميركية. إذاً طلقة! طلقة! ومرة أخرى: طلقة! ومن بداخل السيارة؟».

- «مَن؟».

- «جو».

واصلت بالملعقة شرب حساء المينستروني.

- «ومن هو جو؟».

- «زوجها».

- «الخلاسيّة؟».

- «أكيد».

- «يا خبر!».

- «زنجي، رجل طيّب القلب، ولكن ليس بالطبع عندما يخطف المرء زوجته. في الظلمة الدامسة، عندما لا يرى المرء سوى بياض أسنانه - في صحتك!».

- «ثم؟».

- «كنا نتبادل الحب».

- «الخلاسيّة وأنت؟».

- «سألتها: هل تحبّينني أم تحبينه؟ فهمتني تماماً. وأومأت. ثم طلقة. ولم ينطق جو بكلمة أخرى».

- «مات؟».

- «في التوّ واللحظة».

- «يا خبر!».

- «وقبّلتني... هذا هو النوع الذي يعجبني».

بعد ذلك غرف لي كنوبل طبقاً آخر ممتلئاً بالمينستروني؛ الحارس يقظ ومنتبه مثل نادل يخدم أثرياء. قلت له: «أنا أحبّ الزنوج، لكنني لا أطيق الرجال المتزوّجين، حتى لو كانوا زنوجاً. أن يراعي المرء الآخرين دائماً، هذا شيء لا أطيقه! بالطبع انطلقنا على الفور وعبرنا الحدود...».

- «إلى المكسيك؟».

- «بلا ضوء. إلى اليسار ريو غراند. إلى اليمين البدر».

- «كانت هذه هي جريمة القتل الثالثة التي ترتكبها».

- «أظن...».

في الحقيقة، لا يستطيع كنوبل بالطبع أن يبقى كل هذه الفترة الطويلة في زنزانتي؛ ففي كلّ مرّة يحصل الآخرون على طعامهم بارداً. يمسك حارسي بدلوٍ في كلّ يد، ولا أعرف ماذا ينتظر.

أقول بعمومية إلى حدّ ما: «الإنسان حيوان مفترس، صدّقني يا كنوبل، أيّ وصفٍ آخر هو مجرّد كلام معسول».

لكنّه ما زال ينتظر. أقول له: «عندما أفكّر في المرة الأولى التي رأيت فيها فلورنس هذه... آنذاك في مصنع الأخشاب المحترق!».

- «فلورنس مَن؟».

- «صاحبتي الخلاسيّة».

- «آه!».

- «حدث ذلك في ولاية أوريغون في أقصى الشمال. ذهبت إلى الساحل هناك لرغبتي في صيد الأسماك. لم يكن معي نقود لكي آكل شيئاً آخر، ولم أكن آنذاك مستعدّاً بعد للسرقة. كنت لا أزال أعتبر نفسي رجلاً شريفاً! حتى لو ظللت أياماً لا أصطاد شيئاً، لا شيء على الإطلاق؛ فليس الأمر بالسهل أن تصطاد في المحيط، وأن تفعل ذلك من الساحل المائل عندما تصطدم الأمواج بالصخور ويصلك رذاذ الماء. أمر غدّار: ساعات طويلة يقف المرء جافاً على الساحل الصخري، يعلو زبد المحيط ويهبط عند ارتطامه بالصخور، لكنّه لا يعلو عن حدّ معيّن أبداً، لا يتجاوز أبداً الساحل الصخري، المرء يشعر بالأمان مثل مواطن صالح، وعلى غير توقّع تأتي موجة عالية، أعلى من الصخور، والرب يعلم لماذا، أربعة أمتار أعلى من الصخور؛ إذا لم يلاحظها الواقف هناك في الوقت المناسب، إذا لم يرها وهي آتية من بعيد تلك الموجة، وكيف تغطّي بزبدها الصخور وكلاب البحر معاً، فسوف يغرق، سواء كنت مواطناً شريفاً أم لا، وسيتحطّم على حافة الصخر، وستتلاعب الأمواج بالجثة التي لن يتعرّف أحد على هويتها أبداً. كانت ظهيرة ذات سماء صحو، وكنتُ أقف هناك، وصوت ارتطام الأمواج بالصخور يصم أذنيّ، وفجأة أرى الدخان يعلو فوق الساحل من خلفي، دخان كثيف يا عزيزي، حتى إنك تعتقد أنك ترى كسوف الشمس. لا بدّ أنه مصنع نشر الأخشاب الكبير في هذه المنطقة

المقفرة، هكذا أفكّر على الفور. عليك أن تتخيّل التالي: لن تجد منزلاً واحداً في دائرة قطرها عشرين ميلاً، لن ترى سوى صخور وخراف، ولا شيء سوى ذلك، وحبلٍ معدنيّ ينزلون به جذوع الأشجار من الأدغال، ألهث على التل، السماء مليئة بالشُّعَل الطائرة، لم أر في حياتي حريقاً مدمّراً كهذا، ثم يا لها من طقطقة، ولا أثر بالطبع لفرق الإطفاء، النساء وحدهن كنّ يقفن هناك ويولولن، ويعضضن أظفار أصابعهن، ويصلّين للرب حتى يوقف رياحه، لا ماء للإطفاء، واليوم هو الأحد، الرجال يجلسون في مكان بعيد ويلعبون «البولينغ»، أما هنا فكانت النيران تطقطق وتتطاير كأنها رايات أرجوانية، منظر رائع، اللهب يهبّ من كل الأسقف، لا يمكنك فعل أيّ شيء، وأمامي المحيط الذي تعبث به الرياح التي راحت تنفخ في الكومة الهائلة من الخشب الجاف، الحرارة لا تطاق على بعد مئة خطوة، وفي وسط كلّ ذلك هناك صهريج ممتلئ بالبنزين».

- «يا خبر!».

- «سألتها: هل جننت؟ الصهريج قد ينفجر في أيّ لحظة. رغم ذلك ركضت إلى كوخها...».

- «مَن؟».

- «في قلب الدخان الكثيف المتصاعد... الخلاسيّة».

- «يا خبر!».

- «وأنا... خلفها!».

- «طبعاً».

- «لماذا طبعاً؟ كان ذلك جنوناً محضاً، ولكنّي فكّرت فجأة في أنها ربما تريد إنقاذ طفل... لن أنسى ذلك أبداً يا عزيزي، عندما وقفتْ في ذلك الكوخ، بدأ الغلاف الخشبي في السقف يحترق في الخارج. ركض زنجيّ

عجوز كالقرد فوق السقف الذي يتصاعد منه الدخان محاولاً بخرطوم تافه من الحديقة أن يطفئ النيران المتأججة في خشب السقف، قطعة قطعة، فمياه الخرطوم لا تصل إلى أبعد من ذلك، نكتة سخيفة، وفي الداخل دخان كثيف حتى إن المرء يعتقد حقّاً أنه يختنق. هل أحدٌ هنا؟ صرختُ: هل أحدٌ هنا؟ ثم رأيتها تقف هناك، لا تحرّك ساكناً، وتولول، واضعة يديها على خصرها، لا تفعل شيئاً، خلاسيّة شابة، أقول لك يا عزيزي كنوبل، مخلوق جميل مثل حيوان، ثمانية عشر عاماً، مخلوق...! كلّ ما عدا ذلك فهو بالطبع هراء لا يستحقّ الإنقاذ، حشيّات وأطباق. كنت أشعر بغضب في أعماقي، كنت أودّ أن أمسك بها وأهزّها هزّاً!».

- «لماذا؟».

- «سألتني أن أنقذ الثلّاجة! صرخت فيها: مستحيل! وفي الخارج كان الزنجي العجوز ما زال يرشّ المياه بخرطوم المياه الرفيع حتى إن قطرات المياه نزلت علينا. سألتني: ماذا تريد إذاً؟ صرخت: أريدك أنت! وعندما أمسكت بها، ضحكت في وجهي أسنانها البيضاء كلّها. قالت لي: عندي زوج! قلت لها: هيّا، هيّا! سألتني: ألديك سيارة؟ أقول لنفسي: ما أكثر السيارات! وعندما احتضنتني حتى أستطيع أن أحملها بشكل أفضل، انهار السقف وراح اللهيب يتراقص حولنا. أحملها كأنها جريحة وأدخلها في أفضل سيارة أجدها واقفة في الشارع، ثم أنطلق. كانت من طراز «بليموث». لم يلاحظ صاحبها -ربما يكون مندوب مبيعات متجوّلاً- أيّ شيء عندما مررت بجانبه، كلّ الناس حملقوا فحسب في خزّان البنزين الذي قد ينفجر في أيّ لحظة».

- «وأنت، يا مستر وايت، استطعت الهروب!».

أمر ممتع كيف يشعر كنوبل بالسرور عندما ينجح شخص آخر في شيء، وجهه يشرق سعادةً.

- «بعد أربع ساعات، كنّا نجلس على خليج هادئ في كاليفورنيا، ورحنا نصطاد في مكان لا يستطيع إنسان أن يرانا فيه. سألتها: بالمناسبة، ما اسمك؟ قالت: فلورنس! وكانت عيناها في سواد نبات ستّ الحسن، وبشرتها كالقهوة. قالت لي: سيقتلك جو إذا أمسك بنا. قهقهت فحسب. قلت لها: لدينا سيارة، ثم رحت أبيّن لها كيف تفتح المحار حتى يكون لدينا طُعم للصيد».

في النهاية نادوا على كنوبل من الخارج، فكان عليه أن يتركني. وهو يمسك بربطة المفاتيح في يديه سألني: «وهل اصطدت شيئاً؟».

«وأيّ صيد!» -قلت له ذلك مشيراً إلى ذراعي المفرود بأكمله- «سمكة بهذا الطووول!».

وكيل النيابة -وهو في الوقت الحالي الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن أسرّ إليه بضيقي الحقيقي من دون أيّ تحريف- جاءني ليودّعني؛ فهو سيسافر مع زوجته (التي ترسل إليّ مرّة أخرى تحيّاتها) في إجازة لمدة عشرة أيام، إلى بونتريسينا. تمنّى كلٌّ منّا للآخر الخير والسعادة.

شعرها أحمر، ووفقاً للمودة الحالية أحمر صارخ، لكنّه ليس في لون مربى ورد المسك، هو يشبه بالأحرى حُمرة مسحوق السلقون الجاف. غريب جدّاً. إلى ذلك، لون بشرة رقيق رقّة بالغة: مرمريّ يشوبه النَّمَش. غريب جدّاً كذلك، لكنّه جميل. والعينان؟ سأقول: لامعتان، منداّتان تقريباً، حتى وإن لم تكن تبكي، لونهما أخضر مائل للزرقة مثل حواف زجاج النوافذ عديم اللون، لكنّهما بالطبع يتمتعان بالحيوية، وبالتالي لا يمكن سبر أغوارهما. شذّبت للأسف شعر الحاجبين حتى أصبحا خيطاً

رفيعاً ما منح وجهها صلابة ورشاقة، لكنّها بدت أيضاً وكأنها ترتدي قناعاً، وكأن ملامح وجهها تعبّر عن دهشة دائمة. أنفها يبدو في غاية النُّبل، لا سيما من الجانب، التعبير الأكثر تلقائية يصدر من المنخرين. شفتاها أنحف من اللازم قليلاً حسب ذوقي، لكنّهما لا يخلوان من الشهوانية، وإن كان لا بدّ من إيقاظها أولاً، أما القوام (في «تايير» أسود) ففيه شيء من الاقتصاد، وأيضاً شيء من الصبيانية، يرى المرء فيها راقصة، أو ربما من الأفضل القول: فيه شيء من الفتوة ما يمنح امرأة في عمرها جاذبية غير متوقّعة. تفرطُ في التدخين. يدها النحيفة جدّاً -عندما تدهس السيجارة التي لم تدخّنها حتى النهاية- لا تخلو من قوة، ولا تخلو من جرعة محترمة من العنف غير الواعي، في حين أنها تبدو هشّة إلى أقصى درجة. تتحدّث بصوت خافت للغاية حتى لا يزأر شريكها. تريد أن تُعامل برفق. حتى هذه الحيلة تستخدمها، حسب ظني، من دون وعي. كما قال لي كنوبل فإن عطرها فاتن كلّ الفتنة؛ لا بدّ أنه نوع جيد، المرء يفكّر مباشرة في باريس، في مصانع «البارفان» بالقرب من فاندوم.

سألتني: «كيف حالك؟».

تستخدم الأسلوب الشائع لدى نساء عديدات -في الحقيقة لديهن كلّهنّ- وهو الإجابة عن سؤال بسؤال، وهو أسلوب أعرفه؛ رغم ذلك عليّ الاحتراس وألّا أستسلم للشعور المورِّط بأنني قابلتها ذات مرّة . سألتني: «ألم تعد تستطيع التعرّف عليّ؟».

الفكرة المسيطرة عليها هي أنني زوجها المفقود، وهي لا تتظاهر بذلك، بل إن فكرتها تتجلّى في كلّ جملة تنطق بها، مهما كانت عَرَضية. واصلت إلقاء الأسئلة: «ألم تعد تدخّن؟».

لاحقاً -إذ لم يكن ممكناً إجراء حديث وسط أسئلتها الكثيرة، التي لم

تكن حتى أسئلة حقيقية، فهي لم تكن تسمح سوى بإجابة واحدة، متجاوزة أيّ شيء غير ذلك باعتباره ليس سوى أعذار- أحكي لها حكاية إيزيدور، ولكن بعد تعديلها لتناسب حالة زائرتي الجميلة، أي بعد حذف الأطفال الخمسة، وبتضمينها، بتصرّف، حلماً حلمته مؤخراً: لا يطلق إيزيدور الرصاص على التورتة بمجرد ظهوره، بل يُظهِر كلتا يديه وعليهما آثار الجروح... حلم مجنون!

تتنهّد سيدتي وتقول: «ياه، ما زلت كما أنت، لا يمكن أن يتحدّث الواحد معك كلمة عاقلة، دائماً تأتي بالتخيّلات التي يفرزها رأسك!».

الأمر غريب، كما أنه مثيرٌ للغيظ، ومؤثّر على نحو من الأنحاء: هذه السيدة من باريس، الجالسة على فراشي الخشبي بـ«تاييرها» الأسود، والتي تدخّن سيجارة عقب سيجارة، هي أبعد ما تكون عن الغباء. المرء يتخيّل أن يقضي معها طوال العصر في مسامرة فاتنة، وحتى أكثر من عصرية واحدة. ابتسامتها ساحرة سحراً خاصاً، ابتسامتها المتعبة بعض الشيء، المريرة لسبب من الأسباب، تثير الفضول للخبرات التي مرّت بها، ولا إرادياً لا يكفّ المرء عن النظر إلى شفتيها، واعياً عندئذٍ بوجود شفتيه هو. لكنّها لا تتزحزح، هكذا يبدو، عن الفكرة الراسخة لديها أنها تعرفني. لا تصدّق مطلقاً أنني قد أكون شخصاً آخر غير زوجها شتيلر المفقود. طوال الوقت تتحدّث عن زيجتها التي، هكذا أسمع، لم تكن مثلما ينبغي أن تكون. أُبدي أسفي مرّة بعد أخرى. عندما تتاح لي فرصة الكلام أخيراً -هي لا تتحدّث كشلّال، مثلاً، على العكس، يقطع كلامها فترات طويلة من الصمت التي تملؤها بالتدخين المتعجّل، وتتخلّلها فترات من الصمت المرير، لا يجرؤ المرء على قطعه، أكثر مما لو كان حديثها سيلاً من كلمات- أقول: «أظن أنهم أخبروك، يا مدام، أنك تتحدّثين مع قاتل...».

تجاوزت ذلك وكأنها سمعت مزاحاً غير لائق.

كرّرتُ عند مجيء الفرصة التالية: «أنا قاتل، حتى إذا لم يكن بمقدور الشرطة السويسرية اكتشاف ذلك. لقد قتلت زوجتي...».

من دون جدوى!

- «أنت غريب. أنت فعلاً غريب، لا بدّ أن أقول ذلك، في هذه الساعة، وبعد أن لم يرَ أحدنا الآخر نصف العمر، تأتي مرّة أخرى بتخيّلاتك، تخيّلاتك الطفولية!».

أعترف أن جدّيتها أربكتني للحظات، مرّة بعد أخرى، ليس في ما يتعلّق بقتلي زوجتي، بل في ما يتعلّق بنجاحي في أن أحرّر هذه السيدة التعيسة من فكرتها الراسخة. ماذا تريد حقّاً مني! أحاول جادّاً، أنا أيضاً، أن أقنعها بأن الزواج لم يُعقد قطّ بيننا؛ أحاول جادّاً، حتى لو هبّت من فراشي، وراحت تذرع زنزانتي ذهاباً وجيئة، هازّةً شعرها الأحمر، ثم تقف أمام شبّاكي ذي القضبان، مدخّنةً، ويداها النحيلتان في الجيبين الصغيرين للتايير المشدود، صامتةً، ناظرة إلى الخارج، إلى شجرة الكستناء الخريفية، على نحو يجعلني لا أرى وجهها.

أقول لها وأنا أتناول سيجارة من سجائرها: «مدام، لقد أتيتِ بالطائرة حتى تسامحي زوجك المفقود، لقد انتظرتِ طوال سنوات هذه الساعة الجدّيّة، بل الاحتفالية، أنا متفهّم ذلك، وبالطبع، كوني لست الرجل الذي كنتِ -بكلّ ما لديك من احتياج إلى الصفح عن كلّ شيء- تنتظرينه، يُعتبر لطمةً لك. أنا لستُ هو يا مدام...».

راحت في إثر ذلك تنفخ دخانها فحسب.

قلتُ وأنا أدخّن أيضاً: «أظن أن الأمر واضح، لسنا في حاجة إلى التحدّث حول ذلك».

- «ما الواضح؟».

- «أنني لست زوجك المفقود».

سألتني من دون أن تنظر في وجهي: «ولمَ لا؟».

نظرتُ أنا على الأقلّ إلى مؤخّر رأسها الرشيق، وقلتُ محافظاً على الدرجة نفسها من الجدّيّة: «مدام، الأمر يمسّ قلبي فعلاً أن أسمعك تتحدّثين عن زواجك المشؤوم، ولكن، أرجوك، لا تأخذي الأمر على محمل سيّئ، فكلّما استمعت إليك، قلّ فهمي لما تقولين. وعموماً، أنا لا أفهم حقّاً ما تريدينه مني. مني أنا: لقد قتلتُ زوجتي، كما قلت، وسيدة مثلك تجاوزت زواجها التعس وهي ما زالت -والحمد لله- مزدهرة ومتألقة... بصراحة، لا أفهم ما الشيء الذي تريدين أن تصفحي عنه لي؟».

صمت.

سألتها: «أتعيشين في باريس؟».

إثر ذلك التفت جسمها؛ دهشةً هادئة جعلت ملامح وجهها أكثر وضوحاً، وأجمل من قبل، وأكثر حيوية، ولهذا يظن المرء أن التواصل معها لا بدّ أن يكون ممكناً، التواصل في ضوء الحقيقة، وجهها يدعوني إلى أن أقبّل جبهتها، طوال برهة، ربما كان عليّ أن أفعل ذلك، أنْ أقبّلها كثيراً، سواء فهمت ذلك على نحو خاطئ أم لا؛ طوال برهة، ثم بدا وكأن أسارير وجهها تنغلق، ثمِ مرّة أخرى الفكرة المسيطرة عليها: «أناتول، ماذا حدث لك؟».

مرّة أخرى أقول لها: «اسمي وايت».

قلَبَتْ الآية ببساطة، وتصرّفتْ وكأن فكرةً تسيطر عليّ أنا. ألقت بسيجارتها المشتعلة عبر قضبان النافذة (وهو أمر ممنوع منعاً باتّاً، مثل أشياء كثيرة هنا)، ووقفت أمامي، بالطبع من دون أن تلمسني، لكنّها متأكّدة

من أنني سأمسك بها بعد أن يغلبني الندم فجأة، وأطلب منها الصفح. وللحظات، بالفعل، يصبح المرء أعزل تماماً، المرء يبتسم، رغم أن الأمر لا يبعث على الفكاهة: قد أبدو مثل قزم، مثل مينوتور[*]، مثل - لا أعرف مثل ماذا! ولن يغيّر من الأمر شيئاً، لا شيء على الإطلاق أنها غير قادرة على استيعاب حضور كائن آخر غير زوجها المفقود.

قالت لي: «لم أتخيّل قطّ أن تصاب بالصلع! لكنّه يليق بك».

أصمتُ. أفقدُ الوعي. بإمكاني أن أمسك بهذه السيدة وأخنقها، ولن تكفّ عن الاعتقاد بأنني زوجها المفقود.

- «لماذا لم تكتب لي ولا مرّة؟!».

صَمَتٌّ.

- «لم أكن حتى أعرف ما إذا كنت على قيد الحياة...».

صَمَتٌّ.

- «أين كنت إذاً طوال هذه السنوات؟».

صَمَتٌّ.

مكتبة
t.me/t_pdf

- «أنتَ صامت!».

صَمَتٌّ.

- «تختفي هكذا، ولا ترسل أيّ خبر عنك! خصوصاً في تلك الفترة! كنتُ معرّضة للموت...».

قلت لها: «والآن، كفى!».

لم أعد أعرف كلّ ما قالته، وواصلت كلامها إلى أن أمسكت بها، وحتى عندئذٍ ظلّت الفكرة تسيطر عليها من دون أن تتزعزع، ولذلك نظرتْ إلى

(*) شخصية خرافية في الميثولوجيا الإغريقية بجسد إنسان ورأس ثور. (المترجم).

كل حركة ونأمة من جانبي -سواء كانت ضحكة أو ارتعاشة- على أنها محض تأكيد، ولم تتوقف عن الصفح عني، أمسكت بها وهززتها بشدّة، ثم رميتُ بالسيدة على الفراش القاسي، حتى إنها ظلّت راقدة وقد انفرط عقد البلوزة التي ترتديها، التايير مكرمش، الشعر منكوش، وعلى الوجه ملامح براءة ودهشة. لم يكن بمقدورها أن تنهض، إذ إنني ركعت على الفراش أيضاً، وأمسكت بقبضتي اليسرى كلتا يديها، حتى إنها من الألم أغلقت عينيها صارختي الجمال. شعرها المنساب رائع، رقيق وخفيف كالحرير. راحت تتنفّس وكأنها انتهت من الجري، صدرها كالمضخة، وفمها مفتوح. أسنانها القواطع ممتازة، وإن كانت لا تخلو من حشو، في ما عدا ذلك كانت برّاقة مثل عقد من اللؤلؤ الجميل. عجزت عن الكلام لأن يدي الأخرى كانت تحيط بفكّها الأسفل الرقيق. رحت أتأملها مثلما يتأمل المرء شيئاً، فجأة نظرت إليها بموضوعية تامّة، امرأة، امرأة غريبة، امرأة ما. لو لم يكن «كنوبل» حارسي قد دخل بالمنفضة.

لا مفرّ. أعرف ذلك وأقولها لنفسي كلّ يوم. لا مفرّ. لقد فررت حتى لا أقتل، ثم علمت أن محاولة الهرب تحديداً هي جريمة القتل. ليس هناك سوى شيء واحد: أن أتحمّل تبعات هذه المعرفة، حتى لو كانت تلك المعرفة -أنني قتلت نفساً- لا يشاركني فيها أحد.

تخاريف! عليّ أن أحكي حياتي، وعندما أحاول أن يفهمني الآخرون، فإنهم يقولون: تخاريف! (على الأقلّ أعلم الآن من أين جاء محاميّ بهذه الكلمة ومعها تلك الابتسامة المتعالية!) إنه يصغي إليّ ما دمت أتحدّث عن منزلي في أوكلاند والزنوج ووقائع أخرى؛ لكن بمجرّد أن أتناول حكايتي

الحقيقية، بمجرّد محاولتي أن أخبره ما لم يعد بالإمكان إثباته بالصور، مثلاً ما يحدث بعد أن يطلق المرء رصاصة على الصدغ، عندئذٍ يشرع محاميّ في تنظيف أظفار أصابعه، ويتحيّن الفرصة لقطع كلامي بأيّ أمرٍ تافه: «كان لديك منزل في أوكلاند؟».

أجيب باختصار: «نعم، لماذا؟».

– «أين تقع أوكلاند؟».

– «أمام سان فرانسيسكو».

– «آاه، فعلاً؟».

عرض المنزل أربعة أمتار، وطوله 13 متراً (يدوّن محاميّ ما أقول – هذا هو ما يريد معرفته!)، وهو في الحقيقة، لكي أكون دقيقاً دقّةً تامّة، أقرب إلى أن يكون كوخاً خشبياً. كان في الأصل بيتاً في مزرعة، المزرعة التهمتها المدينة، ولم يبقَ سوى الكوخ الخشبي، ولكن في حالة يرثى لها. وبجانبه شجرة عملاقة، أوكالبتوس، لن أنسى قطّ حفيف أوراقها الفضّية. لا يحيط بالمنزل سوى الأسقف، سماء تكتظّ بأعمدة التليفون المائلة وعليها ملابس الجيران الزنوج المرفرفة. وحتى أكون دقيقاً دقّةً تامّة مرّة أخرى: إلى يميني يسكن صينيون. ولا ينبغي أن ننسى الحديقة الصغيرة الشعثاء كثيفة النباتات. في الآحاد يُسمع ترتيل الزنوج من كنيستهم الخشبية. غير ذلك ليس هنالك سوى السكون، فيض من السكون؛ في بعض الأحيان نفير مبحوح من الميناء، صليل السلاسل الذي يسري تحت الجلد ويسبّب قشعريرة. بالمناسبة، لم أكن مالك هذا الكوخ الخشبي الصغير، كنت مستأجراً فحسب. لم يكن معي آنذاك أيّ نقود. كانت أجرة المنزل تتلخّص في أن أطعم القطة. وأنا لا أطيق القطط. لكن في المقابل –طعام القطة كان مُعَدّاً ومعبّأ في علب حمراء– كان لديّ مطبخ بموقد وثلّاجة، وحتى راديو.

في الليالي الساخنة لم يكن بالإمكان تقريباً تحمّل السكون؛ كنت سعيداً بالراديو.

- «وعشت هناك وحدك تماماً؟».

- «لا، مع القطة».

حتى القطّة لم يدوّن شيئاً عنها، مع أن هذه القطة -هكذا أظن اليوم- كانت النذير الأول. أطلق عليها أصحابها Little Grey، الرمادية الصغيرة، وكانوا يقدّمون لها الطعام دائماً في المطبخ، وهي عادة لم أكن أريد الاحتفاظ بها، على الأقلّ بسبب الرائحة. كنت أفتح يومياً علبة، وأقلب المحتوى المقزّز في طبق بالخارج في الحديقة، وهو ما لم تكن القطة، المدلّلة، تريد أن تقبله. قفزت على حافة شبّاكي المفتوح! بعينين خضراوين سدّدت لي نظرة متوهّجة، متوعّدة. كيف أستطيع في مثل هذه الظروف أن أقرأ؟ بسرعة ألقيت بها -لم تكن سوى حزمة من الأصابع المرتعشة- إلى الليل الكاليفورني، وأغلقت كلّ النوافذ. جلست متوعّدةً أمام اللوح الزجاجي، متوعّدة، كلّما نظرت إليها وجدتها كذلك، طوال ساعات، طوال أسابيع. لم أهمل يوماً إعطاءها الطعام من العلبة، فهذا هو واجبي، الواجب الوحيد في حياتي آنذاك. وهي لم تدع فرصة من دون أن تتسلّل مرّة بعد أخرى إلى المنزل عبر أي شباك مفتوح (فلم يكن بمقدوري أن أقضي الصيف كلّه خلف النوافذ المغلقة!)، ثم فجأةً تداعب قدميّ عندما أكون سعيداً. كان صراعاً حقيقياً، صراعاً مثيراً للسخرية بمرور الوقت، صراعاً فظيعاً؛ طوال ليالٍ كنت أرقد وقد جافاني النوم، لأنها تموء حول كوخي، مشوّهةً سمعتي لدى كلّ الجيران وكأنني إنسان متوحّش. أدخلتها، ووضعتها في الثلّاجة، لكنني لم أستطع النوم بالرغم من ذلك. وعندما رأفتُ بها، لم تعد تنظر إليّ نظرةً متوعّدة؛ أعددت لها حليباً دافئاً، لكنّها تقيّأته. أوحت نظرتها

بالموت. كان بمقدورها أن تفسد لي كلّ شيء، الكوخ الصغير، الحديقة المتواضعة؛ كانت حاضرة حتى لو لم تكن حاضرة، ما جعلني أبحث عنها عند مقدم الليل. سألت الزنوج على حافة الرصيف ما إذا كانوا رأوا قطّتي الرمادية الصغيرة، فهزّوا أكتافهم المستديرة. ظلّت بعيداً أحد عشر يوماً وإحدى عشرة ليلة. وذات مساء حارّ -كانت هيلين تزورني- وجدتها تقفز من حافة النافذة. صاحت هيلين: «My Goodness!»؛ أقعت القطة بجرحٍ مفتوح في الوجه يقطر منه الدم، وبنظرة توحي وكأنني أنا الذي جرحتها. لمدة أسبوع كنت أقدّم لها الطعام في المطبخ؛ لقد نجَحَتْ في الوصول إلى ذلك. أو، على الأقلّ، كادت تنجح، إذ إنني ذات مرّة بعد منتصف الليل، عندما حلمتُ بها، هبطت إلى الدور الأرضي، وتناولتها من وسط الوسائد الدافئة حيث بَنَتْ لنفسها عُشّاً، وحملتها خارجاً إلى الحديقة الليلية، وذلك بعد أن تأكّدت من شفاء جرحها. وبدأ كل شيء من البداية؛ قبعت من جديد أمام اللوح الزجاجي ونظرت إليّ متوعّدة. لم أستطع أن أتغلّب على هذا الحيوان - ابتسم محاميّ وسألني: «ولكن في ما عدا ذلك، كنت تعيش بمفردك».

- «لا، مع هيلين».

- «ومن هي هيلين؟».

«امرأة»، قلتُ مغتاظاً من مهارته في توريطي في ثانويات، ومن قلمه الـ«إيفرشارب» الذي يدوّن به على الفور الأسماء.

«تحدّثْ بصراحةٍ تامّة!»، قال لي، وبعد أن قدّمت له حكاية نسائية متوحّشة إلى حدّ كبير، أكّد لي: «بالطبع ستبقى هذه الأشياء طيّ الكتمان. على كلّ حال لن أقول للسيدة شتيلر كلمة واحدة من ذلك».

لكنّي آمل أن يثرثر!

قرأتُ في الكتاب المقدّس.

(حلم مقزّز حول المواجهة مع يوليكا شتيلر تشودي: أرى من الخارج عبر النافذة شاباً -ربما هو المفقود- يسير بين الموائد الصغيرة، رافعاً كفّيه المسطّحتين، ليُظهر البقع ذات اللون الأحمر الفاتح، وكأنه يتسوّل بوصمته، ولكن لا أحد يصدّقه، موقف محرج، أنا شخصياً أقف في الخارج، كما قلت، وبجانبي السيدة من باريس التي لا أعرف وجهها؛ وهي تشرح بتهكّم أن هذا المتسوّل ذا الوصمة هو زوجها، ثم تعرض عليّ أنا أيضاً كفّيها: لديها هي أيضاً آثار جرحٍ باللون الأحمر الفاتح، من الواضح أن الأمر بين الاثنين -هكذا أحدس- كان يتعلّق بهما، مَن منهما هو الصليب ومَن المصلوب، كلّ هذا دون أن يبوح أحدٌ بشيء؛ الناس الذين يجلسون إلى موائد المقهى الصغير ومعهم المجلّات...).

يودّ حارسي أن يعرف مَن هي هيلين. سمع الاسم لتوّه في مكتب النائب العام. أصبح حارسي يعرف الآن أنها كانت زوجة سيرجنت أميركي، وأن هذا السيرجنت جاء من سلاح البحرية ذات يوم في الصباح الباكر وفاجأنا في الشقّة... كنت متعباً للغاية ولا أستطيع أن أحكي عن القتل، فلم أقل له سوى: «كان فتى جذّاباً».

- «زوجها؟».

- «كان يطلب من زوجته أن تذهب إلى المحلّل النفسي، وهي طلبت منه الشيء نفسه».

- «وماذا حدث؟».

- «هذا هو كلّ شيء».

شعر حارسي بخيبة أمل، غير أن خيبة الأمل هذه تتضمّن شيئاً جيداً

أيضاً، هكذا تأكّد لي؛ فالقصص المخيّبة للآمال تحديداً، القصص التي ليس لها نهاية صحيحة، وبالتالي ليس لها مغزى حقيقي، هي التي تبدو قريبة من الحياة.

غير ذلك لا جديد.

ملحوظة:

لا أعلم بماذا يعِدون أنفسهم عندما يقومون بمثل هذه المعاينات لمسرح الجريمة. على ما يبدو تخلّوا عن خطّتهم باقتيادي إلى أتيليه رجلهم المفقود، أو على الأقلّ أجّلوها بعد أن وعدتهم بتحطيم رأس ذلك الرجل الذي سبّب لي كلّ هذه المتاعب. والآن سمعت أنهم يريدون السفر معي إلى دافوس. لماذا؟

بإمكانك أن تحكي كلّ شيء، إلا حياتك الحقيقية؛ هذه الاستحالة هي التي تبقينا محكومين بالصورة التي يرانا عليها ويعكسها عنا رفقاؤنا، الرفاق الذين يدّعون أنهم يعرفونني، الرفاق الذي يعتبرون أنفسهم أصدقاء لي، ولا يسمحون لي أبداً بأن أتغيّر، ويسحقون كلّ معجزة (ما لا أستطيع حكايته، ما لا يُنطق به، ما لا أستطيع البرهنة عليه) - فقط حتى يستطيعوا القول: «إنني أعرفك».

خرج محاميّ عن طوره، الأمر الذي كنت أتوقّعه إن آجلاً أو عاجلاً، ولكن من دون أن يفقد السيطرة على أعصابه، أصبح شاحباً فحسب بسبب ذلك. نظر إلى عينيّ الناعستين دون أن يلقي تحية الصباح، صامتاً، واضعاً حقيبته الجلدية على ركبته، ثم انتظر إلى أن اعتقد أنني استجمعت قواي، وأن فضولي قد أُثير لكي أعرف سبب استيائه. قال: «أنت تكذب».

على الأرجح كان يتوقع أن يحمرّ وجهي، ما زال لم يفهم شيئاً. أضاف مشتكياً: «كيف أستطيع أن أصدّقك في المستقبل؟ إن كلّ كلمة تخرج من فمك تصبح محلّ شكٍّ بالنسبة إليّ، محلّ شكوك عظيمة، وذلك بعد أن حصلت على مثل هذا الألبوم - تفضّلْ! شاهِد هذه الصور بنفسك!».

نعم، هي صور، ولا أريد أن أنكر أن هناك تشابهات معيّنة بين شتيلر المفقود وبيني؛ رغم ذلك فإنني أرى نفسي مختلفاً تماماً. راح يسألني مرّة بعد مرّة: «لماذا تكذب؟ كيف يمكنني أن أدافع عنك إذا كنت لا تقول حتى لي أنا الحقيقة الكاملة؟!».

لا يستطيع أن يفهم. سألتُه: «من أين لك بهذا الألبوم؟».

لا ردّ.

- «ثم تجرؤ على الادّعاء أمامي أنك لم تعِش قطّ في هذا البلد، نعم، بل وأنك لا تستطيع أن تتخيّل مجرّدَ تخيُّل أن تعيش في مدينتنا!».

- «من دون ويسكي لن أتحدّث».

- «تفضّل! انظر!».

أحاول في بعض الأحيان أن أساعده.

- «السيد الدكتور، إن كل شيء يتوقف على مفهومنا عن الحياة! الحياة الحقيقية، الحياة التي تغدو شيئاً حيّاً، وليس مجرّد ألبوم مصفرّ، ليس بالضرورة أن تكون حياة عظيمة، أو تاريخية، أو لا تُنسى، أنت تفهمني يا حضرة الدكتور، الحياة الحقيقية، قد تكون حياة أُمّ بسيطة للغاية، أو حياة مفكّر كبير، أو مؤسّس رسّخ اسمه في تاريخ العالم، ولكن ليس بالضرورة، أرى أن الأمر لا يتوقف على أهميتنا. من الصعب القول ما الذي يجعل حياتنا حياة حقيقية. أقول: حقيقية، ولكن ماذا يعني هذا! يمكنك أيضاً أن تقول: أن يكون المرء متّحداً مع ذاته. وإلا فهو لم يكن قطّ! انظر يا دكتور،

هذا هو رأيي: أن تكون، حتى إذا كانت كينونتك بائسة، نعم، في النهاية قد تكون محض ذنب، هذا شيء مرير، عندما تكون خلاصة حياتنا ليست سوى ذنوب وأخطاء، جريمة قتل مثلاً، قد يحدث هذا، ولسنا في حاجة هنا إلى نسور تحوم حول الجثة، أنت مُحقّ، السيد الدكتور، كلّ هذا ليس إلا كناية ومحاولة للوصف. أتفهمني؟ أتحدّث بشكل غامض جدّاً عندما لا أنطلق في سرد الأكاذيب توخّياً للاسترخاء؟ «الخلاصة» أيضاً ليست سوى كلمة، أعرف، وربما نتحدّث عموماً عن الأشياء التي نفتقدها، ولا ندرك كنهها. الربّ هو الخلاصة! هو حصيلة الحياة الحقيقية، أو على الأقلّ يبدو لي الأمر هكذا في بعض الأحيان. هل الكلمة أيضاً خلاصة؟ ربما تكون الحياة، الحياة الحقيقية خرساء - ولا تخلّف أيّ صور، السيد الدكتور، بل لا تخلّف عموماً أيّ شيء ميت!».

لكن محاميّ يكتفي بما هو ميت، ويقول لي: «تفضّل! هنا: وأنت تطعم البجع، لا أحد سواك، وفي الخلفية، أنت ترى بنفسك، كاتدرائية زيورخ العظيمة! تفضّل!».

شيء لا يمكن إنكاره: في الخلفية (غير واضحة تماماً) يرى المرء كاتدرائية صغيرة، أو الكاتدرائية العظيمة كما يسمّيها محاميّ.

أقول له مرّة ثانية: «كل شيء يتوقف بالفعل على مفهومنا للحياة...».

يقول محاميّ وهو يواصل تقليبه في الألبوم: «تفضّل: أناتول في "الأتيليه" الخاص به، أناتول على جبل "بيتس بالو"، أناتول كجندي مستجدّ وبشعرٍ حليق، أناتول أمام اللوفر، أناتول في حديث مع عضو بمجلس المدينة بمناسبة تسلّمه جائزة...».

- «وماذا يعني هذا؟».

التفاهم بيننا يقلّ يوماً بعد يوم. لو لم يكن السيجار الذي أحضره لي

معه رغم غضبه مني، ما كنت تحدّثت معه بعد الآن مطلقاً، وسيكون ذلك أفضل على ما أعتقد. ما نتيجة هذه التحقيقات؟! من دون جدوى حاولت أن أوضح له أنني، أنا نفسي، لا أعرف الحقيقة الكاملة، ولا أريد أن يبرهن لي السادة الطواويس أو السادة أعضاء مجلس المدينة على كينونتي الحقيقية. سأمزّق على الفور أيّ ألبوم آخر يحضره إلى زنزانتي. من دون جدوى! لا يريد محاميّ أن يخرج من رأسه أنني شتيلر، وأن عليّ أن أكون شتيلر، لمجرّد أن يكون بمقدوره عندئذٍ أن يدافع عني، وعندما أتمسّك بأن أكون أنا نفسي وليس أيّ شخص آخر، يطلق على ذلك تمثيلاً أبله. مرّة أخرى ينتهي حديثنا بصراخ متبادل.

أصرخُ: «لستُ شتيلر!».

«مَن إذاً؟»، يصرخ فيّ: «مَن إذاً؟!».

ملحوظة:

سيجاره يُخجلني. وضعت لتوّي السيجار الصغير الجافّ بين أسناني، ثم سحبت الأنفاس الأولى التي يتميّز مذاقها دائماً بالجفاف الشديد والشذا الطيب، بسرعة أشعر بالشبع من النكهة، فأسحب السيجار مرّة أخرى من شفتي، لكي أتأمله بوعي. ماركة «دانيمان»! ماركتي المفضّلة! ليغيتيموس! وهكذا يبدأ ثانية...

بالأمس في دافوس. مثلما وصفها توماس مان تماماً. كما أن المطر لا ينقطع طوال اليوم. رغم ذلك ينبغي عليّ أن أتنزّه معها في طريق معيّن، منصاعاً ليوليكا، وأن أرى السناجب، وأن أتلقّى عدّة مرّات من محاميّ كيزان الصنوبر المخروطية لكي أشمّها. وكأنني أنكرت شذا الصنوبر

المميّز! بعد ذلك تحتّم عليّ في مطعم معيّن أن آكل الحلزون اللذيذ جدّاً كما هو معروف، لكن الآكل تفوح منه بعد ذلك رائحة الثوم النفاذة. خلال ذلك لاحظت بالطبع أنهما يتبادلان النظر دائماً، يوليكا ومحاميّ، وينتظران أن أنفجر معترفاً، أو على الأقلّ باكياً. لكني أستمتع جدّاً بتناولي الطعام مرّة أخرى على مائدة يغطّيها مفرش أبيض. لم ينشأ حديث بيننا، ولهذا حكيت عن المكسيك، والجبال المحيطة بها، ورغم أنها جبال صغيرة جدّاً فإنها تُذكِّر ببركان بوبوكاتيبتل، وتُذكِّر بمضيق كورتيث، وما زلت أعتبر أن غزو المكسيك حكاية من أكثر الحكايات سحراً.

يقول محاميّ: «ربما، ولكننا لسنا هنا لكي تحكي لنا عن كورتيث ومونتيزوما(*)!».

أرادوا أن يأخذوني إلى دار الاستشفاء حيث كانت ترقد يوليكا آنذاك؛ لكن الدار احترقت في السنوات الماضية، وهو ما أصاب محاميّ بالحزن الشديد. بعد الطعام قُدّمت القهوة، ومعها كرز، وسيجار حسب الاختيار. أفكّر متعجّباً: لماذا ينالون تعويضاً عن السفر؟ هذه الرحلة الصغيرة كلّفت ما يقرب من مئتي فرنك سويسري؛ أنا والمحامي سافرنا بسيارة السجن الرسمية (ويُضاف إلى ذلك طعام السائق والشرطة!)، يوليكا سافرت بالقطار. الطبيعة جميلة، بلا شك، لو كان الطقس أفضل. مرّة ونحن في الوادي نسبق القطار الصغير. يوليكا تلوّح.

خوفي: التكرار!

(*) مونتيزوما الثاني (1466–1520) هو حاكم إمبراطورية الأزتك، وفي عهده حدث أول تلاقٍ بين الهنود الحمر في أميركا الوسطى والأوروبيين. لقي حتفه في بدايات الغزو الإسباني للمكسيك. (م).

اكتشفت السيدة يوليكا شتيلر تشودي الندبةَ القديمة فوق أذني اليمنى، وتودّ أن تعرف من أين جاءت. لا تكفّ عن الإلحاح. أقول لها: «أراد أحدهم أن يقتلني بالرصاص».

«لا» -تقول بإلحاح- «بجدّ؟!...».

أحكي لها حكاية.

ملحوظة:

كلّما رأيت يوليكا، وجدتها مختلفة تماماً عما ظننته بعد الزيارة الأولى. لا أستطيع أن أصف طباعها. هناك لحظات تكون فيها رشيقة رشاقة غير متوقعة، وخاصة عندما لا يكون محاميّ موجوداً، لحظات من البراءة الآسرة، ازدهار فجائي لسنوات الصبا التي لم تعشها قطّ، وجهٌ بكر أيقظه الخالق بأنفاسه توّاً. عندئذٍ يستولي الاندهاش عليها هي، سيدة ترتدي «تايير» أسود وقبعة باريسية، في الأغلب محاطة بغلالة من دخان السجائر. لا أفهم هذا المفقود شتيلر! إنها فتاة خفيّة، تنتظر خلف وشاح من النضج الأنثوي، جميلة للحظات جمالاً يأخذ بلبّ المرء. ألم يكن ينظر إليها شتيلر؟ لا شيء أنثويّاً ليس بحوزة هذه المرأة، على الأقلّ كإمكانية، تحت الركام ربما، تكفي عيناها (عندما لا تعتبرني لوهلة شتيلر!) والبريق الذي يشعّ منهما، بريق توقعات مُشرعة، ما يجعل المرء يشعر بالغيرة من الرجل الذي أيقظها ذات يوم.

التكرار! مع أنني أعلم: كل شيء يتوقف على نجاح المرء في ألّا ينتظر حياته خارج التكرار، بل أن يجعل، طواعيةً (رغم الإجبار)، من التكرار، التكرار الحتمي، جزءاً من حياته، وذلك بأن يعترف: هذا هو أنا!... لكن

كلمة تكفي، مرّة بعد أخرى (حتى في التكرار)، سحنة تفزعني، طبيعة تذكّرني بشيء، عندئذٍ يستحيل كلّ شيء داخلي إلى هروب، هروب بلا أمل في الوصول إلى مكانٍ ما، الهروب خوفاً من التكرار فحسب...

اليوم في أثناء الاستحمام بالدشّ، قال اليهودي القصير ونحن نتصبّن، ربما يرى كلٌّ منّا الآخر لآخر مرّة، فهو سيشنق نفسه قريباً. ضحكت ونصحته ألّا يفعل. بعد ذلك سار كلٌّ بمفرده عبر الممرّات، والمنشفة حول العنق...

أحدثُ شيء:

«لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً»، قال كنوبل، ثم أضاف: «وستخرج أخيراً إلى الويسكي الذي تحبّه، مستر وايت، ربما خلال هذا الأسبوع!».

عندما سألته ماذا يعني، صمتَ؛ ولاحظت على الفور أنه سمع شيئاً، لكنّه لا يستطيع إفشاءه. وفي الختام قال وهو ممسكٌ بدلو الحساء في يده: «يبدو أنك أعجبت السيدة جدّاً».

– «وبَعد؟».

أجاب بصوت خفيض: «على كل حال تركت السيدة كفالة مالية... مبلغاً محترماً!».

– «من أجل ماذا؟».

ابتسم الحارس وغمز بعينه قائلاً: «من أجلك، مستر وايت! حتى يُسمح لك بالتمشية مع السيدة!».

مرّةً أخرى (للمرّة الأخيرة!) حاولت اليوم أن أقدّم يد العون لمحاميّ المجتهد بشدّة كي أنقذه من سوء فهم وضعي، وهو سوء فهم يكاد يكون

مؤثّراً جداً، ما يسبّب له عملاً كثيراً، عملاً لا طائل من ورائه، كما يجعله غاضباً معي، مع أنني، من ناحية أخرى، لا بدّ أن أكون ممتنّاً له من أجل السيجار اليومي.

سألته وأنا أضع مرّة أخرى السيجار القصير الجاف بين أسناني: «هل تعرف حكاية ريب فان فينكله؟».

بدلاً من الإجابة قدّم لي ولّاعته.

قلت له والسيجار في فمي، ولذلك خرج الكلام مبهماً بعض الشيء: «حكاية خرافية أميركية، قرأتها وأنا صبي، أي قبل عقود، في كتاب وضعه سِفِن هيدين، على ما أعتقد. هل تعرفها؟».

خلال ذلك (وهو شيء مهمّ) أمسكت بولّاعته الفضّية ذات الشعلة، من دون أن أشعل السيجار الفوّاح، الذي يمثّل المتعة الوحيدة في حبسي الاحتياطي، كلا، رغم اشتهائي الكبير كرّرت سؤالي: «لا تعرفها؟».

- «ماذا؟».

- «حكاية ريب فان فينكله؟».

بهذه الحيلة فحسب، أي بالولّاعة في يدي التي كنت أشعلها في كلّ مرّة بعد أن تنطفئ، وفي اليد الأخرى السيجار، ودائماً على وشك إشعال السيجار الجميل أخيراً، نعم، وفي مرّة رأيت الوهج الأول في السيجار، ولم يكن عليّ إلا أن أواصل سحب الأنفاس، لكني، في اللحظة الأخيرة، لا أفعل، مرّة أخرى -بسبب ريب فان فينكله الذي كانت حكايته الخيالية على ما يبدو أكثر إلحاحاً في تلك اللحظة من سيجاري- بهذه الطريقة فحسب استطعت أن أُكرِه محاميَّ المجتهدَ النشيطَ على أن يصغي أخيراً إليّ، وأن يصغي بانتباه.

الحكاية كالتالي تقريباً:

ريب فان فينكله -من سلالة آل فان فينكله الشجعان الذين أخضعوا الأراضي الأميركية آنذاك تحت سيطرة البحّار هندريك هَدسون- كان بطبيعته كسولاً، ومع ذلك يبدو أنه كان فتىً طيّب القلب، لم يكن يصطاد الأسماك من أجل اصطيادها، بل من أجل أن يحلم، فرأسه كان يزدحم بالأفكار التي لم يكن لها أي علاقة مع واقعه. واقعه: امرأة طيبة حقّاً لا يستطيع أيّ أحد في القرية أن يشعر تجاهها سوى بالأسف أو بالإعجاب، لم تكن أيامها معه سهلة. بالتأكيد شعر ريب أن عليه أن يمتهن مهنة، مهنة رجال، وكان يحب أن يدّعي أنه صيّاد، إذ تتيح له هذه المهنة أن يهيم على وجهه طوال أيام، وألّا يراه أحد خلال ذلك. في الغالب كان يعود دون حمامة واحدة في يده، مثقلاً بتأنيب ضميره فحسب. كان منزله الصغير المنزل الأكثر إهمالاً في القرية كلّها، فضلاً عن حديقته. لم تكن الحشائش الضارّة تنمو بكثافة وحيوية في أي مكان مثلما تنمو في حديقته. أما العنزات التي كانت تضلّ طريقها وتسقط في الأخاديد، فهي دائماً عنزاته. كان يتقبّل ذلك بلا غضب، إذ إنه كان إنساناً باطنياً، على عكس أسلافه الذين ينظرون من الصور القديمة دائماً نظراتٍ متعطّشة إلى الفعل. كان يقعد طوال أيام أمام منزله الصغير المهمَل، سانداً ذقنه بقبضته، ومطلقاً العنان لتأملاته حول سبب عدم شعوره بالسعادة الحقّة. لديه زوجة وطفلان، لكنّه لم يكن سعيداً. كان ينتظر من نفسه أكثر. كان قد بلغ الخمسين وما زال ينتظر، حتى وإنْ أثار انتظاره سخرية زوجته الطيّبة ورفاقه. لم يفهمه سوى باوز، كلبه ذي الشعر الغزير المنكوش، وكان يحرّك ذيله عندما يمسك ريب ببندقيته حتى يذهب لاصطياد السناجب. كان قد ورث عن أسلافه البندقيّة الثقيلة المليئة بالزخارف. بالتأكيد كانوا يبتسمون خلسةً عندما يحكي ريب عن رحلات الصيد التي يقوم بها؛ ودائماً ما كان يمرّ بمغامرات أكثر مما يطلق النار. منذ فترة طويلة كانت زوجته، الأم لطفلين، قد سئمت حكاياته التي

لا تُطعم ولا تشبع؛ عيّرته على الملأ بكسله، الأمر الذي لم يتحمّله ريب. وهكذا راح ريب، حتى يستطيع أن يحكي حكاياته، يجلس كلّ مساء تقريباً في حانة القرية حيث كان البعض يصغي إليه دائماً، حتى وإن كانت حكاياته لا تطعم أحداً؛ سلاحه الفخم والكلب المتعب القابع بين قدميه يكفيان ريب عندما يسترسل في حكاياته عن الصيد. كان الناس يحبّونه كثيراً، فهو لا يؤذي أحداً بحكاياته. على العكس، يبدو أنه كان يشعر دائماً بقليل من الخوف من العالم، وكان في أمسّ الحاجة إلى حبّ الناس. كان يسكر قليلاً أيضاً. ولم يكن يهتمّ عندما لا يصغي إليه أحد؛ على كل حال لم يكونا يذهبان إلى البيت قبل منتصف الليل، ريب وكلبه الذي يحشر ذيله بين قائمتيه الخلفيتين بمجرّد أن يسمع صوت قدمي السيدة فان فينكله، ففي كلّ مساء كانت هناك ثرثرة لم يفهم منها ريب الكثير، ولا كلبه، محض ثرثرة تنطلق وهو يخلع حذاءه ذا الرقبة، وكان واضحاً، بالطبع، أن الأمور لا يمكن أن تسير هكذا، لكن ذلك كان واضحاً منذ سنوات في الحقيقة.

وذات يوم انطلقا، ريب وكلبه الوفي، مرّة أخرى لاصطياد السناجب، بخطواتٍ سريعة ما داما في نطاق رؤية أهل القرية؛ ثم، كالمعتاد، يتوقف ريب أول مرّة، ويأكل شيئاً من زاده، في حين يقف باوز منتبهاً ليرى ما إذا كان أحد يأتي من خلف التل. مكافأة له على ذلك، كان باوز، كالمعتاد، ينال عظمة صغيرة، أما ريب فيضع غليونه في فمه لكي يمنح كلبه، الذي كشّر عن أنيابه، وغرزها في العظمة الخالية من اللحم، استراحةً لائقة. وأخيراً يجرّان أقدامهما ويواصلان السير مع بزوغ الصبح، في التلال الرحبة خلف نهر هدسون المتلألئ، منطقة رائعة، ما زال بإمكان المرء أن يتأكّد من ذلك حتى اليوم، منطقة لم تكن تخلو من السناجب. يعلم الرب وحده لماذا ظلّ ريب يدّعي أمام كل الناس أنه صيّاد! غارقاً في الأفكار التي لم يطّلع عليها إنسانٌ قطّ، كان يسير في الغابة بخُطا متمهّلة. ثمّة أرانب أيضاً في الغابة،

بل وحتى أيائل! ظلَّ ريب واقفاً يتأمل برهبة الأيل المندهش، اليدان في جيبي السترة، والبندقيّة على الكتف، والغليون في الفم. كان واضحاً أن الأيل لا ينظر إليه مطلقاً على أنه صياد، ولذلك راح يرعى بهدوء. قال ريب لنفسه: على المرء أن يكون صياداً! أخذ يفكّر فجأة في الحانة المسائية، وفي زوجته الوفية، ثم تناول بندقيته واستعدّ لإطلاق النار. صوّب سلاحه تجاه الأيل الذي تطلّع إليه؛ وضغط أيضاً على الزناد، لكن البندقيّة لم يكن فيها بارود! كان الأمر غريباً، نبح الكلب رغم أن رصاصة واحدة لم تنطلق، وفي الوقت نفسه سُمعت صيحات من الأخدود: ريب فان فينكله، ريب فان فينكله! فتى غريب الشأن طلع له من الأخدود الصخري الذي ظهر فجأة، كان الفتى يلهث تحت عبء ثقيل، محنيّ الظهر فلا ترى وجهه، ملابسه تصيب المرء بالذهول: سترة عتيقة مثل التي يراها المرء في الصور الأثرية، وسروال واسع بشريطين ملوّنين؛ نعم، لم تكن تنقصه أيضاً لحية صغيرة أسفل الذقن تشبه لحى الأسلاف. وعلى كتفيه كان يحمل برميلاً صغيراً منتفخاً وممتلئاً بمشروب روحي مقطّر. لم يتركه ريب ينادي طويلاً. أنت إنسان مهذّب! قال له الفتى ذو السكسوكة، أنت إنسان خدوم! وبهذه الكلمات التي أثارت السرور في نفس ريب، وضع البرميل الصغير على كتفيه، وهكذا تخلّى ريب عن أيّ سؤال آخر. في البداية طلع الجبل، ثم سلك طريقاً هابطاً إلى أخدود آخر في منطقة لم يرها ريب من قبل قطّ. حتى باوز، الكلب الوفي، لم يشعر مطلقاً بأنه يعرف المكان، فالتصق بساقَيْ سيّده مستعطفاً وباكياً. سمع قعقعة أشياء تتدحرج من الأخدود مصدرةً صوتاً كأنه الرعد! وأخيراً وصل، ونزع عن كتفيه اللذين عذّبهما الألم البرميل الصغير الثقيل، فاستطاع ريب أن ينصب قامته وأن ينظر حوله. قال الفتى ذو السكسوكة: هذا هو ريب فان فينكله!

رأى ريب نفسه وسط مجموعة من السادة، كلّهم من الطاعنين في

السن ويضعون فوق رؤوسهم قبعات هولندية، وجوههم جامدة الملامح واحتفالية، وبها لحى أثرية. لم ينطق أحد بكلمة، ريب وحده أومأ برأسه. كانت تلك مجموعة، كما اتضح، من لاعبي «البولينغ». ولهذا سُمعت القعقعة والدحرجة في الأخدود! كان على ريب أن يملأ على الفور الجرار، فتناول كلّ فرد من السادة الطاعنين في العمر جرعة محترمة، ثم عادوا صامتين لمواصلة اللعب، وريب، الذي أراد أن يُظهر أنه إنسان مهذّب، لم يستطع أن يمنع نفسه عن وضع قطع «البولينغ» لتكون جاهزة للعب. بين الحين والآخر فحسب، وبسرعة شديدة، كان يختلس جرعة من الجرّة. كان في الجرّة عَرَق ثمار العرعر، مشروبه المفضّل! مرّة أخرى تفرّقت قطع البولينغ بعضها عن البعض الآخر، وفي كلّ مرّة مصدرةً ضجيجاً يصمّ الآذان، يتردّد صداه في كلّ أنحاء الوادي الضيق. انهمك ريب في العمل الذي لا ينتهي. ولم يتوقف الضجيج والدحرجة. ما تكاد قطع البولينغ تقف مهتزّة بعض الشيء، وبهذا تتاح لريب الفرصة في احتساء جرعة من عرق العرعر، حتى كان السيد التالي يدخل إلى الحلبة، ويغمض عينه اليسرى حتى يصوّب، ثم يدفع كرته الحجرية التي تتدحرج كأنها الرعد. كانت مجموعة غريبة إلى حدّ كبير، كما قلت، لم يتحدّث أحد بكلمة، وهكذا لم يتجرأ ريب على أن يسأل متى سيتحرّر من جديد من هذه السُّخرة. الوجوه مهيبة حقّاً، بتلك القبعات الهولندية واللحى الأثرية التي تشبه لحى الأسلاف. فقط في اللحظة التي يرتّب فيها قطع البولينغ من جديد، كان ينتابه شعور مزعج بأنهم يبتسمون بشماتة خلف ظهره، لكن ريب لم يكن يستطيع أن يستدير وينظر إليهم، فعندما تكون يده ما زالت على آخر قطعة تهتزّ، يسمع الدحرجة الخطرة للكرة القادمة، فيتحتّم عليه أن يقفز جانباً حتى لا تسحق قدميه. لم تلُحْ له في الأفق نهاية هذه السخرة. بدا أن العَرق في البرميل لا ينفد، مرّة بعد مرّة كان على ريب أن يملأ الجرّة، ومرة بعد

مرّة كانوا يحتسون جرعة، ثم يعودون مرّة بعد مرّة إلى لعب البولينغ – لم يعد مهمّاً سوى شيء واحد: على ريب أن يستيقظ!

عندما هبطت الشمس في غبش المساء البنّي، نهض ريب، وفرك عينيه. حان وقت العودة إلى البيت، حان الوقت منذ فترة. راح يصفّر منادياً كلبه، لكن من دون جدوى. لبرهة، وهو ما زال مرتبكاً من الحلم، ألقى ريب نظرة على الأخدود، باحثاً عن لاعبي البولينغ بقبعاتهم الهولندية ولحاهم الأثرية، غير أنه لم يجد أي أثر لكلّ هذا! جرى ماء نهر هدسون العريض متلألئاً كعهده، ولو كان الكلب قد أتى وهو يهزّ ذيله وفاءً كعادته، لما فكّر ريب مرّة أخرى في الحلم. كان سيفكّر خلال طريق العودة في الحكايات التي سيحكيها في القرية. بدت له هذه الحكايات، هذا مؤكّد، مهتزّة مثل قطع البولينغ التي كان عليه أن ينصبها دائماً، حتى يستطيع الآخرون أن يطيحوا بها. لا أثر لباوز! في النهاية تناول ريب بندقيته من فوق الحشائش، لكنّه فوجئ بأن العرعر نما هناك بكثافة. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت صدئة، هذه البندقيّة البائسة، بل الأكثر بؤساً في العالم! المقبض الخشبي اهترأ. هزّ ريب رأسه، وأدار السلاح عدّة مرّات في يده، ثم ألقاه بعيداً، ونهض. كانت الشمس قد غابت. لم يرد ريب أن يصدّق أن العظام التي حال لونها بجانب جرابه هي ما بقي من كلبه الوفي، الهيكل العظمي لباوز. لكن، ماذا تكون غير ذلك؟ الأمر صحيح، إنه لا يحلم، حكّ فكّه السفلي بيده، وأمسك بلحيته التي تدلّت حتى صدره كلحية شيخ. لقد مضت سنوات. كم عددها؟ على كل حال، لقد تأخر به الزمن. بدافع من الجوع، ومن الفضول أيضاً بالتأكيد، ليعرف كم سيبقى له من العمر بعد لعبة البولينغ الغبية تلك، وصل ريب فان فينكله إلى قريته الآمنة الوديعة التي لم يستطع التعرّف على شوارعها وبيوتها. كل هؤلاء الغرباء! وحده بيته كان ينهض هناك، مُهمَلاً كما كان دائماً، خاوياً وبلا زجاج في النوافذ، لا تسكنه سوى

الريح. وأين هانه، زوجته؟ شيئاً فشيئاً تملّكه الفزع. لم يجد في أي مكان الحانة القديمة حيث كان الناس يعرفون دائماً أهمّ الأخبار. ضائعاً وحيداً، مشوّشاً، خائفاً، ومحاطاً بأطفال الغرباء، راح يسأل عن الرفاق القدامى. أشاروا إلى المدافن، أو هزّوا الأكتاف. أخيراً سأل (وبصوت خفيض) عن نفسه: «ألم يعد أي أحد يعرف ريب فان فينكله؟»، يضحكون. يعرفون بالطبع جيداً ريب فان فينكله، صياد السناجب، بل لقد سمع منهم حكايات غريبة مضحكة عن الرجل الذي سقط قبل عشرين عاماً في أخدود، كل طفل هنا يعرف ذلك، أو وقع في يد الهنود الحمر. ماذا عليه أن يفعل؟ بخجل سأل عن هانه، زوجة صياد السناجب، ولمّا سمع أنها ماتت همّاً وكمداً قبل وقت طويل، بكى وأراد أن ينصرف. سألوه: «ومَن أنت؟»، فراح يفكّر، ثم قال: «الرب وحده يعلم! حتى الأمس فحسب كنت أعتقد أنني أعرف، لكن اليوم، ولأنني استيقظت، فكيف لي أن أعرف؟». دقّ الواقفون حوله بأصابعهم على جباههم إشارة إلى جنونه، وعبثاً راح يحكي لهم الحكاية العجيبة، حكاية البولينغ، الحكاية القصيرة عن كيف نام حتى مرت حياته وهو نائم. لم يفهموا مقصده مما قال. لم يكن بمقدوره أن يعبّر عن الأمر بطريقة أخرى، وهكذا سرعان ما انفضّ الناس من حوله، وواصلوا سيرهم، ولم تظلّ واقفة سوى امرأة شابة واحدة على قدر كبير من الجمال. قالت: «ريب فان فينكله كان أبي! ماذا تعرف عنه؟»، لبرهة نظر في عينيها وشعر بغواية أن يقول لها إنه أبوها؛ لكن، هل هو بالفعل ذلك الشخص الذي ينتظره الجميع، الحكّاء صياد السناجب، الحكايات التي تهتزّ قليلاً، ثم تسقط عندما يضحكون؟ في النهاية قال: «أبوك مات!». وهكذا تركته المرأة الشابة أيضاً واقفاً، الشيء الذي آلمه، ولكن، كان لا بدّ من ذلك. هل استيقظ بلا جدوى؟ لقد عاش بضع سنوات في القرية، غريباً في عالم غريب، ولم يطلب أن يصدّقه أحد عندما يحكي عن هندريك

هدسون، مكتشف النهر والأرض، وعن فريق البحّارة الذي كان يتجمّع بين حين وآخر في الأخاديد ليلعب البولينغ، هناك -كان يقول- عليهم البحث عن ريب فان فينكله الذي يعرفونه. ابتسموا، هذا مؤكّد، وفي الأيام الصيفية الحارة كانوا يسمعون أحياناً دحرجة خافتة خلف التلال، جعجعة كأنها صادرة عن البولينغ، لكن البالغين كانوا دائماً يعتبرونها صادرة عن رعد عادي، وهو ما كان أيضاً. - هذه هي الحكاية الخيالية.

- «وماذا بعد؟».

هكذا سألني محاميّ بعد أن انتهيت من الحكاية، وأشعلت سيجاري أخيراً. وواصل قائلاً: «ما علاقة ذلك بموضوعنا؟ قرب نهاية سبتمبر ستبدأ جلسات المحاكمة، وأنت تحكي لي خرافات خيالية... خرافات! هل سأدافع عنك بها؟».

- «بأيّ شيء آخر إذاً؟!».

قال مشتكياً: «خرافات! بدلاً من أن تقول لي مرّة واحدة حقيقة واضحة وعارية، حقيقة يمكن استخدامها!».

ملحوظة:

التمست من محاميّ أن يرسل لي كرّاسة جديدة، لأنني أوشكت على ملء هذه الكراسة بالكتابة. سَرّه اجتهادي. حتى الآن لم أدعه يقرأ الكرّاسة، ولقد بدأ القلق يستولي عليّ بسبب أمله الجاد في أن يستطيع بهذه الكرّاسة أن يضع، دعنا نقول: حياتي، في حقيبة ملفّاته.

من الممكن أن تكون زيورخ مدينة ساحرة. فهي تقع عند النهاية المنخفضة لبحيرة لطيفة، لم تشوّه شاطئيها المصانع، بل الڤيلّات، ولأن

الطقس بالأمس خلال تنزّهنا كان لطيفاً للغاية، زُرقة سبتمبر ومعها ضبابٌ فضّيّ خفيف، فقد كنت مبتهجاً حقّاً، ليس حبّاً في السيدة يوليكا فحسب التي مكّنني سخاؤها من دفع الكفالة والقيام بمثل هذه النزهة في كلّ أسبوع، شريطة أن أعود دائماً في موعدي تماماً إلى السجن بالطبع. القسم الذي أدّيته بشأن ذلك أمام محاميّ، تجنّباً من أن يقوم بمرافقتنا، لا يلزمني مثلما تلزمني مراعاتي لمشاعر يوليكا بالطبع؛ إذا هربت، فستفقد مبلغاً مالياً لن أستطيع في حياتي أن أعوّضها عنها. بالمناسبة: من المسموح أن أستمتع بكأس أو كأسين من الويسكي! تبدو هذه المرأة رائعة، أفكّر في ذلك دائماً، شعرها البرّاق في الشمس، وفوقه القبعة الباريسية البيضاء، قوامها الرشيق، ببساطة: إنني أشعر بالبهجة.

ذات يوم، عندما رأيتها مرّة أخرى في مرآة إحدى نوافذ العرض، لم أملك سوى الاستدارة، والإمساك بفكّها الأسفل، ثم تقبيلها.

قالت لي: «لا تنسَ أننا في زيورخ!».

يبهجني خصوصاً موقع المدينة الصغيرة التي تحتضنها من الجانبين تلالٌ وادعة، وغابات طبيعية تغري بالتجوّل في المناطق الريفية، وفي القلب يتلألأ نُهيرٌ أخضر يشي بالاتجاه الموصل إلى المحيطات العظمى (وكما هو الحال مع كلّ ممرّ مائي)، ولهذا فهو يوقظ دائماً شيئاً حيويّاً، حنيناً إلى العالم، إلى القبلات. لا بدّ أنه شيء رائع، أن تقضي ثلاثة أسابيع في زيورخ، هذا إذا لم يكن المرء نزيل السجن، لا سيما في هذا الفصل من العام. هناك أيضاً، وكما يسمع المرء في الشوارع، غرباء من كلّ صنفٍ ولون. ولا يخلو الأمر من سبب أن لونَيْ شعار زيورخ هما الأزرق والأبيض؛ في الضوء البرّاق الذي يلمع في زرقة الهواء الجاف الساخن، تلك الزرقة التي يزخرفها بياض طيور النورس، ذلك الهواء الذي يقولون

إنه يسبّب لكثير من سكّان المدينة الصداع. لزيورخ هذه سحرٌ خاص حقّاً، سمةٌ مميّزة يجب البحث عنها في الهواء، أكثر من أي مكان آخر، بريقٌ ينتشر في الأجواء يتناقض تناقضاً غريباً مع التجهّم، على الأقلّ تجهّم سحنات سكّان المدينة، كما أن فيها شيئاً احتفالياً، شيئاً رنّاناً، مدينة أنيقة ومعتنى بها مثل شعارها، زُرقة بيضاء، بلا سمات خاصة. يمكننا القول إن جاذبيتها تكمن في الطبيعة أولاً وأخيراً، والمرء يفهم الغرباء الذين ينزلون من سياراتهم على شاطئ البحيرة ثم يلتقطون الصور قبل أن يواصلوا رحلتهم إلى إيطاليا، ويفهم المرء أهالي المدينة أيضاً الذين يشعرون بالفخر عندما تُلتقط الصور الكثيرة لمدينتهم. بحيرتهم النحيلة، التي لا يتجاوز عرضها عرض المسيسيبي، تبرق مثل مِحَشّ مقوّس يلتفّ حول الأرض الخضراء ذات التلال المتموّجة. تزدحم البحيرة بالقوارب الشراعية الصغيرة حتى في وسط الأسبوع. ورغم كل النشاط الذي يسود الأجواء فإن زيورخ هذه -ملتقى التجّار- توحي بأنها مكان استجمام. ليست جبال الألب لحسن الحظ قريبة جدّاً مثلما تبدو على البطاقات السياحية؛ على مبعدة لائقة تتوِّج المنظر التلال المتموّجة، لقاء بين الثلج الأبيض والسُّحب المائلة إلى الزرقة. ربما لم تأخذني يوليكا إلى الأحياء الحقيقية؛ عندما أتذكّر ذلك، يلفت انتباهي أننا لم نقابل متسوّلاً واحداً، ولا شخصاً واحداً ذا عاهة أيضاً. لا يرتدي الناس ملابس أنيقة، هذا صحيح، لكنّها ذات جودة عالية، وبالتالي لا يشعر المرء أبداً بالشفقة تجاههم، والشوارع نظيفة من الصباح حتى المساء. بلا مضايقة من المتسوّلين، كما قلت، وبلا إزعاج من معالم معمارية بارزة تنتزعنا من حديثنا.

رحنا نتمشّى نحو ساعة. لا يستطيع الغريب أن يفهم على الفور الطريقة التي يحاولون بها تنظيم المرور الحديث؛ يبذل رجال الشرطة قصارى جهدهم، ويبدون في منتهى الجدّيّة، كما يبدو أن ما يهمّهم هو

العدل، لا المرور؛ في كلّ تقاطع طرق يشعر المرء وكأنهم يتولّون تربيته أخلاقياً. وكلّما اقترب المرء من البحيرة ثانية حيث يُشيع الغرباء، إلى حدّ ما، أجواءهم الخاصة التي يعتبرونها عندئذٍ هي أجواء زيورخ، لا يعود أحد يلفت الانتباه عندما يكون مرحاً ويضحك، مثلاً، في الشارع؛ حتى يوليكا، هذا ما ألاحظه، تصبح في هذه المنطقة أكثر حرية، عندئذٍ أستطيع أن أتخيّلها في باريس. والدتها مجرية، لكن زيورخ مسقط رأس والدها، وهي تشعر بغضب بالغ عندما يفشل مجلس مدينة زيورخ في أمر من الأمور، مثلاً عندما لا يستقبل تشارلي تشابلن. طوال ربع ساعة لا تتحدّث عن شيء آخر. امرأة ورجل من الهند يلفتان النظر بجمالهما، ربما ضيفان في أحد المؤتمرات. ثمّة مؤتمرات عديدة هنا، المدينة تبدو عموماً دولية، تسير في شوارعها باصات ضخمة وعتيقة، وقطعان من الألمان مرتدي السراويل الجلدية، في حين تتحدّث النادلات كلّهن بلهجة أميركية. في جوهر هذه المدينة الصغيرة شيء عالمي، شيء، كما قلت، مريح جدّاً للغرباء؛ شيء ريفي، من غير أن يسبّب الملل. أجواء ريفية مع حفلات موسيقية بقيادة المايسترو فورتفنغلر، ومسرحيات من فرق زائرة، مثلاً فرقة جان لوي بارو، ومعارض للوحات رامبرانت وبيكاسو؛ أجواء ريفية تحتضن فنون التمثيل التي يقدّمها مهاجرون ألمان، وتوماس مان المقيم فيها، كما تحتضن عقولاً محلية من مختلف التوجّهات أنجزت في العالم، خارج سويسرا، شيئاً ما حتى بدأت شهرتهم شيئاً فشيئاً تثير الإعجاب في موطنهم الأصلي الذي لا يقدر على صنع الشهرة، لأنه موطن ريفي، أي أنه بلا وجه أو ملامح. ولكن ما شأني أنا بذلك! التجوّل في هذه المدينة الصغيرة ممتع للغريب، لا سيما إذا كان لديه مال. كان من الممكن أن يكون ذلك العصر جذّاباً، كما قلت – لو لم تسيطر على يوليكا مرّة أخرى الفكرة التي تجعلها تعتبرني زوجها المفقود.

ذات مرّة ظلّت واقفة.

«هنا!»، تقول مشيرة إلى شكل من البرونز، لم يصبح أفضل أو أكثر قيمة عندما اشترته المدينة للعرض العام، تمثال، بصراحة، لا معنى له بالنسبة إليّ، وعندما أردت مواصلة المشي، جذبتني يوليكا من ذراعي وأشارت إلى قاعدة التمثال حيث حُفر بحروف كبيرة: أ. شتيلر. (لحسن الحظ لم أُبدِ رأيي بشأنه، فكلما أبديت رأياً متعلّقاً بأعمال زوجها المفقود، فإنهم يفهمون ذلك على أنه نقد ذاتي ومؤشّر إضافي على أنني شتيلر). ذات مرّة أخرى، عندما سحبتني يوليكا من ذراعي للفت انتباهي، فإنني لحسن الحظ لم أرِ تمثالاً هذه المرة، بل بجعاً، سرباً من البجع الحقيقي بريشه الأبيض في الشمس؛ وحوله في المياه الخضراء بعض الزغب. وفي الخلفية، حيثما أوقفتني يوليكا، يرى المرء ما يسمّونه بالكاتدرائية الكبيرة؛ نعم: كما في ألبوم الصور تماماً! لا أعرف ما تريد إثباته. وفي النهاية أظلّ ببساطة واقفاً في وسط الشارع (على خطوط المشاة): من دون جدوى، إذ إنها تسحبني ثانية من ذراعي، وعندما سألتها: «أين يبيعون الويسكي هنا؟»، أجابتني قانطة وكأنها تتحدّث مع حمار عنيد: «لا نستطيع الوقوف هنا!».

كانت الدراجات النارية تزمجر وهي تمرّ من اليسار واليمين، انطلق نفير من إحدى سيارات الأجرة لتنبيهي، ثم دوّى صوت شاحنة ملحق بها عربة ثانية، أصبح وجه يوليكا شاحباً كالطباشير، رغم أن الضوء أصبح أخضر مرّة أخرى للمشاة. عابر غريب لم أفعل له شيئاً يشتمني معبّراً عن استيائه الأخلاقي، وكأنه ليس من اللائق أن يُعرّض المرء حياته للخطر في بلد يفتخر في كلّ يوم بحرّياته... بعد ذلك، في مطعم أُلحقت به حديقة، وتحت المظلّات الملوّنة، سألتُ يوليكا: «كيف تعيشين إذاً في باريس؟».

تحدّثت معي من دون تكليف، وهو ما كنت أفعله أيضاً؛ ليس بسبب

دفع الكفالة، والربّ يعلم، لكن استجابةً لاحتياجٍ داخلي لطيف، ودون وعي مني. إنه شيء رائع، دائماً، هذه الرعشة، رعشة رفع الكلفة لأول مرة، شيء يشبه العصا السحرية المرفوعة فوق العالم بأسره، عندئذٍ يبدأ العالم في التحليق فجأة، شيء خافت للغاية لكنّه يغطّي على كل الأصوات الأخرى.

لا إرادياً، وكأنني مخدّر بغبطة غامرة غير متوقعة، وعندما وضعت يدي على كتفها، كنت أشعر بشيء آخر غير تلامسنا الرقيق. لبرهة تغمرها الغبطة، إلى أن أصبح التحدّث من دون كلفة معتاداً، وبالتالي لا يترك أثراً، يشعر المرء بالأخوّة مع كلّ البشر، حتى مع النادل الذي أحضر الويسكي؛ يخالج المرء شعورٌ بأنه لم يعد في حاجة إلى الرياء في هذا العالم، شعور من الغرور المسالم. المرء يضحك على سجنه! في الحالات التي يكون فيها الآخر، الـ أنت، امرأة ناضجة، تنظر إلى المستقبل مستبشرة رغم ذلك، عندئذٍ أشعر بالاحتياج الطبيعي، ورغم غروري فهو احتياج ليس جادّاً تماماً ولا ملحّاً، هو بالأحرى فضول لعوب إلى معرفة مَن مِن الرجال الآخرين على صلة بـ«الأنت» خاصتي. في حكاياتها عن باريس، عن مدرسة الباليه، وهي على ما أظن ليست ديراً، لا تأتي على ذكر رجل أبداً، لا يوجد فرانسوا أو أندريه أو بيير أو جاك، لا شيء. باريس الأمازونيات(*)؛ ما معنى ذلك؟ أخيراً سألتها من دون لفّ أو دوران: «هل أنت سعيدة في باريس؟».

هذا سؤال مسموح بإلقائه.

- «سعيدة! ماذا تعني السعادة؟».

غريب جداً: لا تطيق السيدة يوليكا شتيلر تشودي نظرتي إليها على

(*) الأمازونيات في الميثولوجيا الإغريقية هي الشعوب التي تحارب فيها المرأة كالرجل. (م).

أنها إنسان يتمتع بالصحة والسعادة، على الفور تبدأ بالحديث عن دافوس، وعن الفترة المرعبة جداً، لا شكّ، في تلك الشرفة النائية ذات الزجاج الأخضر الزيتوني المصمّم على طراز الشباب، يوغندستيل، حيث تخلّى عنها ببساطة شتيلر، زوجها المفقود. أسمعُ الحكاية مرّة أخرى. دون أن أشكّ في فظاعة الماضي، أنظرُ إلى حاضرها المزدهر بوجهها المميّز الذي أناره الضوء المنعكس من مفرش المائدة، وكأن الكشّافات مسلّطة عليه. أشعر بالشوق إليها. أنتظر أن تغادر الماضي الذي تريد الصفح عنه، الماضي الذي ترسمه، بغرض الصفح، بكلّ حذافيره، وأن تصل أخيراً إلى حاضر وقتنا في عصر هذا اليوم، وهو وقتٌ محدود على أيّ حال. أقول لها: «عزيزتي يوليكا، طوال الوقت تتحدّثين معي عن بشاعة سلوك زوجك شتيلر. من ينكر هذا؟ لقد أمرضك، هكذا تدّعين، مرض الموت، تركك راقدة، وكان من الممكن أن تموتي، ورغم ذلك -هذا ما أراه- لا تبحثين إلا عنه... ألا تستطيعين أن تجعليه يشعر بالسعادة لأنك لم تموتي حقّاً، بل تجلسين هنا كزهرة متفتّحة؟».

لم تكن مزحة، لا، لاحظت ذلك أنا نفسي. من دون أن تنظر إليّ، أخرجت يوليكا شيئاً من حقيبة يديها الباريسية البيضاء، رسالة صغيرة مُصفرّة. على ما يبدو لدحض كلامي! إنها رسالة صغيرة أرسلها إليها آنذاك شتيلر، هذا الرجل البشع، إلى المصحّة في دافوس، عليّ أن أقرأها، هي في الحقيقة مجرد وريقة، وريقة مهترئة، منزوعة من دفتر مرسوم بالمربعات، ومكتوبة بسرعة بقلم رصاص، وبخطّ يثير استغرابي، بل يثير النفور في نفسي.

سألتها مذهولاً بعض الشيء: «وبعد؟».

حكّت عود ثقاب في تعجّل بالغ إلى درجة أنه انثنى عدّة مرّات. بدا

لها أنْ لا حاجة إلى التعليق على هذا النص الصغير، آخر سطور تلقّتها من زوجها شتيلر المفقود. راحت تدخّن.

قلت لها وأنا أعيد لها الوريقة المهترئة: «يوليكا، أحبّك!».

ضحكتْ من دون صوت، ضحكةً شاحبة، غير مصدّقة.

كرّرتُ: «أحبّك»، وأردت أن أضيف بعض الجمل لا علاقة لها بماضيها أو ماضيّ، بل بلقائنا، بمشاعري في هذه اللحظة، بآمالي التي تتخطّى هذه الساعة؛ لكنّها لم تسمعني. حتى عندما تصمت، لم تكن تسمعني، تأخذ فحسب وضع المُصغية المنتبهة. ذهنها كان في دافوس، هذا ما يلاحظه المرء، بل لقد شرعت في أثناء حديثي في البكاء. أنا أيضاً وجدت الأمر محزناً، أنْ يجلس إنسانان دون أن يعي أحدهما وجود الآخر، رغم أن كلّاً منهما يجلس في مواجهة الآخر، والعين في العين. «يوليكا؟»، ناديتها باسمها، فحوّلت أخيراً وجهها الجميل ناحيتي. لكنّها لم ترني أنا، بل رأت شتيلر! أمسكتُ بيدها الرشيقة حتى تستيقظ. بذلت جهدها لكي تصغي إليّ. كانت تبتسم كلما أكّدت لها حبي، واستمعت إليّ، ربما، لكن دون أن تسمع ما أردت قوله. لم تكن تسمع إلا ما كان ربما سيقوله شتيلر لو كان يجلس الآن على كرسيّ. كان مؤلماً لي أنْ أشعر بذلك. في الحقيقة ينبغي على المرء أن يخرس تماماً! ألقيت نظرة على يدها القريبة التي تركتها لا إرادياً تنساب من يدي، وتحتّم عليّ أن أفكّر في الحلم الرهيب، حلم اليد المجروحة. رجتني يوليكا أن أواصل حديثي. لماذا؟ حتى أنا شعرتُ فجأة بفقدان الأمل. بدا لي أن كل حديث بين هذه المرأة وبيني قد انتهى قبل أن يبدأ، وكلّ فعل قد يجول بخاطري سوف يُفسّر من البداية، ما يناقض طبيعتي الحالية، وذلك لأنها لن ترى فيه على كل حال سوى فعل لائق أو غير لائق، متوقع أو غير متوقع من

زوجها شتيلر المفقود، لكنّه لن يكون أبداً صادراً مني. لن يكون أبداً صادراً مني!... عندما أشرت للنادل، قالت لي على الفور برقّة مهمومة: «لا تشرب كثيراً هكذا!».

سرت رعدة في جسدي عندما سمعت هذه الكلمات، أعترف بذلك، وتحتّم عليّ أن أسيطر على نفسي. ماذا تتخيّل هذه السيدة؟ أولاً، لم أكن أنوي أن أشرب شيئاً آخر. وحتى إذا فعلت! إنها تظن أن بإمكانها أن تعاملني مثلما تعامل زوجها شتيلر، وللحظة شعرت برغبة، بدافع من العناد البحت، في أن أطلب كأساً أخرى من الويسكي. لكنني لم أفعل. فالعناد هو عكس الإدمان الحقيقي. ابتسمتُ. شعرتُ بالشفقة تجاهها. وأدركت أن سلوكها بالكامل لا يتعلّق بي، بل بشبح، وعندما تخلط بيني وبين الشبح الذي تتوهّمه (إذ إنّ من المرجّح ألّا يكون هناك وجود إطلاقاً للرجل الذي تبحث عنه!) فلا يمكنني أن أفعل أي شيء؛ لا تستطيع أن تعي وجودي. خسارة، قلت في نفسي.

قالت لي: «لا تنزعج مني، ولكن عليك بالفعل ألّا تشرب كثيراً هكذا! أنا لا أقصد إلا الخير».

للأسف تأخّر النادل.

- «لم أُرِد أن أطلب شيئاً».

قلت بنبرة معاندة ومتعبة قليلاً.

ابتسمت يوليكا، حتى إنني وجدت نفسي أضيف منفعلاً بعض الشيء: «أنت مخطئة، يا حبّي، لم أُرِد فعلاً أن أطلب شيئاً، أردت أن أدفع الحساب! للأسف، ليس معي نقود».

أثناء كلامي -وكأنها لم تتوقع شيئاً آخر- كانت يوليكا قد أزاحت محفظتها الحمراء المصنوعة من جلد الماعز تحت كوعي (يبدو أنها كانت

تفعل ذلك كثيراً مع شتيلر) حتى أتولّى أنا الدفع. ماذا بقي أمامي؟! دفعت. عندئذٍ أعدت إليها محفظتها الجلدية الحمراء، واستعدت رباطة جأشي قائلاً: «لننصرف!».

في تمام السادسة كنت في السجن من جديد.

ملحوظة:

هنا بيت القصيد: لا لغة عندي للحقيقة. أرقد فوق فراشي الخشبي، تمرّ الساعات من دون نوم، أحاول أن أفكّر في ما ينبغي عليّ أن أفعله. هل أستسلم؟ بالأكاذيب سأحقّق ذلك على الفور، كلمة واحدة، ما يطلقون عليه اعترافاً، عندئذٍ سأكون «حرّاً»، هذا ما يعني في حالتي: أن يُحكم عليّ بلعب دور لا علاقة له بي. من ناحية أخرى: كيف يمكن للإنسان أن يبرهن على ماهيّته الحقيقية؟ لا أستطيع ذلك. هل أعرف أنا نفسي مَن أنا؟ هذه هي الخبرة المفزعة التي مررت بها في حبسي الاحتياطي: ليس عندي لغة لحقيقتي!

اليوم، خلال الاستحمام بالدشّ، لم يكن اليهودي القصير موجوداً، وهو الشخص الذي أكنّ له المودّة لأنه يصبّن لي ظهري. عندما قلت إنني مسرور لحريته، رفعوا حواجبهم فحسب ولم يعلّقوا. كان رجلاً ذكيّاً، وقد شغلتني كثيراً الشائعة التي تقول إنه انتحر. رغم ذلك، نحن بالطبع مجموعة من عشرة أشخاص، ولو لم يصبّن لي ظهري، لربما لم يكن غيابه سيلفت نظري. ليس معنى كلامي أنني أفتقده. (تصبين الظهر كان دائماً يسبّب لي الإحراج بشكل من الأشكال). ما يشغلني هو أن هناك دائماً أذكياء لا يستطيعون انتظار الموت، وعندما أفكّر في عينيه اللتين لم تكونا

ذكيتين فحسب، بل عارفتين بالأسرار، يبدو لي الأمر غير قابل للتصديق، أنّ هذا الرجل لم يكن يعرف ما ينتظره الآن، بل إنني أتخيّل الآن أنه كان الشخص الوحيد الذي كان بإمكاني إطلاعه على ما عايشته - هذا اللقاء مع ملاكي الذي أكاد لا أستطيع أن أخبر به أحداً.

مرّةً أخرى الشعور الذي أعرفه: عليّ أن أطير، أن أقف على حافة إحدى النوافذ (في بيت مشتعل؟)، وألّا يكون هناك أيّ سبيل للإنقاذ سوى القدرة الفجائية على الطيران. وخلال ذلك اليقين: لن يجديك أن تلقي بنفسك في الطريق، الانتحار وهم. هذا معناه: حتمية الطيران مع الثقة بأن الفراغ سيحملني، أي القفز من دون جناحين، القفز ببساطة: إلى التفاهة، إلى حياة لم تُعَش قطّ، إلى الذنب بسبب التقصير، إلى الفراغ باعتباره الشيء الحقيقي الوحيد بالنسبة إليّ، الشيء الذي يستطيع أن يحملني.

الكرّاسة الثانية

قرأ محاميّ ما دوّنته حتى الآن، ولم يُبدِ حتى غضبه، بل هزّ رأسه فحسب. قال لي إنه لا يستطيع أن يدافع عني بهذا الكلام، ولم يضع الكرّاسة حتى في حقيبته -

رغم ذلك أواصل تدويني.

(بسيجاره العزيز في فمي).

بدأت العلاقة بين يوليكا الجميلة والمفقود شتيلر بالمتتالية الموسيقية «كسّارة البندق» لتشايكوفسكي (مما أثار استياء الراقصة الشابة أن شتيلر -الذي كان هو الآخر شابّاً آنذاك، ومجتهداً أيضاً، وكان يريد أن يعجب الجميلة يوليكا بأيّ شكل من الأشكال- اعتبر هذه الموسيقا مجرّد فقاعات سحرية، عجز فريد من نوعه، ليموناضة ملوّنة، «كيتش» للمتقدّمين، ...إلخ)، ومن خلال تلميحات يوليكا الأخيرة نستنتج أن متتالية كسّارة البندق ظلّت هي الموسيقا التي صاحبت سنوات زواجهما. كانت يوليكا ترقص الباليه آنذاك. في صورة قديمة، سمحت لي عَرَضاً برؤيتها أول أمس، تظهر على هيئة نبيل شاب أو أمير، سعيدة في ملابسها التنكّرية التي كانت بالفعل ملائمة لها على نحو جذّاب؛ يكاد المرء لا يشبع من النظر إليها

لرشاقتها الفتيّة آنذاك. على عكس الأمر اليوم، خجل غريب كان يرنو آنذاك من عينيها الواسعتين، الجميلتين إلى أقصى حدّ، اللتين تبدوان صريحتين، خجل مثل حجاب من الخوف السري، إما أن الخوف كان بسبب جنسها، وقد حماها ارتداؤها الزيّ التنكّريّ الجذّاب من هذا الخوف بشكل مؤقت، أو أن الخوف كان بسبب الرجل الذي كان ربما يقف في مكان ما خلف الكواليس منتظراً أن تسلّمه ملابسها التنكّرية الفضّية. في الثالثة والعشرين كانت يوليكا آنذاك. أي رجل يتمتّع ببعض الخبرة –وهذا ما لم يكنه شتيلر مطلقاً على ما يبدو– كان سيعرف فور النظر إلى هذه الشابة الساحرة أنه أمام حالة متقدّمة من البرود الجنسي، على الأقلّ سيظن ذلك من أول وهلة، وسينظّم توقّعاته وفق ذلك. كانت يوليكا في تلك الأيام برعماً واعداً ينتظر خبراء الباليه منه الكثير. ما أكثر الرجال، من مواطني زيورخ ذوي السمعة الجيدة، الذين كانوا يودّون الزواج منها فوراً، شخصيات كبيرة، لو لم تكن هذه الفتاة الغريبة، ولذلك الساحرة، تضع الفن (الباليه) فوق كلّ شيء آخر، إلى درجة أنها كانت تشعر مُسبقاً بالإزعاج من أي نشاط خارج الفن. الرقص كان حياتها! أبعدت السادة عنها بضحكتها الصبيانية التي أثارت استياء البعض، أو على الأقلّ جعلت أي حديث جادّ ضرباً من ضروب المستحيل؛ وصدّقوا أو لا تصدّقوا: كانت يوليكا الجميلة تحيا آنذاك مثل راهبة، لكن الشائعات كانت تحيط بها، شائعات تظهرها امرأة فاتنة تتلاعب بالرجال، حتى تلك الشائعات لم تكن تواجهها إلا بضحكتها الصبيانية. لماذا لم يتركوها في حالها؟ لم تكن تغادر المسرح قطّ دون زهورٍ يانعة على ذراعها، ولم تغادره قطّ دون خوفٍ كامن وصادق بأن المعجب التالي يقف في الخارج، الرجل الذي أهداها هذه الزهور، طالب ربما، أو سيد يمتلك سيارة لامعة. كانت يوليكا تخشى السيارات. لحسن الحظ لم يكونوا يتعرّفون على يوليكا؛ بطاقية صوفية كالتي تضعها

تلميذات المدارس فوق الرأس، طاقية تخفي دائماً شعرها الأحمر، كانت تسير مسرعة، فتاة لا تلفت الأنظار مطلقاً، ما دامت لا تقف في فيض أنوار الكشّافات. مثل حيوانٍ بحريّ لا يُظهر معجزاته اللونية إلا تحت الماء، هكذا كانت يوليكا تتألق بجمالها المخيف في الرقص فحسب، خصوصاً في الرقص؛ بعد ذلك كان الإرهاق يتملّكها. بديهي؛ ففي الرقص كانت تعطي أقصى ما عندها. كانت إذاً مرهقة، ولها الحقّ، وكانت يوليكا تقول لكلّ معجب منتظر إنها مرهقة.

شتيلر وحده كان يظن أن يوليكا تشعر بالتعب معه فحسب. ماذا كان يجني من وراء إكراهها على كأس نبيذ وهي لا تشرب النبيذ؟ أو على فنجان من الشاي؟ عندئذٍ كان شتيلر يتحدّث، على ما يبدو، كالشلّال، مثل شخص يظن أنه هو وحده المسؤول عن الحديث؛ يوليكا كانت مرهقة، وصامتة. كان شتيلر يكثر من الحديث آنذاك عن إسبانيا، إذ كان قد عاد لتوّه من الحرب الأهلية الإسبانية، وكانت المحكمة العسكرية السويسرية أصدرت حكماً بإدانته. لم تشعر بالشفقة نحوه لأن عقوبة بالسجن تنتظره، وهي عقوبة كان يذكرها بافتخار متطفّل، لا، لقد شعرت تجاهه بالشفقة، هكذا ببساطة؛ من دون أن تعرف السبب. تكاد لا تبتسم له حتى يخشى شتيلر ألّا تأخذه على محمل الجدّ، فكان يضع يده أمام الجبهة أو أمام الفم، ثم ذُهل عندما اعترضت في الطريق القصير المؤدّي إلى بيتها على أن يضع ذراعه في ذراعها، فراح يعتذر طويلاً أمام باب بيتها لتطفّله الذي كان مقزّزاً بالنسبة إليه شخصياً. مع ذلك أُعجبت به يوليكا كما لم تُعجب برجل آخر. كان شتيلر هو الأول أيضاً، على كل حال، أحد القلائل الذين تلقّوا رسالة قصيرة من الجميلة يوليكا، عدّة أسطر تؤكّد فيها أنها للأسف الشديد متعبة للغاية، وتلمّح إلى فرصة لقاء آخر. كانت تعلم مدى اشتهاء هذا الشاب لها، وأنه، في الوقت نفسه، لن يغتصبها على أي نحو من الأنحاء؛ ينقصه شيء

ما لكي يقوم بذلك، وهذا ما أعجبها فيه إعجاباً خاصاً. كما أعجبها أن هذا الرجل الذي كان لتوّه في الجبهة في إسبانيا -رجل رشيق لكن قويّ البنية، أطول من يوليكا بمقدار رأس- لم يكن ينتظر اعتذاراً منها على الإطلاق عندما تتركه يقف منتظراً نحو ساعة أمام المسرح، على العكس، لقد كان يعتذر هو لإصراره، وكان يخشى أن يكون سبّب لها إزعاجاً. كلّ هذا أثار إعجاب يوليكا البالغ، كما قلت، على كل حال ما زالت تفتخر دائماً برجلها المفقود شتيلر أجمل افتخار عندما تتذكّر ذلك الزمن الماضي.

في شهر مارس، وكانا يتمشّيان لأول مرّة في الريف، تمشية أطول من اللازم بالنسبة إلى يوليكا الرقيقة، تمشية متعبة، وقذرة، الأرض ما زالت مشبعة بالبلل، رغم أن الشمس الدافئة مشرقة، حتى إن حذاءها الأيسر انغرز ذات مرّة في الطين اللزج عندما كان شتيلر منهمكاً في اقتيادها عبر الحقول؛ كان على شتيلر أن يمسكها، ويسندها، حتى لا تخطو يوليكا بجوربها في الوحل، وعلى ما يبدو سنحت الفرصة عندئذٍ أن يقبّلها شتيلر أول قبلة. يوليكا على يقينٍ تام من أنها كانت ستقبّله آنذاك أيضاً. بالمناسبة، لم يكرّر شتيلر فعلته حتى لا يزعج يوليكا، ورغم ذلك ظلَّ طوال التمشية مبتهجاً غاية الابتهاج، ثم راح يكسر الغاب وكأنه ما زال صبيّاً، ثم تعثّر أثناء المشي وداس على طرف معطفه المفتوح. كانت مشاعر يوليكا تجاهه أخوية. وهذا أيضاً أعجبها. لم يزعجه أن يوليكا لم تتحدّث -حتى في الريف- عن شيء آخر غير الباليه، لا سيّما عن من هم حول الباليه، عن قائد الفرقة الموسيقية، وعمّال الديكور، ومصفّفي الشعر، وأساتذة الرقص؛ كان هذا هو عالمها. يلومها المعجبون الآخرون عن أن رأسها يخلو من أي شيء آخر غير هذه النميمة. شتيلر لم يفعل ذلك. كان يبذل جهداً كبيراً لكي يصغي إليها، وبين الحين والآخر يشير إلى منظر فاتن الجمال، لكن ذلك لم يشتّت انتباه يوليكا، عندئذٍ كان شتيلر يشعر بالخجل من نفسه لأنه

لا يفهم من فن الباليه إلا القليل. في مطعم ريفي بسيط، وكما قدّر شتيلر على ما يبدو ذوقها، تناولا خبزاً مع لحم الخنزير المختلط بالشحم، وقد استمتعت يوليكا بأنها التقت لأول مرّة رجلاً لا تخشاه. تحدّث ثانيةً عن الحرب الإسبانية. فبعد أيام قليلة من تلك التمشية كان عليه –حاملاً بطّانيّة سويسرية تحت إبطه– أن يسلّم نفسه لمكانٍ ما حتى يقضي عقوبة الحبس لبضعة شهور. لفترة طويلة لم يرَ أحدهما الآخر. في تلك الفترة كتبت يوليكا عدة رسائل، صحيح أنها، وفق طبيعتها الحييّة، لم تفصح فيها حرفيّاً عن حبّها له؛ ولكن لا بدّ أن شتيلر، كإنسان مرهف الحسّ، قد لاحظ ما كانت الجميلة يوليكا تشعر به، ربما، وفق طبيعتها الحَيِيّة، دون أن تقدر على الإفصاح عنه، على كل حال فما زالت السيدة يوليكا شتيلر تشودي تشير إلى تلك الرسائل باعتبارها براهين ناصعة على حبّها للمفقود شتيلر، ذلك الحب العميق المفعم بالشغف والرقّة.

بعد عامٍ واحد تزوّجا.

كغريبٍ، يتولّد لدى المرء انطباع بأن هذين الشخصين، يوليكا والمفقود شتيلر، يلائم كلٌّ منهما الآخر على نحو مشؤوم. كلٌّ منهما يحتاج إلى الآخر بدافعٍ من الخوف. وسواءٌ عن حقّ أو لا، فقد كان لدى يوليكا الجميلة خوفٌ خفيّ من أنها ليست امرأة. وشتيلر أيضاً، هكذا يبدو، كان يسيطر عليه خوفٌ دائم ألّا يكون كفئاً لها، بأيّ معنى من المعاني؛ من اللافت أن هذا الإنسان كان يُكثر من الاعتذار لأنه كان يشعر بضرورة ذلك. لا تعرف يوليكا من أين نبع خوفه. عموماً، لم تكن يوليكا تتحدّث عن المخاوف، عندما تحكي عن زواجها المؤسف مع شتيلر المفقود؛ لكن كل ما كانت تحكيه، يشير إلى اعتقادها أنها تستطيع أن تقيّد شتيلر إليها عبر وخزات ضميره، عبر خوفه من الفشل. على ما يبدو لم تكن تثق كثيراً في قدرتها على أن تكون كافية لرجلٍ حقيقيّ وحرّ، وهكذا ظلَّ معها.

لدى المرء انطباع أن شتيلر أيضاً تشبّث بضعفها؛ امرأة أخرى، امرأة تتمتع بالصحة، كانت ستطلب منه أن يكون قويّاً، أو كانت ستنبذه. لم تستطع يوليكا أن تنبذه؛ لقد كانت تستمدّ طاقة الحياة تحديداً من وجود إنسان تستطيع دائماً أن تقابله بالصفح والغفران.

لكنني لا أريد أن أفعل في هذه الكرّاسات شيئاً آخر سوى تدوين ما قالته السيدة يوليكا شتيلر تشودي -التي أودّ أن أكون عادلاً معها، على الأقلّ حتى لا تعتبرني زوجها- ما قالته بنفسها لي أو لمحاميّ عن زواجها: كان طبيب المسرح قبل سنوات عديدة قد وجدَ لديها التهاباً رئوياً خفيفاً، خفيفاً حقّاً، ولا يستدعي دقّ جرس الإنذار، لكنّه كرّر على يوليكا أنها لا بدّ أن تقضي الصيف في منطقة مرتفعة. كانت نصيحة سديدة، لكنّها تفترض امتلاك المال اللازم، وشتيلر، زوجها، لم يكن يكسب آنذاك من تماثيله شيئاً على الإطلاق، تقريباً لا شيء، أو على الأقلّ لم يكن يكسب ما يكفي حتى تستطيع زوجته الفقيرة التوقف عن العمل. لم توجّه له يوليكا أيّ اتهام لأنه لا يكسب مثل مدير. بل إن يوليكا أخفت عن شتيلر نصيحة الطبيب مراعاةً لمشاعره، وحتى لا تجعله يشعر بأنه لا يكسب ما يكفي. لم تكن يوليكا تنتظر منه غير أن يراعي هو أيضاً مشاعرها قليلاً. يُقال إن زواجهما كان رائعاً في تلك السنوات الأولى. إذاً، كانت يوليكا تكسب من الباليه 620 فرنكاً في الشهر، وعندما يحالف شتيلر الحظّ ويبيع أحد تماثيله، سواء لتزيين نافورة في ساحة عامة أو لأن أحداً آخر قد اقتناها، كانا يعيشان حياة ميسورة. يوليكا كانت متواضعة. كانت فنّانة بمعنى الكلمة، فنّانة لا تتوقع على نحو جادّ من الرجل الذي تحبه أن يخون موهبته حتى ينفق على زوجته إنفاقاً أفضل؛ ولم تكن تقول شيئاً مشابهاً إلا على سبيل المزاح.

إلى أيّ حدّ كان موهوباً، زوجها المفقود شتيلر؟ هذا أمرٌ كان منذ البداية محلّ خلافٍ على ما يبدو، وهناك مَن لم يعتبره فنّاناً قطّ. يوليكا كانت تؤمن بالطبع بموهبته. على كلّ حال كان يعمل بعناد وإصرار. عانى من نجاحها في الباليه الذي لم يكن شتيلر يستطيع أن يقابله بنجاح شخصي مماثل. ومما ساهم بلا شكّ في ذلك أن شتيلر كان إنساناً خجولاً يخشى الناس، في حين أن الناس كانوا يتحلّقون حول يوليكا، أما هو فكانت التحية تُلقى عليه باعتباره زوجها فحسب. وبالنظر إلى دخلهما آنذاك لم يكن هناك مجالٌ للتفكير في الأطفال؛ كان ذلك سيعني بالنسبة ليوليكا التوقف عن العمل لمدة عام. ليس معنى ذلك أن شتيلر كان لديه شعور قاهر بأن يصبح أباً؛ لا، كان بالأحرى يشعر بتأنيب ضميره أحياناً لأن على يوليكا أن تستغني عن الأطفال بسببه، وكان دائم التفكير حول ما إذا كان مجيء طفل، تحديداً بالنسبة ليوليكا، أمراً مهمّاً. لماذا تحديداً ليوليكا؟ كان شتيلر يرى أن الطفل قد يمنح يوليكا كامرأة شعوراً بالتحقّق، وكما لا يستطيع هو أبداً أن يفعل. كانت تلك إحدى الأفكار الراسخة في رأسه، وكان لا يملّ الحديث مرّة بعد مرّة عن طفل. ماذا كان يريد من يوليكا؟ لقد ظهر لها على نحو من الأنحاء أن شتيلر لا يأخذ فنّها مأخذ الجدّ تماماً، ربما بسبب شعورٍ غير واعٍ بالحسد تجاه نجاحها، على كل حال كان ذِكره للطفل المرة بعد الأخرى يعكّر مزاجها. ألم تكن تشعر بالتحقّق على نحوٍ كافٍ؟ لم يصمت إلا عندما صارحته يوليكا على نحو مباشر بأنه يهينها كفنّانة، لا سيما بعد أن سألته: لماذا الإنجاب من أمٍّ مصابة بالسِّلّ؟ بهذا دُفن الطفل إلى الأبد. في تلك الأثناء كان يأتي على ذكر مرضها بالسِّلّ وفي الوقت المناسب أو غير المناسب كان ينبّهها إلى وجوب الذهاب إلى الطبيب مرّة أخرى. لم تعد يوليكا المسكينة تستطيع أن تسعل، وكانت تنبيهاته تغيظها بشدّة. ماذا يريد منها؟ سلوك شتيلر كان يؤثّر فيها، لكنّه كان متشبّثاً برأيه بأن يوليكا لن تصل

هكذا إلى معنى حياتها الكاملة. بالتأكيد لم تكن يوليكا تصلح أن تكون مرافقة لتمشيات لا تنتهي، أو رفيقة لاحتساء الخمر طوال ليال بأكملها مع معارفه؛ كانت تحتاج إلى الراحة، بالتأكيد، غير أن يوليكا آنذاك كانت في الحقيقة راضية تماماً عن حياتها.

لمَ لمْ يكن شتيلر راضياً؟ إذا انقلب الطقس خارج المسرح أثناء إحدى بروڤات الباليه، كان شتيلر يقف أمام مخرج خشبة المسرح مع معطفها، الأكثر دفئاً من المعطف الذي ترتديه، ولا ينسى المظلّة والشال؛ كان حقّاً يحمي صحّتها المهدّدة للأسف، ويفعل ذلك على نحو مؤثّر، لم تستأ يوليكا إلا من إلحاحه الدائم على الذهاب إلى الطبيب. كانت تشعر وكأنه يتخلّى بذلك سرّاً عن مراعاته الرقيقة لمشاعرها، نعم، كعلامة على قسوته، وكلّ هذا كان يجعلها بالأحرى عنيدة. شعرت بأنه يرسلها إلى الطبيب، منبوذة، مُجبَرة، لا لشيء إلا لتهدئة ضميره؛ حتى لا تحتاج أنانيته الذكورية إلى مراعاة مشاعرها؛ كانت تشعر بالسخط عندما يسأل شتيلر مجرد سؤال عما إذا كانت قد ذهبت إلى الطبيب. تصرّف يوليكا كان غير عقلاني بعض الشيء، ربما، لكنّه مفهوم. كانت تتسم على الدوام برهافة الحس. كانت ترقص طوال سنوات إذاً غير عابئة بالخطر، مُهدَدة بأن تسقط ذات مرّة على خشبة المسرح؛ الجميع كان معجباً بيوليكا بسبب طاقتها هذه، المدير، وكلّ أعضاء فرقة الباليه، والفرقة الموسيقية، ما عدا شتيلر. كان يطلق على ذلك حماقة! ربما بسبب خوفه البحت بألّا يؤخذ مأخذ الجدّ، كانت تصيبه نوبات من الفظاظة الوضيعة التي لا تنتهي إلا ببكائها الصامت.

أصبح لا يرى الآن سوى أخطائها؛ لا يتوقف عن انتقادها، لأنها، عندما تنهض من المائدة وتذهب إلى المطبخ، لا تحمل في طريقها بعض الصحون، وكان يدّعي بخشونة وإصرار أن بإمكانها أن تحيا بنصف قواها إذا تحلّت بقليلٍ من العقلانية، وإذا تعلّمت من شتيلر قليلاً. كيف كان على

يوليكا أن تجيب؟ تفاهاته كانت تحزنها فحسب. إنسان مثقّف مثله، وهو ما يدّعيه شتيلر، كان باستطاعته أن يقضي ساعة كاملة في الحديث عن أن يوليكا عندما تنهض من المائدة وتذهب إلى المطبخ، لا تأخذ في طريقها بعض الصحون! كانت يوليكا تمسك برأسها. من شيء كهذا كان باستطاعته استنباط فلسفة شبه كاملة، في حين أن يوليكا، بعد البروڤات والأعمال المنزلية، تكاد تسقط من التعب. وسرعان ما يصبح في نظرها جذّاباً مرّة أخرى. لكن الأجواء المتوتّرة بينهما، هكذا يبدو، كانت تتزايد. ذات مرّة، عندما لم تُرِد يوليكا المسكينة إلغاء ظهورها على المسرح في المساء رغم حرارتها الشديدة، لأنها كانت تعلم أهمّيّة مشاركتها في تلك الأمسية، ما كان من شتيلر إلا أنه فعل ذلك رغماً عنها، فتناول سماعة التليفون فوق يوليكا الراقدة وقال إن زوجته لا تستطيع الظهور مساء اليوم للأسف، فرفضت الفنّانة هذا السلوك الاستبدادي. ماذا يتخيّل شتيلر؟! انتزعت سمّاعة التليفون من زوجها وطلبت سيارة أجرة، وانطلقت رغم ذلك إلى المسرح. تفجّر النزاع، واحد من أول النزاعات في زواجهما، وبعد ذلك بقليل كان التاكسي قد وصل. صرخ شتيلر في أعقابها وهي تنزل الدَّرَج: «استنزفي قواكِ، أنت حرّة، استنزفي قواكِ! لكن الذنب ليس ذنبي!». في تلك اللحظات كانت تصاب بالفزع منه؛ في تلك اللحظات كان شتيلر يبدو أنه نسي مَن تزوّج، صحيح أنها لم تكن ابنة عائلة ثرية، لكنّها عائلة متحضّرة؛ أمها، المجرية، كانت سيدة مجتمعات بلا منازع، أرستقراطية إلى حدّ ما، كما أن والدها المتوفى كان على كلّ حال مبعوثاً في بودابست. أما شتيلر (لا بدّ من قول ذلك) فهو من بيئة بورجوازية صغيرة، هو في الحقيقة لا ينتمي إلى أي طبقة، لم يكن يتحدّث عن عائلته، وإن فعل، فعن حميه الذي يعيش في أحد ملاجئ العجزة في مكان ما، لكنّه لم يذكر كلمة عن أبيه، أما أمه فهي ابنة عامل في السكك الحديدية. الأمر غريب وبشع، أن مثل هذه

الأشياء تلعب فجأة دوراً في حياة إنسانين يحبّ كلٌّ منهما الآخر - لكن هذا هو الحال. بالطبع لم تقل يوليكا كلمة واحدة بهذا الشأن، قطّ، تقريباً ولا مرة. كانت تشعر بذلك فحسب، مثلاً عندما يصرخ شتيلر على هذا النحو في دَرَج المنزل. لا بدّ أن الأمر كان فظيعاً. كانت تشعر في ما بعد بالأسف الشديد بسبب تلك النزاعات. يعتذر شتيلر، وتخطر على باله في كثير من الأحيان أفكارٌ لطيفة جدّاً لتعويضها عما حدث، سواء بطبقٍ مفضّل لدى يوليكا لا يستطيع أحد أن يطبخه مثله، أو بشال حريري لأنها فقدت الشال السابق، أو بزهور الليلك التي كان يسرقها في طريقه إلى المسرح، ويقطفها عبر سورٍ من الأسوار حتى يُحضرها لها بعد العرض؛ كان ينصلح الحال في كلّ مرّة ، نعم، في الحقيقة كانت الزيجة تنعم بالسعادة على ما يبدو - إلى أن ظهرت تلك المرأة الأخرى.

حدث ذلك قبل سبع سنوات تقريباً.

لم تكن يوليكا تعرف عن الأمر شيئاً. ولم تفكّر قطّ في احتمالية كهذه. كامرأة شابة تحب زوجها فوق كلّ شيء، بدا لها ضرباً من المستحيل أن يقدر شتيلر على مثل هذه الخيانة، نعم، كما قلت، ببساطة لم تفكّر في ذلك. لم تلاحظ يوليكا المسكينة شيئاً، هذه المرأة المستغرقة تماماً في عملها وفي حبّها لزوجها. كل ما لاحظته هو أن شتيلر لم يعد يأخذ الحمّى التي أصابتها منذ سنوات مأخذ الجدّ؛ صحيح أنه كان يسأل في كلّ مساء بعد عودتها من عرض الباليه عن عدد مرّات إغلاق الستار وفتحه لكي يحيّيها الجمهور، غير أنه كان يفعل ذلك بنبرة خافتة من التهكّم. وبالنبرة نفسها كان يسأل: كيف حال السلّ معك؟ أو عندما تحكي يوليكا عن الوقاحة الفظيعة لناقد لم يذكر يوليكا بكلمة، كان صدر شتيلر، زوجها، يمتلئ بشعور من العدالة الوضيعة، وكان يقول لها إن عليها ألّا تهتمّ بالأمر إلى هذا الحدّ، أو عندما تحكي يوليكا عن وقاحةٍ فجّة من جانب أحد النقّاد الذي لم يذكر

يوليكا بكلمة، كان شتيلر، زوجها، يتصف بعدالة وضيعة، ويقول إن عليها ألّا تولي نفسها كلّ هذا الاهتمام، وأن الناقد ربما لم يذكرها بسبب تقصير وإهمال فحسب، ولا شيء غير ذلك. ما أدهش يوليكا على وجه خاص هو أن شتيلر بدأ أيضاً في وضع تماثيله فوق كلّ شيء. ولهذا كان يعتبر بقاءه لأيامٍ عديدة، بل لأسبوع كامل ذات مرّة ، في الأتيليه الخاص به شيئاً صائباً، إلى أن ذهبت يوليكا ذات ضحى إليه في الأتيليه. وجدته يجفّف الكؤوس وهو يصفّر، وحدست على الفور الزيارة في المساء السابق، غير أنها خجلت من سؤاله. رفعت يوليكا مشبك شعر من الأرض دون أن تنطق بكلمة، ومن دون أن تنطق بكلمة وضعته على المائدة، ثم زجاجتان من نبيذ «شاتونوف دو باب»، أي ليس من أرخص الأنواع، عموماً، لم تكن يوليكا تهتمّ بتوافه الأمور، حتى الشعرة السوداء على سرواله الفاتح، يا لها من دليل تافه! ضحك شتيلر. لم تكن زيارة مساء الأمس ما جعل يوليكا تنهار على الفور؛ بل ضحكته المعزّية السطحية، رقّته السادية في حقيقتها التي أراد بها أن يهدّئ من مشاعر امرأة غيور، كلّ هذا لم يكن -عَلِمَ الربّ- في محلّه، أيضاً فظاظته وهو يقول إنه لا يسمح لها أبداً بهذه الهيستيريا بسبب مشبك شعر؛ كلّ هذا لم يكن في محلّه إطلاقاً. لفترة طويلة لم تستطع يوليكا المسكينة بسبب نحيبها أن تنطق بكلمة. «يوليكا؟!»، سألها في النهاية بعد أن خامره حدسٌ ما بأن نحيبها لا علاقة له بمشبك الشعر السخيف. «ماذا حدث؟ يوليكا؟ تكلّمي!».

لقد ذهبت يوليكا إلى الطبيب.

«فعلاً؟»، سألها. حاولت أن تتماسك. سألها: «وماذا قال؟!».

كان شتيلر يجلس على الأريكة بجانبها، ما زالت الكأس والمنشفة في يده، بينما كانت يوليكا اليائسة ترتعد منتحبةً وتنشب أظافرها في الوسادة

حتى إن الوسادة انقطعت. لم تبكِ يوليكا على هذا النحو قطّ. أما شتيلر فكان، على ما يبدو، عاجزاً عن فعل شيء؛ وضع المنشفة جانباً حتى يربت بيده الخالية على شعرها، وكأن مثل هذه الحركة الرقيقة ستنقذ حياتها. بدا له من غير المناسب أن تكون يوليكا قد ذهبت إلى الطبيب، لقد أزعج ذلك تصفيره المرح. مزّقت يوليكا الوسادة، أما شتيلر فسألها: «وماذا قال الطبيب إذاً؟»، الطريقة التي أبدى بها مشاركته الوجدانية كانت بشعة (وما زالت يوليكا حتى اليوم ترى ذلك)، كلامه الهادئ الرقيق، قلقه الودّي، ثم الكأس من الأمسية السابقة في يده؛ قالت له وهي تتلجلج، وتتوقف مرّة بعد أخرى بسبب شعورها بالاختناق، ثم نحيبها الذي غطّى على الكلام، قالت إن عليها أن تسافر بأسرع ما يمكن إلى دافوس، إلى مصحّة في دافوس. لم يدفعه ذلك غير أن يسألها بجفاف: «منذ متى تعرفين ذلك؟».

«منذ نحو أسبوع!»، قالت له معتقدةً أن شتيلر قادر على إدراك فظاعة هذا الأسبوع. «... منذ أسبوع!»، لكنّه بدلاً من ذلك سألها: «ولماذا لم تخبريني إلا اليوم؟». كان سلوك شتيلر غير معقول. بل لقد سألها: «هل هذا صحيح؟!».

«صحيح؟ صحيح؟...»، في البداية قهقهت يوليكا، ثم نهضت ناظرةً إليه ولاحظت أن شتيلر ينظر إليها أيضاً: وكأن ما قالته ربما يكون خدعة، مبالغة رخيصة حتى تفسد عليه الذكرى المرحة لأمسية الأمس.

صرخت: «اِمشِ! اِمشِ! لا أريد أن أراك!».

هزّ شتيلر رأسه، فواصلت: «امشِ! من فضلك. اخرج من هنا!».

«يوليكا» -قال لها- «هذا الأتيليه خاصّ بي».

كان هدوءُه استهزاءً خالصاً بها، فعلاً وحشيّاً لم تكن يوليكا تتخيّل حدوثه، نعم، بل إن شتيلر ابتسم خلال حديث يوليكا عن موتها المحتمل.

ابتسم! لم تصدّق يوليكا المسكينة عينيها وأذنيها، وهي التي كانت تنوء وحدها منذ نحو أسبوع تحت ثقل هذا التشخيص الطبّي: واصل شتيلر تجفيفه لكأس الأمسية السابقة، وكأن الكأس هي الأمر الأكثر إلحاحاً، الأكثر هشاشة، نعم، الموضوع الحقيقي لقلقه، ثم أراد أن يعرف بدقّة -محافظاً على نبرته الرقيقة- أن يعرف، ليس ما رسمه خيال يوليكا المضطربة من فظائع، لا، لقد أراد أن يعرف ما قاله لها الطبيب، بدقّة تامّة، بموضوعية تامّة، وبالحرف الواحد.

- «قلتُ لكَ! على الفور إلى دافوس، هذا ما قاله، على الفور إلى المصحّة، وإلا فات الأوان».

مضت برهة حتى استوعب شتيلر على ما يبدو معنى كلامها استيعاباً تامّاً. لم يبُح لها بما يفكّر فيه، كلا، راح يعضّ فحسب شفته السفلى، ثم أصبح مثل كيسٍ يهزّه المرء هزّاً، أصبح صغيراً بشكل من الأشكال، وراح فجأةً يسدّد نظرات عاجزة إلى يوليكا. ألم تكن رغبته الدائمة أن تُجري يوليكا فحصاً دقيقاً؟ ها هي ذي قد حقّقت له أمنيته، لا أكثر ولا أقلّ. لماذا يحدّق فيها هكذا؟

كان المرض في رئتها اليسرى. على ما يبدو لم يتحدّث الطبيب إليها إلا بعبارات التعزية الإنسانية، دون أن يستخدم المصطلحات الطبية المتخصّصة. ذكر حالاتٍ شهدت شفاءً كاملاً رآها بنفسه. كان الطبيب رائعاً من الناحية الإنسانية. لا يعني هذا أنه ضمن لها نجاحاً مفترضاً، كلا، إذ إنه كان يأخذ يوليكا كشخصية على محمل الجدّ. على كلٍّ، وبالنظر إلى يأسها، كان يعتبر عودة يوليكا الجميلة يوماً ما إلى الباليه أمراً ممكناً، ممكناً جدّاً. لكن من دون ضمانة، بالطبع. الشيء الوحيد الذي يستطيع -كطبيب متحمّل للمسؤولية- أن يضمنه هو موتها المبكر إذا لم تذهب على الفور إلى المصحّة. كانت يوليكا آنذاك في السابعة والعشرين أو

الثامنة والعشرين من عمرها. كانت تعرف أيضاً اسم مصحّتها، وموقعها الجميل على حافة غابة، وكذلك التكاليف التقريبية التي سيتحمّل التأمين الصحي الجزء الأكبر منها. لو كان شتيلر، زوجُها، قد استعلم وقال لها إن التأمين الصحي يتحمّل شيئاً كهذا، لكانت يوليكا قد انتقلت منذ فترة طويلة إلى المصحّة، ولكانت على الأرجح شُفيت من مرضها. ولا ينكر شتيلر من جانبه هذا التقصير. هذه الملاحظة التي أبدتها، من دون مكر، أثّرت فيه بشكلٍ واضح، هذا ما رأته يوليكا متعجّبة، بل أفزعته؛ كان شتيلر على وشك البكاء. والآن، أيجب على يوليكا أن تعزّيه أيضاً؟ وضعت ذراعها حول كتفه، وهو ما يعني الكثير بالنسبة ليوليكا الخجول، لا سيما أن عليها الآن أن تفعل أشياء أخرى عديدة. إذاً، سيكون العرض الافتتاحي لباليه «لا فالس» لموريس رافيل، وباليه «القبعة ذات الزوايا الثلاث» لمانويل دي فايا، هذا العرضان الرائعان، آخر العروض التي تشارك فيها؛ في اليوم التالي، الخميس الموافق.

سيكون على شتيلر أن يرافقها إلى دافوس. أظهرت يوليكا التاريخ في مفكّرتها، فقد وضعت صليباً على ذلك اليوم. ما الذي لم يناسبه؟ نهض شتيلر من على الأريكة، دون أن يلقي نظرة حقيقية على مفكّرتها، ثم قذف، بقوّةٍ، الكأسَ الجافة تجاه ركن المطبخ حيث تحطّمت، ووضع سيجارة بين شفتيه، الشفتين الشاحبتين الرفيعتين، ثم وقف صامتاً مثل تمثال أمام نافذة الأتيليه الكبيرة، واضعاً كلتا يديه في جيبي سرواله، ومولياً ظهره إلى يوليكا، وكأنها هي المسؤولة عن ضرورة ذهابها إلى دافوس. ليس هذا فحسب، بل كأنها لم تفعل شيئاً غير أنها قلبت حساباته رأساً على عقب بيأسها المفهوم. سألته: «لمَ تصمت؟!»، أجاب «متأسّف!»، وهو يقصد الكأس التي أفزعت يوليكا بالتأكيد عندما تهشّمت؛ لكن لم يكن هذا ما يهمّها. «فيمَ تفكّر كلّ هذا الوقت؟»، سار شتيلر إلى الخزانة، وأخرج

زجاجة جين شبه فارغة، ثم ملأ كأسين بما بقي في الزجاجة، وقدّم كأساً ليوليكا كنوعٍ من العزاء، غير أنها رفضتها بحسم، وإن بلطف. لم تعد تطيق لَفْتاته اللطيفة عندما يقدّم لها الجين أو الليلك المسروق لكي يخفّف عنها قليلاً؛ بدا لها أن شتيلر يحب أن يقوم بمثل تلك اللفتات العاطفية، وهكذا كان يتخيّل نفسه، بطريقة رخيصة، زوجاً رقيقاً، وصديقاً يعتني بأصدقائه، كشخصٍ يُعتمد عليه في حمايتهم، شخص في غاية الطيبة، نعم، أما أن يستعلم طوال تلك السنوات عما إذا كان التأمين الصحي سيتحمّل تكاليف المصحّة، فهذا أمر لم يخطر قطّ على بال شتيلر الطيّب.

قالت له: «شكراً. أنا لا».

- «لماذا؟».

- «الكحول لن يغيّر شيئاً».

أفرغ شتيلر الكأس في جوفه، ثم قال أخيراً: «لا»، واحتسى أيضاً بجرعة واحدة كأس يوليكا.

- «لا... بالطبع ليس الذنب ذنبك يا يوليكا، أنك ستذهبين الآن إلى المصحّة، لا يمكن، إن الذنب ذنبي بالطبع».

- «لم أقل هذا قطّ!».

واصل بعناد قائلاً: «الذنب ذنبي في كلّ شيء، لا تحملي همّاً، يا حبّي، ستسافرين إذاً إلى دافوس أيتها المسكينة، وأنا سأبقى هنا في المدينة، أنا الذي يتمتع بالصحة... وخزات ضميري هي بالنسبة إليك خير وسادة ترتاحين عليها».

ثم ضحك ضحكة رثّة. سألته يوليكا: «ماذا تعني؟ دائماً ما تقول مثل هذه العبارات».

تناول شتيلر زجاجة الجين الفارغة، ثم هزّ رأسه وكأنه يتعجّب من

نفسه، لكنّه بدا هادئاً، ثم طوّح زجاجة الجين أيضاً إلى ركن المطبخ، فتناثر هشيم الزجاج في كلّ مكان. لم تنسَ يوليكا حتى اليوم سلوكه هذا الذي عبّر عن أنانية مفرطة، وهو ما أراه أنا أيضاً في ما يتعلّق بالمفقود.

راح المفقود شتيلر يمزح ذات مرّة وهو سكران قليلاً، وقال وسط دائرة من الأصدقاء: «لديّ زوجة رائعة، في كلّ مرّة أبتهج عند لقائها، وفي كلّ مرّة ، عندما تحضر، أشعر بنفسي مثل صيّاد عرقان تفوح منه رائحة عفنة، يسير مع عروس البحر البلورية!»، كان ذلك بعد الزواج بفترة قصيرة. لدى المرء انطباع بأن المفقود شتيلر لم يقبل شيئاً ما في جوهر هذه المرأة، مهما كانت درجة انبهاره بيوليكا، بل على الأرجح إنه لم يدرك ذلك الشيء، أعني برودتها الجنسية. وعلى ما يبدو لم تكن يوليكا الجميلة نفسها تعرف بوجود شيء كهذا، ليس كعارض مرضي، بل على العكس، كظاهرة طبيعية. هل تعرف ذلك اليوم؟ مؤخراً كانت مندهشة إلى حدّ كبير عندما ذكرت على نحو عابر النظرية العلمية التي تقول إن الإناث في الطبيعة كلّها، باستثناء الأنثى البشرية، لا يعرفن شيئاً اسمه هزّة الجماع. لكننا لم نواصل الحديث عن ذلك. ربما عانت يوليكا الجميلة حقّاً، وعلى أغرب نحو، من هذه الحقيقة، أعني حقيقة أن الشبق الذكوري يسبّب لها الاشمئزاز دائماً، رغم أن ذلك ليس سبباً بالطبع لكي تنظر إلى نفسها على أنها مخلوق غير كامل، امرأة معطوبة، فضلاً عن أن تكون فنّانة. إن بعض الأشياء في هذه المرأة، لا سيما عندما تتحدّث عن زوجها المفقود شتيلر، تعبّر بالتأكيد عن خداعٍ للذات ينمّ عن عناد مؤثر، نعم، بل إن المرء قد يميل إلى عدم تصديق مرضها بالسلّ الرئوي تصديقاً تامّاً، هذا المرض المدعوم بشهادات الأطباء والذي كلّفها تكاليف باهظة.

لماذا لم تستطع يوليكا أن تتحدّث عن ذلك مع أي شخص؟ قد يكون عدد النساء قليلاً جداً، أولئك اللاتي يعشن دون تمثيل أو ادّعاء هذه النشوة الحسّيّة الأخاذة التي ينتظرنها من اللقاء مع الرجل، أو بالأحرى التي يعتقدن أن عليهن أن ينتظرنها، بناء على الروايات التي يتهامس الجميع دائماً بشأنها، الروايات التي كتبها رجال؛ إضافة إلى ذلك تأتي تلك الأكذوبة البرّاقة التي تتناقلها النساء في ما بينهن، وربما كانت يوليكا الجميلة أكثر صدقاً قليلاً فحسب، ولكنّها في الوقت نفسه كانت مذعورة، لذلك صمتت أمام الآخرين، وتنكّرت في هيئة نبيلٍ شابّ أو أمير، وتقوقعت في دغلٍ من الضغوط النفسية حيث لا يقدر أيّ رجل أن يسير إليها. لا عجب إذاً أنها وضعت الباليه -وكلّ ما يتعلّق بالباليه، حتى لو كان من المستوى المتوسط، كما هو معتاد في مسارح المدينة- فوق كلّ شيء، فوق شتيلر على كل حال. عدة محاولات خجول في الجنس المثليّ لم تغيّر شيئاً على ما يبدو؛ وبقي الباليه الإمكانية الوحيدة للشعور باللذة. تستغني نساءٌ أخريات عن الباليه، ويخترن الأمومة، ويتحمّلن الرجل باعتبار أن لا غنى عنه للإنجاب، ثم يتجاوزنه، ويشعرن بالسعادة مع أطفالهن، ويضعن أطفالهن فوق كلّ شيء، تماماً كما تفعل راقصة الباليه مع فنّها؛ لا يعدن قادرات على الحديث إلا عن الأطفال، عن أطفالهن، حتى وإنْ تحدّثن ظاهرياً عن أطفال آخرين، ويضحّين بأنفسهن، ظاهريّاً، حتى يستطعن أن يحببن ذواتهن عبر أطفالهن، ويعتبرن ذلك حبّ الأم، أو الشغف، أو التضحية، بل ويعتقدن في النهاية أن هذه هي تربية الأطفال. بالطبع هذه نرجسية بحتة. من الممكن القول إن نرجسية الباردات التي أصابت يوليكا الجميلة كان لها على الأقلّ ميزة أنها لم تُسِئ إلى بشرٍ من دم ولحم، لقد أساءت إلى الفن فحسب، إلى تشايكوفسكي، وريمسكي كورساكوف، بل وأيضاً إلى رافيل، بالتأكيد، وسترافينسكي، لكنّها لم تُسئ

إلى أطفال ليس لديهم سوى هذه الأمّ. لكن السيدة يوليكا شتيلر تشودي، هكذا أظن، ستغضب إذا قلت لها بصراحة وعلى نحو مباشر إنني أنظر في الغالب نظرة ريبة إلى المرأة في الفن؛ ويمكنني أن أؤكّد لها، دون جدوى، أن ذلك لا يرجع إلى استهانتي بالمرأة، من ناحية أخرى فإن هذا لا يعني استهانتي بالفن.

في لاوعيه قد يكون المفقود شتيلر (غير ذلك لا يهمّني كثيراً أن أتفق في الرأي مع المفقود) قد شعر بشيء مشابه؛ غير أنه حوّل ذلك إلى اتهام، هكذا يبدو، اتهام مبطّن بالرقّة، إذ ادّعى أن يوليكا لم تُشبِع معه شهوتها قطّ، وهو اتهام ليوليكا، وكذلك اتهام أحمق لنفسه. وكأنّ كلّ امرأة مخلوقة لكي تكون -بهذا المعنى أيضاً- رفيقة الرجل! من اللافت، كما ذكرت، والمميّز لهذا الرجل أنه يعتقد أن عليه أن يعتذر دائماً؛ وعندما لا تذوب راقصة الباليه الجميلة تحت تأثير إحدى قبلاته -ربما لأنها أصدق فحسب من فتياتٍ أخريات- فإنه على ما يبدو كان يعتبر ذلك هزيمة لرجولته. إن جفاءها فظيع، ربما، لكنّه حقيقي. لم تدّعِ الجفاء لكي تثير شهوته، على العكس، لقد حاولت يوليكا بالأحرى أن تستجيب لتخفيف شهوته، غير أنها شعرت عندئذٍ، وبسرعة بالغة، أن الاشمئزاز يقف لها بالمرصاد عندما تستجيب، ذلك الاشمئزاز المسيطر الذي كان عليها أن تخفيه تحت كلّ الظروف، فهي لا تريد أن تجرحه. لا تريد أن تفقده. كانت تفضّل شتيلر على أيّ رجل آخر. من ناحية أخرى، كانت تنفر من التظاهر بذلك التلاحم الوحشي وتلك الإغماءة الروحية التي يصدّقها الرجل، بغروره، تقريباً دائماً، حتى لو كان التظاهر سيّئاً، التظاهر بأنه مَلَكَ عليها مشاعرها، وهو شعور يكون في حاجة إليه حتى يؤمن بعشق امرأة، ويؤمن في المقام الأول برجولته. آه، ما أفظع ما حدث!

على عكس ذلك، كان وقوفها على خشبة المسرح بلسماً لروحها؛

الشعور بآلاف النظرات الغريبة على جسدها، نظرات مختلفة كل الاختلاف، نظرات من تلاميذ في المرحلة الثانوية ومن رجال متزوّجين عاديين، نظرات كانت تلاحظ كلّ شيء قبل أن تهتمّ برقصها، حقّاً، لم تهتمّ يوليكا كثيراً عندما كان شتيلر، زوجها، يضع على جسدها يديه القاسيتين، والخشنتين بعض الشيء بفعل النحت. أما الحجة البائسة التي كانت تردّدها، أي إنها متعبة، فكانت كثيراً ما تصيبه بالغمّ والكدر. كان شتيلر يعتبر نفسه الرقّة مجسدةً، لكنّه لم يستطع أن يفهم أن المرء يشعر بالتعب. كان شتيلر يأخذ كل شيء على محمل شخصي!

عندما أخبرها طبيب المسرح لأول مرّة أن رئتها مصابة وعليها أن تحافظ على صحتها، كادت يوليكا تشعر بالراحة. هواء المسرح المترب قليلاً لم يعد الآن مناسباً ليوليكا على الإطلاق، لكن لا مفرّ منه في مهنتها، ولهذا كان على يوليكا أن تحافظ على صحتها أكثر من ذلك خارج خشبة المسرح. هكذا قال الطبيب. عندما طلبت يوليكا الجميلة إذاً مراعاة حالتها الصحية التي يجب أن تحافظ عليها وطالبت بالهدوء التام، لم يكن ذلك نزوة من نزوات يوليكا الجميلة، بل كان شيئاً يفرضه العقل. الأمر يتعلّق بصحتها. أضحت يوليكا مخلوقاً رقيقاً، في منتهى الرقّة؛ لكنّ حبّها لشتيلر لم ينقص بسبب ذلك. كان على شتيلر فحسب، كما قلت، أن يكون متفهّماً بعض التفهّم.

لكنّ تفهّم شتيلر لزوجته، هكذا يبدو، كان يقلّ يوماً بعد يوم؛ كان تمركزه حول ذاته كبيراً إلى حدّ أنه أرجع تعبها، المبرّر طبّياً، إلى شخصه، وإلى شخصه فحسب. كان ينصرف شتيلر من الشقّة دون كلمة، صافقاً الباب خلفه، لا لشيء سوى لأن يوليكا قالت إنها متعبة، ثم يعود في وقت ما من الليل، تفوح منه رائحة مزعجة من الحانات التي تردد عليها، أما أنفاسه فكانت حقّاً لا تُطاق. أو كان يقول بصوت يطفح اتهاماً وغضباً:

أريد أن أراك مرّة غير متعبة! ماذا كان على يوليكا أن تفعل؟ لم يقل لها قط: أنت، ببساطة، لا تصلحين أن تكوني امرأة! غير أن يوليكا كانت تشعر بالفعل أنه يقارن بينها وبين نساء أخريات. كاد شتيلر يدفعها إلى اليأس دفعاً، وحتى تبرهن لنفسها، وله، وللعالم كلّه على العكس من ذلك، لم تجد وسيلة أخرى غير الغزل الصريح، وهو شيء لم تفعله في حياتها من قبل قطّ. دفعها شتيلر إلى ذلك دفعاً. كان شتيلر يجد سلوك يوليكا سقيم الذوق، كيف كانت تسمح للرجال جميعاً في أثناء سفرها، لا سيما أولئك الرجال الذين سيبعدهم القدر عنها بشكل سريع، بأن يغازلوها ويخطبوا ودّها. كان الأمر مصدر سرور ليوليكا، أن تسمع مديحاً لجمالها، مقروناً بمديحٍ لفنّها؛ أما ما يتخطّى ذلك فلم تكن تقبله. لفترة طويلة لم يكن شتيلر يشعر بالغيرة، كان يشعر بالصدمة فحسب عندما كانت امرأته يوليكا توزّع قبلاتها في المطعم، وفي الشارع أمام المطعم، خلال الوداع، قبلات هنا، قبلات هناك؛ في تلك المواقف لم يكن شتيلر يقول سوى: هل أنت متأكّدة من أنك قد قبّلت الجميع؟ كان يعتبر الأمر لعبة طفولية. في إحدى المرّات كان غاضباً؛ حدث ذلك بعد حفلة راقصة، يوليكا الرشيقة كإحدى رفيقات باخوس، تتنقل من سيّد إلى سيّد بعد أن تجلس على ركبتيه، ولا تتوقف عن لعب دور «المرأة الرائعة»؛ كان شتيلر ينتظرها ممسكاً بمعطفها، وكان يشعر أن سلوكها يدفع إلى التقيّؤ، مثلما عبّر عن ذلك بطريقته المبتذلة. لا بدّ أن السادة الذين غازلوها على نحو لا يخلو من الجاذبية والمزاح، لا بدّ أنهم كانوا أذكياء جداً، وحقّاً مسلّين، وهي من جانبها كانت تقابل ذلك بجمالها؛ كان شتيلر يرى دائماً أن هؤلاء الرجال كلّهم مثليّو الجنس، على نحو من الأنحاء.

كانت ابتسامته تهينها، وهو أمرٌ مفهوم، لأنها لم تعرف قطّ كيف يعرف المرء شيئاً كهذا. وقد كانت في النهاية هذه الابتسامة هي التي دفعت يوليكا

المسكينة دفعاً لمواصلة سلوكها، دفعتها إلى أبعد ما تحثّها الطبيعة عليه، ثم ألقت بها في النهاية إلى أحضان مستشار إعلانات شابّ ذي رجولة مُعتَرَف بها، كما أنه كان يملك بيتاً ساحراً بالقرب من أسكونا في الجنوب السويسري، بالقرب من الحدود الإيطالية. على الأرجح لم يتوقع شتيلر أن تجرؤ يوليكا على ذلك؛ كان يعرف أن مستشار الإعلانات، وهو أحد معارف شتيلر، قد وقع في غرام راقصة الباليه منذ فترة طويلة، وبالتأكيد كان يغيظه أنه هو الذي رتّب أول لقاء. هل كان يريد أن يجرّب ما إذا كانت يوليكا امرأة حقّاً؟ وعندما حدث ما خطّط له، كاد شتيلر الطيّب يفقد عقله؛ كان يلتهم أقراص «فيرونال» المنوّمة التهاماً حتى ينام طوال النهار، ويتقوقع داخل مشغله الفني. كانت يوليكا هي التي وجدته سقيم الذوق هذه المرّة. من المحتمل أنه كان يخشى أن الرجل قد دخل الآن حلبة السباق، الرجل الحقيقي، ثم شهرَ أسلحته دون أن يعرف شتيلر أيّ شيء. في رسائله الشاكية كان يرى يوليكا، راقصة الباليه، وهي تدفع أمامها عربة أطفال، كان يراها أُمّاً على ضفاف بحيرة ماجوري. لا بدّ أن سلوكه المتصنّع قد سبب الضيق ليوليكا، لا سيما أن الحكاية نفسها، كما يبدو، لم تستمرّ سوى فترة قصيرة، أسبوع في أسكونا ربما. كانت حياة مستشار الإعلانات الشابّ صارمة، إذ تحتّم عليه الطيران إلى هذه المدينة أو تلك، في حين كانت يوليكا تواصل بروڤاتها بالطبع. كان شتيلر يتساءل كلّ يومين لماذا لم تسافر يوليكا إلى أسكونا؛ ناظراً إليها دائماً وكأنها تدين بالإجابة عن سؤالٍ لم تستطع يوليكا -حقّاً ومن دون أيّ تصنّع من جانبها- أن تخمّن ما هو.

ماذا يريد شتيلر أن يعرف منها؟ بالنسبة إلى يوليكا لم يكن الأمر يستحقّ الحديث، بغضّ النظر تماماً عن أنها بطبيعتها كائن خجول متحفّظ لا يحب الثرثرة، وأخيراً، هكذا رأت، كان بإمكان شتيلر أن يلاحظ أن الأمر انتهى. لم يلحظ شتيلر شيئاً، هكذا يبدو، أو لم يكن متأكّداً . ظلَّ

المستشار الطائر بالنسبة إليه هو الرجل العظيم الذي يستطيع إسعاد يوليكا؛ كان شتيلر على اقتناع بذلك من أول الحكاية المفزعة، كان أعمى ولم يرَ أن امرأته يوليكا لم تتغيّر. كان يعتقد أنها تتصنّع أمامه، وأنها تخفي سعادتها حتى تحافظ على مشاعره، مع أن يوليكا، وبعد كل ما سمح شتيلر لنفسه معها، لم تكن تشعر مطلقاً أن عليها أن تحافظ على مشاعره. عاش شتيلر طوال شهور متربّصاً بها، بل لقد بلغ به الأمر أنه فتّش مرّة حقيبة يدها حتى يعثر على أيّ علامة، رسالة ما أو تذكرة سفر إلى أسكونا، أو ملحوظة في أجندتها الصغيرة. لكن أجندتها الصغيرة لم تكن تضم سوى ملاحظات خاصة بالبروفات والكوافير وطبيب الأسنان. بإمكان المرء أن يتخيّل كم كان مزعجاً بالنسبة إلى يوليكا أن يظلّ شتيلر منشغلاً بهذا الموضوع، حتى ولو ذهنيّاً فحسب، وكم كان مزعجاً بصورة خاصة أن شتيلر، الذي لم يُلقِ اتهامات، كان يجلس بسحنة المُلاحَق الذي ينتظر دائماً شيئاً ما، ينتظر كلمة تنجيه. ماذا كان بإمكان يوليكا أن تقول له؟ قالت له ذات مرّة، عندما أراد شتيلر أن يعرف بصراحة ماذا يعني مستشار الإعلانات بالنسبة إليها: «لقد دفعتَني إلى اليأس يا شتيلر، دعنا لا نتحدّث عن الموضوع، لقد عدتُ إليك، ولكن عليك ألا تدفعني إلى اليأس دفعاً!».

على كلّ حال لم تشعر يوليكا بأنها ارتكبت ذنباً لم يقترف شتيلر أضعافه، ولهذا كان الأمر يتوقف عليه: كان عليه أن يحاول بكلّ ما في وسعه لكي تكون –وهي التي عادت إليه– سعيدة معه.

طوال أشهر سارت الأمور على نحو رائع مرّة أخرى.

كان شتيلر –الذي عرف على ما يبدو عبر طرق ملتوية أن المستشار الطائر قد أصبحت له صديقة منذ فترة طويلة– ينتظر يوليكا أمام المسرح، ويطهو الأرز المستورد من فالنسيا، ولم يكن يغضب عندما لا تأكل منه يوليكا سوى القليل، أو لا تأكل شيئاً بعد عودتها متعبة من البروڤا؛ كان

يشاركها وجدانياً عندما تحكي له عن شجارها مع أحد المخرجين، ويعطيها الحقّ؛ حافظ على صحتها كما طلب الطبيب، أو على الأقلّ حاول ذلك - طوال بضعة شهور. عندئذٍ بدا أنه غرق مرّة أخرى في تمركزه حول ذاته، وكان ينتظر أن تهتمّ يوليكا به فحسب؛ من جديد راح يخرج من الشقّة دون كلمة، صافقاً الباب خلفه، ثم يفرط في الشراب، مثلاً لأن يوليكا كانت متعبة للغاية، فلم تستطع طوال ساعات أن تبيّن اهتمامها بتماثيله. في أيام أخرى كانت تسمح لنفسها بأن تقول له إن سُكره مُكلف جدّاً. كان شتيلر يؤاخذها على صمتها، وكان يؤاخذها على كلامها. وكيف كان بإمكان يوليكا أن تكون رقيقة مع رجل هو في الحقيقة يفيض غضباً، وقد كانت تشعر بهذا الغضب؟ ذات صباح، في وسط الفطور، سألها شتيلر لماذا قالت لفرقة الباليه إنه اشترى معطفه الجديد، معطف من معاطف الجنود الأميركيين، من نقودها. لم تفهم يوليكا السؤال.

- «لماذا تحكين ذلك لفرقة الباليه بأكملها؟».

هكذا سألها بصوت يرتعش غضباً، جاعلاً من الحبّة قبّة.

سألته: «وما المشكلة في ذلك؟».

انتزع شتيلر الصحيفة من يدها وراح يشرح لها طوال نصف ساعة لماذا، حسب رأيه، يمثّل ذلك مشكلة. تأويله كان دنيئاً. طفرت الدموع في عيني يوليكا، وعندما لم يتوقف شتيلر عن التحدّث، صرخت فيه: «اخرج من هنا، أرجوك، اخرج من هنا!».

لم يخرج شتيلر، رغم أنه لا بدّ أدرك أن تأويله الدنيء قد جرحها. «اخرج إذاً!»، قالت له يوليكا، لكن شتيلر لم يتحرّك. صرخت فيه المرأة الملاحقة: «هذه وضاعة منك، وضاعة حقيرة!».

كانت تلك، بالمناسبة، هي المرّة الوحيدة، تقريباً المرّة الوحيدة التي

تستخدم فيها يوليكا في سخطها مثل تلك التعبيرات الواضحة. هل أدرك شتيلر مدى الظلم الذي ألحقه بهذه المرأة؟ لم يفكّر في الاعتذار. وهكذا بقي الشرخ قائماً. عندما اتضح لها ذات مرّة كيف أن شتيلر لا يخجل من تأويل توافه الأمور على نحو دنيء، شعرت بأن عليها بذل جهدٍ حتى تقول أيّ شيء. تمدّد الصمت بينهما، صمتٌ أسوأ من أيّ شجار. بدا أن شتيلر لا يدرك إلى أيّ مدى جرحَ يوليكا؛ كان يفسّر أفعالها وحركاتها كما يتفق مع تمركزه حول ذاته، كان عنيداً، لا يقبل النصح أو الإرشاد.

ثم شيء آخر!

كان لدى يوليكا آنذاك كلب، كلب فوكس، وهو ما يفعله في المعتاد الأزواج بلا أطفال، كان يُطلق عليه «فوكسلاين»، أو «فوكسلي» بلغة هذه البلاد، وهي بالمناسبة لغة لطيفة للغاية، حتى وإن كانت لا تقع على الأسماع موقعاً جميلاً، لكنّها وثيقة الارتباط بالأرض والأشياء، وإذا دقّق المرء السمع فهي لا تخلو من رقّة. من البديهي أنها كانت متعلّقة به، وإلا ما كانت اقتنته؛ هذا هو الشيء المبهج في الكلاب، إمّا أن يتعلّق المرء بها، أو لا يحتاج إلى اقتنائها. لم يفهم شتيلر قط أن المرء بإمكانه أن يتعلّق بـ«فوكسلي» بهذا الشكل، كما لم يكد ينجح مرّة في قراءة عيني فوكسلي اللتين تفيضان دفئاً. كان يسخر من صبر يوليكا الأمومي عندما تأتي متأخرة إلى أيّ مكان مع فوكسلي الذي كان يعدو من شجرة إلى شجرة وهو يتشمّم ما حوله. متهكّماً أطلق عليه: الحيوان المقدّس. كان معروفاً أن يوليكا ستأتي متأخرة، ولم يؤاخذها أحدٌ على هذا، لأن فوكسلي كان يشيع البهجة. بفضل جمال سيدته الذي لم يكن يجرؤ أيُّ نادل يتّسم ببعض التحضّر أن يقاومه، كان يُسمح لفوكسلي في المطعم بأن يجلس على كرسي مبطّن، تماماً مثل شتيلر. لم يستطع شتيلر قطّ أن يقبل ذلك، كانت تلك مشكلته، لأنه عنيد. لماذا يجب على يوليكا، التي لم تكن تأكل

كثيراً قطّ، أن تترك على طبقها نصف قطعة الفيليه الرائع اللذيذ؟ على كل حال كانت يوليكا -وإنْ لم يُنطق بذلك- تدفع ثمن معظم الطعام، في المقابل كان لدى شتيلر نبيذه. لم يكن يقول كلمة، رغم ذلك كان يخامر يوليكا غالباً الشعور بأن عليها أن تدافع عن فوكسلي. وهذا تماماً ما شعر به فوكسلي أيضاً. فوكسلي كان في صفّها. أغضب ذلك شتيلر ربما، أنهما يكوّنان أغلبية؛ يوليكا وفوكسلي، كلاهما محط إعجاب الجميع، كانا ينتصران عليه في كلّ المواضيع الحاسمة. ليس معنى هذا أن شتيلر كان يضرب جروها اللطيف - هذا ما كان ينقصها! لكن شتيلر لم يكن يحبّه؛ كان يتصرّف وكأن فوكسلي غير موجود. ما يكاد يصل إلى ردهة المنزل، حتى يستقبله فوكسلي بقفزاتٍ مرحبة، غير أن شتيلر لم يكن يعبأ إلا بما وصل من رسائل، رسائله فحسب، وكأنه ينتظر رسائل رعاة الفن الذين سيغدقون عليه المنح. ذات مرّة قال أحدهم: يوليكا، لديكم كلب حلو! عندئذٍ ردّ شتيلر: حلو جداً، نعم، سنصنع منه قريباً مربّى! كان شتيلر يشعر بالغيرة من كلبها، لكنّه لم يعترف بذلك، بل استنبط من ذلك نظرية من نظرياته التي لم يكن لها أدنى علاقة بفوكسلي، الكلب من دم ولحم، وكان يتحدّث مرّة بعد مرّة عن نفسيّة يوليكا (وليس عن نفسية فوكسلي) التي لم يكن يفقه فيها شيئاً على الإطلاق. لماذا، على سبيل المثال، لم يدع شتيلر فوكسلي يدخل الأتيليه الخاص به قطّ؟ وبعد ذلك يتعجّب من أن زوجته لا تزوره في الأتيليه لشهور في أغلب الأحيان، وذات مرّة طوال عام، كان يشعر بالإحباط لأنها لا تشاركه عمله الإبداعي. لم تكن يوليكا تعرف حقّاً أين تستطيع أن تربط فوكسلي من دون أن تشعر بالخوف عليه، أم كان عليها أن تترك فوكسلي في الحارات الغريبة لمجرّد أن تدع شتيلر يُريها، مرّة أخرى، أن عمله الإبداعي، مثلما كان يشكو دائماً، لم يعد يتقدّم خطوة إلى الأمام؟

يبدو أن شتيلر كان تجسيداً لمفهوم الرجل بالغ الحساسية الذي يشعر بالإهانة من أتفه الأشياء. من ناحيته، كان يذهب طوال سنوات إلى بروڤات الباليه الخاصة بها حيث كان يُسمح له برسم اسكتشات، وهو ما يعني له استفادة خالصة؛ لكن ماذا ستستفيد يوليكا -إذا تحدّثنا بموضوعية- من الوقوف في الأتيليه المغبرّ في معظم الأحيان، حيث كان يعمل طوال سنوات على الأشياء نفسها تقريباً؟ كما أنها قد تُصاب هناك بالبرد. في تمركزه حول ذاته، كان شتيلر أصمّ تجاه مثل هذه الأفكار. أيّ شيء كان ينتظره دائماً من يوليكا؟ إن شعوره بالإهانة، الذي كان يخفيه بأدب ولا يتحدّث عنه، كان يمثّل عبئاً على يوليكا المسكينة. ولأنها، هي راقصة الباليه، لم تكن تنطق بكلمة قطّ خلال الأحاديث التي لا تُحصى التي تدور حول النحت، تلك الأحاديث التي كان شتيلر يجريها مع رفاقه حتى منتصف الليالي في الغالب، فهذا أمر كان يحزنه، وكان يفسّره على أنه نقص في المشاركة الوجدانية من طرفها، لكنّه لم يفكّر قطّ في أن الأمر لم يكن من جانب يوليكا، التي لا تفقه شيئاً في النحت، سوى تواضع طبيعي، فضلاً عن طبعها الخجول والمحافظ للغاية. فإذا ما انصرف رفاقه أخيراً، كان يمسي فظّاً: «على الأقلّ كان بإمكانك أن تقدّمي حساء بسيطاً»، هكذا كان يقول متذمراً، على الأقلّ! لم يخطر على بال يوليكا أن تصبح خادمته. ومن هذا اليوم فصاعداً، إذ ظهرت الأخرى بعد ذلك، كان قد استنفد حساسيّته تماماً؛ صدّقوا أو لا تصدّقوا: خرج شتيلر عن طوره عندما جلست يوليكا في الشرفة دون أن تفتقده، بل افتقدت فوكسلي، كما أنه تعجّب، فعلاً، من أن يوليكا، المريضة والمهجورة، لم تكتب له رسائل عاطفية من دافوس؛ هذا صحيح، لم تكتب له شيئاً مطلقاً، باستثناء وريقة سجّلت فيها ما كان على شتيلر أن يشتريه لها من المدينة؛ لم تكن يوليكا تقدر على الكتابة ببساطة! في ما بعد، أثناء الصيف، ظلّ طوال أسابيع لا يكتب لها شيئاً، ولم يكن يستحي، وهو

الخالي من أيّ مشاعر تعاطف، من استخدام الحجّة الرخيصة، وهي أن يوليكا لم تكتب له رسالة واحدة هي أيضاً.

إلى آخره.

ليست لديّ أيّ رغبة في أن ألعب دور حمامة السلام بين يوليكا الجميلة وزوجها المفقود؛ ولكن لأنها في كلّ مرّة تتحدّث عن تلك الأوقات ثقيلة الوطأة، فإن المرء يحاول بالطبع أن يحدس الروابط والعلاقات بين الأشياء، حتى لو فعل ذلك للتسلية فحسب، مثلما يملأ مربّعات الكلمات المتقاطعة. ماذا أفعل غير ذلك في زنزانتي؟!

الحدس، بشأن عبارة قصيرة قالتها يوليكا الجميلة قبل وقتٍ طويل، كان أمراً صعباً، لكن لا غنى عنه لملء مربّعات الكلمات المتقاطعة الخاصة بالمفقود شتيلر. لكنّها لا تذكر تلك العبارة. عبارة عادية تماماً. جملة تافهة. ورغم ذلك، هكذا أسمع، لم يستطع شتيلر أن يتجاوزها قطّ، في الحقيقة فإن قدرته على تجاوزها كانت تقلّ بمرور الأيام. ويبدو أن تلك العبارة الصغيرة، القصيرة جداً، التي نسيتها يوليكا منذ فترة طويلة لها علاقة بشعور شتيلر بأنه مثل صياد تفوح منه رائحة عفنة يسير مع عروس البحر البلّورية. قيلت العبارة في ليلتهما الأولى المشتركة. الظاهر أن شتيلر لم يكن رجلاً يشعر بالإهانة من أتفه الأشياء فحسب، بل أيضاً رجلاً مريضاً في تمركزه حول ذاته، وما ينتج عن ذلك من حساسية جعلته يأخذ كلمات، قد تقولها يوليكا لأيّ رجل، على محملٍ شخصيّ تماماً؛ كما أنه كان من فصيلة المجترّين، الأمر الذي كان غالباً بالنسبة إلى يوليكا المسكينة، بكلّ بساطة، لا يطاق. فجأةً، وبعد سنوات، تذكّر شتيلر تلك العبارة التافهة مجدّداً! أما يوليكا فكانت، كما تؤكّد، قد نسيت منذ زمن بعيد تلك العبارة التي قيلت في الليلة الأولى. لم يتجاوز شتيلر الأمر،

كان يحمل تلك الكلمات على جبينه كعلامة مثل قايين، ولم يُجدِ شيئاً أن يوليكا كانت تزيح برقّة، وأمام الناس جميعاً، عن جبهته خصلات شعره المنكوش دائماً. عاملته يوليكا بعطف مؤثّر. ومن المحتمل أنها لم تعبّر آنذاك إلا عن مشاعرها، وكما تفعل أيّ فتاة عندما يحتضنها رجلٌ لأول مرة. كان على شتيلر أن يدرك ذلك. وقد أدرك ذلك أيضاً. لكن على ما يبدو فإن ما عذّبه أن تلك العبارة بقيت العبارة الوحيدة التي نطقت بها يوليكا الحبيبة بعد العناق الأول. وفجأةً، وبعد مرور السنين، ازداد اهتمامه بشيء منقضٍ؛ وشت عيناه بمدى عذابه، وكيف أن روحه قد انغلقت حول نقطة وحيدة، وكيف كان صدى عبارة صغيرة تافهة، عبارة موضوعية على كل حال، قد بدأ يعلو في ذاكرته حتى غطّى على كلّ شيء. وعندما كانت يوليكا تجتهد لكي تكون بالغة الرقّة معه، كان يشعر بالفزع من جديد لما تفوّهت به قبل سنوات عديدة. شعر شتيلر وكأنه شخص ملوّث، وكان يتصرّف وكأن يوليكا تشعر بالنفور تجاهه، فكان يصدّها، كما قلت، في تلك المواقف تحديداً عندما كانت تجتهد لإظهار رقّتها البالغة؛ كان يبتعد عنها.

يُقال إن شتيلر كان سبّاحاً ماهراً؛ لعدة سنوات كان يقطع كلّ يوم البحيرة كلّها سباحة، ذهاباً وإيّاباً، سواء أمطرت أو لم تمطر، وفي أغلب الأحيان حتى شهر أكتوبر: كان يكفّر بذلك عن ذنوبه. رأت يوليكا في هذا الشكل من الرياضة مراوغة. كان شتيلر في حاجة إليها حتى يشعر بالراحة. على ما يبدو في حاجة إلى بحيرة مليئة بالمياه. كان فظيعاً بالنسبة إليه أن يتصبّب عرقاً. وأثناء وجوده مع الناس، إذا تصبّب عرقاً أو أحسّ أنه قد يعرق، كان عندئذٍ يفقد كلّ حسٍّ للدعابة، كان يجلس صامتاً مذهولاً، عاجزاً حتى عن متابعة الحديث. عندئذٍ كان الخوف الشديد يطلّ من عينيه حتى إن يوليكا كانت تتأثّر بذلك في أغلب الأحيان. كثيراً ما كان يتوهّم أنه مصاب بطفح

جلدي. لكن ذلك كان في أغلب الأحيان محضُ وهْمٍ. وما يلبث بعد ذلك أن يتحدّث بحماسة عن سيدة غريبة قبّلته على وجهه المتصبّب عرقاً على ذروة جبل «بيتس بالو»، كان هذا بالنسبة إليه هو الـ«بيتس بالو»، لا يُنسى، فريد من نوعه، مهيب.

خصامه مع الجسد، هكذا يبدو، كان يتعلّق بجسده وحده. كان شتيلر يبدي إعجابه المتحمّس بالأطفال الذين يسبحون في البحيرة، ببشرة الأطفال، كما أن الأجساد البشرية في الباليه، مثلاً، كانت كثيراً ما تثير حماسته. ثمّة شيء مؤلم في حماسته تلك، شيء من الحنين اليائس الذي يشعر به الكسيح. كان شتيلر قد تعدّى الثلاثين، ولكن إذا وضعت امرأة يدها (من دون قفاز) على يده، ولم تسحبها مباشرة، وإذا أزاحت الشعر الخفيف من على جبهته، ليس فقط لترتّبه، بل لتشعر بشعره أيضاً، ولتشعر بجبهته النحيلة، فقد كان يضطرب مثل صبيّ، ما يجعله جذّاباً جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض السيدات. كان رجلاً تتاح أمامه فرص، مثلما يُقال، من دون أن يؤمن بفرصه. ومن المرجّح أن هذا ما سبّب لشتيلر الارتباك على وجه الخصوص، ليست الفرصة في حدّ ذاتها، بل خوفه من أن يعتبره الآخرون ليس سوى أحمق؛ كان مرتاباً، قلقاً، غير مستعدّ لتصديق أن ثمّة امرأة تضع يدها على يده دون أن تشعر بالنفور. نفترض أن هذا الإنسان التعيس كان يقف أمام المرآة، ليس كثيراً، ولكن بين حين وآخر، فلنقل بعد الدشّ اليومي الذي لم يكن ينظّف جسده إلا للّحظة الحالية، ليعرف ما ينفّر يوليكا، حوريّته البلورية، ثم لا يجد شتيلر أي شيء في جسده لا يثير نفوره هو. كان شتيلر يرى الرجال على قدرٍ عالٍ من الجمال، وكان لا يتوقف عن رسمهم؛ النساء أيضاً. هو وحده، المدعو شتيلر، كان حظّه سيّئاً عندما سكن في جسد رجل يلوّث أعزّ ما لديه؛ هذا ما قالته له بصراحة يوليكا، هذا الإنسان المستقيم، قالتها بنيّةٍ طيّبة، بموضوعية؛ ما جعل الأمر سيّئاً

هو أنها بقيت عبارتها الوحيدة. باختصار، كان شتيلر حقّاً يستخدم حيلة، ويوليكا المسكينة -وهي كائن في غاية الرقّة، خجول بطبيعتها، متحفّظة في كلامها مثل فتاة، عزلاء تجاه أيّ تأويل يتجاهل جوهرها الحقيقي- كان الأمر بالنسبة إليها بالتأكيد ليس سهلاً مع زوجها العُصابي. وكان واضحاً أن هذا أيضاً ما يراه آخرون، أعني أن شتيلر يجهل جوهرها الحقيقي.

لم يكن ينقصهما أصدقاء يحذّرون شتيلر، لكنّهم لم يجنوا من وراء ذلك سوى الجحود. لم يتحمّل شتيلر ذلك. أخ، هكذا كان يقول بعد حديثٍ كهذا، فليذهب الذين يتدخّلون في زيجات الآخرين إلى الجحيم، لأنهم يظنّون أن نيّاتهم طيّبة، وأنه يكفي أن تكون نيّاتهم طيبة، دون حتى أن يعرفوا ثلث الحكاية التي يتحدّثون بشأنها بنيّة طيبة! وبهذا كانت أفضل الكلمات التي يسمعها من صديق تفقد كل قيمتها؛ فقد كان شتيلر يعرف كلّ شيء على نحو أفضل. كانوا يقولون له إن يوليكا المسكينة لا تحبه فحسب، بل تحبه أكثر مما يستحقّ، فكان أقصى ما يردّ به شتيلر: جيد جدّاً أنكم قلتم لي هذا! لكنّه في الحقيقة لم يفكّر قط في أن يأخذ كلامهم مأخذ الجدّ. كان يشكّ في أن يوليكا تحرّض معارفهما المشتركين، وكان في ذلك ظلمٌ لها، كأشياء عديدة في سلوكه تجاه هذه المرأة التي، على ما أظن، كان خجلها يمنعها من أن تبوح لآخرين بحياتها الخاصة. كان الناس يرون ما يحدث بعيونهم. وهذا ما لم يكن يطيقه شتيلر. لفترة طويلة كانا يعرفان زوجين لطيفين، كان الرجل طبيباً بيطرياً، وهي طبيبة أطفال مرموقة، إنسانان على ثقافة عالية بمعنى حيويّ، يجمعان بين العاطفة والعقل، صديقان يدين لهما شتيلر بالكثير، ليس فقط سلسلة من الدعوات إلى مآدب العشاء اللذيذة، بل اقتراحات من كلّ الأنواع مهّدت لهما الاندماج في مجتمع زيورخ، إنه يدين لهما حتى بتكليف حصل عليه ليصنع عملاً فنياً. كان شتيلر يراهما إنسانين رائعين، طبيبة الأطفال والطبيب البيطري، إلى أن أسرّت له المرأة

ذات مرّة، بينها وبينه، ما تفكّر فيه، وهو أن السيدة يوليكا إنسانٌ رائع للغاية، كائن راقٍ ونبيل في جوهره، إنسان ندر أن قابلت إنساناً مثله في حياتها. قاطعها شتيلر على الفور: «ولماذا تقولين لي هذا؟».

قالت مداعبة: «بصراحة يا شتيلر، في بعض الأحيان أتساءل ماذا فعلت يوليكا لكي تستحقّ زوجاً مثلك؟!».

ثم ابتسمت حتى توضح أنها تداعبه. كان ردّ فعل شتيلر ثلجياً. فأضافت الطبيبة، بدافع من روح الصداقة البحتة: «أنا جادّة في ما أقول! آمل أن تدرك ذلك قبل أن يفوت الأوان، قبل أن تشيخ يا شتيلر، أن تدرك أن امرأةً رائعة للغاية تحيا إلى جانبك، إنساناً نفيساً، أحدّثك بكلّ جدّيّة، آمل من كلّ قلبي يا شتيلر، ولمصلحتك!».

لكنّ شتيلر، على ما يبدو، لم يكن يتحمّل أيضاً الكلام الجادّ؛ حدث ذلك في أحد المطاعم، أشار شتيلر إلى النادل في حين واصلت الصديقة، طبيبة الأطفال، كلامها عن يوليكا، ودفع الفاتورة دون أن يتحدّث بكلمة واحدة عن الموضوع. إجابته الوحيدة التي كان يستخدمها من الآن فصاعداً إذا أبدى الثنائي الرائع، طبيبة الأطفال والطبيب البيطري، الرغبة في دعوتهما أن يقول: لا وقت لديّ؛ أيْ أن يستخدم أرخص وسيلة للإجابة. قاومت يوليكا ذلك، وعن حقّ، وراحت من جانبها تدعو الزوجين، طبيبة الأطفال والطبيب البيطري؛ فإذا عاد شتيلر إلى المنزل وسمع في الممرّ أصوات مَن في الشقّة، كان يريد ببساطة أن يستدير ويمضي. بصعوبة استطاعت يوليكا أن تمنع وقوع هذه الفظاظة الاجتماعية؛ بقي شتيلر حتى العشاء، وبعد ذلك «تحتّمَ» عليه أن يذهب إلى الأتيليه. لقد هرب ببساطة. وفي بعض الأحيان كاد الأمر فعلاً يصل إلى حدود البارانويا؛ من المرجّح أن شتيلر كان يحاول أن يكون لطيفاً مع أصدقائها، لكنّهم كانوا

بالطبع يشعرون بطبيعته الصادّة المتكلّفة. ثم يتعجّب السيد شتيلر من أن الناس ينفضّون من حوله، فلا أحد يحبّ الذهاب إلى زوجين يعيشان أزمة، هذا أمرٌ مفهوم، هذا شيء يحوم في الهواء، حتى لو لم يكن المرء يعرف شيئاً، ينتاب الزائر عندئذٍ الشعور بأنه يشهد وقفاً لإطلاق النار، يرى نفسه كجسر اضطراري، ويشعر بأنهما يستغلّانه على نحو من الأنحاء، لهدف ما، وهكذا يفقد الحديث انسيابه. يسود الطيش في الساعات المتأخرة ويصبح خطراً، فجأة يتقاذفون النكات كالرصاص، نكات حادّة قليلاً، مسمومة قليلاً، ويلاحظ الزائر أشياء لا يريد المضيف أن يكشف عنها. يتحرّك المرء وكأنه في حقل ألغام. يشمّ الزائر في الأجواء رائحة التحكّم الشديد في الذات خلال زيارة كهذه لدى زوجين يعيشان أزمة، حتى إذا لم ينفجر شيء، وحتى لو صدق ما يقوله المضيف، أي أن هذه الأمسية كانت بالنسبة إليهم ألطف أمسية منذ فترة طويلة، فالمرء يتفهّم ذلك؛ لكنّه لا يتحرق شوقاً إلى الدعوة التالية، والعوائق تتزايد لا إرادياً، بالفعل، المرء يكاد لا يجد أمسية خالية. لا يقطع الإنسان علاقته بزوجين يمرّان بأزمة، بالتأكيد لا. لكن اللقاءات تصبح نادرة بعض الشيء، ولاحقاً ينسى المرء الزوجين عندما يوجّه دعوة للأصدقاء، لا إرادياً، من دون قصد. بسلوكه هذا تجاه كل الأصدقاء حسني النيّة، لم يكن يحقّ لشتيلر إذاً أن يتعجّب.

لحسن الحظ، لا يمكن أن نقول سوى ذلك، كان لدى يوليكا على الأقلّ أصدقاؤها في فرقة الباليه، كما كان لديها عملها نفسه على وجه الخصوص. على خشبة المسرح، في فيض الأضواء الكاشفة، كانت تتحرّر من كلّ شيء، كانت إنساناً آخر، إنساناً سعيداً، السعادة مجسّدة. من ناحية أخرى لم يعد شتيلر يأتي إلى البروفات. انسحب وتقوقع في عمله. ولم يُجدِ أيضاً شيئاً أن زوج صديقتها، الطبيب البيطري، ذهب إلى الأتيليه ذات صباح لكي يتحدّث مع شتيلر، من رجل إلى رجل، حديثاً خالياً من أيّ

اتهامات. ولكن كانت تكفي جملة مثل: «أعتقد يا شتيلر أنك تظلم امرأتك ظلماً كبيراً».

فيردّ شتيلر بنبرة مفعمة بالاستهزاء: «مؤكّد! أكنت تنتظر شيئاً آخر؟ وهل رأيتني يوماً أفعل شيئاً سوى الظلم؟».

حاول الطبيب البيطري كل شيء، غير أن شتيلر تركه واقفاً، ونظّف سكين النحت وقال له دون أن يرافق الزائر إلى الباب: وداعاً. بالفعل كان سلوكه نوعاً من البارانويا، كيف كان، سرّاً، يعتبر الناس أعداءه بمجرّد أن تنظر إليهم يوليكا كأصدقاء. ماذا كان على يوليكا أن تفعل؟ كانت تشعر بالأسف على شتيلر. كان يرمي بنفسه إلى أحضان العزلة. ما أكثر ما حاولت يوليكا! تعاملت بمرح مع سلوك شتيلر بأنه رجل لا يفهمه أحد، وعندما يطيل التفكير، ويصبح خاملاً مثل مشلول، ومتحجّراً، وصامتاً حتى إن المرء يكاد يموت ضجراً معه، عندما يخشى الناس، وتنعدم الرغبة داخله، عندما لا يبالي، ويفتقد الإرادة، عندما يصبح كلّ شيء إلا أن يكون رجلاً بإمكانه إسعاد امرأة، عندئذٍ كانت يوليكا كثيراً ما تضع يدها لبرهة على كتفه وتبتسم قائلة: «نعم، نعم.. مسكين!».

بالتأكيد لم تكن حياتها في الصيف في دافوس سهلة، في تلك الشرفة شبابية الطراز، حيث كان المرء يشمّ رائحة الحشائش ويرى السناجب. على ما يبدو كانت حالة يوليكا مثل حال معظم الجُدد هناك في الأعلى: بعد نوبات الفزع الأولى، وبعد ليلتين أو ثلاث ليالٍ يقرّر المرء خلالها أن يهرب، وبعد الشعور البشع وكأن المرء يستعدّ في كلّ مرّة للموت عندما يلفّونه بالأغطية الصوفية ويدفعون به إلى الڤرندا نفسها... بعد ذلك تعوّدت يوليكا فجأة على هذا النظام اليومي المختلف، بل واستمتعت بألّا يكون

عليها أن تفعل شيئاً، لا شيء على الإطلاق. الراحة هي الشيء الوحيد الذي طُلب منها. استمتعت يوليكا بوجودها في هذا العالم، مثلما لم تفعل منذ أمد بعيد. ليست بشعة إلى هذا الحد، هذه الدافوس، إنها وادٍ مثل باقي الأودية، وادٍ أخضر، مسالم، ومملّ بعض الشيء ربما، وادٍ بغابات مائلة ومروج مسطّحة، تخترقه هنا وهناك ممرّات صخرية، قطعة من الطبيعة، ولا شيء غير ذلك. لم يكن الموت يحوم هناك مثل رجل نحيل يمسك بالمحشّ ليحصد الأرواح، كلا، هناك كانت الحشائش فحسب هي التي تُحشّ، فيتصاعد شذاها، ويفوح أريج الغابة القريبة، في مكان ما ينثرون الروث، وعلى أشجار الصنوبر أمام الڤرندا يتقافز سنجابٌ لعوب. خلال النهار، كان المرء، ربما، يعيش وكأنه في إجازة.

أحد الجيران كان يجلس يومياً لمدة ربع ساعة على طرف سريرها، عند القدمين؛ رجل أنقذه الأطباء من حالته المرضية، وسمحوا له بالتمشية، فكان يحضر لها باقة من زهور المروج، وهو بالمناسبة شابّ، أصغر من يوليكا، ولكن من قدامى مرضى المصحّة، وكان يستقبل الجدد ألطف استقبال، وعلى ما يبدو كان يخفّف كثيراً عن يوليكا. كان هو الذي يحضر لها الكتب، كتباً تختلف عما كان يحضره شتيلر، عالم جديد إذاً. ويا له من عالم! قرأت يوليكا أفلاطون، موت سقراط، كتاب صعب، لكن ذلك الشاب من قدامى مرضى المصحّة كان يساعدها دون أن يبدو متعالماً، على نحوٍ عرضيّ مرح، مثل أولئك الناس الذين يفهمون الأمور بسرعة فائقة، ولا يظنّون أبداً أن المرء قد لا يفهم شيئاً يستعصي على عقله. كان جذّاباً بعينيه الواسعتين ووجهه النحيل الذي يعلوه دائماً بعض المكر. لم يكن أحدهما واقعاً في حبّ الآخر، مطلقاً. من ناحيتها كانت يوليكا تحكي ربما عن الباليه، أما المريض القديم الشاب، الذي كان يرتدي بِدَل مرضى متوفّين، فكان يحكي لها قليلاً عن كل أولئك الذين

تسمعهم يوليكا يسعلون بين الحين والآخر دون أن تتاح لها فرصة رؤيتهم، لا يحكي حكايات حياتهم، شذرات فحسب لا تجرح خصوصياتهم؛ كانت يوليكا سعيدة بذلك، في البداية شعرت بغرابة نبرته «العابثة» إلى أن لاحظت أن السخرية الحادة لا تتعارض مع العمق الباطني، بل هي نوع آخر فحسب، ربما يكون نوعاً أكثر عفّةً واستقامة. باختصار، كانت يوليكا تنتظر الربع ساعة هذه بشوق، وكانت تفتقد بشدّة الشاب، مريض المصحّة القديم، عندما لا يجيء مرّة. ماذا حدث؟ لا شيء: زيارة من العائلة، ولا شيء غير ذلك. أتى في اليوم التالي من جديد، وشرح ليوليكا صورة من صور أشعّة إكس. صورته؟ لم يبُح بذلك، وأراها ما يُسمّى «الظلال»، بل وجعل يوليكا شيئاً فشيئاً ترى تلك الأضلاع جميلة، وأن تنظر إليها كتشكيل فني، وأن تُعجب مثلاً بشفافية القلب الذي لا يُرى، وأن تكون مأخوذة من السُّحب بين الأضلاع والعمود الفقري، نعم، عندما يطيل المرء النظر يرى الصورة مزدحمة بالأشكال الضائعة في غبش الأحلام. وعندما باح لها الفتى بأنها هي شخصياً، السيدة يوليكا شتيلر تشودي، وقد أضاءت أشعّة إكس جسدها، لم تفزع على الإطلاق. من أين أتى بها؟ سرقها بالأمس، عندما كان عليه أن ينتظر لدى الطبيب؛ على المرء في المصحّة أن يكون عابثاً مجنوناً، هكذا رأى، الناس يتعاملون بجدّيّة شديدة، خصوصاً في المصحّة، وربما خارجها أيضاً. كان على يوليكا أن تفكّر في شتيلر. كانت مثل تلك الزيارات على حافة سريرها تثير اهتمامها بالطبع أكثر من رسائل شتيلر المنتظمة التي يكتبها بدافع من الشعور بالواجب، التي، مثلما شعرت يوليكا بكلّ تأكيد، لم تفسّر أي شيء، على العكس. كانت الرسائل ثرثرة خرساء. كيف كان بإمكان يوليكا أن تردّ عليها؟! الشيء الوحيد الجيد في هذه الرسائل: الرؤية الظاهرية لتلك الرسائل كانت تهدّئ من روع الطبيب المشرف والممرضات؛ إذ إنهم وجدوا الأمر غريباً، هذا إذا استخدمنا لفظاً

مخفّفاً، غريباً جدّاً أن السيد شتيلر لم يأت قطّ لزيارة زوجته. كان على يوليكا أن تدافع عنه. كثيراً ما كانت تقول: «زوجي سيأتي! آن الأوان!»، كان الطبيب المشرف يقول: «وإلا سأكتب للسيد قرينك مواعيد القطارات، إذا لم يكن لديه جدول للسفر!».

كان الجميع يحبّون السيدة يوليكا جداً، وكان الوقت يمضي بلا شعور بالضيق خلال النهار، لا سيما إذا كان الطقس جميلاً. ذلك الشاب من قدامى مرضى المصحّة، وهو طالب في كلية اللاهوت الكاثوليكية، كان بالفعل عطيّة من السماء. لم تكن يوليكا تعتقد أن بالإمكان الجمع بين كل هذه الثقافة وكلّ هذه الشيطنة الصبيانية. كان أكثر الناس علماً من بين كلّ مَن تحدّثت معهم، كانت تشعر بنفسها في كثير من الأحيان مثل شخصٍ أمّيّ، من ناحية أخرى مثل امرأة ناضجة؛ لأنه كان صبيّاً، كما قلت. استمتعت يوليكا جداً، على كل حال، بالحديث معه، بعلمه، وبشيطنته العابثة على حافة سريرها. إذا سأله المرء عن شيء لا يعرفه، كان الأمر يسبّب له سروراً شبيهاً بسرور فوكسلي عندما يلقي المرء بحجر أو بكوز صنوبر بعيداً؛ بعد عدّة أيام كان الشاب يعود ويقول أين يستطيع المرء أن يجد الإجابة، ويسرد ما وجده من معلومات. شرح ليوليكا المفاهيم الأولية في الفيزياء الحديثة، كان الأمر مثيراً حقّاً، وكلّ شيء بدقّة علمية لم يمتلكها شتيلر قطّ، حتى لو أتى مباشرة من محاضرة وكان بالغ التحمّس لها، لكنّه كان يعجز عن أن يشرح ليوليكا شيئاً مثل تكوين الذرّة. هنا، لأول مرة، فهمت كلّ شيء، كل شيء تقريباً. أو كانت يوليكا تعرف كل ما يتعلّق بوالدة الإله، تقديس الأنثوي، وهو أمرٌ لا يفقه فيه البروتستانت حرفاً، كان يشرح كل شيء بمعلومات غزيرة، أي بتمكّن، وبالقدر الذي تستطيع معه أن تتابعه وتفهمه، وهي التي لا تدري عن ذلك شيئاً، وأن تعرف على الأقلّ الأمور الأساسية في قضيّة ما. ورغم أن زوجها شتيلر قد حارب يوماً في

إسبانيا مع الشيوعيين، فقد عرفت يوليكا الآن، لأول مرّة الفكرةَ الأساسية في الشيوعية، بموضوعية ومن دون مبالغات، كما عرفت الأشياء التي أُخذت عن هيغل، وتلك التي كانت سوء فهم لهيغل، مفهوم الدياليكتيك، والعناصر المسيحية في الشيوعية، وما هو ضد المسيحية، العلمنة، الماورائيات، على ما يبدو لم يكن هناك شيء لا يستطيع هذا الشابّ اليسوعي أن يفكّر فيه، بوجهه النحيل وعينيه الغائرتين الشبيهتين بعض الشبه بعيون الموتى، وأن يفعل ذلك بخفّة، ثم يحاضر عنه بطريقته الجافة، بكلمات قليلة، من دون ثرثرة، لكنّها كانت كلمات مسلّية، أثارت في كثير من الأحيان ضحكات يوليكا، سواء كان الحديث عن والدة الإله أو سرعة الضوء المطلقة؛ ومع أن طريقته جافّة، فعلى ما يبدو لم يكن في حاجة قط إلى التوضيح والشرح. هنا أيضاً استمتعت يوليكا بألّا تكون مجبرة على فعل شيء. كان شتيلر يحثّها دائماً على شيء، وجهات نظر كان يناقضها بنفسه في ما بعد؛ ولكنّه اعتاد أن يتحدّث عن تلك الآراء في الأوقات التي كان متحمّساً لها على نحو لا تجرؤ يوليكا أن تعارضه. أما هذا الكاثوليكي الشاب فمختلف تماماً! لم يكن يدفع يوليكا قط لكي تعارضه. كانت ترقد في الشرفة الخاصة بها، وكانت تمتصّ تلك الآراء مثلما تستنشق هواء الغابة القريبة. يبدو أن يوليكا كانت تسمع أيضاً من هذا الزائر اليومي، على نحو عرضي، تلك الفكرة التي ليست جديدة تماماً، وهي أن أَمارة غياب الحب -وهذه خطيئة- أن ترسم صورة جاهزة عن القريبين منك، أو عن الناس عموماً، أن تقول: أنت هكذا وهكذا، وانتهى الأمر! وهي فكرة لا بدّ أنها مسّت قلب يوليكا الجميلة على الفور. ألم يكن الأمر هكذا، أن شتيلر، زوجها، قد صنع لنفسه صورة لها؟ باختصار، لم تشعر يوليكا بالضجر، وما دامت ترى ضوء النهار، سواء كانت الشمس مشرقة أو كانت تمطر، فقد كانت تتحمّل مرضها من دون ضيق تقريباً.

لكن الليالي كانت، على الأرجح، مختلفة تماماً.

لم تتحدّث يوليكا عن ذلك قطّ، لكن، على كل حال، كان الضوء لا يزال مضيئاً عندما تدخل الممرضة في الصباح إلى الغرفة، ثم تجد يوليكا غافية، وهي منهكة تماماً، سابحةً في عرق بارد، في حين يبدو سريرها في منتهى الفوضى من كثرة تقلّبها. منحنى الحرارة كان يظهر بوضوح كيف أن يوليكا المسكينة لم تتبع على الإطلاق التحذير الطبي الورع بألا تنفعل في أيّ ظرف من الظروف. أمام الممرضة الغبية بعض الشيء، التي كانت تساعد يوليكا على الاغتسال وتغيّر لها ملاءات السرير وتحضر لها وسادة التدفئة وشاياً قبل موعد توزيعه، كانت يوليكا تنكر كل شيء، وذلك حتى لا يؤجّلوا مرّة أخرى أول تمشية تقوم بها، التمشية التي وعدوها بها منذ أسابيع. في تلك الليالي الفظيعة، ربما، كانت يوليكا ترى أحياناً زوجها شتيلر في ذلك الموقف الذي لا يُنسى، وهو يجفّف كؤوس الأمسية السابقة، ويضع في جيبه مشبك الشعر الذي تركته زائرته في تلك الأمسية، حتى لا تستاء يوليكا من رؤيته أكثر من ذلك، وكيف كان ردّ فعله على خبر مرض يوليكا المميت، عندما كان كلّ ما فعله هو رمي كأسه من الأمسية السابقة على الحائط، ولا شيء أكثر من ذلك.

كما أن شتيلر لم يعد يكتب رسائل إليها.

المرء يتساءل بالطبع عمّا إذا قام أحدٌ، على انفراد، بإخبار هذا الشتيلر (ما دامت يوليكا المسكينة لم تعد تستطيع أن تكتب إليه ذلك)، ما كان على زوجته أن تتحمّله هناك في أعالي دافوس، وهي على كل حال زوجته التي ما زال على الأقلّ يحبّها، رغم الأخرى، يحبّها إلى درجة أنه يريدها أن تفتقده. لكن، لم يكن شتيلر مستعدّاً لأن يستمع إلى أحد على انفراد؛ المعارف القلائل الذين حاولوا ذلك يوماً، استسلموا بالطبع، والمعارف الجدد لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الليالي الفظيعة التي تعيشها يوليكا،

تماماً مثله. ماذا كان يعرف على الإطلاق؟ لم تبُح يوليكا المسكينة لأحد بشيء. على ما يبدو عرف شخص بالرغم من ذلك شيئاً، هذا الشاب، عميد مرضى المصحّة. وتحدّث معها عن ذلك بخفّة ومرح، مثلما يتحدّث عن آباء الكنيسة، وعن سرعة الضوء المطلقة (التي لا يمكن أن تتضاعف عندما يمرق شعاع ضوئي أمام شعاع آخر) وعن القانون الأساس لزيادة السرعة ونقصانها الذي لا يسري على الضوء، ومثلما يتحدّث عن البوذية. مرّة أخرى كان يجلس، ممتلئاً من تلك العلوم، على طرف سريرها حيث كانت يوليكا المنهكة تحاول الاستماع إليه، كان قد قرأ لتوّه في مجلّة مقالاً للبروفيسور شيرر من زيورخ، وأعجبه: الكتلة طاقة محفوظة في حساب لا يمكن الصرف منه.

سألها: «أليس هذا مضحكاً؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «نعم».

- «بالفعل!».

ثم أضاف، من دون أيّ تغيير في نبرة صوته، وهو ما زال يقلّب في مجلّته: «يقضي المرء نهاره في لعب الشطرنج والقراءة، وفي الليل يبكي، لستِ الوحيدة في هذه المصحّة يا يوليكا، صدّقيني. هذا هو حال الجميع هنا. في البداية، في الأسابيع أو الشهور الأولى، تستولي الدهشة على المرء، كم هو جميل المكان، الحشائش الجافة، وشذا الغابة، والسناجب، وتلك الأشياء، لكن الأهوال لا تتأخر عن المجيء. يبكي المرء على وسادته، ولا يعرف السبب الحقيقي، المرء يتضرّر من ذلك فحسب، ويعرف أن جسدنا المحموم أصبح مثل جهاز إشعال فقدَ صلاحيته. وبعد ذلك، إن آجلاً أو عاجلاً، يفكّر الجميع هنا في الهرب. لا سيما في الليل عندما يخلو المرء إلى نفسه؛ عندئذٍ تنمو كالسرطان أكثر الخطط جنوناً، كلٌّ منّا يتحوّل إلى

نابوليون بالنسبة إلى ذاته، يتحوّل إلى هتلر، لا أحد يستطيع الوصول إلى روسيا، ولا يستطيع أحدٌ منا، يا يوليكا، أن يصل حتى إلى السهل بالأسفل، أربع ساعات بالقطار الصغير، تبديل القطار في لاندكفارت، أمرٌ تافه. البعض يحاول أيضاً أن يفعل ذلك كل عام، وسرّاً يأخذون فرشاة أسنانهم، ويقولون للممرّضة إن عليهم أن يذهبوا إلى دورة المياه، ثم يسافرون بالقطار إلى الوادي، ويصلون إلى هذا المكان أو ذلك، حسب حظّهم، وحسب الطقس، ثم يعانون الانهيار، ويعتقدون أنهم سيختنقون، فيعودون إلى هنا بعربة الإسعاف من دون أن ينطقوا بكلمة».

- «So what?».

قال ذلك وابتسم، قبل أن يضيف: «أتعرفين، نحن حتى لا نشعر ناحيتهم بالأسف، الأمر في غاية الغباء. عن تجربة. إن زمالتنا تقتصر على الادّعاء بأننا لم نلاحظ شيئاً. هل تحلفي لي يا يوليكا أنك لن تفعلي هذا الهراء أبداً؟!».

أقسمت يوليكا. فقال الشاب، عميد المرضى: «لا!! ليس تحت هذه البطانية المصنوعة من وبر الجمال، الربّ المحبّ يريد أن يرى شيئاً».

أقسمت يوليكا بعد أن أزاحت الغطاء. فقال لها: «أترين!».

ثم أضاف بعد أن استغرق ثانية في قراءة مجلّته: «وعموماً سترين يا يوليكا، حتى إذا مات أحدٌ هنا، فلن يتأثّر أحدٌ تأثّراً كبيراً. من يأمل أن يؤثّر فينا عبر احتضاره، يموت بلا أيّ جدوى. الحياة وحدها هي التي تعجب الناس هنا! بالمناسبة، لاحظت أن معظم المرضى يموتون قبل عيد ميلاد المسيح وبعده، من فرط التأثر بقضاء العيد هنا».

(هو نفسه مات في أواخر سبتمبر).

ثم ظهر شتيلر في أغسطس، من دون إخطار، وعموماً سلك سلوكاً لا

بدّ أنه جعل الطبيب المشرف يستغرب أكثر من استغرابه لغيابه الطويل. تصرّفَ شتيلر وكأنهم يحجزون يوليكا الجميلة من دون أي وجه حقّ في هذه الشرفة الشبابية. طالب الممرضة على الفور أن يُسمح لزوجته بأن تتمشّى معه، ساعة على الأقلّ. السبب: على شتيلر أن يتحدّث مع يوليكا. ماذا حدث؟ بدت له الشرفة، حيث كان يتوقّع آذاناً مصغية يمنة ويسرة، مكاناً غير مناسب لكي يبدأ حتى في الحديث معها. كان قد خلع «البيريه»، لكنّه ظلَّ مرتدياً المعطف العسكري الذي كان يلبسه صيفاً وشتاء باعتباره معطفه الوحيد. سألته يوليكا: «كيف حالك؟».

لم يكن شتيلر على طبيعته إطلاقاً، راح يخنق البيريه في يده، منفعلاً وكأنّ عليهم في هذه المصحّة أن يراعوا مشاعره، ومشاعره هو فحسب، هو الذي يريد الانفراد بيوليكا ليتحدّث معها. تجاهل سؤالها عن حاله. أمام الطبيب المشرف الذي أتى لعيادة المريضة بعد وصوله بقليل، كرّر شتيلر على الفور رجاءه بالتمشية مع يوليكا. أُخذَ الطبيب على غرّة. أيجب عليه أن يقول أمام المريضة بصراحة إن عليه نسيان أيّ تمشية في حالتها هذه؟ منذ أسابيع ويوليكا تنتظر السماح لها بذلك. أن يقول له «لا» واضحة وصريحة، وهو ما كان شتيلر يستحقّه، لم يكن ممكناً بالنظر إلى يوليكا اليائسة بالفعل. حقّاً، ماذا يجب على الطبيب المشرف أن يقول الآن؟ بصوت واهن موجّه إلى اتجاه ما، وكأنه يريد أن يسمعه أحد، وافق على نصف ساعة، بل حتى ثلاثة أرباع ساعة، غير أنه رجا شتيلر أن ينتظر في الممرّ، لأنه يريد أن يتحدّث معه قبلها.

لأول مرّة منذ شهور غادرت يوليكا المصحّة التي أمست بالنسبة إليها شيئاً شبيهاً بالقوقعة، مندهشة على نحو غريب أنها ليست في الشرفة الآن. شعرت بنفسها أضعف مما كانت تتوقع. وضعت ذراعها في ذراعه، وسندها شتيلر قليلاً، دون أن يُشعرها بأنها ذات عاهة، ثم سارا في درب

ضيق كانت تراه يوليكا كثيراً من الشرفة (إذا جلست بغرض رؤيته)، ياه، كان الأمر حدثاً كبيراً بالنسبة ليوليكا المسكينة، حتى إن الدموع طفرت من عينيها، دموع الفرح؛ أن تسير فوق الأرض، أن تمسك بيدها كوز صنوبر، وأن تشمّ على أصابعها صمغ الأشجار، كلّ هذا كان بالنسبة إليها مصدر سعادة عظيمة، حتى شتيلر شعر بذلك، على كل حال لم يبدأ هو الكلام، بل هي: «ماذا قال لك الطبيب المشرف؟».

لم يُرد شتيلر أن يصارحها. رجته قائلة: «تكلّم أخيراً!».

بدا الاضطراب على شتيلر، ثم قال في النهاية: «ماذا قال لي؟ عليّ أن أجنّبك أيّ انفعال. هذا هو كل شيء. قصير جداً، طبيبك. عليك في الحقيقة ألّا تقومي بأيّ تمشية، هكذا قال، حالتك أكثر جدّيّة مما كنت أظن».

- «هكذا؟».

- «نعم».

- «لا يقولون لي أيّ شيء!».

- «نعم».

هكذا أضاف شتيلر حتى يشتّت ذهنها عن الرأي الطبي الذي كان عليه بالتأكيد ألا يذكره أمام يوليكا، ثم ابتسم من غير خبث، ابتسامة غريبة فحسب، ابتسامة حزينة فحسب: «ثم قال لي بالطبع إنك إنسان رائع وراقٍ، هشّ، ولذلك يجب المحافظة عليك، إنسان نفيس. كل الناس يريدون أن يعلّموني. لا بدّ أنني إنسان أحمق!».

فضحكت قائلة: «شتيلر!».

- «لا، ربما أكون ذلك فعلاً. جميل أن أراك مرّة أخرى. أتعرفين، بهذه السهولة تولد الأشباح إذا لم يرَ أحدنا الآخر. على الأقلّ بالنسبة إليّ».

كرّرت يوليكا سؤالها: «ماذا تفعل إذاً كلّ هذا الوقت في المدينة؟».

غمغم قائلاً: «أخ.. لا شيء مميّزاً!».

- «هل رأيت فوكسلي؟».

- «لا».

- «هل تعمل طوال الوقت؟».

لم يكن شتيلر في حالة تسمح له بتبادل الأحاديث. قال لها مكرّراً: «نعم، هذا هو في الحقيقة كل ما كان يريد أن يقوله لي. أنك كائن نبيل، وأنك تستحقّين أن يضعك الرجل داخل عينيه. وعلى كل حال ينبغي تجنّب كلّ الانفعالات. هذا سيضرّك فحسب، وحالتك جدّيّة إلى حدّ كبير. يوليكا، لقد كرّر لي ذلك ثلاث مرّات على ما أعتقد».

هكذا، ذراعاً في ذراع، وكما لا يسير شتيلر مع يوليكا إلا نادراً، صامتين وكأنهما باحا بكلّ ما هو جوهري، وكأنهما لا يريدان الآن سوى الإعجاب بهذا اليوم من شهر أغسطس، اليوم الخالي من الغيوم، وذلك الهواء ذائع الصيت، هكذا راحا يسيران على طريق التنزّه المشهور ذي أكواز الصنوبر والسناجب التي تكاد تكون متطفّلة، وهي السناجب التي أراني محاميّ ويوليكا صورها حديثاً، طريق جميل حقّاً، يمرّ تارة بالغابات، وتارة بالمروج. كان الطقس في الأسفل، في المدينة، فظيعاً، لزجاً دائماً وكأن عاصفة ممطرة ستأتي، لكنّها لم تأتِ قطّ، هذه العاصفة، بقي الطقس حارّاً، وتصبّب المرء عرقاً، أما هنا في الأعلى فلا يعرق المرء مطلقاً. استمتع شتيلر بالأجواء. وفاح عبير من المروج. لم يسيرا مسافة طويلة مراعاة للمسكينة يوليكا. خلع شتيلر معطفه العسكري البني، معطف عملي حقّاً، ثم جلسا على أرض مغطاة بإبر الصنوبر دفّأتها الشمس، إبر جافة، لكنّها ليّنة. كانت الأجواء ببساطة رائعة. فكّرت يوليكا: لماذا نتحدّث! وهكذا لم يتحدّثا تقريباً. بدا من المستحيل أن يتحدّث المرء بأي شيء قبل أن تُقال

الأشياء المهمة. وأخيراً سألت يوليكا: «ما الأمر؟ لقد أردتَ أن تتحدّث معي!».

من مكان ما من زُرقة الظهيرة رمى أحدهم حجراً غير مرئي. طنين حشرات. الجبال صامتة بلونها الرمادي الفضّي. من دون جدوى راحت يوليكا تنتظر أن يقول شتيلر شيئاً. أخذ شتيلر يفرك التربة الحمراء بين أصابعه إلى أن نبّهته يوليكا -ليس لأن صغائر الأمور تهمّها، بل لمجرّد أن تثرثر أي ثرثرة- إلى أظفار يديه الطويلة شيئاً ما وقد اتسخت من التربة، ملاحظة عابرة تماماً، لكن السيد شتيلر، هذا الرجل الذي يشعر بالإهانة من أتفه الأشياء، أخذها على محمل سيّئ للغاية، دون أن يقول شيئاً (لم يذكر ذلك إلا في ما بعد في إحدى رسائله). في تلك اللحظة ترك التربة المفتّتة تهوي، ونفض يديه، ثم تناول غصناً جافاً من الأرض، ونظّف به أظفار يديه وهو ما لم تطلبه يوليكا. كان غريباً أن يسأل خلال ذلك على نحو مفاجئ: «هل أحببتِني حقّاً في يوم من الأيام؟».

بماذا تجيب يوليكا عن سؤال كهذا! لكن شتيلر، الذي انهمك في تنظيف ظفر بعد الآخر، أصرّ على سؤاله الغريب الذي أحسّته يوليكا شاذّاً تماماً. سألته بنبرة مرحة بعض الشيء، ناظرة إلى شفتيه اللتين كانتا ترتجفان من الانفعال: «وما علاقة ذلك بأظافر يديك المتسخة؟ هل جئت إلى هنا لتسألني هذا السؤال؟».

رأى كلاهما أن هذه النبرة لم تكن موفقة، وغير مبشّرة، وغير متناسبة مع بهاء الغابة الصامتة. ماذا كان يعني ذلك ليوليكا المسكينة، أن ترى غاباتها هذه على نحو مغاير لما تراه من الشرفة، بل عموماً أن تكون مرّة خارج النوافذ الزجاجية لشرفتها الشبابية، أن يكون بمقدورها قطف زهور المروج بيديها، لا أن تتلقّاها من اليسوعي الشاب فحسب، أن ترتدي فستانها الذي كادت تنساه، لا أن تكون ملفوفة في غطاء من وبر الإبل - بدا

أن شتيلر لا يستطيع تقدير كلّ ذلك على نحو صحيح. كانت نصف ساعة قد مضت. راح شتيلر يدخّن، بعد أن طلب منها الإذن، في حين وضعت يوليكا عوداً من أعواد الحشائش بين أسنانها وراحت تسحب الهواء منه. سألته: «كيف حال.. امرأتك؟!».

– «مَن تقصدين؟».

– «هل ما زلت واقعاً في حبّها؟».

سهّلت عليه يوليكا الأمر قدر الإمكان حقّاً، لكن شتيلر كان جباناً بالسليقة؛ لم يتحدّث بكلمة عن أنه يقابل السيدة (وهو ما اتضح في ما بعد) يومياً تقريباً. نظر إلى يوليكا فحسب، وصمتَ. ما الذي يتوقعه دائماً منها؟ رقدت يوليكا على العشب الدافئ، متعبة من التمشية الصغيرة، متعبة على نحو مفهوم، رغم ذلك كانت تستند على كوعها الأيمن حتى تتسع رؤيتها، وعود العشب الطويل المهتزّ بين شفتيها. شعرت بشتيلر وهو يوجّه إليها نظراتٍ فاحصة، شعرها الأحمر، أنفها الرقيق، بشرتها التي كانت الشمس أكسبتها سمرةً آنذاك (شحوبها المرمري المعتاد يناسبها أكثر على الأرجح)، شفتاها دون طلاء، كان يتفحّص نهديها أيضاً، وكلّ جسدها الذي هو، في نهاية المطاف، جسد راقصة باليه؛ راح شتيلر يتفحّصها وكأنه لم يرَ في حياته أنثى. هل يقارنها مع الأخرى؟ حسب رأي يوليكا، كان شتيلر يبدو أنه واقع بشدّة في الحب، حبّها هي، وفي الوقت نفسه كان يائساً. لماذا؟ سألته يوليكا: «ما بك؟».

وفجأة (تجد يوليكا نفسها حتى اليوم مجبرة على الابتسام قليلاً، عندما تتذكّر ذلك) أمسك بها شتيلر وكأنه طرزان، وهو ما لم يكنه شتيلر في يوم من الأيام، ووضع وجهها النحيل بين يديه، يدي النحّات الخشنتين بعض الشيء، ثم قبّلها بحرارة غير مفهومة، حرارة لم يكن بالطبع من الممكن مقاومتها على هذا النحو الفجائي، ثم أدنى بعنف جسدها الضعيف آنذاك

وكأنه يريد أن يعتصرها اعتصاراً. في الحقيقة لقد آلم يوليكا جدّاً. لم تقل ذلك على الفور. لماذا يحدّق فيها على هذا النحو؟ لبرهة تركته. لكن ماذا يعني ذلك؟ احترست يوليكا حتى لا تبتسم، لكن حتى محاولة الاحتراس هذه لاحظها شتيلر. نادى عليها: «أنتِ؟ أنتِ!».

نادى عليها فعلاً، وكأنها ترقد على الجانب الآخر من الوادي. نزع عود العشب المهتز من بين أسنانها الذي لم يكن سوى تعبير عن حيرتها المفهومة. لم تدرك يوليكا مطلقاً أن العود ما زال بين أسنانها. لماذا يثير عودٌ بريء كهذا استياءه؟ بدأت عينا شتيلر في اللمعان، ثم غطّتهما الدموع، ولأنه لاحظ أنه على وشك البكاء، فقد ألقى برأسه في حِجرها، وتشبّث بيوليكا بكلتا يديه التي رأت فجأة، بالطبع، الطبيعة الطلقة أمامها، والمصحّة على مبعدة ما، والكنيسة الصغيرة في قرية دافوس، وقطار السكة الحديد الأحمر الصغير الذي أتى لتوّه من الغابة مطلقاً صفيره. راح شتيلر ينتحب في حجرها، ينتحب كأسير حرب عائد لتوّه إلى محطة السكك الحديدية، وواصل انتحابه حتى إنها شعرت بحرارة وجهه. تساءلت يوليكا: هل يستطيعون رؤيتها من المصحّة؟ لشتيلر يدان مثل مخلبين، فكان الأمر غريباً بالطبع بالنسبة إلى يوليكا، بل محرجاً، أن يمسكها من مؤخرتها. وفي النهاية، ولأنه لم يتوقف عن النحيب، وضعت يدها على قفاه المبتلّ من العرق، ثم ربّتت على رأسه الجاف وانتظرت حتى يتماسك. لكنّه لم يتماسك. لم يرد أن يتماسك. لقد حاول حتى (من السخافة أن تقول ذلك) أن يعضّها في حجرها، أن يعضّها مثل كلب، لكن تنّورتها الصلبة المصنوعة في مانشستر عاقته عن ذلك. قالت له يوليكا: «هيّا!... دعك من هذا!».

لا تعرف يوليكا اليوم كيف كان عليها أن تتصرّف في تلك النزهة في دافوس. خلال دقيقتين رأت إسبانيّين غريبين يتنزّهان في الطريق

ويقتربان منهما، ببطء، صحيح، لكنّهما كانا يقتربان. كان سلوك شتيلر محرجاً، فضلاً عن أنه ذكّر يوليكا قليلاً بالمسرح، شيء يشبه «مورتايمر» أو «كلافيغو» لغوته، لم يخطر على بالها العمل المناسب الآن؛ لكن الأمر كان محرجاً على كل حال، إذ إن شتيلر كان يرقد الآن كالميت على تنّورتها المانشسترية، ثقيل ومن دون حراك، من دون أن ينتحب، وقد مدّ ذراعيه جانباً، ثقيل الحركة مثل رجل شبعان.

قالت له يوليكا بلطف بالغ: «شتيلر! ثمّة أناس قادمون...!».

أصبح الناس على مبعدة مئة متر تقريباً، لم يستطع شتيلر إنكار ذلك.

برأسه الدائخ قليلاً مثل غوّاص قد صعد ثانية إلى السطح، اعتدل شتيلر دون أن يتلفّت حوله، ودون أن يتأكّد من أن الناس يقتربون حقّاً منهما شيئاً فشيئاً. وضع كلتا يديه أمام وجهه إلى أن عبرتهما سيدتان عجوزان وأصبحتا خلفهما، عندئذٍ أبعد يديه ووضعهما على ركبتيه، متطلّعاً إلى الوادي، وربما نظر إلى نفسه على أنه شخصية تراجيدية جداً؛ على كل حال، لم يخطر على بال يوليكا عندما نظرت إليه إلا أن تزيح من على جبهته قليلاً شعرَه الفوضوي دائماً، وابتسمت قائلة: «نعم، نعم... يا لك من مسكين!».

عندئذٍ نهض، لم يعرف شتيلر ماذا يمكنه أن يقول. سحبَ إلى أعلى قليلاً سرواله غير المُعتَنى به، وتناول معطفه العسكري المُكَرمش بعد أن استطاعت يوليكا أن تنهض من دون حاجة إلى يده، ثم أعطى يوليكا ذراعه كي تستند عليه، وقادها ليعودا إلى المصحّة حيث وعدها أن ينتظر في الممرّ إلى أن يلفّوا يوليكا وينقلوها إلى الشرفة الخاصة بها. استغرق ذلك عشرين دقيقة. عندما ألقت الممرضة نظرة في الممرّ، لم يكن السيد شتيلر ينتظر هناك. لقد سافر هكذا ببساطة من دون وداع.

كان ذلك اللقاء قبل الأخير بينهما.

«كنوبل»، حارسي، سيصبح عبئاً عليّ. مثل قرّاء الصحف أصبح ينتظر مني التكملة اليومية لحكاية حياتي رغم أن ذاكرتي ترهقني.

- «معذرة يا مستر وايت، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لقد قتلت في البداية زوجتك...».

- «نعم».

- «ثم المدير شميتس».

- «نعم».

- «قلتَ إن ذلك كان في الأدغال، في جامايكا. ثم جاء زوج الخلاسيّة الصغيرة، وفي إثر ذلك هربت إلى المكسيك - ثم؟».

هكذا سأل وهو يمسك بدلو الحساء، ثم أضاف: «ومن المكسيك جئت إلى هنا».

- «نعم».

- «ولكن، أين هما جريمتا القتل الأخريان؟ لقد تحدّثت عن خمس جرائم قتل».

رحت أتناول الحساء بالملعقة، وقلت: «ربما كانت ثلاث جرائم فقط».

- «لندع المزاح جانباً!».

قالها «كنوبل» الذي لم يكن يتحمّل في هذه النقطة -هكذا اتضح- أيّ دعابة؛ سيصبح عبئاً... وفي النهاية لا أقول له سوى: «هناك طرق مختلفة لقتل إنسان، أو على الأقلّ قتل روحه، وهذا شيء لا تلاحظه أيّ شرطة في العالم كلّه. تكفي كلمة، التحدّث بصراحة في اللحظة المناسبة. وتكفي ابتسامة. أودّ أن أرى الإنسان الذي لا تقتله ابتسامة، أو يقتله الصمت. كل جرائم القتل هذه، هذا بديهي، تتمّ ببطء. ألم تفكّر قطّ، عزيزي كنوبل، لماذا يهتمّ كل هؤلاء البشر بوقوع جريمة حقيقية، جريمة واضحة، لكن لا يمكن

إقامة الدليل عليها؟ هذا أمر واضح كل الوضوح: لأننا في المعتاد لا نرى جرائم القتل اليومية التي نرتكبها. لهذا يشعر المرء بالراحة عندما يسمع ذات مرّة صوت رصاصة، عندما تسيل دماء، أو عندما يموت شخص بسمٍّ حقيقي، وليس بسبب صمت زوجته فحسب. هذا هو الرائع في العصور السابقة، مثلاً في عصر النهضة كان البشر يُفصِحون عن أنفسهم من خلال الأفعال؛ أما اليوم فقد أصبح كلّ شيء باطنيّاً... ولكي نتحدّث عن جريمة قتل باطنية، يا عزيزي كنوبل، فإننا في حاجة إلى وقت، الكثير من الوقت!».

- «كم من الوقت؟».

- «ساعات وأيام».

في إثر ذلك قال حارسي: «مستر وايت، يوم الأحد القادم لديّ عطلة».

كانت يوليكا تعلم إذاً، رغم صمتها، علاقة شتيلر الصيفية مع امرأة أخرى. كلمة «علاقة» ليست بالكلمة الجميلة، ربما، لكن، هل كان على يوليكا (عندما تفكّر في الأمر) أن تبحث عن كناية رومانسية لذلك؟ إذاً، كانت تعلم بالأمر. ماذا كان بإمكانها، وهي المريضة في شرفتها الزجاجية، أن تفعل لمواجهة ذلك؟ لا شيء مطلقاً.

لا شيء سوى الصبر، الصبر، الصبر.

الآن تحديداً سأتفرّغ للفن، هكذا كانت يوليكا المسكينة تفكّر في بعض الأحيان. كانت تتأمل في صفحة غلاف إحدى المجلّات السويسرية (أرسلها لها أصدقاء مؤخراً)، وعليه يوليكا الجميلة، الراقصة. يوليكا بمفردها تماماً! لا بدّ أن الصورة رائعة، تُذكّر المرء بلوحة إدغار ديغا، بضوئها الساحر المهتزّ الساقط على التنّورة القصيرة الشفافة لراقصة الباليه، وهي بالمناسبة لقطة من الشتاء الماضي؛ آنذاك لم تكن يوليكا تصدّق أن الصورة التي صاحب التقاطَها الكثيرُ من الصعوبات، ستُنشر يوماً. لكن

الآن، في نهاية أغسطس، نُشرت، في الوقت الملائم، مع افتتاح موسم الباليه الجديد.

الصورة: يوليكا من ظهرها، الساق اليسرى مرفوعة، بروفيل وجهها مُضاء؛ الذراعان الانسيابيان يكوّنان رغم ذلك وضعاً ثابتاً، واليدان على شكل برعمين، كلّ ذلك كان بلا أيّ خطأ. كان النص تحت الصورة نصّاً سخيفاً كالمعتاد، لكنّه على الأقلّ لم يتضمن أخطاء فادحة، ما يعني، في رأي يوليكا، الكثير بالنسبة إلى مجلّة كهذه. بالمناسبة، لم تكن المجلّة عديمة الأهمّيّة؛ كادت يوليكا ترتعد عندما عرفت كم توزع. وهكذا سيكون هناك كثيرات من يوليكا، يوليكا في كشك الصحف، يوليكا في القطار، يوليكا في البيت، يوليكا في المقهى، يوليكا في جيوب معاطف رجال أنيقين، يوليكا بجانب طبق الحساء، يوليكا في كلّ مكان، يوليكا في إحدى الخيم على شاطئ ما، يوليكا في قاعات الفنادق المحترمة، وخصوصاً: يوليكا في كشك الصحف، في كلّ أكشاك البلاد، وأحياناً خارج البلاد أيضاً، لمدة أسبوع بأكمله؛ ثم بعد فترة، يوليكا في غرف الانتظار بعيادات أطباء الأسنان، وأيضاً في المكتبة العامة في نيويورك، حيث يمكن طلبها في أيّ وقت، ويوليكا هنا وهناك فوق الفراش في غرفة وحيدة. لم تكن يوليكا فخورة بذلك، كلا، لكن مندهشة كلّما أمسكت بهذا الورق الرخيص، كما كانت سعيدة سعادة خاصة لأن اللقطة كانت على الأقلّ رائعة، وهي كراقصة، من الناحية الفنية، بلا أيّ خطأ. لم يفت يوليكا أنها جميلة، بل جميلة جدّاً. متى، نعم متى ستستطيع الرقص ثانية؟ تتكئ إلى الوراء مغلقة الجفنين، وتحاول يوليكا، تلك التي ترتدي تنّورة ديغا، أن تتخيّل كيف تدخل إلى المساحة المتواضعة من خشبة المسرح الخالي، محاطة بالظلمة والغبار المتصاعد تجاه فيض الضوء الأزرق المنبعث من الكشّافات، الضوء الذي يكاد يحمل يوليكا فوق كلّ أثقال الأرض، ويحرّرها من كلّ

تطفّل بشري، ثم، نعم، ثم، عندما تُزاح الستارة الأولى جانباً مصدرة حفيفاً -يوليكا تكون عندئذٍ واقفة على أطراف أصابع قدميها- وعندما تخشخش الستارة الثانية، الثقيلة، لمدة ثماني ثوان حتى تنفتح البوابة، البوابة المؤدّية إلى الظلمة الأخرى المزدحمة بالوجوه المُضاءة في الصفوف الأمامية، وعندما تصدح الأوركسترا، التي تعزف منذ مدة، وتقابلها الموسيقا وكأنها تصطدم بقدميها اصطداماً، النغمات الآن في كامل عنفوانها، آهٍ، هذه الموسيقا آسرة، تأسر يوليكا؛ يرى الجميع يوليكا، لكن لا يدرك كنهها أحد، وعندئذٍ تتوهّج المصابيح في صدر المسرح، وكذلك المصابيح العلوية المثبتة في ما يسمى «الجسر»، وتبهر بصر يوليكا حتى إنها لا تعود تتعرّف على شيء في هذا العالم، لا تشعر سوى بمجدها، بالمكانة التي تنتظرها، وتشعر بما لا تشعر به في أيّ مكان آخر، تشعر بالغبطة، غبطة تجلّ عن الوصف، وتجعلها تبتلع ريقها وَجَلاً، ثم، كيف تدير رأسها (كما على غلاف المجلّة تماماً) وتدرك أن بريق عينيها يُرى الآن حتى في أعلى البلكون، وعندئذٍ، نعم، خطواتها الأولى، وكأن الموسيقا كلّها تجمّعت في جسدها الآن، نشاط عازفي الآلات الوترية، وشعرهم يتأرجح على وجوههم أثناء العزف، العازفون على آلات النفخ بخدودهم الأنثوية المنتفخة، المايسترو المشهور بذيل الغراب في بدلة «الفراك» التي يرتديها، نظرته مصوّبة على يوليكا، على يوليكا وحدها، الشبّان الشجعان العازفون على الكونترباص الذين يشبهون العاملين في تقطيع الأخشاب في الغابة، اللطيف الذي يقرع الطبول، كتلة أعصاب كلّها تركيزٌ مطيع، تعثر أخيراً على إيقاعها، يا أيتها السماء، كلّهم يصدرون نغمات، هذه الموجة من النغمات، هذا الشلّال المتدفّق الذي ينحسر ثانية، لكن الموسيقا تتغلغل في يوليكا، تسكن جسدها، ومن جسدها تولد: حيوية ومرئية.

ورغم ذلك: لم تتجاوز يوليكا في خيالها الخطوات الأولى قطّ.

غريب! سنجاب على شجرة الصنوبر أمام شرفتها، سنجاب واحد كان يُسقِط الأكواز الفارغة، لذلك كان الصوت الصادر لا يُلاحظ تقريباً، أو الصفير المعهود بالأسفل، في الوادي، ذات مرّة أيضاً صرير عربة فلّاح قادها هابطاً على الطريق المائل بعد أن شدّ المكابح، أو نحنحة فحسب من الشرفة الواقعة أسفلها، أو قهقهة مجلجلة من صبيّ الخباز الذي أحضر لتوّه الخبز الطازج، والآن يركب دراجته ثانية حتى يختفي في الغابة وهو يصفّر نغمات أغنية شائعة، أي شيء يكفي لقطع أفكار يوليكا عن الباليه. مع كلّ هذا الفيض من الراحة التي لا يقف في طريقه أيّ مهمة أخرى، لم تستطع يوليكا أن تعاود تخيّلاتها المُسكرة عن البداية، أن تبدأ مرّة أخرى بفيضان الضوء الأزرق المنبعث من الكشّافات، لم تستطع يوليكا، كما قلت، أن تتجاوز الخطوات الأولى قطّ، أمر غير مفهوم. مع أنها كانت بالطبع تعرف غيباً سلسلة من مقطوعات الباليه، خطوة خطوة. من دون جدوى تناولت مرّة أخرى المجلّة السخيفة كي تساعدها، متأثّرة من انتفاء احتمالية أن تكون هي هذا المخلوق الذي لا ثقل له، مخلوق بمقدوره -لو لم يكن محض صورة ورقية- أن يحتضن يوليكا، كما احتضنها شتيلر مؤخراً. سالت دموعها التي خلّفت عن حقّ مذاقاً مبتذلاً بعض الابتذال، لأن يوليكا اعتبرت أنها تتعلّق بتوقّف مسيرتها المهنية. سيطر عليها بشكل متزايد الحنين إلى وطنها، الموسيقا. وعندما سُمح لها بذلك أخيراً، وعندما صدحت النغمات من ذلك الصندوق السحري الأسود الصغير المصنوع من لدينة الباكليت، الصندوق الذي أحضره لها اليسوعي الشاب، وعندما سمعا معاً الموسيقا المبتغاة، بصوت خافت بالطبع، ولكنّها على كلّ حال كانت واضحة النغمات إلى حدّ كبير، موسيقا رقصت عليها يوليكا مرّات كثيرة، بقيت الموسيقا، وبقيت تسمعها بسرور أيضاً، وهو أمر غير معهود إطلاقاً بالنسبة لمن يرقص باليه.

ببساطة تامّة: أضحى الرقصُ بالنسبة ليوليكا فجأة، حتى وإن لم تُرد أن تعترف بذلك لنفسها منذ فترة طويلة، مثل لعبة من مرحلة عمرية سابقة، لذيذاً، لكنّه لم يعد ممكناً بالنسبة إليها، شعورها الداخلي يقول لها إنه لم يعد ممكناً. أفزعها ذلك. هل كان شتيلر محقّاً؟ كان -وهو غيورٌ قليلاً من نجاحها- ينظر دائماً إلى رقصها باعتباره بديلاً لشيء آخر. لم تصدّقه يوليكا آنذاك، والآن أيضاً لا تصدّق. سيعود ثانية، إنها تعلم ذلك. أما الآن، فشكراً جزيلاً، لا تريد سماع موسيقا الباليه، تفضّل كلّ الأسطوانات الأخرى التي استطاع اليسوعيّ الشابّ الحصول عليها. كان يفهم حتى في الموسيقا! لكن الأمر شغل بال يوليكا، هذه المسافة الداخلية التي تفصلها عن الباليه. هل منبعها الإحباط الإنساني الذي مرّت به يوليكا في ذلك الصيف، الإحباط المتعلّق بمَن في المسرح؟ تعني أن أحداً لم يزرها في سجنها في الشرفة، هناك في مرتفعات دافوس. أمرٌ يكاد لا يُصدّق، فقبل نصف عام فحسب، كانوا يحيّون يوليكا ويلوّحون بأذرعهم المتحمّسة حتى تكاد تنخلع، أصدقاء عديدون كانوا بقلوب فيّاضة بالسعادة ينادونها حتى على مبعدة عشرة أمتار وبصوت عالٍ جداً: يوليكا، أيتها الحلوة، كيف حالك؟ رغم أنها قابلتهم من قبل، في ضحى اليوم نفسه. مجموعة غريبة حقّاً، لم يستطع شتيلر أن يتآلف معها يوماً. لكن شتيلر كان ظالماً. لا يجوز أن يقيّم المرء هؤلاء الناس حسب وفائهم للآخرين؛ إن دفء مشاعرهم ينحصر في التحمّس اللحظي فحسب. إنهم يحبّون يوليكا حقّاً، كلّهم، ربما يكون الحب من جانب راقصات الباليه أقلّ لأنهن كنّ يشعرن بالغيرة تجاه يوليكا بسبب شعرها الفريد، لكن الرجال كلّهم في الحقيقة كانوا يحبّونها، المغنّون أيضاً، بل وبعض السادة من الإدارة، ثم قادة الأوركسترا المرموقين الذين كانوا كثيراً ما يزورون يوليكا في غرفة تغيير الملابس، الخانقة وغير الجديرة بالبشر، الذين كانوا يقبّلون يدها،

ثم يجلسون على فوتيه مهزوز ويتنبّؤون لها بنجاح في الخارج - أين كلّ هؤلاء الآن؟

ذات يوم وصلتها بطاقة، تحية من مجموعة مرحة للغاية بعد أن شاهدت العرض الأول الذي حقّق أيضاً، من دون يوليكا، نجاحاً ليس له مثيل، عدّة سطور تؤكّد باختصار أنهم يفتقدون يوليكا بشدّة، بطاقة أُرسلت على سبيل المزاح، وقّعت عليها أسماء كثيرة، بلا ترتيب، كلّهم أصدقاء. وصل بعد ذلك، بالتأكيد، عددٌ من الرسائل الأخرى، رسائل لطيفة كُتبت خلال البروڤا، أي قصيرة وغير مترابطة، نميمة بين الزملاء، كانت كلّها لطيفة جدّاً. لا شكّ، لو استطاعت يوليكا أن تنزع عن نفسها الأغطية وتذهب إلى هناك، لانفجر تهليلٌ صادق في غرف تغيير ملابس الراقصات، وانتقل من غرفة إلى أخرى، سيغمرن يوليكا بالقبلات، ويعانقنها وكأنها الفائز بسباق سويسرا للدراجات بعد وصوله إلى خطّ النهاية، عدد لا ينتهي من الأيدي سيضغط على يديها في كلّ مكان لتحيّتها، وسينظرن نظرة عميقة إلى عينيها، نعم، وهنا وهناك ستسمع كلمات كبيرة متأثرة: ما أقوله لك الآن ليس كلاماً مستهلكاً، أتعرفين؟! يردّدن مثل هذه العبارات، لكنّني أعنيها حقّاً يا يوليكا، لقد افتقدتك، كلّ هذه الشهور، زميلة مثلك يا يوليكا... لا أريد أن أكون عاطفية، لكنني فكّرت كثيراً، أتعرفين؟! فكّرت في الأوقات التي قضيناها معك، والآن فإن هذه الفتاة ترقد هناك، على الجبل، يا ربّي، لقد فكّرت فيك كثيراً، صدّقيني، إنسان مثلك، أتعرفين، لكنني لستُ في حاجة إلى أن أقول لك ذلك، يا ربّي... إنك الآن هنا مرّة أخرى! ثم قبلة أخرى، عناق يشبه عناق أوريسيتس وإلكترا(*). ولعلّ يوليكا ستصدّق كلّ شيء، بالتأكيد، وعن حقّ.

(*) إلكترا في الميثولوجيا الإغريقية هي ابنة الملك أغاممنون، وقد ساعدت شقيقها أوريستيس للانتقام من أمهما وزوجها بعد مقتل أبيهما أغاممنون. (م).

لم يفهم شتيلر هؤلاء الناس يوماً. كان شتيلر في الحقيقة شخصاً بورجوازياً، ولندع الحرب الإسبانية جانباً. لا يستطيع المرء أن يفهم أهل المسرح، إلا إذا عمل معهم؛ وطالما عمل معهم، كانوا قلباً واحداً وروحاً واحدة، نعم، عندئذٍ يعايشون لحظات من المسيحية الأولى، لحظات لا يقابلها المرء إلا خلف الكواليس، مثلاً قبل عرض الافتتاح، ويظن المرء واهماً أنه في صحبة ستستمر إلى الأبد، كلٌّ منهم يكون عارياً تماماً. لم يكن الأمر في حاجة إلى سلّ رئوي لكي يُنسى المرء خلال ثلاثة أشهر من هؤلاء الناس دافئي المشاعر؛ يكفي ألّا يرقص المرء لفترة ما، وأن يأتي ذات صباح جميل باهتماماتٍ أخرى ربما، عن آباء الكنيسة مثلاً أو عن سرعة الضوء المطلقة، يكفي ألّا ننظر إلى عرض الافتتاح المقبل باعتباره أهمّ حدث تشهده البشرية، وهكذا يجد المرء نفسه واقفاً وحده، أوه، لن يُلقى بالراقصة عندئذٍ من غرفتها، بالتأكيد لا، فكلّ الناس تقريباً لطفاء، هذا إذا لم يفقدوا أعصابهم، لكنّهم أناس لا يهتمّون إلا بالذين يتحدّثون عن المسرح، المرء يودّ لو استطاع الإبلاغ عنهم، فالمرء ليست لديه طاقة، على الإطلاق، سيُصغون ظاهرياً إلى ما يُقال، صامتين، منشغلين، ناظرين إلى المرآة وهم يمسحون الصبغة من محاجر العيون، وفي النهاية سيسألون وهم يلقون بقطعة القطن المستعملة في سلّة النفايات: هل حضرت عرض اليوم؟ إنهم ممثّلون كوميديون، ولا يريدون أن يكونوا شيئاً آخر، الممثّلون لا يستطيعون بفضل موهبتهم أن يكونوا شيئاً آخر. هل كانت يوليكا تختلف حقّاً عن الآخرين؟ بحزن شعرت بأن ذاتها هي التي خذلتها الآن، ولا شيء سواها.

في يومٍ ما جاءها زميل من فرقة الباليه حتى يقف معها في شرفتها لمدة عشرين دقيقة، ويحكي لها كل النوادر الممكنة، ما حدث خلال المهرجان الفني الأخير الذي أمسى بعيداً تماماً عن يوليكا، وكأنه سباق سيارات

في العصور القديمة. أمسك هو أيضاً يوليكا بكلتا يديه، مع نظرة وكأنه في عرض تراجيدي، لكنّه صادق المشاعر، لا شكّ. لقد انفجر إطار من إطارات سيارته، فاضطرّ إلى نقل سيارته الفولكسفاغن (لم تكن يوليكا تعرف أن لديه الآن فولكسفاغن أيضاً) إلى ورشة التصليح، ولهذا توقف في دافوس، ولأن عليه أن يرجع إلى المدينة في اليوم نفسه، فلم يبقَ له سوى وقت قليل للأسف، للأسف الشديد الشديد، لكنّه يرى أن يوليكا تبدو رائعة، أفضل من أيّ وقت مضى. الهواء المغبرّ اللعين في المسرح، نعم، نعم، لكن الإدارة لا تفعل شيئاً لمواجهة ذلك، عموماً: الإدارة! ودّعها، بعد تأخير عشر دقائق، معبّراً عن تفاؤله المرح بأن يوليكا ستشفى قريباً، وببهجة مرحة قال لها إنه سيخبر كلّ الزملاء أن يوليكا ترسل لهم جميعاً تحياتها. غاصت يوليكا في وسائدها. ما كاد يخرج إلى الهواء الطلق، حتى صفّر مرّة أخرى لأعلى، الزميل الحنون صاحب الفولكسفاغن، حتى يلوّح لها، فلوّحت يوليكا أيضاً. ولكن في تلك اللحظة، ما زالت تتذكّر ذلك بكلّ دقة حتى اليوم، شعرت بأنها تودّع عالماً بأكمله، لكنّه لم يكن عالماً حقيقياً، تودّع عالمها الخاص بأضوائه الباهرة ذات اللون المائل إلى الزرقة، العالم الذي لم تعد يوليكا تريد حمله بعد اليوم فوق أعباء حياتها الثقيلة.

كانت يوليكا تشعر بالوحدة.

تشعر بالشوق إلى الرجل، شوق محيّر وجديد عليها، يزداد كلّما أحسّت بجسدها الرقيق يحترق وكأنه هشيم تسري فيه النار، شهوة لا تستطيع، على الأقلّ في الأحلام، أن تنفيها، ثم الوعي الدائم بأن شتيلر يخونها في هذه الليالي تحديداً، كلّ هذا أجبر يوليكا المسكينة على كتابة رسائل لا يمكن إرسالها، كلا، ولا في أي ظرف من الظروف. لم تحلم بشتيلر مطلقاً، إذا أردنا الدقة، بل بالأطباء المشرفين، وفتيان الخباز ورجال لم ترهم قطّ. هذا

الشابّ من قدامى نزلاء المصحّة، بوجهه الذي يعلوه دائماً بعض المكر، يعامل يوليكا وكأنها راهبة، ولا حتى راهبة، بل كشيء محايد، حتى وإن كان يجلس يومياً عند قدميها على طرف سريرها الضيق لدرجة أن قدميها تشعران بدفئه. لم تصدر عنه ولا أي بادرة حنان حتى ولو على استحياء. عدّل من وضع الوسادة ليوليكا، لأنها طلبت منه ذلك، دون أن يلمسها ولو عن طريق الخطأ. مع أنه يتحدّث مع يوليكا عن «الإيروس» بالنبرة الموضوعية المرحة ذاتها التي يكلّمها بها عن الشيوعية، أو توما الإكويني أو آينشتاين أو جورج برنانوس، هكذا تماماً يتحدّث عن «الإيروس»، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك نوعاً من الصراحة لا يصبح ممكناً إلا إذا انتفت تماماً إمكانية التطبيق الحيّ لما يتحدّث عنه المرء بصراحة. لم تعلم يوليكا ما ينبغي عليها أن تقول. بهذه النبرة إذاً راح الشاب يتحدّث عن ظاهرة الإيروس العجيبة التي منحها -ولاندهاش يوليكا- أهمّيّة جسيمة للغاية. ولكنّه لم يلمس سوى يدها، إما للتحية أو للوداع. أكانت يوليكا مجذومة؟ ومع ذلك، لم يكن هذا الإنسان نفسه، بكلّ معارفه المدهشة، يشعر بأنه أرقى من أن يضيّع وقته مع امرأة تنفض الحشيّات هناك على المرج، ويغازلها، نعم يغازلها بلا خجل تقريباً. لم تستطع يوليكا أن تفهمه. وعموماً، قبل وفاته بقليل نشأت بينهما غربة مؤلمة لا تحب يوليكا أن تتحدّث عنها. الأرجح أن الشاب، عميد قدامى المرضى في المصحّة، انتابته بعض الوقاحة دفعت به إلى القول إن على يوليكا أن تتوقف عن النظر إلى سلوكها تجاه زوجها، وسلوكها تجاه البشر عموماً، كردّ فعل فحسب، أن تتوقف عن الاعتقاد بأنها لا تستطيع أبداً الإمساك بزمام المُبادرة، أيْ أن ترى نفسها عائمة في بحر من البراءة الطفولية. كانت هذه بالتأكيد وقاحة! لم تفهمه يوليكا تماماً، بالمناسبة. كان عليه أن يشرح، وهو ما فعله كارهاً. قال مبتسماً: «يعني.. لديّ فقط شعور، يا يوليكا العزيزة والمبجّلة، بأنك لا

تريدين أن تصبحي امرأة بالغة، لا تريدين أن تصبحي مسؤولة عن حياتك، وهذا أمرٌ مؤسف!».

سألته عمّا يعنيه، فقال: «أعني أن مَن يرى نفسه دائماً ضحيّة، لن يفهم خبايا ذاته، وهذا أمر غير صحّي. لا يمكن الفصل بين السبب والنتيجة إذا تعلّق الأمر بشخصين، لا سيما في حالة الزوج والزوجة، حتى لو بدا الأمر في بعض الأحيان كذلك يا يوليكا، لأن المرأة، ظاهرياً، لا تبادر بالفعل. الأمر يلفت انتباهي فحسب: في الحقيقة فإن كل ما تفعلينه أو لا تفعلينه، تبرّرينه بشيء فعله أو لم يفعله زوجك. إن هذا، واعذريني على الكلمة، شيء طفولي. لماذا أقول ذلك؟ أنت تعرفين تماماً يا يوليكا أن الأمر ليس هكذا، في تاريخ العالم كلّه لم يحدث ذلك، وليس عليك أن تخدعيني لا لشيء سوى أنني الأصغر، في الحقيقة ما زلت صبيّاً. النظر إلى الحياة بهذه النظرة مملّ على المدى البعيد، بالنسبة إليك أيضاً يا يوليكا!».

مازحته قليلاً بعد ذلك وأطلقت عليه «الحكيم!»، وهو ما لم يتحمّله الشابّ. تخلّف عن الحضور مرّتين أو ثلاث مرّات، فقط لأن يوليكا وجدت نفسها مجبرة على الاعتراض على التدخّل، التدخّل في شؤون حياة لا يعرفها الشاب، مهما كان ذكيّاً، عن طريق الخبرة، شؤون الزواج مثلاً، وخصوصاً شؤون الزواج بشخص مثل شتيلر الذي لم يرَه قطّ وجهاً لوجه، باختصار، لقد أحالته على آباء الكنيسة ونظرية النسبية، وهكذا لم تكن زيارته للأسف (تقول يوليكا) مقابلة حقيقية. صحيح أن الشاب واصل زياراته، وجلس على طرف فراشها عند القدمين، وثرثر معها ثرثرة مضحكة، كان ساخراً، وأصبح أكثر مرحاً كلّما اقترب موته الذي لم يتوقعه قطّ في شهر سبتمبر المعتدل. ببساطة، لم تستطع يوليكا أن تصدّق ذلك، عندما أخلوا الحجرة بجانبها بأقصى قدرٍ من الهدوء. كانوا لطفاء وأعطوا يوليكا قرصاً منوّماً، لكنّها بصقته. طوال ليلة كاملة راحوا ينظّفون الغرفة

بالأبخرة. كانت يوليكا مشوّشة مضطربة. لم تتخيّل يوليكا الموت هنا على هذا الشكل، على نحو عابر وغير مرئي هكذا، ودون صوتٍ هكذا، فجائياً على هذا النحو ودون إنذار، على هذا النحو الظالم، هكذا كما ينطفئ مصباح المخدع بغتةً خلال القراءة. وبالفعل، لم يعد أحد يتحدّث عنه. الممرضات والطبيب المشرف تجاهلوا سؤال يوليكا المتكرر، وكأن جارها ارتكب شيئاً لا يليق. غير ذلك، سارت الأمور سيرها المعهود، القطار الصغير كان يطلق صفارته في الوادي، والصحف كانت تصل. بعد عدّة أيام سمعت يوليكا -عندما كانت ترقد كعادتها في الشرفة الهادئة، وهي ما زالت تنتظر زيارته اليومية- السعال الجاف الصادر عن جارها الجديد. كان يوماً سبتمبرياً أزرق. ارتعد جسدها.

وصلت يوليكا إلى محطة لاندكفارت حيث ينبغي على المرء أن يبدّل القطار، وسار كل شيء وكأن الأمر ليس هروباً، بل رحلة عادية تماماً؛ لم يوقف أحد يوليكا، لم يتفحّصها أحد، أو على الأقلّ ليس أكثر من النظرات الفاحصة التي توجّه إليها لشَعْرها الجميل. توقّف قصير في الدير، تقريباً في منتصف الطريق، وعندما تحتّم عليها الانتظار أربع دقائق، تخيّلت أنها ستنتظر إلى الأبد، مثلما يعتقد كلّ هارب أنه سينتظر إلى الأبد عندما يرى حاجزاً مغلقاً. اختبأت يوليكا خلف صحيفة، لكنّها كانت تفزع من أي شخص يعبر فحسب مقصورة الدرجة الثانية التي ركبتها. ما زال القطار الصغير واقفاً، ماذا يفعلون كلّ هذا الوقت؟ لم تستطع يوليكا أن تصدّق: لا أحد تعرّف عليها، لا أحد ربّت على كتفها وقال: ما معنى ما تفعلين، أيتها العزيزة يوليكا، ما معنى ما تفعلين؟ ولأنها لا تعرف أسرار السكك الحديدية فلم تستطع يوليكا المسكينة أن تفسّر الانتظار إلا على النحو التالي: إنهم يبحثون عنها، مكالمة تليفونية من المصحّة، شخص يمرّ الآن من عربة إلى

عربة حتى يقبض على التعيسة. سحبت يوليكا، وكما يفعل النائمون في القطار، معطفها المعلّق وغطّت به وجهها. جلس مقابلها شخص، رجل؛ عرفت ذلك من الحذاء. الطبيب المشرف على علاجها؟ في خيالها رأت ابتسامة شفقة، وسمعت جملته اللطيفة الحاسمة: السيدة يوليكا، السيدة يوليكا، الأفضل أن ندع ذلك! وأخيراً، عندما بدأت عجلات القطار تدور، كان على يوليكا أن تعرف مَن الذي سيقبض عليها الآن، فأزاحت معطف التمويه جانباً، وتظاهرت بأنها تحب أن ترى المنطقة التي يشقّها القطار. كان رجلاً ألمانياً، بمجرد أن رأى شعر يوليكا الأحمر، سحب سيجاره من فمه بتهذيب بالغ، وسألها عما إذا كان الدخان يزعجها ربما. هل اعتبر يوليكا مريضة بالرئة؟ كان ردّ فعلها مضطرباً، مبالغاً فيه بعض الشيء، وقالت: «تفضّل، يا سيدي، تفضّل! أرجوك أن تدخّن!».

كان من سوء حظها أنها جلست أمام مدخّن. لم تفكّر يوليكا، الهاربة، في أن تبدأ حديثاً، أو حتى ثرثرة لطيفة غير ملزمة، وهو ما لم يكن أيضاً في نيّة السيد الألماني، لكنّه بدأها رغم ذلك وكأنها أمر بديهي، كلا، تخيّلت أنها تسمع الأسئلة التي لا فائدة منها، والتي لا يمكن تجنّبها في مثل هذه الأحاديث: هل تعيشين في زيورخ؟ هل أنت راجعة من إجازة؟ أتعيشين في دافوس؟ باستياء -وكأن هذا السيد الألماني ينظر بوقاحة إلى نهديها- استدارت يوليكا ناحية الشباك لوضع نهاية لأيّ محادثة. مع أن الرجل لم يتحدّث إلا عن شهر أكتوبر هذا، المعتدل نسبيّاً. والآن، والحمد لله، تناول كتابه مرّة أخرى، وخلال القراءة أخذ يدخّن من دون توقّف سيجاره كلّه تقريباً، «الأجراف المرمرية» لإرنست يونغر، كتاب لم يرشّحه لها قطّ اليسوعي المتوفى. الأجراف المرمرية، شوّشت هذه الكلمة ذهنها، أما دخانه فكان فظيعاً. استأذنت يوليكا في فتح الشباك قليلاً، لا، لا، ليس بسبب الدخان؛ هكذا للنظر إلى الطبيعة في الخارج. بشَعر متوهّج في الريح

أخرجت يوليكا رأسها، كانت لديها أزمة في التنفّس من الممكن أن تصيب إنساناً سليماً أيضاً في هذه الظروف؛ لكن الأهم: كانت سيارة ستروين داكنة اللون، تماماً كتلك التي يملكها الطبيب المشرف، تلاحق القطار الصغير بسرعة وقحة، تخلّفت عن القطار الذي دخل نفقاً قصيراً، في حين كان الطريق ملتفّاً لمسافة طويلة، لكنّها عادت لتلحق بالقطار، واقتربت منه أكثر فأكثر بسرعة كبيرة، ثم توقفت أمام حاجز مغلق، ثم أسرعت ثانية ولحقت به. الطبيب المشرف؟ سحبت يوليكا شعرها الأحمر المتوهّج من المنظر الطبيعي، وكان على السيد الألماني أن يغلق الشباك فوراً. تجاوزت الستروين الداكنة القطار الصغير، في لاندكفارت، هكذا فكّرت يوليكا، سيكون الطبيب المشرف واقفاً على رصيف المحطة، وسيأخذ منها متاعها القليل ويبتسم: السيدة يوليكا، السيدة يوليكا، فلنترك هذه الأفعال، هناك تقف سيارتي الستروين! لكن أحداً لم يكن ينتظر في لاندكفارت، ولا حتى حمّال حقائب. السيد صاحب «الأجراف المرمرية»، ما زال رغم سلوك يوليكا المستاء مصرّاً على تهذيبه، حمل عنها الحقائب عبر الساحة الصغيرة وسألها: «أتعيشين في زيورخ؟».

في إثر ذلك استأجرت يوليكا حمّالاً للحقائب. ومن دون تفكير وبشكل تلقائي، دخلت يوليكا إلى كابينة تليفون، نعم، ربما تحت تأثير الموقف المثير، وشعورها بأنه يمكنها أن تدخل إلى كابينة في أي مكان كأيّ إنسان حرّ، وحاولت الاتصال بشتيلر، لكن من دون جدوى؛ لم يرفع أحدٌ السماعة. ليس صحيحاً إذاً أن يوليكا أرادت أن تفاجئه بمكرٍ وخبث. من الغريب أن يوليكا لم تفكّر طوال هذه الرحلة ثانية واحدة في أن الأخرى ما زالت هناك أيضاً. ثم محاولة ثانية وثالثة للاتصال بشتيلر؛ من دون جدوى كذلك. كان السيد الألماني قد شعر ببعض الإهانة، ظلَّ على نهاية الرصيف، وجلس على مقعد واضعاً قدماً فوق الأخرى، مواصلاً

قراءة كتابه «الأجراف المرمرية»؛ الآن أخيراً من دون سيجار. للأسف ثمّة بعض التأخير في القطار المتجه إلى زيورخ-باريس-كاليه، وإلا لكانت يوليكا قد صعدت على الأرجح إلى القطار. بدأ الأمر (كما تقول) من دون سعال، مع شعور متزايد بأنها لا تجد هواء تستنشقه، وهو ما قد يرجع إلى اضطرابها فحسب، وكما أرادت أن تصدّق، الاضطراب الطبيعي الذي ينتاب هاربة، بهجة التطلّع إلى ما سيحدث، خيبة الأمل الطبيعية لأن شتيلر لم يكن في الأتيليه ولا في الشقّة. تنفّست بعمقٍ تامّ، وببطء تامّ، وبهدوء تامّ. كانت قد أرسلت خادمها -أي ذلك السيد- لشراء بعض الصحف، لا سيما تلك المجلّة السويسرية، وكأن الإمكانية الأسطورية ما زالت رغم كل شيء قائمة بأن تكون يوليكا ما زالت ترقص على الغلاف، فجلست عندئذٍ على متاعها القليل. لم يلاحظ أحد أن يوليكا تشعر بالدوار. اعتقدت يوليكا أنها تختنق، وسمعت بصعوبة جَلَبة قطارها المتّجه إلى زيورخ-باريس-كاليه وهو يدخل إلى رصيف المحطة، بل ورأت لافتة تؤكّد ذلك، غير ذلك لم تعد ترى شيئاً. في تلك اللحظة كان الناس بالطبع منشغلين بشؤون رحلتهم، مندفعين إلى أقرب باب للقطار، حاملين المتاع بكلتا اليدين، كانوا يتصرّفون وكأن هذا هو قطار الحياة، في حين أن الرصيف هو الموت المؤكّد. بقيت يوليكا على الرصيف.

بعد ثلاث ساعات، وبعد رحلة بسيارة الإسعاف، كانت ترقد ثانية في سريرها الأبيض، ترتجف رغم كلّ قِرَب المياه الساخنة في الفراش، سعيدة بأنها غير مرغمة على أن تنطق بكلمة واحدة. الممرضات أيضاً لم يتحدّثن بكلمة، رحن ينفذن تعليمات الطبيب المشرف، ولكن على وجوههن كان واضحاً أنه لم يكن حلماً، تلك الرحلة إلى لاندكفارت، كانت أمراً عبثياً، لكنّه حقيقي تماماً. كان واضحاً بالنسبة إلى الطبيب المشرف بالطبع لماذا أقدمت السيدة يوليكا التعيسة على عبث كهذا. لم يكن ساخطاً على

المريضة، هذا مفهوم، ولا حتى على الممرضات السخيفات اللاتي حتى لم يلاحظن هذا الهروب الذي استمر ساعات. حاول الطبيب المشرف الاتصال بشتيلر. من دون جدوى. بعد ذلك أرسل برقية إلى السيد شتيلر يطالبه فيها بالحضور فوراً إلى دافوس.

ما كادت يوليكا المسكينة تستعيد وعيها، حتى وجدت نفسها تدافع عن زوجها مرّة بعد أخرى. لم يردّ حتى على البرقية. كان على يوليكا أن تعطيهم عنوان أصدقائه، عنوان آل شتورتسن إغر مثلاً. وعندما اتضح أن السيد شتيلر يقضي وقته في باريس، دون أن يخبر زوجته حتى بذلك، فإن الانطباع المتولّد في المصحّة كان انطباعاً غريباً، بل علينا أن نقول: انطباعاً مُخجِلاً، انطباعاً مثيراً للسخط، رغم أنهم بالتأكيد لم يتحدّثوا عن ذلك مع المريضة المسكينة، لكن يوليكا كانت تقرأ ذلك في وجوههم بالطبع. شتيلر في باريس! هذا ما جعل الآخرين كلّهم أكثر تأثّراً، فحصلت يوليكا، التعيسة، على هدايا من كلّ الأطراف: زهور وحلويات، بل وحصلت حتى على «بروش»، إشارات كثيرة من شرفة إلى أخرى، من مجموعة تربطها العِشرة. وجدت نفسها تفكّر في الشاب، عميد المرضى في المصحّة، الذي تنبّأ لها في مثل هذه الحالة بصمتٍ عامّ ينمّ عن احتقار؛ لم يكن على حقّ، كما ظهر، ليس فقط بادّعائه الوقح أن علاقة يوليكا بالعالم علاقة طفولية، بل في هذه النقطة أيضاً. على العكس، كم مسّوا قلبها جميعاً! الوحيد الذي صمت كان هو، الشاب، عميد المرضى في المصحّة... كانت حالتها كارثية.

عندئذٍ، نعم، عندئذٍ جاءتها تلك الرسالة الفظيعة التي أرسلها شتيلر من باريس، تلك الوريقة التي أخرجتها السيدة يوليكا شتيلر تشودي مؤخراً من حقيبة يدها وأرتني إياها، وريقة مكتوبة بالقلم الرصاص بخطٍّ متعجّل، سبعة أسطر أو ثمانية، ولا كلمة من كلمات التأثّر، ولا كلمة من

كلمات الندم، ولا حتى كلمة عزاء، كلا، السطور كلّها مكتوبة بنبرة جليدية خالية من المشاعر، وكأن يوليكا لم تهرب هروبها التعس إلا لتنهار في لاندكفارت، وكأن يوليكا لم تمرض عموماً إلا لتؤنّب ضمير شتيلر، مع أنها كانت مريضة مرض الموت، ولم تعد تعيش إلا على الحقن. تلك الوريقة كانت، باختصار، مهزلة؛ إذ لم تَنُمّ تلك السطور قطّ عن تأنيب ضمير، لقد كانت كلّ كلمة في تلك الوريقة تنمّ عن تمركّز حول الذات لا يعرف الحياء، ومتعالٍ إلى درجة التهكّم.

(للأسف، ليست معي الرسالة هنا).

كانت يوليكا تعيش، كما قلت، على الحقن. ومضت نحو ثلاثة أسابيع كاملة حتى ظهر شتيلر بالفعل في شرفتها، لكي يتحدّث عن نفسه فحسب، عن هزيمته في إسبانيا، عن شيء كان يعود إذاً إلى عقود خلت، ولم ينطق حتى الآن بكلمة عزاء، ولم يسألها حتى عن حالتها التي كانت كارثية، لم يُلقِ نظرة على كشف درجات الحرارة، كلا، لم يتحدّث شتيلر إلا عن نفسه: وكأن الأمر يتمحور حوله هو، شتيلر، الرجل الذي يتمتع بالصحة!

هنا يمكن إضافة شيء.

كان شتيلر في تلك الفترة، كما ذكرت، قد شارك في الحرب الأهلية الإسبانية، متطوّعاً في اللواء الدولي، كان آنذاك شابّاً صغير السن جدّاً. وليس من الواضح دافعه للقيام بهذه اللفتة النضالية. على الأرجح التقت عدّة دوافعٍ معاً: الفهم الرومانسي بعض الشيء للشيوعية، وهو أمرٌ لم يكن نادراً في ذلك الزمن بين المثقّفين البورجوازيين، وكذلك احتياج مفهوم لاكتشاف العالم، احتياج إلى الالتزام التاريخي والموضوعي، وإلى الفعل؛ وربما كان دافعه، على الأقلّ جزئياً، هو الهروب من ذاته. نجح في

الاختبار الصعب (أو بالأحرى: لم ينجح!) قبل الوصول إلى طليطلة حيث كان الفاشيست متحصّنين في «ألكازار»، القصر الأندلسي هناك. كان على شتيلر الشاب أن يحرس عبّارة صغيرة على نهر «تاخو»، بمفرده، نظراً إلى النقص في الرجال. لم يحدث أي شيء طوال ثلاثة أيام. ولكن، وفي مطلع الفجر، عندما ظهر أخيراً أربعة إسبان تابعين لفرانكو على ضفة النهر، تركهم شتيلر يستخدمون العبّارة، دون أن يطلق النار عليهم، رغم أن الأمر كان في غاية السهولة، أن يقتل الأعداء الأربعة على العبّارة بالرصاص من مخبئه الجيد. كانت أمامه ثماني دقائق. بدلاً من إطلاق النار، تركهم يصلون إلى ضفته، ثم خرج من مخبئه، مستعدّاً لإطلاق الرصاص، كما كان الآخرون أيضاً على استعداد لفتح النار، أيْ إنه كان على استعداد لأن يلقى مصرعه. حتى لا يفضح المرء وجوده عبر إطلاق النار، لم يطلق الإسبان التابعون لفرانكو الرصاص كذلك، بل نزعوا عن شتيلر الشاب سلاحه، ورموا بندقيّته الروسية في نهر «تاخو»، ثم قيّدوه بحزام سرواله، وتركوه راقداً وسط نباتات الجينيستا حيث عثر عليه رفاقه بعد يومين غائباً عن الوعي بسبب العطش؛ وعندما حاسبوه عما فعل، ادّعى أمام المفتش أن بندقيته الروسية لم تعمل. وبالفعل، كانت هذه الحكاية الصغيرة هي أول شيء سمعته يوليكا من فمه، ولا بدّ أنها تذكّرت جيداً الأمسية في الأتيليه الخاص به، تلك الأمسية ذات العواقب الوخيمة بعد سماع مقطوعة «كسّارة البندق» لتشايكوفسكي، عندما اختطفت عصابة مرحة من الفنّانين وأتباعهم يوليكا عنوةً، وعنوة أيضاً فاجؤوا شتيلر في الأتيليه ليلاً، وهم يحملون تحت أذرعهم عدداً من الزجاجات. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكلّ حانات المدينة الصغيرة مغلقة. الضوء ما زال مشتعلاً في أتيليه شتيلر الذي كان قد عاد لتوه آنذاك من إسبانيا. إذاً، الدخول ثم الصعود! في تلك الأمسية التقيا للمرّة الأولى، يوليكا وشتيلر. كان شتيلر

هادئاً تماماً وسط هذه الصحبة الماجنة التي ازدحم بها الأتيليه، حتى إن يوليكا اعتبرت في البداية اسمه لقباً هزلياً أُطلق عليه لهدوئه(*). ثم أكرهه أحد الحاضرين لكي يحكي «حكايته الرائعة» عن «تاخو». لم يكن شتيلر يريد في البداية مطلقاً. لم يكن تدلّلاً؛ لم يُرِد حقّاً، ولاحظ الحاضرون أنه كان محرجاً عندما بدأ أحد الأصدقاء -معماريّ شاب اسمه شتورتسن إغر- يحكي بنفسه. تحتّم على شتيلر عندئذٍ أن يتدخّل بالطبع، ويكمل الحكاية حتى النهاية. على ما أظن، لم تُثر تلك الحكاية، عن بندقيّة روسية لا تعمل، اهتماماً كبيراً لدى راقصة الباليه الشابة؛ لم تنتبه للحكاية قدر التفاتها للحكّاء، لهذا النحّات الشاب الذي لم يتوقف عن العمل بأصابعه خلال الحكي، ثم ألقى ما بيده، لكن أصابعه لم تتوقف ولم تهدأ؛ على نحو من الأنحاء شعرت بالأسف تجاهه. فجأةً أمست تعبيرات وجهه أثناء الحكي ميتة تماماً. لم يعد ما حكاه النحّات الشاب ذكرى مباشرة لحدث، بل نادرة من النوادر. أعقب وصفه الطويل وجومٌ محرِج وقلِق. وضع شتيلر كأساً على شفتيه، ولم ينطق أحد بكلمة. كان مغنٍّ أوبرالي لطيف، بدا بجسده المترهل غير ميّال للحروب أو القتال، هو الذي وجّه السؤال الساذج: «ولماذا لم تطلق النار؟».

في الحقيقة كان السؤال يهمّ الآخرين أيضاً. كل الاحترام للشجاعة، والخروج من المخبأ هكذا ببساطة، كل الاحترام أيضاً للمعاناة التي عاناها لمدة يومين في الشمس الحارقة وهو مُلقى على الأرض مقيّداً؛ ولكن مغني الأوبرا تحدّث حقّاً بلسان الجميع. لماذا لم يطلق شتيلر النار؟ لم يَبدُ التأويل الذي أعطاه شتيلر ردّاً على السؤال تأويلاً مقنعاً مباشراً، بل تكراراً

(*) شتيلر بالألمانية Stiller اسم تفضيل مشتقّ من الصفة still، بمعنى هادئ؛ أي إن اسمه يعني حرفياً: «أهْدَأ». (م).

مستهلكاً، وهو: إنه يكره الفاشيست، وإلا ما كان تطوّع في الحرب الأهلية الإسبانية؛ ولكن في ذلك الفجر على نهر «تاخو»، عندما وقف شتيلر لأول مرّة أمام الأعداء الذين يكرههم، رأى الرجال الفاشيست الأربعة بشراً، وكان من المستحيل أن يطلق النار على بشر، لم يستطع ذلك. نقطة ومن أول السطر!

أعقب ذلك وجومٌ مرّة أخرى، وتصاعد الدخان من غليونات الفنّانين وأتباعهم، سُحُب من الدخان الأزرق في الأتيليه. رضي مغنّي الأوبرا بالإجابة، رضي بها كل الرضا، وعبّر عن ظنه بأنه هو أيضاً لا يستطيع أن يطلق النار. أفرغ آخرون كؤوسهم ولم يعقّبوا. لم يكن ممكناً التحدّث عن شيء آخر ببساطة، عن «كسّارة البندق» مثلاً. انتشر الصمت إلى أن عبّر صديقه -المعماري الشاب الذي يدعى شتورتسن إغر- عن إعجابه الواضح والصريح بشتيلر؛ أطلق على ذلك انتصار المشاعر الإنسانية، انتصار الخبرة الحياتية الملموسة على كل الإيديولوجيات، إلى آخره؛ وجد لذلك كلمات كثيرة. لم يعارض أحدٌ هذا التأويل المجامل، وشتيلر نفسه، وقد كان واضح الاضطراب، لم يكن لديه، من ناحيته، أدنى احتياج إلى التعمّق في هذه الحكاية، بل كان يريد إشاعة المرح والأنس، ففتح زجاجة النبيذ التالية، وبطريقته اللطيفة كان مهتمّاً بأن يحصل كلٌّ منهم على كأس، أيضاً يوليكا الجميلة في الركن التي -نظراً لأنها كانت في هذا الأتيليه للمرة الأولى- راحت تتطلّع حولها بعينيها الواسعتين والجميلتين إلى أقصى حدّ، من دون أن تحتسي الكثير، ومن دون أن تقول شيئاً؛ كان شعرها الرائع ذو البريق الأحمر هو -وكما يحدث كثيراً- مساهمتها في الحديث.

بهذه النادرة كان شتيلر يحقّق، على ما يبدو، نجاحاً مرّة بعد أخرى. لاحقّاً، كان على يوليكا التي تصادقت مع شتيلر، ثم تزوّجته، أن تسمعها

كثيراً بالطبع. هذه إحدى واجبات الزوجة المُحبّة، ألّا تتثاءب وألّا تقاطع الزوج عندما يبدأ مرّة أخرى في استعراض نوادره. كانت نادرة من النوادر، شتيلر وعبّارته على نهر تاخو. الشيوعيون وحدهم كانوا يمتعضون عندما يتحدّث الآخرون عن انتصار المشاعر الإنسانية على كلّ الإيديولوجيات، وكانوا يصمتون احتراماً للصداقة مع شتيلر؛ أو كان أقصى ما يعلنونه هو أن يتوجّهوا إلى السامعين بالسؤال التالي: «في حالة ما إذا كان الأمر لا يدور حول الفاشيست، كيف سيكون رأيهم في انتصار المشاعر الإنسانية على كل الإيديولوجيات؟»، لكن مثل هذه الأحاديث لم يعد لها علاقة بشتيلر. وعموماً، لقد باتَ الشيوعيون أكثر ندرةً، على الأقلّ في دائرة معارفهم. أما في كلّ المسامرات الأخرى، وكما قلت، فقد كان شتيلر يبرز متوّجاً بالشرف عندما يحكي نادرته الإسبانية. لأيّ غرض آخر كان يحكي نادرته كثيراً هكذا؟ على كل حال فإن يوليكا لا تفهم اليوم أبداً كيف يتحدّث شتيلر، زوجها المفقود، خلال لقائهما الأخير في دافوس، فجأةً عن «الهزيمة في إسبانيا». لماذا «هزيمة»؟ لم تحصل يوليكا على شرح أو تفسير. ألم يطلب طوال سنوات، من يوليكا أيضاً، أن تعتبر سلوكه في إسبانيا سلوكاً لا غبار عليه؟ والآن أصبح الأمر فجأةً هزيمة، شيئاً يوضع في كفّة باعتباره بداية كلّ الشرور، كلعنة، كنذير شؤم يفسّر به شتيلر أيضاً تعاسة زيجتهما. كيف؟

لقاؤهما الأخير: كان في نوفمبر، وهو شهر كئيب بما يكفي، حتى من دون زيارة شتيلر. كانت الثلوج قد هطلت من جديد. رقدت يوليكا في شرفتها شبابية الطراز، ملتحفة بالأغطية كعادتها، حتى ذراعاها وضعتهما تحت البطانية المصنوعة من وبر الجِمال، وكأنها مومياء. كانت بصعوبة تحرِّك رأسها لتنظر في الضباب الرمادي في الخارج، من دون أن ترى شيئاً

سوى هيكل أشجار الصنوبر التالية، غائم المعالم، هيكل ذكّرها بصورة أشعّة إكس الخاصة بها، صورة هي أيضاً ليست إلا هيكلاً عارياً كهذا، وسط سحبٍ من الضباب الرمادي. كان ذلك هو المنظر الوحيد الذي تراه الآن. السماء بلون الرصاص، وسحب من الضباب القذر كانت تتسلّل عبر المنحدرات. لم يكن أحدٌ يستطيع أن يحدس حتى أين تختبئ الشمس في السماء. بدت قمم الجبال الوديعة وكأنها ذابت مثل قرصٍ في كوب ماء، فلم تخلّف سوى سائل رماديّ عكِر، ولا شيء غير ذلك. ذات مرّة قالت يوليكا إن الحمقى فحسب هم الذين يشعرون بالضجر، ولهذا فهي بعيدة عن ذلك. لكن الأمر لا علاقة له بالحماقة، على العكس، ربما كان الضجر هو أكثر أنواع الضيق الذي مرَّ بيوليكا أصالةً، هذا الضجر الفظيع، عندما لا يعلم المرء ماذا يفعل في الساعة التالية، مذاق الأبدية الجهنمي، حيث لا يستطيع المرء تخطّي الزمن. قبع شتيلر عند درابزين شرفتها من دون أن ينطق، ونظرته موجّهة إلى الثلوج الكثيفة المتساقطة، غير حليق وشاحباً، تبدو عليه آثار السهر وقلّة النوم، وتفوح من فمه رائحة الخمر، كما فاحت منه رائحة الثوم، حتى من على بعد.

سألته يوليكا: «ماذا أكلت؟».

- «حلزوناً».

لم يسألها عن حالتها بكلمة. بالمناسبة، لم يأتِ من المدينة، بل من بونتريسينا في إقليم الإنغادين؛ أخبرها شتيلر ذلك بعناد، بل بشماتة تقريباً، وكأن يوليكا المسكينة هي التي أجبرته على التحجّج طوال الصيف بحجج واهية. جاء شتيلر من بونتريسينا، معنى ذلك أنه جاء من عند الأخرى. عندئذٍ، وبعد تلك الافتتاحية المستهزئة بها تقريباً، التزم الصمت ثانية، من دون أن ينظر إلى يوليكا، ثم أشعل سيجارة وراح يدخّن نافخاً دخانه تجاه

الثلوج الرمادية في الخارج، وشفتاه ترتعشان. لم تعرف يوليكا السبب. سألته: «كيف كان الحال في باريس؟».

لم يُجب سوى بقوله إنه في باريس قد حلم بيوليكا (وكأنها مؤامرة منها). كانت يوليكا تشعر دائماً بالكراهية تجاه ذلك النوع من سرد الأحلام التي قد تعني كل شيء، وبالطبع لم تسأله عن أحلامه في باريس، بل عما فعله هناك. غير أن شتيلر حكى لها حلمه، وبالتفصيل:

«... كنّا مع مجموعة، ولسببٍ ما خرجت عن طوري، لا أعرف لماذا، كنت أريد أن أقول شيئاً، لكن صوتي كان يضيع مني كلما أردت أن أتحدّث بصوتٍ أعلى. كان عليّ أن أقول ما أريده. كان ذلك يدفع إلى البكاء. حتى لو كان الثمن حياتي، لا بدّ أن أبوح. رأيت ابتسامتك، وصرخت؛ ابتسمتِ مثلما تفعلين الآن، أتعرفين؟! مثل شخص على صواب! ولأنني صرخت رغم ذلك، فقد خرجتِ، لم أستطع منعك. المجموعة أيضاً كانت ترى أنه لا يجوز للمرء أن يصرخ هكذا؛ كانت تصرفاتي غير معقولة، أعرف، عليّ أن أتعقّل، يقولون لي، ثم يركضون على الفور خلفكِ كي يطيّبوا خاطرك، ولتعود المياه إلى مجاريها. أشعر بأني لست على حقّ، نعم، أمشي، أبحث عنك في الشوارع، وأجدك في حديقة عامة، «جاردان دو لوكسمبور»، أو شيء كهذا، ليس مهمّاً، الربيع، وأنت تجلسين هناك إذاً وسط الحشائش الخضراء وتبتسمين. أحاول أن أخنقك، نعم، بكلتا يديّ وبكلّ القوة الكامنة في جسدي، ولكن من دون جدوى، مع أنني أعرف أنهم يروننا، أضيّق الخناق عليك، لكنك مرنة للغاية - لا تصدر عنك سوى ابتسامة».

بالطبع لا تقول يوليكا شيئاً. بعد فترة قصيرة تظهر الممرضة لكي تستعلم عما إذا لم يكن الطقس بارداً جدّاً بالنسبة للسيدة يوليكا. تشكرها يوليكا بألطف العبارات؛ المرء كان يرى البخار أمام فمها، لكن يوليكا، ومعها قِربُ الماء الساخن وملتحفة بالبطاطين، لم تكن بالفعل تشعر

بالبرد. بعد أن ابتعدت الممرضة، قال شتيلر: «بالأمس أنهيت علاقتي.. علاقتي مع زيبيله.. بالأمس في بونتريسينا».

- «من هي زيبيله؟».

- «والآن لقد انتهت العلاقة بيننا نحن أيضاً يا يوليكا، بصورة نهائية. ستتفهّمين ذلك».

صمتت يوليكا. فقال مكرّراً: «بصورة نهائية».

لم يخلُ الأمر من هزل، أولاً: كيف عاتبها شتيلر لأنها ابتسمت له في حلمه الباريسي، وهي التي ترقد في الحقيقة في شرفتها هذه، وثانياً: فقد أخبرها بالنبأ بنبرة وكأن هذه هي أول علاقة في تاريخ البشرية يكون مصيرها الفشل، نعم، وبملامح في الوجه وكأن الموت في مصحّة لا شيء مقارنة بجنازة الأمس في بونتريسينا التي دفن فيها علاقته ذات السبعة أشهر، كما لم يخلُ الأمر أيضاً من هزل، كيف كان يقدّم لها اعترافات تتعلّق بحبّه لسيدة، اسمها زيبيله، ويبوح لها، بصراحة متأخرة، بمعاناته. قرأت يوليكا في وجهه كيف استاء عندما رآها تنفخ بلورات الثلج من على بطانيتها من وبر الجِمال. ماذا كان على يوليكا أن تفعل؟ ما رواه تطابق تقريباً مع مخاوفها الصيفية، وهكذا لم يعد الأمر في تلك الساعة يمثّل صدمة كبيرة بالنسبة إلى يوليكا المسكينة؛ فقد كانت تعرف منذ وقت طويل أنه يخونها. أما شتيلر الحزين اليائس، الذي ظلّ يروح ويجيء في شرفتها الشبابية، فقد استمتع بالإسهاب في الحديث، وهو ما لم يطلبه أحد على الإطلاق، لا لشيء إلا ليظلّ أطول فترة ممكنة متشبّثاً بصيفه الضائع.

أخيراً قال: «نعم، هذا هو الوضع».

- «والآن؟».

ليس حقيقياً أن ابتسامة كلّها شماتة خفية قد ندّت عن يوليكا، بل لم

تندّ عنها أيّ ابتسامة مطلقاً. لا بدّ أن شتيلر كان يحلم بعض الشيء مجدّداً. من ناحية أخرى لن يتوقّع أحد أن يوليكا المسكينة ستنفجر في البكاء لأن «زيبيله» لم تعد موجودة. ماذا ينتظر شتيلر منها من جديد؟ نفخت حبيبات الثلج من على بطانيتها المصنوعة من وبر الجمال، ولا شيء غير ذلك، أما الكلام الذي ألقاه على عواهنه من قبل -الملاحظة الجافة عن أن علاقته مع يوليكا قد انتهت أيضاً، وهي ما زالت على كل حال زوجته حسب القانون- فلم تتجاهله مطلقاً، لكنّها لم تدرك العلاقة المنطقية التي تربطه بما جاء قبله وبعده. أما كيف حاول شتيلر أن يشرح ذلك، بعد أن استند ثانية على الحاجز، ناظراً معظم الوقت في الثلوج الهاطلة، وكأنه يناجي أشجار الصنوبر الشبحية، فلم تنبع حدّة نبراته من هذه اللحظة، ولا من هذا المكان أو هذا الحاضر الخاص بيوليكا المسكينة، لقد وقع كل شيء على الآذان وكأنها صياغات راكمها ورصّها في وحدته، والآن نطق بها دون رابط، صياغات كان يقولها بوحشية حاسمة، وكلما زادت وحشية، كان الأمر أفضل. كل شيء بدا وكأنه يحدث استجابة لأوامر غريبة، ربما يكون شتيلر قد أصدرها لنفسه خلال الرحلة إلى دافوس، أو ربما أثناء أكله للحلزون، أوامر ذكورية متجهّمة. أصغت يوليكا إليه، لكنّها لم تتخلّص من الشعور المسيطر عليها: من الذي دعاك لأن تتحدّث مثل هذا الهراء الفظيع، يا عزيزي شتيلر، لستَ أنت مَن يتحدّث، على الإطلاق! كان وحشيّاً مثل جلّاد مسكين لا يجوز لقلبه أن يلين في اللحظة التي يرى فيها ضحيته، عليه أن ينفّذ الأوامر؛ ولهذا لم يكد شتيلر ينظر في اتجاه يوليكا، بل إلى الثلوج وأشجار الصنوبر الرمادية. وكلما مضى في كلامه، ترسّخ لدى يوليكا شعور واضح: ليس الأمر هكذا يا عزيزي شتيلر، إن كل شيء مختلف تماماً! قال لها: «لو لم تكن تلك الهزيمة في إسبانيا، لكنت قابلتك بشعور رجل في تمام رجولته وكمالها - كان عليّ أن أهجرك منذ وقت طويل يا يوليكا،

ربما بعد قبلتنا الأولى، ولَكُنّا عندئذٍ وفّرنا على نفسينا هذه الزيجة البائسة. هذا هو الشيء المرير، أترين: كان بإمكاننا أن نعرف أن الزيجة لن تنجح. لم تكن الإشارات تنقصنا طوال الطريق، كانت تنقصنا فحسب شجاعة أن نراها. أعرف اليوم ذلك: على الأرجح لم أحبك قطّ، لقد وقعت في هوى هشاشتك وجفائك، في هوى خرسك الذي ألقى بالمهمة على كتفي، أن أحاول أن أفسّرك وأنطق بدلاً منك. ويا لها من مهمّة! لقد توهّمت أنك في حاجة إليّ. إرهاقك الدائم، شحوبك الأبدي، ميلك إلى المرض، كأنّ كلّ ذلك هو ما احتجتُ إليه عن غير وعي، احتجتُ إلى امرأة تحتاج إلى الرعاية والصون حتى أبدو في عيني ذاتي أكثر قوة. أتعرفين؟! أن تكون لديّ حبيبة عادية، فتاة متوسطة القدرات تتمتع بالصحة، تريد أن ترتمي في أحضان الرجل وتحتضن هي الرجل، كلا، هذا ما كنت أخاف منه. لقد كان الخوف في العموم يملؤني! لقد جعلتك اختباري. ولهذا أيضاً لم أستطع هجرانك. أن أجعلك تتفتحين، هذه هي المهمة التي اعتقدت أن أحداً آخر لا يستطيع أن يقوم بها -كان هذا جنوناً خالصاً من ناحيتي. أن أجعلك تتفتّحين! لقد جعلت نفسي مسؤولاً عن ذلك- وجعلتك أنت مريضة، هذا مفهوم، إذ ما فائدة الصحة مع رجل كهذا؛ الخوف من أن تكوني تعيسة إلى جواري قيّدني بأصفاد أقوى من أي نوع من السعادة تستطيعين أن تمنحيها.

سألته يوليكا مرة: «لماذا تقول الهزيمة في إسبانيا؟».

لا ردّ. ثم قال شتيلر: «لقد كنت تتوقعين ذلك كلّه! ألم تحدسي هذا كلّه؟ هه؟ هذا واضح وضوح الشمس. من أول أمسية وأنت عاشقة لخوفي السري. أعجبك هذا يا عزيزتي، رجل كهذا، لا يأتي ويحتضنك، بل يرتجف ارتجافاً، رجل خائف، منكسر على نحو من الأنحاء، يعتقد أنك اختباره، رجل يؤنّبه ضميره من البداية، معتوه يشعر دائماً أنه هو المسؤول إذا فشل شيء. ألم يكن الأمر على هذا النحو؟ لقد كنت مسؤولاً حتى

عن الطقس. إني أراك يا يوليكا وأنت تمدّين يدك فجأة، ولا تنظرين إلى السماء، بل إليّ، وتقولين: الآن تمطر! وأنا قبلت بهذه النظرة».

تركته يوليكا يتحدّث.

- «ألم يكن الأمر هكذا؟ لماذا لم تذهبي طوال تلك السنوات مرّة واحدة إلى الطبيب؟ ما كنت عندئذٍ سترقدين في هذه الشرفة البائسة يا يوليكا. لماذا لا تريدين أن تتعافي؟ الأمر سخيف يا يوليكا، لكنّه حقيقي: لم تكن لديك الإرادة في التعافي؟ لقد نظرتِ إليّ باعتباري متبلّد المشاعر عندما لاحظتُ مبتهجاً في مرّة أنك لا تعانين من الحمّى مطلقاً. لقد أغضبك ذلك. فكّري في الأمسيات التي لا تُعَدّ التي اختفيت خلالها في غرفتك حتى تستلقي على فراشك، فقط حتى لا ننسى: يوليكا المسكينة! وحتى لا تقارني نفسك بأولئك النساء اللاتي يتمتّعن بالصحّة. كان لديك خوفٌ هائل من ذلك. أعرف: البروڤات كانت شاقّة، نعم نعم، وأن الأمر سهل بالنسبة لي، أنا الذي أعمل في تشكيل التماثيل الطينية، فلا فارق بين عملي أو عدم عملي، أنا الذي أحيا حياة الباشوات، أعرف أن عملك لا يمكن مقارنته بأيّ عمل آخر، ولا حتى بعمل طبيبة أطفال، هذا مفهوم، وعموماً كان من الظلم أن يأمل المرء مجرد أمل، أو أن يتمنى أن تكوني برقّة النساء الأخريات. استمتاعك بالرعاية (من كل الجوانب) لم يكن يعرف الحياء. وكيف انصاع الجميع، ليس فقط زوجك الأحمق، الجميع، حتى أولئك الذين لم يقعوا في غرامك، عَلِمَ الربّ عن أيّ شيء اعتذروا لك حتى لو نعست في وسط مجموعة الأصدقاء لأن الحديث لا يدور حول الباليه، رغم كل شيء كانوا ينظرون إليك باعتبارك امرأة شجاعة، وكانوا يلقون الغطاء عليك حتى لا تشعري بالبرد، لأنك لا تستطيعين حتى أن تغطّي نفسك، مجموعة من الأشخاص الطيبين الخيرين، ولا نعود نتحدّث جميعاً إلا همساً، إذ مَن لا يعرف أن يوليكا لديها بروڤا صعبة في

الصباح التالي! كلّهم قدّموا لك معروفاً بائساً يا يوليكا، مثلي تماماً. وإذا لم أفهم لماذا لم تستجمعي قواك وتقدّمي لأصدقائنا حساءً، فالخطأ خطئي، طبعاً، على المرء أن يقبل زوجته كما خلقها الربّ الحبيب. وبين الحين والآخر كنت أنسى كم أنت رقيقة، وأن على المرء أن يتعهّدك بالرعاية. وبمجرد انصراف الأصدقاء، تستجمعين قواك وتذهبين إلى المطبخ، وأنت في غاية التعب، وذلك حتى تُعِدّي حليباً ساخناً لفوكسلي. إذ إن فوكسلي هو أنت!».

عندما يبدأ شتيلر في الحديث، فإنه يلقي بسلسلة من الاتهامات من هذا القبيل، وكلّها اتهامات تافهة، كل اتهام أتفه من الآخر: لم تكن يوليكا تتمالك نفسها من الاستغراب.

قال لها: «تصمتين كالمعتاد! تعتبرين نفسك تجسيداً للحب والإخلاص، أما أنا فأعتبرك تجسيداً للنرجسية. تجسيداً للتكبّر! وخصوصاً للتكبّر. لقد ركعت أمامك. يوليكا، بكيت أمامك مثل أي رجل يبكي في ظروف معيّنة، كنت أشعر بالخجل أمامك، أعربت عن ندمي أمامك، وأنت غفرتِ لي، من المؤكّد أنك غفرت لي الكثير، أعلم ذلك، دون أن تشعري لمدة دقيقة واحدة بالاضطراب، دون أن تفكّري لمدة دقيقة واحدة تفكيراً حقيقياً في أنك أنت أيضاً قمت ربما بتحطيمي، ولهذا لم ترتعشي لمدة دقيقة واحدة. ولماذا تفعلين؟ كل معارفنا يعرفون أنك أنتِ التي تتحمّلين، أنتِ هي الكائن النبيل الذي لا يصرخ بالاتهامات، لا، عليّ أنا أن أوجّه الاتهامات إلى نفسي. لم تلطّخي نفسك بها قطّ. لكن فكّري: هل حرّرتني يوماً من الذنب عندما أوجّه الاتهاماتَ إلى نفسي؟ لقد غفرتِ. وبذا يتم الاعتراف بالاتهام، هذا هو تحديداً ما يفعله الغفران. ثمّة وحشية شيطانية في العفو الأنثوي، يا حبيبتي، وهو أمر لا يمكن أن أتهمك به، بالطبع، لا يمكن اتهامك بأي شيء؛ أنا الذي تخيّلت ذلك بحساسيتي البالغة، وهو ما قد

يهلك المرء، مثلما يهلكه السلّ الرئوي.. أنا أتحدّث وأتحدّث يا يوليكا، وأنت لا تفعلين شيئاً سوى نفخ الثلج من الغطاء!».

ثم واصل شتيلر قائلاً: «نعم.. أتساءل أحياناً لماذا لم أقفز من مكاني طوال تلك السنوات وأصفعك من دون أن أفكّر كثيراً. أنا جادّ في ما أقول، وهو خطأ لم يعد من الممكن إصلاحه؛ أنا مقتنع بأنه خطأ. ما أكثر الأشياء التي كانت هذه الصفعة ستوفّرها علينا! مثلاً، وعلى ما أعتقد، رحلتك المشؤومة إلى لاندكفارت. بالطبع كنت تعلمين منذ البدء أنك ستنهارين في مكانٍ ما خلال الرحلة، لكنك لم تعودي تدّخرين جهداً لكي تؤمّني لنفسك وخزات ضميري. لكنّك تخطئين! والفظيع في الأمر هو أنه فعلاً ذنبي، أترين؟! ولكن بمعنى آخر تماماً، ذنبي أنك الآن ترقدين في هذه المصحّة. ولكن ليس لك أن تصفحي عني. كثيراً ما أفكّر في الوقت الحالي كالتالي: لو لم أجعلك اختباراً شخصياً لي، لما فكّرت يوماً في أن تقيّديني بمرضك، ولكان كلٌّ منّا قد أحب الآخر حبّاً طبيعياً، لا أعلم، أو لكنّا انفصلنا انفصالاً طبيعياً. وكنت ستقابلين رجلاً لا يشعر بتأنيب الضمير، رجلاً صبوراً للغاية، كنت ستقابلين على كل حال رجلاً يحاول أن يربحك وأن يبقيك معه من خلال الحب الطبيعي. من يعلم، يا عزيزتي يوليكا، إلى أيّ مدى كنتِ عندئذٍ ستتمتّعين بالصحة.. وعلى نحو دائم؟!».

صمت شتيلر. فسألته: «والآن؟».

حدّق شتيلر فيها، فقالت يوليكا: «هكذا تراني إذاً! لقد صنعت لي صورة، هذا ما لاحظته، صورة جاهزة ونهائية، ولا يمكن تصحيحها. ولا تريد أن تراني في صورة غير هذه، هذا ما أشعر به. أليس كذلك؟!».

رشق شتيلر سيجارة بين شفتيه، فقالت يوليكا وهي تواصل في أثناء

ذلك نفخ الحبيبات الثلجية الكريستالية من بطانيتها الوبرية: «لقد فكّرت أنا أيضاً في الآونة الأخيرة في أشياء كثيرة. ليس عبثاً أن قال الربّ في وصاياه: لا تصنع لك تمثالاً أو صورة! كلّ صورة هي خطيئة. إنها العكس تماماً من الحب، أترى ما تفعله الآن بكلمات مثل هذه؟ لا أعرف ما إذا كنت تفهم ما أعني. عندما تحب إنساناً، فإنك تترك كلّ الاحتمالات مشرعة أمامه، وتكون ببساطة، ورغم كل الذكريات بينكما، قادراً ببساطة على الدهشة، الدهشة الدائمة، لاختلاف الآخر وتباينه، لا أن تصنع له صورة جاهزة، مثلما تفعل أنت. كل ما أستطيع أن أقوله لك: ليس الأمر هكذا. إنك تفسّر الأمور دائماً على هواك. كل ما أستطيع قوله لك: لا تصنع لك تمثالاً أو صورة![*]».

واصل شتيلر تدخينه، ثم قال: «من أين جئت بهذا الكلام؟».

كان هذا هو كل ما استطاع قوله. لم يعد بمقدورها التحدّث مع شتيلر، هكذا بدا، فهو لم يعد يسمع سوى نفسه. لقد جاء من بونتريسينا عاقداً عزمه على أن يهدم كل شيء. قال لها مبتسماً: «الحب؟ من الأفضل ألّا نتحدّث عن الحب، ليس في حالتنا، وألّا نتحدّث أيضاً عن الوفاء - لو كنت مكاني يا يوليكا، لكنتِ ربما هجرتني منذ فترة طويلة، ولن تنقصك المناسبة أبداً، أعرف، لكن تنقصك الطمأنينة في أنك تستطيعين الاحتفاظ برجل حقيقي. دعينا نتحدّث بصراحة! إن وفاءنا النسبي لم يكن سوى الخوف من الهزيمة أمام أيّ شريك آخر، مثل الهزيمة التي مُنيتُ بها الآن، ولا شيء غير ذلك. لا نريد أن نخدع نفسينا! لقد انتهى ما بيننا نحن أيضاً. أعتقد أن هذه هي آخر مرّة يرى فيها كلٌّ منّا الآخر يا يوليكا».

(*) إحالة إلى الوصية الثانية من الوصايا العشر التي تلقّاها موسى من الرب على جبل سيناء: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض»، (سفر الخروج 20:4). (م).

راحت يوليكا تبكي.

قال شتيلر بنبرة موضوعية: «إنه أمرٌ فظيع أن يحدث هذا في هذه المصحّة تحديداً. لقد قال لي الطبيب المشرف على علاجك إنكِ لم تتجاوزي الأزمة بأيّ حالٍ من الأحوال. ولكن ربما يكون من الجيد يا يوليكا أن تعرفي، بدءاً من هذا اليوم، ومن دون أيّ شكّ، أن مرضك لم يعد يؤثّر فيّ أي تأثير. ربما تعتبرين ما أقوله نذالة، لكنّها في الحقيقة.. انظري، لقد كان صدري مليئاً دائماً بالاتهامات تجاهك، ولهذا، من ناحية أخرى، كنت أراعي مشاعرك إلى درجة تصل إلى السخافة، لأنني كنت أشعر بأن عليّ دائماً أن أعوّضك عن شيء، شيء مسكوت عنه، أتفهمينني؟! والآن، ولأول مرة، يبدو لي أنني أقف أمامك من دون أن أكون غاضباً منك؛ فأنا أعلم الآن أنك لم تكوني العائق أمامي الذي منعني حتى اليوم من أن أعيش حياة حقيقية. الحمد لله أنني عرفت هذا أخيراً! الدموع في عينيك يا يوليكا تهديدٌ لم يعد يجدي. فكلّنا سنموت».

عندئذٍ قالت يوليكا: «أودّ أن تتركني الآن وحدي!».

مرتبكاً بعض الارتباك ظلَّ شتيلر واقفاً لوهلة عند فراشها، واضعاً يديه في جيبَيْ سرواله بعد أن ألقى بسيجارته عبر الحاجز. ثم قبّلها على جبهتها وكأنها ترقد بالفعل في نعشها، ومن دون أن يتوقّع ذراعيها الصادّتين، ثم غادر مسرعاً الشرفة الشتوية. منذ تلك اللحظة (تحكي يوليكا) ظلَّ في عينيها شخصاً مفقوداً. شوهد شتيلر في المدينة في شهر ديسمبر. وشوهد أيضاً بعد افتتاح معرض فني أعقبه سُكر استمرّ حتى منتصف الليل، عندئذٍ أصبح مفقوداً بالنسبة للآخرين أيضاً، في البداية لم يلاحظ أحدٌ ذلك، ليس بين عشيّة وضحاها؛ ولكن بالتدريج لاحظوا غيابه، وأنه لم يعد يظهر في مقهاه أو في الأماكن الأخرى التي اعتاد الناس أن يقابلوا فيها شتيلر.

وعندما كان أحدٌ يسأل بشكل عابر عن شتيلر، كان الآخر يهزّ كتفيه. انتظر الناس حتى أواخر يناير إلى أن شعر شخصٌ بالقلق لأن الأتيليه مغلق دائماً، فقام بإبلاغ الشرطة التي بدأت بتفتيش كلّ الأدراج من دون جدوى، وحتى اليوم، بعد مرور ستة أعوام، أو ما يقارب سبعة، ليس لدى الشرطة معلومات أكثر مما كان لديها آنذاك.

مكتبة
t.me/t_pdf

الكرّاسة الثالثة

بالأمس (في وسط النهار) ذهبتُ إلى مستودع الأسلحة لكي أعاين المعدّات الحربية الخاصة بالمفقود. انتظارٌ طويل في المبنى الخشبي المؤقت. التدخين ممنوع! أجلس القرفصاء على كومة من السراويل العسكرية. يسألونني: «ألا تستطيع الوقوف؟»، تفوح في المكان رائحة الجلد، والكافور، ورائحة الخيل من الإسطبلات بجانبنا. لمجرّد أن أقول شيئاً، سألتُ النقيب الشاب الذي بدا في حذائه العسكري اللامع مرتبكاً بعض الشيء، والذي كان يشعر بالملل من هذا الانتظار مثلي تماماً: «هل ما زلت تخدم في سلاح الفرسان هنا؟».

أجاب باقتضاب: «لا».

أحضروا أخيراً اللفّة المربوطة، وبداخلها الزيّ العسكري المهلهل الذي كان يرتديه فقيدهم، ثم أمروني أن أفكّ الرباط. كان عليّ ألّا أفعل، بالطبع لا؛ فأيّ فعلٍ مهذّب، ولو كان صغيراً، يقوّي رأيهم في أن بمقدورهم أن يفعلوا بي ما يحلو لهم، مثلما يفعلون مع شتيلر. ولأنني فككت المخلاة العسكرية الرثّة والغريبة، فقد وقع كلّ شيء كان يخصّ المجند شتيلر على الأرض، وبالطبع كان عليّ أنا أن أجمعها. قلت: «وما شأني أنا بهذه الأشياء يا سادتي؟!».

- «هيّا!».

اثنان من حرّاس مستودع الأسلحة السويسرية، كلٌّ منهما سمين وشاحب من استنشاق الهواء المشبع بالكافور طوال حياته، وكلاهما قد استبدل باللهجة العسكرية نبرةً متجهّمة مقتضبة. لا يستخدمان كلمة «سيّد» أبداً! ثم أمسكا بمعطفٍ عسكري رمادي في مواجهة الضوء النافذ من الأمطار، ونظرا إلى النقيب الشاب الذي تفحّص الأمر بدقّة، وراحا ينتظران أن أبدي استيائي.

- «هنا.. ألا ترى شيئاً؟ هه؟!».

نعم، هناك ثقوبٌ أحدثتها الصراصير، أعترف بذلك، مجرّات كاملة من ثقوب الصراصير. أتحسّس القماش ثم أقول: «وهو أيضاً ليس مقاوماً للماء».

إثر ذلك نظرا إليّ وكأنني شيوعي، لا لشيء سوى أنني نطقت بحقيقة موضوعية تماماً. أمسكُ بالمعطف الواقي من المطر الذي يرتديه الضابط الشاب الذي وقف بجانبنا كمراقب صامت: «أترون، هذا يقي فعلاً من المطر!».

بعد ذلك تحتّم عليّ أن أُعاين ماسورة بندقيّة سويسرية. أجبروني على ذلك. غريب جداً، لقد تركتهم يجبرونني. لماذا؟ أنظر في البندقيّة الغريبة وكأنها منظار مقرّب، لكنني لا أرى شيئاً، ثقب صغير يملؤه الضوء الرمادي، لا شيء غير ذلك. ومرة أخرى يتوقعون مني أن أغوص في الأرض الخرسانية لشعوري بالذنب. ثم يثبتون مرآة صغيرة.

- «أترى الآن شيئاً؟».

أرى الصدأ، لم أسألهم في تلك الأثناء عن ثمن ماسورة بندقيّة سويسرية، ومحاضرة الضابط الشاب التي أسمعها تهذّباً لا تثير اهتمامي

إطلاقاً؛ إذ إنني لا أفكّر في شراء بندقيّة سويسرية. مسدّس، نعم، أو رشّاش؛ ولكن ماذا أفعل ببندقيّة بطول عكاز المشي؟ يتراءى لي النقيب الشاب مرتبكاً على نحو من الأنحاء، وكأنه يظن أنني أيضاً أكاديمي؛ يقول دائماً: «لستُ في حاجة إلى أن أشرح لك ذلك».

انطلاقاً من الشعور الخالص بالواجب -وكأن الحارسين في المستودع يمتحنانه- انطلق يشرح، رغم حرجه الشديد؛ أشعر بأنه يريد أن يُظهر لي، بطريقةٍ ما، أن لديه هو أيضاً اهتماماتٍ أسمى، لكنّه لا يستطيع في هذا المبنى المؤقت للمستودع أن يبيّن ذلك إلا عبر إلقائه نظرة بين الحين والآخر من النافذة على المطر الغزير - في حين راح الحارسان اللذان كانا يراقبانني بكراهية متزايدة يضعان على الطاولة كلّ شيء له علاقة -في رأيهم- بالحرب، متجاهلين لا مبالاتي الواضحة بالأمر: فرشتان، طقم أدوات المائدة، بكرة بخيط رمادي اللون، ورنيش، وعدد معيّن من الأزرار، وكلّ زرّ يتحلّى بالصليب السويسري، صحن طعام، وزمزمية ماء لا تصدر فوهتها رائحة خبيثة، رباط حذاء، فرشاة لدهن الحذاء في جراب، خوذة حديدية، ما يطلق عليه رباط عنق، خنجر في غِمده، وثلاث إبر أهملها المفقود شتيلر أيضاً وتركها تصدأ على نحو غير مسؤول، باختصار: طاولة ممتلئة رحت أعاينها بنظراتٍ لم تخلُ من الدهشة، حتى وإن تركت يدي في جيبي سروالي.

قال النقيب الشاب: «لستُ في حاجة إلى إلقاء محاضرة عليك، أنت تعلم أن عليك أن تتولّى شخصياً التعويض عن الضرر الناجم».

قلتُ ضاحكاً: «ولماذا؟».

- «ومَن غيرك؟».

لا يتيحون لي الفرصة لكي أتكلّم. عليّ أيضاً أن أرتدي السترة

العسكرية الخاصة بفقيدهم. ببساطة لا يتيحون لي الفرصة لكي أتكلّم؛ هذا جزء من سلطتهم التي، لدهشتي، انصعت لها فعلاً، وإنْ بعد تردّد. لا يخطر على بالهم أن يمسكوا بالسترة لكي أقيسها، ولأنني لم أجد المقاس ملصقاً على الياقة، قالوا لي: «هيّا!». تجاهلوا ملحوظتي التافهة بأن سترة ثقيلة كهذه سترهق الجندي حتى قبل أن يرى العدو. عليّ أن أستدير وكأنني دمية يجرّبون عليها الملابس.

«لقد أصبحتَ أكثر نحافة من قبل» -يدّعي النقيب الشاب الذي يراني لأول مرّة في حياته- «إنك تعوم فيها».

في تلك الأثناء ذهب أحد الحرّاس إلى حامل معدني وانتزع سترة عسكرية أخرى ألقاها إليّ: «جرِّب هذه!».

- «لماذا؟».

لكني لا أحصل في هذه المرة أيضاً على إجابة، بل على رقم آخر للسترة، وكذلك على محاضرة من النقيب الشاب: إن عليّ أن أكون في خدمة الدفاع عن البلاد حتى سن الثامنة والأربعين، وأن أكون جاهزاً للخدمة العسكرية في الجيش السويسري حتى إتمام سنّ الستين، وإن من حقّي بالطبع أن أسافر إلى الخارج، ولكن من واجبي أن ألتمس قبل ذلك إجازة من الدولة، وأن أُخطر قيادة دائرتي بالسفر (ليس ثمّة إنسان لا ينتمي إلى دائرة من الدوائر)، وإن كلّ شيء مكتوب في كتيّب الخدمة، إضافةً إلى ذلك فإن معدّات الجندية التي يُعهد بها إلى كلّ مواطن سويسري، وكما هو معروف، لا يجوز بالطبع الاحتفاظ بها في حالة الإجازة في أيّ غرفة تخزين تحت السطح، بل يجب تسليمها، حتى يقوم حرّاس مستودع السلاح بحمايتها من العثث، كما أن عليّ في الخارج أن أسجّل نفسي لدى أقرب مبعوث دبلوماسي لسويسرا حتى لا أكون متهرّباً من الضريبة العسكرية، وأن أبلغه إذا غادرت ذلك البلد، إلى آخره...

- «السيد النقيب، مع كل احترامي للمؤسسات السويسرية! ولكن في ما يخصّني...».

لا يتيحون لي الفرصة لكي أتكلّم. في رؤوسهم الثلاثة هدف واحد: على شتيلر أن يصبح مستعدّاً للخدمة العسكرية. أجد نفسي مدفوعاً إلى قياس الحذاء العسكري أيضاً، وبالمناسبة بضاعة ممتازة. يجب عليّ لا أن أجرّبه فحسب، إذ يقول النقيب الشاب: «يجب أن تشعر فيه بالراحة أيضاً!».

لا مفرّ.

بعد ذلك، وفي الختام، يتملّكهم بالرغم من ذلك الغضب أيضاً. عليّ أن أوقّع لتأكيد استلام البندقيّة والحذاء الجديد. يجب الالتزام بالنظام واللوائح، أتفهّم ذلك. أخذت القلم الحبر من النقيب الشاب الذي كان من الواضح أنه يتوق إلى عمل أكثر أهمّيّة، ثم كتبت على الاستمارة: وايت، جيمس لاركينس، نيو مكسيكو، الولايات المتحدة الأميركية.

- «وايت... كيف، وايت؟».

أُرجع له القلم الحبر وأنا أقول: «My name is White».

يتبادلون نظرات الاتهام في ما بينهم.

- «ألست المجنّد شتيلر؟!».

يسألني النقيب الشاب وهو يمسك بتوقيعي الملزم في يده، وهو يكاد يهزّ رأسه ساخطاً على حارسَي المستودع اللذين، من ناحية أخرى، ليس لديهما أي ذنب في ما حدث. لقد أرسلوا إليهما هذا الرجل ببساطة. مَن؟ لماذا؟ أحاول التوسّط وشرح الأمر: «هناك اشتباه في أنني هذا السيد المفقود، لكن هذا الاشتباه...».

بناء على محض اشتباه لا يمكن أن يقوموا بتسليحي طبعاً. يشرح

النقيب لهما ذلك وأنا أخلع الحذاء العسكري، مع أنه كان على مقاس قدمَيّ.

قال الحارسان ساخطَين: «يا إلهي! ولماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟».

أتغاضى عن تقديم التبريرات، وبالنظر إلى غضبهما الذي أفرغاه لحسن الحظ في الخوذة وصحن الطعام، فهما لم يتيحا لي قطّ الفرصة لكي أتكلّم. غضبهم مفهوم؛ إذ لم يعد عليّ أن ألمس أي شيء، لا البندقيّة ولا الحذاء العسكري الذي أعجبني للغاية، وكان عليهم الآن أن يُدخِلوا كل الأشياء في المخلاة مرّة ثانية. كلّ ما نطقت به كانت كلمة أسف: «Sorry!».

شعر النقيب الشاب بالإحراج الشديد؛ ولم يجد مفرّاً من تبادل الحديث معي لبرهة. كان يهتمّ اهتماماً كبيراً بأميركا. اعتذر لي مرّة ثانية؛ لا يرضى مطلقاً أن تحدث مثل هذه الأشياء لأميركي في سويسرا، ثم حيّاني التحية العسكرية. حتى لا ألوّح له، وضعت يدي أنا أيضاً على حافة «البيريه»، والحارسان اللذان رافقاني في سيارة السجن، واللذان لاحظا تهذيب النقيب الشاب معي، استقبلاني كما لم يفعلا من قبل، هما أيضاً تحلّيا بالتهذيب وكأنهما ينتظران منّي بقشيشاً؛ بل إن أحدهما أشعل لي السيجار، في حين أمسك الآخر بباب السيارة الرمادي ذي الشباك المزوّد بقضبان حديدية، ولم يكن ينقص سوى أن يسألاني عن المكان الذي أودّ التوجّه إليه.

يقولون إن فيلفريد شتيلر، الشقيق، حزين للغاية لأنني لم أردّ على رسالته الأخوية. أريد أن أفعل ذلك، بمجرّد أن أشعر بهدوء البال.

اليوم، الأحد، زارني كنوبل بملابس مدنية -قميص أبيض ورباط عنق- لكي يعرف مني معلومات عن جريمة القتل الرابعة التي ارتكبتها. لا توافقني زيارته مطلقاً. ولكن لا مفرّ من أن أحكي له: «حدث ذلك في تكساس، عندما كنت لا أزال أعمل راعياً للبقر».

- «هل عملت أيضاً راعياً للبقر؟!».

- «ولـمَ لا؟».

- «يا خبر!».

أصف له كيف امتطيت حصاني ذات صباح صيفي في البراري، شاعراً بالسأم من حياتي كراعي بقر، ثم مضى بي الحصان أبعد من المعتاد، أبعد مما يجب. يمكنني القول إنني كنت أمتطي حصان الأفكار (لم يكن المستمع إليّ يهمّه كثيراً أن يعرف أي نوع من الأفكار كنت أمتطيها) دون هدف معيّن. شرع الحصان يعدو ببطء، وبعد نحو خمس ساعات -خلال تلك المدّة لم أنظر مرّة إلى الوراء- وصلت إلى الصخور الحمراء التي كنت أراها دائماً منذ أسابيع في الأفق. ترجّلت عن حصاني الأسود، وربطته في شجيرة بلوط، وصعدت إلى أعلى قليلاً، واعداً نفسي بأن أرى رحابة تتجاوز السهل اللانهائي الذي خلّفته ورائي، وأن ألقي نظرةً على الأرض الممتدّة الشبيهة ببحر يميل لونه إلى الأخضر والفضّي. كان يوماً شديد القيظ، لقد كدت أموت عطشاً. بحثت عن نبع ماء، من دون جدوى، فالمنطقة كلّها صخريّة، وفجأة، وأنا أخطو بحذائي ذي الرقبة الطويلة وسط القفر المليء في أحيان كثيرة بنباتات عجفاء ذات أشواك، وجدت نفسي أقف فجأة أمام أخدود، أمام شقٍّ بين الصخور كان يشبه فم سمكة قرش، شقّ هائل وأسود كالليل. لم يحكِ لي أحدٌ من زملائي عن هذا الكهف. كان الأمر مصادفة أنني اكتشفت بوّابته -التي لم يكن من الممكن رؤيتها

إلا عن قرب بالغ- في هذا القفر ذي التلال والهضاب. ربما يكون في الكهف مياه! صحيح أن هدوء الموتى كان سائداً هناك، ولن أنسى أبداً كيف خطوت خطواتي الأولى، لأشبع فضولي فحسب، صاعداً لأُطلّ على الأخدود الظليل، بحذرٍ، ممسكاً بآخر الشجيرات، وبرأسٍ ممدود ألقيتُ نظرة متفحّصة على الهوّة العميقة وقد أعمتني الظلمة. لم يكن صعودي إلى هذا الكهف تنفيذاً لأمر أحد؛ رغم ذلك كان قلبي في غاية الانقباض وقد سيطرت عليّ تماماً الرغبة في الاكتشاف. تحرّك حجرٌ تحت حذائي، وبقفزات مرحة تدحرج إلى أسفل، وتردَّد صداه، دائماً أبعد، ولم يتوقف الصدى إلى أن شحب لوني، أنا الذي كنت راعياً شجاعاً للبقر على كلّ حال. حقّاً، لم أعد أعرف ما إذا ظللت أسمعه، الحجر المتدحرج، أم أنني توهّمت ذلك فحسب؟ كدت من الوجل ألّا أتنفّس، لكنني أجبرت نفسي على عدم الهرب. سمعت قلبي يدقّ كالمطرقة، ما عدا ذلك ساد هدوء الأموات. ثم تنحنحتُ بصوت عال، فاستولى عليّ ذعر لا معنى له، وكأن الصوت الذي سمعته ليس صوتي، كنت متعجّلاً وكأنني أواجه تنّيناً على وشك أن يلتهمني؛ تسلّقت طريقي بين الشجيرات الشوكية، يطاردني الصدى، صاعداً إلى أعلى، في اتجاه الشمس، وهناك ضحكت على نفسي. أو على الأقلّ حاولت أن أضحك على نفسي. فهنا، في شمس الظهيرة، لا يسمع المرء سوى الطنين المألوف للحشرات، وهسيس الحشائش في الريح، وهناك يلقي المرء نظرة على سهول تكساس، على ذلك البحر الأرضي الذي كنت أراه كل يوم آنذاك. رغم ذلك كنت أشعر ببعض الوجل عندما سمعت الحجر الذي لا يزال يتدحرج.

عندما وصلت إلى مزرعتنا مرّة أخرى، كان الليل قد هبط. برّرت غيابي بكذبة وقحة. لم أقل كلمة واحدة عن مغارتي، ولا حتى لـ«جيم»، صديقي المفضّل الذي كان يرقد بجانبي. راح جيم يشدّ أطراف الأرجوحة

القماشية المعلّقة التي أنام فيها ليعرف أين قضيت في الحقيقة اليوم كلّه، وتركته يرتع في شعوره الجميل بالحسد، في اعتقاده بأنني وجدت فتاةً لعوباً في مكان ما في السهل الذي يكاد يخلو تماماً من البشر (طوال شهور لم نكن نقابل سوى رجال وخيل وغنم). نخزني جيم بين أضلاعي، علامةً على أنه يشاركني الفرح الخالص، وعلامة كذلك على غيرته الخالصة. رغم ذلك، وكما قلت، لم أبُح له بكلمة عن مغارتي.

اتسم عملنا في المزرعة بالصرامة، كنّا قلائل، وفوق ذلك فقد كان أحدنا مريضاً؛ وطوال أسبوعين ظللت أنتظر يوم الإجازة التالي.

وبالطبع امتطيت حصاني في ظلمة الفجر متوجّهاً مرّة أخرى إلى كهفي (وحتى لا يقتفي المرء أثري، سلكت طريقاً بعيداً غير مستقيم)، مسلّحاً بقنديل حتى أستطيع التوغّل في الظلام، وقد استعددت لكل شيء ما عدا أنني لن أجد كهفي ثانية. دخل العصر وكنت لا أزال أمسح المنطقة، صاعداً تلالاً ثم هابطاً، وربما كنت قريباً للغاية من البوابة، ربما على بعد ميلٍ واحد، إذ إنني رأيت الهضاب والأودية نفسها، والنباتات الشائكة ذاتها، وكذلك الصبّار، وبينها نباتات السمّاق السامّة الملعونة. ركبت الحصان عائداً، منهكاً محبطاً، ومن دون أن أجد الكهف، مقتنعاً أكثر مما سبق بأن في هذا الكهف كنزاً أسطورياً، ربما يحتوي على ذهب استولى عليه الإسبان كغنيمة ثم فقدوه: ألم يمرّ من هنا أولئك المغامرون، فاسكويز كورونادو وكابيثا دي فاكا؟ أقلّ ما يمكنني انتظاره هي القيمة التاريخية، ولكن ربما تكون معها أيضاً أحجار الهنود الحمر الكريمة، الكنز الكامل لقبيلة قد انقرضت. حتى لو استخدمنا العقل الموضوعي، ثمّة أشياء كثيرة ممكنة. وبالطبع ابتسم صاحبي ابتسامة شامتة عندما رآني في المساء وأنا ألقي بنفسي على الأرجوحة القماشية المعلّقة، ساخراً من الإنهاك الكبير الذي شعرت به، وكذلك من صمتي.

سألني: «ما اسمها؟».

«هازل!»، قلت له ذلك، ثم استدرت إلى الجانب الآخر.

وهكذا مرّت أسابيع.

بدأ كهفي، المحفور هناك في الصخر، يلحّ عليّ ويطاردني، ذلك الكهف الذي لم يمكنني العثور عليه في الحقيقة رغم أنني ذهبت بحصاني عدّة مرّات إلى تلك المنطقة، وفي كلّ مرّة أكون مزوّداً بقنديل وحبل، وبحقيبة مملوءة بالكربيد، وأخرى مملوءة بالزاد؛ وذات مساء، وعندما رأيت سرباً من الخفافيش، لم أعد أؤمن باكتشافي. كان الغروب قد حلّ، وأزف وقت العودة. وكأن الخفافيش قد صعدت من الأرض، ملايين من الخفافيش. لقد طارت من مغارتي! بالقنديل والحبل الذي كان بالإمكان تعليقه على الصخور ذات الحواف البارزة، وكما يفعل متسلّقو الجبال، لم يكن صعباً صعوبة كبيرة أن أصعد إلى الكهف الأول الذي كان هائل الاتساع. مع آخر أضواء الغروب استطعت رؤية أن مساحته الداخلية تقارب مساحة كاتدرائية «نوتردام». في ما عدا الخفافيش على الصخور التي سقط عليها ضوء ضعيف من قنديلي، وفي ما عدا كسور الآنيات الخزفية، لم أجد شيئاً. من المحتمل أن هذا السرداب العلويّ كان بالفعل في يومٍ من الأيام مخبأً للهنود الحمر. كلما تقدّمت في هذه الكاتدرائية المنحوتة تحت الأرض، فقدت وَجلي، بالتأكيد، هنا وهناك ثمّة شقوق في الجدران، كما أنارَ قنديلي مغارات تشبه الكنائس الصغيرة، لكن ليس ثمّة أي أثر للتنانين ذات العيون المتوهّجة والأنفاس الكبريتية الحارقة. كاد يستولي عليّ الغرور لاكتشافي هذا الكهف العظيم، وفي الوقت نفسه خاب أملي لأنني كشفت عن سرّي الخفيّ، وفجأة -لن أنسى هذه اللحظة أبداً!- ابتلعت الأرض ضوء قنديلي. كدتُ ألّا أتنفّس من الرعب، لقد انفتحت تحت قدمي هوّة، ولم أجرؤ على التحرّك: لم يعد ضوء قنديلي

يسقط على أيّ أرضية. صعدت ببصري تجاه البوابة بحثاً عن ضوء النهار، لكن الليل كان قد هبط في تلك الأثناء على الأرض؛ رأيت بضع نجوم، وعلى مبعدة لا نهائية لمحت شرارات ضعيفة، وحولي سواد الصخور؛ لم أعد أجرؤ حتى على النظر خلفي، لأنني تذكّرت ثانية الحجارة المتدحرجة التي سمعت صداها وهي تهبط في الأعماق.

كل خطوة، هكذا بدا لي، تعني السقوط في فوهة الموت. وفي النهاية ركعتُ، وربطت القنديل بحبلي حتى أسبر بضوئه الشاحب غور الظلمة الرهيبة، فراح يتأرجح في الفراغ. لكن بمرور الوقت (كنتُ، كما قلت، قد ركعت على حافة الهوة، ولم أسمع سوى ضربات قلبي)، بدأت أتعرّف على كهف، فضاء شاسع كذلك، لكنّه لا يذكّر بنوتردام، بل بالأحلام، فجأةً لاح لي عالمٌ آخر، ليس صخراً بخفافيش، بل أسطورة من مئات ومئات من الأعمدة الحجرية اللامعة التي شكّلتها قطرات المياه. كان هذا هو اكتشافي! بالنسبة إلى شخص يستطيع التسلّق، لم يكن من المستحيل النزول إلى هذه الأسطورة. لكن كيف سأصعد ثانية؟ كنت أعرف: إذا رجعت الآن، فسأندم وأتعذّب طوال حياتي. تحوّل خوفي إلى غرور اليائسين. بحذر بالغ، وبأقصى جهد (دون أن أفكّر في الرجوع)، وصلت أخيراً بعد أن أصابتني مختلف أنواع الخدوش، وبعد أن قفزت قفزةَ متجاسرٍ يائس إلى هوّة عجيبة لم أعد أرى منها النجوم. كل شيء كان متوقفاً على ضوء قنديلي. رغم كل الإثارة التي شعرت بها، فقد كنت أتصرّف بعقلانية أدهشتني شخصياً؛ على الفور، وباستخدام سناج قنديلي علّمتُ على الصخرة التي تسلّقتها مرّة أخرى، وكتبتُ -وكأنني تعلّمتُ ذلك من قبل- بالسناج رقم واحد بخطٍّ كبير. عندئذٍ تجوّلت بالبصر حولي. رحت أنقل خطواتي كالمجذوب في المتاهة، سائراً خلف ضوء قنديلي، شبه سعيد وكأنني وصلت إلى ذروة آمالي، وشبه مذعور وكأنني

ضعت، وفي مقابل دهشتي، أصابتني لعنة لن تجعلني أصل إلى الأرض أبداً، ولن أرى الشمس ثانية، ولا النجوم التي لمحتها قبل برهة، ولا القمر الشاحب، لن أمتطي حصاني على المروج بعد اليوم، ولن أشمّ أعشابها، ولن أبصر إنساناً، ولن يسمعني أحد بعد الآن. صحت: «Hallo?»، ثم: «How are you?».

لم أسمع ولا حتى صدى صوتي. كلّ عشر خطوات كنت أترك علامةً من السناج. هناك، على الأرض، هكذا فكّرت، سيطلع الصبح قريباً. جرّبت مرّةً العثور على الصخرة التي يجب أن أتسلّقها لأخرج من الكهف (العلامة رقم واحد)، ولأرى ما إذا كانت علامات الطريق التي تركتها تكفي. كانت تكفي؛ وعندما وصلت إلى العلامة رقم واحد، كنت أتصبّب عرقاً، رغم أن الطقس كان في الحقيقة بارداً جدّاً بالطبع. كنت أرتعد برداً، وهو ما أجبرني على مواصلة الحركة، لكني كنت أيضاً أشعر بانزياح العبء عن صدري وكأنني قد حللت لغزاً عويصاً، ثم قمت بفحص الجانب الآخر، وتسلّقت الصخور مواصلاً الهبوط، ورغم كل الحذر فلم أكن واعياً بما أفعله (رغم ذلك لم أنسَ مرّة أن أصنع علامة بالسناج)، كان قلبي منقبضاً من صدى خطواتي المنزلقة الذي جعلني أعرف بالسمع مدى اتساع المكان، هذا الظلام في باطن الأرض - كم يخفي المزيد من الأسرار التي لم يكشفها إنسان من قبل! نعم، ألم يكن قنديلي هو أول ضوء سقط في هذا الكهف الأسطوري، أول ضوء أظهر كل هذه القاعات بأعمدتها اللامعة؟ بمجرد أن يتخلى شعاع قنديلي الصغير عن بقعة ما خلفي، تغرق في الظلام ثانية، وكأنها لم تكن موجودة قطّ، ولم يكن من الممكن التأكّد: هل الظلام هو ظلام الصخور أم ظلام الخواء؟ منذ آلاف السنين وقطرات المياه تنزل في صمت القبور. إلى أين أريد الذهاب؟ من المرجّح أنني أريد الوصول إلى تجويف صخري يمثّل نهاية الطريق، حيث ينتهي المجهول، وحيث لا

تعود النجوم، التي اختفت تحت حذائي، تتدحرج إلى أغوار عميقة. لكنني لم أصل إلى تلك النقطة.

فجأةً ظهر لي في ضوء قنديلي هيكلٌ عظميّ بشريّ. أطلقَ الهيكل العظمي خوفي من عقاله، فصرخت، بل عدوت هارباً في اللحظة الأولى، وتعثّرت، فانكسر زجاج قنديلي الذي أدمى وجهي. شلَّ جسدي وروحي شعورٌ بأنني وقعت في فخّ، ولن أخرج منه أبداً مثل سَلَفي هذا، وهكذا لم يبقَ أمامي خيار سوى الموت جوعاً أو شنقاً بالحبل الذي أحمله معه؛ تحتّم عليّ الجلوس، ورحت ألعق الدم الساخن الذي انساب على وجهي، كان يجب أن أستجمع كلّ قواي العقلية حتى لا أنظر إلى الهيكل العظمي وأعتبره، في الضوء المستدير الساقط من القنديل، هيكلي أنا. كنت قد نسيت أن أحسب حساب الوقت، وحساب مخزوني من الضوء، وعلى الأرجح كان ذلك الهيكل العظمي (هكذا أفكّر اليوم) هو منقذي. لم أعد أفكّر إلا في الخروج من الكهف. لا أعرف ما إذا كان هندياً أحمر أو إنساناً أبيض قد رأى كل هذه الكهوف قبلي؛ وفجأة شعرت بأنْ لا وقت لي لكي أبحث عن آثار تجيب عن سؤالي. وصلت إلى البوابة مع مقدم المساء. انطفأت الشمس خلف سحابة من الخفافيش المرفرفة، وعلى الجانب الآخر، على الأرض، بدا وكأن شيئاً لم يحدث. راح حصاني يصهل عطشاً. كنت منهكاً، فاستلقيت على الأرض الدافئة، وقد التصقت بي الدماء والرمال الرمادية. حاولت أن آكل شيئاً. لخوفي من أن أموت جوعاً مثل سلفي في الكهف السفلي، لم أكن قد تناولت قضمة واحدة من جرابي. وبالطبع كان طعم لحم الغنم الزنخ في فمي (كنت آنذاك قد سئمت لحم الغنم) مثل البلسم. ورغم أن أضواء الغروب كانت لا تزال تنير السماء، فقد تركت ضوء قنديلي مشتعلاً، وكأنني سأطفئ كل شيء، إذا انطفأ شعاع قنديلي، وسينطفئ عندئذٍ القمر أيضاً الذي بزغ لتوّه في الأفق الأرجواني،

وكذلك النجوم التي سطعت فوق المروج، بل سأطفئ حتى الشمس التي اختفت الآن خلف الجبال لتسطع فوق المحيط وفوق الصين.

كانوا يسبّونني ويلعنونني في المزرعة.

كان من الصعب أن أخبر جيم بما رأيته، بل كان ذلك، بمعلوماته البدائية عن الجيولوجيا، أمراً مستحيلاً. قلتُ له شارحاً: إنها صخور من الحجر الجيري، صخور قوية تتحمّل أثقالاً مدهشة. لم يثق جيم في تقديراتي، مع أن الفحوصات اللاحقة لتلك الكهوف (يصل إليها السياح هذه الأيام بالباص من كارلسباد، نيو مكسيكو) توصّلت إلى مقاييس مختلفة تماماً: القاعة الكبيرة يبلغ عرضها 600 قدم، وارتفاعها 350 قدماً، وطولها أكثر من كيلومتر، وهي تقع على عمق 700 قدم تحت سطح الأرض، من دون أن يكون هذا الكهف هو أعمق الكهوف. ذات يوم جفّ النهر السفلي الذي حفر طريقه في الجبال. لا أعرف سبب جفافه. لكنّه كان بالتأكيد نهراً عارماً، أضعاف نهر ريو غراندي الذي ينساب في وداعة عبر الوديان القريبة. لا أعلم، هل حاد النهر عن مساره بسبب المغارات والكهوف، وهبط إلى مناطق أكثر عمقاً، أم أن المناخ تغيّر ولم يعد النهر يتغذّى بالماء؟ على كل حال، لقد جفّ، هذا النهر السفلي، وبقيت فارغةً الكهوفُ التي حفرها خلال مئات الآلاف من السنين. الانهيارات وسّعت الكهوف، انهيارات حدثت عبر فترة طويلة، إلى أن تكوّنت طبقة تصلح لكي تكون سقفاً؛ لم يعد من الممكن رؤية ركام هذه الانهيارات، أما أماكن الانهيارات فقد غطّتها الأحجار التي كوّنتها قطرات المياه. ما حدث بعد ذلك: مياه الأمطار القليلة التي تسرّبت من السطح الأخضر عبر الشقوق والفتحات الصغيرة كانت تنزل قطرات في المغارات الفارغة ثم تتبخّر، وهكذا بدأ الجزء الثاني: تزيين الكهوف، وذلك بتكوُّن الحجر الجيري بعد تبخّر المياه. هكذا نشأت المقرنصات المتدلية من السقف، أي الأشكال

الحجرية التي كوّنتها المياه، وكذلك المقرنصات الصاعدة من الأرضية، وهي تكوينات ضخمة يقدّر الجيولوجيون أنها تكوّنت قبل خمسين أو ستين مليون سنة؛ وهذا ما نطلق عليه حقبة جيولوجية، وهي فترات يمكن للإنسان أن يحسبها، لكنّه لا يستطيع أن يدركها بحسّه الزمني، ولا أن يعيشها ولو في الخيال.

ليس من السهل على ما يبدو وصف ما تكوّن في تلك الكهوف وما لا يزال يتكوّن - قطرة قطرة، ما سقط كقطرات كان محيطات من المياه، وحياة الإنسان تكاد لا تكفي لكي يقيس النمو الحجري بالمليمترات. لم يصدّقني جيم، مع أنني لم أخبره آنذاك إلا عن الكهوف العلوية فحسب. كلّما تعمّق المرء تحت سطح الأرض، أصبحت التكوينات أكثر روعة وخيالاً، وأكثر ثراء، تلك التشكيلات التي تهبط من السقف كأنها حجاب من الألباستر، مائلة إلى البياض، أو إلى الصفار، تلمع في ضوء قنديلنا؛ لا، ليست حجاباً، إنها كاتدرائيات كاملة معلّقة في السقف، عمارة قوطية مقلوبة رأساً على عقب، ثم تبدو كأنها صخور عاجية وسط المياه، صامتة ومتحجّرة، وكأن الزمن توقف فجأة. ثم تظهر مرّة ثانية مثل أسنان سمكة قرش، مثل ثُريّا، لُحى، وفي أماكن أخرى تبدو مثل قاعات تزدحم بالرايات، متحف تاريخ تحرَّر من الزمن. يرى المرء الثنيات والتجعّدات مثلما يراها في أعمال الإغريق القدماء، وفي ما بينها ذيول التنانين القادمة من بلاد الشمال. كل الأشكال التي حلمتْ بها يوماً روح الإنسان، سنجدها هنا متحجّرة، مكرّرة ومحفوظة، على ما يبدو، للأبد. وكلّما هبط المرء إلى الأعمق، كان نموّها من أرضية الكهوف غزيراً وباذخاً، مثل الشُّعب المرجانية، يخطو المرء بينها وكأنه يسير في غابات أشجار التنّوب المغطاة بالثلوج، أو كأنه يرى بنايات صينية شبيهة بالأبراج، أو عفاريت، أو نافورة

ميتة من قصر فرساي، على حسب موقع المتأمل، أركاديا(*) غريبة يسكنها الأموات، مملكة هاديس في العالم السفلي، وكيف دخله أورفيوس؛ ولا يخلو المكان من سيدات متحجّرات، وقد ابتلعتهن الأحجبة كثيرة الثنايا، أحجبة من الكهرمان، سيدات لن يجدن خلاصهن أبداً في أيّ حبٍّ بشري. وفي بركة خضراء تزدهر الأشكال وكأنها زهور لوتس، لكنّها هي أيضاً، بالطبع، من الحجر، كل شيء حجر. ثم تنفتح مرّة بعد أخرى هوّات من ظلام لا تستطيع قناديل أن تضيئها. يلقي المرء بحجر إلى أسفل، ويقشعرّ جسده عندما يتوقف التدحرج عن إحداث أي صوت، عندما يعرف أن المتاهة لا نهاية لها، حتى لو تمكّن المرء من عبور الهاوية. رغم ذلك يشعر المرء بالانجذاب إلى مواصلة السير. منحنياً تحت حزمة من الرماح يدخل المرء غرفة الملكة التي لم تعِشْ قطّ؛ عرشها يقطر خيوطاً مرمرية، وفوقه سقف من مظلّة متوهّجة. كلّ هذا يمكن رؤيته هنا، ولا يخلو الأمر من نُصبٍ تذكارية للعمود العملاق المنتصب، في صفوف عديدة، وبينها يسير المرء وكأنه يسير على ثمار قرنبيط، ويتشبّث بأعناق رقيقة يمكن أن تكون لطائر أو لزجاجة؛ نباتات وحيوانات وحلم بشري، كلّها مجتمعة هنا وكأنها ترسانة من المجازات تحت الأرض. الكهف الأخير الذي وصلتُ إليه كان، من جديد، مختلفاً؛ الأشكال رقيقة، تابوت بزنابق خزفية، لا يحدس المرء وجود صخور هنا، فضلاً عن أن يراها، لا شيء سوى القطرات المتحجرة، ملساء وزجاجية، لا شيء سوى الزخارف التي تفوق أيّ زخارف عربية، نعم، إنها تنمو مرّة أخرى معاً، فوق وتحت، المقرنصات المتدلية من السقف تعانق تلك البارزة من الأرضية، أدغال من المرمر تلتهم نفسها، من دون صوت أو نفس مثل الكون، لكن من دون

(*) أركاديا هي إحدى المناطق الطبيعية في اليونان. (م).

الإفلات من الزمن. هنا أيضاً يرى المرء ثمرة الحقب الزمنية، تزدهر، ثم تتلاشى. الفَناء هنا أيضاً.

في المرة التالية ذهبتُ مع جيم.

ذهبنا معاً حتى يستطيع كلٌّ منّا أن يؤمّن الآخر، كما كانت معنا معدّات أفضل (قنديلان، وقود يكفي لمئة وعشرين ساعة، زادٌ لأسبوع تقريباً، لا سيما لحم الحملان، وأيضاً تفّاح و«شنابس»، إضافةً إلى ذلك ثلاثة حبال، وطباشير للعلامات البيضاء، وساعة كان من المهم أن تكون معنا)، هكذا أقدمنا على تجاوز الهيكل العظمي لسَلَفي بمسافة كبيرة، حتى وصلنا إلى ما يسمى «الغرفة ذات القبّة» حيث وقعت الحادثة. كان ذلك في الساعة السابعة والستين من مغامرتنا المشتركة، أي في اليوم الثالث، هذا إذا كانت قد مرّت علينا الأيام المعهودة على الأرض، لا ثوانٍ وحقبٌ زمنية، وكان ذلك غير بعيد عن الأماكن التي يُقدّم فيها للسياح اليوم وجبة الغداء، قبل أن يصعدوا ثانية إلى ضوء الشمس بالمصعد. انزلقت قدم جيم، ووجد نفسه على مبعدة أمتار في الأسفل، فتأوّه وعلى الفور وجّه اتهامه إليّ بأنني لم أؤمّنه بالحبل جيداً، لكن ذلك كان هراء، إذ إنني كنت أسير في المقدمة، ولهذا كانت تواجهني أخطار ليست أقلّ من صديقي، والتأمين كان مهمّته هو. كانت أعصابنا متوترة، ولهذا انهال سيلٌ من الشتائم على كلٍّ منّا، لكنّنا سرعان ما تصالحنا بالطبع. انكسرت قدم جيم اليسرى على الأرجح. ماذا نفعل؟ واسيته، وأعطيته كأساً من الشنابس، ورحت أفكّر في صمت في ما يمكن فعله. لن أقدر على حمل صديقي إلا إذا سرت دون أن أتسلّق شيئاً، أي دون الصعود إلى أعلى. تناولت أنا أيضاً بعض الشنابس وقلت: المهم ألّا تقلق يا جيم، ستخرج من هنا بأيّ طريقة! فحصنا قدمه، وعالجناها بالشنابس أيضاً؛ ربما لم تكن مكسورة، ربما تكون مجزوعة فحسب. رغم آلامه، ورغم عقلانيتي، ومن دون أن نتبادل كلمة، أصرّ جيم على أن

يرتدي على الفور حذاءه ذا الرقبة الطويلة. هل يخشى حقّاً أن أتخلّى عنه فجأة؟ لم ينل كلانا حتى الآن قسطاً من النوم، تقريباً، هذا ما شعرنا به بعد الاستراحة والشنابس. كانت خطتي هي العقل الخالص: إطفاء القنديلين لنوفّر الوقود، وأن ننام بضع ساعات، وبعد أن نكون تزوّدنا بقوة جديدة، نسير على طريق العودة الذي سيكون، بالتأكيد، مؤلماً بالنسبة إلى جيم، بل منهكاً. معنا زاد يكفي لثلاثة أيام، لكن الوضع أصعب في ما يخص الضوء. بدأ شجارنا الثاني عندما امتنع جيم عن إطفاء قنديله. كل ساعة من الوقود من الممكن أن تكون ثمينة! قلت له: سنضيع إذا لم تتعقّل. فقال جيم: أنت تريد أن تملأ جوفي بالشنابس، ثم تهرب عندما أستغرق في النوم، هذا هو التعقّل الكامل بالنسبة لك. ضحكت، فهذه الريبة لم أكن أستحقّها، لم أكن أستحقّها بعد. بعد عدّة ساعات، ولأننا لم ننم، بل كنّا نرتجف برداً، قلتُ: إذاً، هيا، فلنصعد! لفّ ذراعه حول عنقي، مقطّب الجبين وعازماً على تحمّل آلامه، راح يعرج، دون أن يتخفّف من أحماله: قنديله، وجراب الزاد، وحبله. تقدّمنا في طريقنا أفضل مما توقعنا؛ وحيثما لم نستطع السير أحدنا بجوار الآخر، كان جيم يتبعني على أربع؛ ونظراً لخوفه من أن أهرب، تركته في ما بعد يزحف دائماً أمامي. أثبتت العلامات الطباشيرية جدواها في معظم الأحيان؛ حدثت ارتباكات مع انسحابات معقّدة صاحبتْها ارتباكات جديدة، ولذلك تنفّسنا الصُّعداء عندما وصلنا بعد عدّة ساعات مرّة أخرى إلى العلامة المهجورة على الأقلّ، أدرك كلانا في صمت أن السير الأعرج والزحف لا يعنيان التسلّق بأيّ حالٍ من الأحوال.

لكنّنا كنّا (حسب معلوماتي اليوم) على عمق يبلغ 700 قدم تحت الأرض! أعترف بأنني خفت من اللحظة التي يظهر فيها عجزي عن سحب صديقي إلى أعلى فوق الصخور التي تكون أحياناً شبه رأسية؛ ماذا أفعل عندئذٍ؟ لا يزال لدينا ضوء لنحو خمسين ساعة، هذا إذا لم يكن جيم قد كذب

عليّ، فقد كانت الساعة معه. قلت له: «أرِني!»، ابتسم جيم ابتسامة صفراء وأراني الساعة من بعيد: «تفضّل!»، سألت نفسي ما إذا كان قد تلاعب في الساعة. لكن، بماذا سيستفيد؟! لن يضيء المرء الطريق بأكذوبة. بالطبع أثار شفقتي بقدمه؛ لكن قدمه لم تعد هي المهمة. كان المهم هو الزمن. هل كنت أعرف كم ساعة سأحتاج إليها حتى أصل وحدي إلى الأرض مرّة أخرى؟ منذ الحادثة لم نأكل شيئاً. اليوم يطلقون على المكان الذي شهد البقية الباقية من صداقتنا «صخرة الأبدية».

وفجأةً بكى جيم: «لن أخرج من هنا أبداً».

قلت له: «كلام فارغ، كلام فارغ».

بعد محاولةٍ أولى لسحب جيم بالحبل، ثم ثانية -كان لديه خوفٌ هائل من أنني سأتسلّق أمامه وعندما أصل إلى أعلى سأفك الحبل، وهو خوفٌ مفهوم ربما- أصبحنا لسنا فقط منهكين، بل مصابين كذلك. أصابني جرح في جبهتي. لا أعرف، هل سحب جيم الحبل فجأةً لخوفه من أن أفكّه، أم أنه انزلق على الأحجار الملساء كالزجاج، خصوصاً أنه لم يكن يستطيع الوقوف إلا على قدم واحدة؛ على كل حال فقد كانت تلك الهزّة كافية لكي تسحبني إلى الأعماق. نفى عن نفسه تماماً أن يكون فعل ذلك عامداً. لكن الأسوأ من الجرح الذي نزف فوق عيني اليسرى، كانت يديّ المتشقّقتين الداميتين. استولى عليّ اليأس تماماً. قال جيم: كلام فارغ، كلام فارغ. لكن تفاؤله ملأني بالريبة، رغم كل الإنهاك كنتُ يقظاً كحيوان متحفّز، في حين راح جيم يربط يديّ، بل وضحّى من أجل ذلك بكمّ قميصه. كان سلوكه معي مؤثّراً؛ لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً! كلٌّ منّا، حقّاً، كان يسلك على الدوام سلوكاً مؤثّراً، مرّة جيم، ومرّة أنا. وكأننا على أرجوحة. وفي تلك الأثناء كان الوقت يمضي. وعندما سألت في الصمت الرهيب السائد: كم

الساعة الآن؟ امتنع جيم عن أن يريني الساعة، ما اعتبرته علامة على أننا في صراع مفتوح، رغم المساعدة التي قدّمها كلٌّ منّا للآخر. قال جيم: لماذا تترصّدني هكذا؟ قلت له الشيء نفسه. وعندما لم أترصد حركاته لبرهة، بدأ خفيةً في افتراس آخر ما تبقى لديه من لحم الحملان. ما يكون في معدة المرء، هكذا فكّر بالتأكيد، لن يستطيع الآخر الاستيلاء عليه، وبالفعل، شيئاً فشيئاً حلّت الساعة التي لم يبقَ فيها في جراب كلٍّ منّا من اللحم غير ما يكفي لشخص واحد، للأقوى. قدم مكسورة، ويدان متشققتان، ماذا يعني ذلك؟ آلام. رغم ذلك بإمكان المتألّم أن يتسلّق، أو أن يحاول ذلك على الأقلّ، خصوصاً عندما لا يكون المرء وحده، وما دام بقواه، أن يصل إلى ضوء النهار، إلى الحياة. لكن: لا بدّ أن يحدث ذلك ما دام المرء بقواه، ولا يزال لديه وقود، لقنديل واحد على الأقلّ.

سألني جيم: «ماذا تنوي؟».

سألته: «ماذا ننتظر؟».

من ناحيتي، ورغم الجوع، فقد ادّخرت حصتي من لحم الحملان، وهو تكتيك قد يمكّنني من انتظار أن يشعر هو بالإنهاك من الجوع، لكي أكون الأقوى، في حين كنت أخشى أن يكون جيم -واللحم في بطنه- أقوى مني؛ وهو تكتيك أجبرني على ألّا أغفو تحت أيّ ظرف من الظروف، وإلا سلبني ما معي وأصبحت أنا الخاسر. وهكذا، لم أعلم كم ساعة ظلَّ كلٌّ منّا يرقب الآخر، وذلك بالثرثرة عن خططنا عندما نصل إلى أعلى، إلى الأرض الخضراء؛ كانت المدينة تجتذب جيم، لا سيّما نيويورك، والنساء اللاتي افتقدهن طويلاً في مزرعتنا، أما أنا فقد جذبتني (في تلك الساعات) حياة البستاني، وبقدر الإمكان في منطقة خصبة. ماذا نفعل في هذه الظلمة المهجورة؟! ما زال قنديلانا مشتعلين؛ جيم لديه حقّ: إنه تبذير،

تبذير أحمق. لماذا لا يطفئ قنديله؟ لأنه يرتاب فيّ، لأنه -رغم كونه لا يتوقف عن الحديث عن الصداقة- يشكّ جديّاً في أنني قد أتركه في الظلمة المميتة، رغم أنه كان صديقي الوحيد آنذاك. سألته عن آلامه، عن جوعه، عن عطشه.

جيم! قال لي -في تلك الفترة كان يناديني باسم جيم أيضاً، وهو اسمٌ شائع للغاية في أميركا- جيم! قال لي: على كلٍّ منّا ألّا يتخلّى عن الآخر، أتفهم؟ لا بدّ أن نتحلّى بالعقل. قلتُ له: إذاً أطفئ قنديلك! قال لي: لا وقت لدينا يا جيم، لا بدّ أن ننطلق، لا بدّ أن نحاول. بعد خمس ساعات، على وجه التقريب، كنّا قد وصلنا إلى الكهف التالي، لكننا كنّا في حالة من الإنهاك أرغمتنا على الاستلقاء. وضعت تحت وجهي جراب الزاد بما يحتويه من آخر قطعة لحم، ولففت حزام الجراب حول يدي اليمني، حتى أستيقظ إذا حاول جيم الاقتراب من اللحم. عندما استيقظت، كان قد حطّم قنديلي، كي يضع حدّاً، كما قال، لهذا التبذير الأحمق. وفي الوقت ذاته طلب مني نصف حصتي من اللحم؛ راح يشتكي: غير معقول أن تتركني أموت جوعاً! أضاء قنديلنا الوحيد جداراً لامعاً أمامنا كاد يكون رأسياً: الموضع الشائك الذي تغلّبت عليه مرّة وحدي. كان جيم قد أُنهك من الزحف، فقلت له بصراحة ما فكّرت فيه: جيم، أعطِني القنديل، وسأترك لك آخر لقيماتي من اللحم، وسأحاول أن أتسلّق الجدار وحدي. فمن العبث أن أتعلّق بحبلٍ مع شخص منهَك، أنا بيدين متشقّقتين، وهو بقدم مكسورة، وذلك في موضع ينبغي أن يتسلّقه المرء كالقرد. قلت: إذا نجحت يا جيم، فستنجو أنت أيضاً، عندئذٍ سنأتي وننقذك بالطبع. قال لي: وإذا سقطت يا جيم مع قنديلي؟ صرختُ فيه: وأنت يا جيم، إذا انزلقت بقدمك المكسورة، فسأسقط معك مرّة أخرى، يا إلهي في السموات، ماذا ستستفيد عندما يرقد كلانا في الأسفل؟! لكنّه امتنع عن إعطائي القنديل.

قال لي: جيم! غير معقول أن تتركني قابعاً في هذه الظلمة، لا تستطيع أن تفعل ذلك! كما يحدث دائماً إذا أعلن أحدٌ أنانيّته الصريحة، جاء الآخر بحجج أخلاقية ملعونة. أعلم أن هذا تماماً ما أفعله. قلت له: جيم! لا تستطيع أن تطلب مني أن أموت جوعاً يا جيم، لأنك كسرت قدمك ولا تستطيع التسلّق، لا يجوز لك أن تطلب مني هذا يا جيم، إذا كنتَ صديقي!

مرّة أخرى، ولآخر مرّة، تغلّبت علينا العاطفة، وراح كلٌّ منّا يذكّر الآخر بالوقت الذي قضيناه معاً في المزرعة، وبمختلف المجاملات التي قدّمها كلٌّ منّا للآخر، حقّاً، كانت صداقتنا ترقى فوق أيّ شكّ، وفي تلك الأشهر التي عشتها راعياً للبقر تبادلت مع جيم مشاعر رقيقة، صحيح أنها ليست نادرة بين الرجال، لكنّها كانت جديدة تماماً على جيم وعليّ. والآن أيضاً، أثناء إمساكه بالقنديل، مُحكِماً قبضته عليه حتى لا أشدّه منه، راحت يده الأخرى، اليد اليسرى تزيح الشعر من فوق جرحي الدامي، وكنا على وشك أن يحتضن أحدنا الأخر، وأن نبكي من قلبينا؛ لو لم يكن خلافنا يدور حول القنديل. قدّرتُ مخزوننا من الضوء بست أو سبع ساعات؛ أما الصعود إلى الكهف الأعلى، حيث قد يساعدنا في أحسن الأحوال ضوء النهار البعيد فيستغرق حسب خبرتي ستّ أو سبع ساعات أيضاً، من دون أن نعمل حساب أننا قد نضلّ الطريق. كان لا بدّ من اتخاذ قرار، على الفور، هنا أمام هذا الجدار. لمَ الثرثرة! كلٌّ منّا يريد الحياة، وبشرف واستقامة إن أمكن؛ ولكن إذا أراد الآخر أن يقتلني بسبب استقامتي؟ قلت مرّة ثانية: أعطني القنديل يا جيم، وسأعطيك آخر ما معي من لحم. ضحك جيم كما لم أسمعه يضحك من قبل، حتى إن ضحكته أرعبتني.

جيم! سألته وقد استولى الخوف علي: ماذا تنوي؟ من دون أن ينطق بكلمة، فالأمر كان واضحاً بما فيه الكفاية، ردّ علي بأفعاله. راح يعرج

بقدمه المكسورة بأسرع ما يمكنه، سائراً إلى الجدار، على ما يبدو مصمّماً على تبديل الأدوار، أن يحتفظ هو بالقنديل الوحيد، وأن يحاول الانتصار على الجدار الخطير، وفي المقابل يترك لي لحم الحملان. جيم! قلت له وأنا أمسك به أمام الجدار، أمام هذا المنحدر الصخري الأخضر الذي كوّنته قطراتُ المياه، حيث راح يبحث عن شيء يمسك به، وقد عثر على العلامة الطباشيرية البيضاء، العلامة التي وضعناها للخروج. قال لي: دعني! رحت أهذي وقد تملّكني الخوف: إذا كنت صديقي في يوم من الأيام... إلخ. وفي هذه اللحظة، وعلى ضوء القنديل المتأرجح الذي وضعه جيم بذراع ممدودة حتى آخرها على الجانب الآخر، حتى لا أصل إليه - في هذه اللحظة وقع بصرنا مرّة أخرى على الهيكل العظمي لسلفنا، هذا الهيكل لإنسان مقوّس قضى في هذا الموضع كحيوان، وحده تماماً (أم أنه كان مع شخص آخر أيضاً؟)، في هذه اللحظة التي لم يعد فيها شيء يستطيع أن يسيطر على وحشيّتنا الصامتة والمكبوتة منذ ساعات، لم يعد أمامنا بالطبع سوى شيء واحد، شيء لا مهرب منه - التعارك بالأيدي؛ المصارعة القاتلة للصديقين، فظيعة، لكنّها قصيرة، فمَن تنزلق قدمه، يلقى حتفه، ويغرق في هوّة الظلام، ويتحطّم، ويخرس إلى الأبد.

«والآن» -قلت لكنوبل، حارسي والمستمع إليّ، وأنا أقضم نهاية سيجار يوم الأحد- «هل أعجبتك حكايتي؟!».

راح كنوبل يحملق فيّ من دون أن ينطق.

سألته: «هل معك كبريت؟».

ولا حتى سمع سؤالي.

بعد أن سحبت الأنفاس الأولى من السيجار قلتُ: «لا أعرف مَن مِن

الصديقين بدأ الصراع القاتل في الحقيقة، الأكثر صدقاً على الأرجح، على كلٍّ، فلم يصعد من الكهف سوى واحد، هو الأقوى على الأرجح. اسمه معروف، حتى إنه كُتب بحروف معدنية على حجرٍ تذكاري. جيم وايت. وفي مطبوعة تباع اليوم للسيّاح ثمّة معلومات أدقّ:

James Larkin (Jim) White, a young cowboy who made his first entry trip in 1901(*).

أما صديقه، الذي يُذكر على كل حال باعتباره مرافقاً له، فنقرأ التالي فحسب: a Mexican boy(**). فُقد اسمه، وأعتقد أن هذا المفقود لن يظهر ثانية!».

انتابت كنوبل بعض الحيرة على ما يبدو. سألني: «وهل أنت إذاً جيم وايت؟».

ضحكتُ قائلاً: «لا، هذا بالتحديد لا! لكن، أترى، ما عايشته؟! كان الشيء نفسه تماماً... تماماً».

ثاني عصرية أقضيها مع يوليكا بعد دفع ضمانة مالية.

الانطباع الحيوي الذي تكوّن لدى لقائي بها مجدّداً: ليست هي! هذه المرأة لا علاقة لها مطلقاً بالحكاية الجدباء التي دوّنتُ خطوطها العريضة في الأيام الأخيرة! امرأتان مختلفتان كل الاختلاف يحملان اسم يوليكا! ليست هذه حكايتها مطلقاً!... إلخ.

سألتني عدّة مرّات: «ماذا بك؟ لماذا تنظر إليّ دائماً هكذا؟!».

اليوم هي على سجيّتها أكثر مني. أبهجها اقتراحي بأن نستأجر قارباً

(*) أي: جيمي لاركن (جيم) وايت، راعي بقر شابّ قام بأولى رحلاته لدخول الكهف في عام 1901. (م).

(**) أي: صبي مكسيكي. (م).

شراعياً. سرنا إلى هناك وذراعها في ذراعي. لا أعرف على الإطلاق عن أيّ شيء أحدّثها، ولهذا كنت سعيداً بانشغالي بالشراع الكتّاني والدفّة، في حين أن السيدة يوليكا شتيلر تشودي -التي ارتدت اليوم فستاناً نهارياً في لون الموز الأصفر، وبعد تخوّفها من القفزة إلى القارب المتأرجح، وبعد القلق الذي ساورها بشأن المكان الآمن الذي ستترك فيه حقيبة يدها البيضاء وقبعتها الباريسية الشبيهة بالفراشة- جلست على المقعد الآخر بكسلٍ ساحر، مستندة على ذراعيها المفرودتين. على يوليكا أن تغيّر مقعدها فحسب، عندما أنحرفُ بالقارب. عندئذٍ تترك نفسها مرّة أخرى للدعة والاسترخاء، وللريح التي تداعب شعرها الناري. كم هي مختلفة! كنّا لأول مرّة وحدنا تقريباً عندما وصلنا إلى وسط البحيرة ذات الضفاف التي تشبه الهضاب، القريبة دوماً، والتي أُقيمت عليها كلّها المنازل دون ثغرة تقريباً، تلك الضفاف التي تلاشت في الخريف الساحر، حتى إن المرء يشعر بأنه في فضاء رحب. هل هي واعية لما تفعله؟ على كل حال، ليس علينا أن نتوقع هنا أن يدخل علينا فجأة حارسي، كنوبل المطيع، بمنفضة سجائر.

... في ما بعد (في الزنزانة مرّة أخرى) أحاول من دون جدوى أن أرى وجهها الضاحك؛ كل ما أتذكّره جيّداً هو أنني أرغب في أن أمدّ يدي لألمسه في كلّ مرّة عندما يضحك، وكأنه هبة سماوية لا يمكن الإمساك بها باليد، بل على المرء أن يؤمن بها فحسب، ثم ينتابني شعورٌ يقظ، موضوعي: ليس ثمّة شيء، لم ينصهر في هذه الضحكة! لا بدّ أن يوليكا تشعر الشعور نفسه. في سياقٍ آخر نسيته، قالت لي:

- «أترى، عندما أكون وحيدة تماماً، وأتذكّر كل شيء، فإن السيِّئ في الأمر هو أن المرء لا يستطيع الضحك بمفرده على ذلك، أو أن الضحك يكون ضحكاً شرّيراً، مريراً، لدرجة أن المرء ينتحب في ما بعد بسبب هذه الأشياء ذاتها».

ولأن الريح ظلّت فترة طويلة ساكنة، تعرّينا وقرّرنا، بلا تفكيرٍ طويل، أن نقفز برؤوسنا في الماء الأخضر اللامع في الشمس الذي كان بارداً إلى حدّ كبير، ثم سبحنا حول القارب العائم بلا دفّة، ورحنا نتقلّب ونتخبّط في المياه كالأطفال. بعد أن عدنا إلى القارب، حيث تمدّدنا في الشمس الرحيمة وقد اقشعرّ جلدانا وتساقطت منهما قطرات المياه، قالت لي: «أصبحتَ أنحف!».

أنحف ممّن؟ حتى لا أفسد الأجواء الجميلة لم أُرجع ملاحظتها إلى شتيلر المفقود، بل إلى السيد الباريسي الذي ما زالت تتكتّم عليه، الذي، للغرابة، لا يثير غيرتي مثل شتيلر. لكن البواخر كانت تبحر في كلّ مكان في البحيرة، لذا كان علينا أن نرتدي ملابسنا قبل أن تجفّ بشرتانا تماماً. ونظراً لتغيُّر اتجاه الريح، تحتّم علينا أيضاً أن نبحر خلال الرجوع عكس الريح، ولهذا كدت أصل إلى السجن متأخراً. كان على يوليكا أن توصلني بتاكسي... والآن (في المساء على فراشي الخشبي) أرى حبّات الماء المتلألئة على ذراعيها، وعلى جبهتها المرمرية الشاحبة، ثم خصلات شعرها المبلول على عنقها، وكأنها تمثال عتيق.

ملحوظة:

تريد قريباً أن تذهب إلى باريس لمدة أسبوع تقريباً، من أجل مدرسة الباليه؛ سأفتقدها!

حلمتُ:

أرتدي الزيّ العسكري الخاص بشتيلر، وكذلك الخوذة، وأحمل البندقيّة. أسمع أوامر: سَريّة، انتباه! البندقيّة على الكتف! إلى الأمام، سر!

الجو حارّ، الأرضية صخرية ووعرة للغاية. والحرب قد قامت. في حلمي أعرف ذلك بدقّة تامّة: التاريخ هو 3/ 9/ 1939. لكنني لا أشعر بذلك على أنه ماضٍ، تماماً كما لا يشعر المرء بانقضاء الزمن عندما يحلم بأنه يجلس ثانية في مقعد المدرسة. أسمع خلفي صوتاً، صوتاً يصرخ من العصبية. لم يسر أحدنا على الإيقاع المضبوط. لماذا لا يستأذن هذا الرجل ويخرج من الصف؟ نقف منتصبي القامة. وجه نقيب شاحب من الغضب. أنت! يصيح مشيراً إليّ، وأسمع نفسي أقول: «المجنّد شتيلر». ولا حتى في الحلم أشعر بنفسي مثل المجنّد شتيلر، لكنني أنطق بهذه الصفة عالياً. المجنّد شتيلر. ترتعش شفتا النقيب. يقول إن هناك وظائف خاصة جدّاً في الحرب لمن هو على شاكلتي؛ مفهوم؟ وعندما يجدّ الجدّ، سيدخل معي (المجنّد شتيلر) مباشرة إلى الموضوع، من دون لفٍّ أو دوران؛ مفهوم؟ أقف منتصب القامة، البندقيّة على الكتف، فهمت أن هذا النقيب السويسري -وهذا من حقّه- يكره لسبب ما شتيلر، وأنه يستطيع قتلي بسلطة الطاعة التي أقسمنا عليه للوطن؛ من دون لفّ أو دوران - بالأمر...

ملحوظة:

عندما ذكرت للمحامي هذا الحلم عرضاً، بدا عليه الاستياء الظاهر. نتحدّث عن الجيش. لا يرضيه أنني أعترف بوجوده كشرٍّ لا بدّ منه من أجل السلام (السلام بين محاميّ وبيني). يبدو أن الجيش في سويسرا من المقدّسات، ومحاميّ لا يستطيع أن يطيق أحداً يتحدّث عنه بصورة سيّئة. في الحقيقة، هكذا يدّعي، لا يمكن أبداً أن يصدر تهديدٌ غير لائق، بل وإجرامي كهذا، من ضابط سويسري. وأضاف بفخر ضابط سويسري، لعلّه برتبة رائد: على ضمانتي! وكرّر عدّة مرّات: على ضمانتي!

ردَّ عليّ السيد فيلفريد شتيلر، شقيق المفقود -للأسف لم أقم مرّة أخرى بنسخ الردّ!- كان تقريباً على النحو التالي: إن رسالتك الحارّة لشقيقك المفقود قد أثّرت فيّ للغاية، عزيزي السيد شتيلر، وقد ذكّرتني بأمي ولذلك انسابت دموعي أيضاً، وألتمس منك العذر لأنني لم أكتب إليك طوال هذه الفترة. ما حياتي إلا سلسلة من التقصير! ولا يغضبني أنك لم تسألني عن ذلك، على العكس، إنني أشكرك على الدعوة الأخوية أيضاً التي تذكّرني بأخي، وبأنني كنت مقصّراً في حقِّه أيضاً. نادراً ما كنّا نتشاجر، ولم نختلف لفترة طويلة قطّ، ولم نختلف حول شيء مهم قطّ، لأننا لم يكن لدينا شيء مهمّ يجمعنا، هكذا بدا لي. كنّا نقوم بتمشيات طويلة، لأننا أخوان فحسب، تمشيات مررنا خلالها بتجارب مسالمة في الخيمة وبساعات قضيناها حول النار من دون أن نتبادل كلمة. لماذا قصّرت في حقّ أخي أيضاً؟ يجب أن يفهم الأصدقاء بعضهم بعضاً لكي يكونوا أصدقاء بحقّ؛ أما الإخوة فهم إخوة في كلّ حال، ولديك الحقّ أنه ليس من المهم مطلقاً، مَن أنا، إذا كنت أخاً حقيقياً! ومن هذا المنطلق...

أحدث خبر: جواز السفر الأميركي الذي سافرت به حول نصف الكرة الأرضية، هو جواز مزوّر. ألم أقل ذلك قبل أسابيع لمحاميّ؟ يبدو أنني لا أستطيع التحدّث عن نفسي. كلّ كلمة هي خطأ وصواب، هذا هو جوهر الكلمة، ومن يريد أن يصدّق دائماً كل شيء، أو لا يصدّق شيئاً...

المدّعي العام الذي ينظر في قضيتي (رجع أمس من بونتريسينا) لا يهتمّ هو أيضاً بالمكسيك، لكنّه يهتمّ بشدّة بنيويورك، بين حين وآخر يميل إلى التحدّث بنبرة غير رسمية، نبرة عائلية. يقول: «زوجتي كانت تعشق نيويورك».

- «فعلاً؟!».

- «كانت تسكن في "ريفرسايد درايف" في مانهاتن».

- «آه!».

- «هل تعرف أين يقع؟».

- «طبعاً».

- «عند شارع 108».

- «آه، بالقرب من جامعة كولومبيا».

- «تماماً!».

- «منطقة جميلة جداً، تطلّ على نهر هدسون، أعرف...».

إلى آخره.

في البداية ظهر الأمر وكأنه يريد بمثل هذه الثرثرة أن يختبر فحسب ما إذا كنت حقّاً أعرف نيويورك، وما إذا كنت عشت فيها. وها قد أوشكت على النجاح في الاختبار. تايمز سكوير، فيفث أفنيو، روكفولر سنتر، برودواي، سنترال بارك، باتري بارك: هذه هي النقاط التي زارها المدّعي العام في الأسبوع الذي قضاه في نيويورك قبل خمسة أعوام.

سألني: «هل تعرف "رينبو بار"؟».

أومئ، وأتركه يتحدّث بحماسة عنه، ولأنني أقدّر الرجال الذين يستطيعون الحديث بحماسة، لا أصحّح كلامه؛ فبار «الرينبو» مثلاً، ومن الواضح أن المدّعي العام قضى هناك أمسية لا تُنسى، ليس أعلى بار في مانهاتن، بناية «إمباير ستيت» أعلى، لكنني لا أقاطعه. بالنسبة للمدّعي العام، هذا ما ألاحظه، كان «رينبو بار» ذروة من ذرا حياته؛ فهناك تقابل مع زوجته بعد سنوات من الانفصال. من ناحيتي أسأله: «وهل تعرف باوري؟».

- «أين يقع؟».

- «ثيرد أفنيو».

- «لا».

«باوري»، وهو اسم هولندي قديم، هو حيّ سكني لم تعد حتى الشرطة تذهب إليه، منطقة الضائعين، رغم أنها تقع في قلب مانهاتن؛ يدور المرء حول الركن الرخامي لأحد قصور العدالة، قصر حقّاً، وبعد مئة خطوة يصل المرء إلى منطقة الضائعين والسكارى والفاشلين والذين انحدرت بهم الأحوال، من كل نوع وشكل، أناس محتهم الحياة نفسها من الوجود. المرء ليس في حاجة إلى سجن لهم؛ من يصل إلى «باوري» لن يخرج منها أبداً. في الصيف يستلقون بجانب الرصيف، وعلى الشوارع المبلّطة بالأحجار الصغيرة؛ على المرء عندئذٍ، وحتى يستطيع التقدّم في السير، أن يتحرّك مثل حصان على رقعة شطرنج. في الشتاء يقبعون في الداخل حول أجهزة التدفئة الحديدية، يغفون، ويتشاجرون، ويعلو شخيرهم، ويحكون دائماً الحكايات نفسها، أو يضربون بعضهم بعضاً. تفوح في المكان رائحة الخمر الرخيص والكيروسين، والأقدام العفنة.

ذات مرّة رأيت مخلوقاً لن أنساه أبداً. كنت أسير في الثالثة فجراً في طريقي المعتاد إلى البيت عائداً من «بلاكي»؛ كان بالنسبة إليّ طريقاً مختصراً، وفي ذلك الوقت لم يعد هناك أحد في الشارع، هكذا ظننت، خصوصاً في هذا البرد القارس. على الجسر صدر دويّ أثناء مرور القطار العلوي المتهالك، بشبابيكه التي تفيض ضوءاً دافئاً؛ وفي الشارع رفعت الريح الدوّارة هلاهيل رثّة قذرة، في حين راحت الكلاب تتشمّم ما حولها. عندما رأيته آتياً، اختبأتُ خلف أحد الأعمدة الحديدية التي يسير عليها القطار العلوي. يضع على رأسه قبعة كالبطيخة، وكأنه دبلوماسي أو عريس أو أحد أفراد عصابة؛ وجهٌ دامٍ. يرتدي أيضاً رباط عنق، وقميصاً

أبيض، وجاكت أسود، ثم لا شيء غير ذلك، نصفه السفلي كان عارياً تماماً. ما زالت ساقاه النحيلتان، المتهدلتان، بلونهما الرمادي البنفسجي، ترتديان حذاء وجوربين مزوّدين بحمّالتين. كان واضحاً أنه مخمور. راح يسبّ ويلعن، ثم سقط، وزحف على الحجارة التي غطّاها الجليد؛ مرقت سيارة بأضوائها الكاشفة، الحمد لله، دون أن تدهسه. ثم وجد أخيراً سرواله، وحاول بالاستناد على عمود الإنارة أن يدخل في سرواله الأسود، لكن قدمه انزلقت، ورقد ثانية بالعرض على الحجارة التي غطّاها الجليد. بالطبع فكّرت في أن أساعده، لكنني خفت أن أتورّط في شيء ما لا أستطيع مواجهته. في تلك الأثناء تمكّن الكهل من إدخال ساقه اليسرى في السروال؛ تمنّيت له كلّ الخير، وأردت أن أبتعد عنه. من مكانٍ ما سمعت أصواتاً، دون أن أرى رجالاً، أصوات تنمّ عن كراهية مستهزئة كانت بالتأكيد تقصد هذا التعيس. انسحبت على الفور إلى ظلال العمود الحديدي الذي اختبأت خلفه؛ وفوقي سمعت هدير القطار. أثناء محاولته إدخال الساق الثانية في السروال، انزلق ثانية، وبأنفاس مُحشرجة رقد في الشارع، ونصفه السفلي عارياً لا يزال. تدحرجت قبعته مع الريح. لم يقاوم حتى عندما راح كلبٌ يتشمّمه. سرت مرتعد الأوصال، ناوياً أن أنتقل من عمود حديدي إلى آخر. على الجانب الآخر من الشارع مرَّ أناس لم يقدّموا هم أيضاً المساعدة، فالناس يعرفون ماذا سيجنون من وراء ذلك! وفي النهاية على السامري الصالح، على الإنسان الخيّر العابر أن يبرهن على أنه ليس القاتل، وأن يثبت وجوده في مكان آخر وقت وقوع الجريمة، إلى آخره. لم يكن بمقدوري أن أفعل ذلك مع هذا الشخص الأسود! بعد مربّع سكني واحد سأستطيع الصعود إلى القطار العلوي، وخلال عشرين دقيقة سأكون في المنزل حيث سيدقّ الأسود الجرس بكلّ تأكيد لكي يتمنّى لي ليلة طيبة. عن بعد لم أعد أراه سوى كومة سوداء على الأرض،

تقريباً الكيان الوحيد الذي لم تتلاعب به الرياح. فجأة وقف بجانبي رجل ووضع يده على كتفي؛ ذقن نابتة، وصلعة، وعينان حمراوان تشبهان عيون السمك، وجه ليس منفراً بشكل عام؛ طلب مني سيجارة، وكبريتاً. كان راضياً بما حصل عليه، وتركني وواصل سيره في الشارع، ثم ألقى نظرة على المتكوّم على الحجارة، واقترب منه، كما لم أجرؤ على أن أفعل، ثم واصل سيره. في الأعلى دوّى القطار العلوي مرّة أخرى. وفي النهاية تجرّأت أنا أيضاً وسرت إلى السكران الذي لم يعد يتحرّك. كان يرقد على بطنه، وقد أمسى لونه بنفسجياً من البرد، وكان الدم يسيل حتى من خلال شعره الخفيف. رأيت الجرح في مؤخر رأسه، وهززته، ورفعت ذراعه؛ كان قد مات. أفزعني وجهه حتى إنني عدوتُ، ولم أبلغ عن شيء، رغم أنه كان والدي.

- «والدك؟».

ابتسم المدّعي العام. لم يصدّقني، هكذا يبدو، كما لم يصدّق أنني قتلت زوجتي. سألني وكأنه لم يسمعني جيداً: «والدك؟!».

- «والد زوجتي، على كل حال».

حتى عندما لا يصدّقني، فإن المدّعي العام ألطف بكثير من محاميّ؛ فهو لا يغضب عندما لا يتطابق دائماً مفهومانا عن الحقيقة. يدقّ على علبة سجائره لاستخراج سيجارة، ثم يقول: «أحياء كهذه لا تعرفها زوجتي بالطبع».

يأتي دائماً على ذكر زوجته.

- «هل تعرف "فاير أيلاند"؟».

أجيبه: «نعم، لماذا؟».

- «تقول زوجتي إنها جميلة جداً. عموماً المنطقة المحيطة بنيويورك».

- «جميلة جدّاً».

يضيف شارحاً: «للأسف لم تكن لدى زوجتي سيارة خاصة، لكنّها كانت كثيراً ما تنطلق في رحلات بالسيارة، حسب ما أعرف مع أصدقاء».

- «هذا شيء ضروري».

- «هل كان لديك سيارة خاصة؟».

«أنا؟» -أقول ضاحكاً- «لا».

يبدو أن هذه الإجابة قد أسعدته على نحو من الأنحاء، وهدّأته، وشجّعته، وحرّرته من فكرة لا أستطيع أن أخمّنها بدقّة.

قلت له مؤكّداً: «لا، لم يكن عندي سيارة خاصة في يوم من الأيام، طوال ذلك الصيف كنت أقود سيارة "ديك" المسكين الذي رقد مريضاً».

وعلى ما يبدو لم تسعده هذه الإجابة على نحو من الأنحاء. أشعر أن رحلات نهاية الأسبوع وحدها هي التي تثير اهتمامه. نيويورك في الصيف لا تُحتمل، من دون شكّ، وكلّ شخص لديه القدرة على ذلك، يخرج منها بمجرّد أن يتوفّر لديه وقت. مئات الآلاف من السيارات تسير في أيام الآحاد مثلاً فوق جسر واشنطن لتخرج من المدينة، في ثلاث حارات مرورية، جيش من سكّان المدن الذين يبحثون بإلحاح عن الطبيعة. مع أن الطبيعة تتوافر بكثرة على كلا الضفتين؛ بحيرات، غابات بأشجار خضراء، غابات لم تمتد إليها يد التشذيب، بل تُرِكت للنمو الطبيعي، ثم حقول ممتدة دون بيت واحد، بهجة للعين، نعم، إنه الفردوس بعينه؛ ولكن: المرء يمرّ بها فحسب بالسيارة؛ فالمرء لا يستطيع التوقف ببساطة في هذا الشريط المنساب من السيارات اللامعة -التي تلتزم جميعاً بالسرعة المحدّدة بين أربعين وستين ميلاً- لكي يستنشق عبير كيزان الصنوبر. من تتعطّل سيارته فقط هو الذي يُسمح له بالسير على النجيلة الجانبية، ويجب عليه، بل ينبغي

عليه أن يفعل ذلك حتى لا يزعج الشريط المنساب ويتسبّب في فوضى، أما من يفعل ذلك، من دون أن يكون لديه عطل في سيارته، فإنه يحصل على مخالفة. مواصلة السير إذاً، لا شيء سوى مواصلة السير! وبالطبع فإن الشوارع في أكمل صورة، في منحنيات رزينة تنساب السيارة عبر الهضاب الرحبة الوادعة المفعمة بالوحدة الخضراء، آه، المرء ليس في حاجة إلى شيء غير أن يستطيع النزول من السيارة، وعندئذٍ سيجد ما لم يكن يحلم به جان جاك روسو.

ثمة سبل للخروج من الطريق السريع بالتأكيد، سبل تم التفكير فيها بذكاء بالغ، حتى يستطيع المرء من دون أن يعرّض نفسه للموت، ومن دون تقاطع، ومن دون استخدام آلة التنبيه، أن يسلك طريقاً فرعياً عبر منحنيات سخيّة تشبه الزخارف العربية ليجد نفسه في شارع جانبي يقود إلى منطقة سكنية أو صناعية، أو إلى أحد المطارات. لكننا لا نريد سوى الطبيعة البسيطة. إذاً، العودة إلى الشريط المنساب! بعد ساعتين أو ثلاث ساعات تستولي عليّ العصبية. ولأن الجميع ينطلق بالسيارة، سيارة إلى جانب سيارة، فمن المفترض أن هناك هدفاً يكافئ المرء في وقت ما على كلّ هذا السفر. كما قلت: الطبيعة دائماً دانية القطاف، لكن القطاف مستحيل، والاقتراب مستحيل؛ إنها تمرّ بك مثل فيلمٍ ملوّن تظهر فيه غابة وبحيرة وأعواد بوص. سيارة من طراز «ناش» تسير بجانبنا وعليها ميكروفون يصرخ: ريبورتاج عن البيسبول. نحاول أن نسرع حتى نغيّر هذا الجار، وأخيراً ننجح في ذلك؛ الآن بجوارنا «فورد» ونسمع السيمفونية السابعة لبيتهوفن، وهو شيء لم نكن أيضاً نبحث عنه في تلك اللحظة. إنني أودّ أن أعلم إلى أين سيؤدي بنا كلّ هذا السفر. هل من الممكن أن يظلّوا يقودون سيارتهم هكذا طوال يوم الأحد؟ هذا ممكن.

بعد نحو ثلاث ساعات، وحتى نستطيع النزول من السيارة فحسب،

نسلك الطريق الموصل إلى ما يسمّونه Picnic-Camp. يدفع المرء تذكرة دخول متواضعة لكي يدخل إلى الطبيعة التي تتكوّن من بحيرة خلّابة ومرج واسع يلعبون فيه بيسبول، وغابة مليئة بأشجار رائعة؛ بالمناسبة، المكان يكتظّ بالسيارات المتلألئة، وبينها أراجيح قماشية معلّقة، وموائد، ومكبّرات صوت، وأماكن لإشعال النار. تشمل تذكرة الدخول استخدام كلّ هذا. أرى في إحدى السيارات امرأة شابة تقرأ مجلّة: How to enjoy life؛ وهي ليست الوحيدة بالمناسبة التي تفضّل البقاء في السيارة المريحة. المعسكر واسع جدّاً؛ مع مرور الوقت نجد منحدراً مائلاً بعض الشيء يخلو من السيارات، ومن الناس أيضاً؛ فالناس لا يذهبون إلى الأماكن التي لا تستطيع السيارة الوصول إليها. في كلّ مكان يرى الزائر أن ثمن تذكرة الدخول الصغير كان في محلّه: سلال للمهملات في الغابة، آبار مياه صالحة للشرب، أراجيح للأطفال؛ بل وفيها أيضاً مشرفة على الأطفال. مبنى فيه كوكاكولا ومراحيض، مبنى على شكل مربّع رومانسي، يشبه دورة مياه عمومية. مركز للإسعافات الأولية في حالة ما إذا قطع أحدٌ إصبعه، وتليفون كي يظلّ المرء دائماً على اتصال بالمدينة، ومحطة وقود مثالية، كل شيء موجود، وكلّ شيء في الطبيعة الأصيلة التي ما زالت بكراً، وفي فضاء أرض لم يسِر عليها أحد. لقد حاولنا أن نسير على هذه الأرض؛ هذا ممكن، لكن الأمر ليس سهلاً، لأنها، ببساطة، تخلو من دربٍ ممهّد للمشاة، والمرء في حاجة إلى بعض الحظ، للعثور على شارع جانبي ضيّق يتيح صفّ السيارة على جانبه. عاشقان، يلتفّ كلّ منهما حول الآخر وهما ينظران إلى المياه التي نمت عليها زهور اللوتس البرية، لا يجلسان على ضفة البحيرة، بل في السيارة، وكما هو معتاد؛ مكبّر الصوت في السيارة خافت جدّاً لدرجة أننا بعد فترة لا نعود نسمعه. لا يكاد المرء يمشي بصعوبة بضع خطوات، حتى يجد نفسه في قلب الغابة البكر، والفراشات

تطير حوله. من الممكن حقّاً أن يكون السائر هو أول إنسان يضع قدميه في هذا المكان؛ ليس هناك أيّ جسر خشبي يصل الضفة بالبحيرة، ولا كوخ، ولا أيّ أثر بشري، وطوال كيلومترات ليس سوى صياد واحد. ما كاد يرانا، حتى أسرع إلينا وراح يثرثر، وجلس على الفور بجانبنا كي يواصل صيده، ولكي لا يكون وحيداً.

نحو الرابعة عصراً يبدأ الأمر من جديد، السيارات تسير كما في الصباح، مع اختلاف الاتجاه فقط، وعلى نحو أبطأ بكثير: تجمع نيويورك ملايينها، لا يمكن تلافي المرور المتعثّر. الطقس حارّ، والمرء ينتظر وهو يتصبّب عرقاً، ينتظر ويحاول أن يتجاوز السيارة التي أمامه؛ ثم تُعاد الكَرَّة، السير بسرعة السلحفاة، ثم الانطلاق دون عائق، ثم يتعثّر المرور ثانية. طابور من 400 أو 500 سيارة تلمع في الحر، وطائرات هليكوبتر تحلّق فوق المنطقة، ثم تهبط فوق رتل السيارات المصابة بالشلل لكي تخبرنا عبر مكبّرات الصوت بالطرق الأقل ازدحاماً. هكذا يسير الأمر ثلاث ساعاتٍ أو أربعاً أو خمساً إلى أن نصل إلى نيويورك، منهكين بالطبع إلى حدّ ما، نترقّب الدُّشّ بسعادة، حتى وإن كان لا يفيد كثيراً، وسعداء لارتداء قميص نظيف، أو للذهاب إلى قاعة سينما باردة؛ حتى منتصف الليل يشعر المرء وكأنه في فرن. المحيط يرسل رطوبته التي تحلّق فوق المدينة القلقة. يستحيل النوم والنوافذ مفتوحة. بإطاراتها التي تئنّ بصوت خافت لا تتوقف السيارات مطلقاً، إلى أن يتناول المرء مادّة منوّمة. السيارات تسير نهاراً وليلاً.

بعد وصفي المسهب الدقيق قال المدّعي العام: «أعرف، أعرف، هذا بالضبط ما عاشته زوجتي أيضاً».

- «أليس كذلك؟».

- «تقول زوجتي إن الصيف في نيويورك فظيع».

- «هذا ما يقوله الجميع».

- «باختصار: فظيع».

أقول في الختام: «ورغم ذلك فهي مدينة فاتنة، مدينة رائعة!».

وأخيراً يطرح سؤالاً: «من كان يرافقك إذاً في هذه الرحلات؟ لم تكن وحدك، إذا لم أخطئ السمع».

- «لا».

- «تسمح لي بالسؤال...».

- «حضرة المدّعي العام، لم أكن مع قرينتك».

يبتسم، ويتطلّع إليّ. فأقول: «بشرفي».

غريبة هذه التحقيقات.

فيلفريد يردّ:

«السيد المحترم! يمكنك أن تتخيّل مدى دهشتي من رسالتك بالأمس، لأن السيد الدكتور بونينبلوست -الذي زارني هنا، لكي يأخذ ألبوم صور أخي ليضيفه إلى الملفّات- ادّعى بكلّ يقين أنك حقّاً أخي، وأن الإفراج عنك هو مسألة أيام فقط، شريطة ألّا تكون لك، أو ألّا يكون لأخي، علاقة بفضيحة سميرنوف آنذاك؛ على الفور قلت للسيد بونينبلوست إن أخي، حسب معلوماتي، لم يعد له نشاط سياسي بعد عودته من إسبانيا، ولم يكن عميلاً بأيّ حالٍ من الأحوال. أرجو منك المعذرة بشأن الرسالة غير اللائقة التي سبق لي أن كتبتها لك. بخصوص زيارتي، وقد رجوتني مسبقاً أن أصرف النظر عنها تجنّباً لسوء التفسير، أجدني مرغماً للأسف الشديد أن أخبرك بأنني، ووفقاً لرسالة قاضي التحقيقات، مجبر على أن أواجهك

مواجهة رسمية، لكنني أعتقد أنهم سيخطرونك بهذا الشأن. يمكنك بالتأكيد -سيدي المحترم- أن تفكّر في مدى اضطرابنا الحالي، وأن تتفهّم تسرّعي، وتلتمس لي العذر، ولا يفوتني هنا أن أتوجّه إليك بالشكر على رسالتك القصيرة، المتفهّمة رغم سوء التفاهم الذي وقعت فيه، وأظن أن كتابة الرسالة كانت صعبة بالنسبة لك بما يكفي. وإذ أكرّر دعوتنا إليك بالسكن لدينا بعد خروجك من الحبس، فإنني آمل ألّا تعتبر ذلك تطفّلاً.

أرسل إليك تحياتي، حتى إذا لم تكن أخي المفقود، كما أرسل تحياتي إلى السيد الدكتور بونينبلوست، مع فائق الاحترام وتمنّياتي الطيّبة بخصوص قضيّتك.

فيلفريد شتيلر، دبلوم في الزراعة».

عن فضيحة سميرنوف لا تعرف يوليكا شيئاً، شيئاً دقيقاً. يبدو أنها فضيحة سياسية، ويقولون إنها أثارت قبل عدة سنوات كثيراً من الغبار، إلى درجة أن الرأي العام لم يعد في النهاية يرى على الإطلاق أي شيء مما حدث فعلاً.

اليوم ممطر للأسف!

نقضي العصرية المشتركة في فندقها. كانت يوليكا على كل حال قد نسيت شيئاً في فندقها، رسالة إلى باريس ملحّة إلى أقصى درجة، وبالطبع أرافقها. عندما يشير لي بوّاب الفندق إلى البهو بملامح لا تدع مجالاً لسوء الفهم، تقول يوليكا من دون أن يحمرّ وجهها: «السيد هو زوجي!»، إثر سماعه ذلك يحمرّ وجه الموظّف، ويهمهم معتذراً، ثم يقودني بنفسه إلى المصعد كما يقود رجلاً فاضلاً شريفاً. أعتبر ذلك كذبة اضطرارية، وأستمتع

بها متفكّهاً؛ في المصعد، وحدي مع يوليكا، أمتدح سرعة بديهتها الجريئة، وعندما نصل إلى غرفتها لا أتحدّث عن هذا الموضوع، وربما كان ذلك خطأ. هل تحبّني يوليكا حقّاً؟ لا ينقص الآن غير أن أُصاب بالغيرة! ذلك الإنسان في باريس الذي كتبت له يوليكا خطاباً ملحّاً، وخطاباً سميكاً جدّاً فوق ذلك، اسمه دميتريتش، من المرجّح أنه روسي فرنسي من المهاجرين القدماء، جان لوي دميتريتش. لم تقل لي ذلك. وفي حين وقفت يوليكا أمام المرآة لتصفّف شعرها بعناية، وتضع المساحيق وأحمر الشفاه، رأيتُ الاسم على الرسالة التي تركتها يوليكا، على نحو خفيّ، على حقيبة يدها البيضاء عندما دخلت الغرفة حتى لا تنساها مرّة أخرى.

حلمت مرّة أخرى بالزيّ العسكري.

المشي في ساحة السجن الذي يذكّرني شكله المربّع برواق الأديرة القديمة. مَن لا يتمنّى أحياناً أن يصبح راهباً! في مكانٍ ما في صربيا أو بيرو، ليس المكان مهمّاً، ففي كلّ مكان تشرق الشمس نفسها، وأن يكون الأمر ليس مهمّاً فهذه هي الحرية، أعرف ذلك. ومرّةً أخرى يذكّرني هذا الشكل المربّع لساحة سجني، بغصونه الخريفية وهديل حمامه، ولا سيما الكائن العاطل فيه الذي أمثّله، كلّ ذلك يذكّرني بالفناء ذي الحديقة في متحف الفن الحديث في نيويورك، ذلك الفناء الكبير والمزدحم بالتماثيل، والمحاط بواجهات وخلفيات المنازل. هل كنت آنذاك أكثر حرية من الآن؟ كنت أستطيع السير إلى أي مكان أرغب، ومع ذلك كانت فترة شنيعة؛ في الحقيقة، ليس صحيحاً مطلقاً أنني أتشوّق إلى تلك الفترة، أو إلى أي فترة أخرى من فترات حياتي.

ملحوظة:

يوليكا: إما أن المفقود شتيلر قد أخطأ عندما قارن هذه المرأة بحيوان بحري بارد، أو ربما يرجع ذلك إليه، أعني أن يوليكا لم تكن امرأة في عينيه - أو أن يوليكا قد مرّت بخبرة منذ اختفاء شتيلر المفقود غيّرتها جذريّاً. ماذا؟

ملحوظة:

ربما يكون عميلاً، هذا المدعو جان لوي دميتريتش، أو بوّاب مدرسة الرقص الخاصة بها، ذلك البوّاب الذي يؤدي مهام متعدّدة ويبلغ السبعين من العمر، كانت رسالتها الأخيرة سميكة جدّاً، لأنها تحتوي على استمارات كان على يوليكا أن توقّع عليها -أو شيء من هذا القبيل!- أو إنه خياط نسائي، المسيو دميتريتش هذا، أو مؤجّر من الباطن أرسلت له العقد، أو طبيبها، أو محاميها، ثمّة آلاف من الاحتمالات...

صديقي المدّعي العام هدية من السماء. ابتسامته تعوّضني عن غياب الويسكي. إنها ابتسامة تكاد لا تُلاحَظ، تخلّص محدّثه من التكلّف الزائد، وتسمح له بأن يكون ذاته. كم هي نادرة ابتسامة كهذه! مثل هذه الابتسامة الطيبة، العارفة بدقّتها البالغة، ابتسامة لا تعرف الضبابية مطلقاً، ولا الاحتقار، هذه الابتسامة لن تزدهر إلا على فم شخص قد بكى، ويعترف بأنه بكى.

السيد الدكتور بونينبلوست، المحامي الذي كلّفه القضاء بالدفاع عني، محقّ بالطبع: عندما أحكي له مئة مرّة عن الحريق في مصنع الخشب في

كاليفورنيا، أو كيف تضع الزنجية الأميركية المساحيق، أو عندما أصف له الألوان التي تنتشر في نيويورك لدى هطول الثلج في المساء مع وجود عاصفة (هذا شيء موجود)، أو كيف يتصرّف المرء في ميناء بروكلين لدخول البلد من دون أوراق - كلّ هذا لا يبرهن على أنني كنت هناك.

نحن نعيش في عصر الاستنساخ. معظم ما يشكّل وعينا الشخصي بالعالم لم نره بأعيننا، أو بكلمات أدقّ: لقد رأيناه حقّاً بأعيننا، ولكن ليس في مكانه الأصلي؛ نحن متفرّجون عن بعد، ومستمعون عن بعد، وعارفون عن بعد. لا يحتاج المرء اليوم إلى مغادرة هذه البلدة على الإطلاق لكي يسمع صوت هتلر، أو لكي يتعرّف على شاه إيران على بعد ثلاثة أمتار، أو كيف تعوي الرياح الموسمية وهي تجتاح الهيمالايا، أو كيف يبدو سطح البحر على عمق ألف متر. بمقدور كل شخص اليوم أن يعرف ذلك. هل معنى ذلك أنني كنت يوماً تحت سطح البحر؛ أو أنني صعدت ولو جزءاً من جبل إيڤريست (مثل السويسريين)؟ الشيء نفسه ينطبق على الحياة الباطنية للبشر. بمقدور كل شخص اليوم أن يعرفها. إنني لم أعرف غريزة القتل من خلال كارل غوستاف يونغ، والغيرة من خلال مارسيل بروست، وإسبانيا من خلال هيمنغواي، وباريس من خلال إرنست يونغر، وسويسرا من خلال مارك توين، والمكسيك من خلال غراهام غرين، وخوفي من الموت من خلال بيرنانوس، وعدم وصولي الأبدي من خلال كافكا، وأشياء أخرى عديدة من خلال توماس مان؛ اللعنة، كيف أستطيع تقديم البرهان لمحاميّ إذاً؟ صحيح، المرء ليس في حاجة على الإطلاق إلى قراءة كل هؤلاء السادة، فهو قد هضمهم عبر الأشخاص الذين يعرفهم، وهم من ناحيتهم يعيشون سرقات فكرية لا حدّ لها.

يا له من عصر! إن مشاهدة سمكة السيف لم تعد تعني أيّ شيء مطلقاً، أو أن تحب خلاسيّة، كلّ هذا من الممكن أن تراه في أحد الأفلام الوثائقية

الثقافية التي تُعرض في حفلات ما قبل الظهيرة. أما أن تكون لديك أفكار، يا إلهي، لقد أصبح ذلك في هذا العصر من النوادر، أن تقابل عقلية سارقة لأفكار معيّنة، هذا يدلّ على قوة الشخصية، عندما يرى أحدهم العالم بعينَيْ هايدغر مثلاً، وبعيني هايدغر فقط. أما الآخرون فيسبحون في «كوكتيل» يحتوي تقريباً على كل شيء، كوكتيل مخلوط على نحو راقٍ بـ«إليوت»، نعرف كل مكان عن ظهر قلب؛ حتى حكاياتنا عن العالم المرئي، وكما ذكرت، لا تعني شيئاً؛ لم تعد اليوم هناك بقعة مجهولة في العالم (باستثناء روسيا). لماذا الحكي إذاً! فهو لا يعني أن المرء عايش ذلك بنفسه. لدى محاميّ حق. ومع ذلك! –

أقسم:

ثمة خلاسيّة اسمها فلورنس، ابنة عامل في الميناء، كنت أراها يومياً، وتحدّثنا عدّة مرّات، وإن كان ذلك حدث عبر سور فاصل ومانع، سور شُيِّدَ من براميل القار القديمة، وقد نمَت عليه بكثافة شجيرات التوت البري الأسود. إنها موجودة، فلورنس، ولها مشية كالغزال. أحلم بها، بالتأكيد، أكثر الأحلام ضراوة؛ ولكن في صباح اليوم التالي تكون حاضرة، رغم ذلك، وحقيقية تماماً. ما أكاد أسمع رنين الكعب العالي للحذاء على الأرضية الخشبية، حتى أتطلّع على الفور من خلف الستائر المثقوبة في كوخي البائس لكي أرى فلورنس، ولكن في الغالب بعد فوات الأوان؛ ثم أنتظر إلى أن تخرج بدلو ماء، وتصبّ الماء العكر على السور، أهزّ رأسي محيّياً، ففي هذه اللحظة أكون قد خرجت بعد أن سيطرت علي العواطف العمياء، تقول: أهلاً! فأقول: أهلاً! لا أجرؤ على وصف ابتسامتها البيضاء في وجهها الأسمر؛ هذه الابتسامة يعرفها المرء أيضاً من الأفلام الوثائقية الثقافية، من المجلّات، أو حتى من مسارح المنوّعات في هذه البلدة، أعرف ذلك، وصوتها الغريب موجود على أسطوانات، تقريباً صوتها. أما

إذا كنت في حديقتي لسببٍ آخر غير المصادفة البحتة، فإن فلورنس تسألني عن قطّتي: «What about your cat?».

ذات مرّة ، قبل شهور، سألتُ فلورنس عن قطّتي اللعينة، عن ذلك الوحش الرشيق الذي حبستُه ذات مساء في ثلّاجتي بسبب فحيحها الذي يفيض اتهامات؛ لقد ذكرت الحكاية من قبل بالتأكيد. لم تعلم فلورنس بالطبع شيئاً عما حدث للقطّة في الثلّاجة، لكنّها على الأرجح كانت تحدس صراعاتي الداخلية مع هذه القطة السوداء (كانت رمادية، ويُطلق عليها Little Grey، لكن في الليالي تكون سوداء عندما تقف أمام شبّاكي المغلق)، وكانت ترى أن عليّ أن أُظهر لها، للقطة، المزيد من الحب. لكن حبي كان موجّهاً إلى فلورنس؛ وهذا ما كانت تشعر به تماماً، القطة أعني. وفلورنس بالتأكيد أيضاً... عندما لا تكون فلورنس في البيت، وعندما لا يكون صوتها المميّز مسموعاً، أسير في الحي من بارٍ إلى بار بحثاً عنها، وفي كثير من الأحيان دون نجاح. ولكنّي عثرت عليها بالفعل ذات مرّة.

تعرفون كيف يرقص الزنوج. كان مرافقها في الرقص سيرجنت في الجيش الأميركي شبه أسمر. تكوّنت دائرة من المتفرّجين حول الثنائي الراقص، في حين راح المتحمّسون في هذه الدائرة يصفقون بإيقاع متسارع، وصل في النهاية إلى سرعة جنونية. السيرجنت في الجيش الأميركي، رجل طويل بخصر نحيل كالأسد، وساقين من مطّاط، وفم شبقيّ شبه مفتوح، وبعينين لا تريان من النشوة، رجل له صدر وكتفان كتمثال «العبد المحتضر» لمايكل أنجلو؛ لم يعد يستطيع مواصلة الرقص، فرقصت فلورنس وحدها. كان بإمكاني أن أحلّ محلّه؛ لو كنت أستطيع. ما زالت فلورنس ترقص وحدها؛ والآن أتى شخص آخر ليراقصها، وما كاد يلمس أصابعها حتى دارَ حولها، ثم لمسها بكفّه المبسوط، ودفعها حتى كادت تلامس الأرضية الخشبية، ثم أمسك بخصرها ورفعها حتى

كاد رأسها يصطدم بسقف القاعة المنخفض؛ وبذراعها أصدرت فلورنس إشارة ملكية، إشارة النصر السعيد، يشعر المرء أمامها -وهو العاجز عن التعبير الجسدي- كأنه من ذوي العاهات، ثم حطّت على الأرضية وكأنها طائر لا وزن له، والآن لم يعد المرء يسمع سوى قرع طبل خافت قادم من الغابات العتيقة، زلزال بلا صوت، نوع من السكون المتسارع، في حين واصلت هي الرقص. استُنفدَ راقص ثالث، ورابع. وفجأة، دون أن يبدو عليها أقل الإنهاك، ضحكت فلورنس ثم قطعت رقصتها؛ ببساطة طفل، طفل سعيد جدّاً سمحوا له بركوب الأرجوحة الدوّارة وما زال يشعّ سعادةً، ثم قطعت طريقها بين الموائد خارجة، بالتأكيد لكي تضع المساحيق على وجهها من جديد، فرأتني، وقالت مُرحّبة: «Hallo!».

- «Hallo!».

بل لقد أعربت عن فرحها برؤيتي: «Nice to see you!».

ثم كادت تواسيني لارتباكي المرير الجميل؛ فقد كنت أعرف تماماً أنني لن أكون كفؤاً لهذه الفتاة أبداً.

وهذا ما زاد من شوقي.

وفي يوم أحدٍ حارّ، سمعت مرّة ثانية الصوت الذي افتقدته طويلاً، صوت كعب حذائها العالي، فوقفت خلف الستائر، ورأيت التالي: أبوها، العامل في الميناء وهو يرتدي بدلة سوداء، بدا فيها نصف نادل ونصف قسّ، وهو يسير في الأنحاء بالمكنسة، وينظّف كل ركن من أركان الحديقة الخلفية، كانت الشجيرات قد زُيّنت من قبل بشرائط ملوّنة، حتى سياجي المصنوع من براميل القطران زُيّن بشرائط ملوّنة، وفلورنس أيضاً تزيّنت بفستان سهرة مبالغ فيه، كأنه رداء ببغاء، وهي تجرّ «فوتيه» من المنزل. ثمّة احتفال في الحديقة على ما بدا. أمّ فلورنس، وهي أيضاً أمّ أزلية،

دخلت بتورتة ضخمة، ووضعتها على المائدة المغطّاة بمفرش أبيض، وفوقها شمسية سوداء حتى لا تلين التورتة في الشمس، ثم زيّنت التورتة بزهور صغيرة على الحواف. من خلف ستائري كنت أشاطرها اضطرابها. لم يهتمّ عامل الميناء إلا بأن يكون الدرج نظيفاً وبألّا تكون ثمّة نفايات في الحديقة، وألّا يكون هناك غصنٌ جاف، فضلاً عن علبة صفيح قديمة (كان يقذفها عبر سور حديقتي)، ولا حتى عود ثقاب، باختصار: في حين كان الأب قد وضع نفسه في خدمة مكنسته فحسب، كانت الأم والابنة منشغلتين كلّ الانشغال؛ وعاء كبير فيه كوكتيل وُضع على المائدة، تحت مظلّة أيضاً، وكذلك كؤوس من كلّ الأشكال والأحجام، ثم أتى الضيوف تباعاً، عائلات بأطفال من مختلف الأعمار، الإناث يضعن ماكياج سهرة ملوّناً، وهكذا. وسرعان ما بدت الحديقة الخلفية مثل قفص طيور ضخم، أما الذكور فكانوا كلّهم يرتدون الأسود، طبعاً، مع قميص أبيض.

قاد أحدهم سيارته، موديل «ناش»، ولكنّها ليست من العام السابق؛ كان السائق يرتدي نظّارة سميكة الإطار أيضاً. الطقس شديد الحرارة. في ما عدا الترحيب في البداية، بدا أن أفراد العشيرة ليس لديهم ما يقولونه بعضُهم للبعض الآخر. السيرجنت في الجيش الأميركي وقف هناك أيضاً لا يعرف ماذا يفعل. حتى البراعم الصغيرة، بالشعر المجعّد والعيون الواسعة في الرؤوس، الصبيان بقمصان بيضاء، والبنات بشرائط ملوّنة حول ضفائرهن القصيرة، الكلّ كان يسلك سلوكاً مثالياً بالغ التهذيب. جلس البالغون، واضعين ساقاً فوق الأخرى؛ وراح البعض يدخّن السيجار. إلى جانب عدد من السيدات – وحسب لون البشرة فإنهن لم يعدن من الزنوج، لكن يمكن التعرّف على أنهن زنجيات من الوجه البلاستيكي، ومن الأسنان أيضاً، ومن القيود النحيلة للغاية، وبصورة خاصة من الرشاقة الحيوانية التي تميّز حركاتهن – اليد لا تتحرّك أبداً من دون أن تنطلق الحركة من الذراع، ولا

يستدير الرأس أبداً من دون أن تصعد الحركة من الظهر لتتجلّى في الكتفين؛ سواء كانت الحركة بطيئة أو سريعة، فهي دائماً حركة كاملة، تلقائية ومن دون تردّد، ومن دون جمود في جزء آخر من أجزاء الجسم، الحركة تنساب، أو تسرع، أو تهدأ، هي دائماً حركة متّسقة مع ذاتها. باختصار: إلى جانب الفتيات مثل فلورنس -التي تغلّبت على شعرها المجعّد- كان في العشيرة آخرون، أفارقة ببشرة سوداء رمادية، وشفاه أرجوانية رمادية، كفوفهم كأنها قفّازات ملاكمين، وآباء كانوا يشعرون بالخجل من بناتهم اللائي لم يعد شعرهن مجعّداً.

صاحب السيارة الـ«ناش» الجديدة كان هو الآمر الناهي بالتأكيد؛ الطقس، كما قلت، حارّ جداً، ومع ذلك لم يخلع أحدهم سترته السوداء، وكلّ تلك الشكليات المملّة، والوقوف بالسيجار وتبادل العبارات الفارغة، والسلوك المهذّب للأطفال الكثيرين الذين ذكّروني بفقرة ترويض الحيوانات في السيرك، مجاملات الأقارب الباردة، وعدم حدوث أيّ شيء، التصنّع والتكلّف الخالي من أيّ بهجة، تباينت القدرات داخل هذه المظاهرة العائلية، واختلف مفهومهم بشأن السلوك الراقي، هذا الكاريكاتور الذي وصل إلى حدّ الكمال للبورجوازية الصغيرة البيضاء، بورجوزاية لا تعرف أيّ شيء عن إفريقيا - كان ذلك هو الحدث على ما أعتقد: إنهم الآن يسلكون حقّاً سلوك البيض. عندما رنّ الجرس عندي، وعندما دعاني الأب العامل في الميناء على كوكتيل، سرت إليهم بالطبع، ولكن ليس قبل أن أرتدي أنا أيضاً قميصاً أبيض وأكثر السترات لديّ قتامة. رحّب بي الجميع قائلين: «Nice to see you!». وخلال الحديث معي سألوني عن انطباعي عن أميركا: «How do you like America?».

ثم عرفت أن السيرجنت في الجيش الأميركي، ذا الخصر النحيل مثل

أسد، وكتفي تمثال «العبد المحتضر» لمايكل أنجلو، موجودٌ هنا في إجازة فحسب، وأنه يعيش في فرانكفورت حتى لا يقترب الروس أكثر من اللازم من أميركا؛ سألته من ناحيتي عن انطباعه عن فرانكفورت: «How do you like Frankfurt?».

ومن قصائد المديح التي كالها باجتهاد لاحظتُ أنه يُلقي بنا كلّنا، نحن الأوروبيين، في سلّة واحدة.

ثم، أخيراً، حضرت فلورنس الرائعة، وأعطتني كأساً من الكوكتيل، وعرّفتني بزوجها جو: «This is Joe, my husband!».

هنّأتها. ثم سألتني عن قطتي: «And what about your cat?».

تزوّجا في يوم الأحد ذاك، وبقي جو في إجازة ثلاثة أسابيع كاملة. أريد أن أقول إنني ظللت لا أرى فلورنس في بيت أبيها طوال ثلاثة أسابيع أخرى... ونظراً لوقوعي في الحب، لم أكن أستطيع أن أترك تلك الأسابيع تمرّ من دون أن أرى فلورنس على الأقلّ في القدّاس؛ إذ إنني كنت أعرف الآن إلى أي كنيسة تنتمي. كانت كنيسة معمدانية تدعى «أوليفت الثاني»، اتضح أنها عبارة عن كشك خشبيّ تصعب التفرقة بينها وبين المخازن الأخرى في المنطقة، لكنّها كانت، على كل حال، ذات واجهة خشبية قوطية الطراز، من عشرينيات القرن العشرين وفق تقديري. وعلى خشبة المسرح بالداخل، إلى يمين الميكروفون ويساره، عُلِّق علمان كبيران، العلم الأميركي وعلم أبيض، غير ذلك، وباستثناء بيانو أسود، كان المكان خاوياً وكأنه صالة ألعاب رياضية. كان المصلّون يغمغمون غمغمة غريبة، وفي أقصى الأمام وقف زنجيّ ببدلة يوم الأحد الفاتحة، وهو يقرأ أسئلة، تبدأ في كلّ مرّة بكلمة «خطيئة»، فيومئ الناس، ويناجي البعض الرب قائلين: «O yes, my Lord, o yes!».

هذه الأسئلة التي تبدأ بلهجة عادية هادئة، تتكرّر مع تغييرات بسيطة، ويزداد إلحاحها على الأذن من تكرار إلى تكرار، من دون أن يرتفع الصوت. من مكان ما ناجت امرأة شابة إلهها بأنها تعرف: «I know, my Lord, I know!».

كان أغلب الحاضرين يهمهمون، وبعضهم ينظر في الهواء بلا اكتراث، لكن المرأة صرخت عالياً، وشرعت في الصياح بجمل كاملة، في التأوّه، حتى إن المرء يعتقد أن لا بدّ من مساعدتها. ما زال السائل الذي يرتدي بدلة يوم الأحد الفاتحة مستغرقاً في تكرار أسئلته، لم يعد شخصاً، لقد غدا وعاءً بشرياً لصوتٍ ينساب فوق المصلّين، صارت أسئلته نداءاتٍ، إنشاداً، ثم في الختام صراخاً تغلغل فيّ حتى النخاع، عالياً ومؤلماً. وكأنّ المصلّين المهمهمين يردّون من بعيد، وكأنهم صدى، برؤوس منكّسة، والبعض وضع يديه أمام وجهه. قفزت المرأة المتأوّهة من مقعدها، زنجية شابة بقبعة نسائية صغيرة، وقفاز أبيض مرفوع تجاه السماء، وقد علّقت على ذراعها حقيبة يد حمراء. راحت تصرخ إلى إلهها: «My Lord! my Lord, my Lord!».

ثم انهارت فجأة، من دون أن يمسكها أحد، على ركبتيها، ولم تعد في مجال بصري، راحت تبكي وتنوح، مثلما كانت تنوح ربما في غرفة التعذيب، أصوات مُعذَّبَة إلى أقصى حدّ لا يمكن التفرقة بينها وبين الأصوات الشهوانية؛ انصهر صوتها إلى بكاء. أما الصلاة، العامة، فقد انتهت عندما فقد السائل الصوت في النهاية، ذلك الصوت الذي كان إلحاحه يزداد شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبح صامتاً منتشياً. ثم جاءت لحظة توقفت فيها الأنفاس، لحظة من الإنهاك؛ ثم الاسترخاء، ارتفعت الرؤوس أمامي مرّة أخرى، راحت امرأة عجوز جليلة تعزف على البيانو نغماتٍ خفيفة، وسار خدم الكنيسة بين المصلّين يوزّعون مراوح يدوية ملوّنة،

أهداها إلى الكنيسة -كما نقرأ عليها- محل كوافير (على الناصية)، وهكذا راح كلّ شخص يحرّك مروحته.

لم أرَ فلورنس، لكنني رأيت جو بالزيّ العسكري؛ كان يقف بجوار الجدار، شابكاً ذراعيه، من دون تأثّر، وكأنه ينظر من أعلى فرانكفورت إلى هذا الشعب. كانت الحرارة فظيعة. في هذه الاستراحة أخذ قسٌّ مرح خلف الميكروفون يُذكّر الحاضرين بأن الرب قد أنقذ آنذاك بني إسرائيل المساكين، وأن الرب يعرف حق المعرفة مدى صعوبة أن يكسب المرء اليوم دولاراً واحداً، ولهذا لا يصبّ الرب جام غضبه على المتردّدين، لأن الرب صبور إلى ما لا نهاية، ولهذا يمنح المتردّدين الفرصة مرّة ثانية، مثلاً لكي يضعوا شيئاً في صحن الصدقات. في تلك الأثناء انطلق الحاضرون يثرثرون بنشاط ومن غير تكلّف، مثل مجموعة من الناس تشعر بالانبساط والراحة. عندما وصل جمع الصدقات إلى حدّ يرضي الرب، عزفت السيدة الجليلة على البيانو نغمة افتتاحية صاعقة، وكأننا حضرنا هنا إلى الرقص، لكنّها خفّفت من الصوت بعد أن انتصر السكون في القاعة، وراحت ترافق عظة القسّ بعزفٍ غير مسموع تقريباً، عزف يخلو من النغمات تقريباً، وكأنه إيقاع فحسب مستمدّ من موسيقا الجاز، ثم توقف دون أن يلاحظ أحد، لكن التوقّف أحدث أثراً، وذلك عندما وصل الواعظ إلى البشرى الاحتفالية التالية: يعرف الرب أننا فقراء، لكن الربّ سيقود خطانا إلى أرض الميعاد، وسيحمينا الربّ من الشيوعية. من حولي تحرّكت المراوح التي وزعها محل الكوافير كدعاية، وفي الشرائط الضوئية تراقص الغبار. فاحت رائحة الكيروسين، والعرق، والعطر. كنت أجلس أتلظّى من الشمس الباهرة التي نفذت عبر مظلّة ممزّقة، بجانب سيدة ترتدي رداءً حريرياً أسود، وبجانب زنجي بشعر رمادي، العم توم، الذي كان بيد مرتعشة يُظِلّ حفيده الحيوي الذي لم يستطع أن يقبل بوجودي، أنا الغريب. كان يجلس أمامي عاملٌ

شابّ، يصغي مطيعاً إلى العظة مثلما يصغي الجندي إلى آخر أخبار الجبهة. في الأمام وقع بصري أيضاً على جيد فتاة جميل للغاية، جيد أسمر، وفاتح اللون نسبيّاً، وعليه كمّيات وكمّيات من المساحيق البيضاء. (آه من هذا الاشتياق إلى اللون الأبيض، وإلى الشعر الناعم، وهذا الجهد الذي يُبذل طوال العمر لكي يكون المرء مختلفاً عما خُلق عليه، هذه الصعوبة الكبيرة في تقبّل الذات، أعرف هذه الصعوبة، لذا لم أكن أرى سوى بؤسي الذاتي أمام عيني، رأيت في تلك اللحظة عبثية أشواقنا إلى أن نغدو مختلفين عن أنفسنا!).

بعد الصلاة، وبعد أن جلسنا ثانية، انفتح باب جانبي، ومن الباحة، التي فاحت منها رائحة الكيروسين المقيتة، ظهر كورال الملائكة، نحو عشرين فتاة زنجية بملابس بيضاء. كانت فلورنس معهن، وفي صحبتها عشرون زنجياً بقمصان بيضاء وأربطة عنق سوداء، وفي يد كلٍّ منهم كتاب أسود. امتلأت خشبة المسرح. منتصراً، وكأننا وصلنا لتوّنا إلى أرض الميعاد، بدأ عزف البيانو، ثم الأصوات: في البداية خافتة، وكأنها متصاعدة من حقلٍ صيفي حارّ، ومن بعيد سمعنا تياراً أزلياً من المراثي، خافتاً ورتيباً مثل الأمواج، ثم تصاعد تصاعداً بطيئاً، وشيئاً فشيئاً أصبح فيضاناً اكتسح كل شيء، هديراً من أصوات، نصفها حانق، ونصفها مهلّل، إنشاد هائل يغوص مرّة ثانية، ثم ينساب من دون أن يتوقف حقّاً، نهر لا نهائي من الأشواق، عريض مثل المسيسيبي، وفوقه يعلو صوت رجلٍ مرّة أخرى وكأنه بوق صاخب، عالٍ ووحيد في قسوته، صوت فيه غبطة وأمل؛ ويبقى الأزيز الغريب، طنين بلا صوت كالذي يعلو حقلاً صيفياً متوهّجاً، القيظ في القاعة، الغبار الراقص في الشمس المبهرة الذي نفذ عبر المظلّة الممزّقة، ورائحة الكيروسين والعرق والعطر.

بعد ثلاثة أسابيع اختفى جو.

سمعت مرّة أخرى وقع الحذاء ذي الكعب العالي، فلورنس هنا، وإنْ كانت متزوّجة، بل لقد نادت عليّ من أسفل نافذتي، بسرعة البرق هبطت الدرج المائل، والعجيب أنني لم أتعثّر، وإن انتزعت العمود المثبّت عليه الدرابزين من مكانه، إلى أن خرجت إلى سور براميل القار حيث كانت فلورنس تقف على الجانب الآخر من شجيرات التوت البري. سألتني عن قطّتي: «What about your cat?».

لقد كانت حتى تحمل الوحش على ذراعها. سألتني عن إصابتها: «D'you know she's hurt? Awfully hurt!».

كانت تلك الجروح على خشمها. ثم سألتني ما إذا كنت أشعر بالأسف، واتهمتني بالوحشية لأنني لا أحب القطة:

- And you don't feel any pity for her? you are cruel, you don't love her.

ثم مدّت يدها لتعطيني الوحش، مؤكّدة أن عليّ أن أحبّ القطة:

- You should love her!

- Why should I?

- Of course, you should!

كانت تلك هي علاقتي بالخلاسيّة التي تدعى فلورنس، وما زلت حتى اليوم أفكّر فيها عندما أسمع وقع الكعب العالي؛ وللأسف فإنني عندئذٍ أتذكّر دائماً القطة.

أجّلت يوليكا رحلتها إلى باريس حتى لا يضيع العصر الذي نقضيه معاً، ولأنه سيكون مؤسفاً ألّا يستفيد المرء من يومٍ مشمس ذهبيّ في شهر أكتوبر مثل هذا اليوم.

ولا كلمة عن زواجها القديم!
هدّأني ذلك على نحو أو آخر.

كان سميرنوف عميلاً سوفييتياً عبرَ سويسرا خلال رحلته. أوصافه غير معروفة. من ناحية أخرى، يبدو أن الشرطة السويسرية الاتحادية تعرف أن هذا السميرنوف، المدعو الرئيس، كان يعِدّ لاغتيال شيوعيٍّ محبوب كان يقيم آنذاك في سويسرا. كان المساعدون ومساعدو المساعدين ينشطون، كالمعتاد، بأسماء مستعارة، أحدهم يدعى «المجريّ»، وآخر «السويسريّ»، ويُقال إن الأخير تفاوض مع سميرنوف هذا في زيورخ، يوم 18/ 1/ 1946، ومن الممكن أن يكون قد مارس أعمال الجاسوسية الممنوعة. بعد الموعد المحدد أعلنت شرطة مدينة زيورخ الاختفاء الغامض لشتيلر. منذ ذلك الحين يبدو شتيلر وكأنه يجسد الأمل بالنسبة للشرطة السويسرية الاتحادية. ألم يحارب شتيلر هذا ضد فرانكو؟ ولأن مناهضة الفاشية كان يُنظر إليها لفترة على أنها فضيلة سويسرية، لكنّها اليوم تكفي لكي يشتبه فيك الآخرون بأنك تابع للسوفييت –
ما شأني أنا بكلّ هذا؟!

ملحوظة:

محاميّ لا يقبل المرح مطلقاً عندما أذكر أمامه أن سويسرا بلد صغير، هذه حقيقة، ليس هذا فحسب، بل ستصبح أصغر فأصغر في إثر تطورات العالم. هذا ما يجعل أحاديثنا في معظم الأحيان صعبة. إنه (وهو أمر مفهوم) ضد المستقبل. يخيفه أيّ تغيير. يمنحه الماضي وعوداً أكبر؛ مع أنه يعرف تماماً أن الآتي ليس الماضي، بل المستقبل، وهذا ما يزيد من

رفضه للمستقبل. لا أعرف إلى أيّ مدى يمثّل محاميّ الروح الشائعة في هذا البلد. إنه يشعر دائماً بأنه عرضة لهجوم ما، حتى إذا لم يكن ذلك هدفي مطلقاً، وهو ما يؤدّي إلى إعجاب خطير بالذات.

قال لي: «إن عظمة أيّ دولة لا تُقاس بمساحتها ولا بتعداد سكانها؛ عظمة دولتنا هي عظمة الروح السويسرية».

هذا صحيح، لكن ما يدفعني إلى الاعتراض هو الاعتقاد المغرور وغير المدقّق بأن السويسريين لا تنقصهم عظمة الروح. تتملّكني العصبية، إذ لا يمكنك أبداً أن تُرضي الإنسان المتعالي. أسأله عن تجلّيات تلك العظمة، وأنحني إجلالاً أمام الشخصيات التاريخية التي يطلقها عليّ محاميّ في كلّ مرّة؛ لكنني لم أسأله عن تجلّيات تاريخية، بل أسأل بوقاحة عن التجلّيات المعاصرة لعظمة الروح السويسرية. في إثر ذلك يهاجمني محاميّ هجوماً شخصياً: «كرهك لسويسرا كرهٌ مَرَضيّ».

- «لماذا تقول "كره"؟».

- «أنت لا تريد سوى التظاهر بأنك لست سويسرياً، وبالتالي لست شتيلر. لكنّك لن تخدعني بشيء؛ إن كرهك لسويسرا لا يبرهن مطلقاً على أنك لست سويسرياً».

ولأنني ضحكت، فقد أضاف: «على العكس! إنك تفضح نفسك بهذه الكراهية تحديداً».

يخطئ محاميّ في ظنه؛ أنا لا أكره سويسرا، بل الأكاذيب. وهذا فرقٌ مبدئيّ، رغم أن النتيجة في معظم الأحيان واحدة. كسجينٍ أشعر بحساسية بالغة، ربما، تجاه شعارات الحرية التي يرفعونها. بحقّ الشيطان، ماذا يفعلون بحرّيّتهم الأسطورية؟ عندما يكون الأمر مكلفاً، فإنهم يصبحون حذرين مثل أيّ ألماني خانع. حقّاً، مَن يستطيع هنا أن يتزوّج وينجب

أطفالاً، أن يكوّن عائلة بمستلزماتها، ومع ذلك يبدي آراءه، ليس فقط في الثانويات؟ يحتاج المرء إلى مال، مال كثير، حتى يفعل ذلك، حتى لا يكون المرء في حاجة إلى عمل أو زبائن أو رضا المجتمع. لكن من يجمع مالاً وفيراً يتيح له أن يعبّر عن رأيه الحرّ حقّاً، فهو في معظم الأحيان راضٍ عن الأوضاع السائدة. ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن المال هو الذي يحكم، حتى هنا، في سويسرا. أين تبقى إذاً الحرّية المجيدة التي تعلّقونها خلف المرآة وكأنها ورقة غار يابسة؛ أين تبقى في حياتكم اليومية الحقيقية؟ يهزّ محاميّ رأسه فحسب. ثم يعقّب يائساً: «إذا تحدّثت هكذا أمام المحكمة، وأمام الصحفيين المتجمّعين...».

نعم، هذا هو الوضع.

يضيف المحامي: «ستضرّ نفسك فحسب».

من المرجّح ألّا تكون ثمّة حرية على الإطلاق كالتي يدّعي وجودها الناس هنا؛ ثمّة فروق في درجة العبودية فحسب، وأعترف بكلّ سرور أننا نعيش في شكل مخفّف نسبيّاً من العبودية. لن يقتلوني رمياً بالرصاص، وأنا ممتنّ لهم جدّاً من أجل ذلك، لكنني لست ملزماً بأن أقع في غرام كلّ هذه الأكاذيب المنتشرة في البلاد. إنه يسمّيها باسم مختلف، أعرف، تلك هي الأكاذيب في أخطر أشكالها؛ أعني عندما تتسلّح الأكاذيب براية، بالحقّ في أن تكون مقدّسة ولا يجوز المساس بها. إنه يطلق عليها حبّ الوطن.

من الغباء أن أنفعل مرّة بعد أخرى انفعالاً جدّيّاً بسبب ذلك. لا يستطيع المرء التحدّث مع هؤلاء السويسريين عن الحرية، بكلّ بساطة، لأنهم لا يتحمّلون أن يضع المرء الحرية موضع مساءلة، وألّا يعتبرها المرء حكراً على السويسريين، بل وينظر إليها كمشكلة. إنهم يخشون عموماً كل سؤال غير محسوم؛ إنهم يذهبون دائماً في تفكيرهم إلى المدى الذي يسمح

لهم باستخراج الإجابة من جيوبهم، إجابة عملية، إجابة نافعة لهم. ولهذا فهم لا يفكّرون مطلقاً؛ إنهم يبرّرون فحسب. وهم لا يجرؤون تحت أيّ ظرفٍ من الظروف أن يضعوا أنفسهم موضع الشكّ. أليس هذا في حدّ ذاته علامةً على العبودية الفكرية؟ يستطيعون بالتأكيد أن يتخيّلوا سقوط فرنسا وبريطانيا العظمى ذات يوم؛ أما سويسرا فلا، فلن يسمح الربّ أبداً بذلك، إلا إذا كان شيوعياً، فسويسرا هي البراءة متجسّدة. بالمناسبة، لقد لاحظت عدد المرّات التي يشير فيها محاميّ إلى الفظائع الروسية تبريراً لسويسرا، من الأفضل ألا يشير إلى هتلر؛ ثم كيف يتحدّث بإعجاب عن هذه الحقيقة الفظيعة، عن أنهم بنوا في أماكن أخرى معسكرات للتصفية. بمَ يريد البرهنة بشأن بلاده عندما يذكر ذلك؟ ذات مرّة أتجرّأ وأقول: «لقد كنتَ محظوظاً، سيادة الدكتور، لأن هتلر هدّد آنذاك سيادة دولتكم، أي تجارتكم؛ هذا هو ما منعكم من التطور الذاتي إلى الفاشية. أنت لا تصدّق بجدّيّة أن البورجوازية السويسرية، كبورجوازية وحيدة في العالم، لا تميل إلى الفاشية، ما دامت لا تهدّد تجارتكم، بل تعمل على ازدهارها؟ وستأتي التجربة، عزيزي الدكتور، وأنا أنتظرها بشوق».

في إثر ذلك حزم حقيبة أوراقه. ثم قال وقد بدا عليه أنه شعر بالإهانة: «كسويسري حرّ... لماذا تضحك؟!».

حرّ! حرّ! حرّ! وعبثاً ألتمس منه أن يقول لي مرّة واحدة: حرّ من أيّ شيء؟ وأن يقول لي بصورة خاصة: حرّ من أجل أيّ شيء؟! يقول ببساطة إنه حرّ، ويقول أيضاً إنني حرّ، أنا القابع على فراشي الخشبي هازّاً رأسي، لن أكون حرّاً، إلا إذا تحلّيت بالعقل لكي أكون مواطنهم السويسري المفقود. واضعاً يده على مقبض الباب، وهو يهمّ بالخروج إلى حريته، قال لي بلهجة قلقة، عادية تماماً: «لماذا تهزّ رأسك؟».

على المرء أن يكون قادراً على التفكير. وقادراً على التعبير عن نفسه،

حتى لا تبقى لهم سوى حقيقتهم. ما أراه هو أن حتى تلك الحرية التي يتمتع بها المواطن، والتي يتباهون بها كثيراً، وكأنها هي حرية الإنسان بالمطلق، هي في الحقيقة حرية فاسدة إلى حدّ ما، وأستطيع أن أثبت لهم أن البلد بأكمله، كدولة بين الدول، يعيش في عبودية مثل أي دولة صغيرة بين الدول الكبيرة، هذا هو الوضع، ولكن بفضل عدم أهميتهم (ولا تاريخيتهم اليوم)، فإنهم يستطيعون أحياناً أن يحسبوا أنفسهم مستقلّين، وأيضاً بفضل عقليّتهم التجارية الناجحة التي تجبرهم على أن يكونوا مهذّبين مع ذوي السلطة، لكي تنجح تجارتهم، ومَن لا يعترض على ذوي السلطة، لأنه يعيش على خيرهم، سيشعر دوماً بأنه حرّ ومستقلّ. ولكن ما علاقة ذلك كلّه بالحرية؟ إنني أرى وجوههم؛ هل هم أحرار؟ ومشيتهم، تكفي مشيتهم القبيحة؛ هل هذه هي مشية الأحرار؟ وخوفهم، خوفهم من المستقبل، خوفهم من أن يصبحوا فقراء ذات يوم، خوفهم من الحياة، خوفهم من أن يموتوا دون تأمين على الحياة، خوفهم في كلّ مكان، خوفهم من أن يتغيّر العالم، وخوفهم الذي يصل إلى درجة الرعب من المخاطرة الفكرية - لا، هم ليسوا أكثر حرية مني أنا القابع على فراشي الخشبي، أنا الذي أعلم أن الخطوة في اتجاه الحرية (والتي لا يمكن أن يخطوها أيٌّ من أسلافنا) هي دائماً خطوة هائلة، خطوة يترك بها المرء كل ما ظهر له أنه أرض آمنة، خطوة لا يستطيع أحدٌ إيقافها إذا توفّرت لديّ القوة في أن أخطوها: أعني الخطوة في اتجاه الإيمان، فكل ما عدا ذلك ليس حرية، بل ثرثرة فارغة. لكن ربما يكون محاميّ محقّاً بسبب ذلك تحديداً: لماذا يجب عليّ أن أقول ذلك أمام الصحفيين المتجمّعين؟ لماذا إثارة الفتنة؟ لماذا إهانة الناس؟ في النهاية، الأمر بيدي، هل سأصبح حرّاً في يوم من الأيام، متحرّراً منهم أيضاً؛ على المرء أن يفعل ذلك وحده تماماً.

مرّةً بعد أخرى أتأكّد من أنني أستطيع تبادل الحديث مع وكيل النيابة، رافع الدعوى ضدّي، على نحو أفضل من الكلام مع ما يسمّى بمحاميّ. هذا يؤدّي إلى الوثوق به في أشياء لا تخلو من خطورة. اليوم أراني صورة لزوجته، زيبيله، التي ترسل إليّ في كلّ مرّة تحياتها. نتحدّث طويلاً عن الزواج؛ بالطبع يبقى الكلام عامّاً جدّاً. المدّعي العام يعتبر الزواج ممكناً (على ما يبدو جعلته خبرات معيّنة يتشكّك في ذلك)، وإنْ كان صعباً. بالطبع يعني الزواج الحقيقي، الزواج الحيّ. من بين شروط الزواج في رأيه أن يكون لدى الطرفين وعيٌ بأن الحصول على حبّ الشريك ليس حقّاً من حقوقنا؛ الوعي بأن يكون لدينا طوال العمر الاستعداد لما هو حيّ، حتى لو كان الزواج مهدّداً، أي أن يكون الباب مفتوحاً دائماً أمام غير المتوقع، ليس أمام المغامرة، بل أمام المخاطرة؛ ففي اللحظة التي يعتقد فيها شريكان أن كلّاً منهما يعرف الآخر كلّ المعرفة، يكون كلٌّ منهما قد خسر الآخر. وأيضاً: المساواة بين الرجل والمرأة؛ التخلّي عن الرأي القائل بأن الوفاء الجنسي وحده يكفي، وكذلك عن الرأي الآخر القائل بأن الزواج غير ممكن مطلقاً من دون وفاء جنسي؛ حرية إلى أبعد حد ممكن، حرية صادقة في كلّ المواقف، لكنّها تراعي الآخرين. ويبدو أن من المهم أيضاً بالنسبة إليه الشجاعة المشتركة في مواجهة المحيطين بهما؛ يتوقف الزوج والزوجة عن أن يكونا زوجين إذا تحالف أحد الشريكين أو كلاهما مع الأشخاص المحيطين بهما لوضع الشريك الآخر تحت ضغط؛ ثم الشجاعة في القدرة على التفكير، دون اتهامات، بأن الشريك قد يكون أسعد من دوننا؛ ثم السلوك المنصف الذي لا يحاول أبداً إقناع الشريك بالكلام أو بأيّ وسيلة أخرى بأن خروجه من الزيجة سيقتلنا... إلخ. يقول المدّعي العام كلّ هذا، كما قلت، في نبرة عامة، بينما كنتُ أنا أشاهد صورة زوجته، وجه ليس عامّاً على الإطلاق، وجه لا يتكرّر، حيوي، لطيف إلى

أقصى درجة، أكثر جاذبية من كلامه الصادق تماماً، الكلام الذي يدور حول خبراته المتكتّم عنها مع هذا الوجه؛ عندئذٍ أُرجع إليه الصورة.

يقول المدّعي العام: «نعم، ماذا كان منطلق كلامنا؟».

- «عن أن زوجتك تنتظر طفلاً».

- «نعم، ننتظر ذلك بكلّ شوق».

- «آمل أن يتمّ كلّ شيء بخير».

- «نعم، لنأمل ذلك».

مكتبة
t.me/t_pdf

جان لوي دميتريتش عازف البيانو في مدرستها للرقص، نصف روسي، مرهف الحسّ جداً، رجل بين الأربعين والخمسين، غير متزوّج، موهوب - ويوليكا تشعر بالسعادة لتعرّفها بهذا الإنسان الطيب. هكذا تقول وتطلق عليه ببساطة «سندها في باريس». لا تقول أكثر من ذلك عنه. ربما لم يكن عليّ أن أسأل. ربما تعتبرني يوليكا الآن غيوراً عليها.

صديقي المدّعي العام يسألني ما إذا كنت قرأت «أنّا كارنينا». ثم: ما إذا كنت قرأت «إيفي بريست»(*). وفي الختام: ما إذا كنت أستطيع تخيّل سلوكٍ آخر للزوج المهجور غير ذلك الموصوف في هاتين التحفتين الأدبيتين. سلوك أكثر كرماً، يقول، ثم ينهمك في الحكي. يبدو أن المدّعي العام منشغل جدّاً بفكرة ذلك السلوك الكريم من جانب الزوج المهجور، وهو سلوك يستطيع تخيّله، وقد نجح في أن يسلكه من دون عناء. أصغي

(*) الإشارة إلى روايتين شهيرتين، الأولى للروسي تولستوي (1828-1910)، والأخرى للكاتب الألماني تيودور فونتانا (1819-1898)، والروايتان معاً تتمحوران حول علاقة الزوجة بالعشيق. (م).

إليه طوال عصر ذلك اليوم. مندهشاً بعض الشيء من أنه فتح قلبه لي (هو في الحقيقة لا يريد أن يفتح قلبه لي، لكنّه يجد نفسه شيئاً فشيئاً مجبراً على أن يعبّر بدقّة، وأن يزيل كل أنواع اللبس، وأن يتحدّث عن المثال المحدّد المأخوذ من خبرته الخاصة)، يسألني بين الحين والآخر: هل تستطيع فهم ذلك؟ إنها حكاية تشبه آلاف الحكايات من هذا النوع، أي من الممكن فهمها من دون عناء؛ إنني أفهم أيضاً احتياجه إلى رؤية ذلك المفقود شتيلر الذي عشق زوجته، حسبما سمعت، إلى أقصى الحدود المحتملة (بالنسبة إليه).

منذ بضعة أيام وحارسي، كنوبل، غريب قليلاً، دائماً يتعجّل الخروج من زنزانتي. لم تفُتني ملاحظة ذلك. اليوم يقول لي بصريح العبارة: «سيد شتيلر...».

أنظر إليه ولا أنطق بكلمة. يقول لي وهو يبتعد عني خجلاً وكأنه خائن: «اللعنة! لقد كنتُ الوحيد الذي صدّقك!».

يوليكا تقنع الجميع.

- «سيد شتيلر، ليس ذنبي أن الأمور أصبحت هكذا، يا إلهي، لستُ غاضباً منك، لأنك حكيت لي كل هذه الأكاذيب، لكن الذنب ليس ذنبي».

أتناول طعامي وأصمتُ.

الكرّاسة الرابعة

لا تريد أن تخرج من رأسي تلك الحكاية الصغيرة التي حكاها لي صديقي المدّعي العام بالأمس عن قطعة قماش بلون اللحم في جنوة. أراه -فلنسمّه رولف- مثلاً في قطاره الليلي الذي صعد إليه من دون تفكير، ومن دون اكتراث بالوجهة التي ستأخذه الرحلة إليها، سعيداً مثل هارب، سعيداً لأن ثمّة قطاراً ينطلق في منتصف الليل. خلال السفر، هكذا فكّر، يكون التحمّل ربما أسهل، ثم إنه لم يكن يريد بأيّ حال من الأحوال أن يقف أمام زوجته مرّة أخرى الآن بعد أن استولت عليه الصدمة الأولى وأصابته بالشلل. وربما يأمل في شيء بعبوره الحدود. كلّما ابتعد، كان ذلك أفضل! كان إذاً يجلس في ذلك القطار الليلي، رجل بلا متاع، وحده في مقصورة الدرجة الثانية. في ميلانو، في ظلمة الفجر، توقف القطار في محطة خاوية من البشر. راح عامل إيطالي في السكة الحديد يدقّ بمطرقة صغيرة على العجلات، في ما عدا ذلك فقد بدا العالم كلّه نائماً مثل زيبيله التي تخلّصت من كل همومها بعد أن اعترفت لزوجها. اجتاحت رأسه خطط ثأر صبيانية؛ الانتظار في هذه المحطة جعله يعي أكثر بغياب الهدف. وفجأة صاح ديك في مكان ما، وبعده بفترة قصيرة صاح ديكٌ ثانٍ، ثم ثالث، وفي النهاية صاحت عربة بضائع مكدّسة بالطيور كانت تنتظر السوق

الصباحية. وأخيراً، عندما دارت عجلات القطار من جديد، استطاع رولف أن ينام رغم كل شيء، وبين حينٍ وآخر كان يستيقظ بعد أن يقفز إلى وعيه أن وجه النائم بفم شبه مفتوح لا بدّ أن يكون وجهاً غبياً؛ لكنّه يجد نفسه وحده في المقصورة مثلما كان. فعل كل شيء حتى ينام، فكلما طال النوم، كان الأمل أكبر في أن يكتشف عند استيقاظه أنه كان يحلم حلماً شرّيراً.

في جنوة كانت الشمس مشرقة. وقف رولف أمام بواكي المحطة متعباً للغاية في الحقيقة، حتى إنه كان يودّ لو استطاع الجلوس ببساطة على الدرج مثل المتسوّلين، رجل بلا حقائب، لكنّه يحمل على ذراعه معطفاً لا لزوم له، وذقنه نابتة، هكذا راح ينظر إلى المرور ويسمع آلات التنبيه، وينظر إلى الترام المصلصل والمجلجل وهو يختفي في ظلال حارات ضيقة، وجحافل البشر الذين بدوا كلّهم وكأن لديهم هدفاً - كانت هذه جنوة إذاً. أشعل سيجارة. وماذا بعد؟ سائراً بين البواكي لاحظ أن أحداً يحوم حوله ويتفحّصه، ربما شخص يقوم بتغيير العملة، فمشى مبتعداً. في بار رخيص بين الحمّالين وسائقي التاكسي، أي إنه كان محاطاً بمجموعة من المتذمّرين، في حين كان رجلٌ رثّ الثياب، منفوش الشعر يمسح الأرضية الحجرية بين زوج حذائه ممتاز الصنع، راح يحتسي قهوته السوداء، واعترف لنفسه بغياب أي مشاعر لديه.

كانت قد قالت له: «هل سننفصل أم كيف سيكون الوضع؟ هذا شيء لا أعرفه أنا نفسي بعد. كل ما أريده هو أن تدعني وشأني».

قول آخر لزوجته: «لستَ أنت من يمنحني الحرية. ما معنى هذا؟ سأقتنص بنفسي حريتي عندما أحتاج إليها».

يبدو أن هذه الجملة تحديداً هي التي أثارت حنق الزوج حتى إنه بدأ يتحدّث عالياً في وضح النهار في جنوة، ولم يعد يعرف إلى أين ذهب. غير

أن ذلك لم يكن مهمّاً. هو في مكان ما بين المخازن والقطارات وبراميل القطران. نعم، لقد مرّت عليه لحظاتٌ راح فيها يسبّ ويلعن بصوتٍ عالٍ زوجته على الجانب الآخر من جبال الألب، وكلما كانت الكلمات أكثر وضاعة، شعر براحة أكبر. كانت جملاً (هكذا قال) صريحة في بذاءتها العنيفة، كلمات لم يتفوّه بها من قبلُ قطّ. وعندما حدّثه أحدهم فجأة، شعر بالإحراج الشديد. لم تكن لديه أي رغبة في التعرّف على مفاتن جنوة. لم يحدث طوال حياته أن شعر يوماً بعجزه مثل الآن. وكأن الآخرين يرون على وجهه كل تلك الأفكار المضطربة المشوّشة التي كانت تجول برأسه، كان عاجزاً في تلك اللحظة عن صدّ أحد المراكبية، وهكذا انصاع أخيراً له وقام بجولة صغيرة في الميناء. البحر يظهر في صورة رصاص رمادي ببقع لامعة من البترول. كان رولف متوتراً مثل تمثال «المفكّر» لرودان، جلس على مقعد عليه حشيّات رثّة، وخلفه المجذّف الإيطالي، وبالطبع دون أن يعير أذناً للشرح الذي يتضمّنه سعر الجولة. من أحد جوانب سفينة تدفّق ماء ساخن من المطبخ. ثم سار قارب التجذيف فوق سفينة بضائع غارقة؛ من الأعماق القذرة برزت مهدّدةً الألواحُ الحديدية المغطاة بالطحالب. من بعيد تردّد صدى المطارق. بالطبع كان كلّ شيء بالنسبة لرولف وكأنه في فيلم، صحيح أنه فيلم ملوّن ذو رائحة، لكنّه فيلم؛ حدث بلا حاضر. بين الحين والآخر سُمع بوق سفينة واهن، زادته الريح وَهناً، وشطره الصدى، لم يعرف من أين أتى ولا لماذا صدر، إذ لم يكن في نيّة أيٍّ من البواخر الكبيرة التحرّك. كان الطقس حارّاً. فوق مياه الميناء علقت سحابات من العفونة المائلة إلى الزرقة. لم يمرّ بهم سوى قارب صيد قذر، في الماء تأرجحت عوّامات بحرية كانت سلاسلها المغطّاة بالفطر غارقة في الأعماق العكرة، منظر فظيع. وهكذا راح المراكبي يجذّف بين الأحجار الكاسرة للأمواج وأرصفة السفن، كل شيء مغطى بالزيت والسناج الأسود، سواء

الخشب أو الحجر. على الأقلّ كان الوقت يمضي. هنا وهناك كان بطن إحدى الأسماك الميتة يبرق، أو غسيل البحّارة، أو يتصاعد صوت مغنٍّ من إحدى كبائن السفن، كل ما تقدّمه جولة في الميناء كان موجوداً، ثمّة حتى سفينة حربية رمادية بمدافع مُغطاة، وجبل من الفحم وعليه طيور النورس البيضاء، ومن بعيد المدينة المكوّمة على المنحدر، جنوة التي كادت أن تبدو غير حقيقية.

قالت زيبيله أيضاً: «لا أريد الآن أن توجّه لي أسئلة أخرى. يوجد رجل، نعم، وهو مختلف تماماً عنك. لا أستطيع فعلاً أن أقول لك الآن أكثر من ذلك. ربما أحبُّه حقّاً، لا أعلم بعد. كل ما أرجوه الآن منك أن تدعني وشأني».

... قرّر رولف أن يستكمل جولته في الميناء بوجه شخص سقط على رأسه لوح خشب. دفع ما طلبه النصّاب. كانت أمنيته الوحيدة الآن هي النبيذ، نبيذ كثير. بدأت حكاية قطعة القماش –وبالطبع فإن المدّعي العام حكاها على نحو أكثر حيوية مني!– من أمام المطعم، وتحديداً عندما سأل بحّار أميركي عن حارة من الحارات. من أين لرولف أن يعلم ذلك! غير أن البحّار سار بجانبه. بدت لكنته الأميركية حقيقية، أي إنها غير مفهومة إلى حدّ كبير بالنسبة لرولف. على كل حال فهم رولف أن سفينة البحّار ستنطلق في الثانية، أي قريباً جداً، وبالفعل كانت هناك سفينة في الميناء على وشك المغادرة، أما العلبة التي يحملها فهي هدية لزميل إيطالي من أيام الحرب. اللعنة، رولف كانت لديه مشاكله، غير أن البحّار اليائس ظلّ يلحّ عليه بحكايته المعقدة للغاية، والعلبة المربوطة، ولأنه لم يعثر على الزميل الإيطالي من أيام الحرب، فإنه مجبر على بيع قطعة القماش قبل انطلاق السفينة الواقفة التي هي، بلا جدال، على وشك مغادرة الميناء؛ فمن العبث أن يأخذ قطعة القماش الرائعة هذه مرّة أخرى معه إلى أميركا.

لم يكن رولف لديه اهتمام بالشراء. وحتى يتخلّص من الشاب ويتفرّغ لنبيذه، أشار إلى أحد المارّة، شابّ جنويّ لا يلفت الانتباه في أيّ شيء، فربما يعرف الحارة المقصودة، أو يكون في حاجة إلى قطعة القماش. وبهذا تنتهي مهمّته! ولكن: الشاب الجنوي الذي بدا عليه الاستياء لتعطيل مساره المستقيم نحو هدفه، لا يفهم اللهجة الأميركية، والبحّار لا يفهم الإيطالية. كان على رولف أن يترجم. لم يعجبه ذلك مطلقاً؛ فهو لم يسافر طوال الليل إلى جنوة من أجل ذلك، كما أنه يشتبه طبعاً في أن يكون كلّ ذلك عملية نصب متقنة. ولكن ما هي؟ إن معرفته بالإيطالية قليلة، تماماً كمعرفته باللهجة الأميركية، والشاب الجنوي لا رغبة له في قطعة القماش، تماماً مثل رولف، وعموماً كان يقف رافضاً للموضوع كلّه، ولذلك لم يكن من المنتظر أن يحدث بيعٌ وشراء من الأساس. ابتعد رولف مرّتين، لكن البحّار المضطرب أحضره ثانية، فقد كان، باختصار، ضائعاً من دون مترجم؛ بعد نقاش طويل حول السعر (في هذه الأثناء نسي رولف زوجته على الأقلّ) وبغمزة عين تعرب عن استعداده للمقايضة غير المشروعة، قادهما الشاب الجنوي عبر حارات كانت تضيق شيئاً فشيئاً، حارات مزوّدة بسلالم ويلعب فيها أطفال، ثم عبر ممرّات ضيقة ملتوية مزدحمة بالملابس الملوّنة المنشورة وتملأ جنباتها الصرخات، إلى أن وقف في ظلال مدخل منزل مبدياً استعداده لمعاينة قطعة القماش.

راح رولف -وقد أُريح لبرهة من خدماته كمترجم- يدخّن سيجارة؛ وجرى كلّ شيء في صمت تام. على الأقلّ بسبب طريقته الفظة التي تفوح تفوّقاً كان الشاب الجنوي أقل لطفاً من البحّار الذي راح ينظر بين حين وآخر إلى الساعة. شدّ الشاب خيطين أو ثلاثة خيوط من العلبة، ولعقها ثم رفعها تجاه الضوء الشاحب النافذ من الباحات الخلفية الظليلة، ثم قال إن هذا ليس صوفاً! على الأقلّ ليس صوفاً خالصاً، من الممكن أن

يكون 50 على 50. كعادته ترجم رولف ببعض الرفق. 30 ألف ليرة إذاً، آخر كلام! وعندما حان وقت الدفع أخيراً، اكتشف الجنوي للأسف أن بحوزته 10 آلاف ليرة فقط، والباقي بالطبع في البيت، لكن البحّار لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك. ما العمل؟ ربما يستطيع المترجم المساعدة. هذا هو بالطبع بيت القصيد، رغم ذهنه المشتت كان رولف يعرف ذلك، ورغم كل الارتياب في الموضوع بأكمله مدّ يده إلى محفظته التي لم تكن عامرة، ليس رأفةً بذلك الذي يدّعي أنه بحّار، بل (هكذا قال) بسبب خوفه فحسب من أن يكون إنساناً حذراً ضيق الأفق. البحّار، بين الامتنان من ناحية، والغضب من الابتزاز الذي تعرّض له من ناحية أخرى، قبض على الثلاثين ألف ليرة، ومنها عشرون ألفاً من رولف، وحيّاهما بسرعة، ثم ركض. كانت الواحدة والنصف! أمام رولف سلك الشاب الجنوي -الذي كان يعامل البحّار معاملة مقزّزة- سلوك الجنتلمان؛ فلم يُرِد أن يأخذ العلبة، بل تركها لرولف لكي يحملها حتى يحضر له الليرات. كرهن، فقد كان يشعر بارتياب الآخر. ثم سارا ثانية بين حارات الفقر، ورولف يضع العلبة المربوطة تحت إبطه، إلى أن قال الجنويّ أخيراً -كان قد صمت طوال الطريق وكأنه منزعج- إن هذا هو بيته وإن عليه الانتظار هنا، وسيعود فوراً: «Mia casa, attenda qui, vengo subito!».

ألقى رولف نظرة على واجهة منزل متداعٍ من طراز الرينسانس، من دون أن يعلم أين هو الآن؛ في مكان ما في جنوة. في الميناء القريب ارتفع دويٌّ خافت من بوق سفينة. ربما لم يكن في الأمر نصب أو احتيال. القيظ الصيفي في الظهيرة، حتى في هذه الحارة الظليلة بأسوارها الرطبة العفنة؛ السكون، فالحارة بعيدة عن حركة السير، ونعاسه بعد الرحلة الليلية بالقطار، ليس هذا فحسب، قبل 24 ساعة كان رولف في لندن، مشاركاً في مؤتمر دولي للقانونيين، ثم كانت (بالأمس) الرحلة بالطائرة التي تلاعبت بها الرياح،

والعشاء مع زوجته المرحة على نحو غريب، ثم باب غرفتها المغلق، وبعد ذلك بوحها له بالأمر... إلى آخره، الفجر في ميلانو مع صياح الديكة - كلّ هذا في أربع وعشرين ساعة، هذا كثير بعض الشيء، والآن، في هذه الحارة الفقيرة العفنة، حيث كانت المزاريب تصب مياهها فوق الأسوار، الآن يعي مرّة أخرى أن المرء عندما ينسى حقيقة لبعض الوقت، فهذا لا يعني أنها لم تعد حقيقة، كلا، إنها حاضرة دائماً، دائماً، دائماً أبداً، وجهها الطافح بالسعادة مع رجل آخر، ليس هذا حلماً سيّئاً بل واقعاً أكثر واقعية من جنوة هذه بحاراتها وأطفالها، وهذه الأسوار التي يمكن الإمساك بها، وهذا القيظ الذي يجعل المرء يمزّق رباط عنقه، ثم هذه العلبة المربوطة التي كان على رولف أن يحملها - كلّ هذا لم يدع له مهرباً سوى الغفوة، حتى لو كانت العاقبة هي أن يحتال عليه الجنويّ. كانت الساعة توشك على الرابعة عندما استيقظ رولف، المدّعي العام في قضيتي؛ كان يقرفص مستنداً على سور وفوق ركبتيه العلبة الملعونة التي استخدمها وسادة. ولا أثر بالطبع للشاب الجنوي الذي كان سيوقظه بالليرات! يلعب الأطفال في باحة من الباحات، وتصرخ الأمهات وهنّ ينادين على أطفالهن: «إيتوره، إيتوره!»، ثم بصوت أعلى: «جوسيبينا، جوسيبينا!».

وفي الأسفل، في الحارة، جلس رجلٌ غريب بساعة ذهبية في معصمه ينتظر، من دون جدوى، أن تعود إليه العشرين ألف ليرة. نهض رولف. كان الشابّ الجنوي قد اختفى بعد عبوره البوّابة المشيّدة على طراز الرينسانس، والتي نمت عليها بعض الطحالب، لكن عند التدقيق اتضح أنها لا تقود إلى أيّ منزل، بل إلى الحارة التالية ببساطة. هناك وقف رولف، وكأنه لم يدرك إلا الآن أن زيبيله ترقد في أحضان رجل آخر، نعم، صحيح، هذا هو ما يؤرّقه. نصف واعٍ كان ينظر أحياناً إلى ذلك الشاب الجنوي خلال المقايضة متسائلاً: هل ستحبّ زيبيله مثل هذا الشعر، هاتين

الأذنين، هاتين الشفتين، هاتين اليدين؟ أيُّ نوع من الرجال من الممكن أن يكون ذلك الآخر؟ كلّ ما كان رولف يعرفه هو أنه «مختلف تماماً عنك!». ملايين من الرجال إذاً من الممكن أن يكونوا هذا الرجل. والآن، وهو يقف على الناحية الآخرى من بوابة الرينسانس الخالية، كاد رولف يشعر في الحقيقة بالفرح لأنه لن يرى الشاب الجنوي الجذّاب مرّة أخرى. لكنّه فقدَ تقريباً كل سيولته النقدية. والأكثر مدعاةً للحرج هو تعرّضه لهذه الهزيمة النكراء، وتحديداً الآن حيث كان يريد أن يظهر، بعد ما حدث مع زوجته، في مظهر الرجل العظيم، أمر صعب، لا يقارن بفقدان عشرين ألف ليرة، أمر لا يمكن تعويضه. لم يجرؤ على النظر إلى العلبة المربوطة التي تحتوي على قطعة القماش الرجالي، الرهن بالنسبة له. لم يكن أمامه الآن سوى البحث عن فندق رخيص، حيث لا يثير انتباه أحد، فهذه الربطة هي متاعه الوحيد الظاهر. وقف في غرفة فندق، جدرانها مغطاة بورق حائط عليه زهور، كان يتصبّب عرقاً، وحائراً إلى حدّ ما، لا يعرف ماذا يفعل في جنوة هذه؛ ألقى بالعلبة المربوطة في الخزانة، وتناول جرّة الماء وملأ الحوض، ثم حاول، من دون صابون أو فرشاة أسنان أو إسفنجة، أن يغتسل.

أقام أربعة أيام في جنوة.

رولف (هكذا قال بنفسه) لم يكن يتوقّع يوماً أن زيجته، زيجته هو، من الممكن أن تفشل مثل زيجات أخرى كثيرة حوله. لم يرَ سبباً لذلك. إنه يحب زبيليه، وكان يعيش آنذاك معتقداً أنه قد حلّ مشكلة الزواج بطريقته الخاصة. منذ فترة طويلة لم يعد زواجهما زواجاً كلاسيكياً، بمعنى أن يُخلِص كلّ شريك للآخر. ولكن هذا ما حدث، وفي المقابل فقد حصلت زبيليه على طفل عوّضها في السنوات الأولى عن أشياء كثيرة، صبي يدعى هانيس. لم تكن هذه هي الحياة كما حلمت بها زبيليه، من ناحية أخرى لم تكن جحيماً، كانت زيجة مثل زيجات أخرى كثيرة، وفي

كلّ عام يقومان برحلة جميلة معاً، إلى مصر مثلاً. فكرة الانفصال كانت بعيدة عنهما، وفي كلّ الأزمات السابقة ظلّ كلّ طرف يشعر بالثقة الكبيرة في الآخر. بصدر رحب تقبّل المغامرة العاطفية التي قامت بها زوجته في حفلة راقصة بالأقنعة، كانت لديه هموم أخرى في ذلك الوقت؛ آنذاك كان عليه أن يقرّر ما إذا كان يريد أن يصبح مدّعياً عامّاً أم لا، وهو على كلّ حال قرار مهمّ، وعندما تخرج زيبيله في تلك الأثناء لكي تتنزّه مع مهرّج الحفل الراقص، فإن ذلك لم يشغله كثيراً؛ بل إن رولف لم يسألها حتى عن الاسم. كان يرى دائماً أن على المرء، على كل حال، ألّا يفهم الزواج بالمعنى البورجوازي الضيق، من الواضح أنه كان، كما قلنا، يتبنّى نظرية جادّة عن قدر الحرية اللازم في الزواج، نظرية ذكورية، هكذا أطلقت عليها زيبيله. على ما يبدو لم تكن تطيق مثل هذه النظريات قطّ، رغم أن نظريته ترتكز على نتائج علمية توصلت إليها جامعات مختلفة. وبالطبع فإن هذه النظرية ترتكز على المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة. لم تكن إذاً، مثلما كانت زيبيله ترى في كثير من الأحيان، ذريعة ذكية يستخدمها الرجال، أو لم تكن كذلك فقط. كان رولف يأخذ الأمر بجدّيّة شديدة؛ كان من مهنته يعرف بؤس الزواج، والرياء المنتشر حول مفهوم الزواج والذي لا ينسجم مع الواقع، في حين أن ما يهمّه هو فكرة الزواج المَعيش، أن يعيش الزوجان في كرامة، لا أن يعيش كلّ زوج متصنّعاً أمام نفسه. كان بإمكان رولف أن يقول الكثير عن ذلك؛ كانت زيبيله تطلق على ذلك «محاضراته»، ولكن عندما يسألها عن رأيها هي، يسألها مرّة بعد أخرى، إذ إن رولف لا يريد أن يتحصّن خلف مذهبه، لم تكن تردّ إلّا بالحجّة الأنثوية: إن النظريات لا تجدي شيئاً في الحياة.

غير أن مهرّج الحفل الراقص، هكذا يبدو، كان يشغل باله، حتى وإن لم يتحدّث عنه، وربما يكون ذلك قد حدث في اللاوعي فحسب؛ وفجأة قرّر

رولف أن يبني منزلاً خاصاً به، فالمنزل الخاص كان دائماً هو أقصى أمنيات زيبيله، ولأن رولف رجل الأفعال، فقد اشترى قطعة الأرض بالفعل. كانت زيبيله غريبة في ردّ فعلها. كانت تعرف قطعة الأرض، وكانا يتمنّيان شراءها منذ سنوات؛ والآن، ها هو ذا قد اشتراها، لكن زيبيله لم تتهلّل فرحاً. وبعد مرور أسبوع دعا المهندس المعماري الشاب، المدعو شتورتسن إغر، ليتناول قهوة سوداء معه، وراح المهندس يتحدّث متحمّساً عن الحداثة الصارمة، وهو ما أجبر الزوجة مشتّتة الذهن للغاية على أن تعلن رغباتها بدقّة تامّة. غرفة نوم مشتركة أو منفصلة، مثلاً، وكلّ شيء لا بدّ أن يُحسم بسرعة بالغة. في وسط ذلك النقاش (هكذا قال المدّعي العام في قضيتي) رنّ جرس التليفون، فتناولت زيبيله السماعة كالمعتاد، ثم صمتت، وقالت لا، ونعم، ثم لا، ثم وضعت السماعة، وادّعت أن «النمرة غلط». كانت مضطربة للغاية. همم، هكذا فكّر رولف، مهرج الحفل الراقص! ثم واصلا النقاش حول تخطيط المنزل؛ أنقذت زيبيله نفسها بادّعاء الاهتمام البالغ، وكانت توافق على كل شيء، هذا جيد، وهذا أيضاً، وكأنها لن تنتقل أبداً للعيش في المنزل المخطّط تشييده. في ختام تناول القهوة السوداء ذلك (لم يعد المدّعي العام يتذكّر السياق) راح المعماري الشاب يتحدّث عن رجل من الإسكيمو استضاف غريباً أبيض وقدّم له الطعام، وفي النهاية عرض عليه زوجته أيضاً، وعندما لم يمسّها الغريب، شعر المضيف بالإهانة البالغة في شرفه، لدرجة أنه أمسك بخناق الغريب، وراح يخبط رأسه بجدار الكوخ إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. بالطبع ضحكوا. بعد ذلك حكى المعماري الشاب حكاية أخرى مضحكة عاشها صديقه المدعو شتيلر في الحرب الأهلية الإسبانية. كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها المدّعي العام في قضيتي باسم شتيلر. لم تحتفظ ذاكرته بالكثير من حكاية الحرب الأهلية الإسبانية، كل ما يتذكّره هو بندقيّة روسية لم

تعمل. على العكس من ذلك فهو يتذكّر جدّياً أن زوجته -زيبيله التي كانت من قبل مشتّتة الذهن- اهتمّت اهتماماً فائقاً بحكاية البندقيّة الروسية. وعندما انصرف المعماري، راحت تدندن وهي تسير في كلّ الغرف؛ أرجع رولف ابتهاجها إلى البناية المزمع إنشاؤها، غير أنه لم يستطع أن يكتم ملاحظته: «أنت واقعة في الحب، أليس كذلك؟!»، ولأنها لم تنفِ ذلك، سألها: «يعجبك المعماريّ الشاب؟».

كانت مزحة من طرفه، لكنّها سألته: «هل ترى ذلك؟».

- «اعترفي!».

- «أنت تؤلمني! أعترف، ولكن اتركني!».

كانت مزحة كما قلنا، وكان على رولف أن يذهب إلى عمله، وضعت زيبيله فناجين القهوة الثلاثة على الصينية، وانتهى الموضوع آنذاك على ذلك...

الأيام الأربعة في جنوة:

المعاناة التي عاناها في تلك الأيام هي بالتأكيد (هكذا يرى المدّعي العام) الأكثر سخافةً في حياته، لكنّها لم تكن عديمة الفائدة. لقد تعرّف على قدرٍ من العاطفية لديه لم يكن قطّ يظن وجوده، ولم يكن يعرفه حتى تلك اللحظة، راح يعبّ الخمر عبّاً إلى أن تحتّم عليه مغادرة المطعم لبكائه؛ ثم سذاجته التي جعلته يحملق في كلّ امرأة تبدو إلى حدّ ما معقولة، لساعاتٍ كان يهرب في أفكار تحوم حول أرخص أشكال الثأر؛ ثم جموده الذهني، طوال أربعة أيام وأربع ليال (هكذا قال) لم يشعر سوى لدقائق معدودة بالألم الحقيقي الذي ألقى به على ركبتيه في غرفة الفندق ذات الزهور، من دون أن يكون ذلك تصنّعاً أو من تأثير الكحول، ذلك الألم حرق آخر بقايا

الاتهامات وآخر بقايا الرثاء للذات؛ لا سيما عجزه عن أن يعشق امرأة إذا لم يكن معبودها، أن يعشق من دون أن ينتظر شكراً، أو مراعاة لمشاعره، أو إعجاباً... إلى آخره. كانت فترة عناء ومشقّة. راقداً بملابسه على سريره الحديدي، ومدخّناً أثناء ذلك، راح يعذّب نفسه بتخيّلات مفزعة في دقّتها عن زوجته وهي ترتمي في أحضان الآخر؛ لم يكن ذلك هو العناء، بل الاسترخاء الذي منحه لنفسه. العناء كان هو الإدراك، الاعتراف الإجباري بأنه انخدع للغاية في مستوى مشاعره، في مدى نضجه. ولا حتى إرادته (هكذا قال) كانت على مستوى التجربة؛ لقد رحل من دون أن يقول كلمة واحدة، لكنّه لم يستطع في ما بعد أن يمنع نفسه عن إرسال رسالة مغلقة إلى سكرتيرته طالباً منها أن تسلّمها لزوجته في حالة السؤال عنه فقط، رسالة فيها عنوانه في حالات الطوارئ. طوال أربعة أيام لم تحدث حالة من حالات الطوارئ على ما يبدو. انظر، لم يفتقده أحد! يوماً بعد يوم، وطوال نصف ساعة بعد وصول القطارات الصباحية، كان يستعلم دائماً عن بريده المحفوظ posta restanta، ولكن من دون جدوى.

في تلك الأثناء قضى ساعاتٍ سخيّةً مرحة، بالتأكيد، لقد طالع مذكّرات تشيرشل باللغة الإنكليزية، وكان يجلس كسولاً حليق الذقن في الشمس الصباحية، يحتسي شراب «الكامباري» الأحمر، ويقرأ عن خلفيات الحرب العالمية الثانية، دون أن يضطرّ للنظر في الساعة، لكنّه في الحقيقة كان ينتظر فحسب أن يفتقده أحد، وأن يبحث عنه أحدٌ بكلّ السبل، نعم، لم يكن سيفاجئه أن يرى زيبيله الباحثة، النادمة، في مكان ما في شوارع جنوة. شعر بصمتها الحقير مثل قاعة رخامية في مكتب بريد إيطالي مركزي، وفي كلّ مرّة كان ذلك الصمت يجعله شاحباً للغاية. كم من مرّة أجبرته هذه المرأة على الاكتشاف نفسه، وكم كان عاجزاً عن أن يعيش نظرياته! وأخيراً في اليوم الرابع وصلته برقية. كناجٍ ينهار تماماً بعد أن يدرك نجاته، هكذا

جلس لوهلة قبل أن يفتح البرقية، متعَباً ومسترخياً بعد أن اطمأنّ قلبه، مهما كان ما كتبته زوجته. لكنّها لم تكن من قرينته؛ السكرتيرة تريد فحسب أن تعرف متى سيعود. هذا يكفي. ضحك. كانت البرقية (هكذا قال) مثل دشّ بارد جدّاً. قطع البرقية وألقاها في سلة المهملات، ثم حسم أمره من دون تفكير طويل، وقرّر أن يستقلّ القطار التالي. ولكن: لدفع أجرة النوم في الفندق، فإنه يحتاج الآن إلى العشرين ألف ليرة. ما العمل؟ عليه أن يرى كيف وأين يستطيع بيع قطعة القماش الرجالية الأميركية، وعليه أن يفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة. في الظهيرة ينطلق أفضل قطار بالنسبة إليه. سيستقلّ أيّ قطار إلا أن يستقلّ قطاراً ليليّاً مرّة أخرى!

عندما خرج رولف من قاعة الفندق إلى الشارع، كانت الساعة العاشرة صباحاً تقريباً. كان مُحرَجاً بعض الشيء، فالعلبة تحت إبطه كانت في حالة رثّة للغاية، وبالطبع كان يقدّم قدماً ويؤخّر أخرى، لكنّه كان قد عقد أمره على أن يحاول تجربة حظّه كبائع، وأن يبحث عن محلّ أقمشة، محلّ ليس راقياً جدّاً بالطبع. مرّة أخرى كان الطقس شديد الحرارة. تصبّب عرقاً، غير أنه احتفظ برباط عنقه حتى يترك انطباعاً أفضل. لقي الصدّ في المحلّ الأول، وبطريقة تختلط فيها الرحمة بالوقاحة، وهذا ما جعله يفكّر في أنه من الأفضل البحث عن محلّ أكثر تواضعاً. دقّت الساعة الحادية عشرة، على الأقلّ لم يُطرد من الباب مباشرة خلال زيارته الرابعة، بل سُمح له أولاً بفكّ رباط العلبة؛ كان محظوظاً إذ لم يكن ثمّة زبائن في المحل. طرف قطعة القماش الرجالي الأميركي كان يكفي؛ صاحب المحلّ -رجل شاحب، متأنّق، ذو شارب صغير- ضحك في وجهه. لم يكن رولف يريد أيّ ربح، يريد أن يحصل فحسب على جزء من المبلغ الضائع حتى يستطيع دفع أجرة الفندق؛ حسب ما يتلقّاه من معاملة فقد كان فندقاً رخيصاً، رخيصاً جدّاً ربما. واصل المتأنّق ذو الشارب قراءته في صحيفته، وكأن رولف لم

يعد موجوداً. هنا، لأول مرة، لم يعد يتحدّث عن فرصة فريدة، بل عن وضعه الحقيقي. ولكن من دون أن يثير أقلّ قدرٍ من الاهتمام لدى الرجل، ولا حتى أدنى تصرّفٍ إنساني، بل ومن دون أن يبدو على وجهه أيّ ملامح للتفهّم المجاني، راح يتثاءب وهو يقلب صفحات جريدته، تاركاً رولف واقفاً إلى أن انصرف من تلقاء نفسه، واضعاً العلبة تحت إبطه. كان يشعر ببعض اليأس، من دون أن يفكّر حتى في زوجته بوجهها السعيد المتعالي. حقّاً، إذا حكمنا على قطعة القماش من الطرف البارز، فهي من نوعية رديئة إلى حدّ كبير، خشنة، منسوجة من أي شيء إلا الصوف، لا يمكن الادّعاء بأنها خمسون في المئة كذا وخمسون كذا، ثم نموذج الطباعة، لا يدعوه أبداً (أي المدّعي العام في قضيتي) إلى ارتدائها، شيء وضيع وتافه؛ ثم هذا اللون، لون اللحم!

قعد على درج كنيسة قديمة، تحيط به حمائم رمادية، وحول أعناقها يلمع ريشٌ يختلط فيه اللون البنفسجي بالأزرق والأخضر، وراح يفكّر في ما ينبغي أن يفعله في هذه الظروف، أو على الأقلّ حاول ذلك. خلفه واجهة باروكية الطراز، تستحقّ كلّ إعجاب؛ كانت زيبيله تفهم أكثر منه في هذه الأشياء. الآن لم يعد يعوقه شيء عن أن يفكّ رباط عنقه، وأن يشمّر أطراف أكمامه (من المرجّح أنها اتسخت على كل حال) تحت الجاكيت. شعر بالسعادة لأن زوجته، على الأقلّ، لا تراه؛ بقية البشرية تراه، نعم، فلتحملق فيه! دقّت الساعة الثانية عشرة في الناحية الأخرى، في الواجهة الباروكية، حيث سطعت الشمس على العناصر الزخرفية العلوية، فلمع لونها الرملي الزاهي على خلفية الزرقة البحرية لسماء الظهيرة. بعد ساعتين سينطلق قطاره. ساعته الذهبية أيضاً، صحيح، لا بدّ أن تختفي، قبل أن يذهب إلى باعة الأشياء المستعملة في حواري الميناء، حيث يعلّقون البضاعة على الأسوار المتقشّرة، قمصان، سراويل، جوارب، قبّعات. لم يعد المهم الآن

(حسبما يقول) هو الليرات، بل ثقته بذاته، هذه الثقة التي حملها الآن تحت إبطه في شكل علبة تزداد مع الوقت رثاثة.

لماذا لم يسِر مباشرة إلى أولئك الباعة! اكتسب تفاؤلاً لم يعرفه طوال هذا الصباح، بل كاد يكون مسروراً من هذه النادرة التي عايشها طوال تلك الأمسيات المرحة؛ راح يصفّر، أو بالأحرى: سمع نفسه يصفّر، من ناحيته كان يعي تماماً أن الأمر مريب. كانت حارة من حواري الميناء، حيّ تسود فيه شريعة الغاب. حتى لا يضربوه باعتباره نصّاباً، والحارات هنا لم تعد الشرطة تضع فيها قدماً، فتح علبته في حارة جانبية، لأول مرة، حتى يتأكّد من أن القماش يكفي فعلاً لبدلة رجالي. فتح العلبة، لا، الطول كافٍ. راح يلفّ قطعة القماش الملعونة ثانية، وهو أمر لم يخلُ من صعوبة إذا أراد ألّا يلمس القماش أرضية الحارة المبلّطة وألّا تفوح منه رائحة البول؛ ثم اقترب من البائع بسؤال تمهيدي عن كيفية الوصول إلى المحطة، وبالسجائر، وبخفّة دم، ومع ذكر القماش الذي اشتراه بالأمس لكي يفصّله خياط إيطالي له، ولكن، كما يحدث كثيراً في الحياة، وصلته اليوم برقية، وعليه الرحيل فجأة، ثم لعنات بحقّ الجمرك الذي لن يسمح بمرور مثل هذا القماش، حكاية طويلة سخيفة كان يعتبرها حكاية حاذقة، وكأنها حكاية من حكايات الشرقيين. تكفي بدلته التي تُظهر ثنية المكواة، وحذاؤه الممتاز، فضلاً عن خاتمه الذهبي الذي لوحظ بالطبع على الفور، كلّ هذا لم يكن يساعد في هذه المنطقة على إنشاء علاقة ثقة بين رفاق. صحيح أنهم سمحوا له بإخراج القماش المراد بيعه من العلبة وعرضه في الهواء الطلق. تابعت الصفقة بفضول مرتاب بضعُ نساء، وأطفالهن يرضعون من الثدي. راح البائع –وهو شيخ ذو أسنان بنّية اللون ونَفَس تفوح منه رائحة الثوم– يتأمل القماش متمعّناً، ما منح رولف أملاً ضعيفاً، ضعيفاً إلى الحدّ الذي جعله لم يجرؤ على أن يحدّد سعراً من ناحيته، بل سأل عن الثمن

الذي يريد البائع أن يعطيه له. رفض البائع قائلاً بالإيطالية: «Niente»(*). كان رولف سيرضى بألف ليرة، ألف ليرة من أجل ثقته بالذات؛ حتى يصل على الأقلّ إلى هذا المبلغ، قال إنه يطلب ألفي ليرة، آخر ثمن.

«No»، قال البائع.

- «ألف إذاً!».

- «No».

- «كم إذاً؟».

«Niente»، قال البائع رافضاً.

بشماتة ابتسمت النساء اللائي يحملن الرضّع أثناء مرورهن. مرّة أخرى راح رولف يلفّ قطعة القماش. أما بالنسبة للخاتم، قال البائع، فإنه يشتريه بثلاثين ألف. ضحك رولف. وللحذاء الممتاز قدّم البائع -من دون حتى أن يلمسه- سبعة آلاف ليرة، وكأنه (المدّعي العام) سيذهب إلى منزله حافياً. لم تبخل عليه هذه الـ«جنوة» بشيء! لم يبقَ في النهاية سوى شيء واحد: إهداء هذه العلبة لأحد. بأسرع ما يمكن! مثلاً إلى الشاب الذي يقف عند العمود هناك الملصق عليه الإعلانات، وهو يعزف على الهارمونيكا، من الواضح أنه عاطل عن العمل، والقبعة -التي يضعها على أحجار الشارع لكي يضع المارّة فيها هباتهم- فارغة. في اللحظة الأخيرة، عندما أبصر رولف ساقه الخشبية السوداء، أحجم عن ذلك. عليه إذاً مواصلة السير! أما الشابّ الفظّ الذي يرتدي ثياباً رثّة ويتسوّل السجائر، والجد العجوز مع حفيد في عربة أطفال حديدية فلم يظهرا له بمظهر المستحقّين لعلبته. لم يكن سهلاً على الإطلاق إهداء قطعة قماش لا يمكن أن يرتديها المرء نفسه تحت أيّ ظرف من الظروف، راح رولف

(*) بالإيطالية، وتعني: «لا شيء». (م).

يذرع الحيّ جيئةً وذهاباً، حيّ يسود فيه فقر فظيع. إنه لصدمةٌ دائماً رؤية الحالة الرثة التي يعيش فيها غالبية البشر هنا. بقي رولف واقفاً؛ شعر بمدى ضيق أفق احتياجه إلى أن يكون عادلاً، وأن يجد الإنسان الأكثر استحقاقاً لهديّته، لذلك انتوى أن يدلف إلى الحارة القادمة: الإنسان الذي سيقابله الآن سيحصل على قماش البدلة الرجالي - انتهى الأمر! الإنسان التالي كان امرأة شابة تجرّ قدميها جرّاً في الخفّ المنزلي. مواصلة السير إذاً! المارّ بعدها كان شرطيّاً يصفّر، ثم وصلت الحارة إلى نهايتها. في ساحة صغيرة بها شجرة كان فريقان يلعبان كرة قدم؛ رولف كان يقف في طريقهم فحسب، وتسبّب على ما يبدو في أن يسجّل فريق هدفاً في مرماه لأنه حجب الرؤية عن حارس المرمى، وبذا أثار شجاراً مريراً بين الفريقين شبه البالغين. مواصلة السير إذاً!

شعر مرّة أخرى بالتعب إلى حدّ الإعياء؛ بعد أربعين دقيقة سينطلق قطاره. ولكن ماذا يفعل بهديّته؟ من حانةٍ مظلمة حافلة بالضجيج خرج مخمورٌ يترنّح، غضبه العارم وخطورته الكبيرة لا تسمحان بإهدائه شيئاً. بالطبع كان بإمكان رولف أن يلقي العلبة بمنتهى البساطة في الحارة: استسلام. بعد فترة راح يدور لوهلة حول متسوّل أعمى مدّ يده. حتى هذا، هكذا بدا له، لا يصلح. من الممكن دفع أجرة الفندق بالبريد على كل حال، في ما بعد؛ ما زال معطفه في الفندق. وعموماً، بالطبع لم يكن مهمّاً ما إذا كان يستطيع دفع أجرة الفندق أم لا. المهمّ هو ماذا يفعل بهذه العلبة المربوطة. لماذا لا يرميها ويتخلّص منها؟ حاول رولف ذلك. لا أسهل من أن تفقد علبة، هكذا فكّر؛ رغم ذلك خفق قلبه بقوة حتى وصل الخفقان إلى صدغيه عندما أخذ يُنفّذ ما انتواه وما أجبره عليه عقله. في زحام الانتظار أمام إشارة حمراء، ترك العلبة تسقط، واندفع مع الزحام العام عابراً الشارع، وظنّ أنه نجا؛ ثم صفّر الشرطي، وانطلقت السيارات

التي سدّت الطريق خلفه لبرهة. أخيراً أصبحت يداه خاليتين، منحه ذلك شعوراً بالارتياح، شعوراً جديداً بالابتهاج بالحياة، وكأن شيئاً لم يحدث مع زيبيله. وضع رولف سيجارة بين شفتيه من دون أن يلتفت إلى الوراء ليرى ماذا حدث للعلبة الكابوس، ولم يكن ذلك ضرورياً، إذ إن امرأة شابة جميلة للغاية، ترتدي ثياباً فقيرة، نقرت على كمّه لكي تعيد العلبة التي التقطتها من الأرض إلى السيد المشتّت. لم يجرؤ رولف على إنكار ملكيّته لهذه العلبة الوضيعة، بورقها القذر ورباطها الرخيص الذي لن يعود قادراً بعد وهلة على الإمساك بقطعة القماش ذات لون اللحم. هل حُكم عليه الآن بأن يحمل هذا القماش بلون اللحم طوال حياته على هذه الأرض؟ قبل انطلاق قطاره بعشر دقائق وقف وقد انتابته حيرة لم يعرفها إلا نادراً، ما زالت العلبة تحت إبطه؛ خمس دقائق قبل انطلاق قطاره.

أجّل الاستسلام (هكذا أطلق عليه) إلى آخر دقيقة؛ أبواب العربة كانت قد انغلقت عندما وضع رولف قدمه على درجة السلّم، وبدأ القطار يتحرّك. وكأن الأماكن الشاغرة ليست مخصّصة له أيضاً، ليست لمن لم يدفع الأجرة أو للأزواج المهجورين، وقف رولف إذاً في الممرّ خارج المقصورات حتى وصل القطار إلى ميلانو. ماذا كانت زيبيله ستقول له؟ بالطبع كان يبالغ إلى أقصى حدّ في تقدير احتياجها إليه. بعد ميلانو لم يعد وحده في الممرّ؛ خاطبه شخصٌ سويسري، بالألفة المعهودة بين معظم مواطنيه عندما يتقابلون في الخارج، ولحسن الحظ وصلوا بعد وقت قصير إلى الحدود. بعد كياسو جلس في عربة المطعم، ونظرته مسدّدة على الدوام إلى الخارج عبر النافذة، حتى لا يتعرّف عليه أحد من معارفه أثناء تجواله في عربات القطار. لم يكن واعياً على الإطلاق بأنه كان لافتاً للأنظار إلى حدّ كبير، هذا الرجل ذو النظرة المسدّدة دائماً إلى الخارج عبر النافذة، سواء كان القطار يمرّ بنفق أم لا؛ بخيال خصب بالرثاء الذاتي رأى

رولف عندئذٍ، أكثر من أي وقت مضى في رحلته، مساحات من الماضي، لم يرَ سوى الماضي، ولم يخطر على باله أيّ حدث من دون زيبيله، لا سعادة من غيرها، ولا ساعة مثمرة قضاها من غيرها. كل شيء آخر كان هباء منثوراً، لا يستحقّ مجرد التفكير فيه. على حين غرّة تقريباً أصبحت زيبيله وحدها هي المعنى الوحيد لحياته ومضمونها الوحيد، وهذا المعنى قد انتقل الآن إلى رجل آخر، بعد أن حوّل الرصيد إلى مهرّج في حفلة أقنعة، أو إلى رجل من جنوة ذي شعر في سواد الغراب، أو معماري شاب، أو إلى أيّ شخص كان؛ لقد تمّ تحويل الرصيد ببساطة.

ابتداء من مدينة غوشنين هطل المطر بشكل مائل على زجاج النوافذ. أفضل شيء، هكذا فكّر رولف، ألّا يجعل زيبيله تلاحظ أيّ شيء عليه؛ يجب أن تحطّمها رباطة جأشه. بمجرّد أن يتذكّر رولف وجهها الوقح، كان يستعيد على الفور رباطة جأشه، أو فلنقل حسب ملامح وجهها الذي لم يكن سعيداً فحسب، بل وغريباً من السعادة، كلّا، لقد كان متهكّماً، وقحاً، متعالياً، يشعّ انتصاراً عليه. ولم يكن ينقص إلا أن يبدأ رولف، بنظرياته، في لومها؛ كانت ستضحك عالياً، وكان استهزاؤها به سيظهر علانية. بدت له رباطة الجأش هي المنقذ الوحيد، رباطة جأش بلا غضب، بلا اتهام أو شكوى، التمسّك برباطة الجأش إلى أن تركع هذه المرأة اللدود. حسم أمره، وها هي ذي بحيرة مسقط رأسه تلوح له في الأفق. لقد فكّر رولف حتى في مستقبله مع المرأة اللدود، وشرع في الصفير في عربة المطعم، وتوقف بالطبع بمجرّد أن استمع لنفسه، ثم ألحّ على العامل هناك لكي يدفع حسابه، وكأنه بذلك سيصل بسرعة أكبر إلى زيورخ. ولكن، ماذا إذا لم يكن ثمّة مستقبل، إذا لم تكن زيبيله تريد أن تسكن لدى رولف بعد اليوم، بل عند الآخر؟ أي إذا عاش رولف وحده في الشقّة، وحده مع رباطة جأشه؟ هكذا جلس عند دخول القطار إلى المدينة، ويده على الكأس، وما

زال يشعر بالخوف من أن ينقر أحدهم على كمّه ليسلّمه مرّة أخرى العلبة الرثة بالقماش ذي لون اللحم -

وضعت زيبيله (زوجة المدّعي العام في قضيتي) بالأمس، بعد منتصف الليل بقليل، بنتاً وزنها نحو سبعة أرطال. كان المدّعي لا يسمع أحداً من فرط سعادته. رجوته أن يرسل إليها زهوراً سأدفع له ثمنها في يوم ما. لقد نسي ذلك على الأرجح.

رغم ذلك أواصل تدويني:

عندما عاد رولف آنذاك من جنوة، هبط في محطة السكك الحديدية الرئيسية في زيورخ، من دون معطف، ولهذا لفت بالتأكيد الأنظار، أي إن زيبيله، في حالة انتظارها له، كانت ستراه على الأرجح، لكنّه قال لنفسه بالطبع إن زيبيله لا يمكن أن تكون قد انتظرته على رصيف المحطة؛ فهي لم تكن تعرف شيئاً عن وصوله، ولم يتوهّم رولف أنها ستجرّب حظها وتقف منتظرة كل قطار دولي يدخل المحطة. على سبيل الاحتياط فحسب -فسيكون من السخف ألّا يرى أحدهما الآخر في المحطة- راح يتنقّل ببصره بين المنتظرين. كانت السماء تمطر في زيورخ. تحت سقف واقٍ من المطر نظر في محفظته ما إذا كان يستطيع أن يأخذ سيارة أجرة كعادته. وعندما وقف التاكسي أمام الشقّة، كان الأمر أفظع مما كان ينتظر. كان أمراً لا يطاق. شقة مَن هذه، شقّتها أم شقّته؟ القلق بهذا الشأن جعله يتردّد في الخروج من السيارة. تطلّع إلى أعلى، إلى شقّته، بعد أن رفع ياقة سترته حتى يستطيع العدو خلال المطر، وكلّ الإهانات التي تعرّض لها خلال رحلته لم تكن شيئاً مقارنةً بتلك اللحظة التي رأى فيها شقّته مطفأة الأنوار.

كان الوقت متأخراً، ولكن الليل لم ينتصف بعد. ربما استغرقت في النوم. على كل حال لم يغادر رولف السيارة؛ حتى عندما ألحّ سائق التاكسي بالأسئلة عما إذا كان هذا هو العنوان الصحيح، وما إذا كان عليه مواصلة القيادة. شعر رولف أنه غير حليق، وغير جدير بالظهور أمام زوجته التي تعشق الآن رجلاً آخر. هل نسي هذه الحقيقة؟ أن زوجته تعشق آخر؟ الآن، بعد كل هذه المشاعر المختلفة كل الاختلاف التي شتّتَت ذهنه، على الرغم من كل العذاب الذي شعر به، الآن شعر مرّة أخرى بالواقع المقفر للقبور، وشعر بعدم قدرته على أن يسمع من خادمتها الإيطالية أن «السنيورة» قد سافرت لبضعة أيام. فكلّ شيء ممكن الآن. ربما يجد في الشقّة رسالة قصيرة: سأعود على الأرجح يوم الاثنين، تحياتي الحارة، زيبيله، لا تنسَ من فضلك دفع الإيجار. أو ربما فقط: لا تنسَ من فضلك دفع الإيجار، تحياتي، زيبيله. انطلق رولف بالتاكسي نفسه عائداً إلى المدينة، ولم يجرؤ في تلك الأمسية حتى على الاتصال تليفونياً.

أن تنام في فندق في مدينتك، فهذا دائماً حدث غير مألوف، وقد استمتع رولف بهذا الحدث رغم كل أفكاره الكئيبة؛ ما زال الأمر محض حدث غير مألوف، أمر غير مؤكّد، مثير - ولذا سادت الفوضى أحلامه. في الصباح التالي، يوم الأحد، لم تعد السماء تمطر. سار رولف في البداية إلى ورشة البناء، حليق الذقن، لكنّه ما زال من دون معطف. تقع الورشة خارج المدينة، كان رولف حتى ذلك اليوم يذهب إليها دائماً بسيارته. كانت جولة كبيرة حتى وصل إلى هناك سيراً على الأقدام. هيكل البناء لم يكن قد تمّ بعد في تلك الفترة؛ في زيارة رولف الأخيرة كانوا قد انتهوا لتوّهم من صبّ الخرسانة في أرضية الطابق العلوي، ولم تكن زوجته قد ذهبت إلى الورشة مرّة واحدة. الآن فهم اهتمامها الضئيل بهذا البيت! وقف رولف في غرف بيته المستقبلي، وكأنه ليس صاحب البيت، كان يضع يديه في جيبي

سرواله، ومندهشاً من أن المتنزّهين يوم الأحد يتجوّلون في ورشة البناء؛ يمكن التعرّف على الغرف، غرفة الحديقة بالشبابيك الكبيرة، الدرجات الخمس الموصلة إلى قاعة الاستقبال، مكتبه المطلّ على البحيرة، وغرفة النوم في الطابق نفسه، كل شيء وفق خطة البناء، الشرفة صُبّت في تلك الأثناء، وفي كلّ مكان تناثرت مواد البناء، لفّات من عازل السطح، أحجار المدفأة، أكياس بالأسمنت البورتلاندي، صهريج مدفأة الزيت، وطوب لبناء الجدران الفاصلة، مواسير من الحديد الزهر، وأشياء من مختلف الأشكال والألوان، لا يعرف الهدف منها، وعلى كل حال فقد كان المرء يرى أن العمل جارٍ هنا؛ رغم ذلك شعر رولف بأنه بالأحرى يشاهد أطلالاً. ومن المحرج أن المعماري الشاب، شتورتسن إغر، قد حضر، وفي يده قياس متري مفتوح. كان شتورتسن إغر متحمّساً لمشروعه كثيراً، حتى إنه لم يمنح نفسه فرصة الاستمتاع بهدوء يوم الأحد، ومثل كل إنسان متحمّس كان وجهه أجمل وألطف من أيّ وقت مضى.

راح رولف يتفحّصه من الجانب. حقّاً، هذا الشاب مختلف تماماً عن رولف، لا شكّ، كما أنه أكثر شباباً. شقّا طريقهما بين الألواح والمواسير، وانحنيا وهما يمرّان تحت صبّة الخرسانة في الشرفة التي ما زالت تقطر مياهاً، وقفزا فوق بقعة مياه بنّية اللون؛ كان على رولف أن يلمس أنواعاً مختلفة من الحجر الرملي، حتى يختار من بينها، وانهمك الشاب شتورتسن إغر في الشرح والشرح من دون أيّ مراعاة لرولف. راح رولف يتفحّص بشكل خاص أذنه، وشعره، وأنفه، وشفتيه (ولم يتحمّل ذلك)، ويديه. لم لا! هكذا فكّر وقرّر أن يختار، رغم كل شيء، الحجر الجيري الأرخص. ألم يلاحظ هذا الشاب أن هذا المنزل أصبح من الآن معروضاً للبيع؟ لا، لم يلاحظ، وراح يتحدّث متحمّساً عما تخلّفه الغرف من تأثير في النفس، بل وكان ينتظر التحمّس من جانب رولف الذي تذكّر فجأة تلك

الأمسية الأخيرة مع زيبيله؛ كانت زيبيله، هذه المنافقة، قد أتت لإحضاره من المطار، والشيء الوحيد الذي قالته في تلك الأمسية لزوجها العائد إلى بيته هو السعادة التي يشعر بها الشاب شتورتسن إغر، حكاية طويلة يرد فيها أنه حصل على تكليف رائع بالبناء في مكان ما في كندا. ألم يكن هذا مؤشّراً؟ لم يقل رولف بالطبع شيئاً، بل ترك الآخر يشرح له تصميم المواسير الثعبانية للمدفأة في السقف، واستمتع (كان يشعر في الوقت الحالي باحتياج غير مألوف إلى اللذات الباطنية) بفكرة أن يدع زيبيله في ضبابها، حتى لو أصبح الأمر بالنسبة إليه واضحاً تماماً. ما زال الأمر لم يتضح بالنسبة إليه، لكنّه اشتبه في هذا المعماري الشاب، حتى وإن كان يتصرّف بمقياسه المتري الذي يمكن طيّه على هذا النحو البريء. أصرّ شتورتسن إغر على أن يوصل بسيارته صاحب البيت الجديد إلى منزله. وعندما تحدّث المهندس بنفسه عن حظه الرائع، وأنه سيشيد قريباً مصنعاً كبيراً في كاليفورنيا، قاطعه رولف: «زوجتي قالت كندا».

- «لا، كاليفورنيا».

هناك خطأ ما؛ لكن رولف عقد نيّته على حفظ ماء وجهه، لا ينبغي لأحد أن يراه مثلما رأى هو نفسه في جنوة. وسواء فعل ذلك لخجله من أن يظهر أمام زيبيله وحده، أو بدافع من احتياجه إلى إظهار رباطة جأشه، فقد أكره شتورتسن إغر على تناول «أبيراتيف» في صباح ذلك الأحد. كانت زيبيله في البيت، وكان في البيت أيضاً مشروب تشنتسانو، والجين أيضاً، حتى اللوز المملّح كان موجوداً. كثنائي محتمل بدت له زوجته، هذه المرأة اللدود التي مثّلت على الفور كوميديا السلام العائلي صباح يوم الأحد مع المهندس المعماري، هذا الشاب صاحب الصفقة الرائعة في كندا حيث تودّ زيبيله أن ترافقه، إنهما ثنائي مقنع، ثنائي أنيق. لم يضايقه أنها أصرّت على أن تناديه بـ«حضرتك». وعموماً، اللعنة، سواء كان الشخص الذي

يعانق زوجته هذا الشتورتسن إغر أم رجل آخر، فلم يكن مهمّاً الآن بالنسبة لرولف غير أن يرى زوجته مع أيّ رجل شابّ، أنيق، ومبتهج بالحياة، وألا يُصاب بالجنون على الفور عندما يفكّر أن زيبيله تعانق هذا الشخص.

المدّعي العام في قضيتي حكى لي هذه الحكاية، كما قلت، على نحو أكثر حيوية بكثير. استفساري عما حدث آنذاك في النهاية لقطعة القماش ذات اللون الشبيه بلون اللحم، لم يجب عنه إلا كارهاً، باختصار، وبالإشارة فحسب. إذا كنت قد فهمته على نحو صحيح، فقد ألقى بالعلبة الرثة في النهاية في دورة مياه عمومية بالمحطة.

قال المدّعي العام ضاحكاً: «صدّقني، طوال سنوات ظللت أحلم بهذه العلبة!».

(لماذا هو صريح إلى هذا الحدّ معي؟).

أقول له: «لا يليق بالتأكيد أن أحقّق مع المدّعي العام... رغم ذلك، هل تسمح لي بسؤال: هل قالت لك قرينتك مَن هو صديقها؟».

- «بعد ذلك، بعد ذلك بكثير».

- «متى؟».

- «عندما انتهت علاقتهما، عندما أصبح شخصاً مفقوداً».

- «غريبة».

ابتسم قائلاً: «نعم، في تلك الفترة كان كلانا غريباً، زوجتي، وأنا في كلّ الأحوال».

طوال صيف مضنٍ حاول رولف أن يبرهن على أنه يمنح زيبيله، وفقاً لنظريته، الاستقلالية التامّة. أما الخطر الناشئ من ذلك، أيْ خطر الاغتراب

التام، فهذا شيء كان على زيبيله أن تتحمّل عواقبه، وهي التي قالت بفخر: لستَ أنتَ مَن يمنحني الحرية. ما معنى هذا؟ سأقتنص حرّيتي بنفسي عندما أحتاج إليها. رباطة جأشه اكتسبت إذاً نغمة: تفضّلي، يا حبيبتي، كما تريدين! خلال ذلك كانت هناك أيضاً أمسيات ساحرة في جلسات المسامرة مع الأصدقاء المشتركين الذين لم يظهر عليهم أي شيء، وربما لم يلاحظوا أي شيء، ثم تظهر مرّة أخرى بعض العصبية في أشياء ثانوية؛ لقد ذهبا على كل حال إلى الأسبوع الموسيقي الدولي في لوسرن، كما يفعلان دائماً، سارا في البهو وقد وضعت ذراعها في ذراعه، ولم يكن نفاقاً، لا تجاه الخارج ولا الداخل، فجأةً شعرا بأنهما يقضيان وقتاً لطيفاً معاً. كان رولف هو الزوج، وحتى إذا لم يستخدم ذلك استخداماً وضيعاً، فقد كان يتمتّع بمزايا معيّنة، مثلاً يستطيع في كلّ وقت أن يظهر مع زيبيله التي تضع ذراعها في ذراعه.

كانت زيبيله تثمّن كثيراً أن رولف، وقد أصبح في تلك الأثناء مدّعياً عامّاً، يتجوّل معها في البهو، ذراعاً في ذراع، أما مهرّج حفلة الأقنعة فقد كان يواجه عقبات أيّ علاقة غير مشروعة، ولأول مرّة يمرّ رولف بخبرة أن تقف تلك العقبات المعروفة في وجه الطرف الآخر. عندما يكون مزاجه رائقاً جدّاً، كان في بعض الأحيان يلمّح تلميحات ساخرة تبرق مثل نار نائية، وكانت تُظهر لكليهما -إذا كانا قد نسيا ذلك وهما يسيران ذراعاً في ذراع- الصخور الخطيرة التي تسدّ طريقهما. على ما يبدو لم يصل الأمر بينهما إلى نزاع. ورغم ذلك، فلا بدّ أنه كان صيفاً لا يتمنّى الزوجان تكراره. ظلّت زيبيله تعيش في الشقّة مع رولف، فأي شيء آخر كان سيصيب الأقارب بالفزع والهلع، وهو ما كانت زيبيله تريد أن تتجنّبه، رغم أنها كانت متحرّرة تماماً من تأنيب الضمير؛ كانت تلك رغبتها المعلنة بعد عودته من جنوة، بل كان مطلبها: أن يبقى كل شيء ظاهرياً كما كان،

مؤقتاً، مثلما قالت. في أعقاب ذلك كان مسار أيامهما لا يتضمن سوى ساعات قليلة تخرج عن نطاق رؤيته، كما لم يكن من الممكن تجنّب كلّ أنواع أنصاف الحلول الفظيعة. ولأنها كانت تعتبر رولف هو المسؤول عن أنصاف الحلول هذه التي أضحت مع الوقت لا تطاق، ومثّلت عبئاً أكبر من أن ينفجرا في أعنف شجار، كانت حلولاً غير عقلانية مطلقاً، ولذلك لا يمكن صياغتها في كلمات؛ لكن طبيعتها الأنثوية وجّهت اللوم إليه، نعم، كانت لها أحياناً (هكذا قال) نظرة وكأنها لم تعد تطيق رولف، فكانت عندئذٍ تذهب إلى غرفتها لكي تبكي: خلف الباب المغلق! في أعقاب ذلك كان رولف يسير إلى القبو ليحضر لنفسه زجاجة بيرة. لماذا لم تقتنص بالفعل الحرية عندما تكون في حاجة إليها؟ لم يكن رولف متهكّماً على الإطلاق. لماذا لا يسافران، قرينته المسكينة ومهرّجها؛ لماذا لم يجرؤا على ذلك؟ لم يفهم رولف الأمر. لم يمضِ وقتٌ طويل على بداية عشقهما الجارف، وقرب الخريف كان لدى رولف بالفعل شعور بأنه، من ناحيته، قد شُفي من هذا الموضوع. في سبتمبر بدأ عمله مدّعياً عامّاً.

في أكتوبر كان المنزل قد شُيِّد، وكان المعماري الشاب راضياً جدّاً بشكل عام؛ قال المهندس المعماري الشاب إنه لن يفعل هذا أو ذاك اليوم على هذا النحو، لكنّها كلّها، بالمناسبة، أشياء نالت الإعجاب التام من أصحاب المنزل، سواء زيبيله أو رولف، في حين أثار استغرابهما أشياء أخرى، لكن هذه الأشياء التي أثارت الاستغراب تحديداً كانت هي التي أبرزها بشكل خاص في الصور التي ستنشر قريباً في إحدى مجلّات العمارة. كان منزلاً ينمّ عن حداثة صارمة، مثلما وعد شتورتسن إغر في حديثه الأول خلال تناول القهوة السوداء. ليس معنى ذلك أن المنزل لم يعجب رولف، لكن ليس بمقدور المرء أيضاً أن يقول إنه أعجبه؛ لم يكن رولف يتصرّف بحرية أمام هذا الشتورتسن إغر، بل كاد يغار منه لأن

منزله، منزل رولف، قد نال كلّ هذا المديح. ذات مرّة ، في المقهى، سار شخص في اتجاه رولف، وعرّف عن نفسه أنه محرّر في مجلّة العمارة، ثم هنّأه على الجسارة التي أظهرها باعتباره صاحب المنزل، وهنّأه باسم العمارة الحديثة كلّها؛ ولم يكن هذا الشاب، شتورتسن إغر، ينال المديح كمعماري فحسب، كلا، لقد راحوا يثنون أيضاً على المزايا الإنسانية لهذا الشاب: جاذبيّته، جسارته، تلقائيته، عدم مبالاته، وحماسته، وحيويته، حساسيته، وعنفوانه، أيضاً العنفوان الجسدي الحسّي، وكلّ ما يمكن أن يميّز معمارياً، وما يميّزه أيضاً كعاشق؛ في مثل تلك اللحظات كان رولف يشعر من جديد بأن العالم كلّه يستغفله، وكان يشعر بنفسه وكأنه في إحدى مسرحيات موليير الكوميدية. كانت زيبيله تجلس معه في ذلك المقهى. الحيوية، والحساسية، والعنفوان، أيضاً العنفوان الجسدي الحسّي، كانت ترى كلّ هذا، نعم، وسألته ما إذا كان رولف يتبنّى هذا الرأي أيضاً، ورولف، وهو على كل حال رجل يتمتّع بكلّ أنواع الخبرات الشخصية والمهنية، لم يكن يعرف تقدير كمية المكر التي يمكن أن يتوقّعها من زوجته. في لحظاتٍ معيّنة كان يتوقّع منها كل شيء، خصوصاً عندما تبدو بريئة هكذا، بريئة مثلما ترى العاشقات أنفسهن دائماً، وعندما يتّحدن مع الطبيعة الأبدية التي يعتبرنها عندئذٍ، بسذاجة، هي الرب الحنون.

ذات عصر خريفي انطلق رولف لكي يتسلّم المنزل، وقد رافقه شعور أنه أبله المدينة التي يعيش فيها. باستثناءات قليلة، أشياء تافهة ذكرها المعماريّ الشابّ بنفسه، كان كلّ شيء على ما يرام. المظلّة الواقية من الشمس على إحدى النوافذ لا تعمل، مجرّد خطأ في التركيب؛ شرخ في لوح زجاجي من ألواح النوافذ؛ العمال الذين أنجزوا المهمات الأخيرة، عمّال الدهان، سدّوا إحدى دورات المياه بالنفايات التي ألقوها فيها بغباء؛ إضافةً إلى ذلك لم يعثر على كلّ مفاتيح القبو؛ كما نُسي مقبس منصوص

عليه في التصميمات بجانب سرير السيد صاحب البيت؛ إضافة إلى ذلك رُكّبت مرآة الحمّام أعلى من اللازم بعشرة سنتيمترات؛ في الحديقة وضعوا في الساعة الأخيرة عدّة ألواح على نحو خاطئ، غرانيت بدلاً من كوارتزيت، أمر تافه أيضاً يمكن تداركه، كما أن أعمال الطلاء لم تنتهِ كلّها بعد. ولكن، هذا هو في الحقيقة كل شيء؛ رولف أيضاً لم يرَ أيّ عيوب أخرى. عليه الانتظار ليرى ما إذا كانت شجرة الكتلبة الكبيرة ستزدهر أم ستذوي. كان على صاحب المنزل أن ينطق الآن بكلمة يعبّر فيها عن شكره الحار. وعندما غابت تلك الكلمة، وعندما ترك رولف، صاحب المنزل، المنزل المغلق، وراح يتطلّع إلى المنطقة وكأنه يودّعها، أو كأنه يقف لأول مرّة في عقاره، شرح له المعماري الشابّ -بالتأكيد لمجرد أن يتحدّث- مصطلح «الإصلاحات التي يشملها الضمان»، وكأن رولف لم يسمع به قطّ. بعد ذلك جلس كل منهما بجانب الآخر في سيارة المدّعي العام الجديدة. كان المدّعي العام لا يزال شارد الذهن، ووضع مفتاح تشغيل السيارة من دون أن ينطلق.

- «لم أكن أريد أن أتحدّث معك...».

هكذا بدأ رولف كلامه، ثم ارتدى قفازه: «قبل أن أهدأ تماماً. ولكن الآن، أتعرف، وبعد أن تجاوزت الموضوع كلّه...».

من المرجّح أن شتورتسن إغر لم يفهم كلمة واحدة. تابع رولف قائلاً: «لا، أنت محقّ تماماً بالطبع، إن كل شيء هو في الحقيقة مجرّد أحكام مسبقة. لقد كان عليّ أن أفكّر طويلاً في حكاية الإسكيمو التي حكيتها لنا، لزوجتي ولي، في زيارتك الأولى. هل تتذكّر؟ ذلك الرجل من الإسكيمو عرض زوجته للزائر، وصرخ عندما لم يقترب منها الآخر، ونحن نعتقد أننا لن نتحمّل أن يضاجعها الزائر. في الحقيقة، كلّ هذا هو مجرّد أحكام مسبقة...».

منذ فترة طويلة لم يشرح رولف نظريته. ووسط الرجال كانت تلك النظرية تثير اعتراضات أقل. المعماري، هذا الشاب صاحب الحيوية، والحساسية، والعنفوان، إلى آخره، كان متفهّماً جدّاً، وإن كان، من ناحية أخرى، لم يفهم سبب هذا الحديث الخارج عن اللياقة. كانا في تلك الأثناء قد انطلقا بالسيارة، ثم كان عليهما أن يقفا مرّة أخرى وأن ينتظرا أمام حاجز السكك الحديدية. واصل رولف قائلاً: «أتفهم جيداً الحرج الذي تشعر به. لقد تجنّبت دائماً مثل هذه الأحاديث عندما كنت في موقفك. عن أي شيء ستثمر! غير أنني أجد، وعندما نجلس أحدنا إلى جانب الآخر في سيارة واحدة -أتعرف- ببساطة: لا أريد يا سيد شتورتسن إغر أن تعتبرني غبيّاً!».

أخيراً مرَّ القطار محدثاً ضجيجه. قال رولف في جنون راسخ، مع الاحتفاظ برباطة جأش جديرة بالاحترام: «أنت تحب زوجتي، هذا شيء لا يمكن تغييره، وهذا شيء أستطيع أن أفهمه. وزوجتي تحبك. هذا هو الوضع! ولن يتغيّر كثيراً، لن يتغيّر تغيّراً جوهرياً، عندما تسافر الأسبوع القادم، أو الأسبوع بعد القادم، إلى كندا».

قال شتورتسن إغر مصحّحاً: «إلى كاليفورنيا».

- «زوجتي تقول كندا».

ضحك شتورتسن إغر ثم قال: «يؤسفني ذلك، رغم ذلك سأسافر إلى كاليفورنيا. إلى رِدوود سيتي. سأرسل لك على الفور بطاقة بريدية، سيدي الدكتور، حتى تصدّقني أخيراً!».

- «ليس ضرورياً».

من الخلف سمعا آلة تنبيه. وقال رولف مكرّراً: «ليس ضرورياً. كندا أو كاليفورنيا، أتعرف، لا فارق، وإذا فكّرت زوجتي في أن تصحبك إلى هناك، فإنني أقبل ذلك».

ارتفع الحاجز منذ فترة، لكن رولف، الأصمّ تجاه آلات التنبيه التي انطلقت وراءه، لم يتحرّك بسيارته. كان المعماري الشاب قد عرف بالتأكيد مكمن سوء التفاهم، وحاول أن يقول شيئاً، مثلاً: «السيدة قرينتك وأنا...».

غير أن رولف قاطعه: «يمكنك أن تقول: زيبيله!».

- «نعم بالتأكيد، منذ الزيارة الأولى كان هناك استلطاف، من الممكن أن أقول ذلك، أيضاً من جانب السيدة قرينتك...».

- «هذا ما تتخيّله!».

لقد أثار غضب رولف أن عشيق زوجته جبانٌ إلى هذا الحدّ، أهانه ذلك، من ناحية أخرى ملأه بالعجرفة. قال رولف موجّهاً نظرته إلى المعماري صغير السن: «أنا في الخامسة والأربعين من عمري، وأنت لم تبلغ الثلاثين بعد!».

فقال شتورتسن إغر محقّاً: «وماذا يعني ذلك؟ هه؟».

اتسمت بداية هذا الحديث بالكرامة، وبدا أنها تنزلق الآن في اتجاه آخر، لاحظ رولف ذلك، ورأى أيضاً أن الحاجز قد ارتفع؛ السيارات التي تراكمت خلفه، تخطّته الآن من الجانب الأيسر، ولأن الشارع كان ضيّقاً، فقد كان نصفها يسير على المرج؛ وبالطبع كان السائقون ينظرون إلى رولف نظرة كلّها اتهام واحتقار، أحدهم راح يحفر بسبابته على صدغه، ليظهر لرولف أنه يعتبره مجنون. من الممكن أن نعتقد أن الشاب شتورتسن إغر قد أكّد عدّة مرّات، أن في الأمر لبساً؛ ولكن رولف لم يسمع ذلك أو لم يصدّقه. من دون كلمة، وكما يقف المرء أمام شخص ساذج مسكين، راح رولف يقود سيارته في المدينة، ووقف أمام شقّة المعماري الذي كان محرجاً جدّاً من كلّ ذلك. جمع ملفّه، وقفازه، واللفة الصغيرة، ووضعها كلّها تحت إبطه الأيسر، لكي تكون يده اليمنى فارغة أثناء الوداع. ظلَّ

شتورتسن إغر جالساً بعد أن فتح باب السيارة؛ لم يجد الكلمة المناسبة، المزحة المُقْعنة التي لا تجرح أيضاً. رجاه رولف: «لا تقل لي إن الأمر يؤسفك أو شيئاً مشابهاً».

ظلَّ رولف على عناده: «لا تُسئ فهمي، أنا لا أتهم أحداً. إنني أتفهّم الأمر تماماً. ويمكنني حتى أن أوافق عليه. وزيبيله تعرف رأيي في هذا الموضوع، وهي بالتأكيد قالت لك. عليّ أن أوافق على ذلك. ومع ذلك فإنني وببساطة...» - قال ذلك ثم ألقى بسيجارته خارج النافذة، ثم واصل قائلاً: «... لا أتحمّل ذلك».

بدا على شتورتسن إغر أنه يتأمل في ما قيل. ثم سأله بنبرة الشاب عندما يسأل شخصاً أكبر منه: «هل تعرف رجلاً تحمّل ذلك بالفعل، أعني، ليس ظاهرياً فحسب؟».

ابتسم رولف: «كنت أظن أنني هذا الرجل».

بعد ذلك ودّع كلٌّ منهما الآخر. اقترح المعماري أن يحتسيا معاً بعض النبيذ، لكن رولف رفض، من ناحية لأنه لا يريد أن يطأ الشقّة التي قضت فيها زيبيله، ربما، ساعاتها الهانئة، من ناحية أخرى لأنه تأكّد فجأة من أن الشاب شتورتسن إغر ليس هو الرجل المقصود. ترك محرّك السيارة دائراً، وشكره على اقتراحه اللطيف، ورجا شتورتسن إغر أن يغلق باب السيارة بقوة. ابتعد شتورتسن إغر مسرعاً مثل شخص دخل بالخطأ غرفة غريبة، لا يهمّه أمرها في شيء، ولم يلتفت إلى الوراء عندما فتح رولف باب السيارة مرّة أخرى ليتمنّى له رحلة سعيدة إلى كندا. وحتى لا يظلّ واقفاً، واصل رولف سيره، بلا هدف، مثلما فعل آنذاك في جنوة - المهمّ ألّا يرجع إلى البيت! المهمّ ألّا يرى زيبيله الآن! لم يكن قد تجاوز أي شيء، على الإطلاق!

كان ذلك في شهر أكتوبر.

كرجل أفعال، وككل الرجال على شاكلته عندما لا يستطيعون التخلّص من جزء شائك من حياتهم الباطنية، لم يغرق رولف في التفكير الذي لا طائل منه، بل انهمك في العمل، العمل النافع والموضوعي، وهو ما لم يكن ينقصه بالطبع في الوظيفة التي بدأها لتوّه مدّعياً عامّاً، وراح ينجز ما يمكن إنجازه في إطار سلطته، كان يعمل من الصباح حتى المساء المتأخر، إلى أن تشعر آخر سكرتيرة لديه بالإنهاك التام، ثم يواصل عمله وحيداً؛ وينجز ما عليه مثل قطار منطلق بأقصى سرعة. لا بدّ أن الزملاء اعتبروه آنذاك يفترسه الطموح. لم يكن الزملاء يعرفون أي شيء عما يدفع هذا الزميل المنضبط جدّاً دائماً، والمتفوّق جدّاً دائماً، والمعروف بموضوعيته الباردة، ما يدفعه إلى هذا النشاط المحموم. كان رولف يتمتّع طوال حياته بسمعة شخص يعيش حياة منظّمة للغاية، أي حياة سعيدة، وهي، بالمناسبة، سمعة ليس له دخل فيها على أيّ نحو من الأنحاء، مطلقاً؛ بإمكان رولف أن يظهر ببساطة أمام قصر دوجي في فينيسيا مع سيدة أخرى، ويطعم الحمام هناك، من دون أن تنتشر أي أقاويل في مدينته الصغيرة؛ ثمّة رجال مثله، يمثّلون ظاهرة في ما يتعلّق بالسمعة الجيدة، لا يمكن المساس بسمعتهم، مثلما لا يمكن أن تُبلّ ريش طائر النورس، كما أن أحداً، حتى في مدينة صغيرة مثل زيورخ، ليس لديه الرغبة في القيل والقال، فمن المملّ للغاية، أن تحاول أن تبلّ النورس. وهذه الظاهرة، هكذا يبدو، قد انتقلت أيضاً إلى قرينته؛ لا يمكن للمرء أن يمسّ سمعتها. مَن إذاً يستطيع أن يدرك على نحو صحيح حماسة المدّعي العام الجديد للعمل! في القضايا المختلفة كل الاختلاف التي قبل رولف العمل عليها، كان، بالمناسبة، يجتهد إلى أقصى حدّ حتى لا يلقي كلّ الناس في سلّة واحدة؛ على الأقلّ لقد احتفظ لنفسه في القضايا الغريبة بالقدرة على التمييز؛ لقد رأى أيضاً قضايا يكون فيها

الرجل هو المذنب. كانوا ينظرون إليه باعتباره شخصاً متفهّماً للغاية، كان يحاول حسب الإمكان ألّا يُعرّض الإنسانَ المأزوم إلى أي إهانة، ومثلما تنمو ثمار البرقوق على شجرة برقوق، هكذا كان ينمو نجاحه الذي لم يبهر زوجته زيبيله مطلقاً، والأسوأ من ذلك أنها كانت تفرح لنجاحات رولف المهنية فقط مثلما كانت تفرح عندما تصنع لعبة تشغل بها الصغير هانيس وترضيه لعدة أيام... مرّة أخرى حلم رولف بعلبته الرثة التي تحتوي على القماش ذي لون اللحم!

بعد ذلك، نعم، بعد ذلك حلَّ موعد الانتقال إلى المنزل الجديد، وكانت زيبيله من الوقاحة بحيث سافرت في ذلك الأسبوع إلى سانت غالن لزيارة صديقة لها. ذكّرها رولف بالانتقال الوشيك إلى المنزل الجديد؛ لكن زيارة صديقتها في سانت غالن كانت غير قابلة للتأجيل. لم يصدّق رولف لحظة واحدة حكاية تلك الصديقة في سانت غالن، رغم ذلك كان كلّ ما قاله هو: «كما تريدين، تفضّلي سافري!»، وبالفعل سافرت زيبيله. أن يتملّكك غضبٌ له أسبابه الدقيقة، غضب لا يحتاج المرء إلى كظمه، غضب حقيقي، غضب عارم مثلما شعر رولف في ذلك الأسبوع، كان ذلك بلسماً حقيقياً؛ لقد حرّره مرّة واحدة من رباطة جأشه الجديرة بالاحترام؛ وراح يسبّ ويلعن في أرجاء المنزل الجديد، لدرجة أن الرجال الذين كانوا ينوءون تحت أثقالهم، والذين كانوا يريدون أن يعرفوا إلى أين يذهبون بخزانة الملابس المصنوعة على طراز فلاحي توغنبورغ، وإلى أين بماكينة الخياطة، وبصناديق الأطباق وأدوات المطبخ، والمائدة الصغيرة على طراز بودوار الفرنسي، هؤلاء الرجال تملّكهم العجب من الألفاظ التي نطق بها هذا الشخص المثقّف. «إلى السيدة!»، قال رولف، «إلى السيدة بكلّ هذه الكراكيب، أو ارموها من الشباك!»، ثم أثناء سيره: «سفالة ووقاحة ألّا تكون هذه المرأة هنا، منتهى السفالة، سفالة ووقاحة!». ولم يجرؤ الرجال

المهذّبون على أن يوجّهوا أسئلة أخرى حتى لا يُحرج السيد العصبي نفسه أمامهم أكثر من ذلك؛ كانوا يعاينون الأشياء في عربة نقل الأثاث، ثم يتبادلون النظرات في ما بينهم، وينقلون كل ما هو واضح أنه ينبغي أن يوضع في الحديقة أو في القبو، وكذلك مكتب السيد المثقّف، في ما عدا ذلك كوّموا كل شيء صامتين في حجرة «السيدة». وفي النهاية، وعندما اكتملت الفوضى، حصل الرجال المهذّبون على بقشيش أخجلهم، كان بالأحرى رشوة لكي يصمتوا. وبقي رولف وحده في منزل الأحلام الذي يملكه، وحده مع الصغير هانيس وخادمة إيطالية لم تكن تعرف أين ينبغي عليها أن تبحث عن ملاءات السرير؛ غياب السيدة فادح. وحده الصغير هانيس لم يشعر بالحيرة، بل بالسعادة من هذه الفوضى، فقد أضحى فجأة كل ما هو معتاد شيئاً خارقاً للمعتاد يطرح آلاف الأسئلة. كان مكتوباً على الكراتين: انتبه! قابل للكسر! وعموماً لم يكن المنزل يبدو كبيت صالح للسكن. لم يكن رولف يعرف كيف يمكنه أن يعيش هنا، ووجد أن من العبث، أو على الأقلّ من المبكر أن تبدأ الخادمة في فتح الكراتين؛ لم يمرّ عليه وقت مثل هذا إذ لم يعد يعلم: هل الزيجة ما زالت قائمة من الأساس، الزيجة التي تستحقّ أن يفتح المرء الكراتين ويفرد السجاجيد من أجلها؟

راح يأمل ذلك، ولم يعد يأمل ذلك في آن واحد. ماذا تعني استقلالية شريك الحياة، الاعتماد على الذات، الحرية في الزواج؛ ماذا يعني ذلك عملياً؟ الاشتراك في الأدوات والأجهزة، وتشغيل خادمة كي يبقى كلّ شيء نظيفاً - هذا هو ما يبقى. وهانيس؟ لا يمكن أن يسير الأمر هكذا. أيجب على رولف أن يطلب من زوجته أن تتخلّى عن عاشقها، وأن يطلب ذلك مهدِّداً، أن يقول: إما... أو، أن يعطيها مهلة حتى عيد ميلاد المسيح؟ كانت تلك إمكانية لإنهاء هذا الوضع غير المحتمل، لكنّها ليست إمكانية لإبقاء الحب بينهما، أو لكسب حبّها. أعليه ألّا يفعل شيئاً سوى الانتظار؟

حياة مؤقتة كهذه، حياة عشوائية، ربما تأتي، وربما لا تأتي، وربما يعتاد المرء الأمر، وربما يقع في غرام شخص ما أيضاً، وينتهي كل شيء، من يعرف، ربما يكون مبكّراً أخذ القرار بالطلاق؛ أن تحيا حياة كهذه متحلّياً بصبر أعمى - هل هذا هو الحل؟ كان يتخبط بين قرار وقرار، يقرّر هذا، ثم ذاك. ما أكثر من نصحهم رولف، وفي الحالات التي لا يعرفها كان الوضع -رغم كل الحذر الواجب- أوضح بكثير، كان يعرف في أي اتجاه يجب بذل الجهد. باختصار، لقد رأى رولف نفسه في تلك النقطة الميتة، حيث لا يعني المزيد من الجهد سوى تمزيق الذات، لكن العجلة لن تتحرّك، لا إلى الأمام ولا إلى الخلف، من ناحية أخرى يدور الأمر حول شيء ضئيل، سواء كان في الأمام أو في الخلف، وربما يدور الأمر حول مصادفة، وهذا تحديداً كان شيئاً مريراً بالنسبة إليه، فكرة أن كل شيء الآن ربما يتقرّر من تلقاء نفسه، وذلك من خلال كلمة واحدة، كلمة طيّبة أو كلمة حمقاء.

في ذلك الأسبوع لم تصل فحسب البطاقة البريدية الموعودة من شتورتسن إغر، من رِدوود سيتي، كاليفورنيا، بل جاءته أيضاً مكالمة تليفونية غريبة من باريس؛ سيد من الواضح أنه منفعل، عرّف نفسه باسم شتيلر، وراح يتكلّم كلاماً مبهماً مضطرباً، وكأن على رولف أن يعرف مكان إقامة زوجته، شخص لم يرد إطلاقاً أن يصدّق أن رولف لا يعرف اسمه جيداً. بلا شك، لم يكن هذا المخلوق العصبي الذي أتاه صوته من التليفون، شخصاً آخر سوى مهرّج حفلة الأقنعة. (ليس صحيحاً تماماً إذاً ما ادّعاه المدّعي العام قبل ذلك عندما قال إنه كان يعرف -وإن لم يعرف ذلك من زيبيله- اسم الصديق قبل أن يختفي شتيلر. ذكرت ذلك كمثال فقط على أن كلام شخص مثل المدّعي العام -ورغم أن ما حكاه لي كان طواعية- لم يخلُ من التناقضات، في حين أنهم ينتظرون منا ذلك خلال التحقيقات!). مكالمة غريبة للغاية، حقّاً؛ لأن رولف افترض أن زيبيله سافرت مع مهرّج

حفل الأقنعة. هل لم يعثر أحدهما على الآخر في باريس؟ نبذ فكرة أن يكونا بهذه المكالمة قد أرادا بمكر أن يضلّلاه؛ لكن الفكرة، بمجرد أن فكّر فيها مرّة، ظلّت مقيمة في رأسه. لا يستطيع أن يصدّق أن زيبيله تفعل ذلك. لا! قالها بصوت عال: لا! ومن أعماق رأسه تردّد صدى خافت: ولمَ لا؟ قاوم هذا الاشتباه، وشعر بالخجل من نفسه، وفي اللحظة نفسها التي شعر فيها بالخجل بسبب اشتباه وضيع، أحسّ بأنه يبعث على السخرية بسبب هذا الخجل، وكأنه مخبول. أليس كل شيء ممكناً الآن؟ قاوم عقله تلك الإمكانية. هل من الممكن أن يكره يوماً زيبليه، أم ابنه، وأقرب الناس إليه على الإطلاق؟ شعر بخوف من أن يلقاها ثانية.

وعلى ما يبدو فقد كان ذلك اللقاء تعيساً جدّاً كذلك. ذات صباح في المكتب، في شهر نوفمبر، قيل له إن قرينته تودّ التحدّث معه، لا، ليس على التليفون؛ إنها تجلس عند السكرتيرة. كان فعلاً لديه اجتماع، وتحتّم عليه أن يجعلها تنتظر ساعة تقريباً. كانت الساعة الحادية عشرة؛ ألم يكن من الأفضل أن يتقابلا على الغداء؟ طلب رولف أن تدخل، وسار إلى الباب بالسؤال الصامت: ما الأمر؟ كانت زيبيله شاحبة بعض الشيء، لكنّها كانت مرحة. قالت له: «أهذا هو مكتبك إذاً؟». وسارت على الفور إلى النافذة حتى تتعرّف إلى المنظر المتواضع بالخارج. لم يسأل رولف: كيف كانت إقامتك في سانت غالن؟ ولم يسألها أيضاً: كيف كانت إقامتك في باريس؟ كان يرى أن زيبيله هي التي يجب أن تبدأ الكلام، وليس هو. فعلت ذلك، وكأن شيئاً لم يكن، كانت مرتبكة كما لم يرها من قبل، وراحت تثرثر وكأنها لم ترد سوى أن ترى مكان عمله الجديد، وتسحب أنفاساً سريعة من سيجارتها. كان بإمكان رولف أن يتصل بها مرّة في سانت غالن؛ لكنّه لم يفعل بعد تفكير وتدبّر. هل هذا هو ما تريد معرفته؟ شكرته زيبيله على مفاجأة الانتقال إلى البيت الجديد. وماذا أيضاً؟ ثمّة سرّ في عينيها، وخوف

أيضاً، حتى من دون أن تتحدّث، أو حتى من دون أن تريد التحدّث، ولهذا شعر رولف بالأمر وكأنه يرى مسرحية هزلية، غير محتملة، رولف خلف مكتبه العريض، وأمامه زيبيله في الفوتيه وكأنها زبونة. هل تريد الطلاق؟ فجأة قال رغماً عنه: «المدعو شتيلر اتصل تليفونياً، من الواضح أنه عشيقك».

عندما سمعت الكلمة الأخيرة ارتجفت. شعر بالأسف لهذه الكلمة، وفي الوقت نفسه شعر بالاستياء لأن عليه الآن أن يقدّم اعتذاره، ثم أضاف بلهجة منصفة، لكنّها محتقرة، وهو كان على وعي تام بذلك: «أظن أنكما تقابلتما في باريس، المكالمة كانت يوم الأربعاء».

في إثر ذلك نهضت زيبيله وكأنها أنهت حديثاً من دون التوصل إلى نتيجة، لكنّه حديث لم يحدث أصلاً، نهضت ببطء، ومن دون كلام، وسارت إلى النافذة؛ لاحظ رولف من كتفيها أنها تبكي، أنها تنتحب. لم تُطِق يده على كتفها، ولا حتى نظرته. قالت: «سأنصرف!».

- «إلى أين؟».

دهست نصف سيجارتها في منفضته، وتناولت حقيبة يدها، ومنديلاً والمسحوق لكي تجمّل وجهها، ثم قالت بخفّة بالغة الوقاحة: «إلى بونتريسينا».

وبعد نفَسٍ عميق، وخلال مرورها بالأحمر على شفتيها، كرّر رولف جملته: «كما تريدين».

ثم سألت سؤالها السخيف: «هل تعارض ذلك؟».

فأجاب إجابة سخيفة كذلك: «افعلي ما ترينه صحيحاً».

وتركها تسير...

وسافرت فعلاً إلى بونتريسينا.

في بداية ديسمبر، عندما عادت وقد لوّحتها الشمس، اقترح عليها الطلاق. تركت له اتخاذ الخطوات الضرورية. لم يفهم رولف شيئاً على الإطلاق عندما قالت إن الشاب شتورتسن إغر كتب لها إنه في حاجة ماسة إلى سكرتيرة، وإنها قرّرت أن تسافر مع هانيس إلى ريدوود سيتي، كاليفورنيا. مرّة أخرى قال لها رولف: «كما تريدين!». لم يصدّقها. كلّ هذا مسرحية هزلية طفولية. وحتى عندما ذهبت إلى القنصلية الأميركية لكي تترك هناك بصماتها، لم يصدّق. أكان عليه أن يرسل أول إشارة للصلح؟ ليست بحوزته مثل هذه الإشارة، وأن يكون أول من يرسلها، وهو لا يدري مطلقاً ماذا حدث حتى الآن. لا يمكن بناء أي زيجة على صلح أعمى، هكذا بدا له الأمر. هل تنتظر منه كلمة يطلب فيها منها أن تبقى؟ كان رولف يعرف أنها قد حجزت مكاناً على باخرة «إيل دو فرانس». ربما كانت زيبيله قد هجرته نهائياً في الصيف الماضي، ولكن ليست هذه هي النقطة؛ دون أن تقول هي في البداية إنها تريد البقاء، كان من المستحيل بالنسبة إليه أن يرجوها أن تبقى، من دون أن يصبح موضع سخرية لأنه آخر من يعلم، ومن دون أن تصبح موضع سخرية أيضاً الزيجة بينهما التي ما زال من الممكن أن تستمرّ. لكن استمرارها كان في الحقيقة مستحيلاً، على الأقلّ ليس على هذا النحو. لا يجوز أن يستسلم لتهديدها، هكذا تراءى له. قبل أيام قليلة من عيد ميلاد المسيح، سافرت زيبيله بالفعل مع هانيس -الذي لم يكن آنذاك قد ذهب إلى المدرسة بعد- إلى ميناء «لو هافر» حتى تستقل الباخرة إلى أميركا.

الكرّاسة الخامسة

لقاء اليوم هو بالنسبة إلى محاميّ -هذا الرجل النشيط الذي ما زال يدافع عن المفقود شتيلر- لقاءٌ فاشل تماماً. مواجهة مع النقّاد السابقين في المدينة الصغيرة خلال تناول «الأبيراتيف»! وبالفعل، لقد كان لقاءً لطيفاً. طلب مني سيّدٌ شابّ طلباً مؤثّراً، لكن ليس له داعٍ، وهو ألّا آخذ نوادر معيّنة كتبها قبل سبع سنوات على محملٍ شخصيّ بأيّ حالٍ من الأحوال. كانت هناك سيدة أيضاً، شخصية ناضجة، امرأة تشبه حارسة معبد، تتّسم بتواضعٍ إنسانيّ يلاحظه المرء من النظرة الأولى. تأكيدي لمجموعة النقّاد الصغيرة أنني لست على الإطلاق شتيلر المقصود أثار ارتياحاً واضحاً، ثم قُدِّم الويسكي. استفسرتُ لدى السيدة عن سبب امتناعها عن مصافحتي قبل قليل. عندئذٍ ساد الإحراج ثانية، ولكن لوهلةٍ فحسب. لو كانت تعلم أن هذا اللقاء محوره شتيلر، لما كانت قد حضرت على الإطلاق. نظر محاميّ إليّ، وأنا استولى عليّ الفضول أيضاً؛ الطريقة التي صمتت بها السيدة أطلقت كلّ أشكال الظنون. كتب شتيلر يوماً رسالة إلى هذه السيدة، هكذا أسمع، وسبّها واصفاً إيّاها بـ«معلّمة»، لمجرّد أنها لم تعترف بوجود موهبة فنية حقيقية لديه، وهو موقف ستتبنّاه دائماً، لقد أنكرت عليه الموهبة الروحية، الموهبة المنبثقة من العشق بالروح، ومن

الالتزام الباطني تجاه الفن في كلّ العصور. أمسكتُ بيد هذه السيدة الرشيقة والحيوية، ذاهباً بالتأكيد إلى أبعد من المسموح به، وقلت: «الأستاذة الدكتورة، أنت تعبّرين تماماً عما يجول في خاطري!»، كان المقصود هو التمثال الذي رأيته بنفسي مؤخّراً في حديقة عامة. صحيح أن السيدة كانت تعني شيئاً آخر غير ما قصدته، شيئاً أكثر دقّةً، لكننا رغم ذلك رحنا نتحدّث عن المعايير الصارمة، وإثر ذلك لم نعد نتحدّث عن المفقود شتيلر الذي لا يفي بمعايير كهذه، بل عن السيدة نفسها، وعن النقد في حدّ ذاته، وهي من الخبراء البارزين. فهمتُ قرارها ألّا تكتب عن شتيلر حرفاً بعد ذلك، وأن تدع شتيلر ببساطة فريسة للنسيان؛ وهل هناك ما أتمنّاه أكثر من ذلك في وضعي الحالي، حيث يقف المفقود شتيلر عقبة في طريقي في كلّ مكان! والسادة أيضاً، كما ذكرت، كانوا في غاية اللطف: كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تؤكّد للناقد بكلّ صراحة أنك لست فنّاناً، وعلى الفور فإنهم يتحدّثون معنا حديثاً وكأننا نفهم في الفن مثلهم تماماً.

يوليكا مسافرة. للأسف كانت قبل رحيلها هنا عندما كان الطبيب النفسي يستجوبني؛ ولخوفه من أن تهرب منه روحي، لم يسمح حتى بفتح الباب لوهلة! تحيّتها الصغيرة التي أرسلتها، علبة سيجار، مسّت أوتار قلبي، خصوصاً أنها مرّة أخرى الماركة الخطأ، فالسيجار بالنسبة إليها هو السيجار ببساطة، ولأنه غالٍ جدّاً، هكذا تفكّر، فسيدخل السرور إلى نفسي. وقد أدخل السرور إلى نفسي فعلاً: لأنه من يوليكا.

زيارة من زوجين طاعنين في السن، البروفيسور هيفيلي وقرينته. المحامي الذي كلّفه القضاء بالدفاع عني أخبرهما أنني أناتول لودفيغ

شتيلر، فقدّما التماساً بالتحدّث معي حديثاً شخصيّاً. صافحاني مصافحةً تنمّ عن معرفة شخصية، وبعد صمتٍ مشوب بالحرج جلسا على فراشي الخشبي، وأخيراً وبنبرة تشيع الثقة، وإن كانت نبرة خجول، بل وكادت تتسم في البداية بالخوف، راحا يمهّدان لحديثٍ طويل مهمّ للغاية، مهمّ بالنسبة إليهما. قال البروفيسور العجوز: «أتينا إليك في شأنٍ شخصيّ بحت، لا علاقة له بموضوعك الحالي. لقد تعرّفت إلى ابننا...».

- «ألكس تحدّث كثيراً عنك».

«لقد شعرنا بالأسف...» -قال البروفيسور بجدّيّة متروّية، وبجهدٍ ملحوظ في أن يبقى موضوعيّاً حتى يجنّب الأم (سيدة ذات شعر أبيض) الانفعال الزائد- «لقد شعرنا بالأسف الشديد أن ألكس لم يدعُ أصدقاءه إلى المنزل قطّ. على كلّ حال، لقد تحدّث عنك في هذا السياق. أتذكّر حديثاً لن يفاجئك، قبل وفاته بقليل؛ لقد وصفك ابننا بأنك أقرب إنسان إليه على وجه هذه الأرض. مع أنني، بصراحة، كنت أسمع اسمك آنذاك للمرة الأولى».

الأم التي كانت في البداية تميل إلى الصمت، بدا أنها تخفي وراء رسوخها الجميل ذهولاً ما؛ أعطتني صورة بإلحاح ينمّ عن خوف، حتى أتذكّر. تُظهر الصورةُ ألكس شابّاً، ربما في الخامسة والعشرين من عمره، يرتدي «الفراك» الأسود، ويمسك بيده اليمنى نظّارته السميكة، في حين تستريح يده اليسرى، الرشيقة بشكلٍ لافت، على بيانو حفلاتٍ أسود؛ ينحني انحناءةً بسيطة، تنمّ عن بعض الارتباك. إنها صورة مؤثّرة، وخاصة لأن المرء يرى هذه الانحناءة الخجول، من دون أن يسمع التصفيق، وبذا توحي الصورة بالتجمّد إلى حدٍّ ما، بالتحنيط، بالموت بمعناه البائس. وجهه، رغم أن ضوء الكاميرا المبهر قد جعله مسطّحاً إلى حدٍّ كبير، غير مألوف، رشيقٌ أيضاً، يشبه الأمّ كلّ الشبه، وأنثويّ بعض الشيء، من دون

أن يكون رخواً؛ يظنّ المرء أنه مثليّ الجنس. يتسم وجهه ببهجة غريبة لا يبدو أنها تنبع منه، بل مبعثها من الخارج، من مكان ما، مثل ضوء الكاميرا الذي فاجأه، مبعثها حدثٌ غير مرئيّ أقنعه -ولدهشته الذاتية- أن لديه سبباً للبهجة. من المرجّح أنه النجاح الأول في قاعة الكونسير. يظنّ المرء أنه يرى الذهول الذي أصاب أمّه أيضاً، ما يصعّب على المرء أن ينظر في عيني هذه السيدة اللطيفة عموماً، والمثقفة جدّاً بلا شك. لا تطيق أن يلقي المرء نظرة على ابنها. تريد دائماً شيئاً ما. وتتعطش إلى الموافقة على كلامها بأيّ ثمن. تقول: «كان ألكس يقدّرك جدّاً...».

لفترة طويلة لا أعرف ماذا تريد مني في الحقيقة، ما هدف هذه الزيارة التي لم تكن سهلة على كلا الوالدين التعيسين، وما هو نوع الأمل الذي يجب عليّ أن أمنحهما إيّاه. يقول البروفيسور العجوز: «موته لغزٌ مرير بالنسبة إلينا. تستطيع بالتأكيد أن تفهم ذلك. مرّت عليه الآن ستّ سنوات...».

- «كان ألكس موهوباً للغاية!».

قال البروفيسور العجوز وكأنه يريد بهذه الموافقة المتعجّلة عدم منح الأم فرصة لكي تتحدّث: «نعم، نعم، كان ذلك بالتأكيد، نعم، نعم...».

تسألني الأم: «ألا ترى ذلك؟».

يقول الأب: «أمّا في ما يتعلّق بوفاته...».

تقول الأم مؤكّدة: «هذا هو رأي يوليكا تشودي أيضاً! ثمة رسالة من زوجتك العزيزة التي كانت، كما تعلم، معجبة أشدّ الإعجاب به كفنّان، ولن أنسى ذلك أبداً لزوجتك الموقرة، زوجتك بالذات كانت تشجّع ألكس كثيراً عندما تخونه ثقته بنفسه، وعندما يتعسّر عمله، أعرف ذلك، لم يخجل ابننا من إنسان مثل خجله من السيدة يوليكا. دون تشجيعها الحنون...».

في تلك الأثناء أشعل البروفيسور العجوز، الذي قاطعته زوجته،

فصمتَ تهذيباً، سيجارة، لكنه لم يدخّنها مطلقاً، ولوهلة، بينما كانت السيدة ذات الشعر الأبيض تتحدّث وحدها، بدا الأمر وكأنها حقّاً في حاجة إلى شهادة عن العبقرية الواعدة الفذّة لشابّ وافاه الأجل، نعم، وكأنها كانت في حاجة إلى تزكية تقدّمها للربّ الحنون عن ابنها، عازف البيانو المتوفّى. أفهم موقف البروفيسور العجوز الذي يوافق ببساطة على ما تقوله زوجته في هذا الاتجاه، وهو المنشغل بأسئلة أخرى. لم ألاحظ أنه ينظر إليّ على نحو يبيّن أنه يعتقد أن شتيلر المفقود مسؤول عن أن ألكس جلس أمام الموقد الذي يعمل بالغاز ذات ضحىً، وبعد أن أنهى بروفا باليه في مسرح المدينة. في بعض الأحيان يتحدّث كلا الوالدين معاً، ومن الطبيعي أن الانفعال يسيطر عليهما، لأن كلّ شيء يظهر أمام عيونهما مرّة أخرى وكأنه قد حدث بالأمس. كشخص غريب ينتاب المرء شعورٌ مربك بأن ثمة ابنين قد وضعا حدّاً لحياتيهما، ابنين مختلفين تماماً، ولا يمكن الجمع بينهما إلا عبر اختراع سبب واحد لانتحارهما. هنا تكمن المشكلة. عليّ أن أعرف مَن كان ألكس، ابنهما الوحيد. جلس أمام موقد الغاز، كما يقرأ المرء في تقارير الصحف أو الروايات، وفتح كلّ أزرار الغاز، وألقى بمعطف مطر فوق الموقد وعلى رأسه، وراح يستنشق على أمل أن يكون الموت هو النهاية ببساطة. استنشق التخدير الأزرق، وربما يكون قد صرخ، ولكن دون صوت. يقولون إنه سقط من الفوتيه، ولم يستطع أن يصحّح خطأه؛ فجأة، لم يعد لديه وقت لذلك. الآن فات الأوان. منذ ستّ سنوات أصبح بلا زمن. لم يعد يستطيع التعرّف على نفسه، لم يعد الآن يستطيع. يرجو الخلاص. يرجو الموت الحقيقي... بعد برهة أُرجعُ الصورة، من دون كلام.

تقول الأم منتحبة: «ماذا قلت لألكس؟ ماذا...».

يقول الأب: «اهدئي!».

تقول الأم متوسّلة: «لا تصمت! قل لنا، من أجل الربّ، لا تصمت!».

نحيبها يصيبها بالخرس. عندما أتى الحارس حتى يستعلم عن الوضع، كما يفرض عليه واجبه، نعطيه إشارة صامتة حتى ينصرف من جديد؛ أعرف أنه سيخبر الدكتور بونينبلوست بذلك. في حضور محاميّ لن أتحدّث مطلقاً، هذا مؤكّد، مهما كنت أشعر بالأسف تجاه الوالدين، وخاصة البروفيسور العجوز الذي راح بصعوبة، لأنه بدينٌ إلى حدٍّ ما، يبحث عن منديل نظيف في سرواله، وفي النهاية وجده أيضاً، وظلَّ ممسكاً به لمدة طويلة حتى تأخذه الأم ذات الشعر الأبيض التي وضعت كلتا يديها أمام وجهها، ولكن من دون جدوى.

بعد فترة تقول الأم بصوت متماسك، أو هو مجهد فحسب، بعد أن استخدمت المنديل الذي راحت تكوّره الآن بيديها الرقيقتين: «أنت لا تعرف ذلك بالتأكيد، في رسالة الوداع القصيرة التي كتبها -من أين لك أن تعرف ذلك؟- كتب ألكس إنه تحدّث معك طويلاً، وإنّك قلت له إنّه محقّ! هكذا كتب».

يشير الأب إلى الرسالة التي كثيراً ما أثارت البكاء.

تنتحب الأم مجدّداً: «في أيّ شيء... في أيّ شيء أعطيته الحقّ؟ منذ ستّ سنوات...».

إنها رسالة قصيرة جدّاً، في الحقيقة رسالة رقيقة. يخاطب فيها «الوالدين العزيزين!». لا يُذكر «سبب» للانتحار الذي سيُقدِم عليه. هو في الحقيقة يرجو الوالدين العزيزين أن يصفحا عنه. في ما يتعلّق بشتيلر يقول: «ثم تحدّثت مرّة أخرى مع شتيلر، وكلّ ما يقوله يؤكّد أنني على حقّ. لا معنى لأيّ شيء. في الحقيقة، يتحدّث شتيلر عن نفسه فحسب، ولكن كلّ ما يقوله ينطبق عليّ أنا أيضاً». تلي ذلك بعض التعليمات الخاصة بالجنازة، لا سيّما رغبته في عدم حضور قسّيس، كما لا ينبغي عزف موسيقا... عندما

أرجعت الرسالة من دون كلام، سألني الأب أيضاً: «هل بمقدورك أن تتذكّر ما قلته في ذلك اليوم لابننا ألكس؟».

بدت تفسيراتي -حتى في أذني أنا- كأنها حجج وذرائع. وحتى لو كانت كذلك، هذا رأيي، فإن لها أثراً مهدّئاً أكثر من صمتي. بعد أن سكتُّ، قال البروفيسور العجوز: «آمل ألّا تكون قد أسأت فهم زوجتي، نحن لا ندّعي أنك آنذاك... أو إذا كنت من الأساس هو السيد شتيلر أم لا! نحن لا نتهم أحداً بأنه كان يستطيع أن ينقذ ابننا المسكين ألكس. أعوذ بالله! حتى أنا، أبوه، لم أستطع إنقاذه!».

قالت الأم بدموع صامتة: «مع أن... مع أن ألكس كان إنساناً رائعاً!».

قال الأب: «كان متكبّراً».

- «كيف تقول...».

كرّر الأب: «كان متكبّراً».

مكتبة
t.me/t_pdf

- «ألكس؟».

- «مثلك ومثلي، ومثل كلّ المحيطين به».

ثم التفت البروفيسور العجوز إليّ مرّة أخرى، وواصل كلامه: «كان ألكس مثليّاً، نعرف ذلك، لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة إليه أن يقبل نفسه. لكن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إلينا جميعاً، هذا صحيح. لو كان آنذاك قابل إنساناً لا يشجعه فحسب بالكلمات والتوقّعات، بل إنساناً يُظهر له كيف يستطيع التعايش مع حالات ضعفه...».

هزّت الأم رأسها. وواصل البروفيسور العجوز كلامه من دون الالتفات إلى المعارضة الصامتة التي أبدتها السيدة ذات الشعر الأبيض، وكأنه يتحدّث رجلاً إلى رجل: «هذا صحيح، أعتقد أيضاً أن هناك الكثير من الأشياء غير السويّة لدى أولئك الذين يحتاجون إلى النجاح مثلما يحتاجون

إلى الأوكسجين لكي يستطيعوا مواصلة الحياة. ولكن ماذا فعلتُ لمواجهة ذلك؟ لقد سفّهت له النجاح، ولم أفعل شيئاً غير ذلك. والنتيجة: كان الولد يخجل من نفسه أيضاً لكونه طموحاً بدلاً من أن يتحمّل ذاته كما هو، وأن يحب نفسه، أنت تفهم ما أعني. كان لا بدّ أن يجد إنساناً يحبّه حقّاً! ماذا كنتُ بالنسبة إليه: معلّم جيد للمرحلة المتوسطة، ربما، نمّيت مواهبه حسبما استطعت، لكنّه بقي ببساطة وحيداً مع حالات ضعفه. لقد اقتصرت كلّ تربيتي على الفصل بينه وبين ضعفه. إلى أن أراد أن ينفصل عن ضعفه، الولد المسكين...».

بكت الأم عدّة مرّات، ثم قالت: «لقد جاء ابننا إليك، لماذا لم تقل له كلّ ذلك؟ لقد تحدّثت معه... آنذاك!».

صمت.

ثم قال البروفيسور العجوز الذي راحت عيناه الصغيرتان ترمشان وهو ينظّف نظّارته المثبّتة على أنفه من دون ذراعين: «الأمر فظيع، فظيع، عندما يرى المرء أنه لا يستطيع إنقاذ إنسان يحبه... بعد ذلك الحديث فكرتُ أن شتيلر هذا... ألكس كان يتحدّث عنه بحرارة -أليس كذلك يا برتا؟- وكأنه إنسان يتمتّع حقّاً بالحيوية...».

بعد ذلك بفترة وجيزة حضر محاميّ.

كتبت إليّ يوليكا من باريس. العنوان: السيد أ. شتيلر، في الوقت الحالي في السجن الاحتياطي في زيورخ. ووصلت الرسالة بالفعل؛ للأسف. خاطبتني فيها قائلة: عزيزي أناتول! كانت سفرتها سعيدة، والشمس تشرق في باريس. التوقيع: المخلصة يوليكا. مزّقت الرسالة القصيرة إلى مئات من القطع؛ ولكن هل يغيّر هذا من الأمر شيئاً؟

اليوم أرى الأمر واضحاً جدّاً مرّة أخرى: الفشل في حياتنا لا يمكن دفنه، وما دمت أحاول ذلك، فلن أتجاوز الفشل. ليس ثمّة مهرَب. لكن المُربك هو أن الآخرين يعتبرون أن من البديهي ألّا تكون لي حياةٌ أخرى، وبالتالي يعتبرون أن ما أحمله على عاتقي هو حياتي. لكنها لم تكن حياتي قطّ! وبقدر معرفتي بأنها لم تكن حياتي قطّ، أستطيع عندئذٍ أن أقبلها: باعتبارها فشلاً. معنى هذا أن على المرء أن يكون بمقدوره أن يسير من دون عناد عبر ما يحدث في الحياة من خلط، مؤدّياً دوراً، من دون أن أخلط بين الدور وذاتي، ولكن، لكي أفعل ذلك لا بدّ أن يكون لي موقف ثابت.

يعترف المدّعي العام بأنه نسي الزهور لقرينته؛ ولهذا يقدّم لي اقتراحاً بأن أزور قرينته مرّة في المستشفى، وأن أُحضِر لها بنفسي الزهور (من ماله). يقول إن ذلك سيسعد زوجته إلى أقصى حدّ.

السيد شتورتسن إغر كان هنا. كنت نائماً، وعندما أفقت إلى حدٍّ ما، كان يجلس على فراشي الخشبي؛ وكان قد أمسك بكلتا يديه -كان ذلك هو بالتأكيد ما أيقظني- يدي اليمنى. يسألني: «عزيزي، كيف حالك؟!».

نصبت قامتي ببطء.

- «شكراً. من حضرتك؟».

ضحك قائلاً: «لم تعد تعرفني؟».

أفرك عينيّ.

يطلق على نفسه «فيلي!»، وينتظر مني ترحيباً قلبياً؛ لكنني لا أستطيع أن أعفيه من أن يعرّفني باسمه الكامل؛ بنبرة مبطّنة بالتذمّر يضيف: «فيلي شتورتسن إغر».

- «آه، أتذكّر».

- «أخيراً!».

- «المدّعي العام حكى لي عنك».

هذا هو إذاً شتورتسن إغر، صديق شتيلر، ذلك المعماري الشاب الذي كان يتحدّث متحمّساً عن الحداثة الصارمة، اليوم هو رجل ذو شهرة مهنية، رجل الاستسلام المرح، رجل يقف بكلتا قدميه على الأرض، وكرجل حصد نجاحاً مهنيّاً فهو بالطبع يؤكّد على روح الزمالة.

- «وأنت؟».

يسألني على الفور واضعاً يده على كتفي، ومن دون أن يذكر نجاحاته: «ماذا فعلت يا عزيزي حتى يضعوك في هذه الشقّة المدعومة من الدولة؟».

إنه يأخذ كلّ شيء، كما هو متوقّع، بمرح وخفّة، حتى رجائي ألّا يعتبرني شتيلر المفقود. عقّب قائلاً: «بجدّ، إذا كان من الممكن أن أقدّم لك أيّ مساعدة...».

مرّةً أخرى أشعر بشيء تنقبض له النفس، ثمة آلية في العلاقات الإنسانية، يسمّونها معرفة أو حتى صداقة، تعيق على الفور كلّ ما هو حيوي، وتستبعد كلّ ما هو حاضر. سجين مثلي، ماذا يمكنني أن أفعل بورقة نقدية؟ ولكن كلّ شيء يعمل وكأنه آلة: في الأعلى يدخل الاسم، المُفتَرض، وفي الأسفل تخرج طريقة التعامل المناسبة، جاهزة للاستخدام، ready for use، نمط العلاقة الإنسانية التي تهمّه (هكذا يقول) أكثر من أيّ شيء آخر تقريباً. يقول لي: «صدّقني، وإلا ما كنت جلست على فراشك أثناء وقت عملي».

لمدّة ساعة كاملة رحنا نلعب شتورتسن إغر وشتيلر، والشيء المضجر: لقد سار الأمر سيراً ممتازاً، وبسلاسة تامة. ما زال، في مرحه

وجدّيّته، وبعد سبع سنوات على آخر لقاء بينهما، منسجماً مع صديقه المفقود شتيلر إلى الحد الذي يجعلني (أو أيّ شخص مكاني) يتحدّث في معظم الأحيان بلا أيّ صعوبات، كيف كان سيسلك مفقودهم شتيلر في هذه النقطة من الحديث أو تلك، أي كيف سيسلك الآن. في بعض الأحيان يكون الوضع مخيفاً؛ يهتزّ بدن شتورتسن إغر من الضحك، ولا أعلم السبب. إنه يعرف النكتة التي لن يدع صديقه المفقود الفرصة تفوت دون أن يقولها الآن، وليس عليّ أن أقول النكتة، ولا حتى أن أعرفها. يهتزّ جسم السيد شتورتسن إغر من الضحك. عندئذٍ يبدو مثل دمية تتحرّك بخيوط غير مرئية، خيوط التعوّد، لا كإنسان. بعد ذلك لم يكن لديّ أدنى تصوّر عمّن يكون هذا الشتورتسن إغر في الحقيقة. يصيبني ذلك بالاكتئاب، حتى أثناء حديثنا، لأنني من ناحيتي لا أستطيع أن أفعل شيئاً. تشجيعه لي ألّا أدع اليأس يتسلّل إلى نفسي، وعموماً صداقته كلّها هي مجموعة من ردود الأفعال تجاه شخص غائب لا يهمّني. مرّة حاولت أن أقول ذلك، ولكن من دون جدوى؛ من الممكن القول إن كلّ شيء آخر أرسله على موجاتي الأثيرية، لا يستطيع استقباله، ببساطة لعدم وجود هوائي لديه، أو لأنه لا يضبطه؛ على كلّ حال فالاستقبال لديه معدوم، كلّ ما يحدث هو تشويش يصيبه بالعصبية، لدرجة أنه راح يقلّب في نسختي من الكتاب المقدّس.

يقاطعني قائلاً: «قل لي، منذ متى تقرأ الكتاب المقدّس؟».

ألاحظ أن صديقه ملحد، مع أنه رجل يتمسّك بالأخلاق تمسّكاً صارماً. كيف سيبرّر شتورتسن إغر، من دون هذا الهجوم، أنه في السنوات الأخيرة قد ربح أموالاً طائلة؟ لم أوجّه أيّ اتهامات. مرّة أخرى، ولأنني أصمت، يقول: «نعم، نعم، ربما يكون ذلك صحيحاً، في الشيوعية أفكار عظيمة بالطبع، لكن الواقع، يا عزيزي، الواقع!».

راح طوال نصف ساعة تقريباً يصف لي الاتحاد السوڤييتي، كما

يُصوَّر في الصحف، وبلهجة تعليمية فوقية وكأنني من المعجبين بالاتحاد السوڤييتي؛ وكأنني أجلس أمام راديو، وأسمع صوت إنسان يتحدّث إلى الفراغ، ولا يستطيع رؤية الإنسان الذي يستمع إليه بالمصادفة. من أين له أن يعرف الشخص الذي يحادثه؟ ولذلك فمن غير الممكن أن يعترض المرء، أو أن يلوّح بيده، أو حتى أن يصدر بين حين وآخر إشارة موافقة على ما يُقال. ظلَّ شتورتسن إغر يتحدّث عندما نهضت، ويتحدّث عندما وقفت عند الشبّاك ذي القضبان، بعد أن صمتُّ فترة طويلة، موجّهاً نظرتي إلى شجرة الكستناء الخريفية بنية اللون. يبدو أن صديقه المفقود (لا يتحدّث شتورتسن إغر إلا معه!) كان شيوعيّاً ساذجاً للغاية، أو بكلمات أدقّ: اشتراكي رومانسي، وهو أمرٌ أخشى أنه يُفرح الشيوعيين. كشخص لا يعرف الاتحاد السوڤييتي لا أستطيع من ناحيتي سوى أن أهزّ الكتفين عندما يتحدّثون عن البديل، أو الإعجاب بشتيلر أو كرافتشنكو؛ فكلاهما لا يقنعانني.

- «بالمناسبة، زيبيله تنتظر طفلاً، أتعرف ذلك؟».

يقول شتورتسن إغر ليغيّر الحديث، ثم يضيف: «قابلت مؤخّراً يوليكا، إنها تبدو بمظهر رائع!».

- «نعم، هذا رأيي أيضاً».

يقول ضاحكاً: «من كان يظنّ ذلك! ولكن ألم أقل ذلك دائماً؟ لن تموت عندما تهجرها، على العكس، لم أرَها قطّ بصحّة جيّدة كهذه المرّة، وكأنها زهرة متفتّحة...».

أسمع مرّة أخرى مختلف الحكايات. يقول لي: «احكِ لي، سمعت أنك تجوّلت في نصف الكرة الأرضية. ما شعورك وأنت هنا مرّة ثانية؟ لقد بنينا وشيّدنا يا عزيزي، هل رأيت شيئاً من ذلك؟».

- «نعم، بعض الأشياء».
- «وما رأيك؟».
- «أنا مندهش».

لكن السيد شتورتسن إغر، المعماري، لا يقنع بإجابتي، ويريد أن يعرف بالطبع، بدقّة، لماذا أنا مندهش. ولأنه ينتظر بالطبع مديحاً، أقول له كلّ ما أستطيع مدحه بضمير مستريح: إن التشييد في هذه البلاد يتسم بالنظافة، بالأمان، باللطف، بالرسوخ، بالوقار، بخلوّه من العيوب، بالضمير، بالذوق، بالاعتناء، بالدقة، بالجدية... إلى آخره، وكأنهم يبنون كلّ شيء ليبقى إلى الأبد. شتورتسن إغر يعترف بكلّ ذلك، لكنه يفتقد الحماسة، حقّاً، ليس لديّ حماسة. أكرّر مرّة أخرى كلّ الكلمات المستخدمة من قبل: الاعتناء، الضمير، النظافة، اللطف، الظُرف. لكن كلّ ذلك، كما قلت، لا يرقى إلى مصطلح الجودة المادية التي هي صفة سويسرية. أقول له: الجودة، نعم، هذه هي الكلمة، أنا مندهش من الجودة! لكن شتورتسن إغر يريد أن يسمع تعليلاً يفسّر لمَ لا أتحمّس رغم أنني أرى الجودة في كلّ مكان. إن من الشائك دائماً أن تفسّر شعباً غريباً، لا سيما إذا كان المرء سجيناً! أسمع شتورتسن إغر يقول إنهم يطلقون على ذلك صفة «الاعتدال»، وهذا ما يغيظني؛ إن لديهم عموماً أشكالاً وألواناً من الكلمات لكي يرضوا عن أنفسهم رغم افتقادهم إلى أيّ نوع من العظَمة. لا أعرف ما إن كان من الجيد أن يرضوا بذلك. إن التخلّي عن المخاطرة، وتحوّل ذلك إلى عادة، يعني في المجال الذهني دائماً: الموت، نوعاً رحيماً من الموت، نوعاً خفيّاً لا يمكن إيقافه، وبالفعل (وفقاً لقدرتي على الحكم من زنزانتي، وعبر بضع رحلات قمت بها) فإنني أرى أن الأجواء السويسرية اليوم تخلو قليلاً من الحياة، من الروح، بالمعنى نفسه الذي يصبح فيه إنسان خالياً من الروح عندما لا يعود يطمح إلى الكمال. إن إدمانهم الواضح

على السعي إلى الكمال المادي، مثلما يتجلّى في عمارتهم الحالية وفي الأشياء الأخرى أيضاً، هو في رأيي بديلٌ غير واعٍ؛ إنهم في حاجة إلى هذا الكمال المادي لأنهم لا يتسمون قط بالنقاء في الفكرة، ودائماً يبحثون عن أنصاف الحلول. حتى لا أُفهَم فهماً خاطئاً تماماً، فإنني لا أعني الوسطية السياسية التي هي جوهر الديمقراطية، بل أعني أن معظم السويسريين غير قادرين على الإطلاق على الشعور بالمعاناة بسبب الوسطية الذهنية. إنهم يساعدون أنفسهم ببساطة عبر استهجان الرغبة في العظمة. ألا يؤدي التخلّي عن العظمة (عن الكلّ المتكامل، الكمال، الراديكالية) الذي يحدث بسبب العادة، وهو بالتالي تخلٍّ رخيص، ألا يؤدّي في النهاية إلى العجز، بل حتى إلى عجز الخيال؟ إن الفقر في الحماسة، واللارغبة العامة التي تقابلنا في هذا البلد، لهي من العوارض الواضحة على اقترابنا الشديد من العجز.

يقول شتورتسن إغر: «فلنبقَ في العمارة!».

نتحدّث بعد ذلك عن تلك المنطقة التي يسمّونها «المدينة القديمة». فكرة الحفاظ على مدينة الأسلاف ورعايتها كذكرى باقية هي، في رأيي، فكرة سامية. وبجانبها، على مسافة لائقة، يبنون مدينة عصرنا! لكنهم في الواقع والحقيقة، حسب ما رأيت، لا يفعلون لا هذا ولا ذاك، بل يحتالون على القرار ويرقّعون هنا وهناك. ثمة معماريون موهوبون ويحبون وطنهم يبنون، كما رأيت مؤخّراً، مراكز تجارية بمعايير القرن السادس عشر تقريباً، أو القرن السابع عشر أو الثامن عشر. أمر شائك! من الممكن طبعاً تمويه الخرسانة المسلّحة (وكأنها فضيحة)، بكتل من الحجر الرملي، والأقواس، والنوافذ البارزة بطراز العصور الوسطى؛ لكن يبدو أن هذه العناصر المعمارية لا تتآلف بشكل تامّ، تبجيل الماضي مقروناً بالعائد المادي، ما ينتج عن ذلك هو شيء لن يجعل حتى جندياً زنجياً يمرّ علينا في إجازة

يعتبر أن هذه هي أوروبا القديمة. هل يعتبرونها كذلك؟ لقد بدا لهم هدم مدينة أسلافهم بحواريها لخلق مكان لمدينتهم العصرية أمراً جنونياً، إجرامياً؛ أمراً سيثير عاصفة ورقية من الاستهجان. لكنهم في الحقيقة يفعلون شيئاً أكثر جنونية: إنهم يفسدون مدينة أسلافهم، دون أن يبنوا في المقابل مدينة جديدة، عصرية، مدينة خاصة بهم. إن هذا العته الذي يلاحظه على الفور أيُّ غريب، لا يثير، كما هو واضح، أيَّ فزع في نفوس المواطنين - إلى أيّ شيء يرجع ذلك؟ شتورتسن إغر ليس مسؤولاً عن مسخ مدينتهم القديمة، إنه في المقابل يريني صوراً للحيّ السكني الجديد الذي بناه بالقرب من أورليكون، وهي من ضواحي زيورخ، المشهورة في العالم بصناعة السلاح وتصديره؛ ضاحية بمعايير زمن مضى، زمن مضى وولّى على نحو نهائي، ضاحية وديعة مسالمة، لكنها ليست كذلك. كيف يمكنني أن أشرح لشتورتسن إغر من أين ينبع شعوري بالانزعاج عندما أرى شيئاً كهذا؟ الضاحية تتسم بالذوق، نظيفة جدّاً، وقور جدّاً؛ لكنها مجرّد كواليس. وحتى لا نقول إنني أجدها مقرفة، أسأله بموضوعية عما إذا كانت في سويسرا أراضٍ كثيرة لا تنفد، للبناء وفق هذا «الطراز» لعقود عدّة. لا يبدو أن هذا هو الحال. ماذا تعني الأصالة؟ كنت أعتقد: أن نتجرأ على مواجهة مهامّ عصرنا بالشجاعة نفسها التي تحلّى بها أسلافنا في عصرهم. كلّ ما عدا ذلك ليس إلا تقليداً وتحنيطاً، وإذا كانوا لا يزالون يعتبرون وطنهم شيئاً حيويّاً، فلماذا لا يقاومون ذلك عندما يتخفّى التحنيط في صورة حماية الوطن؟

يضحك شتورتسن إغر: «لمن تقول ذلك! قبل سنوات ثرتُ وتشاجرت، بالطبع ليس علانية، مع أن مدينتنا القديمة ليست هي الحماقة الوحيدة، كما تعلم...».

يصوّر لي بعض الحماقات الأخرى التي لا أستطيع كسجينٍ أن أتأكّد

منها. اتفاقه معي بحماسة ظاهرة (للأسف لا ألاحظ ذلك إلا بعد مرور وقت طويل نسبيّاً) لا يرجع إلى اتفاقنا في الرؤية، بل إلى أحقاد وضغائن؛ يسخر شتورتسن إغر من المشرف على قطاع البناء في مدينتهم الصغيرة، وهو من ناحية أخرى، وكما يعترف، يدين له بالفضل في عدد ليس بالقليل من العطاءات، وإنه لشعور إنساني للغاية أن يتحلّى بالصراحة المتهورة أمام شخص غريب لا يعرف المشرف على قطاع البناء لديهم، صراحة تسبّب له الراحة. ومن ناحيتي، فعدم اهتمامي بهذه الشخصية أو تلك هو شعور إنساني أيضاً، فما يهمّني هو العقلية المسيطرة على هذا البلد الذي أنا سجين فيه. أريد أن أعرف الكيان الذي سيحكم عليّ؛ هذا بالتأكيد احتياج طبيعي. لا يهمّني إذاً، عندما نتحدّث عن العمارة، سوى السؤال التالي: إلى أيّ حدّ يمكن لمهندس معماري سويسري أن يكون جسوراً ومستقبليّاً في رؤاه، وهو يعيش في وسط شعب هو في الحقيقة، هكذا يبدو لي، لا يريد المستقبل، بل الماضي. هل لسويسرا (هكذا أسأل شتورتسن إغر) أيّ هدف مستقبلي؟ أن تحفظ ما تمتلكه، أو ما امتلكته يوماً، هي مهمّة ضرورية، لكنها لا تكفي. إنك في حاجة إلى هدف مستقبلي، لكي تبقى حيّاً. ما هو هذا الهدف، الشيء بعيد المنال الذي يملأ سويسرا بالجسارة، ما يملأ جوانحها، ما هو الشيء المستقبلي الذي يجعل سويسرا تعيش في الحاضر؟ إنهم متفقون على الرغبة في منع وصول الروس؛ ولكن في ما يتعدى ذلك: ما هدفهم المبتغى إذا ظلَّ الروس بعيدين عنهم؟ كيف يريدون تشكيل بلادهم؟ ماذا يجب أن ينشأ مما مضى؟ ما برنامجهم؟ هل لديهم أمل خلّاق؟ إن العصر الأخير العظيم والحيوي حقّاً الذي عاشوه (وفق محاضرات محاميّ) كان منتصف القرن التاسع عشر، أو ما يطلق عليه الفترة قبل عام 1848 وبعده. آنذاك كان لديهم برنامج. كانوا يريدون شيئاً لم يكن له وجود من قبل، وكانوا يتطلعون ببهجة إلى الغد وبعد الغد. آنذاك

كان لسويسرا حاضرٌ تاريخي. هل لديها اليوم شيء كهذا؟ خانقٌ هو الحنين إلى ما قبل الأمس الذي يوجّه معظم الناس في هذا البلد، وهو يظهر في الأدب (إذا كانت مكتبة السجن ممثلة لكلّ التيارات، أي إذا كانت تتطابق مع ذائقة المؤسسات الرسمية): إن معظم القصص، وبالتأكيد أفضلها، تخطفنا إلى الريف الوديع المسالم؛ حياة الفلّاحين تبدو كآخر حصن حصين للحياة الباطنية؛ معظم القصائد تتجنّب أيّ بلاغيات يمكن أن تنبع من عالم الخبرات الحَضرية، وإذا لم يكن الحرث يتم بالخيل، فإن الخبز لا يمنحهم أيّ شِعر؛ يبدو أن الرسالة المحورية في الأدب السويسري هي نوع من العاطفية التي تجعل القرن التاسع عشر يبدو بعيداً جدّاً. وهذا تماماً ما يحدث في العمارة الرسمية: كم يتردّدون في تغيير مقياس مدنهم النامية، ويفعلون ذلك بلا رغبة، وبعاطفية، وبعناد، وعلى نحو ناقص. ذات مرّة قال شتورتسن إغر: «نعم، نعم، ولكن فلنتحدّث بطريقة عملية: كمعماري، ماذا عليّ أن أفعل إذا كان قانون البناء لا يسمح إلا بثلاثة طوابق: علينا أن نكون عادلين...».

ومن يضع قانون البناء؟ لا يردّ على هذا السؤال، بل يواصل وصف العوائق القانونية التي تجعل البناء العصري للمدن شيئاً مستحيلاً تماماً، أعرف منه أشياء مختلفة لم أكن أعرفها كإنسان غير متخصّص، لكنّني لا أحصل على إجابة عن سبب عدم تغيير القوانين المعنية. كلّ ما كان شتورتسن إغر يقوله هو: نحن نعيش في دولة ديمقراطية! لا أفهمه. أين إذاً تكمن حرية الدستور الديمقراطي، إذا لم تكن تعني أنها تعطي الشعب دائماً الحقّ في تغيير القوانين ديمقراطياً، إذا كان ذلك ضرورياً، لكي يستطيع المرء مواجهة عصر متغيّر؟ السؤال هو: هل يريدون؟ إنني أعارض الرأي الخطير الذي يقول إن الديمقراطية شيء لا يتغيّر، كما أنني أعارض رأيهم الآخر الذي يقول إن المرء يظلّ حرّاً مثل الآباء عندما لا

يجرؤ على تجاوز الآباء. ماذا تعني الواقعية؟ يقول شتورتسن إغر دائماً: الأفكار جميلة وصحيحة، نعم، لكن علينا أن نكون واقعيين. ماذا يعني ذلك؟ صحيح أن شتورتسن إغر بخبرته المهنية يعترف، خلال حديثنا عن أحيائهم السكنية ذات الطابقين الرومانسيين، أن البناء وفق طراز القرن التاسع عشر سيتناقص، وأن أكبر الحماقات هي ترييف المدينة بهذه الأحياء السكنية التي تُشيَّد فوق قطع الأرض المحدودة لديهم؛ ولهذا أطرح سؤالي الصريح مرّة بعد أخرى: ما هي فكرتكم هنا؟ التاريخ لن يقف، حتى لو تمنّى السويسريون ذلك. كيف تريدون أن تبقوا على حالكم من دون السير في طريق جديد؟ لا محيد عن المستقبل. كيف إذاً تريدون تشكيله؟ لا يكون المرء واقعياً عندما تعوزه الفكرة.

منذ مدة طويلة وابتسامته تغيظني، حتى قبل أن نتشاجر، سحنة رجل الاستسلام المرح؛ شاحب من الجدية ما دام هو يهاجم شخص المشرف على قطاع البناء لديهم، غير ذلك، وما دام الأمر يدور حول الأفكار فحسب، فهو روح بكر مفعمة بالحيوية، هذا هو إذاً السيد شتورتسن إغر المهندس المعماري لدى المدّعي العام، صديق شتيلر.

في النهاية يقول لي ضاحكاً وهو يضع يده على كتفي: «يا عزيزي... ما زلت كما أنت!». أصمتُ، فيضيف: «دائماً تحطّم شيئاً! دائماً هدّام. لقد عرفناك وخبرناك... أيها العدميّ العجوز!».

في إثر ذلك أطلق عليه بصراحة «سافل» (الوصف فظّ، ولكن بعد تفكير طويل لا يخطر على بالي وصف آخر، عندما يتحدّث عن العدمية أناس مثل هذا السيد شتورتسن إغر، أناس الاستسلام المرح، الذين لا هدف لديهم أكثر من أن يعيشوا في راحة، يفعلون ذلك إذا أراد شخص أكثر مما هو ذلك)، وها هو ذا يواصل ضحكه، ويربت ثانية على كتفي آملاً أن نتقابل قريباً «في حانتنا القديمة، أنت تعرف!». بعد ذلك، عندما

أصبحت وحدي في الزنزانة، أردّد مرّة ثانية هذا الوصف. إن أشكالاً مثل هذا الشتورتسن إغر (ومحاميّ أيضاً) يجعلونني أتخلّى عن مرحي تماماً؛ وهذا هو ما آخذه عليهم.

حلمتُ بيوليكا: تجلس في أحد المقاهي، ربما في الشانزليزيه، معها ورق رسائل وقلم حبر، تشبه في جلستها تلميذة يجب عليها أن تكتب موضوعاً إنشائيّاً، نظرتها ترجوني في إلحاح ألّا أصدّق ما تكتبه إليّ، لأنها تكتب مكرهةً، نظرتها ترجوني أن أخلّصها من هذا الإكراه.

اليوم في المستشفى:

زيبيله (قرينة المدّعي العام في قضيتي) امرأة في الخامسة والثلاثين تقريباً، سوداء الشعر، وذات عينين زرقاوين، مشرقتين وحيويتين للغاية، جميلة جدّاً في سعادتها كأمّ، الشباب والنضج في شخص واحد. تكتسب النساء في هذه الحالة شيئاً كالهالة، هالة تصيب الرجلَ، الغريب، بالارتباك. وجهها بنّيّ اللون، وعندما تضحك، يرى المرء فماً ذا أسنان جديرة بالحسد، فماً قويّاً للغاية. لحسن الحظ لم يكن رضيعها في الغرفة، بصراحة لا أستطيع التعامل مع الرُضّع. كانت جالسة في الشرفة على كرسيّ خيزراني أزرق، عندما قادتني إليها رئيسة الممرضات عبر الباب المبطّن المزدوج. الروب الصباحي بلون الليمون الأصفر (من الشارع الخامس، نيويورك) يليق بها على نحو رائع. تعتدل بعض الشيء في جلستها، ثم تنزع نظّارة الشمس الداكنة، ولأن رئيسة الممرضات كانت تبحث عن مزهرية كبيرة، أصبحنا على الفور وحدنا. شعرت بنفسي غريباً جدّاً على نحو من الأنحاء وأنا أقف بزهوري. كما أنها للأسف وضعت نظّارتها الداكنة ثانية. زوجها،

المدّعي العام في قضيّتي، كان لطيفاً وأعطاني عشرين فرنكاً حتى أظهر أمام الأم السعيدة وأنا أحمل على ذراعي باقة من زهور الغلاديولوس الطويلة المغلّفة بورقٍ رقيق ذي حفيف هامس. كانت الزهور تتأرجح خلال سيري على الدرج المكسو بطبقة عازلة من اللينوليوم. الحمد لله لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى عادت رئيسة الممرضات بمزهرية سقيمة الذوق لكنها كبيرة. لم يكن سهلاً جمع زهور الغلاديولوس الصلبة في باقة لوضعها في المزهرية. (كنت أفضّل لو اشتريت ورداً، لكنّه -بالنظر إلى أنني أخذت النقود من المدّعي العام- غالٍ جدّاً). كان وقت تقديم الشاي، لم تكن رئيسة الممرضات تعلم أنني جئت لتوّي من السجن، فسألتني بحماسة بالغة ما إذا كنت أفضّل شطيرة أو شريحة من «التوست». أخيراً أصبحنا وحدنا، وهذه المرة من دون أن نتوقع أن يقاطعنا أحد. قالت لي: «شتيلر، ما هذا الذي تفعله؟».

أرجعتُ جملتها إلى زهور الغلاديولوس. أما هي، وكما اتضح، فكانت تقصد امتناعي عن قبول أن أكون شتيلر المفقود. نزعتْ نظّارتها الشمسية، فرأيتُ نظرتها المشرقة، المسترخية في حنان. ورغم أنها ولدت لتوّها طفلاً من زوجها، كان تصوّراً مربكاً أن تحبّني هذه المرأة. بالطبع ظللت على موقفي الممتنِع. كنت أجلس قبالتها، واضعاً قدمي اليسرى فوق ركبتي اليمنى، ويديّ حول ركبتي اليسرى، ونظرتي موجهة إلى أشجار الدلب في الحديقة، في حين راحت زيبيله تتفحّصني.

- «لقد أصبحت صموتاً جدّاً. كيف حال يوليكا؟».

كانت تكثر من الأسئلة.

- «لماذا عدت؟».

كان عصر يومٍ غريب، رحنا نحتسي الشاي فنجاناً بعد آخر، حتى بعد

أن أصبح دافئاً فحسب، أما شرائح التوست والخبز فلم يمسسها أحد؛ صمتي (ماذا كان بإمكاني أن أقول؟) دفعها إلى الحكي. في السادسة مساء لم يعد الأمر يحتمل التأجيل، كان عليها أن ترضع طفلها.

أرى الآن مفقودهم شتيلر بدقّة كبيرة: لا بدّ أنه أنثوي جدّاً. لديه شعور بأنه لا يمتلك إرادة، أو أنه بمعنى معيّن يمتلك قدراً أكبر من اللازم من الإرادة، وذلك بالنظر إلى كيفية استخدامه لها؛ لا يريد أن يكون ذاته. شخصيته ضبابية؛ ولهذا يميل إلى الراديكالية. ذكاؤه متوسط، لكنه ذكاء غير مدرّب مطلقاً؛ إنه يعتمد بالأحرى على ما يخطر على باله في اللحظة ويهمل الذكاء؛ فالذكاء يتطلب اتخاذ قرارات. أحياناً يلوم نفسه على جبنه، عندئذٍ يأخذ قرارات لا يلتزم بها في ما بعد. إنه واعظ أخلاقي مثل معظم الناس الذين لا يقبلون أنفسهم. في بعض الأحيان يتخيّل أخطاراً غير محتملة، أو يتخيّل نفسه وسط خطر مميت، حتى يظهر لنفسه أنه مناضل. خياله واسع. يعاني خوفاً كلاسيكياً من الشعور بالنقص، ناجماً عن المعايير المبالغ فيها التي يضعها لنفسه، وهو يعتبر شعوره الرئيسي بأنه مذنب تجاه شيء هو عمقه الحقيقي، بل ربما يعتبر ذلك هو تديّنه. هو إنسان لطيف، جذّاب، لا يتشاجر. أما إذا كانت الأمور لا تُحلّ بطريقته الجذّابة، فإنه ينسحب مكتئباً. يريد أن يكون صادقاً. الرغبة غير المشبعة في الصدق، تنبع لديه من نوع خاص من الكذب؛ فالمرء يكون صادقاً إلى درجة الاستعراض، لتجاوز نقطة واحدة، نقطة مؤلمة، وذلك بأن يتكوّن لدى المرء وعيٌ بأنه متميّز في صدقه، وأكثر صدقاً من غيره من الناس. لا يعلم أين تقع هذه النقطة، هذا الثقب الأسود، الذي يظهر أمامه مرّة بعد أخرى، لذا فهو يخاف إذا لم يظهر له. لا تخلو حياته أبداً من التوقّعات. يحب أن يترك كلّ شيء غائماً. هو واحد من الذين يفكّرون دائماً، عندما يكونون في مكان ما: كم

سيكون الوضع جميلاً الآن في مكان آخر! على الأقل باطنياً يهرب من الهنا والآن. لا يحب الصيف، ولا يحب عموماً الوضع الحاضر، يعشق الخريف، الغروب، الكآبة. الفناء هو مبدؤه. بسهولة يتولّد لدى النساء في حضوره الشعور بأنه يفهمهن. أصدقاؤه من الرجال معدودون. لا يشعر برجولته بين الرجال. ولكن خوفه الأساسي، أيْ ألّا يكفي ما يفعله، هو في الحقيقة خوف من النساء أيضاً. إنه يغزو قلوباً أكثر مما يحتفظ بها، وعندما تشعر الشريكة بحدوده، يفقد كلّ شجاعته. ليس مستعدّاً، وليس قادراً على تلقّي الحب من شخص يعرفه على حقيقته، ولهذا يهمل تلقائيّاً كلّ امرأة تعشقه عشقاً حقيقياً، لأنه إذا أخذ عشقها على محمل الجدّ، فسيجد نفسه مجبراً على أن يقبل نفسه - وهو أبعد ما يكون عن ذلك!

بمجرّد أن يأتي المرء إلى هذا البلد، تسوء أسنانه. وبمجرّد أن أبلّغ عن آلام أسناني، فإنهم يريدون إرسالي إلى طبيب الأسنان الخاص بالسيد شتيلر. وكأنه ليس لديهم طبيب آخر هنا! وسرعان ما يتوصلون إلى اسمه عن طريق فاتورة حساب لم تُدفع قطّ، يحملها محاميّ في ملفّه. على الفور يجري الاتصال به. لحسن الحظ (وللأسف الشديد من جانب محاميّ) يتضح أن طبيب الأسنان هذا توفي قبل فترة قصيرة. يأخذون لي موعداً لدى خَلَفِه في العيادة - أي عند رجل لم يرَ شتيلر طوال حياته، ولن يدّعي أن بإمكانه التعرّف عليّ.

الكرّاسة السادسة

لا بدّ أن أتيليه المفقود شتيلر، كما تصوّره قرينة المدّعي العام، عبارة عن غرفة كبيرة يغمرها الضوء، غرفة تحت السطح في مكان ما في المدينة القديمة هذه، غرفة تبدو أكبر مما هي بسبب خلوّها من الأثاث، حتى الأثاث النافع الذي يمكن أن تضع عليه زيبيله قبعتها مثلاً أو حقيبتها. تقديرها: 10 في 15 متراً!، لا بدّ أنه تقدير مبالغ فيه، في ما عدا ذلك يبدو أنها تستطيع تذكّر هذا الأتيليه بدقّة شديدة. يصعد المرء درجاً يُصدر صوتاً كهديل الحمام، مصنوع من ألواح خشب رديء متآكل من شجر التنوب، وهناك، تحت السقف المائل الذي اصطدم به رأسها أكثر من مرّة كان هناك ما يشبه المطبخ، الحوض من كسر الرخام الأحمر، وموقد صغير، وخزانة فيها مختلف أنواع الأوعية والأطباق متعددة الألوان. ولا بدّ أن ثمة كنبة هناك أيضاً؛ فشتيلر كان يسكن في الأتيليه؛ وهناك أيضاً أرفف للكتب حيث رأت زيبيله، وهي ابنة عائلة بورجوازية، المانيفستو الشيوعي لأول مرّة في حياتها، وإلى جانبه «آنا كارنينا» لتولستوي، وبعض الكتب لخالد الذكر كارل ماركس، ثم هولدرلين، هيمنغواي، وأيضا أندريه جيد، من ناحيتها أهدته زيبيله هذا الكتاب أو ذاك، ما ساهم في تنوّع هذه المكتبة.

على الأرجح لم تكن ثمة أبسطة على الأرض. من ناحية أخرى تتذكّر

زيبيله الالتواءات الخمسة لماسورة الموقد الطويلة، لا بدّ أن ذلك كان رومانسياً جدّاً. أما أجمل شيء فهو أن المرء يمكنه بخطوة جريئة الصعود إلى الشرفة على السطح (كسيّدة كان عليها بالتأكيد أن تسحب تنورتها الضيقة إلى أعلى قليلاً)، شرفة ذات درابزين صدئ، على أرضيّتها طبقة من الزلط الذي نمت عليه الطحالب والقطران الذي كان يلتصق بأحذيتها البيضاء، ومرة أخرى رومانسية بالغة: مع هديل الحمام في المزراب، والجملون المحيط بهما، والنوافذ البارزة من السقف المائل، ومداخن التدفئة، والجدران المقاومة للحريق، مع قطط، وباحات تحفل بأصوات نفض السجاجيد، وزهور الجيرانيوم، والملابس المرفرفة، ودقات أجراس الكنائس. فوتيه بمساند، اشتراه يوماً من متجر الأشياء المستعملة التابع لجماعة «جيش الخلاص» الخيرية، لم يكن للأسف من الممكن استخدامه آنذاك؛ كان خشبه هشّاً، وكان من الأفضل أن يجلس المرء على دلو النفايات، وهو أمر كانت له على ما يبدو جاذبية خاصة بالنسبة إلى زيبيله، قرينة المدّعي العام في قضيتي. على كلٍّ، كان الانطباع المتولّد أنها، رغم كلّ شيء، تتذكّر هذا الأتيليه ببعض السرور. في الداخل كان هناك كرسيّ هزّاز على طراز الأجداد حيث يستطيع المرء أن يجلس متأرجحاً، وهو ما يولّد تلقائيّاً أجواء من المجون، المجون المرح، وكل شيء هنا كان بالنسبة إلى زيبيله -التي نشأت في بيت منظّم- له سحر الأشياء العابرة والمؤقتة. الخرطوم في صنبور المياه كان دائماً مثبّتاً بحبل، ستارة كانت معلّقة بدبابيس، وخلفها حقيبة عتيقة ذات مفصّلات ثقيلة، تستخدم الآن صندوقاً للغسيل. أينما نظر المرء في هذا الأتيليه، كان يتولّد لديه شعور مثير بأن بمقدوره أن يتركه في أي وقت ليبدأ حياة جديدة، وهو الشعور الذي كانت زيبيله تحتاج إليه تماماً.

كانت زيارتها الأولى كأنها سطو. قالت: «جئت في زيارة سريعة!».

لم تكن هي نفسها تظن أنها ستبقى حتى منتصف الليل.

- «لا بدّ أن أرى مرّة أين تعيش...».

لم يكن شتيلر حليق الذقن، ولذا كان محرجاً. قدّم لها كأساً من أبيراتيف «تشينسانو». بينما كان شتيلر يحلق ذقنه عند الحوض خلف الستارة، راحت زيبيله تتفرّج على المكان، وعلى ما عُلّق على الجدران: قناع إفريقي، جزء من بلطة سِلتية، صورة لجوزيف ستالين (اختفت في ما بعد)، ملصق شهير للفنان تولوز لوترك، إضافة إلى حربتين ملوّنتين باهتتين من إسبانيا. سألته: «ما هذا؟».

كان لا يزال منشغلاً بذقنه، فشرح لها باختصار: «يحتاجون إليها في مصارعة الثيران».

فقالت زيبيله بلهجة عابرة: «آه، أنت كنت في إسبانيا. لقد حكى لنا شتورتسن إغر حكاية رائعة عنك...».

كانت تجلس على الكرسي الهزّاز تضحك وهي تقول: «أنت ومعك بندقية روسية!».

أظهر صمتُه أنها جرحته، ما أشعرها بالأسف طبعاً.

من خلف ستارته قال: «شتورتسن إغر إنسان أحمق، ينشر هذه الحكاية السخيفة في كلّ مكان».

- «أليست حقيقية؟».

- «على الأقل ليست كما يحكيها شتورتسن إغر».

هكذا أجاب مستاءً، فلم تسأل زيبيله ثانية عن حكاية البندقية الروسية. أرادت أن تغيّر الموضوع، فقالت: «لكنك كنت في إسبانيا...».

اغتاظت زيبيله من نفسها؛ قد يشعر المرء حقّاً أنها جاءت لتمطر شتيلر بالأسئلة عن إسبانيا. كانا قد تعارفا في حفلة من حفلات الأقنعة

التي ينظّمها الفنّانون، كانت الحفلة بلا أسماء، وبالتالي أطلق الحاضرون لأنفسهم العنان، تبادلا القبلات؛ لم تمضِ ثلاثة أسابيع على ذلك، قبلات بدت في ما بعد عندما تقابلا في الحقيقة عصيّة على التصديق، وكأنها مجرّد ذكرى سرّية لحلم لا يعرف الآخر عنه شيئاً. بعد أن باح شتورتسن إغر باسم صديقه، كان اللقاء حتمياً، على الأقل بدافع من الفضول لرؤية الوجه الذي قبّلته، ولكن بلا قناع؛ تقابلا على كأس من الأبيراتيف؛ بلا قناع كانت لديهما أشياء كثيرة يتحدّثان حولها، فقاما بتمشية لم يمرّ عليها أسبوع، وهذه التمشية، كما يبدو، أدّت إلى تبادل قبلات ولمسات بدت الآن، وزيبيله واقفة في الأتيليه الخاص به، تكاد لا تُصدّق، ولا تزيد كثيراً عن ذكرياتها عن حفلة الأقنعة، أي مثل ذكرى سرّيّة لحلم لا يعرف الآخر عنه شيئاً. لهذا اتسم هذا الحديث بالحرج والارتباك! سألته زيبيله: «هنا إذاً تعمل؟». هي نفسها وجدت السؤال غبيّاً، ولا لزوم له.

راحت تتجوّل بين التماثيل، وقد اعتراها وجل من أن يقوم شتيلر بعرض بعض أعماله. قالت له: «أتعرف أنني لا أفهم شيئاً في الفن؟».

قال لها من خلف الستارة: «من حسن حظي».

ثم غيّر الموضوع قائلاً: «ستتناولين ما تريدين من دون سؤال، أليس كذلك؟ وكأس التشينسانو للشرب، وليس للفرجة».

تناولت زيبيله رشفة، وعندما ظهر شتيلر بعد أن حلق ذقنه، كانت تقف أمام تمثال من الجص وفي يدها الكأس، فقال: «هذه زوجتي».

كان رأساً على عنق طويل يشبه العمود، مزهرية أكثر منه امرأة. تمثال غريب. شعرت زيبيله بالسرور لأنه لم يكن ينتظر تعليقاً منها. لكنها سألت: «أليس هذا فظيعاً بالنسبة لزوجتك؟ عن نفسي سأجد الأمر فظيعاً إذا حوّلتني إلى فن كهذا!».

وبهذه الجملة وصل الحديث عن عمله إلى نهايته في الحقيقة، من دون أن ينشأ حديث عن موضوع آخر؛ وكأنهما كانا يقفان لتذوّق التشينسانو، ولا شيء غير ذلك، كلاهما أكثر سخافة مما هما في الحقيقة، ومن المرجّح أن يكون كلّ هذا نابعاً من الخوف المفهوم من أن يتبادلا إشارات العشق من جديد بمجرّد أن يلمس أحدهما الآخر أقلّ لمسة، من دون أن يتعارفا حقاً. سألها شتيلر: «لماذا يثير اهتمامك موضوع البندقية الروسية؟».

لم يكن الموضوع يثير اهتمامها أكثر أو أقل من أيّ شيء له علاقة بماضيه المجهول. بدا أن شتيلر هو الذي لا يستطيع أن يتخلّص من إسبانيا، ومن الحربتين الملوّنتين الباهتتين بطرفيهما الحادّين. حتى لا يحكي حكاية البندقية الروسية التي كان من الواضح أنها حكاية مخجلة بالنسبة إليه، راح شتيلر يصف مصارعة الثيران الإسبانية، بدقّة تامة. وضع كأس التشينتسانو في مكان ما، حتى تتحرّر يداه. بالمناسبة، لم ينزع الحربتين المتعامدتين من الجدار وكأنه يخاف منهما. «نعم، نعم»، كانت زيبيله تقول بين حين وآخر: «مفهوم...!». بدا شتيلر مأخوذاً للغاية بمصارعة الثيران، والحماسة، هكذا فكّرت زيبيله، كانت تلائمه على نحو رائع، أكثر بكثير من أيّ قناع. قال شتيلر شارحاً: «والآن، والآن يأتي الماتادور!».

كانت زيبيله تعتقد أن الثور قد مات منذ فترة طويلة. لذا سألت: «لماذا الآن؟ بعد أن مات الثور؟».

لم تنتبه إلى ما قال. على كلّ حال لم يكن انتباهها منصبّاً على مصارعة الثيران، بل على وجهه؛ كان على شتيلر أن يعيد الوصف كلّه من البداية. لماذا كان ضرورياً إلى هذا الحدّ أن تتخيّل زيبيله مصارعة الثيران الإسبانية؟ قال لها: «انتبهي! أنا الثور».

وقف في وسط الأتيليه، وكان على زيبيله أن تنهض من الكرسي الهزّاز

حتى تلعب دور المصارع، التوريرو. ضحكت على تقسيم الأدوار هذا. لم تشعر زيبيله بأيّ رغبة في قتل ثور. أما شتيلر فقد رأى أن تقسيم الأدوار هذا ملائم؛ ولم تكن زيبيله تحتاج حتى إلى خلع قبعتها، على العكس، من الأفضل أن يكون التوريرو رشيقاً. إذاً، أولاً: يدخل الثور إلى الحلبة، وعلى زيبيله أن تتخيّل: دائرة من الرمل في أشعة الشمس المبهرة، حياة أو موت، الضوء والظلّ يقسمان الحلبة التي تحيط بها البواكي المكتظة بالجمهور، ملوّنة كأنها حقل زهور، تصدح بالأصوات التي تخرس في هذه اللحظة، فالآن تقترب زيبيله، أو التوريرو، من الثور. في الحقيقة هم كثر، أولئك الذين يهيّجون الثور بقماشهم الأحمر، لكن شتيلر يكتفي في هذه اللحظة بزيبيله. الثور، أسود كالقطران، يقف في منتصف الحلبة الشبيهة بقُمعٍ ضخم، تبدأ المصارعة كلعبة، وكأنها باليه، وبالمناسبة، ليس القماش المتماوج شديد الحمرة، لقد بهت من الشمس فأضحى ورديّاً، لكنّه يؤدي المهمة. لا يعرف الثور تماماً ما عليه أن يفعل، يدافع عن نفسه دفاعاً عابراً، ينطح بقرنيه في الفراغ، يقف فجأة خلال ركضه، فتتصاعد سحب الغبار. حتى الآن كان الأمر مداعبات، لا أكثر، مغازلة، بالإمكان التوقّف، الثور الأسود لم يُجرح بعد، ويمكن أن يواصل حياته وهو يجرّ محراثاً في الحقول الأندلسية. عندما حكى لها عن البيكادور، أي مساعدي المصارع، الذين يدخلون الآن بأحصنتهم العجفاء البائسة، ويطعنون برماحهم طعنات غائرة في عنق الثور لإثارة غضبه وروحه القتالية. دون تفكير خلعت زيبيله قبعتها؛ تتوتّر للغاية من نافورة الدم المتدفق، الدم الأرجواني الذي يسيل ويلمع على الفراء الأسود للحيوان اللاهث. تؤكّد زيبيله أنها لن تستطيع أبداً أن تشاهد مصارعة ثيران حقيقية. لكن هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً بالنسبة لشتيلر، المحارب السابق في إسبانيا. يصف الآن الثور الجريح الذي يشرع في هجومه، ثم يتحتّم عليها الجلوس عندما

سمعت أن الثور الغاضب قد غرز قرنيه في الحصان الأعجف العجوز، فسحبوه خارج الحلبة مبقور البطن، تتبعه أحشاؤه الملتفّة. «كفى!»، قالت له واضعة كفّيها أمام وجهها. لكن الآن، يواصل شتيلر، تأتي المرحلة الأنيقة والجميلة على نحو لا يقارن، مرحلة الحِراب الملوّنة. تسأله زيبليه عن التفاصيل، ولأنها ظلّت جالسة على الأريكة، كان على شتيلر أن يبدّل الأدوار، فترك الثور لمخيّلتها، حتى يستعرض أمامها استخدام هذه الحِراب. تناول شتيلر الحربتين، لكنه لم ينزعهما من الجدار، كما قلنا، وكأنه كان يخاف منهما، وكأنه شخصياً قد مرَّ بخبرة الثور من قبل. راح يستعرض الأمر إذاً دون حربة؛ على النحو التالي: رفع كلا ذراعيه، بأقصى ما يستطيع من رشاقة، ومدّ جسمه إلى أقصاه الواقف على أطراف أصابعه حتى تعلو هامته، وشفط بطنه حتى لا يصيبه الثور الراكض بقرنيه الحادّين ويبقر بطنه، كان على زيبيله الآن أن تنظر بدقة، مثل البرق تخترق الحربتان الملوّنتان عنق الثور، ليس في أيّ مكان في جسد الثور بل في العنق تحديداً، برشاقة ودقّة. كان لدى زيبيله صعوبة في مشاطرة تحمّسه؛ كان يقول دائماً: «هذا شيء ذو مغزى!»، ولم يدعها في سلام حتى هزّت رأسها على الأقل معترفةً بأن الرشاقة في مواجهة الموت إنجاز حقّاً. سألته بنبرة منحازة: «والثور؟».

لا بدّ أنه لاحظ أن الموضوع موضوع حياة أو موت، وأنه لن يحرث حقولاً أندلسية بعد اليوم؛ كان يقطر دماً، وفي العنق حزمة متأرجحة من ست حراب مثل هذه رؤوسها مغروزة في لحمه. وقف الثور وعليه بوادر الإجهاد، قاوم الألم، ونفض حزمة الحراب الملوّنة، لكن من دون جدوى. عرض شتيلر عليها رأس كلّ حربة. سألته: «وهذا جميل؟».

لم يقل شتيلر إن هذا «جميل»، لكن شيئاً ما بدا أنه يستولي على لبّه، شيئاً مؤلماً، يكاد يكون شخصياً. على عكس السيدة كان يؤكّد عدم

انحيازه؛ لكنه عايش المصارعة من طرف الثور، أمسك مرّة بعنقه وكأنه قد خَبِر مرّة هذه الحزمة من الحراب الملوّنة. قال بموضوعية: «وهكذا بدأت الجولة الأخيرة». أخذت زيبيله تتفرّج عليه من الأريكة، عاجزة عن إشعال سيجارتها الطويلة المرشوقة بين شفتيها. «شكراً لك»، قالت مشيرة إلى ولّاعتها «الدانهيل» الفضية. «معي ولّاعة». الجولة الأخيرة إذاً! وضع شتيلر لها عنواناً: الرشاقة في مواجهة القوة الغاشمة، الضوء في مواجهة الظلام، الفكر في مواجهة الطبيعة. يظهر الفكر في مظهر «ماتادور» بلون فضي يميل إلى البياض، النصل الحاد تحت القماش الأحمر، ليس بهدف القتل، كلا، بل بهدف النصر، لمواجهة أخطر أشكال الموت، واحداً بعد الآخر، من دون أن يتراجع خطوة، الأناقة هي كلّ شيء، والجبن أسوأ من الموت، الأمر يتمحور حول انتصار الفكر على الحياة الحيوانية، وعندما يجتاز المخاطر، عندئذٍ فقطّ، يجوز له أن يستخدم النصل؛ سكون في الحلبة، الثور بكلّ غضبه المتولّد عن إنهاكه يتعرّف مرّة أخرى على قطعة القماش الحمراء، يشرع في الركض، ويظلّ الماتادور الفضي الأبيض واقفاً، النصل، نعم، مخبّأ، يثور جنون الجمهور المصفّق، والثور يقف بقوائم متباعدة، ينتظر، وفجأة تنهار قائمتاه الأماميتان، أو يقع جانباً لكي يموت؛ تدور عيناه، وتتمدّد قوائمه، بقية جسده عبارة عن كومة بلا حراك، كتلة سوداء، تهبط القبعات من أعلى الحلبة، زهور، أحذية نسائية، سيجار، دنان خمر، حبات برتقال... وأخيراً تستخدم زيبيله ولّاعتها «الدانهيل» الفضية، وتنفتح آفاق الحديث ثانية –

لم يتطوّر الأمر إلى تبادل للقبلات واللمسات.

«زوجتك راقصة؟»، سألته زيبيله ذات يوم، من دون أن تعلم الكثير عن هذه المرأة التي حوّلها شتيلر إلى مزهرية، نعم، حسب سلوكه يمكن

الاستنتاج بأنه متزوّج حقّاً بمزهرية جميلة، نادرة، ميتة، بشيء غير موجود إلا إذا فكّر فيه، وشتيلر لم تكن لديه في الوقت الحالي أدنى رغبة في التفكير في ذلك الشيء. هل ما ذكرته زيبيله عن زوجها رولف أكثر إفادة؟ على كلّ حال لم تخبره بشيء: رولف، زوجها، كان في تلك الليلة في لندن، ولم يكن ليعود إلى المنزل إلا في اليوم التالي. لماذا يجب أن تربك شتيلر بهذه المعلومة! لقد كانت هي نفسها مرتبكة بما فيه الكفاية بهذه «الحرية»... سألته: «هل عرض عليك شتورتسن إغر مرّة تصميماتنا؟».

وبالفعل، بعد هذا السؤال تولّد فجأة حديث جيد، فقد كشف شتيلر عن وجه إنسان عاشق للعمارة الحديثة، وكان يعرف بعض الأشياء. على كلّ حال ما يكفي لإثارة اهتمام زيبيله بالمبنى لأول مرة، بل لإثارة حماستها، حماستها لمنزلها المستقبلي. كان حديثاً (هكذا قالت) جميلاً وموضوعياً وجيّداً للغاية، حتى إن شتيلر قال لها من دون مقدمات: «ستبقين للعشاء، أليس كذلك؟!».

في الحقيقة لم تفكّر زيبيله على الإطلاق في البقاء للعشاء، ربما فكّرت في احتمالية أن يذهبا معاً لتناول الطعام في مكانٍ ما في المدينة.

«هل أساعدك في شيء؟»، سألته مرتبكة بعض الشيء بعد أن ملأ القِدر بالماء، وهو لا يزال يتحدّث عن العمارة، ثم وضع القِدر فوق الموقد العتيق الذي يعمل بالغاز. سألها على نحو عابر وهو يُشعل الموقد: «هل تحبّين الأرز؟».

بالطبع كانت عازمة على أن تنصرف في التاسعة على أقصى تقدير، وعلى كلّ حال ليس بعد العاشرة. أجابت أخيراً: «الأرز؟ نعم، رائع!».

المكوّنات لتجهيز طبق أرز إسباني إلى حدٍّ ما، إجلالاً لمصارعة الثيران لم يكن ممكناً أن يعدّ سوى أرز إسباني، لكن على شتيلر أن يشتريه أولاً، وعليه أن يسرع وإلا فالمحلّات ستغلق في وجهه. بعد نظرة في

محفظته التي على ما يبدو لم تكن دائماً ممتلئة، انصرف شتيلر تاركاً ضيفته وحدها في الأتيليه... شعرت زيبيله في النصف ساعة هذه بشعور غريب. ماذا تريد؟ وماذا لا تريد؟ لديها الآن مهلة للتفكير. وقفت عند النافذة الكبيرة حيث يطل المرء على الكاتدرائية، وراحت تدخّن، محاولة تذكّر أين تركت سيارتها، سيارة رولف، لكنها لم تستطع التذكّر، فرأسها كان منشغلاً بأشياء أخرى. هراء! عشاء في أتيليه، ماذا في ذلك؟ كانت زيبيله آنذاك في الثامنة والعشرين. أحبّت مرتين في حياتها، لا أكثر ولا أقل، وفي كلّ مرّة كان سطواً على الحياة، سطواً على حياة الآخر. كان الرجل الأول الذي أحبّته أستاذاً جامعياً، تدين له بفضل الحصول على الثانوية العامة، طلّق زوجته من أجلها، لكنها تزوّجت الرجل الثاني. لم تكن موهوبة في ممارسة اللعب قطّ. أم أن من الممكن تعلّم ذلك؟ مهرّج ماجن في حفلة أقنعة، مثلما تعرّفت إلى شتيلر قبل ثلاثة أسابيع، وفوق ذلك فنان، أي إنسان غير ملتزم بالأخلاقيات، من المرجّح أن يكون إنساناً جريئاً، محنّكاً، وعلى كلٍّ فهو إنسان متحضّر للغاية، ولذا لن يذكر في ما بعد أيّ أسماء، سيكون هذا هو الشخص المناسب الآن كي تُدخِلَ الرعبَ إلى قلب رولف، زوجها الواثق من نفسه. كان عليها أن تفعل ذلك منذ فترة طويلة. لكن: شتيلر أبعد ما يكون عن الإنسان الجريء، هكذا يبدو. كلّما توثّقت معرفتها به، ازداد خجلاً ولطفاً، وفي الحقيقة، هنا في الأتيليه الخاص به، لم يبقَ الكثير من المهرّج الماجن. كان شتيلر رجلاً ظريفاً فَكِهاً، لكنه في باطنه إنسان مهموم للغاية، ينزف من الحراب غير المرئية المغروزة في عنقه. هو أيضاً كان متزوّجاً. لماذا لا يسكنان معاً، شتيلر وراقصة الباليه هذه؟ الأمر برمته ضبابي للغاية. هل كان ذلك زواجاً فاشلاً أم كامل الأوصاف؟ لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق. ماذا سيحدث لو كانت زيبيله تحبه حقّاً؟ هذا الخطر قائم. لكن زيبيله تقول لنفسها بسرعة: كلام فارغ!

خفضت من قوة النيران في الموقد لأن الماء كان يغلي. كم يختلف الرجال بعضهم عن البعض الآخر! لم يحدث لزيبيله قطّ أن ذهب رجل لشراء أشياء وطبخها من أجلها، وكل ذلك دون أن يسألها مجرّد سؤال عما ينبغي عليه أن يشتريه أو كيف عليه أن يطبخه. رنّ التليفون مرّة. بالطبع لم ترفع السماعة. لكن الرنين أفزعها إلى حدٍّ ما. هل كانت زوجته؟ لم يكن لدى زيبيله أيّ سبب يمنعها من أن تقدّم نفسها بلا أيّ حرج إلى زوجته. هراء! على العكس، كانت زيبيله تتمنى أن تدخل زوجته الآن. أم أن عشيقته هي التي رنّت الجرس، ذلك الرنين الحاد، العنيد؟ سكين الألوان على الطاولة الكبيرة، المنافض الممتلئة في كلّ مكان التي كانت زيبيله تودّ أن تفرغها، أدوات مجهولة مختلفة الأشكال والألوان، ومائدة المطبخ الصغيرة التي لم تكن نظيفة جدّاً، صحف في كلّ ركن، كرافتة على الباب، كلّ هذا كان رجالياً جدّاً، مكتبته بالأحرى مكتبة مراهق، بالمقارنة مع الجدران المغطاة بالكتب الأكاديمية لدى رولف، وجوزيف ستالين ليس مثيراً للرعب مثلما تخيّلت، غريب على كلّ حال، وليس بالرجل الذي يعجبها. كانت زيبيله سعيدة بكلّ شيء يثير الغرابة لديها. وأكثر غرابة من جوزيف ستالين بدت لها (على ما أعتقد) تماثيله. هل شتيلر فنان حقّاً؟ اعترفت لنفسها: لو كانت هذه الأشياء معروضة في معرض، فستمرّ بها من دون أن تتوقف. أجبرت نفسها على التوقف أمامها، وتكوين رأي بشأنها، رأي يحميها من الحب. لم يكن هذا صعباً عليها؛ فهي لا تحب بيكاسو أيضاً، آنذاك لم تكن تحبه بعد. وهذه الأشياء تشبه تلك. لم تستطع زيبيله أن تتذكّر أنها قرأت اسمه يوماً في صحيفة «نويه تسوريشر تسايتونغ»؛ ولكن، حتى لو لم يكن شتيلر فناناً حقيقياً، هل يحميها ذلك من الوقوع في حبه؟ كانت تشعر بانجذاب شديد إلى فتح هذا الدرج أو ذاك؛ وبالطبع لم تفعل ذلك. وراحت تقلّب، بدلاً من ذلك، في دفتر به رسومات أولية وقد استولت عليها الدهشة لأنها

وقعت في حب فنان كبير حسبما استنتجت من رسوماته. لماذا تأخّر إلى هذا الحد؟ تأمل ألّا يكون قد حدث له مكروه. أحد الأدراج، الذي كان شبه مفتوح، يضمّ أشياء مختلفة، ولكنه يخلو من أيّ شيء يقودها إلى أعماق شتيلر؛ كانت أشياء تافهة، لطيفة، تكاد تكون صبيانية: محار، بايب مغبرّ، عدّة منصهرات، سلك، منظّف للبايب يتمنى طفلها هانيس الصغير مثله، وعملات مختلفة، وإيصالات، وإنذارات بالدفع، ونجم البحر في حالة يابسة، سلسلة مفاتيح تجعل المرء يفكّر في حكاية «اللحية الزرقاء»، مصباح، دفتر رسمي، مستلزمات ترقيع إطار الدراجة، مسحوق منوّم، شموع، خرطوش بندقية، ولافتة صغيرة من النحاس الأصفر في حالة ممتازة، مكتوب عليها: شتيلر تشودي... عندما دخل شتيلر وهو يحمل أكياساً من الورق على ذراعه، كانت زيبيله تقف أمام صورة الأكروبوليس على خلفية سحاب ممطر جميل. سألته: «هل زرت اليونان أيضاً؟».

أجاب بمرح: «ليس بعد، ولكن يمكننا أن نسافر إلى هناك، لقد فتحوا الحدود ثانية».

وجد ما يبحث عنه، سرطان البحر المعلّب، والفلفل، وبدلاً من الأرنب اشترى دجاجاً، وطماطم وبازلاء، وسرديناً بدلاً من الأسماك الصغيرة. الآن يمكنه أن يبدأ الطهي. سمح لزيبيله بأن تفرش المائدة، وأن تغسل الكؤوس، وأن تسخّن الصحون. كان عليه أن يعدّ السلطة أيضاً؛ سمح لزيبيله فقط بأن تتذوّق، وأن تغسل الوعاء الخشبي. عندما رنّ التليفون ثانية، لم يرفع شتيلر السماعة، وللحظة بدا أنه فقدَ مرحه. عندما وضع الأرزّ الذي فاح شذاه، والذي طهاه على طريقة أهل فالنسيا، غسل شتيلر يديه، وجفّفهما بهدوء ذكوري، وكأن ليس لديه أيّ سبب للاضطراب الاحتفالي. جلسا لتناول أول وجبة مشتركة. سألها: «هل يعجبك الطعام؟».

نهضت زيبيله، ومسحت فمها، ثم منحته القبلة المستحقّة تقديراً

لمهارته في فن الطهي الرجالي. (لا يستطيع رولف حتى أن يقلي بيضة!)، قرعا الكأسين. قال مرتبكاً بعض الشيء: «في صحتك إذاً!».

أعقب ذلك حديث موضوعي عن الفارق الكبير بين سرطان البحر المعلّب والسرطان الطازج.

... إلى آخره.

دقّت أجراس الكاتدرائية القريبة معلنةً الساعة العاشرة، وكانت الدقات عالية بحيث لم تستطع زيبيله أن تتجاهلها، غير أنها مع كلّ ما انتوته لم تفكّر في الانصراف. قال لها شتيلر: «عليكِ ألّا تنسي أنني كنت شابّاً غريراً. يوماً ما يستيقظ المرء ويقرأ في الجريدة عما ينتظره العالم منه. العالم! النظرة الدقيقة تبيّن بالطبع أن من كتب هذا الكلام ليس إلا مجموعة متحذلقة لطيفة. ولكن فجأة يصبح المرء معقداً للآمال! وعلى الفور يأتي المتحققون ويصافحونك، أتعرفين، بلطف، وبشعور من الرهبة وكأنهم أمام تمثال "داوود شابّاً" لبرنيني. الأمر مثير للضحك. ولكنك تجدين نفسك وحدك مع جنون العظمة - إلى أن اندلعت في النهاية، والحمد لله، الحرب الأهلية الإسبانية!».

فهمت زيبيله ما يعنيه. واصل قائلاً: «إرون كان هو "الدشّ" الأول الذي أخذته. لن أنسى أبداً هذا المفتش الصغير. لم أكن أمثّل أي أمل بالنسبة إليه! لم يفصح عن ذلك، لكنه كان ينظر إليّ كشخص خائب. كنت أفهم الماركسية على أنها شِعر. كنت على كلّ حال قد تلقيت تدريباً أساسياً للمجنّدين، وتدربت على إلقاء القنابل اليدوية، وكان لديّ معلومات حول الرشاش الآلي. كما ضمنني أيضاً صديق، تشيكي...».

كان شتيلر يحكي ببطء بالغ. ملأ كأسه بنبيذ «كيانتي»، وأمسك بها من دون أن يشرب. واصل قائلاً: «سرقسطة، كانت تلك المدينة هي الخيبة

الثانية. سجّلت نفسي كمتطوّع، كنا مقطوعين عن العالم، وكان على أحدنا أن يحاول التسلّل عبر نيران الأعداء. كنت أول من أعلن رغبته في فعل ذلك. لكنهم لم يأخذوني! وهكذا كنت أقف هناك، متطوّعاً يتركه المرء واقفاً، هل تتخيّلين كيف كان شعوري؟».

- «ولماذا لم يأخذوك؟».

- «أبدوا تردّدهم إلى أن تقدّم آخر، صديقي التشيكي، كان رجلاً لا يبحث عن الموت، بل محارب حقيقي... وهنا مربط الفرس. في الحقيقة كنت آنذاك أبحث عن الموت فحسب. ربما من دون أن أعلم؛ لكن الرائحة كانت تفوح مني. أثناء الغارات الجوية لم أكن أبحث عن مخبأ، معتبراً ذلك شجاعة! ولهذا حدث ما حدث، أترين، آنذاك عند نهر تاخو...».

كانت زيبيله تأمل بالطبع في سماع القصة الحقيقية الآن، لكن من دون جدوى. وفي كلّ مرّة كان شتيلر يلفّ ويدور، ويهرب إلى ملاحظات ويستكمل حكايات، مرّة يصف طبوغرافية طليطلة على نحو معقّد، وفي مرّة أخرى يشنّ هجوماً سياسياً ساخراً. ثم قال: «باختصار: كنا نرقد في ذلك الوادي الصغير القاحل... نحن رجال العصابات مثلما كانت صحفكم تصفنا آنذاك. متمرّدون وعصابات! ينسى الناس بسهولة كيف كان الأمر في الحقيقة، كيف كانت دولتنا، سويسرا المحبوبة، تتحدّث آنذاك... صحافتنا البورجوازية. أيّ تمجيد بطولي للفاشيين!».

سألته زيبيله من دون اهتمام: «فعلاً؟! لا أستطيع تذكّر ذلك. كنت آنذاك لا أزال أذهب إلى مدرسة البنات!».

ابتسم شتيلر قائلاً: «صدّقيني، لقد تعرّفت إلى بلدكم سويسرا، آنذاك في إسبانيا. فلنتحدّث عن شيء آخر! وبالمناسبة، سيظلّ الحال هكذا دائماً، إنهم يدعمون الفاشية، مثل أي بورجوازية، علانية أو سرّاً. اليوم يستنكرون

بوخنفالد وأوشفيتس وهذه الأشياء؛ نريد أن نرى حتى متى! اليوم يغسلون أياديهم ويعلنون براءتهم ويبصقون على ألمانيا، وهم يعرفون حقيقة الأمر منذ وقت طويل. حتى في زمن الحرب الأهلية الإسبانية، عندما كنا نحن رجال عصابات، مع بابلو كاسالس وبيكاسو وبعض الآخرين الذين يهلّلون لهم اليوم، كانت سويسرا تدّعي دائماً أنها ضد الفاشية! فلننتظر!...».

ضحك شتيلر ونهض لكي يفرغ المنفضة المكدّسة بأعقاب السجائر. تعجّبت زيبيله من نبرته. سألها: «هل تأخذين فنجاناً من القهوة؟».

قالت له زيبيله: «غريب كيف تغدو ساخطاً في كلّ مرّة تتحدّث فيها عن سويسرا!».

كانت قد نهضت هي أيضاً حتى تكون بقربه، نعم، لأنها شعرت لتوّها أن شتيلر يلحّ على موضوع القهوة لا لشيء إلا لكي يبتعد عنها. قال وهو يضع وعاء الماء على الموقد: «فلننتظر إلى أن تصبح ألمانيا، جارتنا المجتهدة، مرّة أخرى مكاناً لعقد الصفقات الكبيرة! وإذا حاولوا الفاشية مرّة أخرى، فلن تغيب سويسرا، ستكون من الداعمين. صدّقيني! الأمر واضح: الدولة التي تتسلّح هي في البداية دائماً صفقة رائعة لجيرانها. على المرء أن يخرس عندئذٍ! ويصدّق ما يُكتب في الصحف التي تعلّمنا من هم أعضاء العصابات. مثلما حدث آنذاك تماماً! ويستمرّ ذلك إلى أن يتوقف الجار اللطيف عن التهام جبنتنا، ولا يعود يحتاج إلى ساعاتنا، لأن الزمن من الآن فصاعداً يسير وفق ساعاته هو، عندئذٍ يصرخون بأعلى صوتهم، نعم، نهاية الحرية، نهاية الصفقات، عندئذٍ نصبح فجأة حصن الإنسانية الحصين من جديد، ورعاة السلام، وكهنة القانون - الأمر يدعو إلى التقيّؤ... اعذريني! ولكن هذا هو الوضع».

خلال حنقه نسي تماماً أن يشعل الموقد الغازي، لاحظت زيبيله ذلك ولم تقاطعه، لأنها لم تكن تريد قهوة على الإطلاق.

- «نحن عصابة من الخنازير...».

هكذا قال، وواصل شتائمه لنحو نصف ساعة؛ ويبدو أن زيبيله كانت مسرورة بذلك، مثلما كانت مسرورة بكلّ شيء في هذا الرجل الذي يثير استغرابها ويحرّرها من الأوهام. ثم قال: «باختصار، كنا نرقد إذاً في ذلك الوادي الصخري الصغير، وكان عليّ حراسة الأسرى. على الأرجح لم يثقوا في أنني أستطيع شيئاً أكثر من ذلك. في الخطوط الأمامية كان النقاش يدور حول قصر "الكاثار" الرائع، أتعرفين، وأنا كنت واقفاً في ذلك الوادي الصغير الحار لكي أحرس مجموعة صغيرة من الأسرى. لحسن الحظ كان لديّ آنذاك "أنيا"...».

ملأ شتيلر كأسه بنبيذ «كيانتي» مرّة أخرى، فسألته زيبيله: «ومن هي أنيا؟».

وهكذا، لم يتحدّث مرّة أخرى عن العبّارة على نهر تاخو، بل استطرد متحدّثاً عن موضوع أثار على الفور اهتمام زيبيله. قال لها: «أنيا، كانت حبّي الأول. بولندية. كانت طبيبتنا، أعني أنها كانت طالبة طب، وتعمل طبيبة...».

رشف شتيلر رشفة، الكأس في يمناه، وفي اليسرى سيجارة انطفأت منذ فترة طويلة، وهكذا جلس واسترسل في حكي بعض الأشياء عن المرأة البولندية. صوّرها كشخص لم يثر إعجابه بسبب الجمال فحسب، بل كشخص مثير للإعجاب عموماً: ذهن صافٍ، ومع ذلك كلها حماسة، من سلالة التتار، محاربة منذ مولدها، ومع ذلك فهي مرحة، وهو شيء نادر بين الثوار مثلما شرح لها شتيلر؛ ابنة عائلة مثقفة، أول شيوعية في عائلتها، امرأة خيّرة تساعد الآخرين، وتبدو صلبة في الوقت ذاته، وفوق كلّ هذا موهوبة إلى أقصى حدّ في اللغات، مترجمة للغات الإسبانية والروسية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية، وهي تتحدّث كلّ تلك اللغات باللكنة

نفسها، ولكن بنحو وصرف يخلوان من أي خطأ، وبمعجم لغوي هائل، وبالمناسبة هي أيضاً راقصة ساحرة.

قطع حكايته قائلاً: «كانت هذه هي أنيا، كانت لا تدعوني إلا بـ"الحالم الألماني"». وحسب ملامح وجهه بدا أن هذا الوصف ما زال حتى اليوم بالنسبة إلى شتيلر كالدواء المرّ الذي ابتلعه، لكن جسده لم يتقبّله، حتى بعد مرور عشر سنوات.

مكتبة
t.me/t_pdf

سألته زيبيله: «هل أحبّتك؟».

- «لم تحبّني أنا وحدي».

أجابها شتيلر ثم شعر فجأة بالفزع: «ماذا حدث لقهوتك!».

قالت ضاحكة: «نُسيت! بسبب غضبك الهائل من بلدنا سويسرا!».

- «ولا تشربين النبيذ أيضاً، ماذا تريدين إذاً؟».

- «حكايتك مع البندقية الروسية!».

كان شتيلر قد نهض لعمل القهوة، فوقف في مكانه وهزّ كتفيه، ثم قال: «ليس هناك الكثير لأحكيه. بندقيتي الروسية كانت ممتازة طبعاً، كان عليّ أن أضغط على الزناد فحسب».

أعقب ذلك استطراد أخير، وصف موضوعي وفي الوقت نفسه لا لزوم له، عن الوضع التكتيكي الذي لم يكن عصيّاً على فهم زيبيله على كلّ حال. ثم قاطع نفسه قائلاً: «عموماً، الباقي حكاه لك شتورتسن إغر».

في تلك الأثناء كانت الساعة قد أمست الحادية عشرة، سمعا مرّة أخرى دقّ الأجراس الذي كاد يكون الآن مألوفاً بالنسبة إلى زيبيله. لم تفهم لماذا مثّلت هذه الحكاية كلّ هذا العبء بالنسبة إلى شتيلر، لكنها شعرت بأن هذه الساعة (هكذا قالت) كانت اعترافاً بالنسبة إليه، اعترافاً لم تسعَ إليه زيبيله، بل أراده شتيلر. في النهاية قالت له زيبيله: «لا أفهم...».

قاطعها شتيلر على الفور: «لماذا لم أطلق الرصاص؟».

لم تكن زيبيله تعني ذلك. ضحك قائلاً: «لأنني عاجز. ببساطة تامّة! لستُ رجلاً».

- «لأنك آنذاك عند نهر تاخو لم تطلق الرصاص؟».

بحسم نافد الصبر واصل شتيلر: «كانت خيانة، ليس هناك أيّ تفسير آخر! كنتُ مُكلّفاً بذلك، بل إنني تقدّمت طواعية، كان لديّ أمر بأن أحرس العبّارة، أمرٌ واضح تماماً. ماذا غير ذلك؟! الأمر لم يكن يتعلّق بي وحدي، بل بآلاف آخرين، بقضية. كان عليّ أن أطلق الرصاص. لماذا كنت في إسبانيا؟ كانت خيانة».

ثم اختتم كلامه قائلاً: «في الحقيقة كان عليهم أن يعدموني».

- «فهمي محدود جدّاً في هذه الأشياء. وماذا كان رأي أنيا، فتاتك البولندية؟».

لم يُجب شتيلر مباشرة، بل صوّر لها كيف احتال في ما بعد وأنقذ نفسه متحجّجاً أمام المفتش بأن البندقية لم تعمل. ثم كرّر مبتسماً: «وماذا كان رأي أنيا؟». لفَّ لنفسه سيجارة حتى لم يعد تبغ تقريباً في كيسه، وهزّ كتفيه قائلاً: «لا شيء. ظلّت تعتني بي إلى أن استطعت العودة إلى سويسرا. كانت تحتقرني».

- «تدّعي أنها كانت تحبك؟».

أصرّ شتيلر على موقفه قائلاً: «كانت خيانة. الحب هنا لا يغيّر شيئاً. كان عجزاً!».

تركته زيبيله يتحدّث، ويكرّر نفسه بكلمات أخرى أو بالكلمات نفسها، إلى أن ملأ كأسه وبدأ يحتسيها. سألته: «أنت لم تتحدّث عن هذا الموضوع مع أحد قطّ؟ ولا حتى مع زوجتك؟».

هزّ شتيلر رأسه هزّة قصيرة.

واصلت أسئلتها: «ولِمَ لا؟ أتخجل منها؟».

قال شتيلر متهرّباً: «ربما لا تستطيع امرأة أن تفهم ماذا يعني ذلك. لقد كنت جباناً!».

كانت الزجاجة قد فرغت، زجاجة «كيانتي» سعة لتر؛ لم تظهر على شتيلر أمارات السُّكْر مطلقاً، بل بدا معتاداً على الشراب. هل كان لإدمانه الشراب علاقة بحكاية نهر تاخو؟ بالطبع لم يكن لائقاً أن تحتضنه زيبيله الآن؛ كان شتيلر يشعر بأنها لم تفهمه، مثل كلّ الرجال عندما يواجه المرء جدّيتهم بجدّية مماثلة، نعم، يبدو أن شتيلر أحسّ بأن زيبيله تسمح لنفسها بأفكار خاصة بها، فراح يكرّر بسوداوية لا تقبل أيّ معارضة: «كان عجزاً».

قالت زيبيله مبتسمة: «وأنت كنت تنتظر أنك لن تمرّ أبداً بموقف عجز في حياتك؟».

كان عليها أن تشرح ما تقصده بكلمات أدقّ: «أنت تخجل من أنك الشخص الذي أنت عليه. مَن يطلب منك أن تكون مناضلاً، محارباً، شخصاً يستطيع إطلاق الرصاص؟ أنت تعتقد أنك لم تثبت جدارتك، آنذاك في إسبانيا. من ينكر هذا؟! ولكن ربما أردت أن تثبت جدارتك كشخص ليس هو أنت...».

لم يعقّب شتيلر على ذلك، وقال: «لقد قلت لكِ، ربما لا تستطيع امرأة فهم ذلك».

قالت زيبيله لنفسها: ربما تستطيع المرأة فهم ذلك على نحو أفضل، أكثر مما تحب. ضحكت: «أيها الرجال، لماذا تريدون دائماً أن تكونوا عظماء! لا تغضب مني، لكن...».

رغماً عنها أمسكت بيديه، وهو ما أساء شتيلر فهمه على ما يبدو؛ لقد

نظر إليها على كلّ حال باحتقار خفيّ، هكذا بدا لها، لم يكن فظّاً، لكنه لم يأخذها على محمل الجد؛ كان يعتبرها شخصاً ينتظر حبّاً وحناناً، ولا شيء غير ذلك. لقد أزعجته، نعم، وأيّ إزعاج! مسح على شعرها، الرجل التراجيدي الذي يشعر بأنه لم يُفهم، الآن لم تعد زيبيله تستطيع أن تقول أيّ شيء، إذ كانت تشعر بنفسها كالمجمّدة تحت تأثير ازدرائه الحنون. كان شتيلر معجباً (هكذا قالت) بحالة الدهشة التي استولت عليه؛ ولم يُرد أن يتغلب عليها. تقوقع داخلها. لم يكن يريد أن يحبّه أحد. كان خائفاً من ذلك. قال مختتماً حديثه وهو يجمع الكؤوس: «والآن تعرفين لماذا لم أطلق الرصاص. ولماذا هذه الحكاية؟! لستُ رجلاً. لسنوات ظللت أحلم بذلك: أودّ أن أطلق الرصاص، لكن البندقية لا تستجيب... لست في حاجة إلى أن أقول لك ماذا يعني ذلك، إنه كابوس العجز الجنسي المعهود».

هذه الجملة التي نطق بها على الجانب الآخر، من زاوية المطبخ، جرحت زيبيله. نهضت من مكانها، شاعرة بالندم لأنها جاءت إليه في الأتيليه. شعرت بحزن أخفته، وفي الوقت نفسه شعرت بالأسف تجاه شتيلر. لماذا يرفض الحب، الحب الحقيقي؟ لم يبقَ أمامها سوى أن تلعب الدور الذي أجبرها عليه شتيلر، وأن تثرثر مثل امرأة مرحة، فضولية، لا تبدي تفهّماً، إلى أن يذهب شتيلر. لم تكن تريد أن تراه ثانية أبداً.

عندما عاد من الدرج، يرافقه خرير المياه، كانت زيبيله قد صفّفت شعرها، ووضعت أحمر شفاه من جديد. كانت قد وضعت القبّعة أيضاً على رأسها. اندهش شتيلر، وسألها: «هل ستذهبين؟!».

قالت وهي تتناول حقيبة يدها: «بعد قليل سينتصف الليل».

لم يردّ شتيلر بشيء. قالت له فجأة: «إنسان غبيّ!».

«لماذا؟»، سألها من عند الحوض حيث كان يغسل يديه.

ضحكت زيبيله وقالت: «لأنك ببساطة إنسان غبيّ، لا أعرف لماذا».

نظر شتيلر إليها نظرة مضطربة، وجفّف يديه. لم يعرف كلاهما ماذا يجب عليهما أن يقولا الآن. واصل شتيلر تجفيف يديه، فقالت له زيبيله: «تعال، دعنا ننطلق بالسيارة!».

- «إلى أين؟».

- «إلى أيّ مكان بعيد عن هنا. سيارتي بالأسفل، آمل ألّا يكون أحد قد لاحظ أنني، على ما أعتقد، لم أقفلها مطلقاً».

ابتسم شتيلر وكأنها فتاة ساذجة. لم يبدُ على وجهه ماذا قرّر؛ على كلّ حال فتح شبّاك المطبخ الصغير حتى يهوّي الأتيليه من الدخان، وتناول، دون أن ينطق بكلمة، معطفه البني من المسمار، ودقّ على جيبيه ليسمع ما إذا كانت مفاتيح البيت داخله؛ ثم نظر إلى زيبيله مرّة أخرى، غير متأكّد مما تفكّر فيه هي، وأطفأ الضوء.

لم يكن اليوم التالي سهلاً بالنسبة إلى زيبيله، أو لم يكن سهلاً على نحو مفزع. مطعم ريفي ما في الليل حيث لم تكن حرابٌ معلّقة على الجدران. في المقابل على الأرجح قول مأثور من الكتاب المقدس أو أي قول مأثور آخر، مكتوب بالتطريز: «كن وفيّاً وصادقاً!» أو «لا تدوم سوى الاستقامة!» أو ما يُكتب على مثل هذه القطع المطرّزة، باختصار: مطعم ريفي في الليل تفوح من جنباته ربما رائحة الكمّثرى المجفّفة، حيث تصيح الديكة في الصباح الباكر أمام نافذته الصغيرة، ومن ناحية أخرى بيتها المألوف مع هانيس الصغير الذي لم يمت بسبب آلام الحلق التي يعانيها، العالمان كلاهما رائعان، لم يربكها غير أن المرء كان بإمكانه الانتقال من عالم إلى آخر من دون أيّ جسر. اتصلت في الظهيرة تقريباً

لتعرف ما إذا كان وجود شتيلر حقيقياً. ثم، يمكننا أن نتخيّل ذلك، هبطت وخرجت إلى الحديقة!

كان الربيع قد أتى، وكان هناك الكثير مما ينبغي إنجازه، الحرث، والزرع، والتشذيب، والتنظيف، كما أن التربة كانت جافة مثلما تكون في الصيف. جرّت زيبيله رشاش النجيلة، ووضعته على المرج الصغير، وتركته يطلق أزيزه وسط الشجيرات ذات البراعم. إحدى الجارات اعتبرت تلك الطريقة غير مناسبة للبراعم؛ لذا جرّت زيبيله الرشاش إلى مكان آخر حيث لا يضرّ ماؤه شيئاً، لكن أزيزه كان ضرورياً، ولتفعل الجارة المبجّلة -التي كانت تدّعي أنها تعرف كلّ شيء عن حالة الطقس أيضاً- ما شاءت، إذا لم تكن تتفهّم ذلك. وعموماً هذا التدخّل الفظيع في شؤون الغير! لم ينسَ صغيرها هانيس وعْدَها له بالأمس بأن تشتري له البوص والورق الرقيق لصنع طائرة ورقية؛ شعرت بالأسف لتقصيرها، وتعهّدت بأن تنطلق في الغد بالسيارة إلى المدينة، ووعدته بأن تذهب معه إلى السيرك كمكافأة إضافية عندما يأتي السيرك إلى المدينة، واليوم سُمح له بالذهاب مع زيبيله إلى المطار لإحضار بابا. وعموماً كانت زيبيله ترغب في أن ترى كلّ الناس سعداء، حتى كارولا، الخادمة الإيطالية التي استطاعت اليوم، بلا مقدمات، أن تذهب للنزهة، إذ إن السادة سيتناولون طعامهم في المدينة. يا له من يوم ربيعي! كان هذا هو رأي الجارة أيضاً. شجيرات الفُرسيتية في ذروة التوهّج، كما بدأت الماغنوليا أيضاً في التألق، وفوق ذلك يطلق رشاش النجيلة قوس قزح صغيراً خاصاً.

بعد أربع ساعات من العمل المخلص في الحديقة، أخذت زيبيله دشّاً مرّة أخرى قبل أن تغيّر ملابسها للمرة الثانية. وصلا إلى المطار مبكراً للغاية. حصل هانيس على كوب من الآيس كريم بعد أن أوشكت آلام الحلق أن تتلاشى، ولكن لم يُسمح له على أي حال بخلع سترته حتى لا

تعود آلام الحلق الغبية مرّة أخرى. ووصلت الطائرة! كان بإمكان المرء أن يطير مباشرة إلى أثينا، أو إلى باريس، أو حتى إلى نيويورك. لم يكن لدى زيبيله أدنى شك في أن رولف سيلاحظ ذلك عليها من النظرة الأولى. وهو كذلك الشخص الأول، والوحيد، الذي تريد أن تبوح له بذلك. تأخرت الطائرة أربعين دقيقة، وهو وقت كافٍ بالنسبة إلى زيبيله حتى تقول لنفسها كلّ ما لن تقوله في الحقيقة أبداً. وفي تلك اللحظة، عندما انطلقت مكبّرات الصوت تعلن هبوط الطائرة القادمة من لندن، وعندما كان قطيع من الأغراب قد غادر بالفعل الطائرة التي صمتت محرّكاتها، ثم جمعتهم مضيفة لتقودهم إلى الجمرك، وكأن شيئاً لم يحدث، وعندما ألقت زيبيله، وهي تمسك هانيس بيدها، نظرة من شرفة الزوّار إلى الأسفل، وعندما التفت رولف، ثم -بعد أن تعرّف على العائلة أخيراً- لوّح بصحيفة، في تلك اللحظة خرست زيبيله تماماً فجأة، نعم، حتى لم تلوّح له. لم تلحظ زيبيله ذلك قطّ، لكن رولف ادّعى في ما بعد أنها حتى لم تلوّح له، ولا حتى أومأت له. فجأة الشعور: وما شأنه بذلك؟! وعندما استغرق وقتاً طويلاً جدّاً في الجمرك، شعرت حتى ببعض الغضب تجاه توقّع رولف البديهي أن عليها إحضاره من المطار بعد كلّ رحلة. كانت زيبيله في حاجة على نحو ما إلى هذا الدرع من الغضب. تلويحة بالصحيفة، نعم، ولكن لا أثر للمفاجأة السعيدة؛ لقد اعتبر ببساطة أن من حقّه أن يجد قرينته تنتظره في المطار، هذا ما ولّد الغيظ في نفس زيبيله إلى درجة أنها -بعد أن خرج من الجمرك وقبّلها- أعطته كلا الخدّين، ولكنها لم تمدّ شفتيها له.

سؤاله المعهود: «ما الجديد؟».

عند ذهابها إلى السيارة لاحظت أن قدمَيها لا تقويان على حملها. لدى تناول العشاء في المدينة، وحتى تحكي له شيئاً جديداً، تحدّثت عن الشاب شتورتسن إغر، المهندس المعماري، وعن حظه الرائع، عن

مشروع كُلِّف به في كندا أو في بلد شبيه. كما أن شتورتسن إغر الشاب قد رشّح فيلماً ينبغي على المرء مشاهدته في كلّ الأحوال، واليوم هو آخر عرض. كان رولف في المعتاد يرجع من رحلاته رائق المزاج ومرحاً جدّاً وكأنه يأتي مباشرة من نبع الحياة؛ الآن، وقد فاقته مرحاً، فقد لعب دور المتعب، وأبلغها أنهم تعرضوا لعاصفة فوق بحر المانش، لذا أراد الذهاب إلى البيت، وتصرّف وكأنه لم يرجع من لندن بل من الجبهة، وكأنه بطل لديه الحقّ في الرعاية المنزلية. دُهشت زيبيله بعض الدهشة، لكنها لم تجعله يلاحظ ذلك، دُهشت لأنها اكتشفت كيف كانت ترى رولف على نحو مختلف، رؤية لا تخلو من الحب، لكنها تخلو من الخوف من أنه يخفي عنها شيئاً، رؤية متحرّرة من الوهم بأنها لن تستطيع العيش من غير رولف، كلّا، ومن غير المشاعر الدافئة والحقيقية التي اختلطت في تلك اللحظة بالشفقة، أي لا تخلو من ازدراء لم تكن زيبيله تريده، ورغم ذلك فقد شعرت فجأة بالازدراء، لاحظت زيبيله ذلك أكثر منه، التغيير البسيط في النبرة. لكي تظهر له أن تعبه لا يعني تعبها هي، فكّرت في أن تذهب وحدها إلى الفيلم المقترح. لم يعارض رولف. لكنها صرفت النظر؛ ليس لأن ضميرها أنّبها، إطلاقاً، بل بالأحرى بدافع من مشاعر الأمومة. في ما بعد، في السيارة التي قادتها زيبيله، لم يكن رولف هو الذي وضع يده على ذراعها، بل العكس، على الرغم من أن زيبيله، كما قلنا، كانت تجلس خلف عجلة القيادة. قال لها: «تبدين رائعة!».

فردّت: «وأنا أشعر بأنني في حالة ممتازة».

وبارتياح قالت لنفسها: الآن هو يعلم كلّ شيء. أحياناً كانت تنظر إليه غير مصدّقة أن فهم هذا الرجل محدود إلى هذه الدرجة. شعرت أن الأمر يكاد يتسم بالغرابة. قد تكون لحظة صعبة (بالنسبة إلى زيبيله) عندما رأت رولف، والد طفلها، يضع حقائبه في الممرّ، ويعلّق معطفه،

حتى يبيت هنا. شيء فظيع! اعتقدت زيبيله أن الدموع ستنفجر من عينيها الآن، ولكن حتى ذلك لم يلاحظه رولف، بل راح يحكي عن العناق الخاطف مع الإمبراطورية البريطانية. كان هانيس الصغير قد ذهب إلى فراشه، وصلّى صلاته القصيرة؛ ولم يعد لدى زيبيله سبب مقنع لكي تهرب من العناق الخاطف مع الإمبراطورية البريطانية. ليس ثمة شيء يمكن الرجوع عنه، لا شيء مطلقاً، حتى لو استطاعت، لا شيء مطلقاً؛ ولكن كيف يمكن اجتياز هذه الأمسية، كيف، إذا كان لا يدرك شيئاً -وهو أمر لم تستطع زيبيله أن تفهمه- وإذا كان الصمت في هذه الظروف سهلاً، ومع ذلك غير ممكن؟ وقف رولف في المطبخ أمام الثلّاجة حتى يشرب بيرة، وسأل زيبيله البعيدة عما إذا كانت في أثناء سفره ذهبت إلى ورشة البناء. كانت زيبيله قد قررت أن تترك البيت، تفتح الباب دون صوت، بينما يقف رولف في المطبخ ويحتسي البيرة ويتحدّث عن ورشة البناء، وأن تخرج إلى أيّ مكان، ليس إلى شتيلر، ولكن إلى أي مكان؛ لا بدّ أن رولف قد سمع مقبض صوت الباب، فأتى ورآها مرتدية المعطف وفي يدها مفتاح المنزل، كانت شاحبة ثم احمرّ وجهها، لكنها كانت حاضرة البديهة على نحو غريب. «الكلب!»، قالت له إن على الكلب أن يسير في الهواء الطلق. وضع رولف كأس البيرة حتى يأخذ الكلب إلى الخارج، مبدياً، أكثر من المعتاد، استعداده للمساعدة.

ألم يشعر حقّاً بشيء؟ هل يتظاهر؟ أيتساوى الأمران لديه حقّاً؟ أم أنه غبيّ، غبيّ غباء لا يمكن تصوّره، أو لديه جنون عظمة يجعله يعتقد أن رجلاً آخر لن يستطيع مواجهته، أم ماذا يعني كلّ هذا؟ جلست زيبيله بمعطفها. وليس من المهمّ، هكذا بدا لها، أن يكون رولف محقّاً على نحو من الأنحاء؛ هذا شيء لن ينتقص منه في شيء ولكن لا بدّ أن يعرف! كلّ ساعة أخرى، كلّ ربع ساعة تصمت فيها، تسمّم كلّ ما كان بينها وبين رولف.

بكت. هل ربما شعرت بالندم؟ لقد شعرت بالخجل من شتيلر الذي كان بعيداً جداً الآن، وشعرت بالخوف من اللحظة التالية التي كانت تقترب شيئاً فشيئاً، عندما يعود رولف بالكلب، ولأنها ستقول له، عندئذٍ قد تصغُر الليلة الماضية حتى تصبح خيانة، خيانة لشتيلر، ولها نفسها. رأت أمام عينيها ما سيحدث: سيضع رولف ذراعه عليها، وسيكون تفهّمه ممزوجاً بالتسامح الذي يدفن كلّ شيء، ولن يأخذ مأخذ الجد مغامرتها الصغيرة، الحمقاء قليلاً؛ وهي، الخائنة، ستكرهه بسبب خيانتها. وفجأة تراءى لها وكأن كلّ ما في شقتها لا هدف له غير أن يجعل الصدق مستحيلاً. لماذا لم يحضر شتيلر إلى هنا! بدا لها زوجها قويّاً جدّاً، قويّاً على نحو خارق، ليس لأن «الحقّ» في جانبه، ولكن بسبب حضوره؛ أما شتيلر فقد توارى خلف مئات الأشياء، خلف هذا البيانو، والأثاث، والأبسطة، والكتب، والثلّاجة، وأشياء عديدة، ليس هناك سوى أشياء تقف في صفّ رولف، أشياء خرساء، عنيدة، لا يمكن إنكارها. شقة كهذه حصن، هكذا بدا لها، دناءة عالية الذوق. كانت على وشك أن تتصل بشتيلر، حتى تسمع فحسب صوته المنسيّ، لكنها سمعت نباح الكلب، فوضعت السماعة، وخلعت معطفها أخيراً، كانت في أقصى درجات التعب، ومستعدّة للاستسلام الأنثوي، أي الانتظار حتى ترى أيّ الرجلين سينتصر على الآخر، وبالتالي سينتصر عليها.

وجدها رولف مستغرقة في إنجاز أعمال منزلية. كان محقّاً بالتأكيد عندما وجد أن لا داعي لأن تقوم زيبيله الآن بمراجعة الفاتورة الشهرية لبائع الحليب والجزّار، وجد ذلك غير لائق تجاه الرجل العائد من لندن. أظهر تبرّمه، نعم، وبدا أن الأمسية ستمرّ في ظلّ هذا التبرّم الزوجي المألوف، أي ستمرّ على خير تقريباً. لكن ذلك لم يحدث، ما يرجع بالأحرى إلى رولف. هشّم كأس البيرة في الحوض. سألته: «ماذا حدث؟». لقد استنتج

من تصرّفها غير اللائق أن زيبيله، زوجته العزيزة التي تعيش في عالمها، تشكّ فيه مرّة أخرى؛ لقد سئم رولف ذلك. كان رولف يرى أنها تحاسبه على أتفه الأشياء، وأنها ضيقة الأفق؛ مرّة أخرى (ولكن مع نبرة واضحة تقول إن هذه هي المرة الأخيرة) ألقى رولف «محاضرته»، ولم يسمح لها بأن تقاطعه، كلا، على زيبيله بالفعل أن تصل إلى فهم أكثر سخاء بخصوص الزواج، لا بدّ أن تكون لديها ثقة، عليها أن تدرك أن رولف يحبها، حتى لو تقابل أحياناً خلال رحلاته مع امرأة أخرى؛ وبالمناسبة، لم يكن هذا هو الحال هذه المرّة، ولكنه يرى، مثل كلّ الرجال، أن المهم هو المبدأ، وهو يأمل، كما سبق القول، أن يقود زيبيله إلى فهم أكثر نضجاً للزواج، إلى الإدراك أن قدراً معيّناً من الحرية ضروريّ في الزواج أيضاً. وهو يرفض شعور الغيرة الذي انتابها. ولكن حتى هذا سيمرّ. أرادت زيبيله أن تؤكّد له أنها تفهمه كما لم تفهمه من قبل، وأنها لا تشعر بأيّ غيرة؛ ستكون تلك هي الحقيقة، كما ستكون في الوقت نفسه استهزاء خالصاً، لم يكن هناك ما يُقال، مطلقاً. أرادت زيبيله أن تختلي بنفسها بأسرع ما يمكن. كان الأمر فظيعاً، لقد أوشك أن يصبح ملهاة. شعرت زيبيله ببعض التفوّق وهي تمنحه قبلة حارّة على جبينه، وأخجلها هذا الشعور. بحركة لا إرادية أوصدت زيبيله بابها. لم تكن سعادتها حلماً. بمجرّد أن شعرت بأنها وحدها، ملأتها السعادة مرّة ثانية بمشاعر واقعية. لم تدندن مراعاةً له فحسب. رغم ذلك، هكذا بدا لها، فإن المرء يسمعها عبر كلّ الجدران، يسمع سعادتها الصامتة، والزوج، الذي قال مرّة أخرى كلّ ما هو لازم، لم يستطع أن يهدأ. أفزعه الباب الموصد؛ أصرّ على أن تسمح له بالدخول إلى حجرتها مرّة أخرى، وعندئذٍ، عندما جلس رولف على فراشها مثل شخص طيّب يقدّم لها التعزية، وكان من الواضح أنه يتوقع أن يرى وجهاً باكياً، استولت عليه الدهشة لرؤية وجه سعيد، عندئذٍ بدأ يدرك شيئاً.

سألها: «ماذا حدث؟».

لم تجد زيبيله كلمات لكي تقول له ذلك؛ فردّت: «أنت تعرف».

رولف أيضاً لم يجد أفضل الكلمات. قال لها: «هل كنت عند رجل آخر؟».

أجابت زيبيله بنعم، وكانت سعيدة لأنها تخلّصت من صمتها، وشعرت بالارتياح لإظهار مدى سعادتها. حملق رولف فيها. رجته بألّا يوجّه الآن أسئلة أخرى وأن يتركها وحدها. سمع رولف ذلك (هكذا تقول زيبيله) مُظهِراً تماسكاً لافتاً، بل وسافر لعدة أيام حتى يترك زيبيله في هدوء، مما جعلها تشعر ناحيته بالامتنان من أعماق قلبها. حتى بعد عودته كان (هكذا تقول زيبيله) متماسكاً بشكل لافت.

ليس لي أن أصف سعادة الحب التي عاشتها زيبيله، قرينة المدّعي العام في قضيتي، في الأسابيع اللاحقة، أو التي كانت تأمل في أن تعيشها. ويبدو لي الأمر محلّ خلاف: هل هي عظيمة، سعادة الحب هذه، مثلما يظن الزوج والزوجة من الطرف الآخر بغيرتهما الصامتة، أي مثلما تظن السيدة يوليكا شتيلر تشودي من ناحية، ويظن صديقي المدّعي العام من ناحية أخرى؟ حبّ مشرّد، إننا نعرف هذه الحالة، حبّ بلا شقّة خلال النهار، حبّ يعتمد على ساعات الانجذاب، هذا الحب يتحوّل إن آجلاً أو عاجلاً إلى شيء يائس، كلنا نعرف ذلك، عناق في حقول الغلال ذات السيقان العالية أو في غابة ليلية، لفترة ما، أمرٌ رومانسي ومثير، ثم يغدو أمراً بائساً، إهانة، شيئاً غير معقول، شيئاً لا يمكن إنقاذه رغم كلّ محاولات المرح المشتركة، فهما في نهاية الأمر ليسا من تلاميذ المرحلة الثانوية، بل شخصين بالغين، رجل وامرأة، كلاهما تزوّج من قبل... تفهّمت زيبيله (هكذا تقول) عوائقه

النفسية في أن يستقبلها في الأتيليه الخاص به حيث يذكّره كلّ شيء بزوجته يوليكا المريضة. شعرت بالندم، لأن الأتيليه الرحب المنير، كما قلنا، كان يعجبها كلّ الإعجاب؛ لكنها تفهّمت الأمر. كانت زيبيله تتمنى أن تكون المرأة الخصم بكامل صحّتها، امرأة نديّة، يعرض عليها المرء الصداقة أو الصراع المفتوح، نعم، أو حتى امرأة غاضبة تأكلها نار الغيرة، امرأة تزرع في كلّ مكان في المجتمع ألغامها الأخلاقية، أو امرأة مشوّشة الذهن تطلق تهديداتها المثيرة للسخرية بفتح غاز الموقد، مجنونة خالصة الجنون تسير على خط مستقيم إلى الخيانة الزوجية المضادة، كانت زيبيله تفضّل أيّ شيء على هذه المرأة المريضة التي انتقلت إلى المصحّة في دافوس، لتضع الأصحّاء موضع اتهام، إضافةً إلى أنها امرأة لم ترها زيبيله قطّ وجهاً لوجه، شبح! ولكن هكذا كان الوضع، ولهذا كان الأتيليه مستبعداً. ماذا بقي أمامهما حتى يلتقيا سوى الطبيعة الربّانية في الهواء الطلق وبعض المطاعم والحانات؟ كان الأسبوع المطير كارثيّاً بالنسبة لحبّهما، وكذلك بالنسبة لعروض الهواء الطلق أو الأحلام الليلية الصيفية؛ بدأت المطاعم والحانات تتكرّر؛ وشرعت الطرق حول المدينة تؤدي إلى اللامكان؛ وأضحت أحاديثهما حزينة، مليئة بالدعابات، لكنها حزينة - باختصار: لا يمكن أن يستمرّ الوضع هكذا.

مع أن حبّهما كان حبّاً حقيقياً.

ذات يوم قالت زيبيله: «هيّا، دعنا نسافر إلى باريس!».

ابتسم شتيلر في ارتباك. فواصلت: «لقد جئت لتوّي من البنك، لا تحمل همّاً. علينا فقط أن نرى متى يسافر قطار».

طلب شتيلر من النادلة أن تحضر لهما جدول السفر. ثمة قطارات عديدة إلى باريس. وذات يوم، في يوليو تقريباً، وصلا حتى رصيف

المحطة، وجلسا على المقعد تحت الساعة الكهربائية والتذاكر في الجيب، وقد تسلّح كلّ منهما بفرشاة أسنان وجواز السفر.

«نسافر أم لا نسافر؟»، سألها شتيلر وكأن الإحجام عن السفر يقع على عاتقها هي وحدها، وليس على عاتقه. كان المحصّل ينتقل من عربة إلى أخرى صائحاً: «اصعدوا إلى القطار، اصعدوا من فضلكم!»، شعرت بالشفقة تجاه شتيلر. لم يكن ثمة شك في تصميمه على أن يلبّي أمانيها أخيراً، ولكن فجأة فقدت زيبيله كلّ رغبة حقيقية في السفر؛ أزعجها أنه عابس في تصميمه. سألته: «ويوليكا؟».

في تلك الأثناء كان عقرب الساعة الكهربائية يقفز من دقيقة إلى دقيقة. في الحقيقة كان شتيلر (هكذا تقول) سعيداً لأن التردّد جاء، على الأقل ظاهريّاً، من ناحية زيبيله، في حين أنه كان يجسّد اللامبالاة الذكورية وهو يحمل حقيبتها في يديه. أُغلقت الأبواب في عربة تلو الأخرى. ظلّت زيبيله جالسة، شعرت بوضوح أن الشبح يجلس بالفعل في القطار، ولم يكن لديها رغبة في أن تسافر إلى باريس مع شبح. انطلق القطار؛ ظلّا واقفين على رصيف المحطة وقد قرّرا أن يسافر شتيلر أولاً إلى دافوس ليتحدّث بكلّ صراحة مع يوليكا المريضة، لا سبيل غير ذلك.

في أغسطس سافر شتيلر إلى دافوس.

في أعماقها شعرت زيبيله بحرّية تامة، حتى وإن كان التماسك اللافت لزوجها (هكذا تقول) قد أثار أعصابها. لدى كلّ فنجان قهوة سوداء تحتسيه، وبمجرّد ألّا يكون الصغير هانيس موجوداً، كانت تنتظر الشجار. عبثاً! لم يقل رولف سوى: «إذا كان عندك وقت مساء الخميس، فهناك حفل لموسيقا الأرغن في كنيسة فراون مونستر...».

كانت زيبيله تشغّل ماكينة القهوة. قالت له: «لا وقت لديّ».

وبهذا انتهى حفل موسيقا الأرغن.

كانت ترى رولف فظيعاً إلى درجة أنها ترغب في قتله؛ لقد منحها الحرية، ومنحها الاستقلال الذي يكاد يكون مهيناً.

«لا أفهمك!»، هكذا انفجرت زيبيله فيه، وليس العكس. واصلت قائلة: «أنت تعرف تماماً أنني أحبّ شخصاً آخر، وأنني أقابله كلّ يوم تقريباً، ولم تسألني حتى عن اسمه! هذا شيء غير معقول!».

ابتسم رولف وسألها: «وما اسمه إذاً؟».

ردّاً على سلوك مزدرٍ كهذا لم يكن لدى زيبيله بالطبع ما تقوله، فراحا ينتظران القهوة صامتين. قال رولف مثرثراً: «لقد قلت لك إنهم يريدون تعييني مدّعياً عامّاً...».

حتى يتهرّب كان لدى رولف دائماً شيء مهمّ، شيء موضوعي. أخيراً كانت القهوة جاهزة في الوعاء الزجاجي الكروي، وتصاعد البخار مصدِراً صفيراً. مع رولف أيضاً، هكذا رأت، لا يمكن أن يتواصل الحال هكذا. وفجأة بدأ المال يلعب دوراً أيضاً: ليس بالنسبة إلى رولف، بل بالنسبة إلى زيبيله. في قرارة نفسها كان يجرحها موقف شتيلر الحبيب الذي كان يعتبر الأمر بديهياً، أن كلّ ما تضعه زيبيله على جسدها قد دفع رولف ثمنه، لم يكن شتيلر يكسب شيئاً تقريباً، بالتأكيد، ولم يكن يستطيع الذهاب إلى البنك لسحب نقود، كانت تتفهّم ذلك، ورغم ذلك كانت تشعر في قرارة نفسها بالجرح، نعم، بالرغم من كلّ الأفكار العقلانية. أقصى شيء فعله شتيلر كان سخريته ذات مرّة من السيدة المدلّلة، تحسّس القماش الجديد، وامتدح ذوقها الجيد في اختيار الألوان، دون أن يفكّر مرّة في الفكرة التي، بالطبع، سترفضها زيبيله بكلّ رقّة، فكرة أن زيبيله لم تعد تريد أن يكون زوجها، رولف، هو الذي يدفع لها ثمن ملابسها. لم يزعج ذلك شتيلر

مطلقاً، كلا، ولا حتى رولف انزعج من ذلك. أحياناً (هكذا تقول) كانت لا تطيق كلا الرجلين. كانت تشعر بالرغبة في التحدّث حول الموضوع، عندئذٍ قالت زيبيله لرولف: «بالمناسبة، أحتاج إلى نقود، نقود كثيرة إلى حدٍّ ما. فنحن نفكّر في قضاء هذا الخريف في باريس».

نظرت إليه من الجانب بعد أن قالت له ذلك؛ أما رولف فقد صمت. حدث الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه، أي لا شيء. ملأت فنجانه الصغير ووضعته أمامه. «شكراً»، قال لها. إما أن رولف، زوجها، يعارض أن تسافر مع رجل آخر (وبنقود رولف) إلى باريس، أو أن رولف لا يعارض ذلك؛ كانت ترى أنه ليس ثمة احتمالٌ آخر. ملأت زيبيله فنجانها. اكتفى رولف بقول: «هكذا، تريدان السفر إلى باريس».

أرادت أن توضح الأمر: «لا أعرف حتى متى، ربما عدّة أسابيع فحسب، وربما لمدة أطول أيضاً».

لم يقفز رولف من مقعده، لم يقذف فنجانه تجاه الحائط، هذا الرولف بتماسكه المثير للسخرية، فضلاً عن أن يركع ويتوسّل إلى زيبيله لكي تحكِّم عقلها وتبقى لديه. لا شيء من كلّ ذلك! للحظة احمرّ وجهه، على الأرجح كان يظن أن حكايتها مع مهرّج حفلة الأقنعة قد انتهت، والآن عليه من جديد أن يؤقلم نفسه على حقيقة خيانتها الزوجية السعيدة. ولكن لماذا، بحقّ السماء، يجب عليه أن يفعل ذلك؟ راح رولف يقلب قهوته. لماذا لا يلقي وراءها بأصيص زهور أو على الأقل بكتاب؟ عندما رأت فنجانه يهتزّ قليلاً، لم تشعر بأيّ ندم، ولا حتى شفقة، شعرت بالأحرى بخيبة أمل، ومرارة، واستهزاء، وحزن.

«أم أن لديك مانعاً؟!»، هكذا سألته وهي تناوله السكر، وقالت شارحة أسبابها: «أنت تعرف الوضع، هنا لن تجد سوى القيل والقال عندما يراني

الناس. هذا شيء لا يهمّني! ولكن بالنسبة إليك الوضع غير مريح، خصوصاً الآن، وقد اختاروك لتصبح مدّعياً عامّاً! بالتأكيد سيكون من الأفضل لك أن نعيش في باريس».

تطلّعت إليه، ثم قالت: «أم ما رأيك يا رولف؟».

أخذ يشرب، ويحرّك، ويشرب، وينفخ في القهوة، ويشرب، وكأن كلّ ما يهمّه الآن هو الانتهاء من شرب هذه القهوة الساخنة. طرح سؤاله الموضوعي على نحو عَرَضي تماماً: «نعم، وكم من المال تحتاجين بالتقريب؟».

جبان، ككلّ الرجال الذين لا يبادرون بالهجوم؛ هكذا تحصّن على الفور خلف سؤال موضوعي، في حين أن زيبيله كانت تريد أن تسمع ما يشعر به، ما يأمله. زيبيله مع رجل آخر في باريس، ألا يبالي بذلك؟ أيجد ذلك مقبولاً؟ أيجده محتملاً؟ سألته زيبيله بوضوح واختصار: «ما رأيك؟».

كان رولف يقف بجانب النافذة الكبيرة، معطياً لها ظهره العريض، يداه في جيبي سرواله، متفرّج كعادته في حين أن النيران تستعر. وجدت ظهره عريضاً جدّاً، ورأسه مستديراً وضخماً؛ فأطلقت قذيفتها تجاه هدوئه، وقالت دون أن يسألها: «أحبّه. حبّنا حقيقي»، ثم أضافت: «وإلا ما كنا سنسافر معاً إلى باريس، صدّقني، لستُ طائشة».

عندئذٍ يجب على الرجال دائماً أن يذهبوا إلى العمل، نعم نعم، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً بعشر دقائق؛ اجتماع، الحصن الذي يمنحهم شعوراً بالأهمية، كانت زيبيله تعرف ذلك. إذا لم يذهب رولف الآن إلى عمله، فستسقط البشرية كلّها في وضع وخيم العواقب، وضع يغيب فيه القانون. قال باختصار: «عليك أن تعرفي بنفسك ما تعتبرينه صواباً».

وبعد أن ارتدى معطفه -وقد أدخل الأزرار في العروة الخطأ، فتحتّم على قرينته أن تصحّح ذلك- أضاف بنبرة يخالطها الحزن: «عليك أن تفعلي ما تعتبرينه صواباً!».

وانصرف. وراحت زيبيله تنتحب، وحدها في الغرفة.

بهذا المعنى كانت زيبيله حرّة.

أما شتيلر فقد عاد من دافوس دون أن يحسم شيئاً، وكأن راقصة الباليه تُحتضر، وبالتالي فإن الرحلة إلى باريس في مثل هذه الظروف كانت مستبعدة. مرّةً أخرى جلسا في مكان ما على حافة الغابة - حولهما كانت الغلّة الناضجة قد حُصدت، انقضى الصيف، وتجمّعت العواصف الرعدية فوق البحيرة البيضاء، راحت نحلة تطنّ وهي تسير في خطوط متعرّجة وسط السكون الصيفي، وفوق الحقول كانت الزرقة ترتعش، وفي المزارع كان الدجاج ينقنق - كان العالم شيئاً رائعاً، مبهجاً، بل ويبعث على الحماسة. وحدها سعادتها (أو ما كانت تعِد نفسها به بعد الحب) كانت معقّدة للغاية! جلسا على الأرض صامتين، كلّ منهما يخون زوجه، تشابكت يداهما في حنان، ووضع كلّ منهما عوداً من عيدان العشب بين شفتيه المزمومتين المهمومتين؛ الشيء الوحيد في هذا العالم الذي بدا لهما غير معقّد هو الزواج، ليس زواجها برولف، ولا زواجه بيوليكا، بل زواجهما هما.

في ذكريات هذه المرأة الرائعة، وهي ذكريات تخلو تماماً من المرارة -بالطبع أراها طوال الوقت وأنا أكتب هنا، في كرسيّها الخيزرانيّ الأزرق، كما رأيتها مؤخّراً في المستشفى عندما أحضرت لها زهور الغلاديولوس، في معطفها الصباحي ذي اللون الأصفر الليموني، وبشعرها الأسود- ثمة نقطة ستدهش المفقود شتيلر دهشة ليست بالقليلة، وأعني أن زيبيله في

ذلك الصيف وذلك الخريف، ومن دون أن تخبر شتيلر، كانت تنتظر طفلاً منه (سيكون الآن عمره ستّ سنوات).

أسجّل:

كان ذلك في سبتمبر، شتيلر منشغل للغاية بأنشطة عديدة من أجل إقامة معرض؛ شخصيّات مهمّة كانت تعتبر أن ظهور شتيلر مرّة أخرى أمام الرأي العام أمرٌ مناسب، وضروري.

«هل أزعجك؟»، سألته زيبيله لأن شتيلر، وبمجرّد أن حيّاها بقبلة اعتيادية تقريباً، واصل إعمال منشاره في قاعدة تمثال. راحت تشاهد ما يفعله. كانت ترى أن الرجل لا يكون جميلاً جدّاً إلا عندما يقوم بعمل يدوي. قالت له: «لا أريد أن أؤخّرك، ولكن كان يجب، ببساطة، أن أراك اليوم...».

لم تَبُح بأكثر من ذلك، لا سيما أن شتيلر لم يتساءل عن سبب هذا الاحتياج. المهم الآن هو قاعدة التمثال. سألته زيبيله: «متى يأتي إذاً، هذا السيد من متحف الفنون؟».

حاولت أن تبدي اهتمامها. في الخارج كان يوماً سبتمبرياً معتدلاً ذا سماء زرقاء. لا بدّ من إعداد تسع قواعد للتماثيل على الأقل، ثم لا بدّ من صباغتها أو طلائها بمادة شفافة، كلّ شيء ليس سهلاً ولا بسيطاً؛ قاعدة تمثال غير مناسبة قد تسبّب ضرراً كبيراً، وماذا يجب على الطلاء أن يتضمن وماذا يجب ألا يتضمنه؛ هذا هو السؤال الآن. قالت له زيبيله: «وزوجتك؟ هل ستعرضها أيضاً؟».

كانت قد وضعت ماء الشاي على الموقد، وقد بدأ في تلك اللحظة يغلي، ولهذا كانت منشغلة أيضاً. واصلت كلامها قائلة: «أحضرت لك شيئاً. لقد أعددت شيئاً في الفرن!».

أشارت إلى كعكة طازجة، يطلقون عليها «التوازن في الثقل»؛ تأثّر شتيلر دون أن يلقي نظرة، وتحدّث عن هراء وشعوذة. لم يكن بوسع زيبيله أن ترى فارقاً بين تماثيله المختلفة؛ لماذا أضحت فجأة هراء وشعوذة؟ مع أن رسالة المُرمِّم كانت هناك، قصيدة مدح لشتيلر إلى درجة أن المرء يتولّد لديه الخوف، قريباً سيطير شتيلر على أجنحة الشهرة. «الشاي جاهز»، قالت له وهي تنتظر. لم تفكّر قطّ في أن معرضاً فنيّاً يستلزم كلّ هذه التحضيرات وكأنهم على وشك غزو بلدٍ ما (كان رولف قد تحدّث معها أثناء تناول القهوة السوداء عن مذكّرات تشرشل)، وشعرت بالأسف نحو شتيلر. سألها وهو يُصنفِر قاعدة التمثال: «ما رأيك في الملصق الدعائي؟».

لم تلحظ زيبيله مطلقاً الرسم السريع على ورق التغليف، قالت متعجّبة: «وسيكون هناك ملصق أيضاً؟!».

وبالفعل، كان هناك ملصق بكلّ لوازمه، مثل ملصقات الدعاية للموسيقار فورتفنغلر أو مسحوق «بِرزيل»، كانت تراه فظيعاً: أ. شتيلر، توقيعه المحبّب على كلّ جانب من الملصق، كبيراً وكأنه تحت عدسة مكبّرة. ألا يشعر الرجال بالخجل أبداً؟ لو كان الأمر على الأقل مبهجاً بالنسبة إليه! لكن شتيلر كان «يسبّ ويلعن المعارض وسنينها». لماذا أقام معرضه إذاً؟ شرب الشاي واقفاً، وأكل من الكعكة وهو يتحدّث، فخرج من فمه مطرٌ من الفتات، لكنه لم يلاحظه قطّ. تركته زيبيله بعد فترة قليلة؛ بدا لها أن الوقت ليس مناسباً للحديث عن أبوّته، ورضيت بأن شتيلر لم يدعها تمشي ببساطة، بل قال لها إنه ينتظرها في الخامسة للإبحار بالقارب الشراعي. كانت سعيدة لأنها ستقابله في هذا اليوم مرّة أخرى. حتى تضيّع الوقت فحسب، راحت تتمشّى في «بانهوف-شتراسه» في هذا الجو السبتمبري، متنقّلة من واجهة عرض إلى أخرى، ومن محلٍّ إلى آخر،

إلى أن عثرت على ألطف رباط عنق في زيورخ. خطر على بالها أن شتيلر للأسف ليس لديه قميص مناسب على الإطلاق لرباط العنق هذا. اشترت له قميصاً مناسباً.

أثناء الإبحار بالمركب الشراعي (هكذا قالت زيبيله) كان شتيلر، كالعادة، مثل صبيّ، جادّاً دون أن يغرق في التفكير، على طبيعته، وسعيداً بلعبته؛ كان يمسك بالدفّة وبالحبال، أما زيبيله فقد استلقت على مقدمة المركب، واضعةً يداً أو قدماً في المياه المتموّجة. هنا، على سطح البحيرة، كانا يشعران بالحرية، من دون أشباح. اختفت الضفتان خلف ضباب خريفي، ولمع شراعهما في أشعة الشمس الأخيرة الحانية، في الشرق كانت السماء قد تلوّنت بلون الغروب البنفسجي، أما المياه بجانب قاربهما المبحر فكانت ظليلة، وتكاد تكون سوداء تحت السطح العاكس المنير. وضعت زيبيله رأسها على مرفقها حتى تستقبل على وجهها آخر أشعة الشمس الغاربة، وسمعت خرير الماء تحت القارب عندما يتأرجح في الموجات التي تُحدِثها البواخر الصغيرة، وراحت تتأمل شتيلر، المراكبي المنشغل، وهي ترمش بعينيها: وجهه، رأسه النحيل، شعره الخفيف في الريح، كلّا، كان يعجبها جدّاً، هذا الرجل، الذي قد يكون والد طفلها الثاني. كيف سيستقبل رولف الخبر؟ في الحقيقة كانت راضية. وعلى ذكر رولف: غداً سيبدأ عمله مدّعياً عامّاً. يا لهما من مجتهدين! كلٌّ بطريقته. قرّرت زيبيله أن تتحلّى بالعقل، وأن تكون راضية. رغم كلّ شيء. ما زالت شابّة، ولكلّ شيء وقت. سيحدث شيء ما! ربما يأتي طفل، ربما تموت يوليكا، ربما يسقط نجم من السماء ويعدّل مسار كلّ شيء. مثلما يحدث دائماً في المركب الشراعي كان حديثهما قليلاً.

فوق البحيرة كانت المدينة بسياراتها تُصدر أصواتاً كالأزيز، أخذ

تلاميذ مدرسة يلوّحون لهما من فوق باخرة عائدة، والعالم، عندما تنظر إليه هكذا برأسها الراقد، لم يكن سوى ألوان، وبهاء، وانعكاس الضوء، وظلال، لم يكن سوى هدوءٍ ونغمات. لم تكن هذه هي الساعة المناسبة لاتخاذ قرارات. لماذا يستحيل عشق رجلين في آن واحد؟ كان شتيلر أكثر قرباً منها، لم يكن بالرجل الخنوع. رولف خنوع. قد يكون ذلك فظيعاً، ولكنّه أيضاً يسهّل الأمور في بعض الأحيان. لا يتآخى رولف مع المرأة. ذات مرّة هبّت رياح شديدة عليهما لدرجة أنها تأوّهت، كان شتيلر يتحدّث عن معرضه وأهمل شأن القارب، فاعتذر. رولف لا يعتذر في الحقيقة أبداً؛ يعتقد رولف دائماً أنه على حقّ. المرء قد يخاف على شتيلر، لكنه لا يخاف على رولف. كلاهما في شخص واحد - سيكون شخصاً رائعاً! في بعض الأحيان كان رولف يتراءى لها ككلب كبير، من فصيلة سان برنارد، من الأفضل عدم ربطه بحزام حتى لا يُسقِط من يمسك به. أما شتيلر فكان مثل أخ، شقيق، أخت تقريباً. فجأةً أمسى الجو بارداً، فنهضت زيبيله، وسارت في القارب المتأرجح إلى شتيلر، وأمسكت رأسه بيديها المبتلّتين، وقبّلته مرّة بعد أخرى. ترك الحبال، فرفرف الشراع، وسألها: «ماذا حدث؟». لم تكن زيبيله نفسها تعرف بعد.

«غريبٌ أمر الرجال!» -ما زالت زيبيله ترى ذلك حتى اليوم- «يا لجدّيّتكم! لساعاتٍ أو لأيام، وأحياناً طوال أسابيع، يعتقد المرء أنكم لا تتمنّون سوى قرب الحبيبة، تبحثون بجنون عن هذا القرب، تفعلون كلّ شيء، هكذا يعتقد المرء، لا تهابون خطراً، ولا التعرّض لأيّ سخافة، ولا تتورّعون عن استخدام الوحشية إذا وقف شخصٌ في طريقكم، لا ترون سوى هذه المرأة، المرأة المعشوقة، هكذا يبدو - ثم، في رمشة عين، يتغيّر الأمر تماماً، فجأة يتبيّن أن اجتماعاً ما أكثر أهمية، مهمّ إلى درجة

ترتيب كلّ شيء حسب ذلك الاجتماع. فجأة تنتابكم العصبية، وتشعرون بأن المرأة "لصقة" حنون. أعرف! أعرف مراعاة المشاعر السخيفة هذه، مراعاة مشاعر الغرباء، لا المرأة التي تحبّونها. يا لجديّة حياتكم! مؤتمر قانوني دولي، مرمّم متحف الفنون، ثمة فجأة أشياء لا يجوز في أي ظرف من الظروف أن تفوت المرء! وويلٌ للمرأة التي لا تتفهّم ذلك، أو لا تبدي ابتسامة إزاء ذلك! ثم، في رمشة عين، تعودون ثانية مثل هانيس الصغير خلال العاصفة الرعدية. أليس هذا صحيحاً؟ هؤلاء الرجال أنفسهم يأتون، ويجدون أنفسهم مرغمين على وضع الرأس على أكتافنا، حتى لا يحسّوا باليأس، حتى لا يشعروا بالفقدان التام في هذا العالم الجاد، بما فيه من نيابة عامة ومعارض فنية، حتى لا يشعروا بأنهم فائضون تماماً عن الحاجة».

ثم ضحكت وأضافت: «لا أعرف، ولكن: ما أغربكم!».

ذات يوم، في نهاية سبتمبر، قال شتيلر على التليفون: «استعدّي، سنسافر إلى باريس!».

لم تصدّق سمّاعتها.

- «هل أنت جادّ في ما تقول؟».

أجابها الصوت المرح: «ولمَ لا؟».

بين الشكّ -فربما يمزح شتيلر- والجدية المرحة، سألته: «متى؟».

أجاب الصوت المرح: «غداً، اليوم، متى تريدين».

(كانا يحفظان عن ظهر قلب مواعيد القطارات إلى باريس؛ ثمة قطار الليل الذي يصل إلى ضواحي باريس في ساعات الفجر الأولى، عندئذٍ فطور مع العمّال الذين يخرجون مبكرين في بار بالقرب من المحطة الشرقية. قهوة وخبز «بريوش»، ثم جولة في القاعات الكبيرة الحافلة

بالخضراوات والأسماك - وفجأة، وكما يحدث في الأساطير السحرية، كان من الممكن الحصول على كلّ ذلك!).

قالت له زيبيله: «سأحضر إليك فوراً!».

لكن، لم يكن من الممكن أن تفعل ذلك من دون تمهيد، فقبل الظهر كان لدى شتيلر مرّة أخرى موعد مع المرمّم في الأتيليه، وبعد الظهر يجب على زيبيله أن تذهب إلى السيرك مع صغيرها هانيس.

قال لها: «بعد السيرك إذاً!».

ووضع السماعة، وهو يشعر بالدوار مثل شخص فاز بجائزة، شخص يشعر من سعادته بالخواء...

أخيراً بدا أنهما يحرزان تقدّماً!

سألها رولف أثناء احتساء القهوة السوداء: «ما رأيك، علينا أن نطلب سيارة لنقل الأثاث، متى يناسبك؟ لا أريد أن أقوم بكلّ هذا النقل وحدي. هل أنت موجودة في الأسبوع المقبل؟».

كانت زيبليه تتفهّم تماماً إلحاحه، فالأمر مزعج بالنسبة إليها أيضاً. قالت: «نعم، نعم، أعرف، لكنني لا أستطيع اليوم أن أقول لك ذلك».

- «ومتى إذاً؟».

- «غداً!».

- «لماذا أنت عصبية هكذا؟».

- «لستُ عصبية. ولماذا سأكون عصبية؟».

كانت زيبيله تعتقد أن بوسعها أن تدع قرارها ينضج، والآن، فجأة أصبحت هناك مهلة قدرها 24 ساعة! والأمر يمسّ في نهاية المطاف كلّ ما هو مهمّ بالنسبة إليها في هذا العالم، الأمر يمسّ شتيلر، ورولف، وهانيس، ويمسّ حياة لم تولد بعد، يمسّ بشراً يتعلّق قلبها بهم، يمسّها هي شخصياً،

وما إذا كانت زيبيله تقدر على اختيار حياتها بنفسها. الأمر يمسّ كلّ ذلك! وفي الغد ينبغي أن يعرف رولف حتى يستطيع أن يطلب عربة نقل الأثاث، في الغد أثناء احتساء القهوة...

لم يجلب لها عرض الأطفال في السيرك (هكذا قالت) أي تسرية، على العكس، هنا تحديداً اتخذت قرارها: لصالح باريس، لصالح شتيلر، لصالح المخاطرة. خلال النهار بدا السيرك، في رأي زيبيله، أكثر بؤساً، بؤس يكاد يمسّ القلب، في كلّ مكان يلاحظ المرء مدى زيف هذه البهرجة؛ أما الضوء تحت الخيمة التي سطعت الشمس فوقها فكان ساحراً، ضوء مثل الكهرمان، ثم المدرّج المزدحم بالأطفال الذين يرتدون ثياباً ملوّنة وهم يصيحون، ثم موسيقا الآلات النحاسية، والرائحة العفنة الصادرة عن الحيوانات، وبين الحين والآخر يُسمع زئير وكأنه قادم من أعماق غابة الإنسان الأول. كانت الأجواء رائعة في عيني زيبيله. في باريس، قالت لنفسها، ستجد عملاً ما، أيّ عمل، هذا جزء من المخاطرة. لم تكن زيبيله تشعر بالخوف. المهرج الذي افتتح العرض كان يعامل الأطفال مثلما يعامل المرء البالغين الحمقى، نجاحه كان ضئيلاً، أما هانيس -الذي كان لأول مرّة في حياته في السيرك- فقد راح يحملق في وجه الأبله من دون أن يبتسم، كان يشمت فيه فحسب عندما يتعثّر، وتمنّى ألّا يعود ثانية. على زيبيله أن تقول له، للمهرج، ألّا يعود ثانية. ثم حانت فقرة النمور التي راحت تقفز! فرقعة السوط، وفحيح مبحوح، كانت زيبيله مفتونة بما تراه، حتى إنها لدقائق نسيت باريس، في حين أن هانيس كان يلعق نوعاً من الحلويات، ثم سألها لماذا يجب على الحيوانات الشريرة أن تقفز مرّة بعد أخرى عبر الإطارات. لم يرَ مغزى وراء ذلك. من ناحية أخرى فتنته كلاب البحر، وإلى جانب كلّ القرارات التي كان على زيبيله أن تأخذها الآن، كان عليها أيضاً أن تعرف ما إذا كانت تريد أن تصبح كلباً من كلاب

البحر. وعندما بدأت الأحصنة ترقص الفالس، أراد هانيس أن يعود إلى البيت. كان بوسع زيبيله أن تذهب الآن إلى شتيلر. لكنها لم تفعل. ليس بعد! وذات مرة، عندما كانت حياة سبعة رجال معلّقة بالأسنان المبتسمة لفتاة الأكروبات على «الترابيز»، اكتشف هانيس -مرسلاً نظره من المدرج إلى أسفل- رجلاً قذراً يرتدي حذاء برقبة ومعه كلاب من كل الأشكال والألوان، وكان يُلبسها تنّورات صغيرة لطيفة، وسترات صغيرة سوداء على طراز «الفراك» مزوّدة بحجاب العرائس الأبيض الشفاف. كانت الكلاب تنتظر على أحرّ من الجمر. بعد ذلك كان على زيبيله أن تضع صغيرها هانيس على ركبتيها حتى لا يسقط من بين الحديد الحاجز. على ما يبدو كانت آنذاك قد تيقّنت من أمرها. مع أنها كانت مستغرقة تماماً في العرض الأكروباتي الشائك على «الترابيز» البرّاق. ستسير الأمور على أي نحو من الأنحاء، قالت لنفسها. وفجأة هلّل الأطفال حولها وكأنهم يصرخون من حنجرة واحدة: الفتاة الفضية على «الترابيز» تركت لتوّها أرجوحتها السمائية في قفزة مميتة، ثم وقعت على الشبكة الكبيرة التي اهتزّت بها، الفتاة سليمة، حقّاً، لم تكسر عنقها. انطلقت الأوركسترا تصدح بموسيقا فيردي. استراحة! أراد هانيس الخروج أيضاً، مثله مثل كلّ الأطفال الآخرين، لكن زيبيله ظلّت جالسة كالمسحورة: شخص يرتدي زيّاً تنكرياً يبيع الشوكولا ويكسب على ما يبدو قوت يومه بهذه الطريقة، وكان ذلك على الأرجح أكثر ما شدّ انتباهها في عصر ذلك اليوم: امرأة مستقلّة –

قبل السابعة بقليل، وبعد أن أعادت هانيس إلى المنزل، مثلما يقضي الواجب، ذهبت إلى شتيلر الذي كان يصفّر في الأتيليه مثل عصفور، ثم رفع الحقيبة ذات المفصّلات بعد أن انتهى من حشوها. بالطبع كان جاداً في ما يتعلّق بالرحلة إلى باريس. لماذا أتت زيبيله دون أمتعة؟ ولكن، يتضح أن شتيلر لا بدّ أن يسافر «على كلّ حال» إلى باريس، ليس اليوم،

ليس في الغد، ولكن قريباً، من أجل تمثال برونزي لا يمكن صبّه إلا في باريس، تمثال لا يمكن الاستغناء عنه في المعرض القادم، مثلما يرى المرمّم أيضاً. ويوليكا؟ لديه حجّة رائعة كي يسافر إلى باريس، ولم يكن لدى يوليكا سبب لكي تنفعل أو تثور بسبب هذه الرحلة. فهمت زيبيله. قالت له ببساطة: «لا».

انزعج شتيلر: «سأسافر...».

قالت له: «نعم، افعل ذلك!».

وجد ردّ فعلها غريباً. منذ شهور وهي تتحدّث عن باريس وتحلم بها، والآن...

قالت زيبيله: «افعل ذلك! سافر!».

سافر شتيلر (كان لا بدّ أن يسافر على كلّ حال)، آملاً أن تندم زيبيله على ما بدر منها وأن تلحق به. لكن آماله لم تعد تهمّ زيبيله. في اليوم التالي وخلال تناول القهوة السوداء قالت لرولف: «لن أسافر إلى باريس».

بذل رولف جهده ألّا يفقد تماسكه الملحوظ، حتى في الفرحة. فأضافت: «لكنني سأسافر لمدة أسبوع إلى صديقتي في سانت غالن».

والآن، بالفعل، طار الفنجان في اتجاه الحائط. عندما أصبحت زيبيله بمفردها، وضعت دليل التليفونات على ركبتها، ودهست سيجارتها في المنفضة، وبحثت عن رقم الطبيب، الطبيب الوحيد الذي يمكن أن يساعدها في هذه الحالة، ثم طلبت الرقم، وانتظرت دون أن تسمع خفقات قلبها. كانت حائرة بسبب رزانتها فحسب. يجب أن تفعل هذا، وكلما أسرعت، كان ذلك أفضل.

لم يصدّق رولف بالطبع للحظة واحدة أنها ستسافر إلى صديقتها في

سانت غالن. شعر بالخديعة، بأنها تستغفله، وبذا انتهى الأمر بالنسبة إليه. المقابلة البائسة في مكتبه، بعد خروجها من المستشفى، عايشتها زوجته بالطبع على نحو مغاير لما صوّره رولف، المدّعي العام في قضيتي؛ فالصمت الحجري لم تكن هي سببه (هكذا أكّدت زيبيله)، بل هو.

أسجّل:

طوال ساعة تقريباً كان على زيبيله أن تنتظر في غرفة السكرتيرة، إلى أن قالت لها الأخيرة: «تفضّلي، حضرة المدّعي العام في انتظارك!». بعد مصافحة، وبعد برهة على عتبة الباب، إذ إن زيبيله كانت تشعر بأن الأرض تميد بها، إذا لم تحملها يده، مرّت برولف (وهذا صحيح)، وسارت مباشرة إلى النافذة، وكأنها جاءت لترى المنظر منها. تحدّثت بنبرة عادية، وكأن شيئاً لم يحدث من قبل بينهما: «هذا هو مكتبك إذاً؟ رائع!».

كان تصرّفها ينمّ عن الارتباك الخالص. أجابها: «نعم، هذا هو مكتبي».

نظر إليها متفحّصاً، وكأنها عادت من رحلة مع عشيق. قالت زيبيله بنبرة تأكيد: «أريد أن أتحدّث معك!».

أشار رولف إلى الفوتيه، وكأنها جاءت إليه في أمرٍ مهنيّ. عرض عليها سيجارة من علبة كبيرة موضوعة على مكتبه، وكأنها سجائر رسمية. شكرته زيبيله ثم سألته: «كيف حالك؟».

بالنبرة نفسها كرّر رولف وكأنه صدى: «كيف حالك؟».

وهكذا جلسا، كلّ منهما يواجه الآخر، وراحا يدخّنان. رولف خلف مكتبه الكبير، في حين شعرت زيبيله وكأنها تقف في العراء. هل يريد أساساً أن يسمع كم هي ممتنّة له؟ إنه حتى لم يسألها السؤال الساخر: كيف كان الحال في سانت غالن؟

قال رولف: «ستعذرينني، ولكن لديّ جلسة بعد نصف ساعة».

وبالطبع لم تستطع زيبيله النطق بكلمة. لماذا لا يسألها على نحو مباشر أين كانت؟ أو ببساطة: لماذا تكذبين؟ بدلاً من ذلك كان كلّ ما قاله: «نُقل الأثاث إلى البيت الجديد. لحسن الحظ كان الجوّ جيداً...».

التقرير الذي قدّمه عن الانتقال إلى البيت الجديد كان موضوعياً تماماً، بلا أيّ نبرة اتهام لزيبيله لأنها لم تكن موجودة. أضاف شارحاً: «جعلتهم يضعون أشياءك مؤقتاً في مكانٍ واحد، فأنا لا أعرف كيف تنوين أن تؤثّثي غرفتك، وعموماً...».

للأسف قاطعه رنين الهاتف. (بعد خروجها من المستشفى ذهبت زيبيله أولاً إلى شقتها القديمة. وقع خطواتها في الغرف الفارغة، ورق الحائط الباهت والمربّعات الداكنة التي تحدّد مكان اللوحات المختفية، الأضرار في كلّ مكان، عدم القدرة على إدراك أنها سكنت بين هذه الجدران طوال ست سنوات، وكل هذا بعد الخسارة الخفيفة، السرية، الضرورية، التي مُنيت بها، ورغم كلّ التخدير، فقد كانت خسارة فادحة، كان الأمر فظيعاً، بكت زيبيله وكأنها ترى في هذه الشقة الخاوية، التالفة، والرثّة إلى أقصى حدّ، الشقّة التي لم تعد شقّة، وكأنها ترى فيها الحصيلة المجسّدة لحياتها. حاولت الاتصال برولف، لكن من دون جدوى؛ لم يعد التليفون يعمل. عندئذٍ ذهبت إلى البيت الجديد حتى تتفرّج على غرفة السيدة: فوضى كاملة، مخزن أثاث، خواء يمكن الإمساك به باليد، كومة من الصور والمرايا والكتب وعلب القبعات والمزهريات والأحذية وأدوات الخياطة، أشياء ممتازة، لكنها أشياء، مجرّد أشياء، كومة يمكن إشعال النار بها. لم يتوقف هانيس عن المشاغبة، وعندما أراد أن يريها الغرفة الجديدة للأب، ظلّت زيبيله تقف على العتبة. ثم انطلقت بالسيارة إلى هنا...). أخيراً انتهت المكالمة التليفونية، ووضع رولف السماعة، وبدا أنه يسترجع حديثه المقطوع معها؛ ثم قال: «اتصل شخص من باريس، سيد

يدعى شتيلر، الأرجح عشيقك...»، تطلّعت زيبيله إليه فحسب، فأضاف: «أظن أنك قابلت هذا السيد في باريس...».

لم تكن هناك حاجة إلى العبارة الأخيرة، كانت زيبيله قد أمسكت حقيبتها، ونهضت رغماً عنها. سألها: «إلى أين؟».

أجابت زيبيله باختصار وبذهن حاضر: «إلى الجبال»، متذكّرة ملصقاً رأته في الطريق إلى مكتبه، «إلى بونتريسينا». ورولف، هذا الرجل العنيد، وكأن كلّ ذلك لم يكن عبثياً بما يكفي، رافق زوجته بالفعل إلى الباب. قال لها وهو يرفع قفازها الذي وقع منها على الأرض: «افعلي ما تريدين!».

«شكراً»، قالت زيبيله، وكان بإمكانها الانصراف، نعم، لم تفهم لماذا سارت مرّة أخرى إلى النافذة بدلاً من الاتجاه إلى الباب. قالت له: «أرى أن سلوكنا سخيف، سخيف تماماً، وطفوليّ...».

صمت رولف.

«أنت مخطئ!»، قالت زيبيله، وتحتّم عليها في تلك اللحظة أن تواصل كلامها: «ليس من حقّك أن تعاملني هكذا. هل كنت تتوقع أن آتي إليك حتى أطلب منك الصفح والمغفرة؟ لم نكن يوماً واحداً في زيجة يا رولف، ولا حتى في ما مضى. ولا يوم واحد! هذه هي الحقيقة. في الواقع كان الأمر بالنسبة إليك مجرّد علاقة، لا شيء أكثر من ذلك، أنت لم تؤمن قطّ بالزواج».

ابتسم رولف. تعجّبت زيبيله من كلامها، من نبرتها المتّهِمة. لم يكن ذلك مطلقاً ما أرادت في الحقيقة أن تقوله.

«رولف!»، قالت وهي تجلس على حافة الفوتيه، دون أن تضع قفازها في مكان ما، مستعدّة للانطلاق بمجرّد أن تشعر أنها تضايقه: «لم آتِ لأوجّه الاتهامات. لكن...».

انتظر رولف. فقالت زيبيله وكأنها تحدّث نفسها: «لا أعلم ماذا ينبغي علينا أن نفعل الآن».

نهض رولف وظلَّ صامتاً. قالت لنفسها: لماذا لا يساعدني؟ ونسيت أنه ببساطة لم يكن بمقدوره أن يعرف، وأنه لا يعلم من أين أتت زيبيله، وما حدث في الفترة السابقة. واصلت زيبيله كلامها: «لم أظن في يوم من الأيام أننا سنصل إلى هذه النقطة. كنت أتخيّل شيئاً آخر عندما تزوّجت. أنت بمحاضراتك! كنت أظن أنك تتحدّث عن خبرة».

تطلّعت إليه، فقال: «لا أعرف ماذا تريدين».

كان على زيبيله أن تمعن في التفكير.

- «أنا لا أشكو يا رولف، لا حقّ لي في ذلك. ولهذا وصلنا إلى هذه النقطة! أنت حرّ، وأنا حرّة، ومع ذلك فكل شيء بائس للغاية...».

ثم كرّرت سؤاله: «ماذا أريد؟ ألا تعرف؟».

علت وجهها ابتسامة متهكّمة بعض الشيء، ربما، بل حتى ابتسامة محتقرة، مثل الابتسامة التي تعلو وجه إنسان يراقب شخصاً يتظاهر بما ليس فيه. كلّ هذه الغرابة، هكذا بدا لها، لا يمكن أن تكون سوى تظاهر وتصنّع. لماذا هذه الملهاة؟ وفجأة شعرت زيبيله بأنها تريد أن تلقي بنفسها على صدره، لكنها ظلّت واقفة على مبعدة عدّة خطوات من زوجها، وكأن نظرته تعوقها عن التقدّم. وضحكت ضحكةً واهنة، لا إرادية، ثم سألته: «أنت تكرهني؟».

عندما يكرهنا إنسان لأول مرة، إنسان قريب منا، يبدو الأمر كأنه كوميديا عبثية، لكن هذا هو وجهه الحقيقي، حقّاً، لذلك تجمّدت ضحكتها. كان يكرهها. كان يبدو مختلفاً تماماً أيضاً. لم تتعرّف زيبيله عليه؛ لم يعد يشبه نفسه إلا ظاهرياً.

واصلت أفكارها قائلة: «... عشيق! أنا لم أبحث عن عشيق، وأنت تعرف ذلك تماماً!».

- «وإنما؟».

- «لست في حاجة إلى مجرّد رجل، أيّاً كان هذا الرجل. هذه هي نظريتك! كما لم أبحث فيك عن مجرّد رجل. لماذا تزوّجتَ من الأساس؟ لا يتعدى الأمر بالنسبة إليك الزواج بأي امرأة. هذا هو السبب الذي يجعلني أقول إنك أعزب، أعزب متزوّج. واصل ابتسامك فحسب! إما أن الزواج هو قدر، في رأيي، أو أنه لا معنى له مطلقاً، عبث وهراء. تسألني عما أريده؟ أعرف أن سلوكي كان أحمق. لقد آلمني أن تقع في غرام امرأة في هذه البلدة أو تلك، هذا حقيقي، وربما كنت جبانة. هامش حرية في الزواج - ما معنى ذلك؟ لا أريد أي هامش، أريد ألّا أكون في عينَي زوجي "أي" امرأة. لماذا لا تفهم ذلك. أبي أيضاً ليس "أيّ" رجل. وهانيس ليس "أيّ" طفل نحبه، لأنه يعجبنا...».

ثم قاطعت أفكارها قائلة: «آه يا رولف، كلّ هذا مجرّد هراء لا معنى له!».

قال المدّعي العام ملخّصاً: «تريدين أن تقولي إذاً إننا لم نتزوّج قطّ؟».

- «نعم».

- «ولهذا، ليس هناك ما يدفعك إلى أن تقولي لي أين كنت في الأيام الماضية».

قال ذلك وأشعل سيجارة جديدة له. ثم أضاف: «أنا لا أفهم، لماذا جئت إليّ أساساً؟».

- «عندما تتحدّث بهذه الطريقة، فإنني لا أفهم أنا أيضاً السبب! لقد جئت إليك حقّاً لكي أتحدّث معك. أعرف، ليس لديك الآن وقت. إذا لم

يكن الأمر مناسباً لك، فليس لديك وقتٌ أبداً. ثم إنني أجيء دائماً فعلاً في أسخف لحظة!».

واصل رولف تدخينه، وقال: «وعن أيّ شيء أردت حقّاً أن تتحدّثي معي؟».

- «أنا ساذجة، لديك حقّ. ما زلت حتى اليوم. الفارق هو أن ابتسامتك الفوقية لم تعد تهمّني! وأراك ببساطة غبيّاً».

ثم أضافت لتكون أدقّ: «تستطيع أن تعبّر عن نفسك أفضل مني، هذا هو كلّ شيء، ولهذا تركتك دائماً تتكلّم. هل كنت تعتقد أنني أعتبرك الرجل الوحيد الذي يستحق الحب؟ لقد فهمت أنك تثق فيّ تماماً يا رولف، ولكني بمعنى آخر تماماً...».

ثم أضافت متذكّرة: «هل تتذكّر الضابط البريطاني، آنذاك في القاهرة؟ أنت لم تأخذه قط مأخذ الجد، أعرف! كان لديه بعض الصفات التي ليست عندك يا رولف، صفات أفتقدها. ولكن لم يكن ليخطر لي على بال آنذاك -فعلاً، كان ذلك سيبدو لي غريباً جدّاً- أن أواصل السفر مع رجل آخر بدلاً منك. ولكن لماذا؟! لا أعرف من أين أتيت بتصوّراتي عن الزواج، لكن لديّ تصوّرات، وما زلت حتى اليوم...».

وبعد برهة تأمّل ختمت كلامها قائلة: «ربما يكون طلاقنا هو الطريق الصحيح».

وراحت تنظر من النافذة، فلم ترَ ملامح وجهه؛ أما هو فقد ظلَّ صامتاً. واصلت قائلة: «فكّر في الأمر! لم أفكّر في يوم من الأيام أن طلاقنا ممكن. كنت أعتبر أن الطلاق في كلّ الزيجات وسط دائرة معارفنا خطوة صحيحة، كنت أقول لنفسي دائماً إن مثل هذه الحالات لم تكن في يوم من الأيام زواجاً. كانت علاقات، علاقات مشروعة حسب الذوق البورجوازي،

لكنها باطلة منذ البداية. لماذا يجب أن يعيشا معاً! يبدو لي الأمر وكأن المرء ينصب فزّاعة طيور، ثم لا يجرؤ في ما بعد على دخول حديقته. لم تكن تلك زيجات، بل علاقات "بورجوازية". كنتَ تطلق عليّ دائماً: "بورجوازية"، إذا لم توافقك مشاعري، واليوم أعتقد أنك أكثر "بورجوازيةً" منّي أنا، أتحدّث بكلّ جدّية. وإلا، فلماذا قنّنت علاقتنا دون أن تؤمن بالزواج! فقط لأنني أنجبت طفلاً...».

لم يقاطعها رولف، فأكملت زيبيله مبتسمةً: «أعرف، يعجبك أن تكون متماسكاً. سواء أريد السفر إلى باريس أو إلى بونتريسينا، أنت دائماً متماسك! وتعتبر ذلك سماحة منك. أليس كذلك؟ ينبغي أن تهزمني سماحتك. أفكّر أحياناً أنك لا تريد في الحقيقة سوى خضوعي. حتى تستمتع أنت بحرّيتك! هذا هو كلّ شيء. إنك تنتظر أن يهجرني "عشيقي"، مثلما تهجر أنت النساء، عندئذٍ لا يكون هناك سواك؛ هذا هو حبّك كلّه، تماسكك كله، سخاؤك كله».

ثم كرّرت جملتها: «آه يا رولف، كلّ هذا مجرّد هراء لا معنى له!».

- «وفي أيّ شيء ترين المعنى؟».

لكن الهاتف رنّ في تلك اللحظة مرّةً أخرى، فكان على رولف السير إلى مكتبه. أجابت زيبيله: «لا أعرف لماذا أقول لك هذا كلّه...».

تناول رولف السماعة؛ كانت السكرتيرة التي نبّهت السيد المدّعي العام، وكما كلّفها، إلى موعد تقديم الإرشادات القانونية لهيئة المحلّفين.

«لا أريد أن أعطّلك أكثر من هذا»، قالت زيبيله هذه الجملة وتطلّعت إليه وهو يحشو حقيبته ببعض الملفّات. سألته: «هل أنت غاضب مني؟ لماذا لا تردّ عليّ؟!».

بحث رولف عن قلمه على المكتب، ثم في جيوبه، ثم على المكتب

مرّة أخرى. قال لها: «أنا متفهّم، أنت محبطة إذاً لأنني لم أمنعك عن فعل شيء...».

أظهرت ابتسامته أنه يحاول جاهداً ألّا يجد الأمر مضحكاً. ردّت زيبيله: «لا، ليس من حقّك فعلاً أن تمنعني عن شيء يا رولف، هذا هو البائس في الأمر، فأنت -إذا شئنا الدقة- لم تربطك بي طوال الوقت سوى علاقة، ولهذا ليس لك الحقّ في أن تمنعني إذا كان لديّ علاقة أخرى...».

كان رولف قد وجد في تلك الأثناء قلمه، ولم يعد هناك ما يقف في طريق وداعهما. وضع رولف يده على مقبض الباب؛ لو كان هذا هو حقّاً رولف زوجها، لكانت انهارت في حضنه حتى تبكي. لكنّه لم يكن رولف، كان قناعاً، قناعاً سخيفاً، مثلما بدا لها.

كرّر ما قاله قبلاً: «عليك أن تفعلي ما ترينه صحيحاً». ثم فتح الباب وتركها تسير إلى غرفة السكرتيرة، ورافقها بتهذّب إلى المصعد -

عليها إذاً أن تسافر إلى بونتريسينا.

استقبلتها بونتريسينا بمطرٍ خفيف، وبشعور من الذعر، وكأن زيبيله طوال السفر لم تحسب لوهلة أنها ستصل فعلاً إلى بونتريسينا. بونتريسينا كانت تعني ببساطة أن القطار لا يواصل سيره؛ بل وأسوأ من ذلك: في ذلك الوقت لم يعد ثمة قطار يعود بها. شعرت زيبيله بأنها في فخّ. عداها لم ينزل من القطار سوى مسافرَيْن من أهل المدينة. تركت أحد العاملين في الفندق، المرتدي مئزراً أخضر، يحمّل حقائبها وأدوات التزلّج الخاصّة بها على زلّاقة، وتبعته على الثلوج الموحلة. الملصق المجنون -من الممكن أن يكون ملصقاً دعائياً لجزيرة كابري أو لأحد شواطئ بحر الشمال!- كان يقصد بالطبع شهر فبراير أو مارس، وليس نوفمبر. ادّعى موظف الفندق أن

هناك ثلوجاً كثيرة في الأعالي. ولكن ماذا تفعل زيبيله بالثلوج؟ وماذا تفعل في هذا الفندق العتيق الممتاز؟ جلست على السرير طوال نصف ساعة، من دون أن تخلع معطف الفراء الذي كان يمثّل الآن آخر حصن لها، وسمعت مكبّر صوت صفيحياً، ڤالس الدانوب الأزرق ينساب فوق ساحة جليدية خاوية من البشر مغمورة بأضواء الكشّافات. في ما بعد سارت إلى البار في الطابق السفلي، وطلبت لنفسها كأس ويسكي، وأنقذت نفسها عبر مغازلة مع سيد ما، كان بالمصادفة فرنسياً، وبالتالي طريفاً وذكياً...

حُدّد يوم الجمعة بعد أسبوع موعداً للمواجهة مع فيلفريد شتيلر، الحاصل على دبلوم في الزراعة: «وقد يكون ذلك مقترناً بزيارة مشتركة إلى قبر الوالدة»، مثلما عرفت من نسخة الرسالة.

تبدو النهاية قبيحة، وعندما ودّعتْ شتيلر -من الممكن أن نكون مدركين بوضوح أن شيئاً ما قد انتهى؛ رغم ذلك فلا بدّ من الوداع!- لم يحدث هذا للأسف (هكذا قالت زيبيله) دون مهانة فظيعة، دون إذلال لنفسها أيضاً.

أسجّل:

زيبيله، آنذاك رياضية عاشقة للرياضة، كانت تصول وتجول في بونتريسينا، وكانت سعيدة أن شتيلر، بعد عودته من باريس، لم يكن لديه المال للّحاق بها. ولهذا أثقل عليها باتصالاته التليفونية، إلى درجة أن موظّف الاستقبال في فندقها -الذي أدرك سريعاً أنها لا ترغب في مثل هذه المكالمات- كان يخبرها في كلّ مرّة بملامح وجهٍ معزّية أن هناك من يتصل بها من «زيورخ». الأمل الذي كانت تشعر به دون وعي كامل،

أن المتصل قد يكون رولف، هو الذي كان يمنعها من أن تنكر وجودها ببساطة، كما أن تكتّم الموظّف الوقح كان أكثر من أن تحتمله. «للأسف لا!»، سمعَت الموظّف يقول، «السيدة الدكتورة خرجت لتوّها، نعم، في هذه اللحظة!»، عندئذٍ وقفت في البهو، وتأملت ملامح وجه هذا القوّاد الراقي الذي كان بالتأكيد يتوقع بقشيشاً للخدمة الخاصة التي قدّمها ليصدّ عنها هذه المكالمة، ثم ذهبت إلى كابينة التليفون لتتصل بشتيلر. لكن شتيلر، على ما يبدو، كان قد فقدَ عقله تماماً آنذاك. كان غاضباً، إذ كان عليه أن يتسوّل عنوانها من كارولا، الخادمة الإيطالية، وكان يتكلّم بنبرة متعالية وكأنه باشا. ماذا كان بإمكان زيبيله أن تقول له؟ إنّ لديهم ثلوجاً، نعم نعم، ثلوجاً كافية للتزحلق، بل إن الجوّ مشمس اليوم أيضاً، نعم، ولديها صحبة لطيفة جدّاً، ثم راحت تثرثر قائلة إنها حققت تقدّماً رائعاً في مدرسة التزلج، وحدّثته عن التقنية الصحيحة للتزلج، ومرونة الخصر... إلى آخره. أخذت زيبيله تثرثر مثل فتاة سيئة التربية: عن راقص «ربّاني»، نعم نعم، الفرنسي، عن أجواء «رائعة»، غرفتها كانت «حلوة»، ومنطقة التزلج «هائلة»، ولكن لا، لا يريد الفرنسي وحده أن يتزوّجها، في الحقيقة كلّهم يريدون، «عصابة ماجنة»، فعلاً، ومعلّم التزلج، رجل من مقاطعة غراوبوندن، «ببساطة: ساحر». بين الحين والآخر، وبينما كان شتيلر يصمت، كان يجيئها صوت: «لقد انتهت الثلاث دقائق، هل تريدين أن تضعي عملات بالمبلغ المكتوب أمامك. لقد انتهت الثلاث دقائق، هل تريدين أن...»، ووضعت زيبيله العملات المطلوبة، وكأنها لم تكتفِ من هذا الحديث التافه والطفولي. كانت تتصرّف بحماقة، استولى عليها شعورٌ عابث، هكذا أحسّت، على كلّ حال شعور يزيح مشاعر أخرى كثيرة، ولم تكن زيبيله تشعر في تلك اللحظة بالخوف مثل الخوف من مشاعرها الحقيقية.

أما رولف، زوجها، فقد ظلَّ صامتاً.

وعندما وقف شتيلر ذات يوم بشحمه ولحمه في بهو الفندق، لكي يعرف حقيقة ما يحدث، لم يكن لديه على ما يبدو القدرة على تحرير هذه المرأة المشوّشة تماماً من نبرتها الطفولية؛ أحسّ شتيلر بالإهانة من نبرتها المزيّفة، وبذا كانت زيبيله -وهي الضعيفة- متفوّقة عليه تفوّقاً ساحقاً. وكأن الأمر بينهما آلي: بمجرّد أن شعرت أن هذا الرجل يشفق على نفسه، لم تكن تستطيع أن تتحاشى إهانته. كانا يتنزّهان في السهول المتاخمة لقرية زامادن، زيبيله في سروال التزحلق الأسود، أنيقة، رياضية، وقد اكتسبت سمرةً من الشمس، في حين أن شتيلر كان يرتدي معطفه العسكري الأبدي، شاحباً مثل كلّ الوجوه من منطقة زيورخ المنخفضة. سألته: «كيف حال معرضك؟ هل صببت التمثال البرونزي؟».

أصابته نبرتها المتعالية بالخرس والبلادة. ببساطة، لم يخطر على باله أيّ شيء. كان السيد من دسلدورف -وهو رجل متعدّد المواهب، فمه يفيض نوادر عن الطائرة المقاتلة التي كان يقودها فوق الجبهة الشرقية وفوق كريت- أكثر تسليةً من شتيلر! قالت له ذلك بصراحة. وأكملت قائلة: «وأقول لك إنه يعرف كيف يعيش! إنه يجد المال على قارعة الطريق».

كان على شتيلر أن يسمع كم هو رائع، عندما «يصنع» الرجل نقوداً كثيرة - هو ابن رجل من رجال الصناعة الثقيلة، ومع ذلك يعرف كيف يعيش بخفّة.

- «بالمناسبة، ليس هو بالرجل الذي يعجبني».

نظر إليها شتيلر نظرة جانبية، ثم واصل صمته غارقاً في حزنه. مرّة واحدة، على أقصى تقدير، قال: «بونتريسينا هذه بلدة تدفع إلى القيء!».

كانت قدم زيبيله مَجزوعة، ولذا كانت تعرج قليلاً. قالت له: «ولكنني رقصت بالأمس مرّة أخرى!».

شيء ما كان يثيرها لكي تظهر افتتانها بكلّ شيء يحتقره شتيلر، وأن تحكي له ثانيةً عن ذلك السيد المرح من دسلدورف، حامل وسام «صليب الفرسان»، تحكي له عن رجولته وكيف أنه مسلٍّ، ويفيض أفكاراً. مثلاً، عندما يشعر بأنه أهان شخصاً، فإنه يهديه -سواء كان رجلاً أو امرأة- سيارة مرسيدس. هذه حقيقة! لم يقل شتيلر سوى: «أصدّقك». أو مثال آخر: ثمة فتاة صغيرة في فندقها وقعت في غرام طالب سويدي، وعلى الفور خطرت على باله -على بال السيد من دسلدورف- فكرة ساحرة، أن يُحضر الطالب السويدي إلى هنا، بالطائرة.

- «هذا، ببساطة، أمرٌ ساحر!».

كانت زيبيله تريد أن تظهر لصاحبها الكئيب المملّ أن الرجال الذين يكسبون المال ليسوا بالضرورة غير جذّابين. ربما عقّب شتيلر مرّة قائلاً: «ممكن»، أو سألها: «لماذا تحكين لي هذا؟»، لكنه كان متعجباً؛ فلم تكن لديه وسيلة لإيقاف زيبيله. بالمناسبة، في تلك النزهة اكتشفت لأول مرّة أن شتيلر يتهته، وأنه لا يستطيع نطق كلمات معيّنة تبدأ بحرف الميم. مرَّ بهما شاب ذو وجه أسمر كالقهوة، يضحك ضحكة عريضة وكأنه صورة معلّم تزلج على ملصق دعاية؛ حيّته زيبيله، ثم قالت: «هذا هو نوت».

سألها متعباً، مطيعاً: «ومن هو نوت؟».

كان هو معلّم التزلج الذي حمل زيبيله، فعلاً، بقدمها المجزوعة حتى نقطة الإسعاف التالية. سألته: «أليس ساحراً؟».

بهذه النبرة تواصِلُ كلامها. كانت زيبيله تعلم بالطبع أيّ نوع من المطاعم يريده شتيلر: مطعم من المطاعم الريفية التي يتردّد عليها أبناء المنطقة. لكنها في نوبة الجنون التي أصابتها، وكانت تستمتع بهذا الشعور، اقترحت عليه مطعماً «رائعاً». لماذا لم يقاوم؟ أهانتها عدم ثقته بنفسه؛

وشعرت وكأن شتيلر قد خانها. أهذا هو الرجل الذي عشقته؟ المطعم «الرائع» كان وكراً لغُلاة المتعصّبين للعادات والتقاليد في المنطقة، وهو ما لم يكن شتيلر يطيقه. على الفور امتدت ستّ أيادٍ على الأقل لأخذ المعطف والقبعة، وقوبلت السيدة الدكتورة بترحاب باعتبارها من الزبائن الدائمين؛ كلّ الأشياء الأخرى أيضاً: النصح بالجلوس إلى مائدة خاصة، تقديم ملفّين سميكين، وفي داخل كلّ منهما قائمة الطعام، مكتوبة بالخط الذي طبع به غوتنبرغ الإنجيل، رئيس الجرسونات يرتدي الفراك ويشير بلطف إلى طبق جراد البحر الطازج، توصية بنبرة شخصية جدّاً، كلّ شيء هنا مزيج من الرقيّ والابتزاز. أمام مثل هذا المزيج يقف البورجوازي الصغير شتيلر أعزل تماماً، إلا إذا كان يتحلّى في تلك اللحظة بالمرح. على المائدة الصغيرة ثلاث وردات صغيرة، السعر يتضمن كلّ شيء، والمكان كلّه، هذا بديهي، تضيئه الشموع. لم يجرؤ شتيلر حتى على أن يقول أمام زيبيله إنه يجد الأسعار جنونية. «ماذا تأخذ؟»، سألته زيبيله بنبرة لم تخلُ من الأمومة، ثم أضافت: «لديّ نقود». في تلك اللحظة كان الساقي المتخصص في أنواع النبيذ يقف أمامهما، مرتدياً زيّ صنّاع دنان الخمر، كانت زيبيله متحمّسة لاحتساء نبيذها المفضّل، «شاتونوف دو باب»، الزجاجة بستة عشر فرنكاً، ولكن بدرجة حرارة مناسبة. «سترى!»، قالت لشتيلر، «هذا النبيذ قصيدة!». كانت زيبيله تدرك أن نزقها قد اختار لها كلمات لا يستطيع شتيلر أن يردّ عليها. وبعد أن طلبت، بنظرة تقريباً، فيليه مينيو، أجبرت شتيلر المسكين على تناول الحلزون، فتشكّك شتيلر بعض الشيء فيما إذا كان نبيذ «شاتونوف دو باب» الأحمر يتناسب مع الحلزون؛ اعترف شتيلر أنه لم يتناول الحلزون من قبل قطّ، فشعر بالدونية، ولذلك لم يكن من حقّه أن يعارضها. إذاً: حلزون! ثم أومأ إليهما سيّد لم يُرد أن يزعجهما، بل أن يقول لها بسرعة باللغة الفرنسية إنه نجح اليوم في امتحان

الدرجة الثانية؛ هنأته زيبيله وهي تلوّح له بيدها، ثم أخبرت شتيلر بأن هذا الشخص هو شارل بويه. كان شتيلر يأكل قطعة من الخبز لشعوره بالجوع الخجول، سألها: «ومن هو شارل بويه؟» الراقص الربّاني، الفرنسي. وفي حين كان على شتيلر أن يتذوّق نبيذ شاتونوف دو باب، راحت تحكي له الحكاية «الحلوة»، وأنها خلال الرقص كانت تمزح مع هذا الفرنسي -وهو بالمناسبة يعمل في السلك الدبلوماسي- ونادته باسم شارل بويه، ليتضح أن اسمه فعلاً بويه. «أليس هذا مضحكاً؟»، سألته زيبيله. نظر إليها شتيلر مثل كلب لا يفهم اللغة البشرية، ولم يكن ينقص سوى القليل حتى تمرّ زيبيله بيدها على شعره وكأنه كلب. لم تفعل ذلك حتى لا توقظ لديه آمالاً. عندما لاحظت أن شتيلر احتسى من كأسه بالفعل، قالت له بمرح: «في صحتك!»، فارتبك، ورفع كأسه الفارغة تقريباً قائلاً: «في صحتك!». كانت زيبيله تشعر خلال ذلك كله بالغثيان، حتى إنها لم تستطع أن تتناول شيئاً تقريباً من الفيليه مينيو؛ أما شتيلر فكان عليه أن يأكل حلزوناته الاثني عشر، سواء أثارت التقزّز في داخله أم لا، في حين أشعلت زيبيله سيجارة -وهي التي كان عليها أن تتولّى الحديث كلّه، إلى هذه الدرجة كان مملّاً!- ثم قالت له: «شتورتسن إغر كتب إليّ! إنه في حاجة إلى سكرتيرة، ما رأيك؟ إنه يسألني أنا!».

راحت زيبيله تتمعّن في قواقع شتيلر، ثم قالت: «إنه يحبّني، حتى زوجي لاحظ ذلك. أتحدّث بجدّ. أنا أيضاً أستلطفه، صديقك...».

ثم أعطته إرشاداتها بخصوص أكل الحلزون: «عليك بتناول العصيدة أيضاً يا عزيزي، إنها أفضل شيء!».

أطاع شتيلر وتناول أيضاً العصيدة. فواصلت زيبيله: «بجدّ، لقد دعاني شتورتسن إغر. على ما يبدو فإن الأجواء، هناك في كاليفورنيا، تعجبه

للغاية. مئة دولار في الأسبوع، ما رأيك، وتذكرة السفر مدفوعة! أعتقد أن مئة دولار مبلغ محترم، وفي خلال ربع ساعة تكون أمام البحر الرحب...». إلى آخره.

لم ينشأ بينهما حديث حقيقي إلى حدٍّ ما -وإن كان حديثاً قصيراً ومن جانب واحد- إلا وهما في طريقهما إلى الفندق. سارا وسط الثلوج مصدرين خشخشة، بخار رقيق أمام الفم؛ كان الطقس قارس البرودة، لكنه جميل، يميناً ويساراً جدران من الثلوج، والبيوت وكأنها ترتاح فوق وسائد من الريش الأبيض، وفوقها النجوم. ليلة من خزف. «أين تسكن؟»، سألته زيبيله عندما وقفا أمام البوابة «الكيتش» لفندقها. «وهل ستكون في الغد هنا؟»، واصلت أسئلتها حتى تمهّد للوداع الذي قد يكون نهائياً. ثم قالت وسط الصمت: «كانت صدمة كبيرة بالنسبة إليّ. عندما وافقك الأمر فجأة، عندما كنت ستسافر على كلّ حال إلى باريس، عندئذٍ كانت لديك حجّة مريحة، وكان عليّ أن أسافر، فجأة أصبحت باريس ممكنة. في تلك اللحظة، أتعرف؟ شعرت أنك تعاملني كأنني مجرّد عشيقة لك!».

صمت شتيلر، وظلَّ غير واضحٍ ما إذا كان قد أدرك ما انكسر داخلها. ماذا يختمر في ذهنه؟ لم يبقَ لديها ما تفسّره، ولذلك استعلمت عن اسم كوكبة ما فوق البوابة الغارقة في الثلوج. كان عليها أن تسأله مرّتين، إلى أن أجابها شتيلر. «نعم...»، قالت عندئذٍ، وكأن ثمة علاقة ما بينهما وهذه الكوكبة، ثم أضافت: «أين سأكون بعد عام؟ لا أعرف حقّاً. ربما أكون فعلاً في كاليفورنيا!... الأمر غريب. بالنسبة إليك فإن المرء يعرف ذلك بمنتهى الدقّة. أعتقد أنك لن تتغيّر أبداً، ولا حتى في ما يتعلّق بحياتك الظاهرية».

لم تكن تقصد الإساءة إليه، لكنها شعرت بقسوة كلماتها، فأرادت أن تخفّف من وقعها: «أم أنك تعتقد أنك في يوم من الأيام ستصبح إنساناً آخر؟».

لم يكن وقع جملتها أكثر لطفاً، على العكس. كلّ الكلمات الآن كانت، ببساطة، غير مناسبة. في النهاية قالت له: «آه يا شتيلر، لقد أحببتك كثيراً حقّاً!».

مرق بجوار الثنائي الصامت متزلّجٌ متدرّب على المسافات الطويلة، مثل نوت، بمرونة ونشاط كان يحرّك زلّاجاته التي أحدثت صوتاً خافتاً. تابعاه بالنظر، وكأن الرياضة تهمّهما أكثر من أيّ شيء آخر، لكنه سرعان ما اختفى عن عيونهما، تاركاً إيّاهما وحيدين مرّة أخرى. ثم افترقا، فقد شعرا من البرد الشديد برعشةٍ لا تُطاق، لم يكونا قادرين على الوداع، فتواعدا بسرعة على الفطور في الصباح التالي.

لم يأتِ شتيلر إلى ذلك الفطور.

بعد يومين، لمّا كانت زيبيله آتية من المطعم، يرافقها السيد من دوسلدورف - كان يقف هناك مثل شبح، دون أن يسير في اتجاه زيبيله. على الفور سألته من دون تحية: «لماذا لم تأتِ إلا الآن؟».

كانت زيبيله مندهشة. سألها شتيلر: «هل تناولت طعامك؟».

- «وأنت، لا؟».

كان شتيلر غير حليق، وشاحباً من الإنهاك. سألته: «من أين جئت؟».

ساعدها شتيلر في ارتداء المعطف الفرو الذي أحضره ما يطلقون عليه «بوي»، وهو صبي من مقاطعة غراوبوندن يرتدي زيّاً يشبه أزياء السيرك. قالت له: «كنتُ أنتظرك أمس الأول على الفطور!».

ثم كرّرت سؤالها: «من أين جئت إذاً؟».

أومأت للسيد من دوسلدورف الذي كان ينتظرها أمام المصعد وكان منشغلاً بإشعال سيجارة، رجل جنتلمان، يكاد لا يلفت الأنظار، حتى إن شتيلر لم يلاحظه مطلقاً، هذا الرجل متعدد المواهب. أتى شتيلر من

دافوس. سمعت ذلك في طريقها عبر الباب الدوّار إلى البرد في الخارج. «من دافوس؟»، ولكن الباب الزجاجي كان قد فصل بينها وبين شتيلر خلفها. «من دافوس؟»، كرّرت سؤالها بعد خروجه من الباب الدوّار. تحدّث شتيلر في المصحّة مع زوجته المريضة. كان كلامه عن ذلك قصيراً وجافّاً. ثم اختتم قائلاً: «هذا هو كلّ شيء. لماذا أنت متعجّبة هكذا؟».

صحيح، طوال الصيف كانت زيبيله تنتظر، وتأمل، وتطلب صامتةً. والآن كانت صدمة. أحسّت بالذنب. سألته: «ويوليكا؟ ما رأي يوليكا؟».

لم يبدُ مهتمّاً بذلك. سألته: «انفصلتما؟ ماذا يعني ذلك؟ ليس بمقدورك ببساطة هكذا أن...».

تراءى لها شخصاً متوحّشاً، لا إنسانياً. صدمها ما فعله. وفجأةً، ولأول مرة، لم تعد يوليكا شبحاً نائياً، بل امرأة حقيقية، امرأة مريضة، تعيسة، مهجورة، أخت. لا إرادياً قالت له: «شتيلر، كان عليك ألّا تفعل ذلك...».

ثم صحّحت كلامها: «ليس هذا من حقنا. أنا المذنبة، أعرف. هذا جنون يا شتيلر، هذه جريمة قتل...».

لم يعبأ شتيلر بكلامها، بل كاد يحسّ بالشماتة عندما رأى همومها. اعتقد أنه حرّ، حرّ تماماً، ولوهلة كان يكفيه أنه بادر بالفعل. «أنا جائع»، قال لها مُظهِراً بوضوح أنْ لا رغبة لديه، ولا سبب يدعوه إلى التفكير في يوليكا أكثر من ذلك. جلسا في حانة يتردّد عليها أهالي المنطقة، مع عمّال السكك الحديدية، الذين كانوا يلعبون الورق بعد انتهاء عملهم، وكلٌّ منهم يضع سيجار «بريساغو» في فمه. صمتوا أمام السيدة ذات المعطف الفرو، إلى أن قال أحدهم: «هل سنلعب أم لا؟».

لم تكن هناك قائمة طعام مكتوبة بالخط الذي طبع به غوتنبرغ الإنجيل، لكن خادمة بدينة أتت إليهما بيدين تقطران ماء وتمنّت لهما مساء سعيداً،

ثم مسحت بضع بقع متمدّدة من البيرة وفتات خبز من على المائدة الخشبية اللامعة. على لوحة سوداء معلّقة على الحائط، بين أكاليل غار وكؤوس نادي الرماية، كان بالإمكان قراءة أسعار أنبذة الحانة. فلتلينر، كالتيرير، ماغدالينر، دوله؛ وفوقها الصورة المعتادة ذات الألوان الباهتة للجنرال غيزون. كان شتيلر جائعاً كحطّاب يأتي من عمله الشاقّ، متعباً، متمهّلاً، شخص متوحّد مع ذاته؛ بأيدٍ عريضة كسر قالب الخبز إلى شطرين، في حين كانت زيبيله على المقعد بجانب المدفأة الحجرية قد وضعت على حجرها فجأة قطة تموء وتنتظر يداً تتحسّس فراءها برقّة. كان شتيلر فرحاً لتناول وجبة تقليدية مكوّنة من «روشتي» البطاطس والسجق. لا يقدّمون السلطة هنا. وبينما راح أحد لاعبي الورق من عمّال السكك الحديدية يخلط الأوراق، كان الآخرون يتبادلون الحديث بنبرة تنمّ عن غضب مصطنع، دون أن يكون أحدهم غاضباً حقّاً؛ تحدّثوا عن مؤتمر رباعي وما يثيره من يأس مُكلِّف. على الفور استحوذ اللعب على انتباههم، فسكتوا، وشرع الصمت يتمدّد في الحانة منخفضة السقف، حتى إنه انتقل أيضاً وبصورة إجبارية إلى زيبيله وشتيلر.

«أنت لم تحكِ لي شيئاً عن باريس»، قالت زيبيله التي أرادت على ما يبدو إزاحة هذا الصمت. ولمّا جاءت الخادمة -صحيح أنها لم تحضر الطعام المرتقب، بل نبيذ الفلتلينر- سألها شتيلر ما إذا كانت ثمة غرفة شاغرة في الفندق الصغير الملحق بالحانة. وعندما خرج شتيلر معها لمعاينة الغرفة، سألته: «غرفة مفردة أم مزدوجة؟»...

لبرهة جلست زيبيله وحدها، المرأة الوحيدة في الحانة. راحت تقلّب في صحيفة رابطة سائقي الدراجات دون أن تقرأ كلمة؛ جلس عامل إلى مائدتها؛ كان يلعق زَبَد البيرة من شفتيه، ويتفحّص السيدة بارتياب صريح، يكاد يصل إلى حدّ الاحتقار، وكأنه يعرف ما لم يدركه بعد شتيلر الطيب.

كيف سيكون رد فعل شتيلر على اعترافها، الذي تشعر هي نفسها أنه غير حقيقي بمجرّد أن تحاول صياغته في كلمات، لا يُصدّق، وفظيع! تعجّبت زيبيله من أنها استطاعت أن تنظر في عينيه - لقد استطاعت ذلك بلا صعوبات، وحتى عندما عاد شتيلر وجلس بجانبها، مبتهجاً لتناول الطعام، دون أن يزعجه أدنى إزعاج أن زيبيله -التي كانت أكلت قبله- قد اكتفت باحتساء كأس من براندي الكرز. سمعوا عامل السكك الحديدية يقول إنه في مكان ما، بالقرب من برغون، حدث انهيار ثلجي. لكن الشائعة بالغت في ذلك؛ لقد رأى شتيلر الانهيار الثلجي المذكور، فأخبر الرجال مدّعي الأهمية بعض الشيء، بالسيجار المرشوق في وجوههم السمراء، أن الطريق قد أصبح مفتوحاً مرّة أخرى أمام المرور. فوجئت زيبيله، وابتهجت لسماع ذلك، وانشرح صدرها عندما رأت أن موضوعية شتيلر الهادئة قد أخرست الرجال، لاعبي الورق على المائدة الأخرى الذين كانت تعتبرهم شيئاً مهدّداً: شعرت زيبيله بالحماية. كما توقف عامل السكك الحديدية الجالس إلى مائدتها عن تفحّص زيبيله بنظرات احتقار؛ بل مدّ يده بمنفضة السجائر، دون أن يطلبها منه أحد. وبعد أن دفع ثمن بيرتِه، رفع «الكاب» عن رأسه وتمنّى لشتيلر وزيبيله مساء سعيداً «معاً». سألها شتيلر خلال تناول الطعام: «هل هناك شيء؟».

- «لماذا؟».

- «أنتِ صامتة جدّاً اليوم».

- «أنا سعيدة أنك جئت. كنتُ غاضبة جدّاً منك، لقد اعتقدت أنكَ اختفيت ببساطة وتركتني هنا وحدي».

رفعت من حجرها القطّة ذات المواء، وتركتها تقفز على الأرض، وهناك أوقفت ذيلها. قالت له: «لماذا لم تترك رسالة؟! لقد ارتكبتَ حماقة، ينبغي أن تعرف ذلك، حماقة كبيرة...».

واصل شتيلر أكله دون أن يتوقّع شيئاً جدّياً. كان قد سافر إلى دافوس، وانفصل عن المريضة يوليكا؛ ماذا سيفزعه بعد ذلك!

سألها مبتسماً: «ماذا؟».

في تلك اللحظة أتت الخادمة البدينة حاملة القهوة في كوبين، فشعرت زيبيله بالارتياح. لم تكن تريد أن تتحدّث عن ذلك مطلقاً! هناك أشياء تحدث مرّة، ومع ذلك لا قيمة لها، وعندما يُنطق بها، فإنها تكتسب أهمية، رغم أنها غير حقيقية البتّة، ولا ينبغي أن تكتسب أهمية! القهوة السوداء في الكوبين كانت فظيعة، مُرّة وساخنة إلى درجة أن المرء يحرق لسانه إذا شرب منها، وفي الوقت نفسه لا طعم لها مطلقاً، أيّ شيء إلا أن تكون قهوة؛ يحاولان بكثير من المزاح والسكّر أن يجعلاها صالحة للشرب، لكن السكّر يجعل هذا السائل البني والرمادي سائلاً مقزّزاً تماماً. عندئذٍ بدأ يحكي عن باريس. لماذا لم تبلعها الأرض؟ تظاهرت بأنها تصغي إليه. ألا نحلم كثيراً بأشياء مرعبة، دون أن تنشقّ الأرض في اليوم التالي وتبلعنا؟ هكذا تماماً، مثل حلم مرعب، هكذا شعرت زيبيله تقريباً عندما فكّرت في الليلتين السابقتين... قطع شتيلر كلامه عن باريس قائلاً: «بالمناسبة، لقد أحضرت لك شيئاً معي! ولكن، أين هو؟».

في تلك الأثناء ملأت زيبيله الكأسين بنبيذ الفلتلينر. واصل شتيلر قائلاً: «أنتِ تعرفين محلّات العطور في ساحة الفاندوم؟».

ضحك شتيلر، وحكى لها كيف بحث لها عن عطر: ساحة الفاندوم، كما هو معروف، عبارة عن مربّع تحيط به البواكي، وهو قلعة صناعة العطور الفرنسية، كلّ شركة لديها هناك محلّ خاص بها، وبالتالي لا بدّ أن يعرف المرء الماركة التي يبحث عنها، وإلا فعليه أن ينتقل من شركة إلى أخرى حتى يضعوا له قطرات من العطر على إصبعه؛ تخيّل شتيلر أنه

سيميّز عطرها من بين مئات العطور. «المدموزيلات» البائعات في غاية اللطف، إذ قمن برشّ قطرات على أيديهن الصغيرة، بعد أن وضع شتيلر عطراً على كلّ أصابعه. وبالطبع كان اضطرابه يزداد في كلّ محل! وهكذا ظلَّ يلفّ حول ساحة الفاندوم كلّها، من شركة إلى شركة، ومن يدٍ إلى يد، ومن بارفان إلى بارفان. لم يسخرن منه على الإطلاق، المدموزيلات، على العكس، لقد سحرتهن جدّيّته البالغة، رغم أن فرنسيته لم تكن كافية لوصف العطر. سجّل شتيلر أسماء العطور. على سبابته اليمنى، مثلاً، كتب «سكاندال». ولكن في عصر ذلك اليوم، يومه الأخير في باريس، اختلطت عليه الأسماء؛ لم يعد يستطيع سوى مدّ أصبعه، ويقول: «هذا! Celui là!».

في بعض الأحيان يصعب على المدموزيلات قليلاً أن يفرّقن بين الأنواع المختلفة، فينادين على رئيسهن. مرّة يُذكّره كلّ بارفان بزيبيله، ومرةً أخرى لا يذكّره أيّ بارفان بها. وما أكثر المعروض من أنواع! كلّ يد خمس زجاجات مليئة بالعطور. كان شتيلر يسير بأصابع متباعدة حتى لا تمتزج إحداها بغيرها. ماذا يخبّئ كلّ فارق ضئيل؟ آه، أيّ سعادة وأيّ عذاب! وكأن كلّ هذا لا يكفي، لقد أرادت المودموزيلات أن يعرفن ما إذا كان البارفان الذي يبحث عنه لسيدة شقراء أم سوداء أم أنه لامرأة حمراء الشعر؟ الأمر ليس واحداً، إطلاقاً، وهو ما لم يكن شتيلر يعرفه أيضاً: البارفان نفسه يطلق عبقاً مختلفاً تماماً باختلاف البشرة. ماذا سيستفيد إذاً من كلّ هؤلاء المودموزيلات وبكلّ قطرات العطر المجرّبة على بشرةٍ غريبة؟ يستسلم قبل إغلاق المحلّات. كاد ينسى الأمر في المساء، خلال مشاهدة مسرحية موليير «مدرسة النساء» بطولة لويس جوفيه، رائع جوفيه هذا؛ لكن يديه لا تفارقانه، وفي الاستراحة يبدأ مرّة أخرى في شمّ إصبع تلو الأخرى. وفي طريق العودة مرّة ثانية: في وسط الشارع يظلّ واقفاً،

ويخلع القفاز حتى يتشمّم أصابعه. أنفه أصبح قادراً على الشمّ من جديد، ولكنه لم يعد يستطيع أن يفرّق بين إصبع وأخرى، كلّها واحدة، وبالتالي لا أمل. وفي النهاية يغسل يديه، وبذا عاد إلى نقطة البداية. في الصباح التالي، وقبل انطلاق قطاره بقليل، يذهب إلى هناك، ويشتري بثقة عمياء...

«لا أعرف ما إذا كان العطر الصحيح!»، مرتبكاً قليلاً قال لها شتيلر ذلك وهو يُخرج أخيراً اللفّة الصغيرة التي كانت أنيقة، وإنْ تضرّرت قليلاً من وجودها فترة طويلة في جيب سرواله، ثم أعطاها لزيبيله حتى تفتحها.

ضحكتْ قائلة: «إيريس غري!».

وبينما راحت زيبيله تفتح الزجاجة الصغيرة على الفور وتدعك القطرات التي أنزلتها على ظاهر يدها، سألها: «هل هو العطر الصحيح؟».

- «"إيريس غري" رائع!».

تشمّم شتيلر يدها، اليد الأصلية الآن، وازداد خيبة أمل بعد كلّ مرّة يستنشق فيها العطر.

- «لا، ليس هو!».

راحت زيبيله تتشمّم هي الأخرى. وقالت له معزّية، ومن دون تصنّع: «ولكن، أليس رائعاً؟».

وضعت الزجاجة الصغيرة في حقيبتها، وقالت: «أشكرك!».

بعد برهة دفع شتيلر الحساب، وأفرغا كأسيهما دون أن يتفقا على ما إذا كانت زيبيله ستعود إلى فندقها أم لا. فيمَ يفكّر؟ بدا شتيلر مصمّماً، ولكن على أيّ شيء؟ «أفرغي كأسك!»، قال لها دون أن يتعجّلها، إذ ظلَّ جالساً، لكنه كان قد أحضر معطفها الفرو من المشجب القريب. قالت زيبيله: «الأمر ليس مهمّاً، لكنني لا بدّ أن أقوله. ولكنه فعلاً غير مهمّ...».

فضوله الضئيل زاد من صعوبة أن تجد الكلمات الصحيحة؛ لم يبدُ

على شتيلر أنه يظن أيّ شيء، على الإطلاق. أم أنه كان يعرف ولذلك لم يهتمّ بالفعل؟

قالت مبتسمة: «أنا حمقاء، لقد انتقمت، أترى؟ لقد انتقمت على نحو صبياني، ليلتان مع رجلين مختلفين...».

لم يبدُ على شتيلر أنه سمع، أنه فهم. صمت، ولم يرتعش مجرّد ارتعاشة. بعد ذلك جاءت الخادمة البدينة ببقية النقود، وأرادت أن تعرف: هل تحضر الفطور للسيدة والسيد إلى الغرفة؟ ظلّت واقفة عند المائدة حتى تكون مضيافة. لنحو عشر دقائق استمرّت المحادثة المتعثّرة، عن الانهيارات الثلجية، وعن الطقس عموماً، وعن قطاع الفنادق بعد حرب عالمية. انفردا أحدهما بالآخر، فسألها شتيلر ومعطفها الفرو على ركبتيه: «ماذا أردت أن تقولي بكلامك؟».

صوّبت زيبيله بصرها على قطعة الورق المقوى التي توضع تحت الكؤوس والتي راح شتيلر يديرها، وكرّرت كلامها بوضوح بدا لها لازماً، ولم يهمّها كيف سيستقبل شتيلر كلامها، ربما آخر فرصة ممكنة للتطهّر: «لقد نمت في ليلتين متعاقبتين مع رجلين مختلفين.. نعم، هذا ما أقصده!».

ها قد عرف الآن. والمستقبل (هكذا رأت زيبيله) لا يتوقف إلا على تصرّف شتيلر إزاء هذه التفاهة الفظيعة. ألقى عمّال السكك الحديدية ورق اللعب، وأخذ أحدهم يمسح بإسفنجة لوحة حجرية بعد أن اتفقوا على مَن فيهم سيدفع، وتحوّلت التعليقات حول اللعبة الخاسرة التي لم يعد من الممكن تغيير نتيجتها إلى تثاؤب. بلغت الساعة الحادية عشرة. بعد أن وضعوا «كاب» السكك الحديدية فوق الرؤوس، تمنّوا هم أيضاً للثنائي -ولم يبقَ في الحانة غيرهما- أمسية سعيدة «معاً». ظلَّ شتيلر يتلاعب بقطعة الورق المقوى، ثم قال: «لقد خبرت ذلك... لكنني لم أحكِه لأحد

قطّ. وبالمناسبة، مضى وقت طويل على ذلك. كنت أعلم تماماً مَن أحب، ورغم ذلك! بل فعلت ذلك خلال سفري إليها، نعم، في عشية لقائنا. فجأة، انحرفتُ عن الطريق... بالضبط».

قال ذلك ووضع قطعة الورق، ثم كرّر: «لقد خبرت ذلك...».

ولم يضف شيئاً. «انحرفتُ عن الطريق»، على ما يبدو واساها هذا التعبير إلى أقصى حد، ومنحها مرّة أخرى إمكانية، بل الثقة في العودة بدءاً من هذه الساعة إلى طريقها. في ذلك المساء كانا يعتقدان بالفعل (هكذا تقول) أن الطريق من الممكن أن يكون مشتركاً.

اتضح أن ذلك كان خطأ.

في الصباح التالي، وبعد ليلة من الشجار العنيف، افترقا في محطة القطار الصغيرة في بونتريسينا. ظلّت زيبيله واقفة عندما بدأ القطار أخيراً يتحرّك، وكأنها تمثال مثبّت على قاعدة، رفع كلاهما -شتيلر عند الشباك المفتوح، وزيبيله على رصيف المحطة- اليدَ قليلاً كتحيّة وداع. (منذ تلك اللحظة لم ترَ زيبيله، زوجة المدّعي العام في قضيتي، شتيلر المفقود قطّ). عادت ببطء إلى الفندق، وطلبت الحساب، وحزمت متاعها وسافرت في اليوم نفسه. كان من غير الممكن العودة ببساطة إلى رولف، هكذا شعرت، فبدت لها ريدوود سيتي هي المنقذ؛ عليها الآن أن تعمل، أن تكون وحدها، أن تكسب مالها من عرق جبينها؛ وإلا ستشعر بأنها تحت رحمة الآخرين، دون أن تعرف إلى أين تذهب؛ لقد تأكّد لها أن الطريق من المرأة إلى العاهرة قصير على نحو مدهش. في زيورخ استقبلها رولف وفاتحها بأنه مستعدّ للطلاق. عهدت إليه زيبيله باتخاذ الخطوات المناسبة، ورجته أن يسمح لها بأن تصطحب الصغير هانيس معها إلى ريدوود سيتي. دار حديثهما عن المستقبل وحده، مع مناقشة أمور عملية. غير أن الأمر

كان صعباً في ما يتعلّق بهانيس، ابنهما، وتحديد ما الأفضل بالنسبة إلى الطفل؛ طلب رولف مهلة من أربع وعشرين ساعة للتفكير. ثم استغربت عندما وافق. شكرته زيبيله وبكت على يديه، وقبل عيد الميلاد بقليل رافقها زوجها إلى محطة السكك الحديدية، ثم سافرت إلى «لو هافر» حتى تأخذ السفينة إلى أميركا.

أخبرني صديقي، المدّعي العام، أن الجلسة الختامية (وفيها النطق بالحكم) قد تحدّدت يوم الثلاثاء بعد ثمانية أيام.

جلبت أميركا لزيبيله فترة من الوحدة شبيهة بالوحدة السائدة في الأديرة. بقيت في نيويورك. وعندما جاءها الشاب شتورتسن إغر من كاليفورنيا حتى يستقبل السكرتيرة التي لا يحتاج إلى خدماتها، كانت زيبيله قد وجدت وظيفة أخرى، وظيفة محترمة بفضل معرفتها باللغات الأوروبية. 80 دولاراً في الأسبوع. كانت فخورة بنفسها. لم يأخذ شتورتسن إغر الأمر على نحو مأساوي، ورجع وحده إلى ريدوود سيتي، بعد أن دعا زيبيله إلى عشاء فرنسي في حي «غرينويتش فيلدج». انتهى الانحراف عن الطريق. لكن الطريق، طريقها، كان صارماً إلى حدّ كبير. لأول مرّة شعرت زيبيله، ابنة الحسب والنسب، بنفسها في هذا العالم مثل بقية الناس، شعرت بالوحدة وبأنها مسؤولة عن نفسها، ومعتمدة على قدراتها الذاتية، تخضع للطلب على هذه القدرات، وتخضع لمزاج ربّ عملها واستقامته. كان الأمر غريباً، لكنها شعرت بالحرية. شعرت بالكرامة. كان عملها مُضجِراً، كان عليها ترجمة مراسلات تجارية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية، ودائماً بالمحتوى نفسه تقريباً. وشقّتها، الشقة الأولى الخاصة بها في هذا

العالم، كانت مظلمة إلى درجة أنها أثناء النهار، عندما تشرق الشمس في الخارج، لا تستطيع القراءة أو الخياطة دون إشعال المصباح، ولم تكد تجرؤ قط على فتح نافذة من النوافذ، لأنها إن فعلت، اسودّ كلّ شيء بفعل السناج، كما كان عليها أن تضع شيئاً في أذنيها حتى تستطيع النوم. كانت زيبيله تعي أن ملايين من البشر يسكنون في أماكن أكثر سوءاً، وأن لا حقّ لديها في الشكوى. وعموماً لم تفكّر في الشكوى؛ وتحديداً بسبب رولف. لحسن الحظ كان بإمكانها أن تترك هانس خلال النهار في روضة أطفال ألمانية يهودية. كانت تقضي وقت فراغها مع هانيس، إذا كان الجو يسمح، في السنترال بارك القريب؛ هناك كانت توجد أشجار.

بدأت، مثلما يقولون، حياة جديدة.

ذات مرة، في شهر فبراير، شعرت زيبيله لوهلة بالفزع، غير أنها لا تعلم حتى اليوم ما إذا كان ذلك مجرّد توهّم أم حقيقة. كانا، هي وهانيس، يجلسان مرّة أخرى في سنترال بارك؛ أشاعت الشمس الدفء، الثلوج في أحواض الزرع لم تنصهر بعد؛ والبرك لا تزال في أجزاء منها مجمّدة؛ لكن العصافير كانت تغرّد، والربيع كان قد أتى. كانت الأرض رطبة؛ جلسا على صخور مانهاتن الإردوازية السوداء، وكانت زيبيله تشعر بالسعادة كمن نجا من كارثة، شعرت في هذه المدينة الهائلة الاتساع بأنها تحيا حياة سرية، مجهولة. بين الغصون الخالية من الورق كان المرء يرى ناطحات السحاب في وسط السحاب الأزرق، المنظر المألوف لديها؛ وعلى حافة المتنزّه الكبير، على الجانب الآخر من الهدوء والسكينة، كانت تسمع طنيناً وكأنه طنين أشباح، وبين الحين والآخر يسمع المرء نفير السفن في نهر هدسون. شرطي يتجوّل بحصانه على الأرض الترابية السوداء المخصصة

لسير الخيل. صبيان يلعبون البيسبول. هنا وهناك يجلس قارئ صحيفة على المقاعد الطويلة، أو ثنائي عاشق، ثم سيدة تسحب كلبها إلى الأشجار النادرة. كانت زيبيله تستمتع بأنها لا تعرف أحداً. رأت الرجل الذي مرَّ من خلف ظهرها، لمحته من الخلف فحسب، لبرهة كاملة كانت متأكّدة من أن هذا الرجل الذي يسير وئيد الخطا لا يمكن أن يكون سوى شتيلر، بل وكادت لا إرادياً تناديه. بالطبع طردت الفكرة من رأسها. كيف سيتجوّل شتيلر في نيويورك؟ رغم ذلك بقي جزء من القلق، نصفه أمل ونصفه خوف، قد يكون هذا هو شتيلر حقّاً. سحبت هانيس في يدها وتمشّت في البارك، لا لتبحث عنه، بل بالأحرى لتهرب؛ كان عليها على كلّ حال أن تسير في الاتجاه نفسه. وبالطبع، وكما هو متوقع، لم ترَ الرجل المقصود مرّة أخرى. كانت قد نسيت هذا الوهم تماماً (وقد كان بالتأكيد وهماً)، عندما كانت بعد ذلك بأيام تهبط الدرج إلى محطة مترو الأنفاق، كانت تستخدم السلالم المتحرّكة الهابطة - وهو كان على السلالم الطالعة. لم يكن من الممكن التوقّف. ألم يحملق فيها، دون أن يحيّيها؟ لم يكن ذلك محتملاً، وهذا كان عزاءها. أم أن شتيلر يلاحقها؟ على كلٍّ، رأت زيبيله الرجل الذي اعتبرته شتيلر يتوقف عن سيره في الأعلى، ويغيّر السلم المتحرّك على الفور لكي يهبط. كان الزحام كبيراً، ولم يكن من الممكن تقريباً توجيه نظرات متمهّلة إلى أحد، وبغضّ النظر تماماً عن الاضطراب الداخلي. معطف عسكري في أميركا - هل يثبت هذا أيّ شيء؟ في ما بعد طردت زيبيله هذه الفكرة أيضاً من رأسها: لقد حملقت في الرجل الواقف على السلم المتحرّك إلى درجة أنه، دون أن يعرف زيبيله، قد تولّد في نفسه الأمل ربما، ولهذا عاد إليها. ربما. في هذه اللحظة تصرّفت زيبيله على نحو لا إرادي تماماً: أجبرت نفسها على ركوب العربة التالية في أيّ مترو،

انغلق الباب، وانطلقت بعيداً. طوال أسابيع رافقها الخوف دائماً، كلما سارت في الشارع، ولكن من دون جدوى: لم ترَ مرّة أخرى رجلاً يمكن أن تعتقد أنه شتيلر.

كان عملها، كما قلنا، مُضجِراً. كانت تجلس في قاعة لا ينفذ إليها ضوء النهار، بعد أسبوع كانت قد اقتنعت أنها لن تستطيع تحمّل هذا الشيء المنافي للطبيعة. لم تكن تدري، هل تمطر في الخارج أم أن الشمس مشرقة؟ لم تكن تدري شيئاً عن أوقات النهار، ولم تشمّ نسمة من الهواء تفوح منها، مثلاً، رائحة مطر مصحوب ببرق ورعد، أو رائحة الناس، أو ورق الشجر، أو حتى الأسفلت المشبع بماء المطر، وكان الأمر أكثر بشاعةً لأن زيبيله كانت هي الوحيدة التي تفتقد شيئاً. كانت تعتقد أنها ستختنق من أجهزة التكييف في كلّ مكان. كانت متيقّنة من أن الوضع لا يختلف مطلقاً في أي شركة أفضل من شركتها، وهذا ما جعل حيرتها تامة. ماذا بقي أمامها غير الاجتهاد بدافع اليأس؟ والنتيجة أنهم كانوا يقدّرونها، وعندما قدّمت زيبيله بعد نصف عام استقالتها، استبْقوها بمرتّب مضاعف. استطاعت زيبيله عندئذٍ أن تستأجر شقّة أخرى، ألطف؛ غرفتان ومعهما ما يُسمّى بـ«الروف غاردن»، في حيّ «ريفر سايد درايف»، شقّة تطل على نهر هدسون العريض. هنا، في الطابق الثامن عشر، كانت سعيدة هانئة. كانا، هيَ وهانيس، يتشمّسان في حماية الجدار الخلفي الأحمر للمنزل الواقع أمامهما، ويرسلان النظر إلى سماء رحبة، بل ويطلّان على الطبيعة في الخلفية، والغابة. وإلى الشرق المحيط. في البعيد المغلّف بالضباب كان هانيس يتعرّف على السفن الداخلة إلى الميناء، ويفرّق بين باخرة «إل دو فرانس» وباخرة «كوين ماري». وفي المساء، عندما تظلم الدنيا، كانت ترى أمامها من خلف النافذة الشرائط الضوئية الرشيقة على جسر واشنطن. سكنت زيبيله هنا نحو عامين. وكلما مضى الوقت، كانت نادراً ما تفكّر في

العودة إلى سويسرا. الحياة في أميركا (هكذا تقول) أعجبتها كثيراً، دون أن تثير حماستها؛ لقد كانت تستمتع بالغربة. مع أنها لم ترَ قطّ أميركا الحقيقية، أي الغرب الأميركي. كانت تنوي أن تسافر مرّة إلى الشاطئ، وأن تتعرّف إلى أريزونا، وتكساس، والزهور في كاليفورنيا؛ لكنها كانت موظّفة، ما يعني أنها كانت تحيا، حياة جيدة جدّاً، ما دامت تجلس أمام الآلة الكاتبة وتنقر عليها، عندئذٍ كانت تستمتع بالحرية في نهاية الأسبوع، عندئذٍ كان بإمكانها التحرّك في دائرة يبلغ قطرها مئة ميل.

كانت تعشق نيويورك. في الأسابيع الأولى بدا لها أن أسهل شيء في الدنيا هو التعامل مع الأميركيين. كانوا كلهم منفتحين جدّاً، ومتفهّمين جدّاً؛ كانت الصداقات تأتيها كثيرة ودون مجهود، أو هكذا بدا لها على الأقل، وكما لم يحدث لها من قبل قطّ. وكانت أيضاً تستمتع بأنها كامرأة لا تلفت الأنظار، نعم، وكأنها لم تعد امرأة منذ اللحظة التي هبطت فيها طائرتها في أميركا. رغم كلّ الودّ، كان الناس يعاملونها وكأنها محايدة الجنس. بعد خبراتها الأخيرة كان ذلك بالطبع بلسماً لروحها، على الأقل في البداية. وفي ما بعد أيضاً (هكذا تقول) لم تكن بها رغبة في رجل، وبالذات في رجل أميركي؛ كان لديها أصدقاء، أو على نحو أدقّ: friends. كان لدى معظمهم سيارة، وهذا شيء لم يكن يخلو من الأهمية، لا سيما في الصيف عندما تكون نيويورك خانقة الحرارة. لكن مع مرور الوقت كانت تفتقد الأجواء التي كانت تعرفها في سويسرا، وكان ذلك يربكها. ليس من السهل القول ماذا كانت تفتقد على وجه التحديد. كلّ شخص كان يمتدح فستانها الربيعي الجديد، ويثني على منظرها الذي يشعّ صحة، وعلى ابنها؛ كانت جرأة الناس على المديح، مقارنة بسويسرا، ببساطة: رائعة. ولكن فجأة سألت زيبيله نفسها ما إذا كان الناس يرون أصلاً ما يمتدحون. كان غريباً (هكذا قالت) أن تعرف كم هو رائع ورحب

هذا التنوّع في اللعبة الإيروتيكية؛ لم تدرك زيبيله الأمر بهذا الوضوح قطّ من قبل مثلما أدركت ذلك هنا، حيث يكاد هذا التنوّع أن يغيب. عند مغادرة مطعم، عند مغادرة مترو الأنفاق، عند مغادرة جمع من الناس، لم يخالجها قطّ الشعور بأن رجلاً ما يفتقدها، بتلك الطريقة اللطيفة التي تثير الابتهاج في نفس الطرفين، دون أن يبحثا عن لقاء آخر. لم تقابل في الشارع قطّ تلك النظرة القصيرة من البهجة التي لا هدف لها، نعم، ولا يحوم في الأحاديث حتى مجرّد الحدس المثير أن الناس ينقسمون إلى جنسين. كلّ شيء ظلَّ مفعماً بروح الزمالة، وبذا كان لطيفاً جدّاً؛ لكن الإثارة غابت، ومعها أطيافٌ واسعة من الفروق الدقيقة المزهرة، غاب فن اللعب، والسحر، وخطورة أن تمسي الإمكانية المهيّجة ورطة حيّة. كانت الأحاديث مسطّحة، لكنها لا تخلو من ألمعية، إطلاقاً، فهي محاطة بأذكياء، بمثقفين؛ لكن الأحاديث كانت تنقصها الحياة، وتخلو من الجاذبية على نحو من الأنحاء، تخلو من الأوهام. كامرأة شعرت زيبيله وكأنها تلبس طاقية إخفاء: لا يراها أحد، كلا، لا تُرى، إنهم يسمعون فحسب ما تقوله، ويجدونه مرحاً، وشيّقاً، ربما، لكنه كان لقاء في فضاء بلا هواء. كان الأمر غريباً؛ كانوا يثرثرون عن «مشكلة الجنس»، ببساطة متهوّرة، وبانفتاح الخصيان الذين لا يعرفون عن أيّ شيء يتحدّثون. وكأن لا أحد هنا يعرف فارقاً بين الجنس والإيروتيك. وعندما يعتبرون هذا الغياب الفادح علامة على الصحة، لا، لم يكن الأمر دائماً باعثاً على المرح، بل كان مملّاً. ما أكثر ما تقدّمه نيويورك! من العار أن يشعر المرء هنا بالملل. تكفي الحفلات الموسيقية! لكن الحياة نفسها، الحياة اليومية، التسوّق، تناول الغداء في مقهى السوبرماركت، التنقّل بالباص، الانتظار في المحطة، كلّ الأشياء الصغيرة التي تكون تسعة أعشار حياتنا، كلّ ذلك كان عمليّاً إلى أقصى حدّ، وباهتاً إلى أقصى حدّ. في بعض الأحيان كانت

زيبيله تذهب إلى الحي الإيطالي حتى تشتري الخضار، كما كانت تقول؛ لكنها في الحقيقة كانت تذهب حتى ترى، كانت جائعة لكل ما هو جدير بالمشاهدة. أم أن الأمر يرجع إلى زيبيله؟

بعد نحو نصف عام كان لديها الشعور المرير بأنها خيّبت آمال كلّ الناس. كان لديها مفكّرة مليئة بالعناوين، لكنها لم تعد تجرؤ على الاتصال هاتفياً بأحد. لماذا خيّبت أمل كلّ هؤلاء الأصدقاء اللطفاء؟ لم تكن تعرف، ولم تتوصل إلى السبب. أحزنها ذلك جدّاً. من ناحية أخرى، وهذا ما أربك زيبيله أكثر، فإنها لم تُسىء التصرّف، إطلاقاً؛ فإذا تقابلت مع أحدهم مصادفة، يجري الحديث مثلما جرى في أول مرة: أهلاً زيبيله! ولا تلاحظ على الآخر أي أثر من خيبة الأمل. بدا لها أن كلّ هؤلاء الناس المنفتحين، الذين يتصرّفون ببديهية مدهشة، لا ينتظرون من علاقة إنسانية أكثر من ذلك؛ لم تكن في حاجة إلى أن تواصل نموّها، هذه العلاقة اللطيفة. وكان ذلك هو المحزن بالنسبة إلى زيبيله: بعد عشرين دقيقة يكون المرء قد وصل إلى النقطة التي يصل إليها بعد نصف عام، أو بعد أعوام كثيرة، لا شيء يُضاف. يبقى كلّ شيء في حدود الأمنية المخلصة بأن يكون الآخر في أفضل حال. يتصادق المرء حتى يقضي وقتاً لطيفاً مع الأصدقاء، أما في ما عدا ذلك فهناك الأطباء النفسيون، الذين يشبهون سبّاكي الحياة الباطنية، إذا كان هناك عطب لا يستطيع المرء إصلاحه بنفسه. على كلّ حال ينبغي على المرء ألّا يثقل على أصدقائه بحكاية حزينة؛ ففي تلك الحالة لن يكون لديهم، بالفعل، شيء يقدّمونه لك سوى التفاؤل، تفاؤل عام وغير ملزم. يفضّل المرء عندئذٍ الرقاد في الشمس في «الروف غاردن» الصغيرة. ومع ذلك، ورغم الصعوبة الظاهرة التي صادفتها زيبيله مع غياب العلاقات، هذا الغياب اللطيف الذي يميّز أغلب الأميركيين، فقد كانت بعيدة كلّ البعد عن التفكير في الرجوع إلى

سويسرا. بعد تبادل رسائل راح يتباعد شيئاً فشيئاً إلى أن توقف، وبعد صمت متبادل أوشك أن يكون نهائياً، اتصل بها ذات عصر في المكتب رولف، زوجها. سألته: «أين أنت؟».

- «هنا، في مطار لاغوارديا. هبطت لتوّي. كيف أستطيع أن أقابلك؟».

كان عليه الانتظار حتى الخامسة، إذ لا تستطيع زيبيله أن تترك المكتب هكذا ببساطة، وفي النهاية أوشكت أن تكون السادسة عندما ظهرت زيبيله، السكرتيرة، في بهو الفندق الذي ذكره في تايمز سكوير. «كيف الحال؟»، سأل كلّ منهما الآخر. «شكراً»، أجاب كلاهما. قادته زيبيله عبر تايمز سكوير. سألته: «ما المدة التي ستقضيها هنا؟»؛ ولكن بالطبع لم يكن ممكناً تبادل الحديث في الزحام إلا بصعوبة. قادت رولف، الزائر الدائخ، إلى برج روكفلر حتى تريه على الفور شيئاً من نيويورك. سألته: «هل جئت إلى نيويورك لشأن تجاري؟»، ثم صحّحت نفسها على الفور: «أقصد: لشأن مهني؟».

كانا يجلسان في بار «رينبو» الشهير، وكان عليهما أن يطلبا شيئاً.

«لا» -قال رولف- «جئت من أجلك. من أجلنا...».

كلّ منهما رأى أن الآخر لم يتغيّر، تقدّم به العمر قليلاً فحسب. عرضت عليه زيبيله أحدث صور هانيس: «لم يعد طفلاً، لا، لقد أصبح فتى بحقّ!».

لم يدعها رولف تحكي طويلاً: «لقد جئت حتى أسألك... أعني: إما الطلاق، أو العيش معاً. ولكن بصورة نهائية».

لم يتبادلا أسئلة أخرى.

استعلم منها رولف عن الجهة التي تسكن فيها، فأشارت له زيبيله إلى الناحية؛ ولكن عموماً هذه الألعاب الضوئية، الغروب الملوّن على نحو لا يصدّق فوق مانهاتن، هذا العرض الساحر الذي يعرفه بالتأكيد كلّ زائر من

زوّار مانهاتن؛ ولكن ليس كلّ زائر يعثر خلال ذلك مرّة أخرى على امرأة حياته. «بابل!»، قال رولف الذي وجد نفسه يلقي مرّة بعد أخرى نظرة على هذه الشبكة من عقود اللؤلؤ البراقة، على الكرة الضوئية متداخلة الخطوط هذه، إلى هذا الحقل السحيق من الزهور الإلكترونية. يتعجّب المرء ألّا يفقد في كلّ دقيقة إنسان ما طريقه هناك في الأسفل، في هذه الهاوية التي لم يعد المرء يسمع الضوضاء المتصاعدة منها، في هذه المتاهة من الظلمات المربّعة التي تخترقها القنوات المتلألئة، هذه المتاهة التي تتكرّر بلا فارق؛ أن هذا التيار، الرائح والغادي، لا يتوقف دقيقة واحدة، أو لا يتراكم ليصبح فجأة فوضى لا خلاص منها. هنا وهناك يتجمّع الضوء مكوّناً بركاً ممتلئة بوهج أبيض، تايمز سكوير على سبيل المثال. سوداء تنتصب ناطحات السحاب من حولهما، عمودية، ولكن من المنظور تبدو متباعدة مثل حزمة من البلور، الصغير والكبير، السميك والنحيف. في بعض الأحيان تمرّ سحابات من الضباب الملوّن وكأن المرء يجلس على قمة أحد الجبال، ولوهلة تختفي نيويورك؛ لقد فاض المحيط الأطلسي وغطّاها. ثم تظهر من جديد، تكاد تكون منظّمة وكأنها رقعة شطرنج، وتكاد تكون فوضى وكأن درب التبّانة قد سقط من السماء. أرته زيبيله الأحياء التي يعرف أسماءها: بروكلين خلف الجسور المعلّقة، جزيرة ستاتين، هارلم. في ما بعد سيكتسي كلّ شيء ألواناً؛ لن تعود ناطحات السحاب تنتصب كأبراج سوداء أمام الغروب الأصفر، الآن يبتلع الليل أجسادها، ما يتبقى هي الأضواء داخله، مئات الآلاف من المصابيح، شبكة من النوافذ التي يميل لونها إلى الأبيض والأصفر، لا شيء غير ذلك، هكذا تسمو أو تحلّق فوق الضباب الملوّن الذي اكتسب لون المشمش تقريباً، وفي الشوارع، كما في الأخاديد، تنساب تلك الشبكة مثل زئبق لامع. سيطر الاندهاش على رولف: الصورة المنعكسة للقوارب التي تنتقل من ضفة هدسون

إلى الضفة الأخرى، الشرائط الضوئية على الجسور، النجوم فوق طوفان من «ليمونادة» أضواء النيون، من الحلوى، من الكيتش الذي يغدو شيئاً عظيماً، ڤانيليا وتوت بري، وبينهما الشحوب الأرجواني للخريف الأبدي، خضرة الأنهار الجليدية، لون أخضر كما نراه في المختبرات الكيميائية، وفي المنتصف حليب زهور الهندباء، لعب برّاقة؛ إنها رؤية، نعم، وجمال، آه، جمال ساحر، قوس قزح من أيام الطفولة، فسيفساء من شظايا ملوّنة، لكنها مائجة ومضطربة، رغم أنها جامدة وباردة مثل الزجاج، ثم أبخرة متوهّجة كالمتصاعدة من النيران التي توقد لمطاردة الساحرات، قوس قزح ربّاني يتفتت إلى آلاف من الشظايا ويتناثر فوق الأرض، التنافر والتناغم في حفلة ماجنة، حفلة ماجنة يومية، تفوق كلّ شيء تكنولوجياً وتجارياً، وفي الوقت نفسه يفكّر المرء في ألف ليلة وليلة، في البساط المتوهّج، في الأحجار الكريمة الرخيصة، في الألعاب النارية الطفولية التي تسقط على الأرض وهي ما زالت تشتعل، لقد رأى المرء كلّ شيء، في مكان ما، ربما خلف الجفون المغلقة وهو يعاني الحمّى، هنا وهناك يُرى أيضاً اللون الأحمر، ليس أحمر كالدم، أخفّ، أحمر مثل الضوء المنعكس على كأس مترعة بالنبيذ الأحمر عندما تتخلّلها أشعّة الشمس، أحمر وأصفر أيضاً، لكنها ليست صفرة الشهد، أخفّ، أصفر مثل الويسكي، أصفر مخضرّ مثل الكبريت وأنواع معيّنة من الفطر، أنواع غريبة، لكنها جميعاً تتمتع بالجمال، جمال لو تكلّم لكان مثل غناء صفّارات الإنذار، نعم، مثله تقريباً ، حسّيّ وخالٍ من الحياة في الوقت نفسه، روحاني وأحمق وهائل؛ بناء شيّده الإنسان أو النمل الأبيض، سيمفونية وليمونادة، على المرء أن يشاهده حتى يستطيع تخيّله، لكن عليه أن يشاهده بعينيه، لا أن يحكم عليه فحسب، عليه أن يراه كشخص مشوّش، مجذوب، مرعوب، سعيد، غير مصدّق، مشدوه، غريب على الأرض، ليس غريباً في أميركا فحسب، الأمر

كذلك تماماً، بالإمكان مواجهة ذلك بالابتسام، بالتهليل، بالبكاء. وبعيداً، في الشرق، يبزغ القمر البرونزي، قرص مسطّح، صحن معدني مستدير لا يصدر صوتاً... أكثر ما أربك رولف كانت بالطبع زيبيله، زوجته، التي استقرت هنا. شرب كلّ منهما كأس المارتيني، صامتين بعض الشيء، وبين الحين والآخر يتبادلان النظر، ويبتسمان، ابتسامة تكاد تكون ساخرة، لقد لاحظا أن المحيط الأطلسي بينهما لم يكن في الحقيقة ضرورياً. صحيح أن رولف لم يكد يجرؤ على الإمساك بذراعها القريبة منه؛ بقي حنانه حبيس عينيه. زيبيله أيضاً شعرت أن العالم، مهما كان كبيراً، ليس فيه إنسان أقرب إليها من رولف، زوجها؛ ولم ينكرا ذلك. على كلّ حال طلبت منه مهلة من أربع وعشرين ساعة للتفكير.

مكتبة
t.me/t_pdf

الكرّاسة السابعة

اليوم عند طبيب الأسنان.

إنها توافه، وهذا هو المرعب: الإنسان لا يقاوم التوافه. يشعر الإنسان بالتعب عندئذٍ! حتى آنسة الاستقبال البيضاء دخلت غرفة الانتظار وقالت: «السيد شتيلر، تفضّل!». هل أصرخ في وجهها أمام الآخرين؟ الذنب ليس ذنبها، هذه الآنسة اللطيفة؛ لقد حجزوا لي الموعد باسم السيد شتيلر. أتبعها إذاً دون أن أنطق بكلمة. يرجع الفضل في كلّ هذا إلى محاميّ! يعلّقون حول عنقي المنشفة البيضاء، ويعطونني كوباً نظيفاً، ويملؤونه بالماء شبه الدافئ، كلّ شيء لطيف غاية اللطف، وطبيب الأسنان الشاب -خَلَف ذلك الطبيب المتوفى الذي ما زال المفقود شتيلر يدين له بمبلغ فاتورة لم يُسدَّد- انهمك في غسل يديه بالصابون. الذنب ليس ذنبه هو أيضاً؛ فهو في ما يتعلّق بالأسماء لا بدّ أن يعتمد كلّياً على الآنسة في الاستقبال، لا سيما أنه لا يعرف الزبائن الذين ورثهم. يقول لي: «السيد شتيلر، أتشعر بآلام؟».

في تلك اللحظة كنت أتمضمض، فأومئ بخصوص الآلام، وقبل أن أصحّح سوء الفهم، كان قد وجد بملقاطه الطبي الموضع الذي يتوقف عنده أي نقاش. الشاب دقيق جدّاً في عمله. يقول لي وهو يريني أسناني في مرآة صغيرة: «أترى، هذا التاج مثلاً، السن السادسة، فوق - يسار، أتراه؟

لا أريد أن أقول كلمة عن الطبيب السابق، ولكن تاجاً مثل هذا أمرٌ غير معقول».

يسيء فهم نظرتي، ويظن أنني أريد أن أدافع عن سَلَفه. بفمي المفتوح، وبداخله قطن ودبوس وشافط اللعاب، أي أن المرء لا يستطيع المعارضة، أسمع محاضرته، الشيّقة بالتأكيد، عن الجديد في طب الأسنان. لقد ورث الشاب عيادة عمّه بزبائنها، لكنه لا يريد على أي حال أن يرث أخطاء الجيل المتوفى، وما وجده في فمي ليس سوى سلسلة من الأخطاء. بنظرات عاجزة فحسب أرجو الشاب ألّا يعتبر التيجان عملاً من أعمال عمّه المتوفى، ولا أسناني أسنان المفقود شتيلر. ينادي: «يا آنسة، أعطيني مرّة أخرى صورة الأشعة السينية الخاصة بالسيد شتيلر!».

في كلّ هذا، كما قلت، يرجع الفضل إلى محاميّ! لا يصدّقونني؛ في كلّ مرّة يلمس ملقاطه موضعاً معيّناً، تتفجّر دموع لا إرادية من عيني، ولم يكن من المفهوم لماذا يحفر في هذا الموضع مرّة بعد أخرى، إلى أن يقول أخيراً: «لا، لا، إنها حيّة».

فبالنظر إلى صورة أشعة إكس القديمة التي عثروا عليها بين ملفّات المرضى الخاصة بالطبيب السابق، لا يستطيع طبيب الأسنان الشاب ببساطة أن يصدّق أن سنّي الرابعة، بالأسفل إلى اليسار، ما زالت حية، وهي في رأيي ما زالت حسّاسة بما يكفي، حتى لو كانت الصورة بأشعة إكس (يشيرون لي على السن الرابعة بالأسفل إلى اليسار، مثلما كان في فم المفقود شتيلر) تُظهر أن جذرها قد مات وشبع موتاً. يغمغم الطبيب قائلاً: «غريب، غريب».

عندئذٍ يرنّ الجرس للآنسة. ويسألها: «هل هذه فعلاً صورة الأشعة السينية الخاصة بالسيد شتيلر؟ هل أنتِ متأكّدة؟».

- «الاسم مكتوب عليها...».

ضميره اليقظ لا يتيح له أن ينعم بالسلام؛ يقارن عدّة مرّات سناً سناً، ثم يتضح أن شتيلر، الزبون المفقود الذي كان يتردّد على عمّه المتوفى، كانت لديه سنّ في أتمّ صحة، الثامنة بالأعلى إلى اليمين؛ أما في فمي فهناك ثغرة مكانها. ماذا فعلت بالسن الثامنة بالأعلى إلى اليمين (الخاصة بشتيلر)؟ أهزّ كتفي. لا أسمح لهم باستجوابي والقطن والدبوس وشافط اللعاب في فمي. أخيراً تختفي صور أشعة إكس، ويمسك طبيب الأسنان الشاب بالمثقاب. بعد ساعة ونصف، عندما أتخلص أخيراً من كلّ الدبابيس في فمي ويسمحون لي بالمضمضة، لم يعد لديّ أيّ احتياج طبيعي لمواصلة النقاش حول صور الأشعة القديمة. لا أطلب سوى أقراص «ساريدون» المسكّنة. يجلس كنوبل في غرفة الانتظار. وتنتظر سيارة السجن الرمادية في شارع تحفّ به أشجار الأكاسيا. لدى السائقين تعليمات بأن يصفّوا السيارة دون أن يلفتوا الانتباه. لكن الشارع فيه مبنى مدرسة، يطلّ فناؤها عليه، ولأن التلاميذ كانوا في ذلك الوقت، عندما عدتُ مع كنوبل إلى السيارة، في الاستراحة الكبيرة فقد كنا محاطين بالطبع بهم. سألني صبي بخجل ما إذا كنت سارقاً. وتصيح فتاة صيحة استثارة مبهجة مخاطبة معلّمها: يا أستاذ، مجرم! ألوّح بيدي بقدر ما يسمح به الشبّاك الصغير ذو القضبان. المعلّمون وحدهم لا يلوّحون.

ملحوظة:

ربما، هكذا أتساءل، ينبغي على المرء أن يقاوم في كلّ مكان يختلط فيه الأمر على الآخرين، وربما لم يكن يجوز أن أسمح لآنسة الاستقبال بأن تحجز لي موعداً باسم السيد شتيلر؛ يا لها من مهمة سيزيفية! غير أنني

سرعان ما أفكّر في أنه يكفيني تماماً أن يوليكا، هي وحدها، لا تخلط بيني وبين شخص آخر.

المكسيك -

أجد نفسي مضطرّاً (ولا أعرف سبب اضطراري) إلى التفكير في يوم الموتى كما رأيته في جزيرة خانيتسيو، وفي الأمهات من الهنود الحمر وهنّ يقبعن عند المقابر طوال الليل، وكلهن يرتدين أزياء احتفالية، وقد صفّفن شعرهن باعتناء وكأنهن في عُرس؛ ظاهرياً لم يحدث أيّ شيء، المدافن شرفة تطل على البحر الأسود، تحيط بها الصخور المائلة السامقة، مدافن بلا شاهد قبر واحد أو أي علامة تشير إلى ذلك؛ كلّ إنسان في القرية يعرف أين يرقد الموتى، وأين سيرقد هو ذات يوم. توضع الشموع، ثلاث شمعات أو سبع، أو عشرون شمعة، حسب عدد أرواح الموتى، وبجانبها أطباق عليها مختلف أنواع الطعام، مغطاة بمناديل صغيرة نظيفة، ثم ذلك الشيء العجيب الذي صنعوه بحب عظيم لهذا الاحتفال، حامل من الخيزران عليه مخبوزات وزهور وفاكهة وحلويات ملوّنة. على المتوفى أن يتغذى طوال الليل على شذى هذه الأطعمة، فالشذى هو روح الأشياء؛ هذا هو المغزى. لا يأتي إلى المدافن الليلية سوى النساء والأطفال؛ الرجال يصلّون في الكنيسة. تقعد النساء -اللائي يتميّز سلوكهن بالموضوعية والعقلانية التامة- وكأنهن سيسترحن طويلاً، ويرفعن الوشاح الذي يغطي رأس المرأة ورأس طفلها، فيظهران تحت الوشاح كأنهما مخلوقٌ واحد.

في ريح الليل البارد يهتزّ لهيب الشموع المصطفة بين الأحياء والموتى، ساعة بعد أخرى، ويبزغ القمر فوق الجبال المظلمة، ثم يسير

في قوس سيراً وئيداً إلى أن يهبط. ومرة أخرى لا يحدث شيء. بين حين وآخر يعصف الريح بناقوس فيُقرَع، أو ينبح كلب في مواجهة القمر؛ عدا ذلك لا شيء. لا يتصاعد بكاء من أي مكان، أما الحديث فقليل، لا يُقال سوى الضروري، لكنه لا يقال همساً، مثلما يفعل المرء في مدافننا؛ فالجو النفسي هنا ليس مهمّاً. السكون الذي يخضع له حتى الأطفال -إذ إنهم يظلّون ساعة بعد أخرى يحدّقون في الشموع ذات اللهب المهتز، أو في الليل الخاوي فوق البحيرة- ليس صلاة، ولا استبطاناً بالمعنى الغربي، لا بالمعنى السيِّئ أو الجيد. إنه مجرّد سكون. أمام حقيقة الحياة والموت ليس ثمة ما يُقال. البعض غفا، في حين كان المتوفى الذي جاؤوا من أجله، أب أو زوج أو ابن، يتغذّى في صمت على الشذى، على رحيق الأشياء. آخر القادمين يأتون قرابة منتصف الليل؛ ولن يغادر أحدٌ المقابر قبل انبلاج الفجر. تهتزّ أرواح الموتى بالآلاف. طفل يشعر بالبرودة، ويسعل سعالاً خطيراً للغاية، وكأنه يريد أن ينتقل سريعاً إلى الموتى، يحصل من الآن على جزء من الحلوى، رغم أن الأطعمة ملك للموتى. وعموماً فهم يتميّزون بصبر غريب. الطقس بارد، بارد جدّاً، إنها ليلة الأول من نوفمبر. فتاة صغيرة -تستمتع أمها بالنعاس- تتلاعب بشمعة، وتستقبل على كفّها قطرات شمعية دافئة، إلى أن تنطفئ الشمعة، ثم تشعلها مرّة بعد أخرى. ومرة بعد أخرى تفوح رائحة قوية للغاية مع هبوب الريح؛ تنزع النسوة وريقات الزهور وتنثرنها على الموتى. يفعلن ذلك وكأنهن ينظّفن الخضار، بلا إهمال، ولكن أيضاً بلا ادّعاء، بلا تأكيد، بلا احتفال، بلا تعبير مسرحي يقول إنهن هنا يقمن بشيء رمزي. إنهن عموماً لا يقلن أيّ شيء، يفعلن ببساطة. وكأن السكون يزداد بمرور الوقت؛ غاب القمر، والبرد قارس. لا شيء يحدث. لا تركع النساء، بل يقعدن على الأرض حتى تصعد أرواح

المتوفين إلى أحضانهن. هذا هو كلّ شيء، إلى أن يتنفّس الصبح، ليلة من الصبر الصامت، تسليم بما ليس منه بدّ: مُتْ، لتحيا –

حديث مع صديقي المدّعي العام عن شتيلر: «الغالبية الساحقة من البشر تدمّر نفسها بتكليفها فوق طاقتها».

ثم شرح ما يقصده على النحو التالي:

– إن وعينا قد تغيّر تغيّراً كبيراً عبر بعض القرون، أما التغيُّر في حياتنا الشعورية فقد كان أقل بكثير. ولذا، ثمة هوة بين مستوانا الذهني ومستوانا العاطفي. معظمنا يحمل معه علبة فيها قماش بلون اللحم، أي مشاعر لا يريد مستوانا الذهني أن يعيها. ثمة طريقان للخلاص لكنهما لا يؤديان إلى أيّ شيء؛ أن نقتل مشاعرنا البدائية، أي التي لا تليق بنا، إذا أمكن ذلك، ولكن ذلك يحمل معه خطر موت حياتنا الشعورية عموماً، أو أن نمنح المشاعر التي لا تليق بنا ببساطة اسماً آخر. أن نكسوها بأكذوبة جديدة. نضع عليها ملصقاً جديداً وفق رغبة وعينا. وكلما كان وعينا أكثر مرونة، أكثر ثقافة، تعددت أبوابنا الخلفية وأصبحت أكثر رقيّاً، وبات الكذب على الذات أكثر فرادة وعمقاً! من الممكن أن نظلّ طوال حياتنا نتحدّث عن ذلك، حديثاً رائعاً، لكننا لن نصل عبره إلى الحياة، بل سنصل حتماً إلى الغربة عن الذات. بإمكاننا، على سبيل المثال، أن نفسّر من غير صعوبة افتقادنا لشجاعة الرضوخ مرّة على أنه موقف أخلاقي، وأن نطلق بسهولة على الخوف من تحقيق الذات إنكاراً للذات، إلى آخره. معظمنا يعرف تماماً ما سيشعرون به في هذا الموقف أو ذاك، أو ما لن يشعروا به، ومع ذلك فلدينا كلّ الصعوبة، حتى مع وجود النية الطيبة، في اكتشاف مشاعرنا الحقيقية. هذا وضع سيِّئ، ومن عوارضه الكلاسيكية التهكّم على كل

أنواع المشاعر. ولا بدّ للذي يحمِّل نفسه فوق طاقتها من أن يكون لديه نوع سيِّئ من تأنيب الضمير. ثمة من يؤنّب نفسه لأنه ليس عبقريّاً، وآخر يؤنّب نفسه لأنه ليس قديساً رغم تربيته الجيدة، وشتيلر كان يؤنّب نفسه لأنه ليس مناضلاً إسبانياً... غريبٌ أمر كلّ هذه الأشياء التي تعرض نفسها علينا باعتبارها الضمير، عندما نكلّف أنفسنا فوق طاقتنا، ونصل بالتالي إلى الغربة عن الذات. الصوت الداخلي، الشهير، هو في كثير من الأحيان ليس إلا الصوت اللعوب للأنا المزيّفة التي لا تتحمّل أن أستسلم أخيراً، أن أعرف ذاتي، مستخدمة في ذلك كلّ حيل الغرور، وإذا اضطرت، تحاول أن تختلق أيضاً ما شاءت، لتقييدي إلى العبء المميت الذي لا أستطيع تحمّله. إننا نرى بالتأكيد هزيمتنا، لكننا لا ندركها كإشارة، كنتيجة للموت الخاطئ، الموت بعيداً عن ذاتنا. والغريب أن غرورنا لا يسير في اتجاه ذاتنا، مثلما يبدو، بل بعيداً عن الذات.

نتحدّث عندئذٍ عن بيت الشعر المشهور: «أعشقُ مَن يشتهي المستحيل!»، دون أن يتذكّر كلانا، في أيّ مكان بالضبط من الجزء الثاني من «فاوست» ورد هذا البيت المُنذر، ونتفق على أن هذا البيت لا يمكن أن يخرج إلا من فم شخصية شيطانية؛ فهو دعوة إلى العُصاب، ولا علاقة له بالطموح الحقيقي (لا يتحدّث البيت عن طموح، بل عن اشتهاء)، أي الطموح الذي يفترض التواضع بالنظر إلى إمكانياتنا المحدودة.

ويضيف المدّعي العام:

- «لا أرى أن شتيلر حالة خاصة. إنني أرى فيه بعض معارفي، بل أرى فيه نفسي، وإنْ كانت تختلف سُبُل تكليف النفس فوق طاقتها. كثيرون يعرفون أنفسهم، لكن قليلين يستطيعون قبول أنفسهم. كم من بشر يستنفدون معرفتهم بذواتهم في استباق الآخرين في البوح بالضعف الذاتي على نحو دقيق، أي إنهم يستنفدونها في التدلّل! ولكن حتى معرفة

الذات الحقيقية، التي تبقى بالأحرى خرساء ولا تعبّر عن نفسها إلا في السلوك، حتى هذه لا تكفي، إنها الخطوة الأولى، صحيح أنها شاقة ولا محيد عنها، لكنها غير كافية. كثيراً جدّاً ما تتجلّى معرفة الذات كحزنٍ يصاحبنا مدى الحياة، كتعامل ذكيّ مع استسلامنا في السابق، والناس على هذه الشاكلة هم في بعض الأحيان ألطف الندماء؛ ولكن ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى أصحاب تلك المعرفة؟ لقد تخلّوا عن تمثيل دور زائف، وهذا شيء جيد في حدّ ذاته، بالتأكيد، ولكن ذلك لا يعيدهم بعد إلى الحياة... وليس صحيحاً أن قبول الذات يأتي من تلقاء نفسه مع التقدّم في العمر. صحيح أن الطاعنين في السن تبدو لهم الأهداف السابقة موضع تساؤل، لكنهم يقابلون طموحنا الشاب بابتسامة، ويفعلون ذلك على نحو أسهل، وأرخص، وأقل ألماً؛ لكنهم لا يكونون بذلك قد قبلوا أنفسهم. بل إن الوضع يزداد صعوبة نوعاً ما مع التقدّم في العمر. إن عدداً متزايداً من الذين نرنو إليهم بإعجاب يكونون أصغر منا عمراً، المهلة الممنوحة لنا تصبح في كلّ يوم أقصر، والاستسلام يغدو أسهل بالنظر إلى تحقيق نجاح مهني مشرف، وأسهل خصوصاً بالنسبة إلى أولئك الذين لا يحققون أي نجاح مهني، الذين يعزّون أنفسهم بالقول إن العالم المحيط بهم شرير، ويتواءمون مع فكرة أنهم عبقريات لم يلتفت إليها أحد. المرء يحتاج إلى أقصى قدر من القوة حتى يقبل ذاته. عندما نُطَالب بأن نحب القريب كأنفسنا، فإن ذلك يعني أن من البديهي أن نحب أنفسنا، وأن نقبل ذاتنا كما خُلقت. ولكن قبول الذات وحده لا يعني كلّ شيء! ما دمت أريد أن أقنع من حولي أنني لست شخصاً آخر سوى ما أنا عليه، أكون بالضرورة خائفاً من سوء التفسير، وأظلّ سجين هذا الخوف... من دون اليقين بشأن سلطة مطلقة خارج التفسير البشري، من دون اليقين بشأن وجود واقع مطلق، لا أستطيع أن أفكّر في إمكانية وصولنا إلى الحرية».

ملحوظة:

سلطة مطلقة؟ واقع مطلق؟ لماذا لا يقول «الربّ»؟ يبدو لي أنه يتجنّب هذه الكلمة، باعتناء واعٍ. أمامي فحسب؟

ملحوظة:

يكمن دائماً الأمل في إدراكي أنني إنسان تافه عديم القيمة، الأمل أنني لا أعود عبر هذا الإدراك إنساناً تافهاً. في الواقع، وبصراحة، فإنني آمل في تحوُّل كلّ شيء، آمل في الهروب. ببساطة تامة، لست مستعدّاً لأن أكون إنساناً تافهاً. إنني آمل في الحقيقة فقط في أن يحوّلني الربّ (عندما أقابله) إلى شخصية أخرى، أي إلى شخصية أكثر ثراءً، وعمقاً، وقيمة، وأهمية – وربما يكون هذا تحديداً هو ما يعيقه الربّ، أن يظهر حقّاً أمامي، أي أن يكون محسوساً وملموساً. الشرط اللازم لوجودي: أن يتراجع عني، أنا خليقته.

ما زالت يوليكا في باريس.

قبر الأم:

مثل القبور في هذه البلاد تفصل ألواح الغرانيت بينها فصلاً واضحاً، وكلها منخفضة جدّاً حتى إن المرء يُصاب بالرعب خوفاً من أن يكون واقفاً على أقدام الموتى؛ بينها طرق مفروشة بالحصى، خضراء دائماً في الحواف، وفي منتصف القبر مزهرية فخارية، وبداخلها بضع زهور نجمية ذابلة، وخلف الشاهد الحجري علبة صفيح صدئة لسقي الزهور. لكنها تمطر اليوم. نقف معها تحت المظلة، وتدقّ الساعة الثالثة من البرج. الحجر

غريب نوعاً ما، فن شواهد القبور، يا لها من كناية! هنا وهناك شجرة سرو صغيرة تسمو فوق مانهاتن الرمادية المشيّدة من شواهد القبور الحجرية. ذات مرّة يسألني فيلفريد: «بالمناسبة، ما رأيك في الشاهد الحجري؟».

- «نعم...».

يحمل فيلفريد معه دائماً مظلّة. أنا لم أحمل في حياتي قطّ مظلّة خاصة بي، ولكنّي الآن سعيد بالمظلّة. المقبرة هنا ريفية، تلٌّ كنسيّ عليه شجرة دردار عتيقة، كنيسة لا قيمة معمارية لها من أواخر القرن التاسع عشر؛ إذا كان الطقس جيداً يشاهد المرء بالتأكيد منظراً جميلاً، هادئاً، ورحباً، منظراً يطل على البحيرة، تحيط به الجبال. الرمادي يغطي كلّ شيء اليوم، يوم خريفي ممطر، الضباب يلفّ الغابات. نقف طويلاً هناك، وقطرات المطر تنقر المظلّة السوداء نقراً خافتاً، كلّ منّا صامت، بلا إشارات تصدر منا، كما يليق بشخصين من البروتستانت. مكتوب على الشاهد: ترقد هنا في الربّ. لدى الآخرين كتابات أخرى: ارقد في سلام! أو بيت شعري ضبابي. للأسف الحجر الجيري، ترافرتين، مصقول. تنزل القطرات من المظلّة محدثةً صوتاً مسموعاً فوق ورق الأشجار البني. في الصف بعد التالي مقبرة حديثة، جبل من الطين، وفوقه إكليل. من برج الكنيسة تدقّ الساعة مرّة أخرى. الجو بارد، مطير، رمادي.

بعد ذلك سرنا إلى حانة.

فيلفريد شتيلر -وهو أصغر مني عمراً- رجل ممتلئ القامة، ببشرة خشنة، مشدودة، لوّحتها الشمس. المرء يلاحظ أنه يقضي وقتاً طويلاً في الهواء والشمس. شعره الأسود قصير كشعر الفلّاحين أو جنود الجيش. جاء بي إلى هنا بسيارة جيب، لكنها ليست ملكه، بل ملك الجمعية التعاونية الزراعية. يعمل هناك مديراً لقسم الفواكه... بالطبع نتحدّث عن

أمّنا، وفي هذه الأثناء (باستثناء الفترة التي قضيناها في المقابر) كان يدخّن سيجاريلو، الماركة نفسها التي كان يدخّنها آنذاك مفتش الحدود. يبدو أن أمّه كانت صارمة جدّاً، لا أقصد بذلك أيّ شيء. عندما يحكي فيلفريد مثلاً كيف حبسته أمّه ذات مرّة يوماً كاملاً في القبو لأنه كثيراً ما كان يأكل هناك من الفاكهة المحفوظة، وذلك حتى يكره هذا المكان كرهاً نهائياً، فإنني أضحك مع الرجل الذي تجاوز ما حدث ذلك اليوم في القبو المظلم دون أن تتأثّر صحته الممتازة؛ لكنها ليست أمي، فهي لم تكن ستقدر قط على إجراءات تربوية كهذه. قالت له أمه: تماسك وتجلّد إذا أردت أن تصبح صبيّاً قويّاً! أما أمي فكانت تقول: دعوا الصبي وشأنه! كانت أمي مقتنعة بأنني سأجد طريقي في هذه الحياة. أتذكّر أنني سمعتها مرّة عبر ثقب الباب وهي تحكي للحاضرين جميعاً كلّ تعليقاتي المضحكة والذكية على ما يبدو التي قلتها في الأسبوع السابق، وقوبل ذلك باستحسان كبير. مثل هذه الأشياء لم يمرّ بها فيلفريد قطّ؛ كانت أمّه تخشى ألّا يصبح فيلفريد أبداً رجلاً ناجحاً، والرجل الودود رغم جفاف نبرته، الخشن، الذي تبدو عليه علامات الصحة ويجلس أمامي إلى المائدة المطلية اللامعة في الحانة، مدخّناً السيجاريلو، يقول هو نفسه أيضاً إنه لم يكن طفلاً موهوباً؛ وإنه لم يتعلّم حتى العزف على البيانو. أما أمي، ما زلت أتذكّر، كانت توفّر أجر النساء اللائي ينظّفن الشقة ويكوين الملابس، وتنظّف هي بنفسها وتكوي؛ حتى تستطيع في كلّ شهر دفع ثمن حصص الفلوت لي؛ فقد كانوا يعتبرونني موهوباً. وكلّ أمّ منهما كانت تتميّز بروح الدعابة!

يحكي فيلفريد أن أمّه كانت امرأة جديرة بالاحترام مثل أمي؛ كانت تعشق أكل الكبدة النيئة أكثر من أيّ شيء، وأكثر بكثير من الحلوى. لم يكن أحد يستطيع أن يهديها في عيد ميلادها أو عيد الأم علبة بها كبدة نيئة،

لذا كان عليها أن تجهّز مأكولاتها الشهية بنفسها. وهو ما كانت تفعله! ذات مرة، عندما طارت كرة قدم بين الشجيرات وذهب فيلفريد يبحث عنها، فقد وجد أمّه تجلس في أحد الأركان الخفية في حديقة عامة وتأكل كبدة نيئة؛ فزعت هذه المرأة الطيبة وكأنها رأت عزرائيل، ولأن الحجج التلقائية لم تكن تنقصها لكي تردّ عليه، فقد صدّق أن أمّه الحبيبة قد فعلت أيّ شيء، إلا أنها قد أكلت كبدة نيئة!

عندما يحكي لي فيلفريد ذكريات كهذه، فإنني قد أتخيّل أن أمي هي التي فعلت ذلك، ونضحك معاً. ثم يصوّر أمه، التي لا أعرفها مطلقاً، كامرأة رزينة لا تهادن، ولا يستطيع أحد أن يخدعها، امرأة عملية علّمته في الوقت المناسب أنه لن يستطيع أبداً أن يتزوّج امرأة تستحق هذا الوصف إلا إذا كان يكسب جيداً. أمي لم تكن هكذا قطّ. كانت تحب عندما أتظاهر أمامها بشيء، وبخصوص المستقبل كانت تراهن أكثر على القيم التي زرعتها داخلي، وكانت مقتنعة أن بإمكاني أن أتزوّج مَن أريده، أيّ امرأة إلا أمي الحبيبة للأسف، أسفت لذلك منذ فترة مبكرة؛ كانت هموم أمي تتمحور بالأحرى حول ما إذا كانت المرأة التي سأحضرها يوماً تليق بي حقّاً. أتذكّر ذات مرّة أنني حاولت أن أبصق نوى الكرز على جارنا العجوز الذي كان يقرأ الصحيفة في حديقته الصغيرة؛ واجهت أمي هذا الاتهام الفظيع بدفاع ضارٍ حتى إنني أنكرت كلّ شيء كي لا أجعلها تبدو بمظهر سيِّئ أمام السيد. أنا وأمي كنا دائماً معاً، كاللصقة على حدّ قول زوج أمي. فيلفريد كان لديه أب حقيقي. لم تبكِ أمي أمام المعلّمين قطّ، أعرف هذا؛ كانت تنكر كلّ شيء وتتوقع بعض التفهّم من جانب المعلّمين. كنت طفلاً رقيقاً. عندما كانت أمي تدفع الغرامات التي تفرضها الشرطة، وعَلِمَ الله كيف كانت تفعل ذلك، كنت أحضر لها زهوراً كثيرة من زهور الربيع؛ عندئذٍ كانت

تبكي، أمي، ولكن ليس قبل ذلك. أما أمّه فلم تكن تنتظر زهور الربيع، بل كانت تطلب من فيلفريد أن يعتذر شخصياً للمعلّمين الذين أهانهم. غريب هذا الاختلاف بين الأمهات!

يقول فيلفريد: «وها هي ذي ترقد هناك منذ أربع سنوات. المهمّ ألّا تُدفن في المدينة، المهمّ ألّا ترقد بجانب أناس لم ترهم قطّ خلال حياتها، كانت تجد ذلك بشعاً».

ذات مرّة أتى صاحب الحانة، فحيّا فيلفريد بالاسم، ثم صافحني. يتحدّث فيلفريد مع الناس دون ذرّة تصنع. هذا شيء لا أستطيعه. ولكن لماذا؟ ثم طلب مني بعد أن أصبحنا بمفردنا أن أحكي له عن يوليكا: ما أحوالها في باريس؟ لقد جاءت يوليكا، بشعرها الأحمر، من باريس إلى هنا للمشاركة في الجنازة. ومنذ ذلك الحين لم يرها فيلفريد مرّة أخرى. يرتدي فيلفريد صدرية تريكو. كاليفورنيا تثير اهتمامه جدّاً؛ أراد فيلفريد يوماً السفر إلى الأرجنتين كمزارع، لكن بسبب والدته لم يفعل، وهكذا رحت أتحدّث عن كاليفورنيا دون أن أفكّر في كاليفورنيا أو حتى أراها، كان ما رأيته كان القبر المحاط بخضرة دائمة وعليه حجر الترافرتين المصقول دون أن أفكّر في أمي أو أراها. بالنسبة إلى فيلفريد كان كلّ شيء على ما يرام. أخوه المفقود كان دائماً غريب الأطوار بعض الشيء. لا يقول ذلك، ولا حتى يلمّح إليه. فيلفريد ليس غامضاً، ولا ألمعيّاً، ولا فضوليّاً، هو إنسان يحيا حياة طبيعية، ولا يهتم كثيراً بالتعبير عن نفسه بالكلمات. حتى عندما أصمت، أشعر بنفسي ثرثاراً أمامه. يحتسي فيلفريد القليل، وربما لا يحتسي إلا من أجلي، مع أنه يجد النبيذ ممتازاً وهو ما يمسّ قلبي، لأنه في الحقيقة نبيذ متوسط، باهت الطعم، في الحقيقة ليس فيه سوى مذاق البرميل. وكل هذا بديهي للغاية، غريب للغاية، حديث تتخلّله

فترات صمت كثيرة حتى إن المرء يسمع مواء القطة، وعندما كرّر فيلفريد دعوته مرّة أخرى بخصوص السكن لديه ولدى زوجته، ألاحظ أن الدموع قريبة جدّاً من عينيّ؛ مع أنني طوال تلك الفترة كنت جافّ المشاعر تقريباً. إنه شقيق، أما أنا فلا، ولا يزعجه إطلاقاً أنني لست شقيقه. يسألني ما إذا كنت أشعر بالجوع أيضاً.

لا يريد فيلفريد أن يقنعني بأيّ شيء، وهو شيء آسر. ولا خوف لديه من الصمت، في حين رحتُ أنا أتحدّث مرّة أخرى عن المزارع الحديثة في كاليفورنيا التي يعرفها فيلفريد بالطبع من المطبوعات أفضل مني. بالمناسبة، شيء مسلٍّ: في مجلّة وردت فيها مقالة عن الراقصة يوليكا وزوجها المفقود، كان هناك أيضاً ريبورتاج كبير عن الطرق العصرية في مكافحة الآفات، وعندما أذكرها في الحديث يضحك فيلفريد، ولا حتى المعلومات الواردة في هذا الموضوع المنشور في المجلة صحيحة. بعث ذلك بالسرور في نفسي. تصيبني الحيرة في كلّ مرّة عندما يظهر من سياق ما (مثلاً الخدمة العسكرية) أن فيلفريد أصغر مني بخمس سنوات. إنني أنظر إليه كما ينظر صبي إلى رجل، رجل ليس له عمر، لكنه في كلّ الظروف والأحوال متفوّق عليه. يحيّرني أيضاً أن هذا الرجل لا يشعر من ناحيته بالحيرة تجاه أي اختلاف في جوهر ذاتَينا، حتى إذا كان غريباً، بل يعتقد ببساطة أن حياتي، وإنْ كانت غير مفهومة بالنسبة إليه، بالتأكيد حياة جيدة بالنسبة إليّ، وبمعنى من المعاني كان يحافظ ببساطة على مسافة من الاحترام بيننا، إذ لا يتدخّل مطلقاً في شؤوني، في كلّ مرّة كان يُخجلني ذلك، ويربكني. كان جادّاً في هذا الاحترام. لا أجرؤ على طلب كأس نبيذ أخرى، أو نوع آخر، رغم أنني أعرف أن فيلفريد لن يعارض؛ فهذا يوم خاص، يستحقّ أن نحتفي به قليلاً. أسمع أن أطفاله قد اجتازوا، الواحد بعد الآخر، مرض النكاف؛ لا تنتظرهم إلا الحصبة. عندما أرى فيلفريد

يأكل خبزاً وجبناً، بعد أن علّق سترته على مسند الكرسي، حتى يأكل شيئاً قبل رحلته الطويلة بالسيارة الجيب التي ليست مريحة تماماً، دون أن يطلب نبيذاً مع الطعام، أسأل نفسي عندئذٍ ما إذا كان عليّ أن أشرح اللبس الواقع، حتى دون أن يسألني - ولكنني لا أعرف كيف، ولا لماذا أيضاً! بالنسبة إلى فيلفريد الأمر واضح: إننا شقيقان، نقف معاً أمام مقبرة تحت مظلّة سوداء، ثم ننفصل ثانية.

قبل الخامسة بقليل في زيورخ مرّة ثانية.

الآن (وبينما أسجّل هذا) أجلس في بار. وحدي في المدينة! وكأنه حلم؛ مع أنني كنت محاطاً بجيش من الطواجن التقليدية في زيورخ، التي رُفع عنها الغطاء وتنتظر أول زبائنها في هذا المساء، وقد كانت كلها بعيدة كلّ البعد عن الأحلام. لا أحد يعتقد أنه يعرفني. وإذا لم أذهب في السادسة إلى سجني؟ أوصلني فيلفريد بسيارته إلى فندق «بلفو»؛ ما زالت أمامه رحلة طويلة، وفي الغد ينتظره يوم شاقّ، من ناحية أخرى ما زالت لديّ ساعة أخرى قبل موعد العودة إذا بقي فيلفريد معي. مدّ إليّ يده، فقلتُ: «نعم، وماذا إذا هربت؟»

ضحك، ويده على ذراع تغيير السرعة. قال لي: «هذا شيء يرجع إليك أنت!».

ثم انطلق بسيارته وابتعد. ماذا كان بإمكاني أن أشرح له؟ ثمة بشر كثيرون أنا أقرب إليهم بكثير من هذا الرجل، أقرب إليهم حسب الرؤية؛ هو لا يصلح لي صديقاً. كما أن لديه أصدقاءه الغرباء عني تماماً، وهو أيضاً لن يخطر على باله، كما أعتقد، أن يعتبرني من أصدقائه. ورغم ذلك فإنه، حقّاً، الإنسان الوحيد الذي أقبل أن يخلط بيني وبين المفقود شتيلر، أي أن يسيء في الحقيقة فهمي. ماذا يعني الفهم! على الأصدقاء أن يفهموا

بعضهم بعضاً حتى يظلّوا أصدقاء؛ أما الإخوة فهم دائماً إخوة. لماذا لم أكن أخاً قطّ؟ لقد أربكني لقاء اليوم كثيراً. ما موقفي في هذا العالم؟

«ما زلت تنكر؟» -يسألني محاميّ بمجرّد عودتي إلى السجن- «ما زلت تنكر؟!».

– «نعم، ما زلت أنكر».

– «لكن الأمر يبعث على السخرية!».

– «إنه يبعث على السخرية، ولكن إذا اعترفت بما تريدني أن أعترف به يا دكتور، فإنه سيكون مدعاة لسخرية أكبر».

يقول لي المحامي: «لا أفهمك».

– «أعرف، ولذلك أجد نفسي مجبراً على إنكار كلّ ما تقوله عني...».

نعم – مَن سيقرأ ما أكتبه في هذه الكرّاسات! ورغم ذلك، أعتقد أنه لا توجد كتابة دون تصوّر أن أحداً ما سيقرؤها، حتى لو كان هذا الأحد هو الكاتب نفسه. عندئذٍ أسأل نفسي أيضاً: هل يمكن أن يكتب المرء دون أن يؤدي دوراً؟ يريد المرء أن يكون غريباً عن نفسه. لكن حقيقتي ليست في الدور، بل في القرار غير الواعي بشأن الدور الذي أنسبه إليّ. أحياناً يخامرني شعور بأن المرء يظهر في الكتابة مثل أفعى تغيّر جلدها. وهنا بيتُ القصيد؛ ليس باستطاعة المرء الكتابة عن نفسه، كلّ ما يستطيعه هو أن يغيّر جلده فحسب. لكن مَن يهمّه هذا الجلد الميت! ينتفي إذاً السؤال الذي يطرح نفسه مرّة بعد أخرى، ما إذا كان القارئ يريد يوماً قراءة شيء آخر غير ذاته: ليست الكتابة تواصلاً مع القراء، أو تواصلاً مع الذات، بل هي تواصل مع ما لا يُباح به. وكلما باح الإنسان بما في دخيلته بشكل أدقّ،

تجلّى المسكوت عنه على نحو أنقى، أي تجلّت الحقيقة التي تدفع الكاتب وتحرّكه. لدينا اللغة لكي نخرس. مَن يصمت، ليس أخرس. مَن يصمت لا يستطيع حتى أن يعرف مَن لا يكون.

لماذا لا تكتب يوليكا؟

أصدقاء! - الآن يأتون أفواجاً أفواجاً، اليوم ليس أقل من خمسة، وفي الوقت نفسه. وكلهم يجدون أنني لم أتغيّر، تقريباً لم أتغيّر، وكلهم يتحدّثون معي دون تكليف. ولا يمنعهم عن معرفتي مطلقاً أنني لا أنطق بكلمة، آه، وطبعاً ليس ثمة أفضل من صداقة قديمة. أحدهم، ممثّل، لا يريد أن يترك يدي. المشاعر الباطنية تبدو من العينين، حتى لو كان أخرس فإنه يقطر فهماً عميقاً من أجل شتيلر؛ عبر مصافحة، عبر ضغط أكبر وهزّ يدي التي أحاطت بها يداه واعتصرتها عدّة مرات، ثم أسمعه يقول ما لا يُباح به. من ناحيتي لا أقول إلا: تفضّلوا بالجلوس يا سادتي! ألاحظ بمرور الوقت أن أحدهم يعتبر نفسه راعياً لي، لأنه لم يرفع قضية على المفقود شتيلر الذي لم يدفع الإيجار لمدة سنوات، وهو بالتأكيد من حقّه؛ يبدو أن ماضيّ يكفي بالنسبة إليه كتعبير عن الشكر. وعموماً، هم أناس لطفاء، وإن كانوا قد تجمّعوا في هذه الزيارة، وكما لن يحدث في ظروف عادية، كانوا يشبهون مجموعة من المعزّين في قاعة لحرق الجثث؛ في ما عدا ارتباطهم بالمفقود شتيلر، وهو ارتباط متباين المنشأ، فلا شيء يجمعهم في الحقيقة. كلّ منهم سمع عن الآخر، ربما، آنذاك من شتيلر الذي يغيب الآن غياباً مؤلماً. على كلّ اثنين بالطبع أن يتعارفا وحدهما. أحدهم، ألاحظ ذلك بمرور الوقت، قد أصبح أستاذاً جامعياً، عقلية ممتازة، لا بدّ أنه كان يلاقي مشقة كبيرة مع المفقود شتيلر الذي يتسم بذهن ضبابي وحماس لكل ما

هو راديكالي مشوّش. مجيئه فعلٌ من أفعال الوفاء، هذا البروفيسور الشاب الذي لديه بالطبع أصدقاء آخرون غير شتيلر. حَذرُه معي، ورفقه الرقيق بي، يجعلانني أحدس كم كان المفقود شتيلر حسّاساً، وبالفعل أشعر بنفسي أنني أدنى منه، أشعر بقدر الجهل، وأسقط في نوع من التبجيل المذعور، وبذا أنزلق إلى نبرة في الكلام لا بدّ أنها تذكّره بصديقه المفقود. لكنه لا يريد هذه النبرة أو هذا الصمت الناجم عن التبجيل المذعور؛ لكنه معتاد عليه، هكذا يبدو، وكلما أصبح سلوكي أكثر غرابة، يتأكّد البروفيسور أكثر فأكثر من أنه يرى فيّ المفقود شتيلر الذي كثيراً ما أثار استغرابه، رغم كلّ شيء ظلَّ يكنّ له الوفاء، لكنه وفاء ينبع بالأحرى من الرغبة في أن يكون المرء عادلاً، أكثر من أن يكون رغبة في الصداقة التي لم تكن مع شتيلر مثمرة قطّ. لماذا يسبّب لي الحزن؟

إنهم حقّاً رجال أوفياء، ويرغب المرء في أن يكونوا أصدقاء له. لماذا لا يكون ذلك ممكناً؟ بالمناسبة، لا يتفقون في الإجابة عن السؤال: من هو شتيلر؟ يتصرّفون رغم ذلك وكأنهم يعتبرونني الشخص نفسه. راح مصمّم غرافيك، محبّ للحياة، يصوّر الاحتفال الذي من المزمع إقامته بعد خروجي من الحبس، والخامس، الذي يعمل مصفّفاً للحروف، يبدو أنه شيوعي ينظر إلى الأربعة الآخرين باعتبارهم من عتاة الرجعيين، وحسب نظرته أستنتجُ أنه يلومني لأن لديّ أصدقاء مثلهم؛ وهو مستاء مني على وجه الخصوص بسبب نبرتي اللطيفة مع مالك البيت الذي راح يصوّر لنا حالة أتيليه شتيلر المهجور الذي يشبه الجميلة النائمة في الأسطورة.

في بعض الأحيان، أثناء حديث الآخرين، أفكّر بجدية في ما يجب أن أكون عليه حتى أتوافق مع ذكريات هؤلاء الزوّار الخمسة وتوقّعاتهم، ولو في الخطوط العريضة فحسب. أعتقد أن عليّ أن أصبح كائناً ذا خمسة رؤوس، وكلٌّ منهم سيرغب في قطع الرؤوس الأربعة الأخرى لأنها زائفة،

ولا لزوم لها، وذلك حتى يظهر شتيلر الحقيقي. ألاحظ أن الممثّل قد أصبح كاثوليكياً، وهو ينظر من أعلى، نظرة لا تخلو من الاحترام أو التفهّم، إلى مصفّف الحروف، الشيوعي، الذي يستطيع أن يخمن بسهولة آراءه، فهي تذكّره بمغامراته الفكرية الأولى في شبابه. في ما عدا الشيوعي لم يبقَ أحد واقفاً. يؤكّد البروفيسور الشاب لي أنه ما زال يضع الفن الكلاسيكي فوق كلّ شيء، هذا صحيح، غير أنه لم يعد ينظر إلى الفن الحديث باعتباره انحداراً فحسب، أما مصمّم الغرافيك -على ما يبدو قد اهتدى إلى الطريق الصحيح بعد أن حقّق نجاحاً ملحوظاً- فقد تغلّب على التشاؤمية الثقافية، وهو يشير إلى المستوى العالي الذي وصل إليه فن الغرافيك السويسري، وهو من ناحية، بصراحة، لا يحتاج إلى شيوعية أو كاثوليكية لكي يدرك واجبه في هذا العالم. أما مالك المنزل، الذي يتاجر بالأنتيكات، فقد أصبح متمسّكاً بالتقاليد أكثر من أي وقت مضى، وكلما كانت التقاليد تضرب بجذورها في المحلية، كان ذلك أفضل، فهو لا يهاجم الاتحاد الدفاعي الأوروبي بكلمة، لكن من أجل ذلك تحديداً، فإن مهمته كتاجر أنتيكات أن ينمّي روح اكتشاف الفوارق، مثلاً الفارق بين أهالي بازل وأهالي زيورخ، إذ عن أيّ شيء ستدافع جيوش أوروبا الأخوية، إنْ لم تدافع عن هذا الحقّ في الاختلاف، ولو بين أقصر المسافات؟ كما قلت، كلهم رجال لطفاء. بعد ذلك أسأل نفسي: لماذا لا أشعر بأنني حقّاً صديقهم؟ لقد أهنتهم دون أن أقول كلمة. تزداد زنزانتي وحدةً بعد كلّ زيارة.

حلمتُ بيوليكا - تقريباً الحلم نفسه: تجلس بين كثيرين في مقهىً مطلّ على ساحة وتحاول أن تكتب لي، القلم الرصاص على شفاهها مثل تلميذة محتارة، أريد السير في اتجاهها، لكن ثلاثة جنود غرباء (ألمان) يعتقلونني، وأعرف أن يوليكا وشت بي. تتلاقى نظراتنا. يواصل الرجال ذوو الخوذات

جذبي، أريد أن أسبّ يوليكا وألعنها، لكن نظرتها الصامتة ترجوني ألّا أصدّق ما كتبته على الورقة، لقد أجبروها، لقد أجبرتها. ردّاً على سؤالي ما إذا كانوا سيقتلونني رمياً بالرصاص، يضحك الجنود الثلاثة؛ أحدهم يقول: لا، سنصلبك الآن. بعد خوف عظيم يشغّلونني في معسكر، علينا أن نثبّت صوراً على جذوع الأشجار بالدبابيس، هذا هو ما يسمّونه «الصَّلْب»، لا شيء أكثر من ذلك، «أصلبُ» يوليكا، صورة راقصة الباليه.

من الصعب ألّا يشعر المرء بالتعب إزاء العالم، إزاء الأغلبية، إزاء تفوّقهم الذي ينبغي عليّ أن أعترف به. من الصعب أن أعرف بمفردي، وبلا شهود، ما أعتقد أنني خبرته وحدي، من الصعب حمل المعرفة التي لن أستطيع أبداً البرهنة عليها أو حتى مجرّد النطق بها. أعرف أنني لست المفقود شتيلر. ولم أكنه قطّ. أقسم على ذلك، حتى وإن كنت لا أعلم من أكون إذاً. ربما أنا لا أحد. وإذا استطاعوا بالبرهان القاطع إثبات أن بين كلّ البشر المسجّلين كمواليد، لا ينقص في الوقت الحالي سوى واحد، وهو شتيلر، وأنني لن أكون في عداد سكّان هذا العالم أساساً إذا رفضت أن أكون شتيلر، فإنني أرفض رغم ذلك. لماذا لا يتركونني وشأني! أعرف أن سلوكي مثير للضحك، وأن وضعي لا يُطاق. لست الرجل الذي يبحثون عنه، ولن أتخلّى عن هذا اليقين، يقيني الوحيد.

ما زالت يوليكا في باريس.

ليس صحيحاً:

لا أستطيع أن أكون وحدي، وإذا أردنا الدقة، فإنني لم أستطع ذلك ساعةً واحدة خلال حياتي! وفي معظم الأحيان، إذا أردنا الدقة، كانت

هناك امرأة. بداية بأمي الحبيبة والطيّبة؛ لقد نجحت في الثانوية العامة بصعوبة، وبعد مجهود عظيم، وكنت سعيداً من أجل أمي، حتى لا يقول زوجها: أترين، ابن أمّه اللطيف! بعد ذلك بدأت في تنفيذ العقوبة الوطنية، حاملاً بطانية سويسرية تحت ذراعي. مكثت صيفاً بأكمله تقريباً في الثكنة العسكرية، لكني لم أكن بمفردي، كنت أشعر بالأسف لوالدتي، إذ إن ذلك كان فظيعاً بالنسبة إليها. عدد لا يحصى من الساعات، أكثر مما تحتويه حياة الإنسان من ساعات، هكذا قد يعتقد المرء، مخزّنة في ذاكرتي وتنتظر استدعاءها، ساعات اعتبرتها ساعات وحدة، أمسيات في غرف فنادق ذات ضجيج منبعث من الحارات الغريبة، أو التي تطل على باحة، ليالٍ في محطات سكك حديدية في مكان ما، أيام ربيعية في حديقة عامة حافلة بعربات الأطفال واللغات الأجنبية، ثم مرّة أخرى فترات العصر في الخمّارة المعهودة، وتجوُّل في الغابة تحت المطر مع يقين بأنني لن أتحدّث أبداً مرّة أخرى مع إنسان أتشوّق إليه، مختلف أشكال الوداع، وداعات نظيفة، وسريعة، وصادقة، وأخرى بائسة، وباكية، ومتباطئة، وجبانة؛ أقول: عدد لا يحصى من الساعات، ورغم ذلك لم أكن وحدي قطّ، أو إذا شئنا الدقة، ليس لمدة ساعة كاملة. كنت أجد دائماً مَهرباً باطنياً، ذكرى حلوة أو معذبة، حديث حماسي مع إنسان غير مرئي هو في معظم الأحيان غير موجود، لكني كنت أخترعه حتى لا أكون بمفردي، أو الأمل في لقاء عظيم على ناصية الشارع التالية أو بعد التالية. هل هذه وحدة؟

كنت وحيداً في بداية ممارستي للفن، ربما، وكنت تقريباً أحب الوحدة بمعناها الحقيقي، على أمل أن أحقق نفسي في الطين أو الجص؛ لكن هذا الأمل لم يستمر طويلاً، وسرعان ما سيطر عليّ الطموح، البهجة في انتظار الاعتراف بقدراتي، القلق بشأن ازدرائها، طوال شهور لم أكن أرى إنساناً حيّاً من كثرة الطين والجص والطموح، متشبّثاً بفنّي الذي لن يتحقق أبداً،

متقوقعاً بين جدران الأتيليه الأربعة، ناسكاً بلا راديو، وكأنني في العصور الوسطى، شحيح الكلام مثل مجذّف على إحدى سفن القوادس، راهب في ما يخص الفتيات، ولكن فقط في ذلك الخصوص، غير ذلك كنتُ مبتهجاً بفكرة أن لا أحد يحدس مجرّد حدس وجود عبقريتي، وكنت مجتهداً مثل حيوان تحت السياط، تحت سياط الطموح؛ لم أكن وحيداً إذاً.

ولم أكن وحدي في العبّارة على نهر تاخو؛ كنت أعرف أن «أنيا» لن تنهار في حالة وفاتي، ولن تدخل الدير، ستظلّ تعتني بالأحياء، وستظلّ تسمح للعشاق بأن يعشقوها، لكنها ستتذكّرني أحياناً، ولم أكن وحدي عندما لم يقتلوني بالرصاص، عندما قيّدوني بحزام سروالي فحسب، وربطوا يدي بقدمي، ورموني بين شجيرات الجينيستا؛ تعرّضت للإذلال أمام أنيا، كنت أظن أنني سأموت عطشاً ميتة بائسة ولن أرى أنيا ثانية، صرختُ لأطول فترة استطعتها، ثم توقفت عن الصراخ، وعلى عتبة فقدان الوعي جاءتني أنيا، الإذلال الحارق الذي شعرت به أمامها. لم أكن وحدي في طريقي إلى العودة، رغم أنني كنت أحدس الغربة في الوطن؛ كنت أبرّر نفسي أمام أنيا طوال ليالٍ وأنا أسير، طوال ليال في قاعات الانتظار في فرنسا، شعرت بالخجل أمامها، شعرت بالسخط تجاهها، ورحت أجمع أفكاراً ضدّها؛ لم أكن وحيداً. ثم، بعيداً عنها، كنت أحكي النادرة الإسبانية، وكاد معارفي يصدّقونني، لكنني كنت أعرف من يعرف الحقيقة، أعني أنيا، أي إنني لم أكن وحيداً. نعم، الأمر مثير للسخرية، لكنّه حقيقي: هناك امرأة كنت أستخدمها دائماً لخداع نفسي. كان لديّ أصدقاء من الرجال، ليسوا كثيرين، هذا أو ذاك؛ كانت تلك صداقة حقيقية، ليست خداعاً وإلهاء عن وحدة الإنسان الفرد. كثيراً ما فكّرت في أصدقاء بعيدين، متشوّقاً إلى سماع أفكارهم، أو سعيداً باعتراضاتهم، أو أيضاً أثناء خصام مؤلم معهم، لكن في ساعات الأهوال، في ساعات عجزي عن أن أكون

وحيداً، كانت هناك دائماً امرأة، ذكرى امرأة، أو أمل في امرأة، ومعها كنت أخرج من قوقعة الوحدة.

لماذا عجزت عن أن أكون وحيداً، وكنت مكرهاً على الشعور بالضجر مع راقصة الباليه هذه، إلى الحد الذي يجعلني أتزوّج هذه العروس البحرية؟ كنت صاحب المبادرة، لا شك، فأنا أتمتع بين الحين والآخر بإرادة حديدية، لكنها تسير في اتجاه خاطئ. طوال ألف ليلة وليلة، على الأقل، كنت أمسك برأسي حتى أستغرق في النوم؛ ولا حتى أثناء الزواج كان بمقدوري أن أكون وحيداً. تخلّيتُ عنها؛ أهانتني وأهنتها؛ لكنني لم أكن وحيداً قطّ. ولم أكن وحيداً في الجزء الخلفي من سفينة شحن إيطالية، راكباً غير شرعي، مهاجراً بلا أوراق إلى أميركا؛ لم يعلم أحدٌ آنذاك بوجودي في الأسفل بين البراميل سوى البحّار المرتشي، عامل الوقود في الباخرة، كانت الغرفة مظلمة، وعفنة، والهواء ساخن حتى إن العرق كان ينهمر من كلّ مسام بشرتي (وبشرة أيّ إنسان مكاني)، وأدركت جيداً أن يوليكا الجميلة ستمتعض مني، من هذا العرق؛ أي إنني لم أكن وحيداً. كانت تلك هي فرصة حياتي لكي أختلي بنفسي، فرصة استمرت دون إزعاج ثمانية عشر يوماً وتسع عشرة ليلة، كان البحر خلالها هادئاً في معظم الوقت، أي إنه لا يمكنني أن أتحجّج بشعوري بوعكة آنذاك. لم أتقيّأ سوى مرّة واحدة، من المرجّح أن يكون ذلك بعد أن تجاوزنا جبل طارق بمسافة بسيطة؛ ظلّت سفينة البضائع تتأرجح عدّة ساعات، ثم سارت بهدوء مرّة أخرى. وماذا فعلتُ بالفرصة الممنوحة لي، الكبيرة كالأطلسي؟ أشعلتُ سيجارة، ولمحتُ في ضوء ولّاعتي الكتابة على البراميل المحيطة بي Chianti Italian Wine Imported، ثم لا شيء سوى الظلمة العنيدة التي تخلّلتها شقوق ضوئية صغيرة تنفذ عبر ألواح الخشب، ومعها دويّ المراوح الدافعة للسفينة أسفلي، من دون تغيُّر، سواء في النهار أو الليل،

قد يصيب ذلك المرء بالجنون، لكنني لم أُجنّ، لأنني كنت أرى بالروح يوليكا جالسة في شرفتها ذات الطراز الشبابي في دافوس، وأكملت كلامي لها. كنت سعيداً أنني لن أرى هذه المرأة بعد ذلك أبداً؛ كانت تلك هي بهجتي الوحيدة في قاع السفينة. هل كنت وحيداً؟ في كلّ مرّة أستيقظ فيها من نوم طويل كنت أشعر بالخوف من أن تكون سفينة البضائع قد أخذت مسارها عائدة إلى أوروبا؛ لم يغيّر ذلك من عزمي ألّا ألتقي يوليكا الجميلة أبداً. لم أكن في حاجة وأنا بين البراميل ذات الرائحة العفنة (كنت أجلس مقرفصاً معظم الوقت، إذ إنني كنت أتعثّر خلال المشي في الظلام بالحبال والسلاسل الملقاة في كلّ مكان) غير أن أفكّر في الرسالة التي أرسلتها لي بعد أن قتلتها في الشرفة، بل في الجملة الأولى فحسب: لا فائدة تُرجى من الرجوع إلى حديثك في الأسبوع الماضي، إلخ! هذه الجملة الأولى فحسب، وأنا لم أندم على شيء، حتى لو انغرزت هذه السفينة في اللحظة التالية في الرمال، وامتلأت على الفور بالمياه. يكفي أن أفكّر في فوكسلي! أو في الحساء الشهير الذي لم تكن هذه المرأة تملّ صنعه من الدقيق، ومئات الأشياء التافهة، وكل شيء أكثر تفاهةً من الآخر؛ لكن ثمانية عشر يوماً وتسع عشرة ليلة متتابعة في الظلام، حيث كانت القطرات تتساقط في مكان ما بين الألواح الخشبية المزيتة، زمنٌ أبديّ حافل بالدقائق التي تسقط كالقطرات، هذا الزمن لم يكفِ للإحاطة بالخواء الذي جمعني بهذه المرأة، ولا حتى في شكل شريط اختزالي سريع، ثم تعثّرت ثانية في ما حولي، وجرحني سيخٌ صدئ، قرفصت مرّة أخرى على كومة من الحبال، ولعقت الدم الساخن من يدي، قرفصت، تفوح مني عفونة العرق القديم والجديد، لم أغتسل منذ جنوة، لم يرني إنسان، أعمى مثل حيوان الخُلد، وأصمّ من دويّ المراوح الدافعة، ولم تكن تمضي ساعة يقظة واحدة دون أن أتذكّر شيئاً عن هذه المرأة الرقيقة في دافوس، لم يسمع أحد أعلى

لعناتي؛ لكني لم أكن وحيداً. في ميناء بروكلين خرست المراوح الدافعة أخيراً؛ وخفق قلبي.

في البداية أفرغوا البضائع في المقدّمة. وبعد عشر ساعات جاء أخيراً عامل الوقود ونصحني مخلصاً بأن أختبئ ساعتين أو ثلاث ساعات أخرى، إذ إن عمال الميناء الذين يفرغون البضائع مضربون. ثم انقضت خمسة أيام، ومعها بالطبع الليالي، وأخيراً سمعت الصفارة المتفق عليها من عامل الوقود الشجاع؛ لكنني لم أكن قد انتهيت بعد من اجتياز الخواء بين هذه المرأة وبيني. كان عليّ أن أهبط من السفينة. هل كنت وحيداً في نيويورك؟ دفعتُ بنفسي وسط الناس الذين اكتظّت بهم «تايمز سكوير» وكأنهم نمل؛ لأسابيع كنت أرى خصوصاً كبائن الهاتف، لكنني كنت عازماً على ألّا أتصل بزيبيله. ولم أتصل، بل ركبت باصاً من باصات شركة «غراي هاوند» لأسافر في اتجاه الغرب، سيّان إلى أين. كان الأمر بين بين، مملاً وجذّاباً، بشعاً وباعثاً على الحماسة. رأيت البراري، ومجازر شيكاغو، وجماعة المورمون الدينية، والهنود الحمر، وأكبر مناجم النحاس في العالم، وأعظم الجسور المعلّقة في العالم، تحدّثت مع وجوه غريبة في أحد المقاهي المسمّاة بـ«ميلك بار»، وعملت لشهر في ديترويت، ووقعت في غرام ابنة عضو محافظ من أعضاء مجلس الشيوخ كانت تمتلك سيارة كاديلاك، وسبحنا معاً في بحيرة ميتشغان، ثم واصلت السفر، ورأيت حرائق غابات، ومباريات بيسبول، وغروب الشمس فوق المحيط الهادئ، وأسماكاً طائرة. نادراً ما كان معي نقود، لكنني كنت أصفّر من السعادة، لأنني بعيد كلّ هذا البعد عن دافوس، وبعيداً بعض الشيء عن ريفرسايد درايف ونيويورك. آنذاك كان بإمكاني أن أكون وحيداً وكأنني على القمر. قالوا لي: أهلاً! وقلتُ: أهلاً! سمعت آخر ما بُثّ في الراديو بعد منتصف

الليل، فقط حتى لا أسمع الصمت، ففي الصمت لم أكن وحيداً، كنت أفضّل إذاً سماع هؤلاء المذيعين المتفائلين دوماً في إعلاناتهم الدعائية، وبإشاراتهم إلى أفضل أنواع الصابون، وأفضل ويسكي، وأفضل طعام للكلاب، وبين الإعلانات أسمع سيمفونيات أو على الأقل مقطوعة «كسّارة البندق» لتشايكوفسكي: حتى لا أكون وحيداً تماماً.

وإذا لم أفكّر في راقصة الباليه الرشيقة، فقد كانت هناك «غراي الصغيرة»، هذه القطة الرشيقة، المتوحّشة، التي كانت تقفز على الفور فوق إفريز نافذتي، دون أن تقول لي شيئاً. ألم أكتب ذلك في مكان ما في هذه الكومة من الأوراق؟ أمسكت بالقطّة، ووضعتها ذات مساء في الثلّاجة، ثم حاولت أن أصفّر، وأن أنام في ما بعد، ولكن من دون جدوى، بعد ساعات قليلة أخرجتها من الثلاجة، وأنا أعلم جيداً أن نفوقها سيشغلني، لمست شغاف قلبي حتى كدت أبكي عندما رأيتها بعد وهلة تفتح شقّ عينيها قليلاً، لتبوح لي بأنها لم تمت في الثلّاجة؛ رحت أعتني بها إلى أن شرعت في المواء ثانية، وفي التمسّح بسروالي، لكنها على الأقل كانت تعيش، وإنْ علت وجهها ملامح الانتصار، لم يعد لديها ما تقوله لي الآن، ثم راحت تستغلّ ضميري المعذّب، فألقيت بها ثانية خارجاً، إلى الليالي التي لم تكن باردة بالمناسبة، حيث كانت ترفع ذيلها كالراية، وتفحّ وتنفخ، فأغلقت النافذة، كلّ النوافذ، فكانت تقفز من الخارج على إفريز النافذة وتفحّ، وكأنني قد قتلتها حقّاً، لوهلة تظاهرت بأنني لا أراها، ولا أسمع مواءها الذي كان يشوّه سمعتي لدى الجيران (لا سيما لدى فلورنس، الخلاسية). كفى! هكذا قلت بصوتٍ عالٍ، وسرت إلى النافذة، وأمسكت بها من خلف العنق، ثم ألقيت بها مثل طرد مرتعش إلى أبعد ما يمكن. وقعت على قوائمها مثلما تفعل القطط. ولدهشتي صمتت، ولم تقفز ثانية على إفريز نافذتي؛ كنتُ أنتظر ذلك. أعترف بأنها تركتني وحيداً، لكنني عرفت في

تلك اللحظة أن بإمكانها أن تقفز في أيّ لحظة على إفريز نافذتي من جديد؛ أي إنني لم أكن وحيداً.

هل أنا وحيد الآن؟ أفكّر في السيدة يوليكا شتيلر تشودي في باريس. أراها في «التايير» الأسود الذي تظهر فيه بمظهر رائع، مع قبعتها الصغيرة البيضاء على الشعر المائل للحمرة. سيكون الجوّ بارداً في باريس الآن. كانت تنوي شراء معطف جديد. أراها (رغم أني لا أعرف مطلقاً موديلات هذا الخريف) في معطفها الجديد الذي تظهر فيه أيضاً بمظهر رائع. قد يكون صحيحاً أنني أقع في الحب بسهولة فائقة؛ ولكنني عندما أقبع في زنزانتي وأفكّر في هذه السيدة، يوليكا شتيلر تشودي، فإن هذا أكثر من الوقوع في الحب؛ أشعر بذلك من خلال حزني المفعم بالآمال، فالسيدة يوليكا شتيلر تشودي هي أملي الوحيد. بغضّ النظر عن شعرها النحاسي، ولون بشرتها المرمري، وعينيها الخضراوين، أو الرماديين كالماء، أو ربما اللتين بلا لون، على كلّ حال الجميلتين إلى أقصى حدّ، بغضّ النظر عن ذلك كله، عن كلّ ما يراه أي إنسان، حتى محاميّ، فإن هذه المرأة (مهما كانت اتهامات المفقود شتيلر لها) امرأة عظيمة، ليس من السهل أن تحبها، ربما، امرأة لم يحبها أحد من قبل قطّ، ولم تحبّ حتى الآن قطّ. ولهذا، على ما أظن، لا يفزعني مطلقاً ما عاشته مع شتيلر. ما دخلي في ذلك! لا أريد أن أكون متكبّراً وأدّعي أنني أحبها! لكن بإمكاني أن أقول: أريد أن أحبها. وأجرؤ على القول، بشرط ألّا تنظر إليّ السيدة يوليكا شتيلر تشودي على أنني زوجها المفقود: لماذا لا يكون حبّنا ممكناً؟ ستعود في الأيام القادمة، حسب الكلام القصير والمتحفّظ الذي كتبته على البطاقة، ستعود بزيّ باريسي خريفي. سأعترف لها أن كلّ هذا ليس صحيحاً: لستُ قادراً على الحياة وحدي، لقد حاولت ذلك، لكن دون جدوى. وبصراحة: لقد افتقدتها. هذه ليست مبالغة. وسأسألها في أقرب فرصة ممكنة ما إذا كانت

تعتقد أن بإمكانها أن تحبّني. ابتسامتها، دهشتها في حاجبيها المشذّبين، كلّ هذا لن يفزعني؛ السيدة يوليكا شتيلر تشودي هي هكذا. تيتّمت في الثامنة عشرة، ربعها مجريّ الأصل، وثلاثة أرباع من أصل سويسري ألماني، ثبتت إصابتها بالسل الرئوي، ثم تزوجت برجل عصابي حارب في إسبانيا - كلّ هذا لم يكن سهلاً، عدم إنجابها، فنّها، وكيف اجتازت هذه الإنسانة كلّ ذلك، لم يخلُ الأمر من شفقة على الذات، بالتأكيد، ولم يخلُ من نوعٍ رقيق من الشرّ، لكنها كانت دائماً مرفوعة الرأس على كتفيها النحيلتين، هذا أمر عظيم حقّاً؛ لديها بعض التكبّر (على الطريقة الأنثوية المميّزة، أي في صورة ميل إلى «الصفح») مفهوم للغاية. سؤالي الصريح ما إذا كانت تعتقد أن بإمكانها أن تحبني، لن يكون الردّ عليه بـ«نعم» مثل الفتيات. فالسيدة يوليكا شتيلر تشودي أنضج من ذلك، كما أنني أيضاً أنضج من ذلك، فهذه الزنزانة ذات الفراش الخشبي ليست بقعة خضراء تحت غصون شجرة تفاح مزدهرة. آمل ألّا تسيطر عليّ روح احتفالية! ففي الاحتفالات أصبح جباناً بالتأكيد، حتى لو كان ذلك لأسباب جمالية؛ عندئذٍ لا يستطيع المرء النطق بأشياء معيّنة غير احتفالية. يجب عليّ، إذا لم تردّ السيدة يوليكا شتيلر تشودي بـ«لا» صريحة، فسأتحدّث على النحو التالي مثلاً:

- «أنت أملي الوحيد يا يوليكا، وهذا هو الفظيع في الأمر. اسمعيني! لن نتحدّث مطلقاً عن جان لوي دميتريتش، ربما يعشقك أكثر من قدرتي على العشق، دميتريتش إنسان مرهف الحسّ، أصدّق ذلك تماماً، رجل نصف روسي، مخلص، ويعاني عجزاً ما. فأنت أيضاً لم تتقدّمي، عزيزتي يوليكا؛ تحتفظين دائماً بإنسان عاجز. ومن المستبعد أيضاً تماماً أن نتقدّم، لا أنت، ولا أنا. أظن أن هذا هو الاختيار المتبقي أمامنا؛ إما أن نحطم نفسينا على صخرة الآخر، أو أن ننجح في أن يحب أحدنا الآخر. وأعترف بصراحة أنني لا أتخيّل ذلك أمراً سهلاً. ويصعب الأمر من عام إلى آخر.

أليس كذلك؟ لكن، ليس أمامنا طريق آخر. تحت كلّ الظروف، هكذا أرى، علينا أن ننطلق من الظن بأننا لم نتحابّ قطّ. هذا شيء غريب للغاية! تقولين إنك انفصلت عن جان لوي. تقولين: وفاءً لزوجك. فلنترك زوجك مفقوداً الآن! لكن: لقد استطعت الانفصال عن مسيو دميتريتش، أترين، ولم لا نستطيع نحن؟ إن كلّ زوجين كانا يوماً سعيدين وحقّقا يوماً نفسيهما في الحب، من الممكن أن ينفصلا، هذا أمر محزن، وموجع، ويدعو إلى السخط، وغير مفهوم، إلى آخره من الأوصاف، لكن روح كلا الطرفين لا تتضرّر بسبب ذلك؛ لديها طفلان ساحران، مكافأة مرئية لبراءتها. أما هو فسيصبح رغم كلّ شيء نائباً للمدير؛ مَن يعرف، مَن فيهما سيتزوّج مرّة أخرى أسرع من الآخر. ونحن يا يوليكا، ماذا لدينا نحن؟ باختصار: ذكرى فوكسلي. أعرف: ليس ذنب الجرو أننا لم نكن قط سعيدين معاً. لكنك تفهمين ما أعني! لم تنتهِ قصتنا معاً بعد. ولهذا، أعتقد، لم نستطع رغم كلّ شيء أن ننفصل. مسيو دميتريتش المسكين! حتى لو كان لديه كلّ الصفات الجيدة التي يمكن تخيّلها لرجل، بلا جدوى، لن يستطيع أن يملأ الفراغ الذي يربط بيننا. أعرف ذلك يا يوليكا. لقد أحبّتني امرأة، تعرفين ذلك، وكان سهلاً أن أحب تلك المرأة، كان أمراً مبهجاً. لكن علاقتنا لم تستمرّ! لم تستمرّ لأنني لم أكن قد انتهيت من علاقتي بك، لم أكن قد أنهيت علاقتنا بعد. بالمناسبة، لقد رُزقتْ هذه الأيام بطفل، كتبتُ لك ذلك، وقد أصبحت مؤخّراً قرينة صديقي الوحيد. وهذا أيضاً! ما زلت أحبها! ولهذا أسألك ما إذا كنت تظنين أن بإمكانك أن تحبيني؛ بالنسبة إليك أنت أيضاً ليس من السهل مطلقاً أن تحبيني. أحياناً، بصراحة، يتراءى لي ذلك مثل محاولة المشي على الماء، وفي بعض الأحيان، يعرف كلانا أن الماء يرتفع ويرتفع حتى يغرقنا، وما زال يرتفع، حتى لو لم نحاول المشي فوق الماء. لم تعد لدينا فترة طويلة من الحياة. كلّ الأشياء التي ما زالت ممكنة في الحياة

بالنسبة إلينا، كلّ شيء حقّاً، يتوقف على ما إذا كنا، أنت وأنا، سنتجاوز كلّ ما كان لكي نلتقي. يبدو كلامي مفتقداً للشجاعة، ألاحظ ذلك؛ عكس ذلك هو الصحيح، إنه الأمل، بل اليقين بأنه ما زالت ثمة عتبة لنا، نخطوها حتى نصل إلى الحياة، أن تصلي أنت إلى حياتك، وأنا إلى حياتي، لكن ليس هناك سوى هذه العتبة الوحيدة، ولن يستطيع أحدنا أن يعبرها وحده، أترين؟! لا أنت، ولا أنا!...».

هكذا (بالتقريب) سأتحدّث إلى السيدة يوليكا شتيلر تشودي، بشرط ألّا تعتبرني -على الأقل هي وحدها!- مفقودها شتيلر، أما الباقي فبإمكان محاميّ أن ينجزه لكي يشعر بالرضا عن الذات، لن يهمّني ذلك عندئذٍ.

يزورني محاميّ زيارة قصيرة جدّاً نظراً لاقتراب موعد الجلسة الختامية في المحكمة. يقول إنه قد انتهى من كتابة مرافعته للدفاع عني، وطُبعت على الآلة الكاتبة (هذا في حالة أنني لم أقرّر قبلها أن أقدّم اعترافاً). وفوق ذلك: لقد حصل محامي من السيدة يوليكا شتيلر تشودي أيضاً على بطاقة بريدية (ساحة الكونكورد أيضاً؟) أخبرته فيها أن «علينا» انتظارها غداً أو بعد غد.

من جانبي هزّة رأس موافقة فحسب.

لو كنت أستطيع الصلاة، لصلّيت أن يُسلب مني كلّ أمل في الهروب من ذاتي. المحاولات المتفرّقة للصلاة كانت تفشل بسبب أملي في أن تغيّرني الصلاة على نحو من الأنحاء، في أن تجعلني أهرب من فقداني للوعي، وبمجرّد أن أدرك أن هذا لم يحدث، أفقد الأمل في أنني أسير على هذا الطريق؛ أي إنني لا أفهم من كلمة «الطريق» سوى الأمل في الهروب من

ذاتي. هذا الأمل هو سجني. أعرف ذلك، لكن المعرفة لا تنسف السجن، إنها تُظهر سجني فحسب، وفقداني للوعي، وتفاهتي. لم أفقد الأمل على نحو كافٍ، أو كما سيقول المتديّنون: لم أخضع لمشيئة الرب على نحو كافٍ. سمعتهم يقولون: اخضع لمشيئة الربّ، وستصبح حرّاً، سيُنسف سجنك بمجرّد أن تكون مستعدّاً للخروج منه كإنسان تافه، فاقد الوعي.

يريدون مني أن أُجنّ، فقط حتى يمنحوني المواطنة، ولكي يحافظوا على النظام. لم يعودوا يتورّعون عن شيء. من الأمس لم أقابل إنساناً ليس على استعدادٍ أن يشي بي بلا خجل، باستثناء المدّعي العام. كان يوماً مريراً. أسجّل:

1. قبل الظهر

أُستدعى نحو العاشرة إلى المدّعي العام. ما زلت أجلس في غرفة السكرتارية حتى بعد أن جاوزت الساعة الحادية عشرة، مع كنوبل الذي لا يدري أيضاً ما الموضوع. يشعر كنوبل بالقلق من أن يُوجّه إليه إنذار، مثلاً بسبب ما كان يمنحه لي من سجق، وقد خيّب أملي للغاية كيف تصرّف كنوبل المطيع بمجرّد التفكير في إمكانية توجيه إنذار له؛ كان يخشى فقدان وظيفته. بالطبع لا يقول ذلك، لكنه يعتقد أن عليه أن يتخلّى عن النبرة الدافئة بيننا، خصوصاً لأننا نجلس في غرفة السكرتارية. يتصفّح كنوبل جريدة حتى يشعر بالاستقلال، بوجه ذكوري عابس، وكأن هذه الفظاظة تضمن مثلاً ألّا يتصرّف المرء بخنوع أمام رئيسه. في ألمانيا يخضعون للأوامر، في الشرق يفركون الأيدي في تشوّق وفرح، وفي سويسرا يشعلون سيجاراً صغيراً، ويتشنّجون وتعلو وجوههم أمارات اللامبالاة بشكل ينمّ عن الفظاظة بقدر الإمكان، وكأن الرجل المستقيم في هذه البلاد لا يمكن أن

يصيبه سوء. وعندما تأتي آنسة أنيقة وتقول: السيد المدّعي العام يدعوكما للدخول! لا يُظهِر كنوبل أي بادرة استعجال؛ السيد المدّعي العام هو أيضاً ليس إلا إنساناً، وكلّنا ندفع الضرائب! رغم ذلك ينسى خلال ذلك نظّارته. الغريب أن الباب تُرك مفتوحاً (عمداً؟)؛ أسمع الحوار التالي من دون أن أرى أحداً:

- «لن أدفع أجراً مقابل ذلك!».

يقول المدّعي العام: «بالمناسبة، لا داعي فعلاً لأن تستاء لأن الملفّات تتحدّث دائماً عن عصابة زيت الشعر. التعبير، كما رأيت بنفسك، يُذكر بين قوسين. وهو تعبير استخدمه السجين».

- «هذا ما أفترضه!».

- «في ما عدا ذلك...».

يقول الصوت الساخط: «عصابة زيت الشعر. سأرفع قضية سبّ وقذف، مهما كلّفني ذلك. يمكنك أن تخبر السجين اليوم بذلك».

فترة صمت قصيرة.

- «وشيء آخر، سيادة المدير...».

- «تفضّل، يا سيادة المدّعي العام، تفضّل!».

- «هل لديك علاقة ما بجامايكا؟».

- «لماذا؟».

يقول المدّعي العام: «أنا لا أتحرّى في شؤونك المهنية إطلاقاً، لا تسئ فهمي، سيادة المدير. أودّ فقط أن أعرف: هل تحدّثت مرّة عن جامايكا عندما كان السيد شتيلر يعمل على التمثال النصفي المذكور المصنوع من الجصّ؟».

- «ممكن...».

- «آه».

- «لديّ منزل في جامايكا».

- «آه».

- «لماذا؟».

أسمع ضوضاء تحريك المقاعد. ويقول المدّعي العام: «مرّة أخرى، جزيل الشكر، سيادة المدير. إننا نشعر براحة كبيرة لأنك لم تُقتَل».

- «أُقتَل؟!».

- «يدّعي السجين ويؤكّد أنه قتلك بيده منذ سنوات عديدة!».

- «قتلني أنا؟».

- «نعم، في جامايكا».

الآن يحين دور كنوبل، ويُعرَّف باعتباره حارساً في السجن، ويُطلب منه أن يحكي ما حُكي له. من الواضح أنه محرج. روايته لكيفية حدوث القتل سيّئة، ومشوّشة، ودون قدرة على التوضيح.

يضحك المدير: «في الأدغال! هل سمعت يا سيادة المدّعي العام؟ في الأدغال! لم أرَ في جامايكا أدغالاً قطّ، هذه تخاريف يا سيادة المدّعي العام، صدّقني!».

- «أصدّقك».

- «تخاريف!».

يبدو أن ثقة كنوبل في نفسه قد اهتزّت، ولا يجرؤ على تصوير كيف تختلط دماء المدير الواقف أمامه بمياه المستنقعات البنيّة، وكيف كانت النسور السوداء تنتظر الجيفة أنيقة الملبس، يسألونه بدقة عن كلّ هذه الأشياء؛ وبدلاً من أن يسرد، يسأل كنوبل: «هل أنت إذاً المدير شميتس؟».

يقول المدير: «أجبني عن سؤالي! بأيّ شيء يدّعي السجين أنه قتلني به؟».

- «بخنجر هندي أحمر».

- «آه».

يقول كنوبل: «نعم، غرزه في الرقبة من الأمام، ثم طعنة أخرى في الجانب الأيسر».

- «أهكذا؟».

يقول كنوبل وقد اهتزّت ثقته بنفسه مرّة أخرى: «أو في الجانب الأيمن، لم أعد أعرف بالضبط».

- «شكراً».

عندئذٍ يسمح لكنوبل بالانصراف.

«أنا آسف»، يقول كنوبل الذي سار في غرفة السكرتارية ممسكاً بالكاب في يده، وقد احمرّت أذناه بشدة. تجاهلني تماماً... لم أسمع رد فعل المدير على اغتياله، لأن كنوبل أغلق الباب كما يقتضي النظام. استمرّ حديثهما في الداخل عشر دقائق أخرى. أحاول قراءة الصحيفة التي تركها الحارس، أظن أنها جريدة الاشتراكية الديمقراطية، لكن في تلك اللحظة يظهر فجأة رجل يقف عند الباب. يقول: «كان من دواعي سعادتي يا سيادة المدّعي العام أن أوضح لكم الموضوع شخصيّاً. كما قلت، ليس المال هو ما يعنيني، آنذاك كنت مستعدّاً لدفع نصف المكافأة المتفق عليها، النصف كاملاً، لا ينقص فرنك واحد، لكنني لا أسمح لأحد بابتزازي، وإذا لم يكن السيد شتيلر راضياً بذلك، فليتفضّل ويذهب إلى المحكمة، لكنه لن يجرؤ على ذلك. أترى؟ ليس لديه مال من أجل القضايا! هذا ما يقولونه دائماً، هؤلاء المعتلّون نفسياً، وعندما قلت له إنني سأرفع قضية ضده، أطلق عليّ

مباشرة "رجل عصابات". معذرة، ولكنك أيضاً، يا سيادة المدّعي العام، لن تقبل ذلك».

السيد الذي ارتدى بعد ذلك معطفه في غرفة السكرتارية كان رجلاً ذا مظهر محترم، ولكنه لا يلفت الأنظار، مثل أي عابر في شارع المحطة. حول العنق كان يضع كوفية بسيطة من الحرير ذات لون واحد. غطى رأسه الأصلع بقبعة بسيطة أيضاً من الجوخ بلون واحد، لم يخلعها عندما رآني، بل مدّ يده إلى عنقه وكأنه يعدّل من وضع الكوفية. أومأت إليه محيّياً. لماذا فعلت ذلك؟ انصرف قائلاً: «سيرى كلّ منّا الآخر في المحكمة».

عندئذٍ كان عليّ الدخول إلى المدّعي العام. أقول له: «هناك نوع من المليونيرات لا يمكن أن تمسك عليهم شيئاً في دولة القانون، لا عجب إذاً أنهم ينهضون من عثراتهم مرّة بعد أخرى».

وسرعان ما تخرج الفتاة الأنيقة من الحجرة بعد أن كُلِّفت بأن توصل رسالة إلى فندق «أوربان». أفكّر على الفور: هل عادت يوليكا من باريس؟ في تلك الأثناء يرجوني المدّعي العام -الذي لم أرَه حتى الآن إلا ضيفاً على فراشي الخشبي- أن أجلس. ابتسم قائلاً: «نعم، يا عزيزي...».

يقاطعنا جرس التليفون. يستدير بسماعة تليفون المصلحة الحكومية إلى الجانب قليلاً، وكما يليق بمكالمات غير مهنية، واضعاً يداً على سلسلة مفاتيحه، وموجّهاً نظرته إلى النافذة، لم يقل غير أنه لن يأتي إلى الغداء، وبعد الظهر سيذهب مع أعضاء المحكمة لمعاينة مسرح إحدى الجرائم. على ما يبدو كان الطرف الآخر يلحّ عليه بسؤال لم يُرد الإجابة عليه في حضوري، لذا قطع المكالمة بصورة مفاجئة إلى حدٍّ ما، ثم التفت إليّ دون أن يزايله الحرج تماماً.

- «تحيّات من زيبيله».

- «شكراً، كيف حالها؟».

- «شكراً على سؤالك، هي سعيدة بعودتها إلى البيت».

وبعد أن تلاشت الابتسامة الأخيرة من على وجهه، وبعد أن طال الصمت الذي نمّ عن ارتباك صريح، صمت يوحي وكأن الأمر قد حسم الآن، إنه المفقود شتيلر، أي العشيق السابق لزوجته السعيدة الآن بعودتها إلى البيت. وبعد أن وضع سلسلة مفاتيحه في جيبه، قال جملة مستهلكة بعض الشيء: «الحياة غريبة فعلاً».

لا يخطر على بالي شيء أقوله.

- «إذا لم تكن معترضاً يا شتيلر، دعنا نتناول غداءنا معاً. لدينا وقت حتى الثانية».

ثم قال وهو ينهض: «أقترح أن نذهب بالسيارة إلى مطعم ريفي قريب!».

مكتبة
t.me/t_pdf

---

2. الغداء

رحلة صامتة إلى حدّ بعيد، عبر الحقول والغابات. الخريف موغل في كلّ مكان. الشمس ساطعة وتكفي، تقريباً، لكي يجلس الإنسان في الهواء الطلق، على الأقل في وقت الظهيرة. نجلس في طبيعة خضراء ساحرة، تطلّ على منظرٍ ممتدّ منعش، على مستوى الرأس أوراق العنب، وأمامنا كروم قليلة الأوراق، ومن بينها يرى المرء البحيرة تلمع تحت ضوء مراوغ، كلّ شيء وكأنه تحت غلالة من الدخان الأزرق، وكذلك الحقول بنّية اللون والغابات ذات الأوراق الخريفية مشتعلة الألوان. هنا وهناك ما زالت السلالم تستند إلى الأشجار، وفي الأسفل السلال. كما تحوم الزنابير على كأسي «الكمباري». الجبال التي تسمو فوق الضباب الخريفي

صافية وكأنها من زجاج، وكأنها طالعة من حُلم؛ بياض الثلج فوقها يلمع خلف الغصون الشبحية لأشجار الفاكهة العارية من الأوراق، وكأنه وعاء الأسرار المقدسة في الهيكل خلف القضبان السوداء.

أقول له: «المكان جميل هنا! جميل جدّاً».

- «لم تكن تعرفه؟».

تناولنا طعاماً رائعاً.

يسألني صديقي المدّعي العام: «ماذا نشرب؟ أعتقد أنهم يقدّمون هنا نبيذماينفلدر الأحمر الممتاز».

- «بكلّ سرور».

لا أستطيع التوقف عن تأمّل المنظر الطبيعي بين الحين والآخر، هذا المنحدر المبهج في طريقه إلى البحيرة، وتلك الرحابة الممتدة. يُخفي الضباب الخريفي تفاهة المنطقة السكنية القريبة التي هي ليست بالمدينة ولا بالقرية؛ وتبقى الهضاب وعليها الغابة، والمنخفض الوديع ذو الحقول والمستنقعات، هذه الطبيعة تشغل عقلي لأنها تحديداً لا تفاجئني في شيء. أعرفها. هل أحبها؟

يقول المدّعي العام: «سمعت أنك خيّبت أمل أصدقائك مؤخّراً. رأوا أنك قاسي القلب».

- «وربما أنا كذلك».

- «لماذا؟».

أهزّ كتفيّ. إن مشاعري تجاههم مثل مشاعري تجاه هذه الطبيعة، وهي طبيعة تستحق حقّاً كلّ الحب، مثل أيّ طبيعة أخرى تقريباً. لا بدّ أن السبب يرجع إليّ... ها قد رجع كلّ شيء من جديد، الزنابير في الزجاجة، الظلال في الحصى، السكون الذهبي قبل الكارثة، كلّ شيء وكأنه مسحور، نقنقة

الدجاج في المرج، ثمار الكمّثرى التي نضجت منذ فترة وأصبح لونها بُنّياً والملقاة على الطريق الزراعي، الزهور النجمية المتدلّية من فوق سياجٍ حديدي، وكأنها نجوم من نيران دموية زاحفة، الهواء المائل إلى الزرقة تحت الأشجار؛ وكأن كلّ شيء يودّع نفسه؛ الورق المتساقط من شجرة حور، النسيم المعدني فوق الفاكهة المتعفّنة، الدخان المتصاعد من الحقول حيث يحرقون المخلّفات الزراعية، وخلف سياج من الكرم تتلألأ البحيرة؛ الشمس التي تشقّ ضباب العصر حارقة، ثم رحلة الرجوع دون معطف، اليدان في جيبي السروال، ورق الشجر الرطب الذي لا يريد أن يصدر خشخشة، بيوت الفلّاحين وسط مزارعهم التي تضمّ معصرة عنب، البراميل التي تنزّ عصيراً في ضوء الغروب، المصابيح الحمراء وسط الضباب في الميناء القديم.

هذا هو الخريف هنا. إنني أرى الربيع أيضاً. أرى عاشقَيْن في عمر الشباب الغضّ؛ يسيران عبر الحقول، وتغوص أقدامهما في التربة المترعة بمياه الثلوج المنصهرة، تحت خطواتهما تمطّقت التربة اللينة والمظلمة، وكأنها إسفنجة مبلولة، هبّت الرياح الساخنة عليهما، وأشاعت الشمس الدفء، يسيران في الحقول وراء المصادفات المغرية، وبينهما دائماً مسافة وكأنهما رفيقان. تفوح من كلّ مكان رائحة الروث المنثور، يُسمَع خرير المياه من الينابيع، يمشّطون أعشاب المنحدر، الغابات العارية من الأوراق تشمخ إلى سماء مارس؛ ينفث بغلان بُنّيان البخار وهما يسحبان المحراث فوق التلال الوادعة، كتل سوداء تنفصل عن السطح، فتنفتح التربة للضوء. لقاء غريب بعد سنوات! يثرثران حول العمر، في سن الشباب، ومع ذلك يعرفان أن الزمن يعني فزعاً خفيفاً بالنسبة لكل عمر، باستثناء الطفولة، ومع ذلك فلكلّ مرحلة عمرية جمالها، إذا لم ننكر ما تجلبه، وإذا لم نغرق في الأحلام بشأن القادم، فالموت أيضاً، الذي سيكون يوماً من نصيبنا،

لا يمكن إنكاره، أو تأجيله، أو الهروب منه بالأحلام. ما أكثر ثرثرته، هذا الشاب - عن قطبي حياته، عن العمل والتفكير، مثلما يطلق عليهما؛ العمل بهجة، حمّى، إثارة، فالمرء لا يقدر على النوم من التهليل، صرخة تمتدّ لساعات وأيام، لأن المرء يودّ أن يهرب من أمام ذاته؛ هذا هو العمل، الكبرياء التي تربح البشر دون إرادتهم، التي لا تفرض شيئاً على أحد، ولا تلزم أحداً أو تطلب منه شيئاً، لا تحسب ولا تبخل، إشارات الملاك الذي ليس له يدان لكي يتناول شيئاً، هذه هي السعادة، العمل مع جنون العظمة اللطيف الذي يسيطر على القلب، حيث يكون كلّ شيء ثانوياً، أعني كلّ ما يخالط البشر، منحة، تبذير مرح من فيض المسرّات؛ في ما بعد يتضح في كلّ مرّة بالطبع أن ذلك كان أقصى ما هو ممكن بين البشر، لا سبيل إلى بلوغه، بمجرّد أن يغدو هدفاً، واحتياجاً، وضرورة ملحّة. في كلّ مرّة هذا الاندلاع المفاجئ للكآبة التي لا تصيب المرء لأنه يهرب بعيداً. بالعكس، إن الناس يهربون بسبب مجيء الكآبة، يتشمّمونها قبل مجيئها بأسابيع مثلما تتشمّم الكلاب مقدم الزلزال الذي يهدم كلّ ما بُني، ويهيل الرماد على كلّ شيء. الكآبة فوق كلّ شيء، مثل طيور سوداء ترفرف فوق أطلال البهجة التي يتصاعد منها الدخان، ظلال الخوف، هذه هي التوبة، صدى الشكوك، فظاعة الوحدة العقيمة. كم يحب الثرثرة، هذا الشاب، ورغم ذلك فهي تجد ثرثرته جميلة للغاية، المرأة الشابة!

تنصهر السحب الكثيفة ذات الحواف الفضية أمام الشمس، والغابات الصغيرة تبدو مثل جزر تنهض من وهجٍ معدنيّ، يتجوّلان وسط أعواد الغاب، وفي لحظة ما، خلال القفز فوق مجرى مائي صغير ذي خرير، ينغرز حذاؤها فجأة في الطين العنيد؛ تسير الشابة بجوربها فحسب، متراقصة وكأنها فوق حبل، فيمدّ الشاب يده ليسندها. يتبادلان القبل لأول مرة. خلف الغابات بحيرات باردة، وبقايا ثلوج وسط المراعي التي يميل

لونها إلى الأحمر. يظلّان واقفين في نهاية الغابة، ذراعاً في ذراع؛ ها هي ذي البحيرة تتراءى مثل مِحشّ لامع، وفوق جبال الألب تتصادم السحب الكثيفة دون صوت، ولكن مع زبد ساطع. يستريحان في مطعمٍ فلّاحي ما. تقوم على خدمتهما طفلة بضفائر. خلف صفٍّ من النوافذ المنخفضة المليئة بالبراعم والنباتات الملتفة والشمس التي تسقط بميل في الحجرة الخشبية؛ تلمع الأطباق المنتظرة، ويشعران عندئذٍ بالمسافة الكبيرة التي قطعاها في تجوالهما، ويستمتعان بالوجبة الخفيفة، لحم الخنزير المقدّد مع خبز، خبز فلّاحي يتفتت إلى قطع طرية لذيذة. حول الشرائح تطنّ ذبابة، تحيط بهما وتحملهما سُحب من السعادة، القريبة من الأسى، غرابة الوجود، واليقظة، المُشترك المفاجئ، المتربّص بهما كالقدر في هذا المطعم الفلّاحي في يوم من أيام وسط الأسبوع، اليقين بأن المرء التقى من قبل. لم يُثَر أيّ سؤال بعد عما سيثمر ذلك؛ لا يسود سوى الشعور الكامل بكلّ الإمكانيات التي تعد بها الحياة!

هذا هو الربيع هنا، وفي الصيف تُسمع نقنقة الدجاج تحت الموائد الخشبية، ويصل ورق الكروم الأخضر والكثيف إلى الرؤوس، السماء تميل إلى اللون الأبيض، والبحيرة كالرصاص الشاحب، في حافة الغابة يطنّ النحل، وفوق أعواد الحشائش الساكنة في المروج العالية ترتعش الزرقة المليئة بالفراشات المرفرفة، تتلاشى الجبال في وهج الشمس، والآن (بمجرّد أن أفرغت كأسي) حلَّ الخريف مرّة أخرى؛ ومن جديد يعود كلّ هذا: سلال مليئة بأوراق الشجر، ندى الضباب والظهيرة التي تحلّ فجأة، ظهيرة مثل الآن، ذهب في الهواء، ويمرّ الوقت فوق التلال مثل إشارة غير مرئية؛ التفاح يسقط ويرتطم بالأرض. إذا سار المرء الآن في الغابات، فسيشمّ رائحة الفطر. أما هنا فتفوح رائحة عصير الفاكهة المتخمّر. تحوم الزنابير حول العصير الحلو المتخمّر، لا تنقطع الزنابير عن الطيران،

وفي الفاكهة المتلهّفة على النضج نجد مرّة أخرى الصيف المشمس، حلاوة أيام نتذكّرها، المرء يجلس في الحدائق، بشرتنا تشعر ببرودة الظل، والحدائق تتسع مثل دهشة هائلة، خاوية، ولكن بهيجة، رحابة مائلة إلى الزرقة تملأ هامات الشجر العارية، ومرة أخرى يستعر الذبول على جدران المنازل، ويتسلّق الورقة الأخيرة المشتعلة بوهج النيران الفانية. من يلاحظ أن السنوات تمرّ، وأن أشياء تحدث؟! الكلّ في واحد، الغرف تفيض بالوجود، ولا شيء يعود إلينا، كلّ شيء يتكرّر، وجودنا يعلو فوقنا مثل لحظة، وذات مرّة لا يعود المرء يحصي فصول الخريف؛ كلّ ما فات، يحيا مثل السكون فوق التلال الآخذة في النضج، ومن كرمة حياة المرء تتدلّى عناقيد الوداع. واصل سيرك! مرّة أخرى تجتذبنا البحيرة في هذه الأيام؛ المرء يشعر ببشرته عندما يسبح الآن، دفء دمائه، يسبح المرء كما في زجاجة، يسبح فوق أعماق البرودة الظليلة، وعلى الشاطئ تتكسّر الأمواج المتلألئة؛ وفي الخارج يحلّق شراع من سحب فضية، فراشة على وشي من نور مغزول، مناشف مفعمة بالشمس اللطيفة على الضفاف الضائعة من النسيم. للحظة يبدو وكأن الزمن يقف، منتشياً من السعادة؛ الرب يتأمل ذاته، وكل العالم يحبس أنفاسه قبل أن يتفتّت في رماد الغروب.

ذات مرّة قال المدّعي العام: «هناك، في الأسفل، تقع هرليبرغ، أنت تعرف ذلك، وفوقها نرى تالفيل».

ترفع الآنسة الفلّاحة أطباقنا، وتسألنا ما إذا كان الطعام قد أعجبنا. وبعد أن أحضرت صندوق السيجار الصغير، تركتنا بمفردنا مرّة أخرى. بالطبع شعرت منذ فترة أن المدّعي العام، صديقي، يريد أن يفاتحني في شيء. هل منعته من أن يبدأ في ذلك؟ حان الوقت بالتأكيد بعد أن أشعلنا السيجار. الكؤوس فارغة، القهوة السوداء لم تحضر بعد، والزنابير اختفت، ومن مكان ما تصاعدت دقّات ساعة من كنيسة ريفية صغيرة.

قال لي: «أنا سعيد سعادة صادقة أننا تعارفنا أخيراً. ولكنني لا أريد أن أتحدّث عن ذلك الآن إطلاقاً! في الساعة الثانية يجب أن نكون في المدينة، وذلك لمعاينة أحد الأماكن المتصلة بالقضية. لا تفزع، موعد المعاينة في الأتيليه».

وعلى الفور أضاف: «أفهم تماماً أنك ستنظر إليّ الآن باعتباري مُلاحقاً غادراً، منافقاً، يتحدّث بكلام معسول وفي الوقت نفسه يمسك بقميص المجانين، أتفهّم خوفك كلّه من هذا الأتيليه المغبرّ بالأسفل، وعموماً أفهمك، عزيزي شتيلر، ربما أفضل مما تعتقد».

سؤالي عن الهدف من هذه المعاينة يبقى بلا إجابة. واصل قائلاً: «إذا سمحت لي، أريد أن أعطيك نصيحة».

انطفأ سيجاره. وبعد أن أشعل السيجار للمرة الثانية استكمل كلامه أخيراً: «انظر، إنني لا أتحدّث معك فقط لأن زيبيله طلبت مني ذلك. تودّ زيبيله أن تجنّبك كلّ ما هو غير ضروري، وأعتقد أنها محقّة: لن تفهمك المحكمة أبداً يا شتيلر. ستعاملك المحكمة ببساطة على أنك محتال أُلقي القبض عليه متلبّساً بالاحتيال، ستعاملك على أنك شخصية مثيرة للاستهزاء، المحكمة معتادة على قضايا الاحتيال، يمكنك أن تتخيّل هذا، ولكن فقط على الاحتيال الذي يأتي معه بربح، بثروة أو بلقب أو شيء مشابه، باختصار، سيحكمون عليك بغرامة، لا أعرف، أو سيعفونك من دفع الغرامة، لكنك لن تُعفى من هزّة الأكتاف وهزّة الرأس والاحتقار المفعم بالشفقة. ماذا ستربح من وراء ذلك؟».

- «وما نصيحتك؟».

ابتسم قائلاً: «شتيلر، أتحدّث كصديق: عليك أن تجنّبنا أن نحكم عليك علناً يوم الجمعة المقبل بأنك أنت نفسك، وأولاً وأخيراً عليك أن تجنّب

نفسك ذلك. إن حكم المحكمة سيصعّب عليك فحسب أن تحمل في ما بعد اسم المفقود. وليس علينا أن نتحدّث بجدية عن أنك لست سوى المفقود. اعترف بإرادتك! هذه هي نصيحتي يا شتيلر، وأعتقد أنها نصيحة بدافع الصداقة المخلصة».

بعد ذلك، القهوة السوداء.

قال المدّعي العام: «يا آنسة، الحساب من فضلك!».

- «كلّه؟».

- «نعم، من فضلك».

بعد ذلك، ردّي: «لا أستطيع أن أعترف بما هو ليس حقيقياً».

الآنسة الفلّاحة، التي أساءت على ما يبدو فهم صمتنا، لم تنصرف على الفور، بل ظلّت واقفة على الحصى حولنا، وراحت تثرثر عن الجو، ثم عن الكلب، في حين أخذنا نحن نحتسي قهوتنا الساخنة جدّاً دون كلام كثير؛ ولم تتركنا الآنسة الفلّاحة في هدوء إلا عندما طلب المدّعي العام الحساب مرّة أخرى.

كرّر المدّعي العام كلامي: «لا تستطيع أن تعترف بما هو ليس صحيحاً».

- «لا».

- «ولماذا هو ليس صحيحاً؟».

- «حضرة المدّعي العام...».

قاطعني المدّعي العام، وقد كنت أتحدّث متردّداً، وقليل الكلام على كلّ حال: «لا تناديني بالمدّعي العام! سأكون سعيداً إذا اعتبرتني صديقاً. ناديني رولف!».

- «شكراً».

ابتسم قائلاً: «أفترض أنك في تلك الفترة لم تناديني باسم آخر...».

الآن كان سيجاري قد انطفأ.

بعد أن أشعلت سيجاري للمرة الثانية قلتُ: «أنا سعيد أنك تهديني صداقتك. ليس لديّ أصدقاء هنا. ولكن إنْ كنتَ جادّاً في عدم رغبتك أن تكون المدّعي العام، وأنا أصدّقك من كلّ قلبي.. يا رولف.. ولكن عندئذٍ، انظر، سأنتظر منك ما ينتظره المرء من صديق: أن تصدّق ما لا أقدر على شرحه، فضلاً عن إثباته. هذا هو المهم. إذا كنت صديقي، فعليك أن تتحمّل ملاكي الحارس».

- «ماذا تعني بذلك؟».

- «عليك أن تصدّق أنني لست الشخص الذي تعتبرون أنني هو، والذي تعتبرني أنت كمدّعٍ عام إيّاه... لستُ شتيلر».

لم أقل ذلك للمرة الأولى، ولكن لأول مرّة أقول ذلك على أمل أن يسمعني أحد: «لستُ هذا الشخص، أحدّثك بجدية تامة، ولا أستطيع أن أعترف اعترافاً منعني ملاكي من تقديمه».

كان عليّ ألّا أقول ذلك. سألني: «ملاك... ماذا تعني بذلك؟».

أصمتُ. ثم يأتي الحساب، ويدفع المدّعي العام، ولأن نادلتنا، الآنسة الفلّاحة، لا تريد أن تنصرف، نفعل نحن ذلك. يصدر صرير عن خطواتنا على الحصى. في السيارة المفتوحة، وقبل أن يشغّلها المدّعي العام، نلقي مرّة أخرى نظرة على المنطقة في شمس الظهيرة، على الحقول البنية والغربان المرفرفة، على الكروم والغابات، وعلى البحيرة الخريفية. أعرف أن صديقي المدّعي العام ما زال ينتظر الإجابة. عندما شغّل المحرك، قلتُ: «لا أستطيع الكلام عن ذلك».

- «أتقصد: عن الملاك؟».

- «نعم، بمجرّد أن أحاول أن أصوّره، يهجرني، عندئذٍ لا أعود أنا

نفسي أراه. الأمر غريب جدّاً؛ كلما تصوّرته على نحو أدقّ، وكلّما اقتربت من تصويره، قلّ إيماني به وبكلّ ما عايشته».

نسير بالسيارة بمحاذاة البحيرة في اتجاه المدينة.

---

3. العصر

نحو الثانية والربع، أي متأخرين لأننا لم نعثر إلا بصعوبة على مكان للسيارة في المدينة القديمة، نصل إلى أمام «المنزل» الذي لا يختلف عن المنازل الأخرى في هذه الحارة إلا بوقوف كنوبل أمامه، حارسي المرتدي زيّاً مدنيّاً. نحن أول من وصل. يوجّه كنوبل كلامه إلى المدّعي العام فحسب: «معي المفاتيح!». في مدخل المنزل المظلم وسيّئ التهوية بعض الشيء نرى درّاجات، وعربة أطفال تكاد تكون أثرية، ودلواً للقمامة. لا يحمل كنوبل المفاتيح في جيب سترته، بل يتناولها من صندوق بريد من الصفيح، كان يوماً ما أصفر وأصبح الآن صدئاً إلى حدٍّ كبير، وعليه مكتوب: أ. شتيلر. لا بيانات عن المهنة. من الساحة الخلفية يتصاعد ضجيج وكأنه من ورشة سباكة، وربما أيضاً من ورشة حدادة؛ أرى بلاطاً دائرياً تنمو بينه الطحالب، وفروع شجرة القيقب العارية منذ فترة طويلة، من المرجّح أن هذه الشجرة لا ترى الشمس إلا في ظهيرة أيام الصيف، كما أرى نافورة صغيرة بلا ماء، الطحالب هنا أيضاً تعلو الحجر الرملي، كلّ شيء لا يخلو من جمال. كما أرى أيضاً: حزماً من المواسير الحديدية، قصيرة وطويلة، إحدى هذه الحزم ما زال يحمل الراية الصغيرة الحمراء التي تعلّق عليها خلال النقل بالشاحنات. يقول رولف، صديقي، الذي يبدو أنه يقف في هذا المنزل لأول مرة: «فلنصعد إذاً إلى أعلى!».

ولأنني من جانبي لا أُظهر أي استعداد لتولّي القيادة، يشير كنوبل

إلى الدرج الوحيد الموجود، بدرجاته المتآكلة والمصنوعة من خشب الجوز العتيق، دَرَج فخم، عريض وذو ميل خفيف للغاية، الدرابزين ذو نقوش لولبية كالديدان. في الطابق الرابع، حيث تفوح رائحة الكرنب المخلل، ينتهي هذا الدرج، يشرح كنوبل للسيد المدّعي العام أننا لم نصل بعد، ويفتح باب غرفة صغيرة ويطلب منا الصعود على درج من خشب الصنوبر، درج ضيق ومائل للغاية بشكل فجائي. يحيطان بي دائماً لكي أكون في المنتصف بينهما، سواء كان ذلك مصادفة أو عمداً. غريبة هذه الجدية المقتضبة في الكلام، لا سيما من جانب كنوبل الذي يقاطعني منذ ضحى اليوم، ولكن أيضاً صديقي المدّعي العام صامت وكأنه يقترب من مكان تغطيه الدماء وفيه عدد غير محدّد من الجثث.

عندما وصلنا إلى أعلى قال ملتفتاً إليّ ثم إلى كنوبل: «نعم، آمل أن يأتي السادة الآخرون قريباً أيضاً!...».

ثمة أبواب ثلاثة، الأول عليه قفل، والثاني مزوّد بعلامة مازحة تشير إلى المرحاض، وأخيراً الثالث الذي يقود إلى أتيليه المفقود. يفتح كنوبل الباب، وكموظف أثناء تأدية خدمته الرسمية يسير أمامنا. يقول المدّعي العام لي: «أنت أولاً!»، حتى لا أثير الانطباع بأنني أعرف المكان جيداً، أقبل على الفور هذه الدعوة المهذبة، وأشعر أيضاً أن رولف، صديقي، يشعر بالحرج في هذه اللحظة أكثر مني بكثير، كما أنه أكثر عصبية من أي وقت رأيته فيه. بمجرّد دخوله إلى الأتيليه سألني: «أين يمكن تعليق المعطف؟».

يشير كنوبل إلى مسمار على الباب الأزرق.

«نعم» -يقول المدّعي العام وهو يفرك يديه- «وافتح الشباك يا كنوبل، الهواء هنا فظيع».

أشعر بالرثاء لصديقي، فهذا الأتيليه، أعرف ذلك جيداً، كانت له في حياته ذات يوم أهمية معيّنة، أهمية تفوق أهميته الحقيقية، وهو اليوم يعرف ذلك تماماً؛ ولكن هذه هي تحديداً الدناءة الكامنة في مثل هذه المعاينات لمسرح الجريمة، أن الذكريات التي تجاوزها المرء منذ فترة طويلة تُستدعى مرّة أخرى عبر الوعي الفجائي بها، وبذلك ينهار الشخص المعني. لحسن الحظ لا تتاح لي فرصة قول شيء لطيف للمدعي العام، ففي تلك اللحظة تحديداً يرنّ الجرس، وهو ما يبهج كلَينا. يبحث كنوبل عن الزرّ الذي يفتح باب المنزل في الأسفل، ويعثر عليه. حتى الآن لا أعرف من سيجيء إلى هذه المعاينة الحمقاء، من المرجّح أن يأتي محاميّ، أقول لنفسي، وربما يوليكا أيضاً. بالمناسبة لا أخلع معطفي، فلا شيء هنا يهمني. على ما يبدو لم يضغط الرجل الطيب كنوبل على الزرّ جيّداً، فالجرس يرنّ من جديد.

المدّعي العام: «لماذا لا تضغط على الزر؟».

- «ها أنا أضغط، وأضغط».

في تلك الأثناء أجول ببصري في المكان، يداي في جيبي السروال تحت المعطف المفتوح، الطاقية على الرأس، فالمكان هنا ليس شقة يسكن فيها إنسان. أشياء فنية كثيرة في المكان. بغضّ النظر عن طبقة الغبار السميكة على حافة كلّ نافذة، وكل سكين من سكاكين التلوين، وكل حامل رسم، وكل قاعدة تمثال، وكل قطع الأثاث، غبار كثيف لدرجة أن المرء لا يريد لهذا السبب أن يلمس شيئاً، إنه أتيليه مثلما تصوّرته حسب وصف السيدة زيبيله، كثير الألوان، ورشة يمكن السكن فيها، مزيج من البروليتارية والرومانسية، ماسورة المدفأة تمرّ عبر الغرفة كلّها، وتُظهر بوضوح لا يمكن أن تخطئه العين أن العرف والتقاليد لا وجود لها هنا، مع أن هذه الماسورة تحديداً، الموجودة في كلّ أتيليه باريسي تقريباً، لازمة

تقليدية من لوازم نوع معيّن من البوهيمية. فليكن! غير ذلك ألاحظ أن الغرفة كبيرة، وبالتالي مبهجة، أرضية مغطاة بألواح خشب الصنوبر التي تصدر صريراً خافتاً عندما نسير فوقها، وفي يوم خريفي مشمس مثل اليوم تفيض الغرفة ضوءاً. تحت السقف المائل -تماماً كما قالت السيدة زيبيله- ثمة موقد قديم يعمل بالغاز مكسو بطبقة من الميناء ومليء بالندبات، وكذلك حوض من كسر الرخام، وخزانة مائلة فيها بعض أدوات المطبخ، وفي الصف الأعلى -على ما يبدو قُصِدَ به أن يكون معرضاً يثير المرح- أدوات مطبخ مسروقة عليها كتابات مختلفة: فندق الألب، بوديغا غرانادا، كرونن هاله زيورخ، إلى آخره. الخرطوم المثبّت على الصنبور، والذي كان يوماً ما أحمر اللون، تحوّل إلى مومياء مطاطية رمادية يعلوها الفطر، وما زال مثبتاً بحبل؛ القطرات تنزل منه، أتساءل ما إذا كانت القطرات تنزل منه منذ ست سنوات، فكرة عابرة أربكتني على نحو من الأنحاء، وذكّرتني بالقطرات في مغارة كارلسباد في المكسيك. في مسمار عُلّقت منشفة، مبقّعة ببقع سوداء عفنة وكأنها مصابة بالبرص، ولا يخلو المكان طبعاً من عناكب أيضاً، على التليفون مثلاً الموضوع بجانب الكنبة، الأرجح أنه لم يعد يرنّ، لقد خرس تحت ثقل الفواتير غير المدفوعة. الكنبة عريضة، تسع شخصين يتمدّدان فوقها، هي أيضاً مغبرة ولذلك لم يجلس عليها أحد، وهذا ما يمنح هذه القطعة من الأثاث أهمية بارزة، وكأنها معروضة في متحف ومكتوب عليها: «ممنوع اللمس من فضلكم!»، مثل سرير الملك فيليب في متحف الإسكوريال.

أرى أن المدّعي العام أيضاً قد وضع يديه في جيبي سرواله حتى لا يلمس شيئاً. راح يتأمل أرفف الكتب القليلة. ليس بمقدور المرء أن يطلق عليها مكتبة، هذه الكتب التي تركها المفقود، إلى جانب مجلدات أفلاطون الصغيرة وبعض أعمال هيغل، ثمة أسماء لن يعرفها اليوم أي تاجر أنتيكات،

برشت يقف بجانب هامسون، ثم غوركي، ونيتشه، وعدد كبير من كتيبات دار «ريكلام»، ومن بينها كتيبات تتضمن نصوصاً أوبرالية، هناك أيضاً أعمال لغراف فون كايزلينغ، ولكن عليها الختمَ الأسود لمكتبة عامة، ثم كتب فنية مختلفة، لا سيما كتب حديثة، وأنطولوجيا الشعر السويسري، «كفاحي» يقف بجانب أندريه جيد، وفي الناحية الأخرى -مسنودة بكتاب أبيض عن الحرب الإسبانية الأهلية- مجلدات عديدة من دار «إنزل»، لكنها لا تتضمن مجموعة أعمال كاملة، بل أعمالاً متفرقة، مثل «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»، و«فاوست»، وأحاديث غوته مع إكرمان، «دون كيخوته دي لا مانشا»، «الجبل السحري» كعمل وحيد لتوماس مان، «الإلياذة»، «الكوميديا الإلهية»، إريش كستنر، رحلة موتسارت إلى براغ، وأيضا قصائد لموريكه، تيل أويلينشبيغل، ثم مارسيل بروست مرّة أخرى، ولكن «البحث» ليس كاملاً، آخر أيام هوتن، ومن بين أعمال غوتفريد كيلر اليوميات والرسائل فحسب، كتاب لكارل غوستاف يونغ، «العنكبوت الأسود»، وبعض أعمال أرب، وعلى نحو فجائي «لعبة الحلم» لستريندبرغ، وبعض أعمال هيسه المبكرة أيضاً، تشيخوف، بيرانديلو، كلها بالترجمة الألمانية، ومن أعمال لورنس «النوڤيلا الصغيرة من المكسيك»: المرأة التي انطلقت بحصانها بعيداً؛ وأعمال كثيرة جدّاً لسويسري يُدعى ألبين تسولينغر، ولدوستويفسكي عمل واحد فقط هو «ذكريات من منزل الأموات»، القصائد الأولى لغارثيا لوركا بالإسبانية، مقطوعات نثرية صغيرة لبول كلوديل، و«رأس المال»، والكتاب الأخير كان مسنوداً بأشعار هولدرلين، عدّة روايات بوليسية، ليشتنبرغ، طاغور، رينغلناتس، شوبنهاور، هو أيضاً بختم أسود لمكتبة عامة، هيمنغواي (كتاب مصارعة الثيران) إلى جانب تراكل، ثم مجموعة من المجلّات المهترئة، قاموس إسباني-ألماني لم يعد يعاد طبعه منذ مدة طويلة، المانيفستو الشيوعي،

كتاب عن غاندي، إلى آخره! من الصعوبة، على كلّ حال، أن نستنتج من وراء ذلك الحالة الذهنية للمفقود، لا سيما أن لا أحد يعلم ما قرأه من هذه الكتب، أو ما لم يفهمه، أو أساء فهمه على نحو مثمر بالنسبة إليه، بدت على وجه المدّعي العام وصديقي ملامح رجل لا يستطيع أن يجد ما يفيده؛ لوهلة أفكّر وهو -رغم الغبار- يسحب مجلّداً رقيقاً ذا كعبٍ من الجلد الأرجواني: ربما يبحث هنا عن مجلدات من مكتبته الخاصة. يعيد المجلّد الرقيق إلى الرفّ، ثم يقلّب في «أنّا كارنينا»...

غير ذلك، ثمة في هذا الأتيليه طاولة عريضة وطويلة مصنوعة من ألواح خشبية عادية، كأنها في ورشة، موضوعة على حاملين عليهما اسم شائع لأحد صنّاع ديكورات الجبس، وملطّخة بالجبس أيضاً. ثمة روح طيبة على ما يبدو رتّبت المكان، كلّ المنافض قد فرغت، وكذلك سلال القمامة في ركن المطبخ تحت السقف المائل. وعلى الحائط -وكما وصفت السيدة زيبيله- حربتان ملوّنتان باهتتان من إسبانيا، وقناع إفريقي أصالته مشكوك فيها جدّاً، وصور عديدة باهتة إلى درجة عدم التعرّف على ملامحها، جزء جميل من بلطة سلتية، وملصق تولوز لوتريك، هو أيضاً باهت تماماً. يتساءل المدّعي العام: «أين هم طوال هذه المدة؟».

ردّ كنوبل: «لا أعرف. لقد ضغطت على الزرّ».

لا أتدخّل مطلقاً في موعد المعاينة هذا الذي يبدو أنه لن يكون موعداً ناجحاً؛ أنا هنا كسجين، أنظر من النافذة إلى الخارج خلال مشاوراتهما المهمومة.

- «ألا يجدون الطريق؟».

يقول كنوبل: «كيف؟ السيدة تعرف المكان، فهي التي أرتني كلّ شيء».

الآن أعرف إذاً من سيجيء. أضع سيجارة في فمي، ولا أستطيع أن

أصدّق أن يوليكا -إذا كانت تحبّني- مستعدّة لتمثيل هذه الملهاة معهم. أنا متشوّق لما سيحدث، بالتأكيد، لكني متفائل، بل في الحقيقة واثق من النصر؛ في النهاية يتوقف كلّ شيء على يوليكا، على يوليكا فحسب. في ما يتعلّق بي في هذه المعاينة، فليس هناك في الواقع مكان سأشعر فيه بالغربة أكثر من هنا. عدّة أعمال من الصلصال -التي تركها المفقود شتيلر آنذاك- ملفوفة في قماش كيس حتى لا يجفّ الصلصال؛ ولكن لأن القماش هذا لم يُبتلّ منذ سنوات، فمن المتوقع أن تكون هذه الأشياء قد جفت تماماً، ولا يجمعها سوى هذه القماشة البنّية. لا ألمسها بالطبع. لإتمام هذه المعاينة لا يحتاج المرء سوى إلى فرد قطعة القماش، وسيتفتّت كلّ شيء ويتحوّل إلى تراب مثل مومياء. لا يستطيع صديقي المدّعي العام أيضاً أن يقاوم هذا الانطباع، ويرى هو أيضاً هذه التماثيل تُذكّره بالمومياوات التي يعرضونها، لسبب وجيه، خلف الزجاج في متاحف تاريخ الشعوب. يتأمل على وجه الخصوص الرأس المصنوع من الجصّ للمدير الذي رآه على الطبيعة ضحى اليوم، لكنه لا يصدر حكماً عليه. بعض التماثيل مصنوعة من البرونز، وفي رأيي فإنها لا تتناسب مطلقاً مع هذه الأشياء؛ البرونز -وهو على كلّ حال معدن لا يبلى سريعاً- يسلب التماثيل هذا الوهم اللطيف بأنها مجرّد تخطيط لعمل، وهو ربما ما ينقذ عملاً آخر عبر سحر التوقعات، ما يبقى بالبرونز لا يكفي لكي يقدّم شهادة عن رجل ناضج. لا عجب إذاً أنْ رحل شتيلر (فهو لا بدّ أنه أدرك ذلك يوماً ما)! نظرة واحدة في هذا الأتيليه المترب توضح: كمّ العمل، بل وقدر الجَلَد، قدر الجهد والعرق المبذول هنا، ورغم ذلك فلا يشعر المرء بأدنى احتياج للانحناء أمام المُنجَز. إنها أشياء كئيبة، لا أكثر.

شعرت بالسعادة عندما رنّ الجرس مرّة أخرى. قال المدّعي العام مستاءً إن على كنوبل أن ينزل كي يُدخل السادة ويقودهم إلى أعلى، فمن

الواضح أنهم لا يستطيعون فتح الباب، ولكن بسرعة. يسير حارسي إلى الباب شاعراً عن حقّ بالإهانة، فقد ضغط على الزر بكلّ قواه، وهناك يرى البائع المتجوّل العجوز الذي كان في تلك الأثناء قد عرض بضاعته على الطوابق الأخرى، والآن يقف أخيراً أمام الأتيليه، واضعاً حقيبة صغيرة مفتوحة على ذراعه المرتعش. لم نتوقع جميعاً بالطبع وصول البائع، وهو أيضاً لم يتوقعنا. لا! قال كنوبل مستاءً، مثلما عومل هو باستياء: لا شيء! بالطبع لا يدري البائع المتجوّل أننا لسنا سكّان هذه الغرفة، وأن الحياة توقفت هنا عموماً منذ ست سنوات، ولذا يصرّ على حقّه في عرض البضاعة على الأقل، أشياء مفيدة جدّاً، وهو ما لا يجرؤ كنوبل على إنكاره. ونظراً لوقوف ثلاثة من السادة أمامه يوصي على وجه الخصوص بأمواس الحلاقة وصابون الحلاقة، وبشيء لإيقاف نزيف الدم، إلى آخره. يريد كنوبل اختصار الأمر حتى لا يبدي السيد المدّعي العام استياءه مرّة أخرى؛ من ناحية أخرى لا يستطيع البائع المتجوّل أن يفهم أننا هنا نستطيع أن نعيش من دون فرشاة أسنان، ثلاثة رجال بلا فرشاة أسنان واحدة، بلا صائدة ذباب، أو ورق تواليت، وبلا ورنيش أحذية، أيْ من دون كلّ شيء، وخصوصاً بلا أمواس حلاقة. لا يستطيع كنوبل التخلّص من العجوز القصير. وكأنه مع الوقت قد أخذ يشكّك في رجولتنا، لذلك جمع كلّ ما عرضه، لكي يحاول مرّة أخرى بفرشاة تنظيف المقلاة، وبأدوات الخياطة، وبرباط مطاطي للجوارب، وبزيت فخم مستخرج من إبر أشجار التنوب، بل حاول في النهاية أن يعرض علينا ربطات للشعر، وهي بضاعة كثيراً ما تُفقد، وكثيراً ما يحتاج إليها المرء. لا يقول كنوبل سوى: كفى الآن، كفى الآن! ولكن دون أيّ بادرة نجاح. وفي النهاية يتدخّل المدّعي العام، ويشتري بلهجة فوقية أيّ شيء، أمواس حلاقة على سبيل المثال، ونصبح من جديد وحدنا، ولكن دون حضور السادة الآخرين الذين سيعاينون

المكان، الذين -إذاً- لم يرنّوا حتى جرس الباب بعد (دقّت الساعة الثالثة إلا الربع).

«في الثالثة والنصف لديّ جلسة»، يقول رولف، ثم يضيف بلا ترابط ظاهر: «الأتيليه هنا جميل، أليس كذلك؟».

أهزّ رأسي موافقاً بشدّة.

- «وإضاءة جيدة جدّاً».

عندئذٍ يدّعي كنوبل الأهمية بعض الشيء، حتى لا يقف هكذا دون فائدة مثلما فعل أمام البائع المتجوّل، ويستعرض معلوماته بخصوص المكان، ويقول موجّهاً كلامه ليس لي بل إلى المدّعي العام: «من هنا يمكن الصعود إلى الشرفة على السطح».

ولأننا لا نجد ما يدفعنا إلى السير حتى الشرفة، يقول: «وهنا رسائل، يا سيادة المدّعي العام، رسائل من يوم السبت الماضي...».

- «رسائل؟».

يقول كنوبل وهو يقرأ: «مطبوعات. شركة التأمين على المسنّين وذويهم، ومن هنا عرف السيد الدكتور بونينبلوست القائمة كلها بالمبالغ التي لم تسدّد. وهذه الرسالة إلى السيد شتيلر شخصيّاً...».

ولأنني لا أفكّر في قراءة رسائل مفقودهم شتيلر، لذا يسمح صديق المدّعي العام لنفسه بفتح المظروف. حسب ملامح وجهه يبدو أنها رسالة لا أهمية لها. لأسباب تتعلّق بالنظام فحسب لا يلقي الرسالة في سلّة المهملات. يقول باختصار: «شخص متعصّب للوطن يشتمك. يلومك بشدة لأنك لا تنتهز فرصة كونك سويسرياً وتقبل ذلك على أنه نوع من الرحمة - أي بلا شروط».

في ما بعد، ولأن الأشخاص المتوقّع وصولهم لم يرنّوا الجرس بعد،

نخرج إلى الشرفة على السطح، وهي أيضاً تبدو، بالمقارنة مع ذكريات زوجة المدّعي العام، من دون تغيير. تتناثر قطع صغيرة من قوالب طوب حطّمها يوماً هطول البَرَد، من الواضح أنها لا تزعج أحداً. الحشائش التي نمت على طبقة الزلط هي على الأرجح أعلى مما كانت يوماً ما؛ بعض الأعواد الخريفية الصفراء تتأرجح مع الريح. يبدو صديقي المدّعي العام أيضاً أنه لم يتوقع شيئاً مختلفاً، راح يتفرّج على الهيكل الهشّ للفوتيه ذي المسند الذي ما زال ملقى في الركن بعد أن فقد كسوته. نقف صامتين تقريباً، رولف وأنا، بينما كان أشخاص ينفضون مرتبة على الشرفة المقابلة. أعي تماماً كيف أن رولف، صديقي الجديد، يتمعّن في كلّ هذه الأشياء الثانوية، والمنظر الجميل عبر الجملون والنوافذ البارزة من السقف المائل، ومداخن التدفئة، والجدران الحامية من الحريق، ومن تحت القوس يطلّ هذا المنظر حتى على البحيرة التي كانت تبرق في هذا الجوّ الخريفي الغريب عندما تمرّ باخرة صغيرة تاركةً وراءها أمواجاً، منظر يشرح القلب حقّاً، وأفكّر في أن هذا المنظر يصعّب عليّ أن أثير انتباهه. يدخّن بسرعة كبيرة. لماذا كان علينا أن نجيء إلى هنا حيث توجد بعض الأشياء التي تثير مشاعره، كلها أشياء ثانوية، لم يقصدها أحد ربما، لكنها رغم ذلك تكتسب بالنسبة إليه، كزوج لزيبيله، أهمية مزعجة، سواء كانت هذه المرتبة التي تُنفض أمام عيوننا، أو أربطة الجوارب المطاطية التي عرضها علينا البائع المتجوّل، الزيت الفخم المستخرج من إبر أشجار التنوب للحمّام، أو ربطات للشعر التي تُفقد كثيراً، ولذا يحتاج المرء إليها كثيراً؛ لماذا، هكذا أتساءل، يشاهد هذا المكان الذي تجاوزه داخلياً مع زوجته منذ وقت طويل؟ ألمح ذلك على شفتيه؛ الأمر يكلّفه فوق ما كان يعتقد، وبلا لزوم. لا أعرف في أيّ شيء كان يفكّر في الدقيقتين أو الثلاث دقائق التي دخّن فيها سيجارته حتى المبسم؛ ولكن من المؤكّد تماماً أن الأمر سخيف، هناك بالقطع اختبارات

خاطئة، مثل هذا الاختبار؛ الهيكل الهشّ لفوتيه، ربما لم تجلس زوجته عليه قطّ، لأن الكسوة القماشية لم تكن موجودة منذ سبع سنوات، هذا الهيكل يكفي فجأة لوضع سنوات من حبها المشهود مرّة أخرى موضع تساؤل، وللبرهنة، على ما يبدو، في دقيقة على أن المرء لم يحرز، على ما يبدو، أي تقدّم طوال ست سنواتٍ أو سبع، ولإثارة تخيّلات ذات دِقّة معذّبة، تخيّلات عما كان، وهي تخيّلات -سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة- لن تخلّف وراءها سوى شعور بالاشمئزاز. أم ينتظر صديقي من نفسه القدرة على تحمّل هذه العذابات من دون عذاب، هذه العذابات التي يوقظها مجرّد الوجود في هذا المكان الميت؟ الأمر سخيف. ما علاقة هذا الشيء، حتى لو لم يكن هشّاً، بزيبيله الحية، بعلاقته معها؟ ثمة غثيان، على ما أعتقد، لن يتوقّف أبداً، غثيان يمكن اعتباره عقوبة إجبارية لتخيّلات لا علاقة لها، ببساطة، بنا. لماذا يفعل في نفسه هذا؟ من الممكن التغلّب على الغيرة تجاه الشريك، التغلّب عليها داخلياً، التغلّب عليها كلّيّةً كما فعل هو؛ لكن من السخف أن نعتقد أن على المرء أن يبتلع ما تحطّم دون أن يهتزّ له جفن. ابتسامته فيها بعض التشنّج. ألم يعلم صديقي المدّعي العام، وهو الذي رافق عديداً من الناس في أماكن وقوع الجريمة، أن الأشياء الميتة كثيراً ما تخفي شيئاً شيطانياً؟ لا أعلم بالطبع ما ينبغي عليّ أن أقوله له على هذه الشرفة. إنها مذلّة غير ضرورية، وفي الحقيقة فإنني أفهم لأول مرّة ردود الأفعال الخاطئة التي تُثار في معاينات المحكمة لمسرح الجريمة، عندما يقف أحدهم أمام شيء ميت، وكأن الحقيقة لا زمن لها. ولأنه يصمت، أسأل بلا تمهيد: «ما عمر زوجتك إذاً؟».

- «زيبيله؟».

أواصل ثرثرتي: «لا بدّ أن هانيس سيدخل قريباً المدرسة الثانوية، والآن الصغير... لا بدّ أن الأمر رائع بالنسبة إلى زوجتك، وفوق ذلك بنت!».

- «نعم، رائع».

- «وبالنسبة إليك أيضاً...».

- «نعم، بالتأكيد!».

كنوبل الطيّب -الذي لم يعتد كموظّف صغير أن يقف هكذا في منتصف وقت العمل دون أن يفعل شيئاً- لا يتركنا في هدوء. يحذّرنا من الدرابزين الصغير الصدئ، ويقول إن من الأفضل ألّا يلمسه أحد. إذاً، لا نلمس الدرابزين. نسمع هديل الحمام فوق السطح، ونرى أيضاً الهضاب الممتدة ذات اللون المائل إلى الأزرق والتي كنا عليها. أقول له: «كان المكان رائعاً هناك، في حديقة ذلك المطعم الريفي...».

- «أليس كذلك؟».

أقول متذكّراً السؤال الذي طرحه هناك في الأعلى: «لا أقصد بالطبع ملاكاً بجناحين، ولا ملاكاً فنّياً، سواء في النحت أو المسرح. ربما يكون الذين ابتدعوا صورة الملاك يوماً ما، قد مرّوا بخبرة مماثلة، أي بشيء لا يُعبّر عنه. كلّ ما أعرفه هو أنني مررت بخبرة ما...».

شعرت بالاستياء (وبأنها مزحة سخيفة) عندما دقّت في تلك اللحظة أجراس الكاتدرائية القريبة. بسبب عقد قران، لا أرى الجمع، أو حالة وفاة؛ على كلّ حال فإن الدويّ فظيع. سربٌ من الحمام يرفرف فوقنا. عن قرب لا يتبيّن المرء أيّ نغمة، مجرّد هزّة معدنية في الهواء، وضجيج ارتطام أشياء ببعضها، وكأن عليها أن تحطّم طبلة آذاننا. نترك الشرفة هرباً من قرع الأجراس، وعندما دخلنا الأتيليه كانا قد وصلا: يوليكا ومحاميّ الذي تناول عنها معطفها الباريسي الجديد. ورغم أننا أغلقنا على الفور النافذة، لم يكن ممكناً تبادل الحديث. يوليكا أكثر سحراً من أي يوم مضى. نتبادل التحية على الفور بقبلة. لا يفوتني أيضاً أنها قد صبغت شعرها على

نحو لا يلفت النظر، بلون أكثر شقرة، يتلاءم مع زيورخ، وهو ما يقوّي ثقتي في أنها قد ودّعت باريس والسيد دميتريتش وداعاً نهائياً. أمر غريب بعض الشيء، لقد حرّك مشاعري الجرو الذي أحضرته يوليكا معها إلى هنا، لأنها بالتأكيد لا تنوي الرجوع إلى باريس؛ مرّة أخرى كلب فوكس. أداعبه لأننا، كما قلت، لا نستطيع أن نتحدّث في ضجيج الأجراس الفظيع هذا. يشعل كلّ واحد منا سيجارة. تحضر يوليكا منفضة وكأنها هي المضيفة، وتدعونا إلى الجلوس بإشارة من يدها. لكن المكان مغبرّ جدّاً ببساطة. لديّ فضول عما سيُعزف بعد أن تخرس الأجراس، ولهذا أنا متشوّق ومبتهج في الوقت ذاته؛ هذا الموقف الهزلي -هكذا يبدو لي- سيحلّ كلّ شيء فجأة، إذا أدركوا فجأة ما يعنيه. محاميّ، الذي كان كعادته يبحث في حقيبة أوراقه، هو أكثر شخصية مثيرة للضحك، وتحديداً لأنه لا يفهم الضحك. قرع الأجراس لا ينتهي. يحاول كنوبل ألّا يُشعرنا بحضوره، ورولف، المدّعي العام، يتناول ببطء معطفه من المسمار؛ ليس خطأه أن السيدة والسيد (ربما بسبب فوكسلي) قد جاءا متأخرين إلى هذا الحد. وفجأة، وبعد أن بدأنا في الاعتياد على التحدّث بالإشارات والإيماءات، خفّت أجراس الكاتدرائية.

سألتْ يوليكا: «والآن؟».

على ما يبدو كانت يوليكا تنتظر أن أكون قد اعترفت، وعندما نفى المدّعي العام ذلك، بل وتحتّم عليه للأسف أن يودّعنا، جلست يوليكا على الكنبة المغبرّة، وكأن أخباراً سيّئة وصلتها في برقية. لا يعرف محاميّ فيمَن يحدّق، في المدّعي العام أم فيّ أنا. ربما تكون يوليكا المحبطة قد شرعت في البكاء، لكننا حتى لا نلاحظ ذلك بعد. يحاول محاميّ، دون نجاح، استبقاء المدّعي العام. يمدّ يده إليّ، وأشعر في هذه اللحظة أن صديقي الجديد قد تخلّى عني؛ لكنني أدرك سريعاً أنه -وتحديداً لأنه

صديق- لا يريد في أي ظرف من الظروف حضور هذه المعاينة الفظيعة التي لا يستطيع، من ناحية أخرى، أن يجعلها تفشل أمام المحامي الذي عيّنته المحكمة للدفاع عني. عندما رأيت يوليكا الجميلة تبكي، سألتها: «هل تحبّينني؟».

يريد محاميّ أن يتدخّل...

أقاطعه قائلاً: «إنني أسأل السيدة»، ثم أجلس بجانب يوليكا على الكنبة المغبرة: «هل تحبّينني أم لا؟».

بكاؤها يزداد حُرقةً.

«أترين؟!»، أقول بأقصى درجة ممكنة من الرقة في حضور محاميّ وحارسي، «هذا فقط هو المهمّ الآن. الأمر متوقف عليك أنت، يا يوليكا، عليك وحدك!».

تسألني باكية: «لماذا؟ لماذا عليّ أنا؟».

ما زلت بالهدوء الدافئ الذي تبثّه الثقة أحاول أن أشرح ليوليكا لماذا لا تحتاج -إذا كانت تحبّني حقّاً- إلى اعتراف مني بأنني زوجها المفقود. الأمر يبدو لي في غاية البساطة، وغاية الوضوح. رغم ذلك أتحدّث حديثاً طويلاً جدّاً، أطول من اللازم، ومع الوقت يصبح حديثي، كالمعتاد، مشوّشاً. لم يحدث لي قطّ في حياتي أن كنت على مستوى مثل هذا الموقف: بمجرّد أن أشعر أنني وحيد مع إدراكي البسيط والواضح، أفقد الوضوح، وأنغمس في الثرثرة بتشبيهات متعجّلة من المفروض أن تساعد الآخر على فهمي، لكنها في الحقيقة لا تفعل شيئاً سوى تفتيت ما كنت أدركه، ثم أدافع عما أفسدته في النهاية بحجج ليست سوى محض هراء. لقد لاحظت ذلك لتوّي. ولأن يوليكا الجميلة لا تقول شيئاً، لا تقول شيئاً على الإطلاق، أي لا تقول حتى الهراء الذي يمكن على الأقل أن يوازن

عجزنا، لذلك لا أستطيع التوقف عن الكلام. لماذا لا تساعدني؟ أمسك بيدها المبتلّة بالدموع وكأننا وحدنا، ولا أجد سوى سؤالي عما إذا كانت تحبني، وأنتظر.

يقول محاميّ، بنِيّة طيّبة بالتأكيد: «حتى متى تريد تعذيب هذه السيدة التعيسة؟! إنّ السيدة يوليكا تحبّك، يا إلهي، هذا شيء واضحٌ وضوح الشمس!».

غير أنه يتحدّث أكثر من اللازم. وفي النهاية يقول: «وعموماً، أليست لديك مشاعر تجاه هذه السيدة؟ فظيع ما تفعله بهذه السيدة الرقيقة. بدلاً من أن تقدّم اعترافك أخيراً! هذه السيدة جاءت من باريس، من أجلك، وتخلّت عن مدرستها لتعليم الرقص، من أجلك، وأنت تعاملها... يحقّ للمرء فعلاً أن يتساءل عما فعلته السيدة يوليكا حتى تستحقّ زوجاً مثلك!».

أتطلّع إليه في إثر ذلك، فيقول مؤكّداً: «نعم!».

في أعقاب ذلك -ولكن ليس فوراً بل إثر بعض التردّد، وبعد أن انتظرت أن تؤنّبه يوليكا- أنهض، وأشعر فجأة بثقل قدمي، أنفض الغبار عن معطفي حتى أترك لنفسي بعض الوقت لأي عبارة أكثر توفيقاً، ثم أسير في النهاية تجاه الباب الذي كان مقفلاً (لن أنسى أبداً هذا الشعور في يدي). ليس هذا وهماً، أو أن الباب استعصى على الفتح أو شيئاً من هذا القبيل؛ كلا، لقد كان ببساطة مقفلاً.

«كنوبل»، أقول وأسمع ضحكة تصدر عني، «... أعطني المفتاح!».

يصمت كنوبل وقد احمرّت أذناه بشدّة.

أسأل: «ماذا تريدون مني؟».

في تلك الأثناء وقفت يوليكا، الغادرة، بيني وبين الباب الذي كنت ممسكاً بمقبضه، على الأقل كانت فرصة مناسبة لكي أسألها بيني وبينها:

«لماذا تغدرين بي؟»، وجهها البريء وعيناها فائقتا الجمال، وهذان الحاجبان المشذّبان اللذان يمنحانها سحراً دائماً نابعاً من الدهشة الطفولية، هذا الوجه لا يظهر أدنى أثر من الفهم لسبب فعلي ذلك، وهو ما يصيبني بالخرس. حتى عندما وقفنا بمفردنا قالت لي: لا تفعل ذلك! وبالفعل، لقد استولت عليّ مشاعر بدائية، قادتني كثيراً إلى الطريق الخاطئ؛ إن احتمالية أنني أظلم الجميع، لا سيما يوليكا التي كانت قبل قليل هي المنبع الوحيد والمشرق للثقة بالنسبة إلي، هذه الاحتمالية قائمة. حقّاً: لماذا أفعل ذلك؟ أقف شابكاً ذراعي في ذراع يوليكا التي ربما لا أفهمها ببساطة، هكذا وقفنا أمام المحامي الذي يرى في يوليكا أيضاً امرأة رائعة، وأمام كنوبل، حارسي المطيع الذي وضع المفتاح في جيب سرواله، ومحاطاً، فوق ذلك، بهذه المومياوات الملفوفة في قماش الأكياس التي شرعت يوليكا في تقديمها لي باعتبارها إنجاز حياتي. لوهلة، وكأن وعيي قد شُلّ، أسمح بذلك، حقّاً، أدع القيادة لهم، وقد مسّت يوليكا قلبي لأن هذه الأشياء تعني لها الكثير، بل وتجرّأت على إطلاق دعابات صغيرة، مثلاً في ما يتعلّق بالرأس الجصّي للمدير... لا أعرف ماذا شلّني هكذا، ولا المدة التي استغرقها ذلك؛ فجأة استيقظت، ويبدو أن كلّ الذكريات المتعلّقة بالباب المقفل والملاحظة الوقحة لمحاميّ قد هجرتني، وكأنني استيقظت من حلم سخيف نسيته هو الآخر، لكنني كنت أعي أنه ليس إلا حلماً، وأجد نفسي أواجه مرّة أخرى السؤال نفسه الذي طرحته من قبل، مباشرة قبل أن أحلم بهذا الباب المقفل: هل تحبّني يوليكا أم لا؟ أدركُ أننا فقدنا الخيط عند هذه النقطة، فأقاطع شرحها المؤثّر عن المومياوات الملفوفة بالخيش وأكرّر سؤالي. أتفهّم بعض الشيء أن من الصعب على يوليكا، هذا الكائن ذي الطبيعة الخجول والمتحفّظة، أن تجيب بحضور محامٍ عيّنته المحكمة وحارس،

وأشعر بأن سؤالي في هذا المكان غير ملائم إطلاقاً. ربما لذلك تحديداً لا أطيق أن يفتح محاميّ فمه مرّة أخرى لكي يساعد يوليكا الخرساء، مثلما يعتقد.

أقول له في وجهه: «فلتذهب إلى الجحيم! ليس هذا شأنك إطلاقاً! أنا لا أنكر أنني على علاقة مع هذه السيدة...».

مجروحة تقول يوليكا: «أناتول؟!».

أصرخ: «ماذا تقصدين بأناتول؟ ماذا تقصدين بأناتول؟ لن أترككم تجبرونني على قبول كلّ هذا الهراء المتعلّق بزوجك المفقود... هذا!».

أضحك من الغضب الذي لم يفارقني في الحقيقة، وأنزع بعض الأقمشة، بسرعة، وكما توقعت: ليس سوى التراب، لا يستطيع أيّ محامٍ الإمساك به، فتات من طميٍ جافّ، ثم القماشة التالية، مومياوات، لا شيء سوى مومياوات، ثم أرفف مليئة بالحديد الصدئ والأسلاك المثنية، هذا هو كلّ ما تبقى من مفقودهم شتيلر، والباقي تراب، مثلما يقول القسس، بضع كتل على الأرض، رمادية بنية اللون، وعندما أهزّ القماشة، لا أرى بدايةً سوى سحابة من الغبار البني. للأسف يرنّ الجرس. للأسف لأنني أنا نفسي كنت مندهشاً من الفن الذي ظهر الآن، لو لم يقفوا في طريقي لكنت أتيتُ على كلّ شيء مرّة واحدة. لكنّ رنين الجرس أربكني. سألتُ محاميّ: «مَن استدعيتَ أيضاً إلى هنا حتى تجعلني أجنّ؟!».

في هذه اللحظة كان لديّ شكّ معيّن، ثم رأيت أيضاً كنوبل بعد إشارة من محاميّ المرتبك يُخرج أخيراً المفتاح من جيب سرواله حتى يفتح الباب، وحتى يذهب إلى الدور الأرضي، ثم أنسى اتهامي الصحيح جدّاً تحت سيل كلام محاميّ الذي يحذّرني مرّة أخرى (للمرة الكم؟) ويناشدني بأن أتعقّل، وأنتهز آخر فرصة لتقديم اعتراف، وإلا فسيصدر حكم المحكمة،

وهو شيء محرج للسيدة يوليكا، كلمة تعقّل واحدة فقط وسيذهب الجميع إلى حال سبيلهم، فكل شيء ليس سيّئاً إلى الحد الذي أراه، أتيليه جميل جدّاً بإضاءة جيدة، الأصدقاء يخطّطون للاحتفال بعودتي، عليّ إذاً أن أرفع رأسي عالياً وأعترف، شتيلر فنان ذو مكانة، ليس فناناً كبيراً، ومَن هو الفنان الكبير؟! لكن لديه مكانة، ولجنة الفنون مستعدّة لتحمّل مصاريف المحكمة، كلّ الناس يعاملونني بلطف، إصراري السخيف لن يضرّ أحداً سواي، من الضروري أن أتحلّى ببعض العقل، يوليكا إنسان نبيل وعزيز، والزواج لم يكن في يوم من الأيام لعبة، لكن يوليكا هي التسامح والخير مجسّدان في إنسان، إذاً الرأس عالياً والبداية من جديد، الهروب لم يكن في يوم حلّاً حقيقياً، الحرية هي في الارتباط، الزواج واجب أخلاقي وليس مجرّد متعة، بعض النضج مطلوب، بعض النية الطيبة وستنصلح الأمور، سنوات يوليكا الصعبة في باريس وتخلّيها الكريم عن مدرسة الرقص الناجحة، تضحية من يوليكا، تضحيات نسائية لا تُعدّ، الامتنان مطلوب من ناحيتي، إذاً مرّة أخرى عليّ أن أرفع رأسي عالياً، وأن أكون رجلاً، وأن أمدّ يدي، وهللويا! خلال هذه الخطبة كنا نقف بذراعين متشابكتين، إما لأن يوليكا كانت تخشى أنني سأستخدم الباب غير المقفل الآن، أو لأنها تمسك بي بدافع من رقة حقيقية؛ أشعر بدفء جسدها؛ وما زال محاميّ يتحدّث بلا انقطاع: إذاً، رفع الرأس عالياً، ليس هناك أجمل من الوطن، بين الحين والآخر يمكن القيام برحلة بالطبع حتى نستطيع أن نقدّر الوطن من جديد حقّ قدره، لكن الإنسان في حاجة إلى جذور، وبالتأكيد الفنان داخلي أيضاً بحاجة إلى جذور، هذا هو المهم، جذور ثم جذور، ثمة ملايين بلا وطن، إذاً جدير بي أن أشعر بالامتنان، وألّا أرى كلّ شيء من الجانب السيّئ، بعض الحب للناس، السويسريون أيضاً ليسوا إلا بشراً،

لا يقدر أحد على الخروج من جلده، يجب أن أُظهر موقفاً إيجابياً، وأن يكون لي عموماً موقف، ألّا أحطّم كلّ شيء مثلما فعلت منذ قليل، النقد الذاتي على العين والرأس، ولكن شغل الخنازير هذا، والغبار والفتات - هذا شيء لا ينبغي على المرء أن يفعله، الانفعال على العين والرأس، ولكن كلّ شيء بمقدار، أرى أن كلّ شيء ليس سيّئاً إلى هذا الحد، وزيورخ هي تقريباً أجمل مدينة في العالم، ولكن كما سبق القول: لا بدّ من موقف إيجابي، ثمة عدمية كافية في العالم اليوم، على كلّ إنسان أن يعمل من أجل أن يكون العالم أفضل، إرادة الخير بكلّ القلب وعندئذٍ سيكون كلّ شيء على ما يرام، السيدة يوليكا لديها إرادة على سبيل المثال، السيدة يوليكا عموماً قدوة، كلّ الاحترام للسيدة يوليكا، وفاؤها لي كامرأة لا يتزعزع، امرأة نادرة، ولكنها امرأة مثالية، امرأة رائعة، كثيراً ما يكون الرجال عنيدين وأنانيين، المرأة مختلفة، لديها مشاعر الأمومة، صعبة بطبيعتها، بالتأكيد، ولكن فقط لأنني لا أفهمها، ثراء المشاعر، مشاعر يوليكا الباطنية تختلف عن كلّ امرأة أخرى تقريباً، مشاعر في مكانها، بعض الأحاسيس من جانبي، الأنثى الأبدية تجذب الرجل، لدينا اليوم ما يكفي من الفكر في العالم، ليس علينا أن نفكّر ونشكّ دائماً، بل أن نأمل، رفع الرأس عالياً والتسلّح بالأمل، فلا زواج بلا أمل، بلا أمل لا سلام بين الأفراد وبين الشعوب، إننا نرى ذلك: بلا أمل لا فن حقيقياً أيضاً كفن العصور الوسطى، باختصار، لا أمل بلا أمل، إذاً الالتزام بالصدق، والتوقف عن تأليف الحكايات الغبية. إن جوهر شتيلر جيد أيضاً، محاميّ مقتنع بهذا الجوهر، كلّ شيء ما عدا ذلك هو قبض الريح، الاسم على سبيل المثال، ولكن لا بدّ أن يسود النظام، وكل إنسان يجب أن يكون له اسم، محاميّ ليس بالتأكيد بيروقراطياً، بل إنه مصدوم مما اطلع عليه بخصوص هذه الزيجة بين إنسانين عزيزين، محاميّ

نفسه متزوّج، وقد عايش كلّ أنواع الصعوبات، وتغلّب عليها جميعاً، لكن التضحية ضرورية، التضحية ثم التضحية، في مقابل ذلك سلام الروح، ما زالت الروح هي أهم شيء، يكفي ما في العالم اليوم من مادية، لا غنى عن قليل من الإيمان بالربّ، تدمير القيم الحقيقية عبر سرعة المواصلات الحديثة، ثم عبر السينما والرياضة، عبر بناء الملاعب الرياضية مثلاً التي تجعل منا حشوداً، ثم خصوصاً عبر الشيوعية، لكن محاميّ واسع القلب ورحيم، وبعيد تماماً عن أن يلومه على كفاحه الإسباني الصبياني، فلننسَ الأمر، محاميّ كان أيضاً في يوم ما عضواً في حزب انتهى في ما بعد، فلننسَ الأمر، الإنسان خطّاء، وفرانكو مهمّ بالنسبة إلى أوروبا، لم يكن باستطاعة شتيلر أن يعرف ما سيأتي، ولا أحد يستطيع ذلك، كلا، ولا حتى محاميّ، ولذلك فإن القوانين الأبدية مهمة جدّاً، الوصايا العشر ما زالت هي أفضل شيء، لا تصنع لك تمثالاً أو صورة، كما تقول السيدة يوليكا دائماً، صحيح جدّاً، صحيح جدّاً، ولكن أيضاً لا تشتهي ما لغيرك، فضلاً عن القتل، على كلّ حال ليس في السلم، الجندي في الجيش شيء آخر، بالطبع، مناهضة النزعة العسكرية موضة قديمة، ولكن ليس هذا موضوعنا، بل كما قلت: لا تقتل يا صديقي، ولا حتى بالفكر، لا يليق هذا بالإنسان، لا يليق هذا هنا، في هذا البلد، العائلة هي نواة الشعب، السيدة يوليكا ما زالت قادرة على الإنجاب، وقد كانت تلك رغبتها الدفينة دائماً، العمّال وحدهم هم الذين ينجبون بالعشرات، فشل جسيم من جانب مثقفينا في هذه النقطة، ليس المهم هو الدخل، بل الإرادة الباطنية، حتى الفنان الجيد من الممكن أن يربح في سويسرا قدراً من المال يجعله لا يعتبر إنجاب عدد معقول من الأطفال أمراً مستبعداً، ثمة منح عظيمة وكثيرة، بشرط أن يتمتّع الفنان بشخصية مستقيمة، وهذا عن حق، والربّ يعلم، عن حقّ، لا

أطفال من سكّيرين ويساريين مشبوهين، الحرية قيمة ثمينة، باختصار، ما زالت سويسرا بلداً مثالياً ولا يمكن مقارنتها بفرنسا الحزينة التي لا تفعل شيئاً سوى الإضراب عن العمل، إذاً، مرّة أخرى: رفع الرأس عالياً، والتزام الصدق، ولننسَ الأمر، سيصبح كلّ شيء على ما يرام يا صديقي، سيصبح، لا بدّ أن يحدث هذا، حتى المحامي ينبغي عليه أن يبدأ دائماً من الأمام، قدر الإنسان، ولكن ينبغي القيام بكلّ شيء ضروري، والتحلّي بقليل من الإيمان بالربّ، ولكن هنا أيضاً بلا تطرّف، بالطبع، بل كلّ شيء بالقدر السويسري الصحيح، الجانب الاجتماعي معروف، نعم، ثم نقطة أخرى: على شتيلر ألّا ينسى زوج أمّه في مأوى العجزة، أو كما يقول غوته: «اكتسب ما ورثته عن آبائك، حتى تملكه»، المقصود فكرياً، والمقصود إنسانياً، ليس جميلاً أن ينسى المرء زوج أمّه في مأوى العجزة، لا يليق، البرّ بهم مطلوب، شتيلر لا يعيش وحده في العالم، اللعنة، بل هو عضو في المجتمع، عون للمجتمع، الالتزام بالواجب مطلوب، مع قليل من الحب، لا أن يفكّر المرء في نفسه فحسب، يا سيد شتيلر، اقتدِ بالسيدة يوليكا، عليك أن تشعر بالاحترام أمام هذه السيدة النبيلة والشجاعة التي قبلت الزواج برجل صعب إلى هذا الحد، إذاً، مرّة أخرى: مدّ يدك، فالإنكار لا فائدة منه، الأدلة دامغة، لا يبقى سوى الاعتراف طواعية يا سيد شتيلر، إذاً الشجاعة مع بعض التعقّل، وبعض الإيمان بالربّ، وبالسيدة يوليكا، وبالزواج، وبسويسرا، وبالخير في نفسك، بعض...

هكذا تحدّث محاميّ الدكتور بونينبلوست.

إني في غاية من الامتنان ليوليكا لأنها، في اللحظة التي أدخلوا فيها العجوز من دار العجزة إلى الأتيليه، قد احمرّ وجهها على الأقل، كزوجة دخل إلى شقّتها حرّاس مستشفى الأمراض العقلية وهم يمسكون بقميص

المجانين. على فكرة، للوهلة الأولى اعتبرته البائع المتجوّل الذي جاء من قبل، واندهشت عندما راح محاميّ على الفور يبحث جاهداً عن كرسي، وقد جعله الخجل مهذّباً؛ فهو بالتأكيد لم يتخيّل الأمر محرجاً هكذا. كلّ ما كان يريده -وهو ما يفعلونه مع أي مسجون عنيد- هو إجباره على التعقّل قليلاً عبر المواجهة؛ فكلّ المواجهات الأخرى لم تثمر شيئاً. ماذا تبقى أمام محاميّ غير ذلك؟ يُجلسه كنوبل، أعني العجوز، على الكرسي الهزّاز، وهو يكاد يتلاشى أمامنا احتراماً للمحكمة والسلطات والسيد الدكتور والراقصة من باريس. أبكي بعد أن عرفت من هو، وألاحظ أنه لا يرى بكائي. لقد أصابه العته إلى حدّ كبير. أستدير، فأنا أجبن من أن أواجه هذا المنظر الذي لا يفاجئني في الحقيقة؛ آنذاك في الليل، في شارع «باوري» في مانهاتن، عندما كنت أتذكّره، كنت أتصوّره على نحو لا يختلف كثيراً. أسمعه الآن من خلف ظهري فحسب، صوته العجوز الواهي، العالي والقبيح: أهكذا، لقد عدت ثانية، أهكذا؟! راح يضحك في صبيانية، ولا بدّ أن محاميّ قد لفت نظره إلى الشخص المرشح بين الحاضرين أن يكون ابنه. يضحك في صبيانية: ابن لطيف، نعم نعم، لا يهتم بأمري مطلقاً، أهكذا؟ يسأله محاميّ ما إذا كان يتعرّف عليّ. أهكذا، يضحك ضحكته الصبيانية، يهرب ببساطة، ابن لطيف، وعندما يعود إلى البلد بعد سنوات وسنوات، كلا، لا يخطر على باله أن يسأل ما إذا كنت لا أزال حيّاً، ابن لطيف!...

بالطبع فعلت أسوأ ما يمكن فعله. بمنتهى الوقاحة الممكنة قلتُ: «كفى هراء! أنا لا أعرفك».

واصل ضحكته الصبيانية: «أهكذا، أهكذا؟».

«كفى الآن!»، صرختُ، كانت سخافتي -لقد شعرتُ بها- هائلة، وكانت اللحظة لا تُطاق؛ وبدافع من العجز التام أمسكت بأي شيء

جصّي، في البداية للتهديد فقط، لكنني رأيتُ وجه يوليكا الجميلة الهادئ، رأيتُ يقينها الذي كاد يدفعها إلى الابتسام، اليقين بأنني، زوجها شتيلر، لا يمكن أبداً أن يجرؤ على رميها بأي شيء، وبالفعل، لم أجرؤ. قذفت بالشيء الجصي إلى أي مكان، وأنا أعي سخافتي، كما قلت، وقد استولى عليّ الغضب بسبب سخافتي (تصرّف الآخرون على نحو لائق حقّاً)، ثم تناولت الشيء التالي، رأساً، ورميته على الأرض، لكنه تدحرج ولم ينكسر، شعرت بالعجز وكأنني في حلم شرير، عجز لا شبيه له، رغم أنني ألقيت هذا الشيء بقوة، ورغم أن أحداً لم يحُل بيني وبين ذلك، حتى محاميّ وكنوبل كانا يتفرّجان فحسب، مندهشين، لكنهما كانا مقتنعين تماماً بأنني هو المفقود شتيلر، وبالتالي لي الحقّ في أن أهشّم كلّ شيء في هذا الأتيليه، الجرو فقط نبح، شعرت بسوء التفاهم من جانبهم كأنه شلل أصابني، لدرجة أنني لم أكد أقوى على رفع بعض هذه الأشياء من قاعدتها، ولذلك اخترت الأشكال الصغرى، وقذفتها تجاه الحائط، عندئذٍ تحطّم بعضها مما أثار شهوتي، لكنني كنت أخشى أن يخذلني غضبي، وألّا يكفي لتحطيم كلّ شيء، ولهذا اخترت الأشياء الصغيرة، أما التماثيل الكبيرة التي لم أستطع نزعها عن قاعدتها فستنجو من غضبي. لم يكونوا يريدون سوى التهكّم مني، وهو ما لم أكن أقوى على تحمّله. نعم، في الحقيقة كان خوفي من هذا التهكّم هو الذي أجبرني على أن أواصل جنوني. هل عليّ أن أقف في منتصف الطريق؟ رحت أقلب الأرفف التي تصل إليها يدي، ثم أدركت سريعاً أنني لن أصل على هذا النحو إلى النهاية. كان عملاً شاقّاً! لم ينطق أحد بكلمة، إلى هذا الحد كانوا مقتنعين بأنني سأتوقف في اللحظة التالية، وحده الجرو الغريب ظلّ ينبح، ثم استولى عليّ اليأس، كنت يائساً من عجرفتي التي منعتني من التوقّف عن هذا السخف، عن تحطيم تلك الأشياء الجصّية التي لم يذرف أحدٌ دمعة عليها، بدا أن الأمر لن ينتهي،

إلى أن حطّمت -وقد تسلّحت الآن ببلطة حديدية- كلّ الجص، أو على الأقل شوّهته بحيث لا يمكن إنقاذه، ولكن بقيت التماثيل البرونزية، ليست كثيرة، ولكن ثمة عدداً منها، التمثال الأول كان ثقيلاً جدّاً لدرجة أنه لم يكن وارداً أن أقذفه، ولكن كان عليّ الآن ببساطة أن أستمر حتى أنتهي من التماثيل البرونزية أيضاً، لا سيما من التماثيل البرونزية، بكلّ قوتي استطعت بصعوبة أن أرفع التمثال الأول، ثم تركته يهوي على الأرض، وكنتُ الوحيد الذي ضحك خلال ذلك من عدم تأثّر التمثال البرونزي، مرة، مرتين، وعشر مرّات ارتطم بالأرض، إذاً إلى الشباك المفتوح!

الآن قفزوا بالطبع من أماكنهم، خائفين على أرواح الغرباء في الباحة، صوت الارتطام على صاج السقف كان بلسماً لروحي، نعم، الآن عادت إليّ شهوة التدمير، وعادت إلي قوّتي البدنية أيضاً، هُرع كنوبل إليّ، لكنه كان خائفاً من أن أرمي ببساطة تمثالاً برونزياً كهذا على قدميه، لذلك حافظ على مسافة بيني وبينه، واستطعت، رغم كلّ الثرثرة المحيطة بي، أن أصل بالتمثال البرونزي التالي إلى الشباك، بووم، تردّد صدى الصاج في الأجواء، وزأرت أصوات في الباحة، سيل من اللعنات، سمعت فرقعة كأنها صادرة عن رصاص، كنت عائماً في عرقي وأنا أتلفت حولي باحثاً عن التماثيل الباقية، فتحت الخزانات على مصراعيها، وطارت أشياء صغيرة في قوس تجاه الشباك المفتوح، راح أحدهم يرنّ الجرس من دون توقف، رغم أن الأشياء التي طارت الآن لم تكن سوى دفاتر بها رسوم تخطيطية، وسكاكين رسم، وعلب، ومثل هذه الأشياء. لم أرَ مطلقاً الناس في الأتيليه، لكنني كنت أعلم بوجودهم، وكلما وجدت شيئاً، القناع الإفريقي، الحراب، البلطة السلتية، أيّ شيء يمكن أن يُبهج الصاج، كنت أشعر بالراحة، كلا، الراحة ليست هي الكلمة المناسبة، لم يكن لديّ خوف من أنني أفعل شيئاً خاطئاً، وكنت أتصرّف على سجيتي مرّة أخرى. لكن اللحظة التي بدت لي

كأكثر لحظات حياتي مدعاة للشفقةً، رغم أني، في الوقت ذاته، كنت راضياً عن نفسي، أي اللحظة التي لم أجد فيها شيئاً آخر على الأرفف حتى يطقطق الصاج ويصلصل ويصرخ، اللحظة التي لم أستطع أن أتخيّل ما سيحدث بعدها، هذه اللحظة الساكنة تماماً، والفارغة بعض الشيء، مثل أي لحظة أخرى، اللحظة العابرة أيضاً، وهي لهذا تثير الشفقة، هذه اللحظة جاءت بالطبع... تصبّبت عرقاً. كان كنوبل قد خرج، أو نزل حتى يهدّئ أصحاب ورشة السباكة، أو ورشة الحدادة، ولكي يخبرهم أن السيل البرونزي قد وصل الآن إلى نهايته. حاولت الابتسام، ولتعذّر ذلك حاولت على الأقل أن أضحك، وخلال ذلك رأيتني وحيداً تماماً في ضحكي، ومنهكاً إلى درجة لا تسمح لي بالضحك وحدي. والآن رأيت يوليكا مرّة ثانية، يوليكا الجميلة التي كانت أول من وجدت الكلمات: «والآن؟».

تجلس يوليكا، وعلى حِجرها فوكس الصغير الذي انفعل انفعالاً هائلاً بسبب سلوكي، والآن كان يشعر -هذا الفوكس الصغير- بالطمأنينة لدى يوليكا. على ما أعتقد فإنها لم تنهض طوال التمثيلية التي أدّيتها. لم تهزّ رأسها، بل كانت تنظر إليّ كأنني سكبت النبيذ أو دست على طرف فستان السهرة الطويل لسيدة؛ هذا شيء محرج، ولكن يمكن العفو عنه. لم أصدّق عيني: وجهها بالعينين الجميلتين إلى أقصى حدّ لم يتغيّر، لم يتغيّر إلى درجة أنني سألت نفسي عما كنت أنتظره. عدّلت من وضع شعرها الأحمر، من دون لزوم، فهي لم تتحرّك من مكانها؛ كنت أنا وحدي الذي انفعلت خلال تمثيليتي حتى إنني كنت أتفصّد عرقاً من كلّ مسام جلدي، كان قميصي مبتلّاً تماماً، وانزاح رباط العنق عن مكانه، ولهذا عدّلت يوليكا مرّة أخرى من وضع شعرها الأحمر، علامة على ارتباكها، وهو أمر مفهوم. أتنتظر مني اعتذاراً؟ من الدرج سمعنا ضجيجاً عالياً؛ يبدو أن أحداً قد وصل، غير ذلك ساد السكون. السخط والاستياء كبيران، وهو أمر مفهوم، أدرك ذلك.

تناولت يوليكا سيجارة، فأشعلتها لها. هي محقّة: والآن؟ أخذت بضعة أنفاس وكنتُ لا أزال ممسكاً بالولّاعة في يدي متأملا يوليكا، اعتقدت أنني سأنفجر في بكاء حار، وسأسقط في اللحظة التالية على ركبتي، واضعاً يدي أمام وجهي، إلى أن تحرِّر يوليكا وجهي المنتحب، القبيح، السخيف. أريد أن أفعل ذلك، لكنه لا يحدث، وكأن الدموع تنهمر إلى الداخل، أقف ساكناً، مثلها. كبرياؤها (تسامحها) عنيد، لا يتزعزع؛ مثل منتصرة لا ذنب لها في أنني أنهزم المرة تلو الأخرى، أو مثل أم، نعم، بالأحرى مثل أم تحبّ صبيّها الطائش نوعاً ما، تحبه رغم كلّ شيء، تبتسم، ويشعرني تفوّقها بأنني فقدت الأرض من تحت قدمي، ووداعتها لا تُصدّق، رزانتها قاتلة، هشاشتها حمقاء إلى درجة أنني، غير مصدّق كما في أول يوم، ما زلت أحملق في يوليكا. لن أنسى أبداً كم هي جميلة: شعرها المائل للحمرة، لون البشرة المرمري، شفتاها مثل شفاه البنات، عيناها الزرقاوان، ربما، أو الخضراوان، أو اللتان لا لون لهما، آه، عينان واسعتان، وجميلتان إلى أقصى حد، كما قلت سابقاً، والصافيتان، وبلا قرار، أنفها الشامخ ذو الفتحتين الكبيرتين إلى حدٍّ ما، آه، وأذنها الساحرة، وهذا العنق النبيل بالصوت الرقيق المميّز الصادر منه. لن أنساها أبداً! رقّة معصمها مثلاً، عندما تجلس وتدخّن - للحظة أشعر بأنني سأمسك بخناقها وأخنقها. ولكن هذا أيضاً لا يحدث، بالطبع... عندئذٍ يعود كنوبل، ويخبر المحامي بالحجم التقريبي للأضرار.

يقول المحامي: «الحمد والشكر للرب، على الأقل لم يُجرح أحد. على الأقل!».

يتحتّم عليهم أن يشرحوا لزوج أمي ما حدث؛ لم يفُته الضجيج، ويريد أن يعرف، فهم الذين أحضروه شخصياً إلى هنا، شخصياً، مثلما يؤكّد أكثر من مرة.

ملحوظة:

الآن، في وعيي الكامل بغياب وعيي، أرى أن اللحظة قد حانت حتى أقول كلّ شيء، أقول الحقيقة. ولكن ما هو «كلّ شيء»! كلّما حاولت أن أشرحه، لا يتبقّى شيء. هل كان عليّ أن أشرحه لمدة أطول، هذا الكل شيء، هذه الخبرة التي اكتسبتها؟

ما أستطيع قوله:

قبل نحو عامين حاولت أن أتخلّص من حياتي. القرار قديم. وكنت مقتنعاً، ربما مثل معظم المنتحرين، أن كلّ شيء سينتهي عندما أفعلها، سينطفئ النور، وينتهي العرض. كان قراري، بلا شكّ، دون خوف. كانت للفشل أسباب تقنية. المسدس الصغير الذي وجدته في عشة الصفيح تلك، مسدس عتيق الطراز كان يعمل بعد أن نظّفته تنظيفاً دقيقاً، وكانت مقاومة زناده أخفّ مما اعتدته في أسلحة الجيش، أو لم تكن له مقاومة إطلاقاً. ربما انطلقت الرصاصة أبكر من اللازم، فلامس الخرطوش (في الدرج وجدت رصاصة وحيدة من هذا النوع من الذخيرة العتيقة) الجمجمة فحسب، أعلى الأذن اليمنى، دون أن ينفذ فيها. في ما بعد أظهروا لي صورة أشعة إكس. أتذكّر: ثبّتوا رأسي بيدين، وكأنهما دبوسان، وفوقي وجه فلورنس، الوحيدة التي سمعت الطلقة، ثم اختفى كلّ شيء: باستثناء فتحة مستديرة بعيدة (عندما كنا صبية كنا نزحف في بعض الأحيان في إحدى مواسير الصرف الصحي، الثقب البعيد الذي يسطع منه ضوء النهار كان يبدو لنا صغيرا جدّاً، أصغر من أن نخرج منه؛ هكذا تماماً!)، كانت حالتي لا تحتمل، لكنها لم تكن مؤلمة؛ بالأحرى كنت أشعر بالاشتياق إلى الألم. الشعور بأن شخصاً ينادي عليك، وأنك فقدت صوتك. رغبة يائسة في النوم، ومعها اليقين بأنك لن تنام بعد ذلك أبداً. يقولون إنني في ما بعد،

وأنا ما زلت في «سيتي هوسبيتال»، قد تحدّثت بهذا المعنى، راجياً النوم. أظن بصورة لاحقة أن الألم الفظيع كان منبعه هو عدم القدرة فجأة على القيام بشيء، لا إلى الخلف، ولا إلى الأمام، عدم القدرة على السقوط، لا أعلى ولا أسفل بعد الآن، ومع ذلك البقاء على قيد الحياة، بلا خاتمة ولا إنقاذ، بلا موت. مثلما يكون المرء في الأحلام على يقين بأنه يحلم، هكذا كنت أعلم أن هذا ليس هو الموت، حتى لو متّ الآن. إذا استخدمنا كلمات مستهلكة، سأقول إنها كانت دهشة كبيرة، وكأن المرء سيقفز من فوق جدار حتى يتحطّم، لكن الأرضية لا تظهر، أبداً، ويظلّ المرء يسقط ويسقط، ولا شيء غير ذلك، سقوط هو من ناحية أخرى ليس سقوطاً، مطلقاً، إنه حالة من فقدان الوعي الكامل مع يقظة كاملة، الزمن وحده يمضي، كما قلت، الزمن كوسيط يمكننا القيام بفعل فيه؛ كلّ شيء يبقى كما كان، لا شيء يمرّ، كلّ شيء يبقى إلى الأبد. أعطوني عدداً من الحقن، مثلما قالوا لي في ما بعد، على فترات زمنية قصيرة. من المؤكّد أن هذا التخفيف، والتقوية، والتخدير، كان شيئاً ضرورياً للجسم المصاب، على الأرجح كان الأمر كذلك، وهو ما كان يقرّبني في كلّ مرّة من الذعر الذي شعرت به في الحالات التي وقفت فيها على حافة غياب الوعي، كنت بالأحرى أشعر بصداه المجسّد والمُستدعى من الذاكرة. على الأقل هكذا أفكّر، فأنا لم أتحدّث عن ذلك قطّ مع أحد. وهل بإمكان المرء الحديث عن ذلك؟ كلّ ما أستطيع قوله هنا هو أن هذا الذعر هو ما أسمّيه «ملاكي»...

(انقطع حبل أفكاري بسبب ما سمعته من مكبّر الصوت: أُجِّلَت الجلسة الختامية اليوم التي سيُنطق فيها بالحكم -والتي كان من المفترض أن تُعقد في الرابعة بعد الظهر- إلى العاشرة والنصف صباح الغد).

كما قلت، لم أتحدّث قطّ مع إنسان عن هذا الموضوع، وعن حقّ؛ لا يمكن أن نجعل شيئاً غير مفهوم مفهوماً دون فقدانه تماماً، وألاحظ الآن أيضاً، كيف أحاول بهذا الشرح رغماً عني أن أرتّب الأشياء حتى «أعطي معنى» لكل شيء. رغم أنني لا أستطيع أن أعطي أيّ شيء. لقد استقبلت «المعنى» فحسب. وعليّ أن أحافظ عليه... لا أعرف سوى القليل من الأحلام التي انهالت عليّ آنذاك، لأنني لم أكن أستطيع أن أخبر بها أحداً. (ذات مرّة زارتني فلورنس، الخلاسية، في «سيتي هوسبيتال»؛ فهمت ما قالته بدقة، دون أن أستطيع من ناحيتي النطق سوى بكلمات متفرقة).

حلم من الأحلام: في اللحظة التي أخنق فيها القطة «غراي الصغيرة»، أعرف أنها ليست القطة على الإطلاق، بل يوليكا التي تضحك، ضحكة لم أسمعها منها قطّ. يوليكا كانت عموماً مختلفة تماماً، مرحة. خنقت القطة بكلّ قواي، وأخذت يوليكا تستهزئ بي أمام جمهور لم أرَه في أيّ مكان، لم تقاوم القطة، لكنها تقفز في ما بعد ثانيةً على حافة النافذة، تلعق نفسها، لم تكن يوليكا يوماً زوجتي، كلّ شيء مجرّد وهم من ناحيتي.

حلم آخر: على فراشي ترقد أمي، فظيعة، رغم ابتسامتها، دمية من شمع، شعر مثل الفرشاة، ذعر كبير من ناحيتي، أحاول إشعال الضوء الكهربائي، لكني أفشل، أحاول الاتصال بيوليكا، لكني أفشل، كلّ الاتصالات مقطوعة، الظلام يسود في الشقة بأكملها، لا أرى سوى الأم الشمعية بوضوح، في أقصى درجة من درجات الرعب أركع صارخاً، حتى أستيقظ، بين يدي فجأة بيضة من بيض عيد القيامة، كبيرة مثل رأس... الأحلام الأخرى لا أعرف منها سوى أقل من ذلك. وكلها دارت حول الشيء نفسه، هكذا يبدو لي، وفي الحالات التي أقف فيها على حافة غياب الوعي، كانت الأمور تواصل سريانها، مثلاً...

(قاطع أفكاري د. بونينبلوست، محاميّ، الذي كرّر شفوياً الخبر السابق نفسه. يجب أن أكون مستعدّاً).

كل ما أستطيع قوله: كان لديّ حدس آنذاك بشيء. ليس الخجل هو ما يمنعني من مصارحتهم بحدسي، بل إنني ببساطة لا أستطيع ذلك. لم أشعر أمام ذاتي قطّ بالخجل من ذلك الفعل. لقد نفضت عني حياة لم تكن في يوم حياة. قد تكون الطريقة التي فعلت بها ذلك باعثة على السخرية! ما تبقّى لديّ هو ذكرى حرية عظيمة: كلّ شيء كان يتوقف عليّ. كان باستطاعتي أن أختار ما إذا كنت أريد أن أحيا مرّة أخرى، حياة تنتهي بموت حقيقي. كلّ شيء كان يتوقف عليّ فحسب، كما قلت من قبل. لم أكن في يوم أقرب إلى جوهر الرحمة. متيقّناً من الرحمة اخترت الحياة، ولاحظت اختياري عندما شعرتُ بألم لا يُحتمل. كان لديّ شعور بأنني قد ولدت الآن، وأحسست أنني مستعدّ استعداداً تامّاً، استعداداً لا يهاب حتى سخرية الآخرين، مستعد ألّا أكون شخصاً آخر غير الإنسان الذي ولدت لأكونه، وألّا أبحث عن حياة غير هذه الحياة التي لا أستطيع أن أنفضها عني. حدث ذلك قبل عامين تقريباً، كما قلت، وكنت قد بلغت الثامنة والثلاثين. وفي اليوم الذي سُمح لي أخيراً بمغادرة «سيتي هوسبيتال»... ---

(قوطعت مرّة أخرى!).

صدر حكم المحكمة كما توقّعت: أنا (بالنسبة إليهم) هو أناتول لودفيغ شتيلر، المفقود منذ ست سنوات وتسعة أشهر وواحد وعشرين يوماً، من مواطني زيورخ، نحّات، آخر محلّ إقامة له في 11 «شتاين-غارتن-شتراسه»، متزوّج بالسيدة يوليكا شتيلر تشودي، الساكنة حالياً في

باريس، والمحكوم عليه بسلسلة من الغرامات المتعلّقة بسبب الصفعة التي وُجّهت إلى موظّف الحدود السويسري، وبسبب أشكال مختلفة من التقصير في واجباته كمواطن، التقصير في إبلاغ السلطات بتغييره المسكن (في أعقاب ذلك صدرت بحقه إجمالاً 107 إنذارات بالسداد من مصالح حكومية مختلفة)؛ إضافةً إلى ديون لعدم سداد ضريبة الدولة، والضريبة العسكرية، والتأمين على المسنّين وذويهم، إضافةً إلى تعويض عن بندقية من الجيش السويسري، إضافة إلى ثلث مصاريف المحكمة، أي إجمالاً 9361.05 فرنكاً، على أن يتم الدفع في غضون ثلاثين يوماً بعد التوقيع على هذا الحكم. إضافةً إلى ذلك: بعد نهاية هذه القضية -وإذا لم يُطعن في الحكم- يظلّ الحبس الاحتياطي قائماً لحين استيضاح العلاقات المحتملة مع قضية سميرنوف السابقة.

- التنازل عن الكلمة الختامية

- التنازل عن الاستئناف

السيدة يوليكا شتيلر تشودي -وهي ابتداء من تاريخ اليوم زوجتي الشرعية- كانت منهمكة في تهدئة السيد الدكتور بونينبلوست، المحامي الذي كلّفته المحكمة للدفاع عني؛ وبالفعل، لقد اجتهد هذا الرجل أعظم اجتهاد يمكن تصوّره، وكان يستحقّ مني على كلّ حال تهنئة قلبية؛ وكنت أنوي أن أعبّر عن امتناني له، لكنني نسيت ذلك للأسف. وظهر أيضاً في جلسة المحاكمة السيد المدير شميتس، المليونير، الذي رفع ضدي بتاريخ اليوم دعوى سبّ وقذف. في ما يتعلّق بحكاية سميرنوف سأخيّب قريباً أمل الشرطة الاتحادية التي ستسلّمني بعد الجلسة؛ إذا كان تيو هوفر -التشيكي، زميلي آنذاك في إسبانيا، الذي عمل لاحقاً مصفّف شعر في برونكس، نيويورك، والذي آواني آنذاك بعد وصولي- ما زال على قيد

الحياة، فمن الممكن خلال أيام إثبات عدم وجودي في مكان الجريمة في يوم الثامن عشر من يناير 1946. سمعت لتوّي يوليكا تأتي عبر الممرّ - ملاكي يُبقيني يقظاً.

ملحوظة:

أعلن أخي فيلفريد شتيلر استعداده لدفع مبلغ 9364.05 فرنكاً. أشكره على ذلك!

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثاني

تعقيب المدّعي العام

لقد أسفنا لأن شتيلر لم يكتب «مذكّرات في الحرية» بعد «مذكّرات في السجن» - هذه المذكّرات الموجودة أمامي بتصريح من كلّ الأطراف الذين ما زالوا على قيد الحياة، من دون أي اختصار، وبالطبع من دون تغيير. إلحاحنا بين الحين والآخر على شتيلر لكي يفعل ذلك لم يجعله يفكّر في الأمر ولو ليوم واحد. لم يكن لديه احتياج لذلك. في ما بعد أدركنا نحن أيضاً أن إلحاحنا كان خطأ. صمته -إذا أردنا أن نطلق عليه كذلك- كان بالفعل خطوة أساسية، بل وربما خطوة حاسمة، على طريق تحرّره الداخلي، وهو تحرّر لم يكن واضحاً على صديقنا فحسب، بل كان أكثر وضوحاً على المحيطين به، وعلى التحوُّل غير الظاهر تقريباً في علاقتنا به، تحوُّل بطيء في الواقع، لكنه حقيقي. أصبح ممكناً أن يكون الواحد منا صديقاً له؛ تحرّر شتيلر من إدمانه أن يقنع الآخرين.

لا حاجة بنا إلى التطرق هنا مرّة أخرى إلى ما يسمى بقضية سميرنوف. لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ وجوده في مكان آخر غير مكان الجريمة في التاريخ المعني؛ كان شتيلر وصل إلى نيويورك حقّاً قبل الثامن عشر من يناير 1946 بوقت طويل، وهناك سكن الأسابيع الأولى، وهو أمر أمكن إثباته، لدى أحد معارفه التشيكيين. لكن شتيلر لم يستطع إثبات ذلك إلا بعد أن تخلّى أخيراً عن إنكار هويته. لقد بدا لي منذ البداية أن هدوءه تجاه الاتهام المذكور صادق، أكثر صدقاً من معظم ما قاله في فترة الحبس على

ذمة التحقيق. من ناحية أخرى لم تكن السلطات تستطيع أن تدرك، دون معرفة شخصية الرجل، لماذا يحاول شتيلر بكلّ هذا العناد إنكار هويته الواضحة، ولهذا كان منطقياً أن نفحص على الأقل كلّ العلاقات الممكنة بجرائم لم يُكشف عن مرتكبيها حتى الآن، نعم، لقد كان من واجب السلطات المسؤولة أن تفعل ذلك. ومن بين الجرائم ذات العلاقة التي لم يُكشف عن مرتكبيها جريمتا قتل في زيورخ؛ ولم يكن شتيلر يعلم عن ذلك شيئاً. في كلّ الحالات وصلنا سريعاً إلى نتيجة سلبية مؤكّدة، وتمّ إطلاق السراح في الشهر نفسه.

عاش شتيلر في البداية في بنسيون صغير يطلّ على بحيرة جنيف، مع زوجته التي كانت عازمة على أن تعيش معه من جديد. على الأرجح لم يكن بمقدور كليهما تخيّل كيف سيتشكّل هذا العيش المشترك دون منغّصات. من ناحيتي كنت أنتظر ما سيحدث باهتمام شديد. لم يكن يريد الانتقال إلى بيتنا الريفي الصغير البدائي، وإن كانت فيه تدفئة، في «فورش»، «لأنه قريب جدّاً من زيورخ». لحسن الحظ منحته المدينة، مسقط رأسه، منحة تشجيعية، وإن كان ذلك حدث بعد مقاومة عنيدة داخل اللجنة، منحة مقدارها 2000 فرنك؛ ما كان يعني آنذاك بالنسبة للزوجين تغطية لتكاليف المعيشة لمدة شهرين أو قرابة ثلاثة أشهر. من هذه النقود، ومن الأمل في حدوث معجزات أخرى، عاشا على ضفاف بحيرة جنيف. لم نكن بالطبع نستطيع تصوّر شتيلر يعيش في قرية «تريتيه». حسب ذاكرتنا فإن هذه القرية لا تتكوّن سوى من فنادق، وملاعب تنس، وقاطرات التلفريك المعلّقة، وشاليهات ذات أبراج صغيرة تضم حدائقها تماثيل الأقزام التقليدية؛ غير أن علاقات وديّة قد رتّبت لهما هناك شقّة ودية. ثم بدأ يقلقنا صمتهما التام، حتى عبر أيام عيد الميلاد. وأخيراً في رسالة أولى -خاطبني فيها كالمعتاد بـ«الصديق العزيز، المدّعي العام»- طلب مني شتيلر سخّاناً كهربائياً، على

سبيل الاستعارة؛ كنا في الشتاء وفي ما عدا الفطور المتضمَّن في سعر غرفة الفندق، كانا يعيشان على مأكولات خفيفة باردة. في تلك الرسالة شكرني شتيلر، بلهجة خانعة منذرة، «على كلّ شيء». انتابنا الخوف آنذاك على كليهما؛ بدت لنا غرفة الفندق -اللطيفة ربما، لكنهما كانا على كلّ حال يعيشان بلا أيّ علاقات في منتجع ميت- هي أكثر السيناريوهات بؤساً للقاء جديد بين هذين الزوجين.

وأخيراً، في إحدى نهايات الأسبوع في مطلع فبراير، سافرنا أنا وزوجتي إلى «تريتيه»، وقابلنا الزوجين اللذين لوّحتهما الشمس في غرفة الفندق اللطيفة حقّاً، كانت ضيّقة، لكنها مزوّدة بشرفة صغيرة؛ حقائبهما الموضوعة فوق بعضها جعلت الغرفة أضيق. ولهذا ظهرت بحيرة جنيف أمام النافذة أكثر رحابة. بدا شتيلر مرحاً، أكثر من اللازم قليلاً، أمسك بذراع زوجته وقال مقدّماً نفسه: «زوجان سويسريان مهاجران داخل سويسرا». تحاشينا كلّ سؤال عن المستقبل. في صالة الطعام بالطابق الأرضي تبادلنا حديثاً متعثّراً بعض الشيء، ولم نستطع تجاوزه؛ مع أن الفندق العائلي تقريباً كان شبه خالٍ، ورغم ذلك جلس شتيلر وزوجته مرتبكين وكأنهما لم يجلسا من قبل قطّ إلى مائدة مفروشة بمفرش أبيض. لم يجلس في المطعم عدانا سوى أشخاص قلائل: إنكليزي طاعن في العمر، مشلول جزئياً، فكانت الممرضة تقطّع له اللحم، وماركيز فرنسي يجلس مع كتاب متناولاً الحساء، كلهم فردانيون، وحيدون، باستثناء زوجين ألمانيين، خاتم زواج كلّ منهما -هكذا لاحظت على الفور- مصنوع من نوع مختلف من الذهب، إنسانان سعيدان يلفت خجلهما الأنظار. نادل شاب، من المنطقة الألمانية بسويسرا، أدخلهما إلى المطعم بلغة فرنسية جعلت حمرة الدم تتصاعد إلى وجهيهما. على كلٍّ، لم نرَ سبباً يجعل شتيلر وزوجته مذعورين هكذا. استمرّ المطر للأسف طوال نهاية الأسبوع. التمشية لم تكن ممكنة،

وشتيلر وزوجته كانا يهابان الجلوس في قاعة خالية من البشر. وهكذا كنا نجلس كلّ الوقت تقريباً في غرفتهما الضيقة وسط الحقائب. لم أعد أتذكّر أننا تحدّثنا حديثاً معيّناً، لكني أتذكّر مظهرهما. زوجته، أنيقة حتى بملابس قديمة، كانت طوال الوقت تقريباً تسير هنا وهناك، ولم تكد تنطق بكلمة، تصغي وتدخّن بلا انقطاع. بدَوَا لنا مثل الروس في باريس، أو كما قالت زوجتي: مثل اليهود الألمان في نيويورك؛ شخصان لا يملكان شيئاً. كان اللقاء الأول بين السيدة يوليكا وزوجتي، وعدا المجاملات المهذبة لم يتبادلا تقريباً كلمة واحدة. حاول شتيلر مراراً بفكاهته أن يفتح حديثاً. ولكن عموماً كان الوضع خانقاً، عصر يوم لا ينتهي، مع مطر أمام النافذة، وشاي وكثير من التدخين، في الحقيقة كان اللقاء خيبة أمل؛ خيبة أمل للجميع على الأرجح. نقودهما نفدت، لم يكن من الصعب تخمين ذلك. وبدا شبه مستحيل أن يجدا عملاً مناسباً بعض الشيء لقدراتهما غير المطلوبة إلى حدٍّ بعيد. ولم يكن ممكناً أيضاً العودة إلى مدرسة الباليه الباريسية التي لم تكن السيدة يوليكا تملكها، بل مسيو دميتريتش. كان شتيلر يضحك على هذا الوضع اليائس تماماً. وقفت السيدة يوليكا في انتظار أن تغلي المياه في السخّان الكهربائي، اليدان النحيلتان في جيبَي التايير، تدخّن، أما شتيلر فجلس القرفصاء على إحدى الحقائب، فارداً كفّيه على ركبتيه العاليتين؛ خامرني الشعور بأنهما يعيشان هكذا تقريباً وهما وحدهما، يتقابلان ببشاشة، ويتبادلان كلمات مقتضبة، اثنان مقيّدان بالعقلانية التي تجعل كلّاً منهما يتحمّل الآخر. طلب شتيلر مني كتباً.

مرَّ وقت طويل دون أن نسمع منهما شيئاً. أنا أيضاً لم أجد كلمات أكتبها إليهما، لا سيما بعد زيارتنا. كنت أنوي بالتأكيد الكتابة، كان يجدر بي ذلك، لكنني لم أعرف ماذا أكتب إليهما. بعد أن أرسلت إليه عدداً كبيراً من الكتب، من بينها مجلد لكيركيغارد، لم يصلني أي ردّ منه. طوال

شهور بدا أن الزوجين شتيلر ليس لهما وجود. على الأقل لم نعد نعتبر أن عنوانهما صحيح. لا يفكّر المرء إلا قليلاً في الأشخاص الذين لا يستطيع تخيّل حياتهم، حتى في حالة تصوّر أنهم قد يكونون في حاجة إلينا. لقد أهملت أمرهما آنذاك تماماً. أما زوجتي فكان لديها أسباب أخرى جعلتها تعتقد أن ليس بإمكانها أن تكتب إليهما، على كلّ حال أسباب جديرة بالاحترام.

بعد نحو نصف عام، وفي أواخر الصيف، وصلتني رسالة ذات نبرة مبالغة في الثقة بالذات، وفيها يقول شتيلر: «لقد كافأني الرب الحنون عن كلّ شهور الحبس الاحتياطي. لقد وجدنا لتوّنا بيت أحلامنا، واستأجرناه وانتقلنا إليه. une ferme vaudoise!». تنفّسنا الصعداء. بدا أن البيت ضربة حظ موفقة للغاية. الإيجار منخفض على نحو لا يُصدّق، ما يوحي بحالة متداعية على نحو لا يُصدّق أيضاً، لكن صديقنا لم يكلّ عن مدح مزرعته في كانتون «فو» بأوصاف تفصيلية. لقد بدا، على كلّ حال، سعيداً للغاية. تخيّلنا منزلاً ضخماً، كان في السابق بيتَ أصحاب مزرعة في كانتون فو، وربما أيضاً منزل أصحاب مزرعة الكروم، لم يكن الأمر واضحاً بالنسبة إلى شتيلر؛ ثمة أيضاً تل كروم، وفي مكان ما معصرة عتيقة عليها تاريخ يثير الهيبة في النفس، ومخزن غلال رحب وجيد الإضاءة، ذو مساحة كافية تصلح أتيليه، وهناك أيضاً طريق تصطفّ على جانبيه أشجار الدلب الكبيرة، منح المكان كله هيئة أرستقراطية. اختلف نوع الشجر حسب الرسالة، فهي مرّة أشجار دلب، ومرة أشجار دردار. في الرسائل اللاحقة لم يعد يأتي على ذكر مخزن الغلال مطلقاً. من ناحية أخرى ظهرت أشياء أخرى مبهجة؛ فجأة كتب شتيلر عن بئر ماء قديمة في الباحة، ورسم لنا الشكل الحديدي الفني الذي يتزيّن به، وكتب أيضاً عن منحل وحديقة ورد. وصفَ كلّ هذا بتمهّل مفعم بالحب، كمكان مهمل إلى حدٍّ ما، صدئ

إلى حدٍّ ما، جاف إلى حدٍّ ما، كما كان اللبلاب الكثيف الداكن يغطي كلّ شيء. واجهتنا في بعض الأحيان مشقّة في تخيّل ما يكتبه، لا سيّما أننا نعرف جيداً المنطقة المحيطة بقرية غليون. افترضنا أن صديقنا السعيد يبالغ بعض الشيء. الرسوم التخطيطية التي رسمها تبيّن سقفاً من القرميد المائل، مثلما هو شائع في كانتون فو، يحيط به بستان من أشجار الفاكهة، وخلفه جبال منطقة سافوا؛ الطريق المزدان بثمانين شجرة دردار لم يكن له وجود. سمحت زوجتي لنفسها بسؤال عن البيت، فوصلنا رسم تخطيطي منفصل -جذّاب جدّاً كرسم، ولهذا وضعناه في إطار وعلّقناه- يُظهر غرفة داخلية بمدفأة ريفية كبيرة، تركع أمامها السيدة يوليكا لإشعال النار؛ وعلى حافة الورقة دعوة قلبية لتناول «الراكليت» معهما.

«متى ستأتون؟»، لم يمر وقت طويل حتى كانت كلّ رسالة تبدأ بهذا السؤال. ذات مرّة أضاف: «لا بدّ أن ألفت انتباهك بشدة إلى أنك لا تستطيع المجيء إلى هنا بالسيارة. لن يستطيع أحد أن يشرح لك الطريق. اتركا سيارتكما ببساطة في مونترو. ومن هناك سأحضركما؛ غير ذلك لن تستطيع العثور على مزرعتي!».

أتى الشتاء، ولم نقابل شتيلر. لم يكن معه نقود للسفر إلى زيورخ، كما لم يشعر باحتياج إلى ذلك حتى لو دعوناه. ومضى الربيع أيضاً بلا لقاء. اليوم أتعجب من ذلك. كتب لنا شتيلر كثيراً جدّاً؛ صحيح أن السيدة يوليكا كانت لا تظهر في رسائله إلا نادراً، لكننا كنا نعرف أنها عملت لفترة ما في محل للمواد الغذائية. لم تتحدّث رسائله قطّ عن الموضوع الأساسي، زواجهما، ولو حتى تلميحاً. بدلاً من ذلك كان يصف غروب الشمس طوال صفحتين أو ثلاث صفحات. في الحقيقة كان يصمت؛ كنت أتلقّى رسالته في كلّ مرّة كأنها رسالة في زجاجة أُلقيت في المياه، رسالة تخبر المتلقي

بمكان مرسلها فحسب، ولم يكن لديّ الحقّ في خدش صمته وكأننا في تحقيق، سواء بتوجيه سؤال صريح أو مُربِك، أو بسوء تفسير متحدٍّ. كان يبذل جهده لكي يكون مرحاً في رسائله:

«أنت بالتأكيد لا تصدّق أنني وجدت بيت أحلامي. لماذا لا تأتون لزيارتنا؟ أعترف لك أننا نرى قلعة شيلون، وجبل «دونت دو ميدي»، وخلال هبوب الرياح الغربية نسمع أيضاً صوت القطار، ومكبّر الصوت من أحد مراكب السباق الدولية، وموسيقا الرقصات الصيفية التي يرقصها ضيوف المنتجع، ولا أنكر أننا من هنا نرى أيضاً بعض فنادق مونترو، في الحقيقة نراها كلّها، لكننا نعلوها ببساطة، أتعرف، نعلوها حتى داخلياً. سترى ذلك عند مجيئك! في القبو، لم أكتب إليك ذلك حتى الآن قطّ، ثمّة براميل فارغة، بإمكانك أن تصيح داخلها إلى أن تشعر بالرعب من صوتك، وإذا التزمت الصمت التام، فستسمع الفئران في السقف الخشبي، وربما أيضاً الجرذان، هي على كلّ حال إشارة إلى أن السقف الخشبي أصلي، وهذا هو المهم، أترى، كلّ شيء هنا أصلي، حتى طيور السنونو تحت السقف الذي عملت طوال أسبوع كامل بترقيعه، ما أثار ذعر يوليكا طوال الوقت، لخوفها من أن تزلّ قدمي. مع أنني أمسيت الحذر مجسّداً، إنني متعلّق بالحياة كما لم أكن في يوم، عندئذٍ ينتاب المرء دائماً شعور بأن الموت يلاحق الإنسان، وهو بالطبع، هذا الشعور، علامة الحياة، أتعرف؟ أتحدّث جادّاً، لم أشعر بهذا الشعور إلا نادراً: إنني أنتظر دائماً صباح اليوم الجديد بغبطة، وكل ما أرجوه هو أن يكون الغد مثل اليوم السابق، فالحاضر يكفيني بقدرٍ مدهش في بعض الأحيان. سوف أؤسّس ورشة هنا، فأنا لا أستطيع أن أقضي كلّ وقتي في قراءة فيلسوفك كيركيغارد ومثل هذه الأشياء الثقيلة، يجب أن أربط غصون الكرم الآن، ثم أنزع الحشائش

الضارة، وبعد ذلك أشتري ورق صنفرة، وسماداً صناعياً، ومسحوقاً لإبادة الحلزون، ثم أقطع الخشب - أنت ترى: عودة إلى الطبيعة retour à la nature.

بالمناسبة، أخبِر زوجتك أن الأشجار ليست دلباً، بل هي دردار، لكنها للأسف مريضة مثل كلّ أشجار الدردار تقريباً حالياً، لا أحد يستطيع أن يفسّر ذلك، أشجار الدردار لا تحب زمننا، ومما يؤلم روحينا أنها ستُقطع لا محالة، حتى وإن كانت ملك جارنا. هل ستراها قبل ذلك؟ روحي تنتظرك من الآن، هناك، على رصيف محطة مونترو؛ عندئذٍ سآخذكما في جولة على المدقّ القديم، المائل إلى حدّ كبير، والحجري، المحاط بأسوار من الكروم، والشديد الحرارة مثل فرن في الصيف، لكنه في الخريف يتمتع بالنسيم، وهو مغطى بالمناسبة منذ عقود بالنباتات الطحلبية، لم يعد يسير فيه اليوم سوى جامعي الحطب والزوجين شتيلر (ينطقونها هنا شتيلييير). ولكن كيف يمكنني أن أصف لك في رسالتي هذه البقعة! أقرأ وصفها لدى كاتبك، الذي أصبح أيضاً كاتبي المفضّل، شارل فرديناند رامو. متى ستأتون أخيراً؟ أرجوكما: قبل أن ينهار السور القديم، وقبل أن تغطي الطحالب قدميّ، وينمو اللبلاب من عينيّ».

مثل هذه الرسائل ذكّرتنا، مع طيف ابتسامة، بتهكّم شتيلر سابقاً على الحياة الريفية باعتبارها «حصناً للحياة الباطنية»؛ واليوم يبدو أنه في مزرعته أسعد مما كان في أي وقت مضى. ومما أشعرنا بالراحة على وجه الخصوص أن السيدة شتيلر استطاعت أن تجد وظيفة ذات معنى لنصف الوقت؛ إذ إنها كانت تعطي دروساً في الرياضة الإيقاعية في إحدى مدارس البنات في مونترو. كما أوجد شتيلر عملاً لنفسه. على عيد ميلاد زوجتي وصلنا طردٌ كامل من الخزف، آنية وجِرار وصحون، أشياء مفيدة حقّاً. لم يذكر شتيلر في السابق شيئاً عن ذلك قطّ. والآن كتب مع الطرد:

«هنا في غليون -لا بدّ أن تعرفا، في حال جئتما يوماً- أصبحت خَزّافاً، وكأنني ولدت لذلك. أكسب مالاً وفيراً الآن. وعندما يكون لديّ فرنٌ خاصّ بي، سيصبح الأمر أكثر سوءاً وسيتزايد ربحي. وعندما أكسب ما يكفيني، سأذهب إلى «كو» القريبة جدّاً من هنا، نحو عشر دقائق بالقطار؛ لكني لم أصل بعد إلى هذه المرحلة. ما زلت لا أحرق الخزف بنفسي. أفضّل بيع منتجاتي إلى أميركيين يتمتعون بالذوق الرفيع. على بوابة حديقتي لافتة مكتوب عليها: Swiss pottery.

الأميركيون الذين يفهمون في الفخار جيداً، يندهشون كثيراً عندما يصادفون في هذا البلد النقوش نفسها التي رأيتُ بأم عيني مثلها لدى الهنود الحمر جنوبي لوس ألاموس، أريزونا، لا سيما في متحف الهنود الحمر في "سانتا فيه"».

الرغبة في المعابثة لم تترك شتيلر قطّ. كان يحتاج إلى قدرٍ معيّن من الخيال حتى يشعر بالراحة وسط البشر. عندما زارته زوجتي في غليون زيارة قصيرة، إذ كانت تقوم برحلة إلى جنوب فرنسا آنذاك وحدها مع الأطفال، سألتُها عن مزرعته؛ لم تُجِب إلا بقهقهة عالية. عليّ أن أراها بنفسي! في الحقيقة ليست المزرعة أسطورية كما يصوّرها في رسائله، بالتأكيد لا. كان على السيدة شتيلر أن تذهب مرّة بعد أخرى «إلى أعلى». كانت مكالماته التليفونية الليلية تحدث دائماً في الأوقات التي يكون فيها بمفرده. وكانت في معظم الأحيان مكالمات مزعجة، إذ يكون لدينا في معظم الأحيان ضيوف في ذلك الوقت. غالباً ما يكون شتيلر قد احتسى شيئاً، ثم يتحدّث عن كيركيغارد، مدّعياً أنه في حاجة ماسّة إلى كتاب الشروح الذي لديّ. كان شتيلر يتحدّث من مطعم؛ إذ إنه أفلس، وفي إثر ذلك قطعوا خطه التليفوني مرّة أخرى. لم أكن في يوم من الأيام ضليعاً في كيركيغارد؛ لقد أرسلت له المجلد بعد حديث معه عن الكآبة كمرادف للموقف الجمالي تجاه الحياة.

في لحظة اتصاله الليلي لم يكن الكتاب في متناول يدي، ولا في متناول يد شتيلر. وكان من الواضح بشكل خاص أنه لم يقرأ كيركيغارد تقريباً، لا بدّ إذاً أن الأمر بالنسبة له كان يدور حول شيء آخر. كان يمسك بالسماعة ربع ساعة أو أكثر، في كثير من الأحيان طوال نصف ساعة، على الأرجح لا لشيء إلا ليسمع صوتاً. كنت أسمع ضوضاء المطعم في الخلفية، ضجيج غسيل الصحون والكؤوس، وضجيج لعبة كرة القدم اليدوية. كدتُ لا أفهم ما يقوله شتيلر. لا بدّ أنه كان كثيراً ما يشعر أني إنسان بخيل، وأنه كان يلعنني في قلبه. كنت أعرف وضعه المالي، وكنت أحثّه على إنهاء هذه الأحاديث المكلفة. لم يكن بمقدوري على الأرجح أن أضع نفسي مكانه. لم تضلّلني نكاته ولم تخفِ عني درجة شعوره بالوحدة، واحتياجه إلى صديق. هذا الشعور الواضح بالذات جعلني عاجزاً تماماً. كثيراً ما فشلت ببساطة في أن أقدّم له ما يتوقعه، لأنه لم يكن لديّ، ولهذا كان يظلمني بسؤاله الذي كثيراً ما يطرحه فجأة: أأنت بخيل؟ ثم يواصل: قل شيئاً، سيّان ما تقول، ولكن قل شيئاً! وبصور منتظمة كان يختتم كلامه قائلاً: عندما تأتي مرّة إلى غليون، وهو ما لم أعد أعتقده! - ثم يصمت دون أن يضع السماعة. عندئذٍ كنت أقول عدّة مرّات: «مع السلامة»، لكنني كنت أظلّ أسمع أصوات غسيل الكؤوس أو الطلبات التي تنادي بها على البوفيه نادلة من الجزء الفرنسي في سويسرا. كان شتيلر ينتظر أن أضع السماعة دون تحية من جانبه. كنا نخشى هذه الاتصالات الليلية. وكثيراً ما كنا لا نرفع السماعة ببساطة، كان يحاول الاتصال حتى الثانية صباحاً.

لم نكن قد التقينا منذ ما يزيد عن عام ونصف، إلى أن نزلت من القطار أخيراً في أحد أيام أكتوبر المشمسة على رصيف محطة. لم أتعرّف عليه مباشرة على الرصيف: بدلتي السابقة منحته مظهراً بورجوازياً حقّاً، والغريب أن شتيلر لم يتحرّك خطوة في اتجاهي. لم يخلُ ترحيب كلٍّ منّا

بالآخر من الحرج. بالنظر إلى الجولة في «الطريق القديم» الحجري المائل لم آخذ معي سوى ملفّ؛ أراد شتيلر أن يحمله عني، لكني رفضت. بقي مظهر شتيلر دون تغيير، وعلى نحو يثير الدهشة، شعره القليل أصبح أشيب بعض الشيء وأقل عما كان، وصلعته زادت. كانت بدلتي القديمة قصيرة عليه قليلاً، لا سيما عند الكمّين، ما منحه سَمتاً شبابياً. سألني شتيلر على الفور عن زوجتي، ثم بحرارة أيضاً عن الطفلين اللذين كان قد رآهما. بعد عدّة خطوات فحسب، لم نعد نجد مشقّة في تبادل الحديث. أن يمرّ عام ونصف عام حتى نلتقي، كان يرجع من ناحية فعلاً إلى ارتباطات مهنية، ومن ناحية أخرى لم يكن هذا صحيحاً؛ هذا ما شعرت به الآن. كانت لديّ بالتأكيد خشية ما من رؤيته ثانية؛ لقد تأسّست صداقتنا في فترة حبسه على ذمّة التحقيق، وربما نكون قد تجاوزناها، على خلاف رغبتنا، مجرّد ذكرى بدلاً من أن تكون حاضراً. في مونترو اشترى شتيلر نبيذاً، نبيذ «سان سافورين»، «حتى نظلّ في المنطقة». حشرَ زجاجتين في حقيبة الظهر، وأمسك بالثالثة من عنقها وكأنه يمسك بقنبلة يدوية؛ هكذا انطلقنا. كادت الدهشة تستولي عليّ، إذ كان يوجد بالفعل «طريق قديم» إلى غليون. قادنا الطريق، الحجري والمائل كما وصفه، بين أسوار الكرم إلى أعلى. مع الوقت شعرنا بسنوات عمرنا الناضجة. مبهوري الأنفاس وقفنا نتأمل قلعة شيلون، وتحتنا قرية تريتيه، بما فيها من فنادق وملاعب تنس وتلفريك وشاليهات، إلى ذلك طبعاً بحيرة جنيف الكبيرة الزرقاء. يشعر المرء هنا وكأنه يطل تقريباً على البحر المتوسط. إذا غضضنا البصر عن الشاليهات المبتذلة، فإن الطبيعة هنا تتمتع بسخاء مُحرِّر، وغير معتاد في سويسرا. كان لغزاً بالنسبة إليّ أين يمكن أن تقع مزرعته التي ستفسد منظر هذا المنحدر. لا بدّ أننا سنصل إلى غليون قريباً. دار حديثنا حول زراعة الكروم، ثم عن مفهوم الزراعة، وراحة البال كشرط مسبق لوجود الزراعة، وتحدّثنا

عن الارتقاء بالملذّات، عن الفارق الأساسي بين البطاطس والعنب، عن المرح الروحي الذي تتسم به كلّ مناطق زراعة الكروم، عن العلاقة بين الترف والكرامة الإنسانية، وهكذا - ... لم تفتني اللافتة الصغيرة على سياج الحديقة الحديدي: Swiss pottery.

من دون أن نقطع حديثنا قادني شتيلر، بعد أن دفع بقدمه الباب الصغير الصدئ، على طريق مفروش بالحصى، ومن بينها نمت طحالب، ومررنا بأشكال وألوان من أقزام الحديقة، إلى أن وصلنا إلى بيت أحلامه.

الحالة المتدهورة في كلّ أنحاء المنزل برّرت على الفور الإيجار المنخفض. مزهريات مزخرفة من الحديد الزهر، بها بعض الأضرار، تمثال لأفروديت أو أرتميس من الحجر الرملي بذراع مكسورة، دغل صغير هو بالتأكيد حديقة الورد المعنية، سلالم في كلّ مكان، مائلة، مزوّدة يميناً ويساراً بصفّين من التماثيل الصغيرة، بعضها متداعٍ، ويظهر أنها ليست مصنوعة سوى من الأسمنت، حوض بئر طفت عليه الطحالب، بيت قديم للكلاب، شرفات حافلة بالحشائش، كانت تلك تقريباً هي الحديقة التي سكنها جيش من الأقزام المرحين المصنوعين من الخزف الملوّن، بعضها مكسور، وبعضها سليم. كنت لا أزال أعتبر ذلك مَعْبراً فحسب إلى البيت. راح شتيلر يتحدّث ويتحدّث، دون أن تزعجه البيئة الغريبة أقل إزعاج، فقد كان يعرفها جيداً. أما المنزل نفسه، وهو عبارة عن شاليه، فقد كان لحسن الحظ مغطّى باللبلاب، الجزء العلوي المبتذل فحسب بقي مرئيّاً، برج صغير من الطوب الأحمر به فتحة لطيفة لإطلاق النار، مثل قلاع العصور الوسطى؛ الواجهة خشبية مثقلة بالزخارف الرقيقة، في مكان آخر حجر طفّة بركاني مربّع الشكل، وكل هذا يستظلّ بسطح بارز بروزاً شاذّاً، مع أنه لم يكن كبيراً، بل صغيراً مثل لعبة أطفال حتى إنني لم أصدّق

عيني. كان «شفيتسر هوزلي»، بيتاً سويسرياً تقليدياً، ذا قرابة جزئية بعيدة مع قلعة اسكتلندية. سحب شتيلر الآن القنينتين من حقيبة الظهر، وتصيّد المفتاح من جيب سرواله، ثم قال إن السيدة يوليكا ستحضر بعد نحو ساعة من مدرسة البنات. نحن في المكان إذاً. وكما هو الحال في كثير من الشاليهات من هذا الطراز توجد هنا أيضاً مائدة من الرخام الزائف، محفور عليها بالفرنسية بلون ذهبي، اسودّ في بعض الحروف، «استراحتي»: MON REPOS.

لم تكن هناك مفاجآت أخرى في الداخل. دبّ خشبي كان يقف مستعدّاً لاستقبال مظلّات المطر، وفوقه مرآة عليها بقع مظلمة. عصر ذلك اليوم كان مشمساً، وضوء بحيرة جنيف كان منعكساً على أسقف كلّ الغرف، سواء على الزخارف الجصية الرمادية أو على الحصائر العارية المصنوعة من الغاب. ضوء أخضر نفذ من الشرفة المغلقة بألواح زجاجية على طراز الشباب، وكأنه منبعث من حوض سمك، المرء يسمع ضجيج القطارات وكأنه في كشك عامل التحويلة على خط السكة الحديد، وبالقرب تماماً يُسمع أزيز التلفريك المنزلق على السلك المعدني المُشحّم. كان شتيلر منشغلاً، وهكذا كان بإمكاني أن ألقي نظرة على المكان، أو ربما كان عليّ أن أفعل ذلك لقتل الوقت؛ وضع نبيذنا الأبيض تحت شعاع من الماء البارد. وبعد ذلك جلسنا في الهواء الطلق على الدرج المغطّى بالطحالب والموصل إلى الشرفة، محاطين بأقزام الحديقة دائمي المرح. وأخيراً لم يكن هناك مفرّ من أن أقول: «هذه هي مزرعتك إذاً؟!».

بدا أن شتيلر لا يريد التطرّق مطلقاً إلى الفارق بين الوصف والواقع، ولم يقل سوى العبارة التالية: «خسارة أنك لم ترَ الثمانين شجرة دردار التي كنت أملكها؛ لقد قطعوها لأنها كانت مريضة، حسبما قالوا».

وبهذا كانت المزحة قد انتهت. سألته: «وكيف حالك؟».

تولّد لديّ الانطباع بأن شتيلر قد عزم على عدم الشكوى. أجاب عن سؤالي بسؤال: «وكيف حال زوجتك؟».

خلال الأحاديث اللاحقة أيضاً تحاشى أن يذكر اسمها؛ لا أعرف لماذا. غير ذلك لم يسأل عن أحد، وفي الحقيقة كان حديثنا مرهِقاً للغاية. سألته حتى أقول أيّ شيء: «لماذا لا تضع أقزام الحديقة في المخزن؟».

هزّ شتيلر كتفيه: «ليس لديّ وقت، لا أعرف، هي لا تضايقني!».

رغم كلّ شيء كان لديّ الشعور بأن زيارتي أبهجته.

قال لي: «عندما تأتي يوليكا، سنحتسي نبيذنا!».

شرعنا ندخّن... أتذكّر بدقة بالغة الربع ساعة هذه التي لم نقل فيها شيئاً ذا بال. ماذا يفعل الإنسان بوقت حياته؟ لم أكد أشعر بهذا السؤال عن وعي، لكنه أربكني. كيف يتحمّل هذا الشتيلر الوضع، أن يجلس هكذا أمام هذا السؤال، بلا أيّ حماية، وفي الوقت نفسه دون أهمية اجتماعية أو مهنية؟

جلس على الدرج المتهالك، رافعاً إحدى ركبتيه، وشابكاً يديه حولها؛ لدى رؤيته لم يكن بمقدوري تخيّل كيف يستطيع تحمّل وجوده، نعم، وكيف يتحمّل الإنسان عموماً وجوده، إذا كان واعياً بخبراته، أي متحرّراً من كلّ التوقعات الباطلة! ورشة الخزف كانت في قبو مقام على المنحدر بإضاءة جيدة، كانت في ما سبق غرفة لغسل الغسيل وتجفيفه ومخزناً لأثاث الحديقة، في يوم ما كانت مطلية باللون الأبيض، أما اليوم فجدران الغرفة مكسوة بورق حائط يلمع بلون رمادي رغم نفاذ الشمس إليها من الظهيرة حتى المساء. شعرت بالارتياح، هنا كان بإمكاني تصوّر أيام صديقنا على نحو أيسر.

- «على المرء أن يفعل شيئاً!».

قال لي عندما تفرّجت على ما أنتجه، على «الخزف السويسري» كما أطلق عليه، الذي يكسب به نقوده القليلة.

قال في لحظة: «هذه الآنية الصغيرة المسطّحة هي أكثر ما يعجب يوليكا».

وفي لحظة أخرى: «كلّ شيء لا بدّ من تعلّمه، كما تعرف، ولن أصبح أبداً خَزّافاً حقيقياً!».

ببهجة خاصة عرض عليّ شتيلر عجلة فخّار صنعها بنفسه. كشخص لا يفهم شيئاً في الفخار كنت أنظر إليه باعتباره أستاذاً في حرفته عندما راح يتحدّث عن الفخّار عبر الأزمنة ولدى الشعوب المختلفة، عن سرّ أنواع معيّنة من التزجيج. كيف كان يبدو تغيُّره؟ كان ذهنه الآن مركّزاً على الأشياء أكثر مما مضى، هكذا بدا لي. هكذا، كما كان في السابق يتحدّث عن نفسه فحسب خلال حديثه عن الزواج عموماً، أو عن الزنوج، أو البراكين، أو عن أيّ شيء آخر، هكذا راح يتحدّث الآن عن «فخّاره»، عن عجلة «فخّاره»، وعن «تزجيجه»، بل حتى عن «قدرته»، دون أن يتحدّث بكلمة واحدة عن نفسه.

«السيد المدّعي العام!»، هكذا حيّتني السيدة يوليكا. طبع شتيلر قبلة على خدّها؛ كانت يداه متّسختَين بعض الشيء من عجلة الفخار. لاحظتُ أن السيدة يوليكا قد تقدّمت في السن بشكل واضح، ما زالت امرأة جميلة، ما زال شعرها الذي يشبه شعر البنات يلفت النظر على نحو يثير غرابة متزايدة، شعر يلمع بلا مواد تجميل كثيرة.

«ها هو ذا يجد سبباً جديداً لشرب النبيذ!»، قالت عندما سار شتيلر إلى زجاجاته، ولكن بعد أن نصب من أجلنا في الحديقة كرسيّين متهالكين يمكن الرقاد فوقهما. قالت السيدة يوليكا: «المكان جميل هنا، أليس كذلك؟!».

رغم كلّ التعاطف الذي كنت أشعر به وبشكل متزايد مع هذه المرأة غير العادية، فلم أعرف قطّ عن أيّ شيء يمكنني أن أتحدّث معها. برودها، على الأرجح، قناعٌ فحسب يخفي خجلها، لا ينبغي على المرء أن يأخذه مأخذاً شخصيّاً. أظن أنها لم تكن تعي اقتضابها في الكلام، ولذلك لم يكن بمقدورها أن تفهم أن المرء لا يشعر بمحبّتها أو فرحتها باللقاء أو بهدية صغيرة. راحت تتأمل المفرش المطبوع باليد. لم تقل سوى: «أترى، لم تعد مثل هذه الأشياء تُصنع هنا».

أعتقد أنها تخجل بشدة من التعبير عن نفسها بكلمات، من ناحية أخرى فإن الطريقة التي وضعت بها المفرش الصغير على الفور جانباً، رغم أنه ربما أعجبها، أربكتني حقّاً، وكأنني كنت أتوقع أن تشكرني بحرارة. استعلمتُ عن عملها في مدرسة البنات في الوادي، لكني لم أحصل على أيّ معلومات تقريباً، وكان عليّ أن أفكّر في ما يمكن أن يثير اهتمامها. اتكأت برأسها ذي الشعر النحاسي إلى الوراء، من المفهوم أنها كانت متعبة قليلاً من عملها النهاري.

- «صاحبنا شتيلر أصبح خَزّافاً حقيقياً!».

هكذا بدأتُ كلامي، فأومأتْ. كان قد لفت انتباهي قبل ذلك في القبو قول شتيلر: «هذه الآنية الصغيرة المسطّحة هي أكثر ما يعجب يوليكا». يستنتج المرء من العبارة أن التقدير من جانب زوجته تقدير متوسط، أو أنها تهتمّ اهتماماً قليلاً، أو حتى ترتاب في محاولاته، نعم، يبدو أن شتيلر يفتقد شيئاً، كالتشجيع، النقد في إطار الإعجاب؛ هناك، في القبو، كان من الممكن أن يعتقد المرء أن السيدة يوليكا تنظر إلى كلّ أعماله الفخارية باعتبارها في الحقيقة مجرّد خزعبلات. والآن تقول لي: «ألا ترى حضرتك أن ما أنجزه خلال عامين شيء لا يصدّق؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

نعم، كان هذا رأيي أيضاً. قلت لها: «يجب أن تتفضّلي وتقولي له ذلك، سيسعده جدّاً».

- «ألم أقل له؟».

قلتُ متحاشياً الردّ: «حضرتك تعرفين كيف نفكّر نحن الرجال! الرجل يريد أن يترك انطباعاً لدى من يحبه، فإذا فشل في ذلك، فإنه يذهب إلى الرأي العام!».

كنت أمزح. فقالت السيدة يوليكا وهي تدعك عينيها بكلتا يديها: «ما أكثر ما يتوقعه مني دائماً! ألم أقل له ذلك؟ ولكن إذا كان لا يسمعني...».

لم تكن نيّتي أن أتوسّط بينهما على أيّ نحو من الأنحاء، فقطعت الحديث. دخل شتيلر المكان فجأة قائلاً: «ما زلتما تتحدّثان كغريبين ولم ترفعا الكلفة بينكما بعد؟».

وبذلك جعل شتيلر ارتباكنا كاملاً.

أضاف متجاوزاً صمتنا: «في صحّتكما إذاً!».

قرعنا كؤوساً صغيرة باردة، شتيلر وأنا.

- «لن تشربي؟!».

سألها عندما لم تتناول السيدة يوليكا كأسها الممتلئة، إذ لم تكن لديها رغبة، ثم قال مكرّراً: «في صحّتكما إذاً!».

لوهلة فكّرت فعلاً فيما إذا كانت السيدة يوليكا تنتظر طفلاً؛ رفضها احتساء النبيذ كان صامتاً وحاسماً، وكأنه لا يجوز لها أن تشرب. شعرت بالأسف لأن السيدة يوليكا لم تبلّ على الأقل شفتيها بالخمر. من البداية استبعدت نفسها من الصحبة. لا شيء شائك مثل الصحبة الثلاثية، هذا ما أصل إليه دائماً! إثر ذلك حاولت بكلّ جهدي ألّا أظهر في مظهر الحليف مع شتيلر. الأمر سهلٌ بالنسبة إليه، فهو موهوب موهبة أنثوية في التأقلم،

من ناحيتها لم تُبدِ السيدة يوليكا أي مقاومة تجاه استبعادها من الحديث. بلا كلام كانت ترقد على شعرها؛ وجهها الذي كنت أراه من الجانب جذبني وأقلقني بالقدر ذاته، بدت لي ملامحها وكأنها الذعر الصامت، المتجسّد دائماً. لم يهتمّ شتيلر بذلك، كان مستمتعاً بإطلاق أكاذيبه الصغيرة، الذكية واللطيفة، وكان يتوجّه في كثير من الأحيان بالكلام إلى السيدة يوليكا، بنبرة يمتزج فيها الرجاء الرقيق بالإجبار والاهتمام بها في الوقت نفسه. في كثير من الأحيان كنت أقول لنفسي: إنه يستسهل الأمر، يستخدم جاذبيته الكبيرة، وهذا أمر لا يكلّفه شيئاً. كما أن شتيلر يريد دائماً -هكذا يبدو لي- أن يعوّضها عن شيء، عندئذٍ يصبح مهذّباً إلى حدّ الخوف.

رجته يوليكا: «دعك من ذلك! لا أحتاج إلى وسادة، فعلاً لا أحتاج إليها!».

شعر شتيلر بالرفض، وبعد نظرته القصيرة إلى السيدة يوليكا استنتج أنها ظلمته بصدّها. لو طلبوا رأيي كقاضٍ لكنت أعطيت السيدة يوليكا الحقّ في ما يتعلّق بعدم حاجتها إلى الوسادة المقدّمة. قلتُ لأغيّر الموضوع: «وأين تريد أن تبني فرن الحرق الخاص بك في المستقبل؟».

لكن شتيلر لم يُرِد أن يسمع. ألحّ على المسكينة يوليكا قائلاً: «ولكن لماذا لا تريدين هذه الوسادة؟».

تناولت يوليكا الوسادة أخيراً، حتى يهدأ، تناولتها بلا كلمة شكر، ولكنها لم تضعها خلف عنقها، بل تحت ركبتها حيث كان بإمكانها تجاهلها. شخصان لديهما نيّة طيبة! هكذا قلت لنفسي، ثم امتدحت النبيذ المبهج. دون أيّ سياق حقيقي تحدّثت عن الحكاية الصغيرة التي سمعتها منذ فترة طويلة: «أنتَ اكتشفتَ المكسيك ذات يوم، ولهذا ستثير هذه الحكاية اهتمامك! كان لدى أحدهم مزرعة لتربية الخنازير، لم أعد

أعرف أين، لكنها لم تكن مربحة قطّ، لا أعرف لماذا، كان يعمل بكلّ جهده ليل نهار، من دون جدوى، مع أنه استثمر كلّ ماله ونصفَ حياته في هذه المزرعة، كلّ طموحه، باختصار: لم تؤتِ المزرعة ثمارها، وفوق ذلك حلّت فترة جفاف كارثية. جفّ النهر، لا أعرف أيّ نهر، وكما يقولون فإن التماسيح كانت تتجوّل في الأنحاء بحثاً عن مياه. ذات يوم جميل جاء قطيعٌ من التماسيح، قادهم الطريق مباشرة عبر مزرعته. ماذا يفعل؟ بإمكان التعيس أن يصعد على سطح بيته، مثلاً، وأن يطلق النار عليها. لكنه لا يفعل ذلك! لقد ترك التماسيح تلتهم كلّ خنازيره، التي لم تكن تربيتها على كلّ حال تأتي له بالربح، وفي تلك الأثناء يحيط المزرعة بسورٍ متين، وهكذا تتكوّن لديه مزرعة تماسيح، ويصبح مورّداً لحقائب اليد، ورجلاً سعيداً».

قهقه شتيلر. فأضفتُ: «يقولون إنها حكاية حقيقية».

ثم يلتفت شتيلر إلى السيدة يوليكا قائلاً: «أليس هذا رائعاً؟!».

ضحكتها بقيت مجرّد رسم على الوجه، وفي الحقيقة -هكذا يبدو لي الأمر في الذاكرة- لم أرَ ضحكة أخرى لهذه السيدة. ضحكتها لا تغادر وجهها قطّ؛ وكأنها لا تعرف الضحكة التي تأتي من الأعماق، وكأنها فقدتها. إن محاولة إضحاك السيدة يوليكا أمرٌ لا طائل منه مطلقاً؛ بعد المحاولة يشعر المرء بأنه أحمق تماماً. لقد اغتظت من نفسي. لمَ هذه الثرثرة؟ كان عصر يوم خريفي ذا شمس لطيفة، الساعة التي وصفها شتيلر في إحدى رسائله: «ثم، يا عزيزي المبجّل، عندما نجلس خارج المنزل، وعندما تكفي الشمس الخريفية لكي تدخل الغبطة إلى نفسك، عندما ينضج العنب، وعندما يجثم فوق البحيرة ضبابٌ معدني، لكن القمم تبقى واضحة وملوّنة ومزدانة بالغابات الذهبية الأوراق أمام سماء كسماء البحر المتوسط، وعبر البحيرة كلّها يتكوّن طريق من الزئبق يخطف الأبصار، وفي ما بعد من النحاس الأصفر اللامع، ثم من النحاس الأحمر...».

في ما يتعلّق بالزئبق، كان الوقت قد انقضى، البحيرة الآن في مرحلة النحاس الأصفر. من حين إلى آخر كنت أجد نفسي أتلفّت؛ أقزام الحديقة دائمو المرح، الشاليه ذو البرج الصغير، الحشائش، أفروديت الرمادية، البئر الخاوية التي تغطيها الطحالب والمليئة بأوراق الشجر البنّية، مواسير المياه الصدئة المتصلة به، الشرفة ذات الزجاج شبابي الطراز، اللبلاب، التلفريك الأحمر بلون الدم في شمس الغروب - كلّ هذا بقي غير حقيقي بعض الشيء. أما هما، شتيلر والسيدة يوليكا، فقد كانا يرتديان هذه البيئة مثل بدلة غريبة، وهما على وعيٍ تامّ بأن كلّ البدل غريبة ومؤقتة. أُعجبتُ بهما. أما ما كان مألوفاً حقّاً بالنسبة لهما، فهي الشمس ببهائها العظيم على صفحة مياه بحيرة جنيف، وورشة الفخّار في القبو، وكلّ أنواع الصعوبات المعتادة بين البشر، وعلى الأرجح أيضاً ضيفهما قليل الحيلة. ما دام ترك المرء السيدة يوليكا في حالها، كان كلّ شيء يسير على نحو بديهي. أراد شتيلر الآن أن يعرف ما إذا كنت أؤمن بالقيمة التربوية للرياضة الإيقاعية. أيّدت السيدة يوليكا ذلك دون أن تقنعنا حقّاً، أما شتيلر فكان يرى أن على يوليكا أن تتفرّغ مرّة أخرى لعملٍ فنيّ خالص، وأن تؤسّس في لوزان مدرستها للباليه. لم نصل مطلقاً إلى مناقشة العوائق العملية، إذ إن السيدة يوليكا احتدّت في القول، وحزن شتيلر لأنها لا تتقبّل منه شيئاً، لا الوسادة ولا إيمانه المتأخر بفنّها. نهض متجهّماً حتى يحضر زجاجة أخرى.

قالت لي على الفور بعد ذهابه: «رولف، لا بدّ أن تُخرِج هذه الفكرة من رأسه! هذا مستحيل. أرجوك، لا بدّ أن تُخرج الفكرة من رأسه! إنه يدفع بي إلى الجنون بهذه الفكرة!».

محاولتي فحص الفكرة وفق الإمكانيات العملية، والتفكير في ما يرجوه شتيلر للسيدة يوليكا من وراء الفكرة، والسؤال عن شكل المستقبل

الذي تتمنّاه السيدة يوليكا لنفسها، كلّ هذا اصطدم بآذان صمّاء تماماً؛ لأنها لم تُرد أن تتحدّث معي، اضطجعت ثانية فحسب، وأخذت تهزّ رأسها حتى وهي راقدة. ولأنني صَمتُّ، فقد قالت أخيراً، وهي منهكة القوى تماماً: «ما الذي يريده دائماً مني؟!».

ترقرقت عيناها بالدموع؛ وتشبّثت يداها النحيلتان الباهتتان بمسندَي الكرسيّ، مثلما يفعل المرء لدى طبيب الأسنان حتى لا يرتعش بدنه. بدا لي وجهها كلّه هيستيريّاً، أعترف، ووجدت نفسي مدفوعاً إلى إبداء الرأي في موضوع من الواضح أنه يثير الجدل بينهما منذ فترة، لكن لم يكن لديّ أدنى رغبة في ذلك، لنقص معلوماتي بخصوص الموضوع. قلت لها: «لقد خدعني شتيلر بحديثه عن "مزرعته"!».

لم تردّ على كلامي، فواصلتُ: «ولكن هذا الموقع! ما أحبّه بشكل خاص في بحيرة جنيف...».

لم تسمع ثرثرتي، ولا محاولتي لكي نصل إلى حوار حقيقي.

طلبت مني مرّة ثانية وهي على الدرجة نفسها من الانفعال: «أَخرِجْ هذه الفكرة من رأسه! كيف تتخيّل تنفيذ ذلك!».

دافعتْ عن موقفها بشدّة، أيضاً تجاهي، ثم خفّفت من حدّتها، وقالت بنبرةٍ مهذّبة: «هذا مستحيل، صدّقني. هذا مستحيل!».

وبعد برهة أضافت: «ليس بمقدوره أن يعرف ذلك».

فسألتها: «ليس بمقدوره أن يعرف ماذا؟ ماذا تعنين بذلك؟».

رجتني قائلة: «لا تسألني!».

ثم استجمعت قواها وجلست مستقيمة، وتناولت سيجارة أخرى، فأخرجت لها ولّاعتي. قالت: «ينبغي عليّ ألّا أُكثِر من التدخين».

قالتها مرعوبة، وكأنني أجبرتها على ذلك، على كلّ حال لم تشكرني

على الشعلة التي لم تستخدمها. قالت وكأنها تتحدّث مع نفسها: «ليس بمقدوره أن يعرف ذلك. لقد كنت عند الطبيب...».

بالتأكيد لم تُرِد السيدة يوليكا أن تتحدّث مع أحد عن ذلك، وندمت أنها بدأت بالحديث عن هذا الموضوع؛ بالطبع كنت أنتظر تفسيراً، حتى وإن التزمت الصمت. قالت: «الرئة اليسرى بكاملها. لا أريد أن يعرف ذلك الآن. لا بدّ. بأسرع ما يمكن».

هدوءُها الفجائي، وكأنها تماسكت، حتى إنني اعتبرت المرأة التعيسة جاهلةً بالأمر تماماً، حتى وإن استخدمت لاحقاً التعبير الطبي الذي لم يقله لها طبيب، بل عقلها، نبرتها الخالية من الشكوى - كلّ هذا أذهلني حتى إنني رحت أحدّق في الأرضية وكأنني أبحث عن شيء ما في الحصى، ولم أجرؤ على النظر في وجهها حتى لا تفضح ملامح وجهي الأفكار المسيطرة عليّ. قالت بنبرة جافة: «نعم، هذا هو الوضع».

استعرت نبرتها الجافة قائلاً: «ومتى يجب إجراء العملية الجراحية؟».

كرّرت قائلة: «بأسرع ما يمكن. لا أعرف! بمجرّد أن أتغلّب على خوفي».

بعد ذلك بفترة وجيزة عاد شتيلر بقنّينة أخرى. ثم ذهب بسرعة إلى غليون لإحضار عنب. قالت السيدة يوليكا مكرّرة، وكأن الكلام ما زال يدور حول فكرة مدرسة الباليه: «أخرِج هذه الفكرة من رأسه!».

في تلك الأثناء كانت قد اضطجعت ثانية على شعرها الشبيه بشعر البنات. أعتقد أنني لم أرَ في حياتي قطّ إنساناً أكثر وحدةً من هذه المرأة.

بدا أن ثمة جداراً لا يمكن النفاذ منه بين محنتها والعالم، لم يكن ذلك موقفاً منها فحسب، كان بالأحرى يقيناً بأن أحداً لن يسمعها؛ هي خبرة قديمة، يائسة، لم تُمحَ قطّ، خبرة لا تتّهم أحداً، ولا يمكن الشفاء منها:

خبرة أن الشريك لا يسمع إلا نفسه. شعرت بدافع يدفعني لأن أسألها: ألم يحبّها أحدٌ في حياتها قطّ؟ بالطبع لم أسألها. وهل تحب نفسها؟ رغماً عني حاولت أن أنظر إليها كطفل. هل يعود ذلك إلى أنها نشأت يتيمة؟ التزمت الصمت أيضاً، وبمرور الدقائق كنت أنتظر أن تبدأ السيدة يوليكا في البوح، وكنت في تلك الأثناء أسمع صوت تنفّسها الأجوف. ماذا حدث لهذا الإنسان؟ لم أُرِد أن أصدّق أن إنساناً يمكن أن يكون هكذا منذ بداية حياته، عاجزاً عن التعبير حتى في حالة المحنة الصارخة. من جعلها هكذا؟ كان شتيلر قد تغيّب ربع ساعة، وخلال ربع ساعة أخرى سيكون هنا. وأخيراً بدأت تتكلّم: «أنت أيضاً تنتظر مني أن أقول لك شيئاً؟ ليس لديّ ما أقوله. كيف ينبغي عليّ أن أتغيّر! إنني كما أنا. لماذا يريد شتيلر دائماً أن يغيّرني؟».

- «أيريد ذلك؟».

- «أعرف، ربما تكون نيّته طيبة، إنه مقتنع بأنه يحبني».

سألتها: «وأنت؟ هل تحبّينه أيضاً؟».

أجابت بعد تفكير مضنٍ: «قدرتي على فهمه تقلّ يوماً بعد يوم. هل تعرف يا رولف ماذا ينتظر مني دائماً؟».

في إثر ذلك حاولتُ أن أشتّت أفكاري، دون أن أنسى بالطبع كلامها الفظيع، حاولتُ أن أصوغ أفكاري آنذاك عن شتيلر، عن طبيعته البشرية، عن الظروف والإمكانيات، عن تطوّره في السنوات الأخيرة، حسبما اعتقدت أنني شعرت به؛ حاولت ذلك على نحو لا يتهم ولا يدافع، ولا يكاد يجمّل أيضاً. تكوّن لديّ انطباع منذ فترة أن السيدة يوليكا أصبحت تصغي إليّ. بالتأكيد كنت في وضع يسمح لي بأن «أفهم» شتيلر أكثر من السيدة يوليكا، ومن هنا تحديداً فهمت واجبي الحالي بعد سؤالها الأخير. أثناء حديثي كنت أرسم خطوطاً في الحصى بأحد الأغصان. وعندما كنت

أتطلّع إليها بين الحين والآخر لكي أستشفّ على الأقل من ملامحها رأيها في ما يتعلّق بفكرة، أو بسؤال لا أستطيع حسمه كرجل، كنت أجد وجهاً شائهاً تماماً – لن أنسى أبداً هذا الوجه الذي لم يعد وجهاً. فمها مفتوح كما في أقنعة العصور القديمة. عبثاً حاولت أن تعضّ على شفتيها. بقي فمها مفتوحاً، مرتعشاً، ومتجمداً. رأيت نحيبها، وكأنني مصابٌ بالصمم. عيناها مفتوحتان لكنهما لا تريان، غائمتان في دموع تنهمر بلا صوت، قبضتاها الصغيرتان في حِجرها، وجسدها يرتعد، هكذا كانت تجلس، لم يعد المرء يستطيع التعرّف على ملامحها، ولا يمكن الوصول إليها بالنداء، لم يعد ثمة ملمحٌ شخصيّ على وجهها، لا صوت، لا شيء سوى جسد يائس، جسد يصرخ خائفاً من الموت. لم أعد أعرف ما فعلته. في ما بعد، عندما أمسكت بقبضتيها الصغيرتين اللتين كانتا لا تزالان ترتعشان من التشنج، ثم هدأ وجهها بعد أن وصل إلى مرحلة الإنهاك، قالت: «عليك ألّا تقول له!».

أومأت حتى أؤازرها بأيّ طريقة كانت. فطلبت مني: «عِدني بذلك!».

بعد ذلك بفترة قصيرة جاء شتيلر بالعنب. نهضت السيدة يوليكا بسرعة، ثم استدارت إلى الجانب؛ من بعيد قالت شيئاً عن الحلوى ثم اختفت. أصرّ شتيلر على أن أتذوّق العنب الذي أحضره كتحلية بعد الأكل. ألم يلاحظ شيئاً حقّاً، أم أنه تظاهر بذلك؟ لم أستطع أن أحسم الأمر. راح شتيلر يؤكّد فرحته بالزيارة، وقال لي إنه يتوقّع أمسية احتفالية. وجّهت دفة الحديث إلى النبيذ، ثم سألني شتيلر على نحو عرضي عن رأيي في يوليكا. ثم أضاف: «أقصد من الناحية الصحّية. ألا تبدو في مظهر رائع؟».

كنا نقف ونشرب، واليد اليسرى في جيب السروال. عندما عادت السيدة يوليكا بالحلوى أخيراً، كانت ترتدي سترة صوفية، بدت فيها رائعة. كانت قد وضعت بعض المساحيق؛ ولكن ليس هذا وحده هو السبب. بدا

أنها هي نفسها لا تعرف السبب. كان لديّ شعور محيّر بأنني أمام شخص آخر تماماً؛ وكأنني كنت أحلم فحسب بهذه السيدة. أصبح الجوّ أكثر برودة بالفعل، فدخلنا إلى المنزل. لم أستطع أن أتخيّل كيف سأقضي هذه الأمسية، ولكن بالنسبة إلى شتيلر لم يكن ثمة شيء غير عادي، ولا بالنسبة إلى السيدة شتيلر.

في تلك الفترة لم أكن أعلم بعدُ بوجود مذكّرات شتيلر، لكنني كنت أعرف أن شتيلر كان يكتب في فترة الحبس على ذمة التحقيق ما يشبه اليوميات. ليس هدف هذا التعقيب أن أكتب تصحيحات عديدة لنصه. لقد بدا لي طيشه واضحاً في مذكّراته، وكذلك ذاتية كتابته الواعية، رغم أن شتيلر لم يتورّع عن التزوير أحياناً، لكن تلك المذكّرات يمكن اعتبارها صادقة كتقرير عن معايشاته الذاتية. لقد أذهلتني الصورة التي تعطيها هذه المذكّرات عن السيدة يوليكا؛ ويبدو لي أنها تشي بمعلومات عن صانع هذه الصورة، أكثر من تلك المعلومات التي تعطيها عن الشخص الذي اغتصبته هذه الصورة. أليس في محاولة تصوير إنسان حيّ شيء غير إنساني؟ هذا سؤال كبير. سؤال يمسّ بصورة جوهرية شتيلر. معظمنا لا يكتب مذكّرات، لكننا ربما نفعل الشيء نفسه من دون أن نترك أثراً، والنتيجة مُرّة في كلّ الحالات.

ظلّت زيارتي إلى غليون تشغلني بالطبع فترة طويلة بعدها. بعد عودتي بفترة وجيزة تلقّيت رسالة من السيدة يوليكا، ناشدتني فيها، دون إبداء أسباب، ألّا أبوح بشيء مما قالته لي. أيّاً كان رأيي في ذلك، فلم يكن من حقّي أن أتدخّل من الخارج وأكسر هذا الصمت بين زوجين، وأن أرفع التكليف، فقط كمطّلع بالمصادفة على الأمر، وعلى الأرجح كشخص غير

مرغوب في اطلاعه. أكانت السيدة يوليكا التعيسة تخشى أن يتهوّر شتيلر ويفعل أمراً لا تتحمّله؟ لا أعرف. أم كان لديها سبب يجعلها تأمل بعض الأمل في ألّا يصل الأمر إلى عملية جراحية؟ ما شغلني أيضاً كان بالطبع شتيلر نفسه. بدا لي أن شيئاً ما قد حدث لشتيلر. لقد خرسَ داخله السؤال المؤرق عن نظرة الآخرين إليه، خرسَ داخله الخوف من أن يخلط الآخرون بينه وبين شخص آخر. في التعامل معه أحسست وكأنني قد تحرّرت من شعورٍ قهريّ لم أكن على وعي به تقريباً حتى الآن؛ أنا نفسي أصبحت أكثر حرية. ما دام الإنسان لا يقبل نفسه، فسيلازمه الخوف من أن المحيطين به يسيئون فهمه ويسيئون تفسير كلامه؛ من الأهمية البالغة بالنسبة إليه كيف نراه، وبخوفه العنيد من أن نجبره على لعب دور زائف، يجعلنا بالضرورة عنيدين أيضاً. إنه يريد أن نحرّره؛ لكنّه هو نفسه لا يتركنا أحراراً. لا يسمح لنا مثلاً بأن نخلط بينه وبين شخص آخر. مَن يغتصب مَن؟ يمكن قول الكثير عن ذلك. إن معرفة الذات التي تسبب الغربة البطيئة أو الفجائية لحياة إنسان، لهي مجرّد الخطوة الأولى التي لا غنى عنها، لكنها ليست كافية بأيّ حال من الأحوال. كم إنساناً نعرف قد توقفوا عند هذه الدرجة، واكتفوا بالحزن المتولّد عن معرفة الذات وما يُكسبه من نضج ظاهري! أعتقد أن شتيلر تجاوز ذلك منذ أن ادّعى أنه مفقود. وقد كان على وشك أن يقوم بالخطوة الثانية والأصعب بكثير، خطوة الخروج من الاستسلام الذي يتملّك المرء لأنه ليس كما يودّ أن يكون، وأن يصبح ما هو بالفعل. ليس هنالك أصعب من قبول الذات! هذا شيء لا يستطيعه في الحقيقة سوى الإنسان الساذج، غير أنني لم أصادف في عالمي إلا أشخاصاً قلائل يمكن وصفهم بالسذّج بهذا المعنى الجيد. وفي رأيي فإن شتيلر، عندما قابلناه في حبسه الاحتياطي، كان قد أنجز قبوله المؤلم للذات بدرجة لا بأس بها. لماذا يصدّ المحيطين به كلّهم على هذا النحو الطفولي، ويصدّ

رفقاءه القدامى؟ كان من حظي أنني لم أتعرّف على شتيلر القديم بصورة مباشرة؛ لقاؤنا الآن أتاح لنا علاقة عقلانية أسهل بكثير. رغم قبول الذات، ورغم إرادة مواجهة الحقيقة الذاتية أخيراً، فإن ثمة شيئاً لم ينجزه صديقنا مطلقاً، أعني التخلي عن تقدير المحيطين به. كان يشعر بأنه أصبح إنساناً آخر، وعن حقّ، لقد كان شخصاً آخر غير ذلك الـ«شتيلر» الذي تعرّف عليه الآخرون على الفور، وكان يريد أن يقنع كلّ إنسان بذلك. كان ذلك تصرّفاً طفولياً. ولكن كيف يمكننا أن نستغني عن ذلك، على الأقل عن أن يتعرّف القريب منا علينا، علينا في حقيقتنا التي لا نعرفها نحن أنفسنا، الحقيقة التي، في أفضل الأحوال، نعيشها فحسب؟ لن يصبح هذا ممكناً أبداً من دون اليقين بأن حياتنا موجّهة من سلطة فوق بشرية، من دون الأمل الحماسي بوجود مثل هذه السلطة.

أدرك شتيلر ذلك متأخراً جدّاً. هل أدرك ذلك؟ بعد تلك الزيارة الأولى في الخريف تولّد لديّ هذا الانطباع، دون أن يقول شتيلر كلمة بهذا الشأن؛ ربما لهذا تحديداً. شتيلر نفسه، والأرجح أن هذا من أسباب صمته، لم تكن لديه رغبة مطلقاً في أن يفسّر تحوّله. حتى عمله الجديد لم يكن هدفه التعبير عن مكنون نفسه؛ كان ينتج صحوناً وفناجين وأوعية، كلّها أشياء نافعة، وبذوقٍ عالٍ في رأيي، لكنها لم تعد تمثيلاً لذاته. لقد تحرّر من الخوف، خوف ألّا يتعرّف عليه الآخرون، وبالتالي كان المرء يشعر بنفسه أكثر حرية معه أيضاً، وكأن المرء قد أفلت من مسار ضيّق. أدركت الآن أيضاً لماذا كنت أشعر، رغم كلّ التعاطف، ببعض الخوف من مقابلة شتيلر. قد تكون كلمة «الصمت» كلمة خاطئة، مضلّلة. بالطبع لم يكن شتيلر مقتضباً في كلامه على الإطلاق. ولكنه كان، مثل أيّ إنسان وصل إلى ذاته، ينظر إلى البشر والأشياء نظرة من خارج ذاته، ثم بدأ ما أحاط به يتبلور ليغدو عالماً، شيئاً آخر سوى إسقاط الذات على الآخرين، الذات التي لم يعد

يبحث عنها في العالم ولم يعد يخفيها. لقد بدأ هو ذاته في أن يعيش في العالم. كان ذلك هو انطباعي بعد الزيارة الأولى في غليون، وأيضاً بعد رسائله الأولى، ما دامت لم تكن تتمحور حول السيدة يوليكا. أمام السيدة يوليكا، الرفيقة السابقة، كان الوضع كأصعب ما يكون، وهذا مفهوم، وكان الإغواء كأكبر ما يكون، إغواء الارتداد إلى المخاوف القديمة والارتباكات المدمّرة، وألّا يكون شتيلر قد ابتعد بالمسافة الكافية عما كانه، الأمر الذي برهنه حقّاً عبر سلوكه تجاه الآخرين. الماضي المشترك ليس شيئاً هيّناً؛ فالتعوّد الذي يبدأ مع كلّ ارتخاء طبيعي في قوانا أمرٌ شيطانيّ، وكذلك العادات التي تلازمنا في كلّ خطوة. إنها تشبه النباتات المتسلّقة التي تلتفّ على ساقي السبّاح؛ ومَن منا لا يعرفها! من ناحية أخرى، أعتقد أن صديقنا كان يعرف استحالة هروبه؛ لا فائدة من أن تبدأ في مكان ما حياة جديدة، وأن تترك القديم ببساطة. ألم يكن هدف شتيلر بالأحرى هو تجاوز ما فات في علاقته مع هذه السيدة، تجاوز الأشياء العقيمة التي قيّدتهما، أي عدم الهروب، بل دمجها في الحاضر الحيّ؟ غير هذا لن يكون الحاضر الجديد حقيقياً أبداً. هذا هو الهدف، التحقّق أو الفشل، التنفّس أو الاختناق، وبهذا المعنى فقد دار الأمر حول الحياة أو الموت، أو بالأحرى: حول الحياة أو الفناء. من البديهي أن العلاقة مع امرأة، بمعنى الزواج منها، لا تحتاج دوماً إلى هذا الاختبار الأخير؛ لكن هذا ما حدث في حالتنا هذه.

ثمة أشكال عدّة من الاختبارات؛ وقد وجد شتيلر اختباره الخاص على كلّ حال. أملنا، كما ذكرت، يرتكز على خبرتنا السعيدة، أن يكون شتيلر، على الأقل في التعامل مع أصدقائه، قد وصل إلى استعدادٍ حيّ، خالٍ من المخاوف، استعداد لا ينبع من الإرادة فحسب، بل استعداد بديهي وحقيقي، أن ينتبه، بعد وصوله شيئاً فشيئاً إلى ذاته، أكثر فأكثر إلى البشر والأشياء خارج ذاته، سواء كان يحبها أو يكرهها. قرية «كو» على

سبيل المثال كان يكرهها، كراهية عميقة متأصلة، وبلا حدود أيضاً. لقد ظلَّ شتيلر إنساناً عاطفياً، عقلاً مشوّشاً، لم يكن حب صديقنا حبّاً معتدلاً موجّهاً إلى الجميع، كلّا، لكنّه، على ما أعتقد، كان حباً يزيد عن كلّ ما شعر به من عاطفة طوال حياته، والمأمول هو أن يصل هذا الحب أيضاً إلى السيدة يوليكا التي تحتاج إليه بشدّة.

مضى الشتاء دون لقاء. من رسالة إلى أخرى كنت أنتظر بالطبع خبراً عن العملية المرتقبة أو العملية التي كنت آمل أن تكون قد أُجريَت بنجاح. كلّ تلميح غير مفهوم بالنسبة إليّ (مثلاً: «ملحوظة: كيف يتصرّف المرء في ظلّ لعنة أصابته») كنت أفسّره على الفور بأن صديقنا قد عرف الخبر. لكن الرسالة التالية كانت تدحض ظني، إذ إنه لم يكد يقدّم إجابة عن السؤال حول الحالة الصحية ليوليكا، أو كان يستبشر خيراً. كنّا آنذاك في فبراير. بدا أن العملية المرهوبة ليست ضرورية، شعرت بالارتياح، ولم أندهش سوى لأن السيدة يوليكا، الواثقة من مشاركتي الوجدانية، لم تخبرني بأيّ شيء قطّ. ولكن، هذه هي طبيعتها على كلّ حال. ذات يوم وصلني الطرد بالكرّاسات السبع الممتلئة عن آخرها بالكلام، الكرّاسات التي دُوّنت في الحبس الاحتياطي. «هنا أوراقي!»: لم يكتب شتيلر سوى هذه الجملة. وظلَّ مجهولاً بالنسبة إليّ السبب أو الهدف من إرسال هذا الطرد الذي لم يعدني به قطّ. هل أراد أن يتخلّص منها، من هذه الأوراق حتى لا تحوم روحها في المنزل وتنغّص عليه عيشته؟ بعد قراءة متقطّعة انتابني أمل أكثر إلحاحاً من ذي قبل، أن يتقدّم شتيلر -أيضاً في ما يخصّ السيدة يوليكا التي تراءت لي في هذه الأوراق وكأنها قد اغتُصبت على نحو بشع- إلى الحقيقة الحيّة، وفي الوقت نفسه تسلّلَ إليّ خوف من أن الوقت المتبقّي لن يكفي.

أُجريت العملية الجراحية في مارس. لم نُخبَر بذلك عندما سافرنا أنا وزوجتي في عيد القيامة إلى غليون. كنا قد اتفقنا قبل ذلك بفترة طويلة على أن نقوم بزيارة ليومين أو ثلاثة أيام، نربطها برحلة في إجازة عيد القيامة عبر سويسرا الفرنسية. تعجّبنا عندما وقفنا أمام باب «الاستراحة» المغلق. لوهلة شعرت -وأنا أطوف حول الشاليه وأنادي من جميع جوانب البيت- وكأن شتيلر وزوجته لم يعودا يعيشان هنا مطلقاً، لم يعودا في غليون، ولم يعودا على الأرض، أنهما اختفيا تاركين هذا «الكيتش» الغريب، هذا المنزل الذي لم يكن يوماً منزلهما. الباب الزجاجي المؤدي إلى القبو لم يكن مقفلاً، لكن أحداً لم يكن في ورشة الفخار. على كلّ حال كان المنظر يدلّ على أن هناك أعمالاً جديدة صُنعت؛ على الطاولة مئزرٌ كان في يومٍ ما أزرق، ومن كثرة الغسيل أصبح بلا لون، وكأن أحداً ألقاه في عجالة؛ كتلة طينية رطبة على عجلة الفخار. قرّرنا الانتظار. كان يوماً مطيراً، والضباب عالق فوق بحيرة جنيف؛ جلسنا مرتدين معطف المطر على الدرج المبتلّ، وراح كلّ منّا يقنع الآخر أنه ليس ثمة داعٍ للقلق. أقزام الحديقة المبتلّة، والتي جعلها البلل تلمع وتبرق، والبيت الذي يغطي واجهته اللبلاب، والبرج الصغير المبني بالطوب الأحمر، السور الحديدي الصدئ، المائدة المصنوعة من الرخام الزائف بالكتابة التي سقطت معظم حروفها، الطحالب المبتلّة التي حال لونها إلى السواد في البئر المتصدّعة، كلّ شيء ما زال هناك، ولم يتغيّر أدنى تغيير، لكنه، بلا شمس، كان كئيباً. حاولنا على الفور بالمزاح أن نزيل الكآبة، لكن من دون جدوى. التلفريك الأحمر كان يمرّ بنا خالياً من الركّاب. بعد ساعة بدأت الدنيا تظلم؛ القطارات في أسفل الوادي أنارت كشّافاتها، فنادق مونترو تتلألأ بالأضواء، أما حولنا فاللون الرمادي هو السائد. ظلَّ منزل صديقنا بلا ضوء. تساقطت قطرات المطر من الأشجار. قلتُ: «فلنذهب إلى فندق، ولنتّصل في ما بعد!».

تردّدت زوجتي، ثم قالت: «لقد انتظرنا فترة طويلة!».

بعدها دخّنّا سيجارة أخرى. أضواء مونترو، رغم أنها لا تستحقّ هذا التشبيه، ذكّرتني ببابل المتوهجة التي شاهدناها منذ سنوات عديدة تحت أقدامنا، آنذاك في بار «رينبو»... أتى شتيلر بلا معطف أو قبعة، اعتذر لأنه لم يترك لنا ورقة على الباب، لقد نسي بالفعل موعد وصولنا. جاء من مستشفى «فال مون» حيث أجروا العملية للسيدة يوليكا قبل الظهر. حضر لتوّه من أول زيارة لها. كلماته التي لم تكن مفهومة تماماً وجّهها في المقام الأول إلى زوجتي التي ظلّت جالسة كالمشلولة على الدرج المبتلّ، وقد دسّت يديها في جيبَي المعطف. ثم شرع المطر يهطل من جديد. أخبرنا شتيلر برأي الطبيب، وهو مفعم بالثقة المشوبة بالخوف. قال إن العملية سارت سيراً مُرضياً للغاية، سيراً حسناً للغاية، سارت على أفضل نحو ممكن. لم يكن واضحاً لي ما إذا كان يدرك أهمية العملية، أم أنه يهوّن من الأمر أمامنا فحسب حتى لا يجد نفسه مجبراً على تحمّل ذعرنا أيضاً. لم تتعرّف السيدة يوليكا عليه، ولم تستطع أن تقول شيئاً أيضاً. الكثير يتوقف على هذه الليلة، قال متشبّثاً بسماح الأطباء له بزيارتها مرّة أخرى في التاسعة من صباح الغد وكأنه يتشبّث بعزاء موضوعي. ثم قال لنا: «لماذا نقف هكذا في المطر! فلندخل إلى البيت، جميل أنكما أتيتما!».

داخل البيت، في الضوء، كان شاحباً كالأموات، كان منشغلاً بحقائبنا، ولم يتنازل عن طهي عشاء محترم لنا. كانت زوجتي محقّة أنها لم تمنعه عن ذلك، بل حتى شجّعته مدّعيةً أن لديها شهيّة لأكل شيء ساخن. «أليس كذلك؟»، قال شتيلر، «أليس كذلك؟». ثم ساعدته قليلاً جدّاً؛ العمل كان هو الشيء الوحيد الذي يجعل صديقنا يسترخي. قال لي شارحاً: «أتعرف؟! هذه العملية تُجرى كثيراً جدّاً».

عندما يسمعه المرء، ينتابه بسرعة الظن بأن الناس الذين يعيشون برئة كاملة هم الاستثناء. انهمك في الطهي والعمل وفرش المائدة في المطبخ، دون أن يخلع سترته؛ لو كان يرتدي معطفاً لما خلعه أيضاً. كان هنا وكأنه على وشك المغادرة؛ ولكن ما زال لديه أربع عشرة ساعة حتى موعد الزيارة الصباحية في المستشفى القريب. قال لي: «أتعرف؟! لقد حدث كلّ شيء فجأة، كان لا بدّ من العملية، وكلما أسرعنا في إجرائها، كان أفضل».

طبخ شتيلر أرزّاً رائعاً، وبالطبع لم نأكل إلا لكي نشجعه. ومع الأكل دخّنا جميعاً سيجارة أو عدّة سجائر. تولّت زوجتي غسيل الأطباق التي جفّفها شتيلر، ثم استأذنت مبكراً لتذهب إلى غرفتها. كانت هي التي قادت سيارتنا، لذا صدّق شتيلر أنها متعبة. كان في حالة لا تسمح له بأن يرتاب في أيّ شيء. عندما جلسنا وحدنا، لنقُل بدءاً من التاسعة مساءً، بدا أنه لا يشعر باحتياج إلى التحدّث عن الأمر أو عن السيدة يوليكا عموماً. اكتشفنا أن كلينا قد لعب الشطرنج ذات يوم، وأردنا أن نعرف ما إذا كان ما زال بمقدورنا أن نلعب. لم أتذكّر إلا بصعوبة أين يقف الحصان والفيل في الصف. أراني ذلك. شتيلر أيضاً لم يعد يعرف ما إذا كان علينا أن نضع رقعة الشطرنج هكذا، أو بالعكس، وهل يكون المربّع على اليمين أبيض أو أسود. رغم ذلك بدأنا اللعب. كان ما فعلناه نوعاً من الحراسة الليلية. ظللنا نلعب حتى الرابعة فجراً، عندما بدأ الضوء الرمادي ينتشر أمام النوافذ، وبدا أن عيد القيامة سيكون يوماً جميلاً، إذ خلت السماء من الغيوم. اعتبر شتيلر ذلك إشارة.

اجتازت السيدة يوليكا الليلة بسلام، بل لقد اجتازتها على نحو ممتاز إذا أخذنا الظروف في الحسبان. رجع صديقنا من المستشفى كمَن تلقّى حكماً بالعفو، تنفّسنا الصعداء، إلى ذلك كان صباح عيد القيامة مشمساً؛

اقترح شتيلر أن نتجوّل معه في المنطقة المحيطة. «لقد تعرّفتْ عليّ!»، قال. لم أرَ صديقنا سعيداً هكذا قطّ. تمشّينا على الشاطئ في اتجاه شيلون، وسارت زوجتي في المنتصف بيننا. كانت شهية شتيلر للكلام مفتوحة إلى حدّ كبير، لكنْ كلامه كان مشتّتاً، خطرت على باله فوضى من الأفكار، الزيارة الأخيرة من أخيه فيلفريد، نكات، ثم راح يتحدّث مرّة أخرى بحماسة عن الأصدقاء الجدد في لوزان، وعن تاجر كتب وصديقته، وكل هؤلاء الناس اللطفاء في العالم. وفجأة، في منتصف الحديث، أصبح صامتاً، وأصمّ أيضاً. رحنا نراقب المغازلات القلقة بين سحليتين على الأحجار المشمسة في طريق السكك الحديدية. سألت صديقنا عن أوجه اعتراضه على قلعة شيلون التي كان دائم التهكّم عليها في رسائله، ليس في ما يتعلّق بالصور المستهلكة للقلعة على الشوكولا وصناديق الموسيقا، بل في ما يخص الواقع أمام أعيننا. ليس لديه اعتراضات، ونحن وجدنا أن قلعة شيلون بأسوارها جميلة جدّاً في شمس الضحى. ولم يلاحظ شتيلر أنني أردت بذلك أن أداعبه بسبب سيل السباب الذي كان يوجّهه سابقاً تجاه كلّ ما في هذا البلد. (وبالمناسبة، في ما يتعلّق بهذا السيل من السباب والذي أصابني عن غير حقّ بالتبرّم لدى قراءتي الأولى لكرّاساته، لأن شتيلر لم يتحدّث قط هكذا أمامي، فمن الواضح أن صديقنا لم يعد لديه سبب في لعب دور الغريب بعد أن تقبّل نفسه أخيراً؛ لقد قبل أن يكون سويسرياً). كان يوماً صحواً من أيام مارس، لكن الضباب كان يغلّف الأجواء، جبال كانتون فاليز القريبة بدت رقيقة للغاية، وخفيفة، بلون فضّي رمادي. سألني: «كيف حال طفليكما؟».

كان يلتفت إليّ دائماً بشكل متعمّد، لا إلى زوجتي، مع أنها كانت تسير بيننا. تناولنا غداءنا في «فيلنوف»، «أوتيل دو بور»، سمك مع نبيذ من

الكروم القريبة. بالطبع كنا نفكّر من دون توقّف تقريباً في السيدة يوليكا. من هنا، على ما أظن، كنا نرى مستشفى «فال مون». اتصل هاتفياً بها بين الحساء والطبق الرئيسي. أخبرنا أنها نائمة. شتيلر وحده هو الذي احتسى النبيذ الأبيض رائع المذاق، وهو ليس بالنبيذ الخفيف على الإطلاق، دون أن يدور رأسه. كان شتيلر يشرب في السنوات الأخيرة بصورة شبه منتظمة. بعد صمت أجراس الكنائس الصباحية لم يكن ثمة ما يشير إلى عيد القيامة سوى كثافة المرور في الطرق السريعة. تجوّلنا في دلتا نهر الرون، مبهوري الأنظار من شمس الظهيرة، وسكارى من النبيذ. شبكات الصيد كانت معلّقة لكي تجفّ. قوارب الصيادين راقدة على الضفة مقلوبة، لكي تُدهن بلون جديد؛ في حين سارت أخرى في القناة مع البجع.

«في أيام العمل يكون المرء هنا بمفرده تماماً!»، قال شتيلر، رغم أنه لم يكن ثمّة زحام حتى في ذلك اليوم. قادنا الدرب الضيق عبر مرج بأشجار قليلة يحدّه الغاب. مجموعات من أشجار النغت والبتولا والزان، وهنا وهناك سنديانة، ما زالت الأشجار كلها عارية، وهكذا كنا نرى دائماً زرقة السماء بين الغصون. على الأرضية أوراق الخريف الرمادية من العام الماضي، لا تخبّئها أيُّ خضرة، كانت الأرضية في بعض أجزائها سوداء تقريباً بسبب الطحالب. في ذاكرتي كانت تلك التمشية من أجمل ما قمت به من تمشيات على الإطلاق. إلى اليمين، عبر الغاب المصفرّ، كان المرء يرى بحيرة جنيف، وإلى اليسار زرقة أخرى فسيحة أيضاً، زرقة نهر الرون الممتد، والمحاط بالجبال المائلة. كنا نسير جميعاً صامتين إلى حدٍّ كبير. بأعداد غير مألوفة تجمّعت أسراب من الطيور على أسلاك الضغط العالي البعيدة، لم نستطع أن نحدّد نوعها؛ على كلٍّ، تجمّعت الطيور لمواصلة رحلتها الكبيرة نحو الشمال. راح صبيّان، كلّ منهما في سروال رياضي

أزرق وبصدرٍ عارٍ، يضرمان النار المتوهّجة الشفّافة في البوص المكوّم. الدخان يذكّر بالخريف، مع أننا كنا في مارس، والعصافير كانت تغرّد.

ندمت الآن على النبيذ في رأسي، لقد سرت فترة طويلة وكأن حجاباً يفصل بيني وبين العالم، أما شتيلر فقد أراد أن يعرف أشياء كثيرة. راح يسألني عن عملي، وعن رأيي في مسائل التربية. وجدنا مكاناً منعزلاً بحقّ على الضفة، رغم ذلك كانت الأصوات عالية؛ عبر المياه كان يصلنا ضجيج القطارات البعيدة، وبين الحين والآخر يسمع المرء صوت التحويلة من المحطة، كما يتناهى إلى الأسماع هديل الحمام في الغاب، ومن كلّ مكان تتصاعد خشخشة وهمسات، الطيور تصيح، وتصطفق أجنحتها عند بداية طيرانها فوق صفحة المياه الملساء. أدفأتنا الشمس للغاية، أما الأرضية فكانت رطبة وباردة. راح شتيلر ينزع حزماً من الحشائش العجفاء لكي يهيّئ مكاناً مريحاً لزوجتي. عرضت عليه سيجاره المفضّل، لكن ذلك لم يوقفه، وفي النهاية كان قد أعدّ عشّاً حقيقياً، قابلته زوجتي بما يستحقّه من مديح، ورقدت عليه وأغمضت عينيها في مواجهة الشمس. مرَّ شتيلر بكفّه على جبهتها. كان الماضي يقفز حيّاً إلى وعيي في مثل هذه اللحظات النادرة في الحقيقة. أدهشني اجتماعنا الثلاثي الآن، وشعرت أنه شيء مستحيل، أو على الأقل غير متوقّع. رحنا ندخّن السيجار إذاً. للأسف كنا نشاهد من هنا الفندق المتطفّل على المنظر، أعلى مدينة «كو»، لم يستطع شتيلر تحاشي الحديث عن الفندق مرّة تلو أخرى. رأيه: «إنهم يقومون بالمعجزات، هناك في الأعلى، لا شكّ في ذلك، إنهم ينتجون المسيحية، ولكن ليس مع الفقراء، بل مع الأغنياء حيث الربح ظاهرياً أكبر، وعندئذٍ ينجحون حقّاً في أن يتوب قاطع طريق، بعد أن يكون قد اغتنم ما يكفي، ثم ينفق مليونين أو ثلاثة أو أربعة أو تسعة ملايين من أجل سلام روحه،

أو على الأقل من أجل مواجهة الشيوعية بإيديولوجية أفضل، ويحتفظ لنفسه بمليون فقط، حتى لا يصبح عبئاً على الكنيسة عندما يشيخ؛ مثل هذه المسيحية لا أستطيع تحمّلها؛ يقولون إن سبعة ملايين أفضل من لا شيء، وإنهم سيعيدون كلّ شيء طواعية وبشكل إنساني، أتعرف، لن يتعرّض عمّال كلّ الدول، إذا تمتّعوا ببعض الكياسة، لأيّ قاطع طريق، أبداً، لأن إمكانية أن يتوب قاطع طريق رأسمالي فجأة ويصلح العالم من الداخل، هذه الإمكانية تمّت البرهنة عليها بشكل قاطع هناك في الأعلى، في الفندق، إذاً، رجاء، إذا أردتم عالماً أفضل، فمن فضلكم: لا ثورة!».

في تلك الأثناء كانت زوجتي قد أخلدت إلى النوم، وحتى لا نزعجها بصوتينا، سرنا إلى أسفل حتى الضفة، وتبادلنا الحديث عن الحصى والجيولوجيا وفقاً للحدّ الأدنى من المعلومات. ثم حاولنا، وكما في أوقات الصبا، أن نرمي الأحجار المسطّحة فوق صفحة المياه لكي تقفز عدّة مرّات قبل أن تهوي. ولكي نتسابق، خلع كلّ منّا سترة يوم الأحد التي يرتديها. لوهلة بدا أن كلّ شيء قد نُسي، كان البصر يمتدّ إلى مستشفى فال مون، غير أننا كنا نعلم أن يوليكا المسكينة حالتها توشك أن تكون ممتازة. استغرقنا في اللعب تماماً. ومع مرور الوقت حثّتنا السيدة زوجتي على مواصلة التمشية. الفترة التي سبقت المساء، ورغم أنها كانت أيضاً بلا غيوم، فقد بدا أنها تختلف عن الصباح وكأنها تنتمي إلى يوم آخر تماماً. انتابني شعور بأن الصباح قد مضى عليه سنوات. في طريق العودة لم يتحدّث شتيلر إلا عن السيدة يوليكا. لم أسمع منها قطّ أنها ندمت على عدم إنجاب أطفال. أما شتيلر فقد كان متأكّداً من أنها نادمة، وجعل ذلك الندم ندمه الشخصي، أو العكس. كان يتحدّث بلا اتهامات، وبلا اتهامات للذات. قال إنه لم يكن باستطاعته أن يكون شخصاً آخر، لكن كلماته كان

لها الوزن الكامل للندم الحقّ. وأخيراً اختتم كلامه -إذ إننا كنا نقف أمام التلفريك- بالملحوظة التالية: «خسارة أنكم لم تستطيعوا قطّ التعرّف إلى يوليكا على نحو صحيح!».

عندما ردّدت قائلاً إن كلّ شيء ما زال ممكناً، بدا أن الذعر قد استولى على شتيلر لما قاله من كلمات.

عاد شتيلر من الزيارة المسائية يوم أحد القيامة بسرعة كبيرة. أخبرنا أن حالتها جيدة جداً! لكن الطبيب طلب منه ألّا يزورها.

- «سُمح لي بأن أعود في الصباح».

ثم أضاف على الفور مشتّتاً قلقنا الذي لم نفصح عنه: «حالتها جيدة جدّاً، لكنها في حاجة إلى راحة تامة».

تفهّمنا ذلك جميعاً. كان شتيلر متفائلا جدّاً، ولم يمنعه شيء من إعداد وجبة «الراكليت» التي وعدنا بها كثيراً، أي تنظيم أمسية منزلية لطيفة، وأن يشعل نار المدفأة، ويضع النبيذ الأبيض في الثلّاجة، ثم صنع ثلاثة أسياخ خشبية رشق فيها الجبن لكي تدور حول النار. بالطبع لم يكن في منزله مدخنة فلّاحية كما رسمها، بل مدفأة مزيّنة من الرخام الزائف على طراز الشباب الزائف أيضاً. نجحنا في إعداد الراكليت على نحو رائع، على الأقل وفق المفهوم السويسري الألماني؛ وكنا جوعى بعد الجولة التي قمنا بها. أفرط شتيلر في الشراب في تلك الأمسية. ولدى أدنى بادرة منا للذهاب إلى الفراش، كان يفتح الزجاجة التالية، وهكذا سارت الأمور مع حديث معتدل حتى الحادية عشرة مساء. لم يسكر. كان يشرب بسرعة رشفات صغيرة من كؤوس النبيذ الأبيض النحيلة الشائعة في كانتون فو، وبقي يقظاً أكثر منا. ومع ذلك كان من الملاحظ أنه لا يصغي لما يقال. بدت عيناه على وشك البكاء. وحتى عندما كنت أحاول الحديث عن السيدة يوليكا،

لم يكن يصغي. كان الأمر شاقّاً. ربما كان يودّ أن يسرّ لأحدنا بشيء، سواء لزوجتي أو لي. لكننا كنا نجلس معاً نحن الثلاثة. من جانبنا أيضاً كنا نشعر بالعجز والبؤس، لا نريد سوى تشجيعه. لكن شتيلر كان يقوم بذلك بذاته، وعلى نحو أفضل منا. بعد نصف ساعة مما يشبه المسامرة ودّعناه، وذهبنا إلى غرفتنا في البرج؛ بقي شتيلر في الممر بالطابق الأرضي - تماماً كما كان يفعل في مكالماته الليلية، إذ ظلَّ في النهاية جالساً دون تحية وداع، حتى بعد أن قلنا له أكثر من مرّة «تصبح على خير»؛ منذ فترة وأنا أنظر إلى ذلك باعتباره سلوكاً سيّئاً، نوعاً من الإكراه العاطفي، انتظاره بلا كلمات، إلى أن أضع أنا سماعة التليفون أو أغلق الباب... لم نستطع، أنا وزوجتي، أن ننام رغم التعب.

نحو الواحدة تقريباً غادرت الغرفة. في الممرّ كان الضوء مطفأ، ولكن ليس في غرفة المعيشة، سرت إلى أسفل، كما أنا، حافياً وبالبيجاما، أي دون إصدار صوت تقريباً. كان صديقنا يجلس أمام المدفأة الباردة، وبدا أنه استغرق في النوم. ذهبت إليه حتى أغطّيه بأي شيء. لكن عينيه كانتا مفتوحتين. قال لي: «لماذا لا تنام؟».

كان لسانه ثقيلاً. قلت له: «لا معنى لاستمرارك في الشراب...».

راح يملأ كأسه مرّة بعد أخرى، وكأنه يعاند، وراح يتفحّصني. قلت له كلاماً كثيراً عقلانياً. شرب شتيلر كأسه حتى الثمالة، وعندما نهض، كان يترنّح بوضوح. قال لي: «تصرّف صبياني، لقد أفرطت في الشراب، أعرف، تصرّف عديم الذوق، ومثير للغثيان، وصبياني...».

هزّ رأسه وتلفّت حوله، وكأنه فقدَ شيئاً، ثم استند على مسند الفوتيه، وسألني دون أن ينظر إلي: «هل ستموت؟».

حاولت تهدئته، لكنه لم يكن يسمعني مطلقاً؛ أمسك بسيخ المدفأة ولم

يعرف ماذا يفعل به. غامت عيناه بالدموع التي لم تخلّف لديّ أيَّ انطباع بسبب سكره. قلت له: «هيّا، فلنذهب إلى الفراش!».

تطلّع إليّ. ثم قال: «ظهر الأمس، عندما اعتقدت أنها تحتضر - ظهر الأمس...».

انتظرت أن يكمل جملته من دون جدوى. لم يكن شتيلر يتوقّع أن يأتيه شخص يحدّثه الآن. وقف الوعي في طريقه، ولسانه كان ثقيلاً. لم يقل سوى: «فات الأوان».

سألته: «ماذا، فات أوان ماذا؟».

بدأت أشعر بالبرد. أخيراً أجاب: «كلّ شيء. سنتان يا عزيزي، سنتان! لقد حاولت، يا إله السماء، لقد...».

جعله النبيذ يتجشّأ، همهم قائلاً: «معذرة!»، ثم صمت. لعلّه لم يكن مخموراً مثلما ظننت في البداية. أراد أن يُكمل كلامه، فذكّرته: «لقد حاولت...؟». تحتّم عليه الجلوس ثانية. قال: «سيّان».

لم أرَ شتيلر قطّ في مثل هذه الحالة، أثارت شفقتي حالته البائسة، المثيرة للغثيان والسخرية. لكنني لم أعرف ماذا أفعل. بدت لي عقلانيتي باهتة.

«هل ستموت؟»، سألني وكأنه يفعل ذلك للمرة الأولى، سانداً رأسه بيديه؛ على ما يبدو كان يشعر بالدوار.

أجبته قائلاً: «أنت نفسك تحدّثت مع الطبيب. ماذا قال لك الطبيب؟ على وجه الدّقّة؟».

حتى وهو جالس كان يترنّح، دون أن يلاحظ، كما لم يلاحظ أنه في كلّ مرّة يتناول عود الثقاب معكوساً، إلى أن استسلم في النهاية، وظلّت سيجارته المدهوسة والمضعضعة في فمه دون أن تشتعل.

قلتُ له: «لم يفُت الأوان بعد». لكنني وجدت كلامي مستهلكاً جدّاً، كما أنني فقدت الفكرة التي كنت أريد أصلاً التعبير عنها.

قال ضاحكاً ضحكةً ذابلة: «لم يفت الأوان بعد. البدء من البداية ببساطة: وإذا تعذّر ذلك، إذا تعذّر ذلك، إذا تعذّر ذلك: لأن الأوان قد فات؟!».

فجأة بدا شتيلر أكثر يقظة من ذي قبل. وبوضوح تامّ، وتأكيد تامّ، أضاف رغم صوته المتلعثم: «رولف... بمقدوري أن أقتل إنساناً، ولكن لا يمكنني أن أعيده إلى الحياة!».

وبهذا، هكذا بدا له، كان قد قيل كلّ شيء. مدّ يده ثانية إلى القنّينة، لكنّها، لحسن الحظ، صارت فارغة ولم ينزل منها سوى عدّة قطرات. أردت أن أعرف: «ماذا، ماذا تعذّر؟».

هزّ رأسه فحسب. سألته: «أتريد إذاً...».

هزّ رأسه دون أن يسمعني. ثم قال: «لم يعد بمقدورها أن تقبل مني شيئاً، لم يعد بمقدورها أن تقبل مني شيئاً! قالت ذلك بلسانها. عندئذٍ تجد نفسك واقفاً وهي تقول: دعني وشأني. بصراحتها المعهودة. لا أعرف يا رولف، ماذا تعذّر. لا تسألني أبداً. لقد دمّرت هذا الإنسان...».

أدار السيجارة المضعضعة بأصابعه، وأخذ يرتعش، لكنه على الأقل بدأ يتحدّث: «إنني أُفقِدها عقلها. أعرف ذلك. دائماً ما أنتظر شيئاً. معجزة! ثم أبدأ في الارتجاف عندما أراها. خطئي، ربما. على الأرجح. لم يتغيّر كثيراً هذا الإنسان، لم يتغيّر كثيراً! ليس لديه أيّ احتياج لهذا. دعني وشأني! هذا ما قالته. عندئذٍ تجد نفسك واقفاً ولا تعلم ماذا تفعل. لا أفهمها. هذا هو كلّ شيء. لا أجدها. عندئذٍ أكرهها. ببساطة: إنني أنفق كالبهائم إذا لم أحبّ، وهي...».

نفض رماد سيجارته.

- «من أين لك يا شتيلر أن تعلم أنها هي أيضاً لا...».

هزّ رأسه، فواصلت: «أنت تعتقد أنك دائماً على حقّ يا شتيلر».

- «وهي لا؟!».

- «هذا شأنها».

صمتَ. سألته: «ما مفهومك عن الحب؟».

في تلك الأثناء كان شتيلر قد وجد زجاجة أخرى، وملأ كأسه كلّها تقريباً. رجوته: «كفاك سُكْراً!».

شرب من كأسه، ثم قال: «ما هذا، إنك ترتعش يا رولف، أنت حافي القدمين... مفهومي عن الحب؟».

راح يفكّر، وحاول أن يفرغ الكأس الفارغة مرّة ثانية: «لا أستطيع أن أحبّ يا رولف، لستُ قدّيساً...».

شعرتُ الآن فعلاً بالبرد الشديد؛ حاولت أن أجد أيّ غطاء، ولكن من دون جدوى، انكمشت على نفسي، وتناولت بسرعة صحيفة من على المائدة الصغيرة، وكوّرتها وألقيت بها في المدفأة. ما زال في المدفأة بعض الحطب من شجرة التنوب، بل وقطعة كبيرة من الزان. لفترة كنت منشغلاً... سمعت شتيلر فجأة من وراء ظهري يقول: «ماذا أفعل! ماذا أفعل؟ ماذا؟!».

كان قد نهض، ولمحته وهو يخبط بكلتا قبضتيه على جبينه. كان شاحباً كالثلج، وما زالت خطوته قلقة؛ ولكن بدا لي أن الكحول شرع يغادر عقله. لم يعد لسانه ثملاً.

- «لماذا لم أجد هذه المرأة أبداً؟ أبداً! ولا ليوم واحد يا رولف، ولا حتى لساعة واحدة طوال كلّ هذا الوقت. قطّ! ما هذا؟ قل لي!».

- «ماذا كنت تنتظر؟».

أعاد عليّ السؤال: «أنتظر؟».

فقلت مكرّراً: «نعم، ماذا كنت تنتظر يا شتيلر؟ أعني: قبل عامين، عندما جئتما إلى هنا. لتعيشا معاً. أسألك لأني لا أعرف. يبدو لي أنك كنت تنتظر تغيُّراً، من جانبها».

- «ومن جانبي أيضاً».

قلت وأنا أشعل حطب المدفأة: «لا تغضب مني، لكن شيئاً كهذا يذكّرني بالروايات. تغيُّر؟ إنسان يدرك أنه أخطأ في حقّ إنسان آخر، وأخطأ في حقّ نفسه أيضاً، وذات يوم متأخر يكون لديه استعداد لإصلاح كلّ شيء - بشرط أن يتغيّر الإنسان... مثل هذا التوقّع يا عزيزي، أليس مبتذلاً بعض الشيء؟».

- «مثل كلّ شيء فيّ».

هكذا سمعته يقول؛ لم أعقّب على ما قاله، بل سألته: «أم ماذا كنت تنتظر حقّاً؟».

بدا أن شتيلر يمعن في التفكير، وكان عليّ أن أواصل محاولة إشعال النار. غير أنني أجبت في النهاية: «كل شيء... إلا ما هو ممكن. في رسائلك أيضاً يبدو لي أحياناً وكأنك لا تتحدّث مطلقاً عن الحب، بل عن الانجذاب، عن... نعم، عن الإيروس في أي شكل من أشكاله. الرجل في عمرنا يحتاج إلى هذا يا شتيلر، وأجد ذلك رائعاً، إذا كان هذا الشعور موجوداً... ولكن، ليس هذا هو الموضوع هنا».

سمعت الحطب يطقطق الآن، وتركني شتيلر أتحدّث، أكثر مما كنت أحب. لكنني كنت قد بدأتُ، فواصلتُ قائلاً: «قلتَ: لقد تعذّر الأمر... هل يثير ذلك عجبك فعلاً؟ بعد خبرة كلّ هذه السنين؟ ثم تقول إنك حاولت.

ماذا؟ أحياناً يظن المرء أنك تعتبر نفسك ساحراً، يستطيع أن يسحر هذه السيدة يوليكا ويحوّلها إلى عكس ما هي عليه. ويبدو لي أن كلّ ما يعنيك هو... من الصعب قول ذلك! لقد أصبحت يوليكا حياتك يا شتيلر، هذا هو الحال. لماذا عدت من المكسيك؟ لأنك مررت بخبرة ما. إنكما زوجان... استيقظ! الهراء العتيق الذي تحبه يا شتيلر، اسمح لي أن أقول لك: كبرياؤك القاتلة... أنت كمخلّص لذاتها ولذاتك!».

صمت شتيلر. بعد قليل من الانتظار قلتُ: «في نقطة واحدة أفهمك جيداً جدّاً ربما. المرء يستسلم، المرء يعود كي يستسلم، لكن المرء لا يستسلم قطّ بصورة نهائية. لأنه عندئذٍ، من يعرف؟! يكون استسلاماً جباناً، لا شيء سوى ذلك، رضاً بالواقع، نتيجة نوع ما من الأفق المسدود... لقد قلت إنك ترتعش. ارتعش! أنت تعرف ما أعنيه. أنت ترتعش لأن هناك الصوت نفسه الذي يطلب منك مرّة بعد أخرى، مرّة بعد أخرى...».

ناديت عليه: «شتيلر، فيمَ تفكّر؟». كان واقفاً، أما أنا فكنت قاعداً على كرسي منخفض مادّاً قدميّ الحافيتين تجاه النار لأتدفّأ. صمتَ. قلتُ: «لا تتوهّم أنك مع أخرى، مع امرأة أكثر انفتاحاً ربما، مع زيبيله مثلاً، لن تمرّ بكلّ هذا الذي يعتمل داخلك. أم أنك تتوهّم ذلك؟».

عندما استدرت، رأيت وجهه من أسفل فحسب؛ كان بصره يعبرني في طريقه إلى المدفأة. قطعت كلامي قائلاً: «أنت تتركني أقول أشياء أنت نفسك تعرفها».

لم يكن شتيلر نائماً، كان يقف، يداه في جيبي سرواله، وعيناه مفتوحتان، كان يقظاً، لكن خاوياً، لا يحرّك ساكناً. قلتُ: «شتيلر، أنت تحبها!».

لم يبدُ عليه أنّه يسمع مطلقاً. رجوته: «قل لي إذا كنت تفضّل أن تكون وحدك!».

في دفء الجمرة المشعّة شعرت فجأة بتعبي مرّة أخرى، ووجدت نفسي أكبتُ تثاؤبي. سألني شتيلر: «كم الساعة؟».

كانت نحو الثانية. قال: «لقد انتظرتْ لقد انتظرتْ، أتفهم، أما أنا فلم أنتظر. لم أنتظرها! منذ التمشية الأولى لنا. لم أنتظرها، أما هي فقد انتظرت أيّ إشارة، أيّ تعبير، مساعدة، أصدقاء، كلّ شيء، إشارة واحدة في كلّ تلك السنوات! لقد أهنتها، أتفهم، لكنها لم تُهنّي!... هل الأمر هكذا؟».

أجبت عن سؤاله بسؤال: «من يدّعي ذلك؟».

الآن نظر إليّ نظرة ثاقبة، ثم قال: «رولف، إنها تريد الموت!».

هزّ رأسه وكرّر: «هذا هو الأمر!».

كان أصمّ تجاه كلّ ما ذكرته من اعتراضات طوال الخمس دقائق أو العشر الماضية. وعندما يجعله النبيذ يتجشّأ، كان يهمهم بكلمة اعتذار. قلتُ له: «إنك تواصل ما تفعله يا شتيلر إلى أن يفوت الأوان يوماً ما! إنها ترقد في المستشفى، وأنت ما زلت تصارع أفكارك؟».

أطلق العنان لأفكاره إلى أن لمست مرفقه وهززته، فقال: «أعرف أنني مثير للسخرية».

- «لقد قطعت شوطاً في هذا الطريق يا شتيلر، ليس عليك أن تجعل نفسك مثيراً للسخرية. أنت نفسك لا تصدّق ما قلته قبل قليل. من يموت من أجل خاطر إنسان، أو لأنه يعاني منه! إنك تبالغ في تقدير أهميّتك، أعني: أهميّتك بالنسبة إليها. إنها لا تحتاج إليك مثلما تريد أنت أن تكون هي في احتياج إليك... شتيلر؟».

ناديته، إذ إنه عدّة مرّات كان -متعلّلاً بالسُّكْر- على وشك الانهيار. سألته: «لماذا انتابك فجأة الخوف من أنها ستموت؟».

- «أنا أبالغ في تقدير أهميّتي؟».

- «نعم، هذه المرأة لم تجعلك في يوم من الأيام هدفاً لحياتها. لكنّك جعلتها كذلك، على ما أعتقد، ومنذ البداية. أنت كمخلّص لها، لقد قلتُ لك: إنك تريد أن تكون مانح الحياة والبهجة إليها. أنت! لقد أحببتها بهذا المعنى، بالتأكيد، حتى نزفت كلّ دمك. هي مخلوقك. والآن هذا الخوف من أنها قد تموت! هي لم تصبح ما انتظرته منها. عمل حياتك لم يكتمل!».

سار شتيلر إلى النافذة وفتحها. سألته: «تشعر بالغثيان؟ لماذا لا تجلس؟».

أدار ظهره لي، ومسح بمنديلٍ جبينه. وطالبني بمواصلة الحديث. قلت له: «سأحضر لك ماء». وضعت سيخ المدفأة حتى أنهض. سألني: «هل كتبتْ إليك رسائل كثيرة؟».

- «رسالة واحدة. لماذا؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

مسح جبينه مرّة أخرى.

- «سيّان».

- «أنا لا أتوهّم يا شتيلر أنني أفهم زوجتك، أعني أفضل منك. كلّ منا غريب عن الآخر، زوجتك وأنا، عن أيّ شيء تحدّثنا معاً؟ على فكرة، رسالتها كانت قصيرة جدّاً».

أومأ بحزن: «أنت تفهمها. بلى، بلى. لحسن حظّها»، ثم أضاف: «حالتي بائسة، اعذرني!».

رغم ذلك لم يخرج شتيلر حتى يفرغ ما في معدته مثلما توقّعت. كان شاحباً كالشمع، وكلما نظرت إلى عينيه، كنت أعرف أن ثمة سؤالاً واحداً بالنسبة إليه: هل ستموت؟ حاول جاهداً أن يفكّر في شيء آخر. ولهذا كان سعيداً أن هناك شخصاً يتحدّث. سألني: «كنتَ تريد أن تقول شيئاً؟».

لكنني لم أعد أتذكّر أين انقطع حديثنا.

قلتُ، لأقول أيّ شيء: «بالمناسبة... لقد قرأتُ أوراقك».

- «احرقها!».

- «وماذا تأمل من وراء الحرق؟ لم تكتبها لكي تُحرق... لقد كافحت من أجل هذه المرأة، إذا استخدمنا التعبير الشائع. أنا أفهمها ربما في نقطة واحدة. من يخطر على باله أن يسأل مخلّصه: كيف حالك؟ لقد اعتادت، أتفهم، اعتادت طوال سنوات كثيرة أنك لا تريد أن تكون إنساناً مسكيناً ضعيفاً، بل أن تكون مخلّصها».

ابتسم شتيلر: «لماذا لا تقولها مباشرة؟».

لم أفهم ما يعني، ولم أفهم ابتسامته مطلقاً.

عندما تطلّعت إليه، وجدت كلّ جسده يرتجف، من البرد. قال لي: «لا شيء، فقط هذا السُّكْر الأحمق!».

عندئذٍ أخذته من يده إلى الفوتيه الوحيد ذي المسند العالي ليضع رأسه عليه، وأغلقت النافذة. سألته: «أليس من الأفضل أن أذهب بك إلى الفراش؟».

هزّ رأسه. ألقمت النار قطعة خشب الزان. سألني من وراء يديه اللتين حمتا وجهه: «ماذا... ماذا عليّ أن أفعل؟ لا أستطيع المجيء إلى العالم مرّة ثانية. ولا أريد ذلك أيضاً يا رولف... ما ذنبي؟ قل لي. أنا لا أعرف. ماذا فعلت؟ قل لي إنني أحمق. قل لي!».

كرّرت قائلاً: «قرأتُ أوراقك. إنها تبيّن أنك تعرف الكثير».

كان قد سحب يديه من أمام وجهه. قال: «لو كانت المعرفة وحدها تنفع!».

ثم جلس فترة طويلة من دون كلام وبيدين مرفوعتين، سانداً المرفقين على ركبتيه. سألني: «هل تتذكّر الأمسية التي قضيناها نحن الثلاثة في

الخريف الماضي؟ لم تكن متميّزة. لكنها كانت معقولة. في رأيي. بالنسبة إليّ كانت عيداً... طوال الشتاء لم نستطع قطّ أن نقضي أمسية كهذه، أنا وهي. نجلس هنا، هي هناك، أنا هنا. إن ذلك يميتني، لكن بالنسبة إليها الأمر عاديّ!».

- «من أين عرفت يا شتيلر أن الأمر بالنسبة لها عاديّ؟».

- «لماذا لا تصرخ؟ أنا متكبّر، وهي؟ لقد انتظرت. أتسمعني؟ لقد انتظرتْ أن أفهم. كم عاماً؟ طوال عامين، طوال أربعة عشر عاماً. سيّان. ولهذا فهي منهكة، أتفهم؟ لقد دمّرتها. هي لم تدمّرني!».

- «من يقول هذا؟».

أجابني بابتسامة متهكّمة وهو يتكئ برأسه على المسند الخشبي: «هي. لقد أهنتها، ولكن ألم تُهنّي هي؟».

- «شتيلر، عليك الآن ألّا ترثي لحالك. ماذا كنت تتوقّع؟ بعد كلّ ما حدث. أن تركع؟ أمامك؟».

صمت. رأسه على المسند، ونظرته على سقف الغرفة.

- «أصدّقك يا شتيلر، أصدّق أنك أحياناً تكون مستعدّاً لكل شيء، مستعدّاً لأشياء كثيرة. ثم تقف مرّة أخرى - ويغلب عليك رثاء الذات، والكراهية، واليأس. لأنك تنتظر الرحمة منها: من إنسان. أليس الأمر هكذا؟ ركوعك أنت بين الحين والآخر لا فائدة منه».

قال وكأنه يكلّم نفسه: «أكرهها، أحياناً أكرهها»، ثم أضاف: «بأي شيء يفيدني ما تقوله هي عني أمام الآخرين؟ أنا الذي أنتظرها. أنا! وليس الصديق الحكيم أو العمة المبجّلة، بل أنا يا رولف، أنا هو الشخص الذي يحتاج إلى إشارة!».

بدا لي سعيداً بغضبه. سألته: «لماذا لم تنفصلا؟ كما تعلم، معظم الناس

يفعلون ذلك إذا لم تسر الأمور على نحو جيد. لماذا عدت آنذاك؟ أعتقد لأنك تحبها. ولأننا لا نستطيع ببساطة الانتقال إلى حياة أخرى إذا واجهنا الفشل. لهذا السبب على وجه الخصوص. إنها حياتنا تلك التي تعرّضت للفشل. حياتنا نحن، حياتنا الوحيدة. ثم...».

أراد شتيلر مقاطعتي؛ وعندما صمتُّ، صمتَ أيضاً. قلتُ له: «لا أعرف ما مفهومك عن الذنب. على كلّ حال لم تعد تبحث عن الذنب لدى الآخرين. ولكن ربما -لا أعرف- تقصد أنه كان من الممكن تجنّبه. الذنب حصيلة أخطاء الذات التي كان بالإمكان تجنّبها، هل هذا ما تقصده؟ لكنني أعتقد أن الذنب شيء آخر. الذنب هو نحن...».

قاطعني شتيلر: «لماذا عدتُ؟! أنت لم تعايش ذلك. حماقة، لا شيء سواها، عناد! ألا تفهمني... عندما تقف نصف حياتك أمام باب وتقرعه، اللعنة، من دون نجاح، مثلما فعلت مع هذه المرأة، من دون أي نجاح، اللعنة... ثم تواصل السير! انسَهُ، مثل هذا الباب الذي لم ينفتح أمامك طوال عشر سنين! استسلم، وواصل السير!... ماذا يعني الحب؟ أنا لم أستطع نسيانها. هذا هو كلّ شيء. مثلما لا ينسى المرء الهزيمة. لماذا عدتُ؟ بدافع من السُّكْر يا عزيزي، بدافع من العند. يا لآرائك النبيلة! اذهب إلى كازينو قمار، وتطلّع إلى الذين يواصلون اللعب عندما يخسرون، ويواصلون. هكذا تماماً! لأن ثمة نقطة إذا وصلت إليها لا يعود ثمة معنى للاستسلام. بدافع من العند، نعم، من الغيرة! قد تفقد امرأة عندما تربحها. قد يحدث ذلك. ولكن إذا كنت لم تربحها قطّ، لم تجدها قطّ، لم تُشبعها قط؟ انسَه! مثل هذا الباب، ودع الآخرين يدخلون، وواصِل السير! لديك حقّ: لماذا لم ننفصل؟ لأنني جبان».

حاول شتيلر اغتصاب ضحكة. قلتُ له: «أرى أنك تقول الشيء نفسه بكلمات أخرى، لكنني لا أعتبر ذلك جبناً».

- «أتعتقد أنها تضحية؟ تضحية متبادلة، تودي بحياة الاثنين!».

قلت له: «بالطبع هناك حالات يمكن للمرء فيها أن ينفصل، لأن عليه الانفصال، وإذا لم يفعل، فالسبب هو الجبن، والتراخي. ما أكثر الذين أتمنى لهم الانفصال، وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل، ثمة نزوات، بزواج ودون زواج، بالتأكيد، يمكن للمرء أن ينهي العلاقة إذا وصل شيء إلى منتهاه. لا يصبح كلّ زوجين مصدر تعذيب لكليهما! ولكن إن حدث ذلك، إذا أوصلنا الأمور إلى ذلك، إذا لم يكن الأمر مجرّد نزوة، بل حكاية عمري...».

اعترض شتيلر: «مصدر تعذيب!».

- «أطلِق على ذلك ما شئت».

سألني: «لماذا لا تقولها مباشرة، ولا حتى في رسائلك؟».

- «ماذا؟».

- «ما تعنيه: لتكن مشيئتك! الربّ أعطى، وطوبى لمن يتقبّل عطيّة الربّ، والموت لمن لا يستطيعون أن يصغوا... مثلي، لا يستطيعون الحب باسم الربّ، التعساء، مثلي، الذين يكرهون لأنهم يريدون أن يحبوا بكلّ قوتهم، لأن للربّ وحده الحب والقوة والمجد؛ هذا ما تعنيه، أليس كذلك؟».

لم ينظر إليّ، بل وضع رأسه على المسند الخشبي، مُظهراً مرّة أخرى هذه الابتسامة الشاحبة. واصل قائلاً: «أما المتكبّرون فهم ضائعون، أولئك الذين يريدون بغطرستهم الدموية أن يعيدوا إلى الحياة الذين قتلوهم، البخلاء في ندمهم، الذين يقيسون ويحسبون ويولولون إذا سار شيء مساراً آخر غير ما يبتغون، أو إذا لم يسر مطلقاً، الذين أصابهم صمم وعمى، الذين يلتمسون الرحمة في هذا الزمان، الضعفاء مثلي، الذين يقاومون بعناد طفولي معاناتهم، نعم، فليسكروا كما شاؤوا، المتعجرفون في

خطيئتهم، اليائسون، المتحجّرون، فاقدو الإيمان، الشرهون الذين يريدون أن يكونوا سعداء، نعم، فليسكروا وليثرثروا كما شاؤوا، الذين ينشدون الصلابة بغطرستهم، فاقدو الإيمان، الذين يأملون مؤقتاً في يوليكا! وطوبى للآخرين، طوبى للذين يستطيعون الحب باسم الربّ، لأنه هو وحده... أهذا هو ما تودّ أن تقوله طوال الوقت؟».

- «أنا صديقك، وأحاول أن أقول لك ما أفكّر فيه بما يتعلّق بيوليكا وبك، في ما يخصّ الوحدة التي تشعران بها وكلٌّ منكما يواجه الآخر. هذا هو كلّ شيء».

سألني ورأسه على المسند الخشبي: «وفي أيّ شيء تفكّر إذاً؟».

- «لقد قلت لك».

بدا شتيلر وكأنه لا يستطيع أن يتذكّر. فقلت مكرّراً: «أنت تحبها».

- «أتعتقد؟».

- «لكنك، حقّاً، تنتظر من حبك شيئاً مثل المعجزة يا عزيزي، وربما يكون هذا هو الشيء المتعذّر».

- «أنا أحبُّها؟».

ادّعيتُ: «نعم، سواء أعجبك هذا أم لا. لقد كنت تفضّل أن تحب شخصاً آخر. أعرف. وهي أيضاً تعرف ذلك! ربما أنيا -أو أيّاً كان اسمها- امرأتك البولندية في إسبانيا، أو زيبيله الراقدة في الأعلى... ولكن: ليس ذنب يوليكا أنها ليست المرأة التي ربما كنت قادراً على إسعادها أكثر».

- «لا، ليس هذا ذنب يوليكا».

- «أنت تحب دون أن تكون قادراً على إسعاد المخلوق الذي تحبه. هذه هي معاناتك. معاناة حقيقية، بغضّ النظر عن غرورنا جميعاً، فالإنسان يودّ أن يمثّل قليلاً دور الإله، وأن يسحب العالم من الجِراب، وأن يخلق

الحياة على الطاولة كأيّ ساحر. ثم، بالتأكيد، الإنسان يريد أن يكون أيضاً سعيداً عندما يحب... وليس هذا هو الحال دائماً».

لم يبتسم شتيلر، ولذلك واصلتُ قائلاً: «هذا هو تقريباً ما أفكّر فيه، وإذا سألتني عما ينبغي عليك فعله...».

كان شارد الفكر. قال وشفتاه ترتعشان: «منذ الخريف! منذ الخريف كانت تعرف. واليوم أعرف ذلك من الطبيب. منذ الخريف! وأنا أُصفّر في ورشتي بالقبو، دون أن أعلم شيئاً، دون أن أعلم شيئاً.. ماذا ينبغي عليّ أن أفعل!». كان يقاوم بشدّة ما أقوله. ثم أضاف: «لا أستطيع السير فوق الماء كالمسيح!».

- «ومَن يطلب منك ذلك؟».

قال لي: «ظهر الأمس، عندما اعتقدت أنها تحتضر يا رولف... رحت أنتحب! ثم سألت نفسي عما إذا كنت أريد أن أعايش كلّ شيء معها مرّة أخرى، إذا كان ذلك يعني خلاصها، كلّ شيء مرّة أخرى. ووجدتني أهزّ رأسي نافياً، ورحت أنتحب، منذ أربعة عشر عاماً وهي تحتضر، في كلّ يوم، على المائدة معي...».

شعرت بالرثاء لشتيلر.

سألني: «أتعرف أنها ذهبت وحدها إلى المستشفى؟ مِن غيري».

- «لماذا مِن غيرك؟».

- «جمعت أشياءها للمستشفى. كانت أمامنا ساعة. لم نعرف ماذا نقول. الزهور لا تفيد شيئاً، أعرف. ولكنني أشعر بدافع داخلي، أتعرف؟ في تريتيه لا أجد شيئاً يعجبها. إذاً أواصل السفر إلى مونترو! بعد أربعين دقيقة عدت إلى المنزل، بعد أربعين دقيقة بالضبط... ثم، كانت قد ذهبت وحدها إلى المستشفى!».

اغتصب ابتسامة. ثم أضاف: «ربما لا تجد شيئاً في ذلك، بعقلانيّتك!».

- «وماذا تجد في ذلك؟».

- «مِن غيري! مِن غيري! هذا أبهجها أكثر من الزهور، أتفهمني؟ ربما تكون قد خرجت لآخر مرّة من هذا البيت: مِن غيري، مِن دون صحبة، نعم، هذا شيء يستمر ويعيش أكثر من كلّ زهور العالم!».

لم أقبل تفسيره، فقال: «رولف، هذه المرأة شرّيرة! لقد أصبحت كذلك، ربما، من خلالي. آنذاك. ويوماً ما لا يعود المرء يصدّق الحب... لقد جئتُ بعد فوات الأوان!».

نهض شتيلر. بدا وكأنه سيسقط في أيّ لحظة، لم أعرف ما الذي جعله يتماسك. قال لي: «اشرب كأساً من الشنابس! ثم نذهب لننام».

لم يجد كؤوس الشنابس التي رأيتها موضوعة على صينية تحت صينية أخرى. بدا أنه نسي ما يبحث عنه. نهض ببساطة ممسكاً بقنينة الشنابس في يده، شارد الفكر، صامتاً. قال: «لا أعرف إنساناً غريباً عني تماماً مثل هذه السيدة! لا أريد أن أسبّب لك الملل يا رولف، ولكن، أريد أن أقول: سأكون ممتنّاً، لن أنتظر حدوث معجزة، ولا يوليكا أخرى، بل سأكون ممتنّاً في اليوم الذي تعود فيه مرّة أخرى إلى هذا البيت... الآن، نعم، الآن، وهي ترقد في المستشفى، وأنا لا أستطيع النوم، ولا أستطيع اليقظة، لأني خائف من أن يكون كلّ شيء قد فات أوانه، الآن يا رولف!».

قال الجملة الأخيرة ومن الوهن تحتّم عليه أن يجلس على حافة النافذة القريبة حتى يستطيع مواصلة الحديث؛ كان يتحدّث مثل طفل خائف بعد كابوس شرير: «وإذا جلستْ هناك مرّة أخرى، وأنا هنا؟ وإذا رجع كلّ شيء إلى ما كان عليه؟ تماماً كما كان عليه؟ هي هناك، وأنا هنا...».

جلس، ما زالت قنّينة الشنابس في يده، وتطلّع حوله في الغرفة، إلى

الكرسيّين الشاغرين. «ماذا عندئذٍ؟!»، سأل نفسه، وبعد ذلك بقليل: «ماذا عندئذٍ يا عزيزي، ماذا عندئذٍ؟ هل عليّ أن أصبح دخاناً حتى لا أكون عبئاً عليها؟ أم ماذا؟ هل عليّ أن أصوم إلى أن تعطيني إشارة، وحتى أُظهِر لها أن أحدنا من الممكن أن يموت جوعاً؟ أم ماذا؟».

أجبته قائلاً: «شتيلر، لن يعود الأمر إلى ما كان عليه. لن يكون الأمر بالنسبة إليك كما هو حتى لو لم تتغيّر يوليكا قطّ. ظهر اليوم كنت تظن أنها تحتضر...».

بمجرّد أن لاحظ المسار الذي قد يأخذه حديثي، قاطعني: «أعرف ما تعنيه».

أظهر لي غثيانه حتى لا أواصل حديثي، فصمتُّ. واصل قائلاً: «ما أكثر ما كان لديّ من رؤى وقرارات! وإذا جلستْ هنا ثانية، ماذا عندئذٍ؟ مع مرور السنين أصبحت أعرف نفسي. أنا ضعيف».

- «إذا كنت تعرف أنك ضعيف، فهذا في حدّ ذاته كثير. ربما تكون أدركت ذلك للمرة الأولى. منذ ظهر الأمس، عندما ظننت أنها تحتضر. تقول إنك أحياناً تكرهها. لأنها هي أيضاً ضعيفة ومسكينة. لأنها لا تستطيع أن تعطيك ما تحتاج إليه. بالتأكيد. وحبها ضروري للغاية بالنسبة إليك. أكثر من أيّ شيء آخر. ثمة أشياء ضرورية للغاية يا شتيلر، ورغم ذلك فإننا لا نقدر عليها. لماذا يجب على يوليكا أن تقدر عليها؟ أنت تعبدها، ما زلت، أم أنك تحبها؟».

تركني شتيلر أتحدّث. ثم قال: «نعم نعم، ولكن إذا تحدّثنا على نحو عملي، فهي هناك، وأنا هنا، ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ عمليّاً!».

تطلّع إليّ، ثم قال وبدا راضياً أثناء ذلك: «أترى يا رولف، لا إجابة لديك أنت أيضاً!».

- «لقد قطعتَ شوطاً طويلاً، كثيراً ما تولّد لديّ الانطباع بأنه لا ينقصك سوى خطوة واحدة».

- «وعندئذٍ نجلس هنا وسط حفل الزواج، أهذا ما تعنيه؟».

- «أعني أنك لن تعود تنتظر أن تكون يوليكا هي الخلاص بالنسبة إليك، أو العكس. أما ما يعنيه ذلك من الناحية العملية، فأنت تعرف».

- «كلا».

- «لا تغيير، ستعيشان معاً، أنت مع عملك في القبو، وهي بنصف رئة، إلى ما شاء الله، والفارق الوحيد: لن يعود كلّ منكما يعذّب الآخر كلّ يوم بهذا التوقّع الباطني، أنّ بإمكاننا تغيير إنسان، إنسان آخر أو تغيير أنفسنا، لن يعذّب كلّ منكما الآخر بهذا اليأس المتعجرف... عملياً: ستتعلّمان الصلاة من أجلكما معاً».

نهض شتيلر، فقلت مختتماً كلامي: «نعم، هذا في الحقيقة هو كلّ ما أستطيع قوله لك في هذا الموضوع».

كان شتيلر قد وضع قنينة الشنابس على المائدة الصغيرة، وتبادلنا النظرات؛ ولم يبتسم ابتسامته الشاحبة السابقة. لم يقل سوى: «على المرء أن يكون قادراً على الصلاة!»، وأعقب ذلك صمت طويل...

في ما بعد، بعد فترة طويلة، فكّرت كثيراً في ما كان ينبغي عليّ أن أفعله في تلك الليلة، إذ وجدت نفسي فجأة أمام مهمة تتعدى إمكانيات الصداقة. عندما غادر شتيلر الغرفة حتى يتقيّأ أخيراً، وقفت حائراً. شعرت بلهاثي، أيّاً كان ما سأقوله، سيبقى وجهة نظري الشخصية. في أفضل الحالات لم أنجح في شيء إلا في المقاومة الودية كلما حاول الصديق، الذي يمر باختبار، أن يتهرّب من اختباره... أخذت كأساً من الشنابس، وعندما عاد شتيلر بعد نحو عشر دقائق -للأسف بعد أن اصطدم في الممرّ

بقطعة أثاث وأحدث ضجيجاً- وجدني ممسكاً بالكأس الفارغة في يدي. سألته: «كيف حالك؟».

أومأ شتيلر برأسه فحسب: لقد أفرغ ما في معدته، وغسل وجهه كما هو واضح. كان وجهه أخضر بعينين ملتهبتين. سألني مرّة ثانية: «كم الساعة الآن؟».

كان قد جلس على صندوق، وسند جسمه بذراعين ممدودتين. قال: «عندك حقّ... هذا السُّكْر الأحمق!».

بدا شتيلر وكأنه لا يريد أن يعرف شيئاً عن حديثنا الذي لم نصل فيه إلى نهاية. كنا نحتاج إلى عبارة فحسب حتى نستطيع النوم، هكذا بدا، جملة نمطية لإشاعة التفاؤل: غداً يوم جديد! أو شيء مشابه. دقّت الساعة الثانية والنصف. بالطبع فكّر كلانا في زمن المستشفى. هناك كان الوقت مهمّاً، هنا لا. رغماً عني وجدت نفسي أتخيّل غرفتها في المستشفى، الممرضة تجلس بجانب السرير الأبيض وتقيس نبضها، آمل ألّا ينبغي عليها استدعاء الطبيب - ولأول مرّة شعرت أنا أيضاً بالخوف. رأيت على الصندوق جهاز التليفون الذي قد يرنّ في أيّ لحظة، وتوقّعت حدوث أسوأ الأشياء. تذكّرت حظر الزيارات المسائية. سألني شتيلر: «فيمَ تفكّر؟».

كان عليّ أن أقول شيئاً، فقلت مدّعياً: «يكفي أن تكون الآن عقلانياً يا شتيلر، ألّا ترى أشباحاً. أنت تحبها. لقد بدأت تحبها، ويوليكا لم تمت، ما زال كلّ شيء ممكناً...».

خجلت من نفسي بعض الشيء، ولكن بدا أن مثل هذه الأقوال تحديداً تهدّئ شتيلر.

- «هل معك سيجارة؟».

سألني لكيلا يذهب إلى الفراش وحتى لا يصبح وحيداً. كنت بالبيجاما،

ولم تكن معي سجائر. قال شتيلر: «بالتأكيد لم تستطع زوجتك أن تنام. لقد أحببتُ زوجتك...».

ثم أضاف حتى يكون دقيقاً: «ما زلتُ أحبّها، لكنّك تعرف هذا».

فترات الاستراحة بين كلامه كانت تتسع وتتسع. «اترك كلّ شيء!»، غمغم عندما وضعت الزجاجات الفارغة إلى الجانب حتى لا يتعثّر شتيلر بها ويتسبّب في ضجيج جديد. ثم سألني بصوت متهدّج: «أم أنك ترى أنني لم أحبّ قطّ؟ ولا مرّة؟!».

كان الإنهاك يستحوذ على وجهه أكثر فأكثر. قال وهو يتظاهر بأنه مستعدّ للذهاب: «لو لم أكن يقظاً على هذا النحو الملعون!».

- «لا بدّ أن ترتاح، غداً في التاسعة ستراها...».

كانت سجائره، غلواز الزرقاء، على البساط بجانب الفوتيه.

«أشكرك!»، قال شتيلر عندما قدّمت له علبته، ووضع سيجارة في فمه، ثم نزعها مرّة ثانية رغم عود الثقاب المشتعل الذي قدّمته له.

- «... غداً في التاسعة سأراها!».

ثم انهمك في التدخين وكأن الدخان غذاؤه. سألني: «أنت تعتقد أنها لن تموت؟».

قلت له من دون حذر: «ما دام تليفونك لم يرنّ يا شتيلر، فلا داعي لمثل هذا الخوف».

ما قيل قد قيل، لم أكن أستطيع أن أتراجع عن ملاحظتي السمجة التي تجسّد الخوف أمام عينيه. نظر شتيلر إلى التليفون الأسود. واصلتُ حديثي في تلك الأثناء: «لا بدّ أن تكون مهيّأ لذلك، ستموت يوليكا يوماً ما. إن آجلاً أو عاجلاً. مثلما سنموت جميعاً. لا بدّ أن تكون مهيّأ لذلك».

واصل شتيلر تدخينه وصمت. لفترة طويلة لم أكن أعرف فيم يفكّر.

وأخيراً ألقى بسيجارته في المدفأة، أو على الأقل قريباً منها، لكي يذهب أخيراً. كنت أرتعش برداً، نار المدفأة كانت قد انطفأت، ولم يعد لدينا حطب. قلتُ مرّة أخرى مستخدماً عبارات مستهلكة: «ربما كان جيداً أننا تحدّثنا...».

أومأ شتيلر موافقاً من دون اقتناع، كان لا يزال جالساً على الصندوق مستنداً على ذراعيه المفرودتين؛ بدا أنه يستجمع قواه. قال: «في الحقيقة، أتعرف، أنا الآن حيثما بدأت منذ عامين، لم أتقدّم خطوة واحدة! مرَّ فقط عامان ضائعان... لا أريد أن أضجرك يا رولف، لكن...».

نظر إلى رعشتي، ثم واصل قائلاً: «رولف، كان من الممكن أن ننجح! من دون معجزات، صدّقني، كان من الممكن أن ننجح، هي وأنا، من دون أن نتغيّر... قبل ذلك لم يكن ممكناً! أما الآن، أقصد، قبل عامين... الآن ولأول مرة، الآن وهنا...».

لم يكن شتيلر يريد البكاء، كان يقاوم ذلك. نهض قائلاً: «اليوم، قبل الظهر في المستشفى... لا، كان ذلك بالأمس...».

سالت الدموع فوق وجهه غير الحزين مطلقاً؛ كان يريد أن يقول شيئاً.

كرر: «كان من الممكن أن ننجح...»، ولم يزد عن ذلك.

قلت له: «ستنجحان إذاً، ستنجحان إذاً!».

في أعقاب ذلك كان الأمر غريباً؛ لوهلة تصرّفنا وكأن شتيلر لا يبكي مطلقاً. وقف في الغرفة في مكان ما عاجزاً عن الكلام، واضعاً يديه في جيبي سرواله. كنت أرى ظهره، لا وجهه، وكنت أعرف أن شتيلر يبكي، وأنه من البكاء لا يسمع شيئاً. أخذت أتحدّث عن كرّاساته، فقط حتى لا أكون مجرّد مشاهد صامت. كان مما قلت: «على كلّ حال فأنت تعرف الآن ما هو مهمّ، أنت تعرف أن لا شيء ينتهي عندما يقوم واحد بإطلاق

رصاصة على صدغه مثلاً. كيف يستطيع المرء وصف الخبرة التي عايشها! لكنك تعرف، مهما كان الأمر عسيراً على التخيّل. ربما يكون لديك تخيّل غريب عن الإيمان؛ ربما ترى أن الإنسان يكون في مأمن إذا كان مؤمناً، عندئذٍ يكون حكيماً وينال الخلاص... إلى آخره. لكنك لا تجد نفسك في مأمن مطلقاً، وهكذا تجد نفسك هناك ولا تصدّق أنك مؤمن. أليس الأمر كذلك؟ أنت لا تستطيع تخيّل الربّ، وهكذا تحاول إقناع نفسك أنك لم تختبره قطّ...».

بدا شتيلر سعيداً أنني أتحدّث. واصلتُ: «حسب معرفتي بحياتك، لقد تخلّصت من كلّ شيء مرّة تلو أخرى، لأنك كنت قلقاً. لستَ الحقيقة. أنت إنسان، وكثيراً ما كنتَ مستعداً للتخلي عن أكذوبة، وأن تكون قلقاً. ماذا يعني ذلك يا شتيلر غير أنك تؤمن بحقيقة ما؟ بحقيقة لا نستطيع تغييرها، ولا حتى قتلها... حقيقة الحياة».

أصدرت ساعة الحائط في الممرّ صلصلة كعادتها قبل أن تدقّ؛ كانت الثالثة. قلتُ حتى أواصل الكلام: «كانت كرّاساتك غريبة بالنسبة إلي، دائماً ما كنت تحاول أن تقبل ذاتك، دون أن تقبل الربّ، أو ما شابهه. والآن، لقد تأكّدت أن هذا مستحيل. إنه القوة التي قد تساعدك على قبول ذاتك حقّاً. كلّ هذا خبِرته أنت! ورغم ذلك تقول إنك لا تستطيع الصلاة؛ لقد كتبتَ ذلك أيضاً. إنك تتشبّث بغيبوبتك، وتعتبر ذلك شخصيتك، مع أنك تعرف غيبوبتك تمام المعرفة... وكل هذا ينبع مما يشبه العناد، لأنك لست القوة التي تنتظرها. أليس الأمر كذلك؟».

بالطبع لم يُجب شتيلر، فواصلتُ: «أنت تظن أن الأمر لا بدّ أن يكون قاهراً لك، وإلا فهو ليس صحيحاً. فأنت لا تريد أن تختلق شيئاً أو تلفّقه. يدهشك أنك أنت نفسك ما زلت تتضرّع حتى تستطيع الإيمان؛ عندئذٍ تشعر بالخوف، الربّ من اختراعاتك...».

تحدّثت كثيراً، ولهذا أنهيت كلامي. كما قلت لم أكن أنتظر أن يصغي إليّ شتيلر، لكني كنت أتحدّث حتى لا أكون شاهداً صامتاً على بكائه. كانت أفكاره في مكان آخر. قال شتيلر: «وجهها... ليس هذا وجهها مطلقاً يا رولف، ولم يكن وجهها في يوم من الأيام!».

لم يُرِدْ أن يزيد على ذلك. راح شتيلر يبكي في تلك اللحظة، نادراً ما رأيت رجلاً يبكي مثله. مع أنه كان يقف مستقيماً، واضعاً يديه في جيبي سرواله. لم أغادر الغرفة؛ لم يعد لوجودي أي أهمية... في تلك الدقائق حاولت كثيراً أن أتذكّر وجهها، لكنني لم أرَ سوى ذلك الوجه الذي رأيته في الخريف الماضي، الوجه الذي لم يكن وجهاً، رأيت نحيبها بفم متحجّر مفتوح، وقبضتيها المتحجّرتين أيضاً على حجرها، وتلك الارتعاشة الصامتة لجسدٍ أعمى يفيض خوفاً من الموت؛ لكنني لم أكن أريد في تلك اللحظة أن أتذكّر ذلك. قرّرت أن أذهب أنا أيضاً في صباح اليوم التالي إلى المستشفى لكي أرى السيدة يوليكا، حتى ولو لفترة قصيرة. عندما لاحظ شتيلر أخيراً وجودي، قال بعد أن أنهكه البكاء: «قل شيئاً!».

كرّرتُ: «لقد قلتُ ما أريد قوله لك: يوليكا لم تمت، وأنت تحبها».

في إثر ذلك تطلّع شتيلر إلي، وكأنني بُحت له بسرّ. ما زالت ساقاه مضطربتين، وعيناه دامعتين، لكن رأسه كان يقظاً على ما أعتقد. راح يثني على صداقتنا، وعلى طيبتي، لأنني سهرت معه الليل كله تقريباً، ثم أخذ يحكّ جبهته الشمعية. قلتُ له: «إذا كان لديك صداع، فلديّ في الأعلى "ساريدون"».

لم يسمع هذه العبارة. كرّر عدّة مرات: «عندك حقّ، غداً في التاسعة سأراها...».

وقفنا أخيراً على العتبة، كنت شخصيّاً في غاية التعب. أطفأ شتيلر

الثريّا ذات الضوء الأبيض الشاحب. قال: «صلِّ من أجلي، لكيلا تموت!»، وفجأة وقفنا في الظلام، إذ إنّ شتيلر نسي أن يشعل ضوء الممرّ أولاً. سمعته يقول: «أنا أحبها...».

وجدت أخيراً زر النور في الممر. تصافحنا. ثم أراد شتيلر الخروج إلى الحديقة: «لا بدّ أن أستنشق هواء نقيّاً، لقد شربت أكثر كثيراً من اللازم».

كان هادئاً تماماً.

في صباح اليوم التالي، يوم الاثنين التالي لأحد القيامة، هبطنا الدرج، زوجتي وأنا، نحو التاسعة صباحاً. فطورنا كان معدّاً على المائدة بجانب النافذة المفتوحة، وفوق برّاد القهوة غطاء يحفظها ساخنة، صحنان بكلّ لوازمهما. لم ينقص ولا حتى المملحة أو منفضة السجائر. ما زالت البيضتان الليّنتان دافئتين، ومكتوب على البيضة المخصصة لزيبيله أنها طهيت ثلاث دقائق، كما كانت شرائح «التوست» دافئة تحت منديل السفرة؛ لا بدّ أن صديقنا سمعنا ونحن نغتسل، وبالتأكيد لم يغادر المنزل إلا منذ فترة وجيزة. كانت زوجتي قد سمعت ضجيج الليل، لكنها لم تعرف غير أننا تحدّثنا طويلاً. رجّحنا بالطبع أن شتيلر قد ذهب إلى المستشفى. عندما جلسنا إلى المائدة، حيث سطعت الشمس على الصحون، التي تطل على المنظر الساحر لبحيرة جنيف ذات الزرقة التي لا تنسى، وفي الخلفية جبال الألب ذات القمم الثلجية في منطقة سافوي، تراءى لي عندئذٍ حديثنا الليلي الطويل كحلم، دون علاقة حقيقية مع الحقيقة النهارية الساطعة. قرّرنا -على افتراض أن تصلنا بشرى سارة من المستشفى- أن نواصل السفر خلال اليوم عبر «شبر»، و«يافردون» و«مورتين» أو «نوينبورغ»، حتى نقضي يوم عطلة خاصّاً بنا في جزيرة القديس بطرس. كان الطقس أكثر من رائع. في حديقة مجاورة كانت شجرة ماغنوليا قد ازدهرت بكامل بهائها، وفي كلّ مكان توهّجت شجيرات الفُرسيتية في حزم صفراء كانت

تتدلى من فوق السياج، كان التلفريك ذو اللون الأحمر كالدم يسير بين التلال الخضراء المفروشة بزهور الربيع، يهبط إلى الوادي خالياً، ويصعد ممتلئاً بالمتنزّهين. كاد العالم يكون طفولياً ملوّناً، به كلّ ما يميّز عيد القيامة الربيعي: العصافير تصدح إلى درجة الإزعاج، وعلى البحيرة البواخر السياحية البيضاء في طريقها إلى قلعة شيلون، وفي مكان بعيد تُعزف موسيقا نحاسية مناسبة ليوم الأحد، وبين الحين والآخر تمرّ بنا قطارات السكك الحديدية.

قابلنا شتيلر ونحن لا نزال على مائدة الفطور اللطيفة. سؤالنا الفوري، المشوب بالخوف، عن الحال، كان يقصد بالطبع حال السيدة يوليكا؛ لكن صديقنا لم يأتِ من المستشفى، بل من قبوه. لم يَنَم شتيلر، وربما يكون قضى بقية الليل في الحديقة، والصباح الباكر في ورشة الفخار. بالطبع كان شاحباً ومُسهّداً. لا أعرف لماذا لم يذهب في التاسعة إلى المستشفى، كما أنه لم يكن حليق الذقن. هل كان خائفاً؟ كان على ما يبدو متفائلاً، وراح يتحدّث عن أشياء أخرى وكأن السيدة يوليكا على وشك مغادرة المستشفى. لم يتصل حتى بالتليفون. قال لي إن عليّ الذهاب إلى المستشفى، وإخبار زوجته أنه سيجيء في الحادية عشرة تقريباً. لم يستخدم حجة واحدة مقنعة. عليه أن يحلق ذقنه. ثم سمعناه يقول إن شخصية مهمة تجوب المنطقة رجته أن يعرض عليها أعماله الفخارية، وأنها ستجيء نحو العاشرة، وهو ما حدث، لكنه لم يكن سبباً وجيهاً. ربما كان شتيلر يشعر بالخجل من ظهوره أمام سرير المريضة ورائحة الخمر تفوح من فمه. أمام زوجتي أيضاً أخذ -على نحو لافت- مسافة لائقة. قال: «رائحتي سيئة». لكن رائحة الخمر، سواء الحقيقية أو المتوهّمة، لم تكن تمنعه من الاتصال بالمستشفى، على الأقل، لكن شتيلر لم يكن يريد ذلك. ولم يكن من حقّي أن أجبره على ذلك. وفي النهاية قادتْ زوجتي السيارة إلى المستشفى

القريب في «فالمونت»، وهناك انتظرتْ في السيارة؛ فالزيارة ستكون قصيرة جدّاً على كلّ حال، هذا إذا كان مسموحاً على الإطلاق بزيارة من غير الأقارب. كانت لديّ رغبة حقيقية، على الأقل أن أرى السيدة يوليكا قبل أن نواصل السفر. بمجرّد أن وقفت في الاستقبال، أدركت كلّ شيء فجأة. في ممرّ مشمس، حيث وضعت المزهريات أمام الأبواب وحيث كانت الممرضات الصامتات يذهبن ويجئن، كان عليّ الانتظار لمدة ربع ساعة ملأها القلق، إلى أن أخبرني الطبيب الشاب برحيلها. بعد إلحاحي وعدوني بألّا يخبروا السيد شتيلر هاتفياً بأي حال من الأحوال. حدثت الوفاة قبل نصف ساعة، ومن الواضح أنها كانت مفاجئة للطبيب. أما رغبتي الأخرى: أن أرى السيدة شتيلر، فلم يستجيبوا لها. لم تعد في غرفتها. لكن وجهي -الأرجح أنني بكيت- كان يكفي؛ أم أنه منحني شرعية لأراها؟ على كلٍّ أُبلِغَت رئيسة الممرضات بأخذي إلى المتوفاة.

شعرها أحمر، بل ووفقاً للمودة الحالية أحمر صارخ، لكنه ليس في لون مربّى ورد المسك، هو يشبه بالأحرى حُمرة مسحوق السلقون الجاف. غريب جدّاً. إلى ذلك، لون بشرة رقيق رقّة بالغة: مرمري يشوبه النَمَش. غريب جدّاً كذلك، لكنه جميل. والعينان؟ سأقول: لامعتان، منداتان تقريباً، لونهما أخضر مائل للزرقة مثل حواف زجاج النوافذ عديم اللون. قامت للأسف بحلاقة شعر الحاجبين حتى أصبحا خيطاً رفيعاً ما منح وجهها صلابة ورشاقة، لكنها بدت أيضاً وكأنها ترتدي قناعاً، وكأن ملامح وجهها تعبّر عن دهشة دائمة. أنفها يبدو في غاية النُّبل، لا سيما من الجانب، التعبير الأكثر تلقائية يصدر من المنخرين. شفتاها أنحف من اللازم قليلاً حسب ذوقي، لكنهما لا يخلوان من الشهوانية، وإن كان لا بدّ من إيقاظهما أولاً. شعرها المنساب رائع، رقيق وخفيف كالحرير. أسنانها القواطع ممتازة، وإن كانت لا تخلو من حشو، في ما عدا ذلك كانت برّاقة

مثل عقد من اللؤلؤ الجميل. رحت أتأملها مثلما يتأمل المرء شيئاً؛ امرأة، امرأة غريبة، امرأة ما... هكذا تماماً كانت ترقد على فراش الموت، وانتابني فجأة شعور هائل بأن شتيلر كان يراها منذ البداية كامرأة ميتة فحسب، ولأول مرّة أيضاً تكوّن لديّ وعي بذنبه، وعي عميق، مؤكّد، لا تمحوه أيّ كلمة بشرية.

لم يبقَ سوى إبلاغ الصديق بهذا النبأ الجسيم. لم أكن في حاجة إلا إلى كلمات قليلة، لقد عرف شتيلر! لم يتصل المستشفى رغم مرور ما يقارب الساعة على مغادرتي؛ ولكنه عرف بمجرّد أن رآني، بل وأعتقد أن شتيلر نطق بالنبأ بنفسه؛ لا أودّ أن أقول إنه كان متماسكاً، فقد كان ذلك هو التماسك المرعب لشخص شارد الذهن. بعد ذلك انتظرتُ شتيلر وقتاً طويلاً حتى أوصله بالسيارة. صعد إلى غرفته حتى يحضر -كما قال- سترته. لم نسمع أيّ شيء، لا خطوات، ولا نحيباً، لم نسمع سوى الطيور الصدّاحة، ومع الوقت تولّد لدى زوجتي خوف واضح من أن يفعل صديقنا في نفسه شيئاً. لم أصدّق ذلك لحظة واحدة، ومع ذلك صعدت إليه، بعد أن انتظرنا وانتظرنا من دون جدوى. طرقت بابه. وعندما لم يعقب طرقي إجابة، دخلت. كان شتيلر في وسط الحجرة، يداه في جيبي سرواله كما يفعل كثيراً. «سآتي»، قال. انطلقت به إلى المستشفى وانتظرتُ في الخارج في السيارة. كانت صورة المتوفاة أقوى كثيراً من كلّ ما رأته عيناي؛ صورة كائن راحل لم يتعرّف إنسان في حياته على جوهره، وأقل إنسان تعرّف عليه هو الإنسان الذي صارع من أجله بحبه البشري. بعد ربع ساعة عاد شتيلر وجلس بجواري في السيارة. «إنها جميلة»، قال. مدّدت إجازتي وبقيت بعد سفر زوجتي بضعة أيام في غليون حتى أحمل عنه كلّ ما يتعلّق بالوفاة. لم يكن لديّ شعور بأن شتيلر في حاجة إليّ، كما لم تتولّد أحاديث بيننا. لم تهمّه التفسيرات الطبية، وغير ذلك لم يكن ثمة ما يقال

تقريباً؛ كلّ شيء كان محسوماً. في المساء، بعد الجنازة الصغيرة في مدافن غريبة، وعندما تحتّم عليّ أن أتركه وحده، ذهب شتيلر للعمل في قبوه، أو حاول ذلك على الأقل. قادني إلى تلك البوابة الحديدية الصغيرة ذات اللافتة الغريبة، شارد الذهن، حتى إنني صافحته مرتين أو ثلاث مرات. التقينا بين الحين والآخر؛ لكنّ اتصالاته الليلية انقطعت، وشحّت رسائله. ظلَّ شتيلر يعيش وحيداً في غليون.

مكتبة
t.me/t_pdf

تذييل

شتيلر: بإمكانك أن تحكي كلّ شيء، إلا حياتك الحقيقية

قبل نحو خمسة عشر عاماً حظيت باستضافة الأديب الكبير الراحل إدوار الخراط (1926–2015) مع زوجته في ألمانيا. ورغم تقدّمهما في العمر كانا يتّسمان بالحيوية وحبّ المعرفة، وكانا حريصين على زيارة المعالم السياحية في المنطقة والذهاب إلى المتاحف. أحد المتاحف التي ذهبنا إليها معاً كان في مدينة صغيرة بالقرب من مدينة دورتموند تدعى بوتروب. كان المتحف الصغير مخصّصاً لأعمال الفنان الألماني المعروف يوزف ألبرس (1888–1976) الذي وُلد في المدينة نفسها. عندما يقف المرء أمام لوحات ألبرس يكاد يظن أن الفنان لا يفعل شيئاً سوى تكرار نفسه. الفكرة الأساسية التي انشغل بها ألبرس طوال حياته هي التأثير المتولّد عن تجاور الألوان والأشكال والخطوط. ومن أشهر أعمال ألبرس مجموعة لوحات بعنوان «احتفاءً بالمربّع»، وتتكوّن كلّ لوحة من هذه المجموعة من ثلاثة مربّعات أو أربعة، متداخلة، ذات ألوان مختلفة، أو درجات مختلفة من اللون الواحد. أما هدف ألبرس من هذه المجموعة فهو إثبات أن تأثير اللون على الرائي يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف المحيط اللوني.

في متحف بوتروب يرى الزائر لوحات لا حصر لها تشبه بعضها بعضاً؛ ولكن، حقاً، كلّ لوحة كانت بالرغم من ذلك مختلفة، وفريدة. أتذكّر أن هذا الإلحاح، بل هذا الهوس قد بهر إدوار الخراط الذي راح كالمجذوب يتتبع هذا الانشغال والإخلاص لفكرة فنية ما، والتنويعات التي لا تنتهي للفكرة نفسها. كان يتأمل طويلاً كلّ لوحة، ويحدّثني عن اختلافها عن سابقتها، وعن تأثير تجاور الأزرق مع الأحمر، أو الأحمر مع الأصفر، واختلافه تماماً عن اللوحة التي يجاور فيها الأصفر اللون الذهبي واللون البرتقالي؛ وأمام إحدى اللوحات قال متعجّباً وكأنه يحدّث نفسه: «ويتهمني النقّاد بأني أكرّر نفسي!». وبعد أن انتهينا من رؤية كلّ اللوحات، عاد الخراط إلى اللوحة الأولى. وقبل مغادرة المتحف ذهب إلى مكتبة المتحف، واقتنى كتالوغ الأعمال الكاملة ليوزف ألبرس.

تذكّرت الخراط وألبرس وأنا أستعيد أعمال الكاتب السويسري ماكس فريش (1911-1991). كان فريش يشبه في ناحية من النواحي يوزف ألبرس وإدوار الخراط. هناك فكرة «ملحاحة»، بتعبير يحيى حقّي، نجدها في معظم أعماله؛ هذه الفكرة، أو بالأحرى السؤال الملحاح عليه هو سؤال الهوية، الذي أضحى بمنزلة «العلامة المسجّلة» له. ومثل ألبرس والخراط فإن تنويعات الاقتراب من هذا السؤال لديه لا تنتهي، وكلّ مقاربة جديدة تختلف وتتميّز عن المقاربات السابقة.

كان ماكس فريش في الأربعين من عمره تقريباً عندما نشر يومياته للفترة من 1946 إلى 1949؛ تلك اليوميات التي اختارتها دار نشر «زوركامب» الشهيرة لدى تأسيسها عام 1950 لتكون أول كتاب تصدره. وضعت هذه اليوميات حجر الأساس لشهرة ماكس فريش في المنطقة الألمانية، ويكاد

نقّاد الأدب الألماني يُجمعون على أن تلك اليوميات تضمّ بذور كلّ أعماله اللاحقة والشهيرة، مثل «أندورا» و«بيدرمان ومشعلو الحرائق» و«هومو فابر» و«مونتوك». في دفتر يومياته عثر فريش على الأسلوب الذي سيصبح في ما بعد أسلوبه المميّز. عدا الأسلوب يجد القارئ في يومياته أيضاً مفتاحاً لمشكلة الهوية التي ستشغله طويلاً في ما بعد، كما يتحدّث عن لقائه بأديب كبير أثّر عليه إنساناً وكاتباً، ألا وهو الشاعر والكاتب المسرحي برتولت برشت (1898-1956).

ربما تحت تأثير برشت بدأ فريش حياته كاتباً مسرحياً، فكتب أولى مسرحياته «ها هم يعاودون الغناء» في عام انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945)، متناولاً قضايا الماضي والذنب التاريخي والمسؤولية وصراع الأجيال. وبعد ذلك توالت المسرحيات التي رسّخت شهرته في سويسرا والمنطقة الألمانية كلها، مثل «سور الصين» و«دون جوان أو عشق الهندسة» و«بيدرمان ومشعلو الحرائق». في مسرحية «بيدرمان» -التي تعتبر من أنجح مسرحيات فريش، وقد عُرضت عربيّاً في القاهرة وبيروت- يستضيف صاحب مصنع ثريّ يدعى بيدرمان رجلين، ورغم أنه يرتاب في سلوكهما، خصوصاً عندما يلاحظ انتشار الحرائق في المدينة خلال فترة استضافته لهما، فإنه لا يفعل شيئاً. يجلس بيدرمان من دون أن يحرّك ساكناً، إلى أن يُشعِل النيران في بيته مَن استضافهم بسذاجة بالغة. لم يهتمّ الرجل سوى بحماية ذاته وثروته، معتقداً أنه باستضافة «البلطجية» أو «الشبيحة» سيكون في مأمن من الأخطار. يُحسن بيدرمان ضيافة مشعلي النيران، ويلبي كلّ طلباتهم، وفي النهاية يقدّم لهم الكبريت الذي يحرقون به منزله.

هل فقدت هذه الأمثولة شيئاً من راهنيّتها؟

«لا تصنع لك تمثالاً أو صورة»

في سنوات الخمسينيات والستينيات قدّم فريش عدداً من الروايات والمسرحيات التي أطلقت، بعد ترجمتها، شهرته العالمية، وكلّها أعمال دارت حول السؤال الذي يلحّ عليه: سؤال هوية الإنسان. كان العمل الأول الذي لفت الأنظار إليه بشدة هو رواية «شتيلر» (1954) التي سرعان ما أضحت من أهم الروايات التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت نقطة تحوّل في حياة كاتبها؛ رواية حداثية بامتياز حققت نجاحاً ساحقاً في العالم كلّه، وحفّزت كاتبها على هجر مهنته (كان مهندساً معمارياً متحقّقاً حاز على جائزة في العمارة من مسقط رأسه، مدينة زيورخ)، والتفرّغ نهائياً للكتابة. تبدأ الرواية بجملة أصبحت من أشهر الجمل في الأدب الألماني المعاصر: «لستُ شتيلر!» جملة بسيطة لكنها كانت تعبيراً عن حنين الملايين في ألمانيا وأوروبا إلى هويّة جديدة وحياة جديدة بعد انتهاء الحرب.

من الممكن اعتبار «شتيلر» رواية عن الفنّ والفنّانين وتقلّبات حياتهم، ومحاولة تحقيق الذات في الفن وعبر الفن؛ ومن الممكن اعتبارها أيضاً رواية عن الزواج، وعن الحب غير المتحقق بسبب التوقعات الكثيرة تجاه الآخر. «شتيلر» هي كلّ ذلك، وهي أيضاً، وفي المقام الأول، رواية عن الهوية المتغيّرة والمتبدّلة للإنسان، رواية عن صورة الذات لدى النفس ولدى الآخرين، وصعوبة قبول الإنسان لنفسه، وكذلك استحالة رسم صورة «حقيقية» عن حياة إنسان. يقول ماكس فريش على لسان شتيلر: «بإمكانك أن تحكي كلّ شيء، إلا حياتك الحقيقية؛ هذه الاستحالة هي التي تبقينا محكومين بالصورة التي يرانا عليها ويعكسها عنا رفقاؤنا، الرفاق الذين يدّعون أنهم يعرفونني، الرفاق الذي يعتبرون أنفسهم أصدقاء لي، ولا يسمحون لي أبداً أن أتغيّر، ويسحقون كلّ معجزة (ما لا أستطيع

حكايته، ما لا يُنطق به، ما لا أستطيع البرهنة عليه) - فقط حتى يستطيعوا القول: إنني أعرفك».

ومن الجمل المحورية في هذه الرواية مقولة: «لا تصنع لك تمثالاً ولا صورة»، وهي، كما هو معروف، الوصية الثانية من وصايا الرب إلى النبي موسى. وإذا كانت الوصية تقصد قصر العبادة على الله وحده، وعدم التعبّد لصور أو تماثيل، فإن فريش يفهمها على نحو آخر تماماً. في «يوميات 1946-1949» المُشار إليها سابقاً نقرأ فصلاً قصيراً بالعنوان نفسه، ويقول فريش فيه إن الإنسان يعجز دائماً عن رسم صورة لمن يحبه، لأنه يحبه. ويضيف: هنا يكمن الحب، وتكمن روعة الحب، أنْ يؤمن الإنسان بقدرة المحبوب على التطوّر والتغيُّر، فالحب يحرّر من كلّ صورة جاهزة عن الآخر. ويضيف فريش إننا عندما نعتقد أننا نعرف الآخر تمام المعرفة، فهذا يعني نهاية الحب. وهذا تحديداً ما تقوله يوليكا لزوجها شتيلر: «ليس عبثاً أن قال الرب في وصاياه: لا تصنع لك تمثالاً أو صورة! كلّ صورة هي خطيئة. إنها العكس تماماً من الحب... عندما تحب إنساناً، فإنك تترك كلّ الاحتمالات مشرعة أمامه، وتكون ببساطة، ورغم كلّ الذكريات بينكما، قادراً على الدهشة، الدهشة الدائمة، لاختلاف الآخر وتباينه، لا أن تصنع له صورة جاهزة، مثلما تفعل أنت».

تنويعات

في عام 1957 نشر فريش الرواية التي رسّخت شهرته العالمية، وهي رواية «هومو فابر»، وفيها يحكي قصة فابر، المهندس العقلاني المؤمن بالعلم والتقنية الذي لا يعترف إلا بما يخضع للحسابات الصارمة، وبالتالي لا يعترف بالحب أو الدين أو الفن، لأنها كلها أشياء خارجة عن

المنطق الرياضي. لكن المهندس العقلاني يقع في حب شابة تقلب كلّ حسابات حياته رأساً على عقب. وفي عام 1964 يعود فريش إلى «تيمة» الهوية مرّة أخرى في روايته الشهيرة «يقولون إن اسمي غانتنباين»، وفيها يدّعي غانتنباين بعد حادث سيارة أنه أعمى، وهكذا يرى كلّ ما يحاول الناس أن يخفوه عنه. غانتنباين يجرّب «القصص كالملابس»، مثلما يقول فريش، وهو ما يفعله أيضاً بطل مسرحية «سيرة حياة» (1967) الذي يعتقد أن سبب تعاسته هو زواجه، ولهذا يحاول أن «يجرّب» حياة جديدة، علّه يعيش حياة أخرى، ويصل إلى هوية أخرى تمنحه السعادة.

أما ذروة أعماله الذاتية فهي قصة «مونتوك» (1975) التي صدرت ترجمتي العربية لها في عام 2001 عن دار الجمل. في «مونتوك» يزيل فريش الحدود الفاصلة بين الأدب والحقيقة، بين الواقع والخيال، وبين سيرته الذاتية وسيرة الآخرين. مونتوك هو اسم المكان الصغير الذي قضى فيه القاص/ الكاتب نهاية أسبوع مع أميركية شابة، وهناك قرّر أن يقصّ ما عاشه: «كسيرة ذاتية، نعم كسيرة ذاتية. من دون أن يخترع أشخاصاً، من دون أن يخترع أحداثاً تكون أكثر دلالة على واقعه. من دون الهروب إلى الخيال. من دون أن يبرّر كتابته بالمسؤولية تجاه المجتمع. من دون رسالة. ليست لديه رسالة ويحيا رغم ذلك. إنه يرغب في أن يقصّ فحسب (من دون أن يراعي مشاعر كلّ هؤلاء الذين يذكرهم بأسمائهم): أن يقصّ حياته». عبر العلاقة الغرامية التي نشأت بين ماكس فريش والشابة التي وظّفتها دار النشر الأميركية لمرافقة الكاتب المسنّ خلال رحلته الأميركية، يسترجع فريش علاقاته الغرامية والزوجية طوال حياته، مُقدّماً سيرة ذاتية مفرطة في صراحتها وقسوتها، وخصوصاً في المقاطع التي يتحدّث فيها عن علاقته بالشاعرة النمساوية إنغبورغ باخمان (1926–1973) التي لاقت حتفها محترقة في شقّتها في روما.

يتحدّث فريش في «مونتوك» عن «هذا الهوس» الذي أصابه، أي «كتابة جمل على الآلة الكاتبة»، هذا الهوس الذي يدفعه إلى استخدام حياته وحياة الآخرين موضوعاً لأعماله، إلى أن تصرخ فيه زوجته الثانية ماريانا: «لم أعش معك مادّةً لأدبك!»، وتطلب منه الطلاق.

يقول فريش في «مونتوك»: «لقد تستّرت على حياتي. زوّدت رأياً عاماً بقصص ما. تعرّيت في تلك القصص، أعرف، تعرّيت إلى درجة يستحيل فيها التعرّف عليّ... لم أصف نفسي قطّ. لقد خنت نفسي فحسب».

وظنّي أن ماكس فريش لم يخن نفسه، بل قدّم أدباً ذاتيّاً في وقتٍ كان الأدب الألماني يبحث عن دور اجتماعي وسياسي ويبتعد عن كلّ ما هو ذاتي. آنذاك كان النقّاد يحتفون برواية «طبل الصفيح» لغونتر غراس، و«حصة اللغة الألمانية» لزيغفريد لنتس، و«آراء مهرج» لهاينريش بول، وهي كلها أعمال تتمحور حول الماضي النازي ومسؤولية الألمان في الحرب وتدمير العالم وملاحقة اليهود؛ في تلك الفترة تخصَّص ماكس فريش في الكتابة الذاتية، وفي الحديث عن الهوية والذات. وقد حققت أعماله نجاحاً عالمياً كبيراً لأنه أصاب عصب الوقت، ومنح ملايين القراء الأمل في أن يبدؤوا حياة جديدة ويكتسبوا هوية جديدة مثلما حاول شتيلر.

«لن ينسى القارئ شتيلر، البطل الرئيسي في هذه الرواية» -هكذا كتب الأديب الكبير هرمان هسّه بعد أن قرأ الرواية- «إذ إنّ شتيلر ليس شخصية روائية، إنه إنسان فرد، مقنع وحقيقي في كلّ سمات شخصيته».

وأظنّ أن القراء العرب لن ينسوا الرواية، ولن ينسوا بطلها بالخصوص. ويتفق النقاد الألمان على أن «شتيلر» هي إحدى الدرر الأدبية، ومن أهم الروايات الألمانية المعاصرة. إنها رواية استثنائية عن الإنسان الحديث وعلاقته المتصدّعة مع الهوية، وهي رواية رائدة تبرز المقدرة الفذة

للمعماري فريش على البناء الفني المعقد والمقنع والممتع في آنٍ معاً. وأحسب أن الزمن لم ينل منها شيئاً رغم انقضاء نحو سبعة عقود على صدورها لأول مرة.

ويسعدني أن أقدّم هذه الترجمة، التي أعتبرها من أهمّ ما أنجزت حتى الآن، في الذكرى العاشرة بعد المئة على مولد كاتبها الكبير ماكس فريش.

سمير جريس

برلين، خريف 2020

مكتبة
t.me/t_pdf

ماكس فريش (1911–1991):

وُلد ماكس فريش عام 1911 في زيورخ بسويسرا. شرع في دراسة الأدب الألماني، لكنّه لم يكمل دراسته، وعمل صحفيّاً. بعد ذلك درس الهندسة المعمارية في المعهد العالي للهندسة في زيورخ، وحصل على درجة الدبلوم. بعد أن أصدر روايته «شتيلر» (1954)، هجر الهندسة المعمارية وتفرّغ للكتابة. كتب عدداً من أشهر المسرحيات والروايات في المنطقة الألمانية، منها: «بيدرمان ومشعلو الحرائق» و«هومو فابر» و«شتيلر» و«مونتوك».

حاز فريش عدداً كبيراً من الجوائز، من أهمها جائزة غيورغ بوشنر (1958)، وجائزة السلام الألمانية (1976). توفي في زيورخ عام 1991.

سمير جريس:

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة وماينتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية نحو ثلاثين عملاً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك (نوبل 2004)، و«العطل» لفريدريش دورنمات، و«حلم» لأرتور شنيتسلر. حصل على جوائز عربية وألمانية تقديراً لترجماته.

صدرت بترجمته لدى دارَيْ «سرد» و«ممدوح عدوان» الكتب التالية: «صداقة مع ابن شقيق فيتغنشتاين» لتوماس برنهارد، «مدرسة المستبدّين»

للكاتب إريش كستنر، «سن الأسد» لفولفغانغ بورشرت، «دون جوان يحكي عن نفسه» للكاتب النمساوي بيتر هاندكه (نوبل 2019)، و«شتيلر» لماكس فريش.

مكتبة
t.me/t_pdf

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

مكتبة
telegram @t_pdf

تصميم الغلاف نجاح طاهر

"لست شتيلر!"، يبدأ بطل الرواية كتابته بهذه العبارة، ويسوِّد سبع كرّاسات في سبيل إثبات أنه ليس ذاك الذي يصرّ الجميع أنه هو. فيعترف بجرائم قتل لم تُحلّ، ويحكي تفاصيل حياته السابقة في المكسيك وأميركا بين رعاة البقر وعمّال الرصيف، ولكن مع ذلك فإن زوجة "شتيلر" وأصدقاءه وشقيقه يتمسّكون برأيهم، فيما بطل الرواية يكتب ما يقولونه في كرّاساته ويعلّق عليه، وعلى حياة ذلك النحّات، وعلاقاته العاطفية والزوجية، وعن الفن والفنّانين وتقلّبات حياتهم.

تعتبر "شتيلر" إحدى الدرر الأدبية، ومن أهم الروايات المعاصرة المكتوبة بالألمانية. إنها رواية استثنائية عن الإنسان الحديث وعلاقته المتصدّعة مع الهوية، وعن صورة الذات لدى النفس ولدى الآخرين. وهي رواية مكتوبةٌ برهافة وبناء فني معقّد ومقنع وممتع في آن معاً، تُبرز المقدرة الفذّة للكاتب السويسري الشهير "ماكس فريش".

ISBN 978-9933-641-27-6
9 789933 641276 >
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع